

شعر الصَّعَالِيكِ منهجه وخصائصه

دكتور عبد الحليم حفي



المؤسسة المصرية للدراسات والبحوث

١٩٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
”رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي“

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ
قرآن کریم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

تيسيرا على ناقد هذا البحث ، في استيضاحه ما يراه غير واضح ، وفي وقوفه امام ما يراه غير قويم ، او غير واف من جوانب البحث ، ارى ان اخفف عنه بعض هذا الجهد ، وأن اصرف عنه بعض التردد والوقوف ، فقد يكون الباحث أقدر من غيره على ادراك ذلك كله في بحثه .

ولناقد هذا البحث أن يشق في صدق عوني له ، فأننى لا ارى بين باحث العلم وناقده خصومه ، بل على العكس ، ارى فيهما رفيقي جهاد واجتهاد ، في أنبل ميدان تعرفه البشرية ، لانه الميدان الذى يقود البشرية الى امام ، وسط معوقات عاتية عنيفة تشدها الى وراء . ولست ارى في باحث العلم وناقده الا جنديين ، يحاول كل منهما بما أتيح له من جهد ، أن يساهم في تقدم البشرية ، ولو قيد شعره ، أو يحميها من القهقري في أهون الفروض .

وليس على باحث العلم بأس في أن يعين ناقده على نقده ، بل إياه واجبا تفرضه أمانة العلم ، ويوجبه شرف الميدان نفسه ، أعنى ميدان العلم .

ولا يستطيع باحث العلم أن يزعم لنفسه ولا للناقد أنه أحاط بموضوعه علما ، وأنه سد منه كل ثغرة ، وانما يستطيع أن يقول : هذا جهدى واجتهادى ، لم أذكر منهما شيئا ، وليس يضير باحث العلم ألا يبلغ بجهد واجتهاده غاية الشوط ، فانه العليم الخبير قد وضع للعلماء شعارهم الأسمى في قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ووضع للعالم منهاجه الأقوم في قوله سبحانه « وقل رب زدنى علما » ، فلن يضير الباحث اذن الا يبلغ جهده واجتهاده غاية الشوط ، وانما يضره أن يدخر جهدا استطاعه ، وأن يقصر عن غاية كان يمكنه بلوغها ، واذا كان هذا يضير الباحث ، فان هناك أمرا يملؤه ضيرا من قمة رأسه الى أخمص قدميه وهو التفريط عن عمد ولو ذرة في أمانة العلم ، هذه الأمانة التى رسم النبى صلى الله عليه وسلم منهاجها للعلماء في قوله « رحم الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

ويخيل الى أن أول ما يتبادر الى ناقد البحث ، سؤال تقليدي ، هو
لماذا اخترت هذا الموضوع لبحثك ؟

وأفهم من هذا السؤال أن الناقد يشير بسؤاله الى بعض النواحي ، منها
أن موضوع الصعاليك وشعرهم ، لم تحدده البحوث ، بمعنى أن هذا الموضوع
لم تتوفر عليه جهود من الباحثين ، حتى تجعل منه موضوعا واضح المعلومات
غير الطريق ، كشأن غيره من الموضوعات التي أصبحت واضحة مجمعة الجوانب ،
ولكن موضوع الصعاليك وشعرهم لا زال متناثرا في شتات الكتب ، ومتفرقات
المراجع ، فالباحث فيه لن يجد كتباً عن الصعاليك ، ولا عن شعرهم ، كما
يجد في كثير من الموضوعات ، وإنما عليه أن يجمع كل المراجع العربية القديمة
ليجد خبرا عابرا في هذا الكتاب ، أو ترجمة لشاعر منهم في كتاب آخر ،
أو متناثرات من شعرهم ، وقد يتصفح الباحث كتابا كاملا فلا يجد فيه عنهم
شيئا ، وإن وجد قلن يجد سوى هذه المتفرقات ، ولا أعلم أحدا في القسديم
أفرد الصعاليك ببحث مستقل سوى السكري في كتاب اللصوص ، ولكن هذا
الكتاب لم يصل إلينا فيما نعلم ، وإنما نقل عنه بعض العلماء القدامى ، ومنهم
البيهقي في خزائن الأدب (١) ، كما لا أعلم أن أحدا في الحديث فعل ذلك سوى
الدكتور يوسف خليف في بحثه عن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي
فحسب ، وأغلب الظن أن تنائر موضوع البحث وصعوبته ، كانا أهم ما صرف
الباحثين عن الاتجاه إليه ، إثارا للعافية ، وتجنباً للخطأ في موضوع لم تتحدد
فيه البحوث ، ولم تتضح حوله الآراء والاتجاهات .

فأفهم من سؤال الناقد كأنه يشير الى هذه الصعوبة التي تكتنف موضوع
البحث ، وإلى هذه الظلال التي تعتم بعض جوانبه ، وكأنه يقول : هل وثقت من
بحثك في موضوع كهذا ، حتى تقدمه في رسالة علمية ؟

وأقول له : إن هذه الصعوبة وهذه الظلال ، لم يكن أحدهما مفاجئا لي
أو غريبا علي . بل لعلهما كانا أهم ما دفعني الى اختيار الموضوع ، فأنني أرى
أنه من العبث أن يبذل الباحث جهده في موضوع فرغ منه الباحثون أو كادوا ،
وأنه من العبث أن يترك الباحث موضوعا يمكن أن يأتي فيه بجديد من الجهد
والموضوع في حاجة الى هذا الجهد ، وإلى هذا الجديد ، الى موضوع يرى حوله
كثيرا من الجهود . ويرى فيه كثيرا من التجديد الذي يستنفد جوانب الموضوع
أو يوشك .

وكون البحث رسالة علمية لا أرى أنه يغير من الأمر شيئا ، فالمفروض في
كل بحث أن يكون علميا ، وكل ما يمكن أن تضيفه صفة الرسالة العلمية

(١) انظر للشال ١٩/٢ - ٢٢ .

هو اقتضاؤها مزيدا من الجهد ولعل هذا أيضا ما حفزنى الى اختيار صعوبة هذا الموضوع ، مقدرا أن حاجة الرسالة العلمية الى مزيد من الجهد أنسب ما تكون لموضوع هو فى حاجة الى مزيد من الجهد ، كموضوع الصعاليك وشعرهم :

وبالنسبة لفاظمة موضوع البحث ، يخيل الى أن الناقد يستنتج من عموم عنوان البحث أن يسأل السؤال التالى :

لماذا لم نحدد زمنا معيناً لموضوع البحث ؟

وأفهم من سؤال الناقد كان ينبغي تحديد عصر معين لموضوع البحث كالعصر الجاهلى ، أو الاسلامى ، أو نحو ذلك من التحديد الزمنى الذى يعين على حصر البحث وشموله ، والذى يؤلف عادة فى الرسائل العلمية .

وأجيب عن ذلك بأننى التزمت هذا التحديد فى البحث كله ، سواء فى الحديث عن الشعراء الصعاليك ، أو شعرهم ، فقد ميزت الشعراء الجاهليين منهم عن المخضرمين ، وعن الاسلاميين ، كما فعلت ذلك بالنسبة للمخضرمين وللإسلاميين ، حسب ما أتاحت لى الروايات والأخبار ، والروايات والأخبار فى هذا الموضع غير غامضة ولا ملتوية فى جملتها ، وإن لم تخل من ذلك فى تفاصيلها ، فالذى لا تنص الرواية صراحة على أنه جاهلى أو مخضرم أو اسلامى ، تسوق من أخباره ، أو من مضمون شعره ما يكشف عن الظروف المحيطة به فى صلاته وبيئته ، فتعلم من أى عصر هو ، فإن لم تفعل الرواية هذا ولا ذاك ، وجدنا فى رواية أخرى ما يسد ثغرات الرواية الأولى ، وكذلك الأمر فى شعرهم ، فبالإضافة الى التزامى فى الاستشهاد والتمثيل نسبة كل شعر الى صاحبه ، مما تعلم منه من أى عصر هو بالإضافة الى ذلك كان التفريق الأساسى فى الموضوعات ، وفى الخصائص ، فقد أشرت خلال الحديث عن الموضوعات التى طرقها شعرهم ، الى الموضوعات التى خلا منها شعرهم فى عصر من العصور ، أو التى انفرد بالحديث فيها شعر عصر آخر ، وكذلك فى الحديث عن الخصائص ، راعيت الحديث عن الخصائص التى يتسم بها شعر الصعاليك كله فى سائر عصوره ، والتى تميزه عن شعر غير الصعاليك ، وراعت الحديث عن الخصائص التى انفرد بها شعر الصعاليك الجاهليين ، مشيراً الى انفرادهم فى بعض المواضع عن شعر صعاليك الاسلام خاصة ، أو عن غيرهم عامة من الشعراء سواء أكانوا صعاليك أم لم يكونوا ، وكذلك فعلت فى تمييز خصائص شعر صعاليك الاسلام عن غيرهم على النهج السابق ، والخضرة ليست فترة زمنية حتى تجعل لها خصائص مستقلة ، بمعنى أنه لم تكن بين الجاهلية والاسلام فترة زمنية ، بالنسبة للمنتقلين بعقيدتهم من الجاهلية الى الاسلام ف شعر الصعاليك اذن اما جاهلى ، واما اسلامى ، وليست بينهما مرحلة ثالثة

بالنسبة للمخضرمين ، الا فى تقتطين متقاربتين فى المضمون ، هما أثر الاسلام فى شعر المخضرم ، وأثر الاسلام من الناحية الدينية الروحية فى عصر المخضرمين ، وقد اشرت الى هاتين النقتطين ، فى فصلى صراع السلطة ، وخصائص شعر صعاليك الاسلام فى مقارنته بشعر صعاليك الجاهلية .

وحتى فى الحديث عن بيئة الصعلكة ونشأتها واسبابها ، فرقت بين عصرى الجاهلية والاسلام ، فى مقتضيات كل منهما بالنسبة للصعلكة .

ولكننى لم أوضح هذا التفريق بين العصور ، أو شمول البحث لها فى العنوان لأننى لا أبحث عصرا واحدا أو عصرين مثلا ، حتى أحدد ذلك ، وانما أبحث شعرا لصعاليك كله ، أعنى ما وصل اليه فى كل العصور ، وقد كان العنوان واقيا فى الدلالة على هذا المعنى من حيث شموله لشعر الصعاليك مجملا ، اما التفصيل فمن شأن البحث ، وليس من شأن العنوان .

ولكن هذا السياق فيما أظن قد يجز الناقد الى سؤال اهم من السؤال السابق ، وهو : كيف يسوغ جمع شعر مختلف العصور والبيئات ، لبحثه فى موضوع واحد ، أو لوضعه فى بحث واحد ؟

وأقول له : قد يبدو غريبا حقا جمع شعر لشعراء من قبائل وبيئات كثيرة مختلفة ، ومن عصور كثيرة ومختلفة أيضا ، والمالوف فى البحوث العلمية الادبية بحث نوع واحد من الأدب ، أو أدب واحد ، لبيان ما فيه خصائص ، أو مدى تأثير الظروف المختلفة فيها ، أو بحث نوعين من الأدب ، للمقارنة بين ما يحملان من خصائص ، ولكن شعر الصعاليك متعدد البيئات ، ومتعدد الشعراء ، ومتعدد الصور ، وهذا موضع الغرابة التى قد تبدو من بحثه على هذه الصورة .

ولكننا لا نجد لهذه الغرابة موقعا حين نعلم أن شعر الصعاليك يعتبر وليد بيئة واحدة ، لا نعنى بها تشابه طبيعة شبه الجزيرة ، وانما نعنى أن شعر الصعاليك فى جملته تابع من حياتهم فى الصعلكة ، وحياتهم فى الصعلكة كانت دائما تختار أماكن معينة ، يكاد الصعاليك على اختلاف عصورهم لا يختلفون فى صفات هذه الأماكن وصورتها ، لأن أماكن معينة هى التى تصلح لمزاولة الصعلكة ، هى الجبال وصحراواتها ، فى الصورة التى صورها شعرهم ، ومن هذا نعلم أن بيئتهم واحدة ، لا تختلف من يدو الى حضر ، ولا من ريف الى مدن ، ولا من خصب الى جرد ، ولا غير ذلك مما يؤلف تأثيره فى شعر الشاعر ويختلف به شعر شاعر عن غيره ، فشعرهم كله وليد بيئة واحدة ، هى الجبال والصحراوات بل وليد جبال معينة ، وصحراوات معينة ، تتيح لهم مزاولة مهنتهم ، كما وصفوها فيما سياتى من البحث ، وكذلك بالنسبة للعصور ، فمع أن منهم شعراء فى الجاهلية ، وشعراء فى صدر الاسلام ، وشعراء فى عصر بنى أمية ، وشعراء فى العصر العباسى ، الا أن هذه العصور وإن كانت ذات تأثير كبير فى

شعر غيرهم ، فهي غير ذات تأثير بين في شعرهم ، لأن تأثير هذه العصور ليس من حيث أنها أزمنة ، فالزمن لذاته ليس مؤثرا ، ولكن من حيث المجتمعات التي صاحبت هذه العصور ، بمعنى أن مجتمع العصر العباسي مثلا ، يختلف في حضارته وظروفه المختلفة عن مجتمع العصر الأموي ، وعن مجتمع العصر الجاهلي وهكذا نجد الاختلاف في حقيقته بين المجتمعات ، وليس بين العصور .

والصعاليك بحكم حياتهم في الصحراوات والجيال ، وبحكم عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمعات ، لم يتأثروا كثيرا باختلاف المجتمعات وظروفها ، الا من شذ منهم وقد أشرت اليه في البحث ، أما سائر الصعاليك ، فقد جمعتهم على اختلاف أزمانهم وأماكنهم ، بيئة واحدة ، ونفسية واحدة ، وحياة واحدة ، وأهداف واحدة ، وقد لا يكون بينهم من الاختلاف ما يكون في حياة الشخص الواحد من تقلب الأحوال النفسية والمعيشية به ، وقد لا يكون بين شعرهم كله - من حيث اختلاف الروح - ما يكون في شعر شاعر واحد .

وكل ما في شعر الصعاليك من فواصل ، هو ما بين الشعر الاسلامي والجاهلي لهم ، فالاسلام هو الشيء الوحيد الذي استطاع أن يترك في شعرهم أثرا ، ولذلك جعلته فاصلا في المقارنة بين شعرهم الجاهلي والاسلامي ، على أن تأثير الاسلام في شعرهم لم يكن كاملا ، فقد أثر الاسلام من الناحية الروحية فيهم ، فظهر في شعرهم جانب التوبة وجوانب أخرى محددة بسطت حديثها في البحث ، وأهمها روحى أيضا ، وهو الشعور بالذنب ، أما التغيرات الاجتماعية التي أضفاها الاسلام على المجتمع ، فلم يكن تأثيرها في الصعاليك كبيرا ولا بينا .

ومن حيث انه لم يكن في شعر الصعاليك من فواصل تؤثر فيه الا الاسلام ، لذلك لم أجعل غيره فاصلا في الحديث عن شعرهم ، فاختلاف العصور ، من أموى الى عباسى الى غير ذلك ، لم يكن له كما قلت تأثير بين في شعورهم .

والخص للنقاد هذه الاجابة ، بأن شعر الصعاليك من حيث البيئة يعتبر نوعا واحدا ، لا يحتاج بحثه الا الى بيان انعكاس هذه البيئة فيه ، وقد تحدثت عن ذلك وعلى الأخص في فصلى شعر الطبيعة ، وخصائص شعر صعاليك الجاهلية ومن حيث العصور ، يعتبر شعر عصرين ، هما الجاهلية والاسلام ، وقد بينت أثر كل منهما فيه ، مقارنا بينهما ، فى مواضع معنونة بلفظى الجاهلية والاسلام ، وخاصة فى فصلى الصعلكة فى الجاهلية ، والصعلكة فى الاسلام ، وفصلى خصائص شعر الجاهليين ، وخصائص شعر الاسلاميين .

وفيما يتعلق بالاستشهاد بالشعر ، قد يسألنى الناقد : لم أكثر من الاستشهاد بشعرهم فى بعض المواضع ، وقللت منه فى بعض آخر ؟

فأقول له : إن البحث في هذا كان نوعين ، نوعا يقتضى حشد أكبر عدد ممكن من الأمثلة ، للدلالة على شيوع هذا المعنى فى شعرهم ، وأهم ما يتمثل فيه هذا النوع ، الموضوعات ، فحين أقول مثلا أنه يشيع فى شعرهم الحديث عن الفقر ، فلا يبرز هذا الشيوع مثال أو مثالان ، وإنما يبرزه عدد كبير من الأمثلة لشعراء عديدين ، حتى يبدو فعلا أن حديث الفقر شائع فى شعرهم ، وهكذا بقية الموضوعات .

والنوع الآخر هو بقية المعانى التى يكتفى فى التدليل عليها بالمحدود من الأمثلة ، وغاية ما يلزم فى هذا النوع التمثيل لأكثر من شاعر ، أو للجاهلية والاسلام إن كان المقام يدعو أو يدعى اشتراك العصرين فى موضوع الحديث .

وأستبعد أن يكون الناقد قد عنى فيما عنى أننى لم أستشهد كثيرا بشعر غير الصعاليك ، للمقارنة بين شعر الصعاليك وهذا الغير ، أستبعد ذلك لأن موضوع البحث ليس مقارنة مباشرة بين شعر الصعاليك وغيرهم ، وإنما بيان منهج شعر الصعاليك ، والخصائص والسمات الغالبة عليه ، فهو بحث موضوعى ذاتى ، وليس بحث مقارنة ، لذلك لم يكن هناك ما يدعو الى كثرة الاستشهاد بشعر غيرهم ، إلا فيما يوجبه سياق معين ، وقد فعلت ذلك ، كما فى الحديث عن التصريح فى مطلع شعرهم ، فإن الحكم على شعر الصعاليك من حيث تصريح المطلع ، يستوجب أن نرى تقاليد غيرهم من الشعراء فى مدى التزامهم التصريح ، لنعلم حينئذ ، هل كان عدم التزام الصعاليك للتصريح أسلوبا خاصا بهم ، أم جريا على شيء مألوف ؟

وهناك سؤال لا أظن أنه يفوت الناقد ، وهو : كيف منهجك فى المراجع ؟ فأقول له : إن « شعر الصعاليك » الذى هو موضوع البحث ليس له قط - فيما أعلم - مراجع محددة مستقلة ، وإنما هى بعض البحوث المعدودة فى بعض جوائب محدودة ، معظمها فى صورة فصل موجز من كتاب ، أو ترجمة لبضعة شعراء من مشهورى الصعاليك كالششغرى وتابط شرا والسليك بن السليكة ، وقد أشرت الى أهمها فى مصادر شعرهم ، وذلك باستثناء البحث الذى أشرت أنفا اليه (١) وهو جزء من الموضوع ، وحول موضوع هذا البحث ، وليس فى صلبه ، ولا أظننى استفدت منه غير الارشاد الى بعض المراجع ، على أننى أعتقد أن أهم مرشد الى المراجع ، لبشى وللبحث المذكور ، هو تاريخ الأدب العربى (٢) ، وذلك فى سياق حديثه عن ثلاثة من شعراء الصعاليك هم تابط شرا والششغرى وعروة بن الورد ، ولكنه فى هذا السياق ذكر أهم المراجع التى ورد فيها ما يتعلق بهؤلاء ، سواء فى المراجع القديمة أو البحوث الحديثة ، بل

(١) بحث الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى للدكتور يوسف خليف .

(٢) للمستشرق كارل بروكلمان وقد ترجمه الى العربية الأستاذ النجار .

كاد يستقصيها ، ان كنت أملك هذا التعبير ، ولكنى أعتقد أن منهجه فى المراجع خير نواة لأى بحث عن الصعاليك وشعرهم .

وأقول « نواة » لان المراجع مهما تعددت ، فليس فيها بحث عن الصعاليك وشعرهم ، وإنما فيها نصوص متناثرة ، متفرقة أشد التفرق . يستطيع الباحث مع ذلك بجهد أن يكون منها مادة لبحث علمي .

وأتصور الناقد يقطع على حديثى ليقول : ولكنك لم تستوعب كل المراجع القديمة التى يمكن أن يكون فيها شيء من شعر الصعاليك ، فأذكر الناقد بما قلت فى بدء هذه المناقشة . من أنه لا يظن أن مرجعا من المراجع القديمة يخلو من شعر الصعاليك ، ومع ذلك فقليل منها يحوى من شعرهم قدرا مفيدا ، أما الكثير فبعضه يردد متناثرات مكررة فى مراجع أخرى ، وبعضه لا يحوى من شعرهم شيئا ذا غناء ، وعلى سبيل المثال ، فإن يتيمة الدهر للشعالبى بأجزائها الأربعة لا تحوى سوى بضعة أبيات من شعرهم ، قد لا تبلغ الخمسة ، متفرقة غبير مجتمعة (١) ، وزهر الآداب للمصرى كذلك ، مع اختلاف فى نسبة بعض هذا البضع ، ومع لبس فى بعضه الآخر ، كاللبس الذى لم يوضح بين صخر الهذلى وأبى صخر الهذلى (٢) والأول صعلوك جاهل سيأتى حديثه ، الثانى اسلامى أموى غير صعلوك وهذان المرجعان مثال لما يعانى به الباحث عن شعر الصعاليك من جهد فى بعض المراجع ثم يخرج منها بغير طائل ، فضلا عن هذا الجهد فى غير طائل بالنسبة لبعض المراجع ، فأنى أظن أن استقصاء كل ما فى المراجع للقديمة على اختلاف أنواعها ، فوق طاقة أى باحث .

ولكن الذى عنانى ، والذي أعتقد أنه وفى بحاجة البحث ، هو جمع أكبر قدر ممكن من شعرهم ، مراعى فيه تمثيله لأكبر عدد من شعرائهم ، ومن موضوعات شعرهم ، ولكل النواحي التى يعنى البحث بدراستها وإبرازها .

وكما بدأ الناقد حديثه بسؤال تقليدى ، فأننى أتوقع أن يختمه أيضا بسؤال تقليدى ، هو : على أى أساس رتبت أبواب بحثك ؟

وأجيبه بأن الشعر فى حقيقته هو مشاعر صاحبه نحو غيره ، أيا كان هذا الغير أعنى سواء كان هذا الغير من نوع الناس ، أم من نوع البيئة ومشاهدتها ومخلوقاتهما ، أم من أى نوع آخر ، بل حياة الشاعر نفسه وما يعانى فيها ، وشخصه هو بذاته وأحاسيسه يعتبرهما الشاعر من أهداف شعره ، مبينا مشاعره نحوهما ، وأصل هذا المعنى قرره ابن رشيق فى قوله « وإنما سمي

(١) أنظر للمثال ج ٤ ص ١٢٣ .

(٢) أنظر للمثال زمر الآداب (هامش المقد الفريد) ص ٢٩٨ .

(٣) أنظر خزائن الأدب للبغدادي ٣٧٧/٢ وحساسة ابن تمام ١٢٠/١ .

الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، (١) ، والبغدادى فى قوله « وسمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر لما لا يشعر له غيره » (٢) ، ومعنى ذلك أن الشعر ليس الا تعبيرا عن مشاعر صاحبه نحو موضوع الشعر ، وهذا المعنى يجانب أخرى متصلة به لم يعد موضع خلاف بين النقاد ، وحيث كان الشعر تعبيرا عما حوله ، لزم أن تلقى ضوءا على هذا الذى هو حوله من البيئة والظروف، لنرى مدى تأثير ما حوله فيه ، ومدى تعبيره عما حوله ، وشعراء البحث هم الصعاليك ، وهم طائفة من الناس لم يجمعهم نسب ولا مكان ولا زمان ، وإنما جمعتهم وحدة الظروف ، ووحدة الوسيلة لمقاومة هذه الظروف ، وهذا الذى جمعهم أو اجتمعوا فيه نسميه الصعلكة ، واذن فقد كانت موضوعات البحث فى جوهرها وتلخيصها ، هى شعر الصعاليك من حيث مدى تأثير الظروف المحيطة به فيه ، ومن حيث تصويره لهذه الظروف وتعبيره عنها ، مع مراعاة أن كل الظروف المحيطة بهذا الشعر كانت تدور حول حياة الصعلكة ، نتيجة لتفرغ الصعاليك لهذه الحياة ، واعتزالهم بها عن المجتمعات ، وقد تمثل هذا فى الموضوعات وفى الخصائص ، وقد اقتضى الحديث عن شعر الصعاليك ، بيان الظروف التى أحاطت به ، وقد تمثل هذا فى نشأة الصعلكة وأسبابها فى الجاهلية والاسلام ، وقبل ذلك كله لزم أن نعرف طبيعة الصعلكة نفسها ، وقد تمثل هذا فى البحث اللغوى والاجتماعى عن مدلول الصعلكة ، وقد كان ترتيب هذه الموضوعات فى البحث كما يلى :

١ - المفروض قبل أى حديث عن الصعاليك وشعرهم أن نعرف حقيقة الصعلكة والظروف والأسباب التى سمحت بنشأتها ، وأن نلم بصورة مهما تكن موجزة فينبغى أن تكون كافية لاتارة البيئة التى عاش فيها الصعاليك ، والحياة التى أحاطت بهم ، لأن شعرهم لن يكون - كأي شعر آخر - الا تعبيرا وتصويرا لهذه الحياة والبيئة ، وقد جعلت هذا الموضوع الباب الأول لابناء البحث كله على فهم الصعلكة . وعلى تأثير بقية الباب فى موضوعه الذى هو شعر الصعاليك .

٢ - قبل الحديث عن شعر أى شاعر يقتضى الوضع أن نعرف من هذا الشاعر ؟ وما صفاته وما مميزاته أن كان له ميزات ؟ لأن شعره ثمرة مشاعره وعقله ، وهو حكم عليهما أيضا ، لذلك جعلت الحديث عن الشعراء الصعاليك الباب الثانى ، وراعى فيه الاقتصار فى ترجمة كل شاعر على ما يحدد شخصيته ويميزها عن غيرها ، مبينا زمنه من حيث الجاهلية أو الخضمة أو الاسلام ، وراعى أيضا أن العدد الذى ترجمت له ، والذى جعلت شعره موضوع البحث

(١) انظر المجلد ١/ ١١٦ .

(٢) خزائن الأديب ١/ ١٨٤ الشاعر ٣٨ .

بحيث يكون عددا كافيا في تمثيل صعاليك العصر الذي ينتمى اليه ، وقد بلغ عدد الذين ترجمت لهم من فترات الجاهلية والخضرة والاسلام ثلاثين شاعرا ، كل شعراء فترة على حدة ، وذكرت عددا آخر مشيرا الى بعض مراجع اخباره ، لمن اراد أن يطلب المزيد من تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم .

٣ - وبعد ذلك كان من الطبيعي الحديث عن شعر هؤلاء الشعراء على ضوء ماسبقه من حديث صعلكتهم وبيئتها وظروفها ، فجعلته الباب الثالث ، وقد بينت فيه مصادره ، والاختلاف الذي وقع فيه ، ثم ركزت الحديث على صلب البحث ، وهو منهج شعرهم واتجاهاته الموضوعية ، وقد بدا منه أن شعرهم صورة من حياتهم في الصعلكة بكل ما في هذه الحياة من الآم الفقر وآثاره ، والهموم والشعور بالمطاردة ونحوهم ، وبكل ما فيها من حاجة الى أسلحة حسية وأسلحة نفسية ، وقد جعلت ذلك في فصول محددة ، رتبته حسب ما يقتضيه منطق حياة الصعلوك ، مشيرا الى هذا المنطق حينذاك ، وبالطبع لا تخلو حياة انسان من اجتماعيات ، وقد صور الشعراء الصعاليك اجتماعياتهم في شعرهم ، فتحدثت عن ذلك ، مبينا منهجهم في هذا النحو أيضا ، وقد كان منهجهم فيه حول حياة الصعلكة ومقتضياتها أيضا .

٤ - والنتيجة المنطقية لكل ما سبق أن نرى هل كان شعرهم من الأصالة والشاعرية الصادقة بحيث يمثل حياتهم هذه المنفردة المتميزة عن غيرها في كل شيء ؟ فجعلت هذا الحديث بابا رابعا وأخيرا ، لبيان الخصائص والسمات التي يتسم بها شعرهم في جملته ، والتي تبدو مميزة له عن غيره ، ولما كان الاسلام كما قلت هو الفاصل الوحيد الذي أثر وخاصة الجانب الروحي منه في شعر الصعاليك ، لذلك بينت هذا التأثير في مقارنة بين شعر الجاهليين والاسلاميين منهم . وبعد هذا فلسنت أزعم للناقد أن هذا البحث قد أغلق الباب على الباحثين في الصعاليك وشعرهم ، بل على العكس أرجو أن يكون هذا البحث فتحا للباب أمامهم ، وليس غلقا له ، فإن في أشخاص الصعاليك من الصفات المتميزة ، ومن المواهب النفسية والجسدية ، ومن الفضائل أيضا ما يدعو حتى الباحثين فيهم ، الى معاودة البحث في شأنهم مرة أخرى .

ولست أشك في أن الدارس للصعاليك وشعرهم يخرج من دراسته هذه ، بصورة تختلف اختلافا لا يكن كاملا فهو غير يسير عن الصورة التي كانت مرتسمة في ذهنه وذهن كثير غيره عنهم ، وما أظن هذا الدارس الا منتهيا الى أسف غير ضعيف على طائفة جنت عليها بيئتها ، وجنى عليها مجتمعها ، حيث دفعها أو ساهمها بأكبر قسط في دفعها الى الشر دفعا ، ثم طمسا ما فيها من خير وفضل بإغلاق السبل في وجهه أو تحويله الى شرور عاتية .

وما أظن هذا الدارس الا موافقا لي على أن هذه الطائفة لو أتيح لها مجتمع

غير مجتمعها لكان لكثير من أفرادها شأن غير هذا الشأن ، ويكفى أن منهم من لو أقصفه الناس لعدوه من رواد الاشتراكية في التاريخ كله ، كمروة بن الورد ، ويكفى أيضا في خلقهم أنهم جميعا كانوا أعف الشعراء لسانا ، سواء حين يرضون وحين يستظنون .

وما أظن هذا الدارس أيضا إلا موافقا لي على ما هو أهم من ذلك لموضوع البحث ، وهو أن شعر الصماليك إلا يكن جيدا رائعا كله ، فإن كثيرا منه ، وخاصة كثيرا من جاهليه يسمو الى قمة في جودة الشعرية والتصوير تنافس أسى ما وصل اليه الشعر العربي ان لم تجاوزه في بعض الأحيان ، كما في لامية العرب ، وبعض شعر الهذليين ، وإن هذا الشعر ان يره البعض متخلفا بعض الشيء في بعض النواحي غير الموضوعية كعلم وفائه بكل الأغراض التي طرقها الشعر العربي ، فقد تقدم على غيره في نواح أخرى كان فيها أتم من فضج غيره ، كالأسلوب القصصى ، والتمثيل الواقعى لحياة أصحابه وأشخاصهم وفى ختام هذا الحديث أقول : مع أن في المحاوراة السابقة فيما أظن عونا حقيقيا وصادقا للناقد ، إلا أن من الحق ومن أمانة العلم التى تحدثت عنها أن أقول : أنه لم يكن في ذهنى فاقد حقا حين لجأت الى هذه المحاوراة ، ولكنى وجدتني أضيق بجفاف كثير من المقدمات ، فاشفقت على قارئ هذه المقدمة أن يحس نحوها بالضيق الذى أحسه نحو كثير من المقدمات ، فلجأت الى هذه المحاوراة ، راجيا أن تخفف بعض ما قد يكون فيها من جفاف ، وقبل ذلك كله ، وبعدة أيضا ، أسأل الله جل علمه التوفيق .

د • عبد الحليم حنفى

الباب الأول

الصَّلَاةُ

١ - الصعلكة فى اللغة

قال القاموس المحيط « صعلكه أفقره » . . والصعلوك الفقير ،
وتصعلكت الابل طرحت أوبارها ، وعروة الصعاليك هو ابن الورد ، لأنه كان
يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم منها يفتنه ، وصعلك الثريدة اذا جعل لها
رأسا ، والصعلك من الأسنمة الذى كانما حدرجت أعلاه حدرجة ، وقال
الأصمعى فى قول أبى دؤاد يصف خيلا :

قد تصعلكن فى الربيع وقرع جلد الفرائض الأقدام .

قال تصعلكن دققن وطار عفاؤها عنها ، والفريضة موضع قدم الفارس ،
. . . وصعلك البقل الابل أى سمئها . . . »

وفى هذا نرى أن المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر ، وأنها فى استعمالاتها
الأخرى تدور أيضا حول الفقر ، أما بمعناه المباشر وهو التجرد ، فإن الفقر
فى الانسان هو التجرد من الغنى ، وكذلك التصعلك فى الابل بالتجرد من
أوبارها وصعلكة الثريدة تجريدتها من الضخامة ، وهكذا ، وأما بآثاره
كالضمور والهزال مثل تصعلك الأسنمة باستدارتها وضمورها بالنسبة
للأسنمة الأخرى المتبعجة والضخمة ومن هذا تصعلك الخيل فى الربيع فى
البيت السابق ، كما أشار الأصمعى الى ذلك فى شرحه للبيت السابق بقوله
« دققن ، وطار عفاؤها عنها » وأما كون تصعلكها فى الربيع فقد يكون
ذلك لأن الشاعر أراد إجهاد الخيل وإرهاقها بركوبها والتنقل بها وراء الرزق
الذى يرجى نموه فى الربيع ، ويؤيد ذلك قوله « قرع جلد الفرائض الأقدام »
والفريضة موضع قدم الفارس ، أى أن جلود الخيل من كثرة احتكاك الأقدام
بها فى الركوب ، وحثها على السرعة ، قد تقرعت .

فيمكن إذن رد كل هذه الاستعمالات الى معنى الفقر أو آثاره من ضمور

وهزال ونحو ذلك ، ولا يصطلم بهذا مثل قوله « وصعلك البقل الأبل أي سمنها » ومع ذلك يمكن حمله على آثار الفقر أيضا ، فقد يراد أن الأبل حين تسمن تسلك مسلك الصعاليك - بالمعنى العرفي للصعلكة - من النفور والشروء والهياج ، والصعلكة بهذا العرف تعتبر في أهم جوانبها أثرا من آثار الفقر .

وقال في لسان العرب « الصعلوك الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري ولا اعتماد ، وتصعلك الرجل إذا كان كذلك ، قال حاتم :

غنيما زمانا بالتصعلك والفنى فكلما سقناه بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزدى بأحساننا الفقر

وتصعلكت الأبل خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها ، ورجل مصعلك الرأس مدوره ورجل مصعلك الرأس صغيره ، وقال شمر : المصعلك من الأسنة الذي كأنما حدرجت أعلاه حدرجة كأنما صعلكت أسفله بيدك ثم مطلتها صعدا أي رفعته على تلك الدملكة والاستدارة ، قال الأصمعي يصف خيلا :

قد تصعلكن في الربيع وقرع جلد الفرائض الأقدام

قال : تصعلكن دققن وطار عفاؤها (١) عنها .

ومن هذا نرى أن صاحبى اللسان والقاموس متفقان على أن المعنى الأصلي للصعلكة هو الفقر ، وأن استعمالاتها تدور أيضا حول التجرد الذي هو معنى الفقر أو أثر من آثاره ، وأن صاحب اللسان تقدم عن المعنى اللغوي للصعلكة خطوة نحو المعنى العرفي لها بقوله « وزاد الأزهري ولا اعتماد » فان قوله « ولا اعتماد » يعبر عن معنى دقيق في مفهوم الصعلكة بالمعنى المعروف لها ، وإذا كان الفقر من أهم الدوافع إلى الصعلكة ، فإن ما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء أنهم رفضوا أن يعيشوا عائلة على غيرهم أو أن يجعلوا من أحد من الناس عمادا لهم ، في حين رضى بعض الفقراء لأنفسهم عيش الذل ، واستدراج الحسنة ، ويعبر أحد الصعاليك وهو بكر بن النطاح عن هذا المعنى فيقول :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسال (٢)

وأما الجوهري فيقول في الصحاح عن الصعلكة الصعلوك الفقير
وصعاليك العرب ذوبانها ، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغمه ، والتصعلك الفقر ، قال الشاعر .

(١) الفاء بكسر العين قال في القاموس هو الشعر الطويل الواثى .

(٢) حسامة أبي تمام ج ٣ ص ٩٣ .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى .

أى عشنا زمانا ، ويقال تصعلكت الإبل إذا طرحت أوبارها . وبهذا نجد أن الصحاح يتفق مع لسان العرب والقاموس المحيط (١) فى أن المعنى الأصلي هو الفقر ، وأن استعمالها تدور أيضا حول التجرد .

ولكننا نلاحظ أن الصحاح بقوله « وذؤبانها » قد تقدم نحو المدلول العرفى للصعلكة خطوة كانت أوسع من خطوة اللسان ، فقد أشار بذلك إلى أن الصعلكة تستعمل فيما تستعمل فيه كلمة « ذؤبان » وحين نذهب إليه اعنى الصحاح ، فى شرحه لكلمة « ذؤبان » نراه يقول « وذؤبان العرب أيضا صعليكها الذين يتلصصون » ، فقد صرح اذن فى شرحه لكلمة « ذؤبان » أن الذؤبان هم الصعلاليك ، وأن الصعلاليك ليسوا مجرد الفقراء ، وإنما يتلصصون ، فى حين أنه لم يذكر هذا المعنى صراحة فى شرحه للفظ الصعلكة .

ومن العجيب أن المعاجم الأخرى شاركت الصحاح أيضا فى أنها كانت أكثر توضيحا لمدلول الصعلكة الاجتماعى أو العرفى عند شرحها لمادة « ذاب » أما فى مادة الصعلكة نفسها فقد اكتفت بالتركيز على معنى الفقر والاستعمالات التى تدور حوله وحول آثاره ولوازمه .

وكذلك فعلت معظم كتب الأدب واللغة ، فمع أننا نجدما تسوق أخبار الصعلاليك على أنهم قطاع طرق أو فتاك أو لصصوص نجدهم عندما يتعرضون لشرح كلمة صعلوك لا يكادون يتعدون الفقر أو التجرد من المال كما فعل المبرد (٢) والقالى (٣) ، وقليل من هذه الكتب ما يتحدث عن المعنى العرفى للصعلكة ، كما ورد فى جمهرة أشعار العرب حيث يقول « الصعلوك الفقير » وهو أيضا المتجرد للغارات ، (٤) وهو - فيما نعلم - أكمل تعريف أوردته الكتب لمعنى الصعلوك أو لشرح الصعلكة أما الكتب الأخرى فلا نملك إلا أن نسجل عليها شيئا من قصور فى شرحها للصعلكة ، وكذلك دوائر المعارف التى أخذت عنها (٥) .

حيث اكتفى معظمها باعتبار أن الصعلكة هى الفقر أو التجرد من المال (٦) وأورد بعضها زيادات وإن كانت تشير إلى المدلول العرفى (٧) ، إلا أنها لا تصرح

(١) مع مراعاة أن القاموس متأخر عن الصحاح وأخذ عنه كما فى خطبة القاموس .

(٢) الكامل ج ١ ص ٣١٠ .

(٣) الأمالى ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١١٥ .

(٥) مثل دائرة معارف القرن العشرين .

(٦) كما فى القاموس مادة (صعلك) والكامل ج ١ ص ٣١٠ والأمالى ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٧) كما زاد فى اللسان (ولا اعتماد) وفى الصحاح (وصعليك العرب ذؤبانها) وكلامها

فى مادة (صعلك) .

به . مع انها جميعا تتفق ولكن فى مواضع أخرى غير موضع لفظ الصعلكة ، على ان الصعلوك ليس هو مجرد الفقير ، فكتب اللغة (١) تشرح الصعلكة على انها للصوصية والتذؤب ولكن فى مادة أخرى - كما سيأتى - هى مادة ذاب ، وكان أولى بها أن تسوق ذلك فى مادة الصعلكة نفسها .

وكتب التراجم واللغة والأدب تصف أشخاصا بأنهم صعاليك ، وتسوق أخبار صعلدتهم على أنها لصوصية وغارات وفتك ونحو ذلك ولكن معظمها حين يشرح لفظ الصعلكة يعرفها أيضا بأنها الفقر والتجرد من المال (٢) دون أن يعرض لمدلولها العرفى الذى يتحدث عن الصعاليك به .

٢ - الصعلكة والألفاظ أخرى :

والواقع أن هناك ألفاظا أخرى تشارك الصعلكة فى مدلولها ، ولا يسع البحث فى هذا الموضوع أن يتجاهلها ، لأن فى تجاهلها اخلاا بجوانب من الموضوع نفسه ، وذلك أن موضوع البحث لا تعنيه الصعلكة بمدلولها اللغوى وهو الفقر ، وانما يعنيه مدلولها العرفى ، وهو للصوصية وقطع الطريق ، وباقى أساليبهم العدوانية ، وهذا المدلول تؤديه أو تؤدى بعضه ألفاظ أخرى تعارفت كتب التاريخ والأدب العربى أن تصنف بها هذه الطائفة التى نحن بطلدها ، دون تحديد فاصل بينها ، بحيث نجد بعضها يتداخل فيؤدى معنى البعض الآخر ، كما فعلت معاجم اللغة فى إحالتها معنى التصعلك على التذؤب واللصوصية .

وهذه الألفاظ كثيرة ، وأشهرها ، لص ، وذؤب ، وفاتك ، وخليع ، وشيطان وشاطر ، وبعض هذه الألفاظ الصق بالصعلكة من بعض .

ومن الواضح أن أقرب هذه الألفاظ الى المدلول العرفى للصعلكة هو اللص ، وذلك بحكم وضعه اللغوى ، وبحكم استعماله .

وقد لقيت كلمة « ذؤبان » اهتماما فى توضيح مدلولها العرفى أكثر من الاهتمام بغيرها ، ففى القاموس المحيط « ذؤبان العرب لصوصهم وصعايلكهم » وفى الصحاح « وذؤبان العرب أيضا صعايلكها الذين يتلصصون » وفى أساس البلاغة « من ذؤبان العرب : من صعايلكهم وشطارهم » وفى لسان العرب « يقال لصعايلك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب ، وذؤبان العرب لصوصهم وصعايلكهم الذين يتلصصون ويتصعلكون » (٣) وهكذا تتفق كتب اللغة مع الروايات

(١) كالصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط ، أنظر فيها مادة (صعلك) ومادة (ذاب)

(٢) أنظر على سبيل المثال الكامل للبردة ج ١ ص ٣١٠ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام

ج ١ ص ١٥٩ والأمال للقال ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) أنظر مادة (ذاب) فى الكتب السابقة .

الأدبية والأخبار على وصف الصعاليك بأنهم من ذؤبان العرب ، وتتفق أيضا على أن لفظي ذؤبان وصعاليك يؤديان معنى واحدا يدور حول السطو واللصوصية .

وأما لفظ « فاتك » فقد تذبذب بين استعمالين ، استعمال فى معنى السطو وقطع الطريق ، أى فى معنى الصعلكة ، واستعمال عام يدور حول الجرأة والشجاعة وإن كان فيه شيء من أساليب الصعاليك ، فأما الاستعمال الأول فقد ورد كثيرا فى تراجم الصعاليك كأبى خراش (١) . وسعد بن ناشب (٢) ، وفى أخبار أخرى ، كما يروى الميدانى عن فاتكين مجهولين يقول أحدهما للآخر « هل لك أن نتعاقد ألا نلقى أحدا من عشيرتك أو عشيرتى الا سليناه ، قال : نعم ، فتعاقدا على ذلك ، وكلاهما فاتك يحذر صاحبه ، فلقيا رجلا فسلباه . . الخ »

وأما الاستعمال الثانى وهو الجرأة والشجاعة ، فنجد فى كتب المعاجم يقول : القاموس المحيط « فاتك : جرىء شجاع ، وفتك به انتهز منه فرصة فقتله أو جرحه (٣) » . ونلاحظ أنه يضيف الى الجرأة والشجاعة معنى آخر هو المغافلة والعيلة ، وهذا المعنى هو الذى يربط الفتك بالصعلكة ويجعلهما عند التطبيق فى وصف شخصى ما يلتقيان بحيث يؤدى أحدهما معنى الآخر ، وهذان المعنيان للفتك ، الجرأة والغيلة ساقهما الصحاح حيث يقول : « الفاتك : الجرىء ، والجمع فتاك ، والفتك أن يأتى الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وفى الحديث (قيد الايمان الفتك) (٤) » .

وأما صاحب لسان العرب فقد أضاف الى المعنيين السابقين معنى آخر ، هو مضاء العزيمة وغلو الهمة مع الاستقلال بالرأى ، فنجده يقول « الفتك : ركوب ما هم من الأمور ودعت اليه النفس ، والفتاك : الجرىء الصدر ، وفاتك : جرىء وفتك بالرجل انتهز منه غرة فقتله أو جرحه ، وقيل هو القتل أو الجرح مجاهرة . وكل من قتل رجلا غارا فهو فاتك ، ومنه الحديث أن رجلا أتى الزبير (بن العوام) فقال له : ألا أقتل لك عليا ؟ قال فكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قيد الايمان الفتك ، لا يفتك مؤمن . قال أبو عبيد الفتك : أن يأتى الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتله

(١) خزائن البغدادى ٢٩٩/١ وشرح حماسة أبى تمام ٣٢٦/١ .

(٢) الكامل للمبرد ١٢١/١ .

(٣) أنظر مجمع الأمثال ٣/٢ .

(٤) مهذب الأغاني ٩٩/١ .

(٥) أنظر القاموس المحيط مادة (فتك) .

(٦) أنظر تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (فتك) وفى شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ج ١ ص ٢٣ (الفاتك الذى يفاجئ غيره بالمكروه) وفى مجمع الأمثال ج ٢ ص ١٠٧ (الفتك يعنى الغيلة وهى القتل مكر) .

وان لم يكن اعطاء امانا قبل ذلك ، ولكن ينبغي له أن يعلمه ذلك قال المخبل
السمنى :

واذ فتك النعمان بالناس محرما فملى من عوف بن كعب سلاسله
وكان النعمان بعث الى بنى عوف بن كعب جيشا فى الشهر الحرام وهم
آمنون غارون فقتل فيهم وسبى .

وقال الفراء : الرجل يفتك بالرجل : يقتله مجاهرة .

وقال ابن شميل : تفتك فلان بامرء : مضى عليه لا يؤامر احدا .

وقال أبو منصور : أصل الفتك فى اللفة ما ذكر أبو عبيد ، ثم جعلوا
كل من هجم على الأمور العظام فاتكا قال خوات بن جبير .

على سميتها والفتك من فعلتى (١) »

فتجد اللسان يحدد ثلاثة معان للفتك ، أحدها عام ، وهو الجرأة والشجاعة
وهو وإن كان من صفات الصعاليك إلا أنه عام فيهم وفى غيرهم ، فالصلة فيه
بين الفتك والصعلكة غير واضحة ، أما المعنيان الآخران وهما الفيلة واستقلال
العزيمة فهما من شعارات الصعاليك وخصائصهم . لأن الفيلة وانتهاز الغفلة
من لوازم الصعاليك ، الذين يعتمد عيشهم وسلوكهم على السطو والغارات
واللصوصية ، وكذلك استقلال العزيمة ومضاؤها من لوازمهم أيضا بحكم اعتماد
حياتهم على ركوب المخاطر والتعرض للمهالك والتصدى الدائم لمجاهة الأعداء ،
سواء كان هؤلاء الأعداء مهاجمين أو مدافعين ، ولذلك نجد هذا المعنى شائعا
فى شعر الصعاليك ، حيث يفخرون دائما بمضاء عزيمتهم واستقلالها ، وعدم
ركونهم الى المشورة أو التردد كما يقول سعد بن ناشب عن نفسه .

أخى غمرات لا يريد على الذى يهيم به من ملطع الأمر صاحبها
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وتكب عن ذكر العواقب جانبها
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض الا قائم السيف صاحبها (٢)

ويقول فى مرة أخرى :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجي ذى الأثر (٣)

وعمر بن بركة يجعل لنفسه عالما وحده ، فانه حينما يوغل الليل
فى السجى حتى يكفهر ، وحينما يوغل كل شئ فى النوم حتى يصفو الجو
للجوم ، يتحول هو الى قوة مقدمة حازمة فيقول :

(١) أنظر لسان العرب لابن منظور مادة (فتك) .

(٢) حساسة أبى تمام ج ١ ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧١ والسريجي : السيف . الأثر : فرند السيف .

**إذا الليل أدجى واكنهز ظلامه وصاح من الأفراط يوم جوائم
ومال بأصحاب الكرى غالباته فاني على أمر القواية حازم (١)**

وهذان المعنيان هما الرابطة بين الفتك والصعلكة ، وهما اللذان جعلنا لفظ فاتك يطلق في أغلب حالاته مراداً به الصعلكة في معناها العرفي من اللصوصية وقطع الطريق وما ينحو منحاصها .

ولكننا في حالات قليلة نجد لفظ فاتك يوصف به أشخاص ليسوا من الصعاليك مراداً به مجرد الجراءة والشجاعة ، كما وصف عمرو بن كشوم بأنه فاتك ، مع أنه كان سيد تغلب غير منازع بل ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة (٢) بل يضربون به المثل في الفتك (٣) فالمراد في وصفه به مجرد الشجاعة ، وضرب المثل به إشارة إلى قصة فتكه بعمرو بن هند ، وكذلك ضربوا المثل في الفتك بأشخاص آخرين ، إشارة إلى قصة مشهورة لكل منهم كان فيها جريئاً ، وإن كان أغلب هذه القصص فيها طابع الغدر والغيلة إلا أنها لا تكفي لجعلهم من الصعاليك ، وذلك كقولهم أفتك من البراض (بن قيس الكنانى) وأفتك من الجحاف (بن حكيم السلمى) ، وأفتك من الحارث بن ظالم (٤) .

وبالإضافة إلى ما سبق نستفيد من بحث هذا اللفظ ما يوحيه معناه وفهم العرب له من معاني الخلسة والغيلة والمغافلة ، وأثر ذلك في حياة الصعاليك وتأثير مجتمعاتهم به .

خليع :

في الصحاح « تخالغ القوم إذا نقضوا الحلف بينهم .. وغلّام خليع هو الذى خلعه أهله فان جنى لم يطلبوا بحنأيته (٥) » ،

وفى لسان العرب « .. وغلّام خليع وهو الذى خلعه أهله فان جنى لم يطلبوا بحنأيته ، والخولع الغلام الكثير الجنائيات ، والخليع الرجل يجنى الجنائيات يؤخذ بها أولياؤه فيتبرءون منه ومن جنأيته ، ويقولون أنا خلعنا فلاناً فلا نأخذ أحداً بجنأية تجنى عليه ، ولا نؤاخذ بجنأياته التى يجنيها ، وكان يسمى فى الجاهلية الخليع ، وفى الحديث « وقد كانت هذيل خلعوا خليعاً لهم فى الجاهلية » قال ابن الأثير كانوا يتعاهدون ويتعاقدون على النصرة والإعانة ، وأن

(١) الأمالي ج ٢ ص ١١٩ وفى مذهب الحضرى لأغانى الأصفهاني ج ١ من ٩٢ مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

(٢) خزائن الأدب للبغدادي ج ٢ من ٣٢٨ ومذهب الحضرى لأغانى الأصفهاني ج ١ ص ١٩٣

(٣) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٧٨ إلى ص ٩٠ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ إلى ص ٩٠ .

(٥) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (خلغ) .

يؤخذ كل واحد منهم بالآخر فإذا أرادوا أن يتبرءوا من انسان قد حالفوه اظهروا ذلك للناس وسموا ذلك الفعل خلعا ، والمتبرأ منه خليع أى مخلوع ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم فكانهم خلعوا اليمين التى كانوا لبسوها معه «(١)

وقال فى القاموس المحيط ٠٠٠ وكان فى الجاهلية اذا قال قائل هذا ابني قد خلعته كان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خليع ومخلوع ٠٠ والخلعاء جماعتهم ، ويطن من بنى عامر بن صعصعة كانوا لا يعطون أحدا طاعة ٠٠٠ والخولع القاهر للجود الذى يقهر أبدا ، والغلام الكثير الجنايات كالخليع ٠٠٠ ، (٢) ٠

فالصحيح سابق فما يتعلق بموضوعنا معنيين يشيران الى بعض التقاليد العربية ، التى وضحها اللسان والقاموس ، فمن تقاليدهم الاحلاف ، سواء كانت بين فرد وجماعة أم بين جماعتين ، فيمكن لشخص فى أى ظرف من الظروف التى تحتاج عوناً وسنداً أن يلجأ الى غيره يطلب جواره وحماه ، ويسعى ذلك جواراً أو حلفاً ، كما يمكن أيضاً لجماعة أو قبيلة أن تحالف أخرى ، فإذا احتاج للمجير أو الحليف الى التخلي عن جواره أو حلفه فعليه أن يعلن ذلك للناس ، كما أن الحلف والجوار فى عقدهما يستلزمان ذلك حتى يأخذ الجار أو الحليف كل حقوق جاره أو حليفه ٠ يعلن المجير للناس أننى أجرت فلانا ٠ فيصبح العدوان على الجار ٠ عدواناً على المجير ، ويعلنون أيضاً أننا حالفنا بنى فلان ، فيصبح العدوان على حلفائهم عدواناً عليهم ، وعندما يحتاجون الى فئس الحلف أو الجوار عليهم أيضاً اعلانه للناس ، فيصبح المجير فى حل من جاره ، والحلفاء فى حل من حلفائهم ، ويسمى فئس الحلف بين الجماعات فئساً كما يسمى تخالفاً ، والى هذا قصد الصحاح ، أما بالنسبة للفرد فيسمى خلعا ، ويسمى المنقوض عهده خليعاً ٠

وهناك عادة تعيننا للموضوع أكثر من غيرها ، وهى خلع القبائل لبعض أبنائها ، وذلك - كما اتفقت كتب اللغة - فى حالة واحدة ، هى أن تكثر جنايات شخص بحيث يصبح عبثاً ثقيلاً على قومه ، لأن الجنايات كان يثرتب عليها أحد امرين ، أما الانتقام بالسيف ، وذلك اذا كانت الجماعة المعتدى عليها ذات عزة وقوة ، فتأبى إلا أن تنتقم بالسيف ، وأما المطالبة بالدية وذلك فى الأحوال العادية ، وكلا الأمرين ، الانتقام والدية مرهق ثقيل ، فحينما تتكرر حوادث شخص وجناياته بحيث يصبح ضره لأهله أكثر من نفعه ، وعند ما يروونه عبثاً لا تطيقه حياتهم يتبرءون منه ومن جناياته ، فلا يطالبون أحداً ولا يطالبهم أحد

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (خلع) ٠

(٢) القاموس للحيط للغير وذابادى مادة (خلع) ٠

يجنّاية جناها أو جنيت عليه ، ولكن بشرط ان يكون ائتبرؤ علنيا مشهورا بحيث يبلغ الجماعات الأخرى وكان ذلك يتم غالبا في الأسواق لأنها كانت تجمع أناسا من مختلف القبائل والأنحاء ، ولكن المعنى الذى يهنا فى هذا الموضوع ، والذى يتبغى أن نقف عنده هو اجماعهم - كما رأينا - على أن هناك سببا معيناً من أجله وحده تخلع القبيلة أحد أبنائها وتبترأ منه ، هذا السبب هو كثرة جنّيات هذا الفرد (١) وبالتالي نتساءل : ومن الذى تكثر جنّياته ؟ لا شك أنه شخص فرغ حياته لارتكاب الجنّيات ومزاولة الأعمال التى تترتب عليها الجنّيات . وهذه الصفة لا تتحقق إلا فى شخص يتخذ من هذه الحياة مهنة أو عيشا دائما له ، وحينئذ لا نجد طائفة تنطبق عليها هذه الصفة إلا الصعاليك الذين عرفهم صاحب جمهرة أشعار العرب بقوله « الصعلوك : الفقير ، وهو أيضا المتجرد للغارات ، (٢) » .

ولذلك نجد معظم الصعاليك موصوفين بهذا الوصف كابى الطمّحان القينى ، وقيس بن منقذ بن الحداية ، وصخر الغى الهذلى (٣) والأحير السعدى (٤) .

والذين لم يوصفوا بهذا الوصف من الصعاليك نعتقد أن السبب فى عدم خلعم ظروف خاصة تتعلق بارتباطهم بأقوامهم ، كالشغرى الذى لم يرتبط بقومه لأن بنى شبابة بن فهم أسروه منذ صغره فعاش فيهم ثم فى بنى سلامان ابن مفرج بعد قصة المفادة به (٥) فلم تكن بقومه حاجة الى أن يخلعوه لأنه بعيد عنهم ولا يطالبهم أحد بجنّياته ، وكعروة بن الورد الذى لم يخلع قومه لأنه كان مصدر نفع وقوة لهم ، بل كان من معالم مجدهم التى ظلوا يتناقلونها أجيالا ، كما فى أحاديثهم عنه الى عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان (٦) .

وهناك ألفاظ أخرى كشيطان وتباطر وبار تدور فى فلك الألفاظ السابقة لم نر ما يدعو الى الاطالة بالحديث فيها .

-
- (١) يراعى ما ذكره القاموس من تسمية بنى عامر بن صعصعة خلما لأنهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة وأهمية ذلك فى الصلة بين الخلع والصعلكة .
- (٢) جمهرة أشعار العرب للفرشى ص ١١٥ .
- (٣) أنظر على سبيل المثال تراجم مؤلاء بالأغاني للصمغاني ١/٣٦ ، ٩٩ ، ١٨٥/٢ .
- (٤) المقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ .
- (٥) شرح الفضليات عن ابن الأبنارى ج ١ ص ١٠٨ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ج ١ ص ١٠٤ ومهذب الأغاني ١/٩٥ - ٩٩ .
- (٦) أنظر هامش الاصمعيات ص ٣٥ والتنبيه على أوام القالى للبكرى ص ٣٠٣ ومهذب الأغاني ٢/٢٣ .

ونخرج من هذا الحديث اللغوي بأن لدى العرب ألفاظا يكمل مدلول بعضها مدلول البعض الآخر ، وأنها وإن اختلفت مدلولاتها من لصوصية أو فتك أو غارة أو نحوهن إلا أنها تنتهى الى سلوك معين ، هذا السلوك يتميز بأنه سلوك « عدواني » مهما اختلفت صورته وأساليبه ، ويتميز أيضا بأنه سلوك دائم بالنسبة لصاحبه ، بمعنى أنه لا يمثل حادثا أو حوادث محدودة ، وإنما يمثل السلوك الدائم الذى يبلغ درجة الوصف ، بحيث يحقق صفة دائمة يوصف بها صاحب هذا السلوك . ونخرج أيضا بأن هذه الألفاظ أصبح عنوانها « الصعلكة » وأنها حين تطلق ، فالمجال الطبيعى لها هو مجال الصعاليك .

على أن أهم ما نستفيدة من اختلاف هذه الألفاظ ، هو تنوع أساليب الصعلكة ، حيث يدل كل لفظ منها على أسلوب معين فى مزاوله صاحبه لسلوكه العدوانى ، فنخرج منها بأن للصعلكة أساليب متنوعة فى مزاولتها ، وأن الروايات حيثما تنسب لفظا منها الى أحد الصعاليك فى ترجمته ، فإنما تعنى أسلوبه وطريقته التى عرف بها فى الصعلكة ، وهذا لا يمنع أن يكون للصعلوك الواحد أكثر من طريقة ، حينما ينسب اليه أكثر من لفظ من هذه الألفاظ فى ترجمته وأخباره .

الصعلكة فى العرف العربى :

انتهينا فى الحديث السابق الى أن رجال اللغة قاربوا بين مدلول عدة الألفاظ كصعلوك وذئب وخليع وفاتك ولص ، وجعلوها فى جملتها تنتهى الى غاية واحدة ، هى التعبير عن « سلوك عدواني » وأن هذه الألفاظ تعتبر صوراً وأساليب لهذا السلوك ، فأحيانا يكون لصوصية ويسمى صاحبه لصا ، وأحيانا يكون تذوبا أى فيه خلق الذئب ويسمى صاحبه ذئبا ، وأحيانا يكون فتكا فيه طابع المفارقة والغيلة ، ويسمى فاعله فاتكا ، وما الى ذلك ، وأن هذه الأساليب تدخل فى مفهوم الصعلكة ، كما رأينا فى المعاجم السابقة مثل قولهم « ذؤبان العرب صعاليكها الذين يتلصصون (١) » فهذا التعبير يتضمن ثلاثة ألفاظ هى ذئب ، وصعلوك ، ولص ، وقد جعلها كلها مجتمعة تؤدى معنى واحدا هو الصعلكة بالمعنى العرفى الذى هو موضوع هذا الحديث . فالصعلكة إذن عند اللغويين يمكن أن تكون مجموع الصفات التى تؤدىها هذه الألفاظ الأخرى كذئب وفاتك وخليع ولص ، كما يفهم من شرحهم لتلك الألفاظ عامة ، وكما رأينا من اتفاقهم جميعا على أن الذؤبان هم الصعاليك .

وقلنا هناك أن اللغويين اهتموا بشرح الصعلكة فى مواد أخرى غير مادتها ، أما فى مادة (الصعلكة) نفسها فقد اهتموا ببيان أصلها وهو الفقر ،

(١) الصحاح للجوهري مادة ذاب .

وقصروا في بيان مدلولها العرفي ، وهو السلوك العدواني المستمر في صورة المختلفة .

ونريد هنا أن نعرض للصعلة لنرى موضعها من الاستعمال والعرف العربي فنقول :

أما الاستعمال العربي سواء في الجاهلية والإسلام ، فنجد أنه يغاب عليه ربط الصعلة بمدلول آخر غير الفقر أو مع الفقر .

فحينما يتحدثون عن الصعاليك يتحدثون عنهم على أنهم فئة خاصة تتميز عن المجتمع بطابع خاص ، شعاره الاعتداد بالنفس دون الأهل أو القبيلة ، ووسيلته العدوان في أي صورة تنهيا له ، فيقطع الطريق حينما يتاح له قطعها ، ويسطو ويغزو متى وجد إلى ذلك سبيلا ، ويفتك حينما تمكنه الغرة ، ويتلصص إن لم يجد إلى ما سبق وسيلة ، ويجعل غايته من ذلك كله الحصول على الغنى والمال في أغلب الأحيان أو تحقيق مأرب خاصة دائما .

ولنسق بعض الأمثلة استشهادا على ذلك .

ففي قصة النعمان بن المنذر حينما رفض أن يزوج كسرى قائلا لرسول كسرى « أما كان في عين السواد وفارس ما يغنيه عن بناتنا ؟ » فغضب عليه كسرى ، مما اضطر النعمان إلى أن يستجير بالقبائل حتى نزل سرا في بني شيبان عند هانيء بن قبيصة ، ثم قال له هانيء « عندي رأي لست أشير به لأدفعك عما تريد من مجاورتي ، ولكنه الصواب ، فقال : هاتيه ، قال : أن كل أمر يجعل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة ، والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك . امض إلى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالا ، وألق نفسك بين يديه ، فاما أن يصفحك عنك فعدت ملكا عزيزا ، واما أن يصيبك ، فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ، ويختطفك ذئابها (١) » .

فليس من المعقول أن يكون هانيء بن قبيصة قصد بالصعاليك مجرد الفقراء ، فإن الفقراء ليسوا مصدر خطر يخوف به أو منه الناس ، وإنما المعقول أن يكون هانيء خوف النعمان من قطاع الطرق ومحترفي الغارات الذين يمكن أن ينالوه في مخبئه أو أثناء تنقله بين القبائل ، كلما انكشف نزوله لدى قبيلة انتقل إلى غيرها . فمدلول الصعلة في هذه القصة غير الفقر .

وفي قصة مقتل المتنبي يقول فاتك الأسد للمتنبى قبل رحلته التي قتل

(١) خزائن الأدب للبغدادى ج ١ ص ٢٦١ .

فيها ، والطريق بينك وبين دير قنة خشن قد احتوشته الصعلكة ، وبنو أسد يسرون في خدمتك الى أن تقطع هذه المسافة ، فيقول المتنبي : ما أبقي الله بيدي هذا الأدهم وذباب الجراز الذي أنا متقلده فاني لا أفكر في مخلوق (١) ولكن تشاء الظروف ان يكون مقتل المتنبي على يد هؤلاء الصعاليك الذين خوفه منهم فأتاك .

ومن الواضح أن مدلول الصعلكة هنا قطع الطريق وليس الفقر .
والقصة الأولى كانت في الجاهلية ، والثانية في الاسلام .

ونجد الشعر ، وخاصة شعر الصعاليك أكثر توضيحاً لهذه الحقيقة ، مع مراعاة أن الشعراء ليسوا الا جزءاً من مجتمعهم ، يتحدثون بلفته ، ويصدرون عن معارفه وأعرافه ، فهذا الشاعر الجاهلي عمرو بن براقة وهو أحد الصعاليك يفسر لنا الصعلكة في حوار مع امرأة .

يبين فيه أنه هو والمرأة يعرفان أن الصعاليك طراز آخر غير الفقراء ، وذلك في قصة غارة أغارها ، انتقاماً لغارة أغير عليه بها ، فيقول عن المرأة التي أرادت أن تثبطه عن الغزو بأنه لم يبلغ مبلغ الصعاليك في جراتهم واقدامهم وركوبهم المخاطر .

يقول :

تقول سليمي لا تعرض لتلفة ويليك عن ليل الصعاليك قائم
وقد رد عليها منكراً تجاهلها أنه صعلوك ، وتجاهلها صفاته باعتباره فرداً من الصعاليك فيقول لها .

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح ابيض صام
الم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليل اذا نام الخيل المسالم
اذا الليل ادجى واستجهرت نجومه وصاح من الافراط يوم جوائم (٢)
فالصعلكة هنا أيضاً ليست هي الفقر .

كذلك حين نتتبع أخبار الصعاليك المنبثة والمتفرقة في مراجع الأدب والتاريخ العربي نجدها جميعاً تحصرهم في صفتين ، اللصوصية وقطع الطريق

(١) خزائن الأدب للشيداعي ج ٢ ص ١٤٧ وانظر معجم ما استعجم للبكري ج ٢ ص ٥٣٠ عن استعمال خليج وفاتك في قصة أبي جندب الهدلي وجمعه لكل خليج وفاتك ليغير بهم على يني لحيان . وانظر شرح التبريزي لحسابه أبي تمام ج ١ ص ٢٥٠ عن استعمال الصعلكة في الجاهلية ، حيث يقول خلف بن نديبة عن عباس بن مرداس إذا اياه أنه (يكالب الصعاليك على الأسلاب) وهو صريح في أن المقصود بالصعلكة أساليب السلب والغزو .

(٢) الأمل للقال ج ٢ ص ١١٩ . واستجهرت نجومه : أبضت كناية عن توغل الليل .

بما يمكن أن تحتوى عليه هاتان الصفتان من أحداث السطو والاغارة والفتك والسلب وما الى ذلك بما لا يدع مجالا للشك في أن الصعلكة أخذت في العرف والاستعمال العربي صورة غير صورة أصلها اللغوي وهو الفقر ، وأن هذه الصورة ليست حديثة في العرف العربي ، وإنما هي قديمة قدم التاريخ العربي ، فإن بعض الصعاليك الذين تحدثوا عن الصعلكة بهذه الصورة ، وتحدث عنهم العرب بهذه الصورة أيضا كانوا في فجر التاريخ العربي كالشنفرى وابن براقه والسليك .

ولكن من الحق أن نقول ان لفظ الصعلكة استعمل أحيانا في أصله اللغوي وهو الفقر كما يقول حاتم :

حينما زمانا بالتصعلك والفنى فكلا سقانا بكاسيهما الدهر (١)

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين (٢) قال صاحب الأمالي « قال أبو عبيدة معناه يستنصر ، والصعلوك: الفقير في كلام العرب » .

وقد يبدو في ظاهر الأمر ان ذلك يعود بالكلمة الى الغموض والذبذبة في المدلول من حيث استعمالها مرة في الفقر ، ومرة في اللصوصية وقطع الطريق .

ولكن الواقع أنه لا غرابة في ذلك ، حيث يمكن اعتبار لفظ الصعلكة من الكلمات التي نقلت من الأصل اللغوي الى مدلول عرفي أو اصطلاحي ، أو غلبة في الاستعمال ، كما نقل لفظ الحج من الأصل اللغوي وهو القصد الى حج بيت الله الحرام وغلب استعماله فيه ، وكما نقل لفظ الزكاة من الأصل اللغوي وهو الطهارة الى الصدقة المفروضة في الاسلام على الأموال .

فمثل هذا النوع من الألفاظ ينتقل به العرف أو الاصطلاح الى مدلول جديد غير مدلوله اللغوي مع وجود رابطة بين المدلولين ، أو اشتراك في ناحية أساسية بينهما في المعنى .

ومما هو معروف أن المدلول الجديد للفظ لا يمنع استعماله في معناه الأصلي ، فاستعمال الحج مثلا في القصد الى الكعبة بالوصف المحدد لذلك ، لا يمنع من استعمال لفظ الحج في معناه الأصلي وهو القصد الى أى شيء .

وهذا يفسر استعمال الصعلكة في المدلولين ، الأصلي والعرفي ، فقد نقلها

(١) الأمالي للقالى ج ٢ من ٢٨٣ وقد شرحه القالى بقوله يعنى بالفقر والفنى والبيت في

الصباح ولسان العرب مادة صعلك .

(٢) الأمالي للقالى ج ٢ من ٢٨٢ .

العرف من المعنى الأصلي وهو الفقر الى مدلول آخر هو العدوان غير المشروع في صورة اللصوصية أو قطع الطريق وهذا المدلول الجديد لا يمنع من استعمالها في معناها الأصلي وهو الفقر كما وردت فعلا فيما أشرنا إليه .

وهذا أيضا تفسير لما نجده من استعمال بعض الشعراء للفظ الصعلكة في المعنيين في قصيدة واحدة ، فهذا عروة بن الررد العبسي يقارن بين النوعين ، الصعلوك الفقير ، الذي رضى لنفسه عيش الخمول والمسكنة ، متسقطا حسنات الناس وأفضالهم . مهينا نفسه بالذل والحاجة الى الناس ، والصعلوك المتحرك المتحفز ، الذي يضع نفسه فوق الناس ، فارضا رهبته وبأسه عليهم ، وتجد عروة لاثما النوع الأول أشد اللوم ، واثميا عن الثاني أشد الرضى فيقول عن الأول :

لحي الله صعلوكا اذا جن ليله مضى في المشاش ألفا كل مجزور (١)
بعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر (٢)
قليل التماس المال الا لنفسه اذا هو أضحي كالعريش المجور (٣)
ينام عشاء ثم يصبح قاعدا يحث الحمى عن جنبه المتعطر
ويقول عن النوع الثاني مقارنا بينهما :

ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور (٤)
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر النيج المشهور (٥)
وان بعدوا لا يامنون اقترا به تشوف أهل الغائب المتنظر (٦)
فذلك ان يلقى النية يلقيها حميدا ، وان يستغن يوما فاجنر (٧)

فقد استعمل لفظ صعلوك في النوع الأول في مدلوله اللغوي البحت ، وهو الفقير المجرد من المال ، واستعمله في النوع الثاني في الدلالة العرفية

(١) لحي : لمن . المشاش : دوسر العظام اللينة التي تضم . مجزور : مكان الجزر .
أى يجمع العظام اللينة مكان الدبائح ليقتات بها ، من باب المبالغة الساخرة وفي رواية الأغاني
مصافى من المصافاة بمعنى الاصطلاء .

(٢) يقنى غاية ما يتنناه أن يتغفل عليه صديق أو محسن بكلمة .
(٣) العريش : خيمة من خشب أو جريد . المجور : الساقط .
(٤) صفيحة وجهه : بشرته . القابس : الذي يقبس النار . المتنور انشأ .
(٥) مطلا : مفرقا على أعدائه يهدمهم بالقز والسطور . النيج : إشارة الى نوع من الاقتراح
كأنوا يضربونها . المشهور : المشهور .

(٦) يعنى توقعهم السطو منه يشغلهم شغل الأهل بعودة الغائب المرتقب الاوية .
(٧) الاصمعيات ص ٣٥ وديوان الحماسة ج ١ ص ١٥٩ مع اختلاف يسير في الألفاظ
ومهدب الأغاني ٢٢/٢ وفي معاهد التنصيص للمعاسي ج ٣ ص ١٢١ . البيت الأول (لحي الله
صعلوكا ..) لعروة والتصيدة منها عشرة أبيات في الكامل ج ١ ص ٧٨ م الاستقامة .

للفظ ، وهي الشخص المتحفز دائما للسطو والعدوان وذلك في قصيدة واحدة .

وكذلك فعل السليك بن السليكة ، فقد استعمل اللفظين في قصيدة واحدة ، أحدهما في المدلول اللغوي ، والآخر في المدلول العرفي فيقول مخاطبا امرأة :
فلا تصلي بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوك ضروب بنصل السيف هامات الرجال (١)

ولكن الذي يلفت النظر أننا إذا تجاوزنا المعاجم التي تهتم بشرح المفردات كلسان العرب والقاموس المحيط ، إلى الكتب التي تهتم بالأدب والأدباء كخزانة الأدب للبغدادي والأماشي للقيالي والأغاني للأصمعي والكامل للمبرد نجد أن أكثر هذه الكتب أيضا تقتصر في شرحها للصعلوك على أنه الفقير أو الذي لا مال له (٢) ، مع أنها في الوقت نفسه تسوق أخبار هذا الصعلوك على أنه من قطاع الطرق واللصوص والفتاك ، دون أن تشير في شرح لفظ الصعلوك إلى هذا المعنى ولعلها في ذلك تلتزم دقة النقل عن المعاجم .

- وحين نأتي إلى مناقشة المعاجم في شرحها للفظ صعلوك ، وكيف أن معظمها اقتصر على الأصل اللغوي وهو الفقر ، دون إشارة إلى المعنى العرفي وهو اللصوصية وقطع الطريق .

نستطيع أن نعلل ذلك بأن الفقر الذي كان من أبرز الدوافع للصعاليك في سلوكهم مسلكتهم المعروفة ، والذي لازمهم حتى بعد سلوكهم هذا المسلك حتى أصبح طابعا ظاهرا في حياتهم وفي أشعارهم هو الذي جعل معظم كتب المعاجم تكفي في شرحها للصعلكة بأنها الفقر .

وكون الفقر من أبرز دوافع الصعاليك إلى الصعلكة ، وكونه من أبرز المعاني التي دار حولها شعرهم حقيقة لا مراء فيها ، كما سبق من وصف ابن بركة لنفسه بأنه « جل ما له حسام » ، وكما يبين السليك سبب تصعلكه في قوله .

أشباب الراس أنني كل يوم أؤى لي خالة وسط الرجال
يشق على أن يلقين غيما ويمجز عن تخلصهن مالي

فقد جعل سبب تصعلكه أمرين ، أحدهما تعرضه لفارات صعاليك ومغيرين آخرين يسبون حرمانه وحرمان أهله ، فهو يريد أن ينشئ قوة يرد بها عنه وعن أهله هذا العدوان ، والأمر الآخر هو فقره وعجزه عن فداء الأسيرات منهم بمال .

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ م الاستقامة .

(٢) على سبيل المثال الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ م الاستقامة . والأماشي ج ١ ص ٢٦٢

في وصف عروة والأماشي ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٥) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ .

والشغفرى يتفنن فى تصوير فقره بل حرمانه فى ابلغ صور الحرمان واشدهما تأثيرا فى النفس فهو يتحدث عن الجوع ، فيقول انه اصبح اليغا له حتى انه اعتدى الى طريقة يعالجه بها هى تجاهله وعدم المبالاة به ، وهى نوع من الرياضة الروحية والتفسيية تزاوّل فى كثير من انحاء العالم اليوم وخاصة فى الهند اعتدى إليها الشغفرى ببطرته وتجربته ، ويقول الشغفرى عن جوعه وعن احتفاله بمنزته وكرامته مع هذا الجوع .

قديم مطال الجوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صلحا فاذهل (١)
واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول (٢)

ويرسم الشغفرى أيضا صورة من صور الجوع والحرمان القاسيين ، ويطيه اسماء على جوع شديد ، وعيشه على القوت الزهيد فيقول :

واطوى على الحص الحوايا كما انطوت خيطة ماري تغار وتقتل (٣)
واغوى على القوت الزهيد كما غدا ازل تهاده التنائف اطحل (٤)

وهكذا نكاد لا نجد شعرا لصلوك يخلو من الحديث عن الفقر والحاجة ، ولعل هذا ما جعل أكثر كتب اللغة تكتفى فى شرحها للفظ صعلوك بأنه الفقير ، على اعتبار أن الصعاليك مهما يكن مسلكهم فهم فقراء .

ولكن هذا أو غيره إن يكن نوعا من الاعتذار والتبرير عن كتب اللغة فانه لا يفيها من توجيه تهمة التقصير فى أدائها لمداول هذا اللفظ ، فإن استعمال الصعلوك فى أساليب العلوان بصورة المختلفة أمر مشهور سواء فى الجاهلية والإسلام كما مثلنا له من الروايات ومن الشعر ، وكتب اللغة نفسها لا تجهل ذلك ولا تنكره ، بل ترويه فيما تروى ، وعلى سبيل المثال فإن لسان العرب من الكتب التى أوردت شعرا كثيرا للصعاليك فى سياق شرحه للألفاظ ، حيث حفل شعرهم ، وخاصة الجاهلى منه بنخبة واسعة من الألفاظ القليلة التداول والتى تحتاج الى تفسير .

(١) الأما للقال ج ٣ ص ٢٠٦ . مطال : من الماطلة . أضرب عنه : أعرض . ذهل عن الشيء : نسيه .

(٢) الطول : للز .

(٣) الحص : الجوع . الحوايا : الامعاء . الخيطة : السلوك والخيوط . ماري رجل مشهور بالقتل وتغار : تحكم .

(٤) ازل : الذئب . التنائف : المفاوز . اطحل : اغبر اللون . والأبليات من اللامية . المصدر السابق وشرح الألفاظ عن أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري .

وقد بلغ من شهرة الصعاليك بسلوكهم المذكور ، أنه يكفي في ذكر شخص ، أو الترجمة لشاعر أن يوصف بأنه صعلوك فيعرف أنه من اللصوص وقطاع الطرق كما ورد في الأغاني وخزانة البغدادى وغيرهما .

ومع أن كتب اللغة لا تجهل ذلك ولا تنكره ، فإن معظمها لم يشر في تفسيره لهذا اللفظ الى ذلك أو حتى الى أنه يستعمل أحيانا في هذا المعنى ، أو أن هناك طائفة من الفقهاء أو الصعاليك اشتهروا بهذا السلوك ، بل الأكثر غرابة أنها تأتي بلفظ الصعلكة في سياق اللصوصية وقطع الطريق ، ولكن في مادة أخرى غير مادتها ، كما فعل القاموس المحيط في مادة (الذئب) حيث يقول « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » أما في مادة « صعلك » فإنه يقول « والصعلوك كمصفور الفقير ، وتصعلك افتقر » فلم يذكر عن المدلول العرفي للصعلكة شيئا ، مع أنه أتى بها في سياق هذا المدلول في مادة أخرى كما سبق ، ومع أن القاموس تحدث في مواضع مختلفة عن الصعاليك ، كحديثه عن تأبط شرا في مادة (غال) وعنه وعن الشنفرى في مادة (غرب) وأن كان حديثه عنهما غير دقيق ، كعنه إياهما من الاسلاميين ، مع أن الرواة لا يختلفون في أنهما بجاهليان ، وكحديثه عن فرس حاجز بن عوف الأزدي في مادة « ذاب » وعن فرس السليك بن السلكة في مادة « نحم » ، وكذلك فعل لسان العرب كما سبق .

وقد كانت كتب اللغة أكثر توضيحا لهذا المدلول في الفاظ أخرى غير لفظ الصعلكة ، كالذؤبان .

٤ - من الصعلوك ؟

الإجابة عن هذا السؤال في غاية الأهمية لكل بحث أو حديث عن الصعاليك ، لأن الحديث عن الصعاليك مبنى أساسا على تحديد : من الصعاليك ؟

١ - مفهوم الصعلكة :

على الرغم من فهم المجتمع لطبيعة طائفة الصعاليك وسلوكهم ، وحديثه عنهم في اتجاه واضح ، وعلى الرغم أيضا من فهم علماء اللغة القدامى لذلك ، فقد

رأينا في تعريفهم للصعلكة قصورا وشيئا من ميوعة أتاح المجال لذبذبة المفهوم وخضوعه للاستنتاج ، فقد كانت هناك جوانب موضع اتفاق بينهم ، حول الألفاظ التي تدور في فلك الصعلكة ، وكانت هناك جوانب أخرى لم تبلغ هذه الدرجة ، ونستطيع أن نجمل هذه الجوانب فيما يأتي :

١ - هناك ألفاظ معينة لم يختلفوا في أنها مترادفة في أداها لمفهوم الصعلكة العرفي ، حيث جعلوها تدور في فلك واحد ، وأحالوا بعضها على بعض كما رأينا في أحاديث كتب المعاجم ، فحينما يتكلمون عن الصعاليك يقولون أنهم ذوؤبان العرب ، ونذهب إلى ذوؤبان العرب ، من هم ؟ فيقولون : أنهم صعاليك العرب ، ومن صعاليك العرب ؟ فيقولون : هم الذين يتلصصون ، أو هم لصوص العرب . ولم يرد قط فيما نعلم أنهم اختلفوا في هذه المدلولات .

واذن فلا شك في أن الوصف بكلمة « لص » أو بكلمة « ذئب » يساوي تماما الوصف بكلمة « صعلوك » من حيث الاستعمال العربي أعني بصرف النظر عن الأصل اللغوي الذي أخذت منه كل هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا في أن الصعاليك واللصصوص والذؤبان - من حيث المفهوم العرفي لسلوكهم - طائفة واحدة ، وأن اختلاف هذه الألفاظ لا يعنى شيئا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة في أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذي أخذت منه كل من هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا في أن الصعاليك واللصوص والذؤبان - من حيث المفهوم العرفي لسلوكهم - طائفة واحدة ، وأن اختلاف هذه الألفاظ لا يعنى شيئا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة في أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذي يجمعهم وهو الصعلكة ، بمعنى أن بعضهم يفعل ما يشبه أفعال الذئب ، ولكنه من الطائفة نفسها ، وبعضهم يفعل أفعال اللصوص ، ولكنه أيضا من الطائفة ، والبعض الآخر كأصحاب الغارات ، هو كذلك من الطائفة ، ولكن الطائفة كلها غلب عليها لقب « الصعاليك » .

٢ - هناك لفظ يعتبر بحكم ملابساته ، وبحكم ما ورد حوله من روايات مقصورة على الصعلكة ، وملحقا بالألفاظ السابقة ، وهو لفظ « خليع » فإن ملابساته السابقة للخلع من حيث ان سببه كثرة الجنایات ، واللاحقة للخلع ، من حيث ان حياة الخليع ، وتشرده واعتماده على نفسه بعد الخلع ، من شأنه أن يجعله يزداد أصرارا على جنایاته ، ونشاطا في السعي لتحصيل معاشه ، وكل ذلك هو طريق الصعلكة ، مع مراعاة استبعاد احتمال أن تكون جنایاته التي تسببت في خلعه ، جنایات لم يقصد منها ما يقصده الصعاليك ، فإن خلع قومه آياه دليل واضح على أن هذه الجنایات لمصلحته الشخصية ،

اعنى أنها جنائيات صعلكة ، وليست لمصلحة قومه ، والا لم يكن من المعقول بمنطق الجاهلية أن يخلعوه . ويؤيد هذا أن كل الذين وصفوا بهذا الوصف من الأشخاص المحددين كانوا فيما نعلم من الصعاليك ، والذين لم تحدد أشخاصهم كما ورد في الحديث الشريف « وقد كانت هذيل خلعوا خليعا لهم في الجاهلية » (١) فلم يكن مثل هذه الرواية من الوضوح بحيث يتاح لنسب تتبع حياة هذا الخليع ، لنعلم من أى نوع كان ، ولكن الروايات لا تنفى أنه من الصعاليك ، بل تشير الى أنه من الصعاليك ، أو تقوى احتمال هذا ، بنسبته الى هذيل ، التي كانت أشهر قبائل العرب بالصعلكة ، وبالعديين الذين كان عدوهم أداة من أهم أدوات الصعلكة ، وفي ديوان الهذليين أورد السكري خمسة من صعاليكهم ، هم خويلد بن مرة المكنى بأبى خراش ، وابنه خراش وأخوه عروة الذى قتل فى غزوة صعلكة كان فيها هو وخراش ، وكذلك صخر الفى ، وحبيب الأعمى (٢) والمهم أنه لا توجد لدينا روايات فيما نعلم تنفى أن كل من وصفوا بهذا الوصف كانوا من الصعاليك ، ولا روايات تصف بهذا اللفظ شخصا ليس من الصعاليك ، ونستبعد بالطبع ما شاع منذ أواخر العصر العباسى من إطلاق الخلاعة على الصفات الخلقية ، فان حديثنا عن هذا اللفظ محصور كما سبق فى حالة واحدة ، هى حالة الذين خلعهم أقوامهم لكثرة جنائياتهم ، وهؤلاء هم الذين نعنى أن الروايات لم تذكر أن أحدا منهم لم يكن صعلوكا . وأذن فنستطيع أن نقول انه يمكن الحاق لفظ « خليع » للذى خلعه قومه بالألفاظ السابقة التي تعتبر نصا فى الصعلكة .

٣ - الألفاظ الأخرى التي وصف بها الصعاليك ، مثل ، فاتك ، وشيطان ، وشاطر ، وإن كان الوصف بها غالبا على الصعاليك كما ورد فى تراجم معظمهم ، الا أنها ليست مقصورة عليهم ، فقد وصف بها أشخاص من المؤكد أنهم لم يحترفوا الصعلكة ، وإن كانوا زاولوا بعض أساليبها فى بعض الأحيان أو لبعض الظروف ، فقد وصف شخصان من أكبر سادات العرب ببعض هذه الألفاظ ، هما عمرو بن كلثوم الذى وصف بأنه فاتك (٣) وعامر بن الطفيل الذى وصف بأنه « من شياطين قومه » (٤) وحقا انهما وصفا بذلك لمزاولتهما بعض أساليب الصعاليك ، ولكننا لا نستطيع أن نعد مثلهما من الصعاليك ، لعدم احتراف الصعلكة .

ولذلك لا نستطيع الاعتماد على هذه الألفاظ وحدها فى نسبة شخص

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (خلع) .

(٢) انظر شرح ديوان الهذليين للسكري .

(٣) انظر خزائن البغدادى ٣٢٨/٢ ومجمع الأمثال للملانى ٨٨/٢ .

(٤) خزائن البغدادى ٣٦٤/٢ .

الى الصعلكة الا اذا صاحبته قرائن تؤيد ذلك، وان كنا في كل حال نستفيد من مدلولها في خلق من يوصف بها وسلوكه ، أعني أن كل من يوصف بلفظ منها معناه أنه يزاول عملا من أعمال الصعاليك ، وأسلوبا من أساليب صعلكتهم ، ومن هنا نخرج بنتيجة مهمة هي أن مدلولات هذه الألفاظ من صميم الصعلكة وأساليبها ، وأنها اذا كنا لا نراها كافية في ادخال صاحبها في طائفة الصعاليك ، فليس لتصور هذه الألفاظ في الدلالة على الصعلكة ، بل لمعنى واحد ، هو أنها لا تدل على الاحتراف للصعلكة ، وكان الفارق بينها وبين الفاظ ، صعلوك وذئب ولص ، أن هذه الثلاثة لا تطلق الا على الذين اتخذوا من الصعلكة حرفة أو مهنة دائما ، أما الفاظ فاتك وشيطان ونحوهما ، فتطلق لمزاولة أسلوب من أساليب الصعاليك ، سواء صدر من صعلوك محترف للصعلكة ، أم من غيره .

ب - من الصعلوك ؟

واذن ففي الإجابة المحددة على هذا السؤال لابد من مراعاة أمرين أحدهما أن كل الألفاظ السابقة تدل على أساليب مختلفة للصعلكة ، والآخر أن هناك فارقا أساسيا في مجرد مزاولة مدلولات هذه الألفاظ ، وبين من يتخذها حرفة دائمة .

وعلى ضوء ذلك ننظر الى محاولة بعض الباحثين أن يضع تعريفا للصعلكة (١) وقد كان تعريفه أن الصعلكة هي « الغزو والاغارة للسلب والنهب » والواقع أنه لو كان هذا المعنى استنتاجا ، أو تحديدا لبعض المواضع لما عاننا كثيرا أن نناقشه ، ولكن وضعه في قالب التعريف ثم تكريره آياه على أنه تعريف للصعلكة ، هو ما يضطرنا الى مناقشته اضطرابا ، فمن بدهيات التعريف كما يقول المنطقة أن يكون جامعا مانعا ، ولكننا لا نرى في هذا التعريف جمعا ولا مانعا .

فهو غير جامع ، لأن لفظي الاغارة والغزو ، لا يشملان كل أساليب الصعلكة ، كاللصوصية مثلا ، والباحث نفسه نقل أحاديث كتب المعاجم ، ومن بينها عدم اختلافهم في أن اللصوصية مرادفة للصعلكة ، فلماذا اقتصر على أسلوبي الغزو والاغارة تاركا اللصوصية وغيرها من أساليب الصعلكة ؟ وقد يقال أن الروايات تجعل بعض هذه الألفاظ متداخلا في بعضها الآخر ، بمعنى أن الروايات أحيانا تكتفى بمدلول أحد هذه الألفاظ بالنسبة للصعلوك ، وتعنى

(١) أعني الدكتور يوسف خليف في بحث الفسحاء الصعاليك في العصر الجاهل انظر ص ٥٨ وما قبلها .

به مدلول غيره من الألفاظ ، كان يوصف صعلوك بأنه فاتك مراداً به كل أساليب صعلكته ، فكذلك فعل الباحث الذي ناقشه ، حيث اكتفى بالغزو والاغارة للدلالة على كل أساليب الصعلكة ، ولكن ذكره أكثر من لفظ ، يلزمه أن يسوق كل الألفاظ التي تدخل في نطاق الموضوع ، والآخر أن هناك أساليب يبعد جداً أن يشملها لفظ الغزو أو لفظ الاغارة ، كقطع الطريق الذي يعتبر من أبرز أساليب الصعلكة ، أن لم يكن أبرزها على الإطلاق ، فمن البعيد جداً أن نتصور قطع الطريق داخلاً في معنى الغزو والاغارة ، بحكم الوضع اللغوي لهذين اللفظين ، وبحكم استعمالهما أيضاً ، فالتعريف اذن غير جامع لأنه لا يشمل كل أساليب الصعلكة .

وكذلك هو غير مانع لأنه يسمح بادخال غير الصعاليك في مفهوم الصعلكة ، ومن حيث أن مجرد الغزو والاغارة للسلب والنهب ليس مقصوراً على الصعاليك ، بل كان طابعاً عاماً في الجاهلية - التي هي موضوع بحثه - والأخبار والروايات تفيض بما هو معروف من غارات القبائل بعضها على بعض ، ولم يكن الثار كل أهدافها ، بل كثيراً ما كانت الغارة لا تستهدف إلا السلب والنهب ، اظهاراً لبأس المغيرين ، وارهابهم القبائل الأخرى كما أن كثيراً من الأفراد والمصائب من غير الصعاليك كانوا يزاولون أحياناً أخص أعمال الصعاليك كقطع الطريق ، وبعض هؤلاء كان من أبرز سادات العرب وسياتى أن كثيراً من سادة العرب ومشهورهم زاولوا أساليب الصعلكة مستهدفين أيضاً السلب والنهب ، كمرو بن معد يكرب ، ودريد بن الصمة ، والناطقة الذبياني الشاعرة المشهورة ، وكثير غيرهم (١) ولا شك أن هذا التعريف يشملهم ، لأنهم كانوا يفزون ويفيرون للسلب والنهب ، ومع ذلك فلا نستطيع أن نعددهم من الصعاليك ، كما لم نستطيع أحد من الرواة والمؤرخين أن يعددهم منهم ، وقد كان يمكن أن نضيف الى ذلك أن الصعلكة ليست قاصرة على السلب والنهب ، بل مما تحدث عنه الصعاليك كثيراً ، وجعلوه هدفاً أساسياً ، الثار والانتقام كما يقول عمرو ذو الكلب .

وأبرح في طوال الدهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعال (٢)

وكما يجعل أبو خراش طلب الثار قريناً لطلبه المقنم « لأدرك ذحلاً أو أشصف على غنم » (٣) ولكننا نرى أن الغرض الأساسي من الصعلكة هو المقنم ، وأن الأغراض الأخرى عارضة أو هي وايدة الصعلكة .

(١) انظر فصل الصعلكة في الجاهلية من هذا البحث .

(٢) ديوان الهذلي ١١٥/٣ وأبرح بمعنى لا أبرح ، والنعال اشادة الى عادة نساء الجاهلية

في شربون صدورهن بالنعال في البكاء على الميت .

(٣) انظر ديوانه ص ٨٠ ، ٨٢ .

على أن هناك ملاحظة أخرى في عدم شمول التعريف ، وهي أنه من أهداف الصعاليك وغيرهم في القوائم سبى النساء ، كما نرى في أخبار كثير منهم كعروة بن الورد (١) والسليك بن السلعة (٢) ولسنا نرى أن لفظي السلب والتهب يشملان سبى النساء ، إلا بتكلف لا نرى ما يدعو إليه .
وإذن فمن الواضح أن هذا التعريف غير جامع للموضوع ، وغير مانع عنه غيره .

ولذا كان لابد من محاولة وضع تعريف للصعلكة ، فنأمل أن يكون التعريف الأقرب هو « احترام السلوك العدوانى بقصد المغنم » .

وعلى طريقة المناطقة نقول : نعتى بالاحتراف ملازمة العمل الذى يشبه الحرفة ، من حيث استمراره ، ومن حيث كونه العمل الاساسى فى حياة صاحبه وللورد الاساسى لميشتته ورزقه أيضا ، ووضعه فى التعريف ليخرج الذين يزاولون أعمال الصعلكة ولكن فى غير صورة الاحتراف ، كفارات بعض القبائل على بعض ، وكمزاوله بعض الافراد لأعمال الصعلكة فى غير احتراف ، كما اشرفنا الى أعمال بعض السادة والمشهورين الذين كانوا يغزون ويغرون ويقطعون الطريق بقصد الغنيمة ، ولكنهم لم يحترفوا هذا السلوك ، وقولنا « السلوك العدوانى » نعتى به كل الأساليب التى فيها عدوان على الغير مقصود به الغنيمة ، كاللصوصية وقطع الطريق والفارات ونحو ذلك ، ووضعه فى التعريف ليشمل كل هذه الأساليب ومع أنها لفظان متواصفان يكمل أحدهما معنى الآخر ، إلا أن كل لفظ منها يخرج ما لا يتفق مع التعريف ، فلفظ « سلوك » يقصد به اخراج مالا يوصف بأنه سلوك عملى ومع ذلك يكون عدوانا ، ويقصد به أحيانا للكسب ، ويتخذ صاحبه حرفة أيضا ، كالهجاء الذى احترفه بعض الشعراء ليتكسبوا به كالخطبة ، أعنى بالرهب منه ، فلولا لفظ « سلوك » لشمّل التعريف مثل هذا ، لأن الهجاء بالنسبة لمثل هذا الشاعر ، احترام ، وهو عدوان ، ومقصود به الكسب والمغنم فى رحلاته بهذه الحرفة ، ولفظ « عدوانى » يقصد به اخراج مثل التسول ، فانه احترام سلوك معين بقصد الكسب والمغنم ، ويخرج أيضا المدح الذى احترفه بعض الشعراء متنقلين به قاصدين الكسب والمغنم ، ولكن اجتماع اللفظين « سلوك عدوانى » يخرج كل ما شابه ذلك من غير أعمال الصعلكة ، مع شموله لكل أساليب الصعلكة وأعمالها . وقولنا « بقصد المغنم » ليشمل الواقع فى حياة الصعاليك ويعبر عنه ، فإن احترامهم للصعلكة مقصود منه التعيش ، ومجاورة الفقر ، وليخرج أيضا احترام سلوك عدوانى لغير قصد المغنم ، كاحتراف مهلهل بن ربيعة

(١) للرجع السابق ١٢٠/٢ والنمل الثار وإشيف اشرف .

(٢) انظر شرح التبريزى لحامة ابن تمام ٣٧٨/١ فى شرح رثاء أم السليك اياه .

أخي كليب الحرب ضد قاتلي كليب أربعين سنة . لا يرى لغیر الحرب والشار
فی حیاته موضعا ، ومع ذلك لا يعد مثل ذلك من الصعلكة ، لأنه لا يقصد
به المغنم ، ومع أن « قصد المغنم » لفظان متضایقان أيضا یكمل أحدهما
معنى الآخر ، إلا أن لكل منهما دلالة مستقلة ، غیر دلالة الإضافة فی
اجتماعهما ، فلفظ « قصد » یرج به السلوك العدواني الذي تترتب
عليه مقائم غیر مقصودة لذاتها ، كالحروب ، فلیس كل من یحصل علی غنیمة
من الحرب ، مهما زاول الحرب أو احترفها یعتبر صعلوكا ، لأن سلوكه لیس
أساسه « الغنیمة » ، وإنما جاءت الغنیمة نتیجة ولیست قصدا ، ولفظ « المغنم »
آثرناه علی غیره من التعبیرات مثل « الحصول علی المال » أو « السلب والنهب »
لیشمل بعض أهداف الصعاليك كسبی النساء ، فإنه یعتبر مغنما ، ولكنه
لا یعتبر حصولا علی مال ، أو سلبا ونهبا ، إلا بتكلف لا نرى ضرورة تدعو
إلیه .

ومن ذلك نرى أن تعریف الصعلكة بقولنا هی « احتراف السلوك العدواني
یقصد المغنم » شامل لجوانب الصعلكة ، ومائع غیرها من مشاركتها فی التعریف

نشأة الصعلكة

أ - أسبابها

من الصعب تحديد بدء الصعلكة من الناحية الزمنية لأكثر من سبب ، فمن
ذلك أن التاريخ العربی نفسه قبل الاسلام غیر محدد علی وجه الدقة ، والمؤرخون
حين یحددون بدء التاريخ فی أمة من الأمم یلجأون غالبا إلى أمرین ، أحدهما
روایات المؤرخین وكتاباتهم عن هذه الأمة بصورة محددة ، والآخر الآثار التي
تركها أجيال هذه الأمة فی توال وتتابع بحيث یمكن مقارنة آثار جیل بجیل
آخر ، أو نسبة كل مرحلة من مراحل هذه الآثار إلى جیل معین .

ولكن الجزيرة العربية لظروف كثيرة أهمها عدم قیام دولة جامعة فیها
قبل الاسلام لم یتيسر لها أحد الأمرین السابقین بصورة مجددة للتاريخ ، فلم
یظهر فیها قبل الاسلام مؤرخ یسجل لنا تاریخها ، ولظروف كثيرة أيضا كمرلتها
وعدم قیام دولة جامعة فیها قبل الاسلام لم یتردد علیها مؤرخون یسجلون لنا
تاریخها ، وأیضا لظروف كثيرة لا یقتضى المقام سردها لم تكن لها آثار

ذات قيمة تاريخية من حيث تحديد التاريخ . فلم يبق لنا من تاريخها قبل الإسلام الا هذه الروايات المتناثرة التي لا تخلو من اضطراب حيناً ، ومن طابع أسطوري خرافي حيناً آخر ، والتي كان أهم مصادر الحفاظ عليها امرين ، أحدهما اعتزاز العرب بالشعر ، ولذلك نجد أقرب ما رواه الجاهليون من تاريخهم الى الحقيقة هو ما رووه من شعر مجتمعاتهم وأسلافهم ، والثاني تقديس القبيلة لأمجادها وخاصة مظاهر القوة فيها وفي تاريخها ، ولذلك نجد أن كل ما وصل إلينا من تاريخ الجاهلية يكاد ينحصر في هذين ، الشعر والأمجاد . وما لا شك فيه أنه لولا قيام الدولة الإسلامية لذابت هذه الروايات كما ذاب غيرها في ثنايا العصور ، وأقول الدولة لأن الإسلام كمجرد دين ليس من شأنه أن يحقق هذه الغاية التاريخية ، ولكن ميزة الإسلام أن من أهدافه الأساسية تكوين الدولة . وحين قامت هذه الدولة حققت فيما حققت حفظ التاريخ العربي . ولكنها لم تجد من التاريخ السابق لها الا هذه الروايات التي لم تستطع أن توغل في الجاهلية أكثر من نحو قرن ونصف من الزمان ، ثم اعتراها الوهن (١) ثم شوهتها الخرافات والأساطير حتى لم تعد قبل هذا التاريخ صالحة للتاريخ ولا ملائمة للعقول (٢) كأحاديثهم عن بقايا عاد وطسم وجديس .

والصعلة لم تكن حدثاً من الأحداث الطارئة أو العارضة في حياة المجتمع العربي قبل الإسلام ، وإنما كانت ظاهرة نبعت من ظروفه ولازمته كجزء منه ، ولذلك لا نتوقع أن يكون لها تاريخ مستقل ، وإنما يرتبط تاريخها بتاريخ المجتمع نفسه ونتيجة لذلك نجد أن الصعلة لازمت كل العصور الجاهلية التي ورد لنا منها تاريخ وكل أماكن الجزيرة العربية تقريباً ، وفيما يأتي من الأمثلة توضيح لذلك .

وحين نأتى الى بيان الأسباب التي أدت الى ظهور الصعلة في المجتمع الجاهلي نقول :

قبل الخوض في تفصيل هذه الأسباب ينبغي أن نفرق بين الأحداث سواء كانت عادية أو غير عادية ، وبين الظواهر الاجتماعية ، فالأحداث كالحروب والثورات وما يعرض في حياة الجماعات والأمم تتميز بأنها محدودة بزمان ومكان ، وترتبط بها أسباب مباشرة في أغلب الأحيان ، وغير مباشرة في أقل

(١) أنظر خزنة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٣ على سبيل المثال وانظر تاريخ الامم والملوك للطبرى ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٩ عن أصل السهم وشامة القمر حيث يزعمون أن السهم ولدته القوس وشامة القمر أثر من جناح ملك .

الأحيان ، ويرتبط بها الاثنان في كثير الاحيان ، ويكفى لتعليلها أحيانا سبب واحد .

أما الظواهر الاجتماعية - كانتشار عادة الثار مثلا في مجتمع ما - فلا ترتبط غالبا بسبب مباشر ، ولا يحدثها زمن معين ، ولا مكان معين ، ولا يكفي في تعليلها غالبا سبب واحد .

فمثلا في المجتمع الجاهلي نرى حرب البسوس، مع أنها ظلت نحو أربعين عاما تزلزل أماكن كثيرة في الجزيرة العربية (١) إلا أنها لا تعدو أن تكون حدثا من الأحداث العارضة في المجتمع ، ويمكن تحديد الأماكن التي دارت رحاها فيها ، وكذلك زمانها ، ويمكن تحديد السبب المباشر لها ، وهو رمى كليب ناقة البسوس بسهمه ، واستنفار البسوس جبرتها ، والسبب غير المباشر هو التنافس والصراع الخفي بين جساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، وذويهما من بكر وتغلب .

أما الصعلكة فلا يمكن أن نعتبرها حدثا عارضا في المجتمع الجاهلي ، ولا يمكن أن نحصرها في زمن أو أزمان ، ولا يمكن أن نحصى الذين دخلوا نطاقها - من الشعراء وغير الشعراء - فقد لازمت التاريخ الجاهلي منذ كان تاريخا ، وشملت كل أماكن الجزيرة تقريبا كما سنتبين من الأمثلة ، وكذلك لا نستطيع أن نقرنها بسبب واحد مباشر أو غير مباشر بحيث يكون هذا السبب وحيدا في نشأتها .

ولئن كان الفقر قد ارتبط بالصعلكة من حيث أن مدلولها اللغوي يعني الفقر ، ومن حيث أن الصعاليك كان يغلب عليهم الفقر ، فأننا لا نستطيع أن نجعل الفقر سببا وحيدا ولا حتى سببا مباشرا للصعلكة ، وذلك لعدة أسباب، منها أن المجتمع الجاهلي ليس المجتمع الوحيد الذي تعرض للفقر ، فما أكثر ما تعرضت جماعات وأمم في القديم والحديث وفي عصرنا الحاضر (٢) لفقر أشد من فقر العرب ، بل لمجاعات طاحنة ، ومع ذلك لم يلزم أن يترتب عليها ظهور ظاهرة كالصعلكة في المجتمع العربي ، ومنها أننا نجد من أحاديث الرواة عن الصعاليك (٣) ، ومن شعر الصعاليك أنفسهم (٤) أن الفقر وحده لم يكن هو الدافع لهم دائما إلى الصعلكة ، ومنها أن كثيرا من سلوك الصعاليك وخاصة قطع الطريق والفتك والاغارة والسلب ، لم يكن وقفا على الصعاليك ولا

(١) خزائن الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٢٣ - ٢٩ في قصة طويلة وأحداث كثيرة وكذلك

المقد الفريد ج ٢ ص ٧٧ - ٨١ .

(٢) كما يشاهد في كثير من ولايات الهند منذ بضع سنوات حتى الآن .

(٣) أنظر الأمال للقال ج ٢ ص ١١٨ .

(٤) أنظر المقد الفريد ج ١ ص ٣٤ (باب لرسائل العرب) .

من يوصفون بالفقر وحدهم ، وإنما زاوله كثير من سادات العرب وزعماء القبائل والأغنياء (١) الذين لا يمكن أن يعدوا من الصماليك ، ولا يمكن أن يوصفوا بأن الفقر هو الذى دفعهم الى سلوك ما يسلكون .

ولسنا بذلك نقلل من أهمية الفقر فى كونه من أسباب الصعلة ، فالواقع أنه من الأسباب البارزة والمهمة فى الصعلة ، ولكننا نفى أن يكون هو السبب الوحيد أو المباشر للصعلة ، ولكنها أسباب كثيرة مختلفة ، متفاوتة فى أهميتها بالنسبة للصعلة .

ويمكن أن نحصر أهم هذه الأسباب فيما يأتى :

١ - عدم وجود دولة جامعة

ولسنا نعنى الشكل الظاهرى لمعنى الدولة الجامعة ، وإنما نعنى عدم وجود قوة حيوية متحركة تسيطر على الأمة ، ويحس أفراد شعب هذه الأمة ، بأنهم مرتبطون بهذه القوة وخاضعون لها خضوعاً يؤثر فى سلوكهم .

وليس من اللازم أن تكون هذه القوة فى شكل دولة بالمعنى المفهوم للدولة، بل قد تكون كذلك ، وقد تكون هذه القوة فى صورة قانون يخضع له أفراد الأمة ويحسون بسلطانه على نفوسهم وسلوكهم ، وقد تكون غير ذلك ، فليس المهم فى الشكل وإنما فى المضمون ، وإن أيا من الأمور السابقة إذا فقد سلطانه على النفوس ليصبح مجرد شكل ظاهرى ، فإنه يفقد اشعاعه ، وبالتالي يفقد كيانته الحقيقى من حيث التأثير والتوجيه .

فالقانون مثلاً إذا فقد صفة الالتزام ، وضعف سلطانه على النفوس ، بحيث لا يشعر الأفراد بأنهم ملزمون بتنفيذه ، فإنه يفقد كيانته الحقيقى كقانون ، ويصبح مجرد اسم وهيكلا لا حياة فيه ولا تأثير له ، وكذلك الشأن بالنسبة للدين والدولة وغيرهما .

فهذه القوة المؤثرة الجامعة هى التى نعنى فقدانها فى العرب قبل الاسلام . فلم تكن لهم دولة جامعة ، ولا قانون جامع ، ولا دين جامع .

فأما عن الدولة ، فمن المعروف أنه لم تقم للعرب قبل الاسلام دولة تجمعهم فى تاريخهم كله ، وأنه لم يكن هناك إلا هذه الدويلات أو الإمارات التى قامت فى جنوب الجزيرة وشمالها .

(١) على سبيل المثال مجيع الأمثال ج ٢ ص ٨٧ - ٩٠ والأمثال للقال ج ٢ ص ٢٧١ (من دريد بن النخعة) .

ففى الجنوب قامت دولة معين فى شمال اليمن ، وكانت على جانب لا بأس به من القوة والثروة (١) ، وظل حكمها نحو خمسة قرون ونصف (٢) .

ثم قامت بعدها دولة سبأ (٣) التى تبوأ بحديث القرآن الكريم عنها مكانا رفيعا (٤) ، وكانت جنوب معين ، ثم انتقل سلطان معين اليها ، وظل حكمها نحو ثمانية قرون (٥) ، وخلال حكمها تهدم سد مأرب الذى كان لتهدمه اثر كبير فى حياة العرب الاجتماعية ، حيث ترتبت على انهدامه هجرات كثيرة ، عمت أنحاء الجزيرة تقريبا كمسيرة بنى ثعلبة بن عمرو الى يثرب ، فيتكون منهم فيما بعد الاوس والخزرج ، وكذلك بنو حارثة بن عمرو - وهم خزاعة - الى مكة حيث أجلوا جرهما القحطانية عن الحرم واحتلوه مكانها ، وكذلك سار بنو عمران بن عمرو نحو عمان فأصبحوا فيما بعد أزد عمان ، وسار بنو جفنة ابن عمرو الى الشام ونزلوا بماء يقال له غسان فنسبوا اليه ، وسار بنو لحم بن عدى الى الحيرة وأقاموا فيها ، ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة ، وسارت طيء بعد هجرة الأزد الى الشمال فنزلوا بالجبلين أجا وسلمى فى الشمال الشرقى من المدينة ، وسارت كليب بن وبرة من قضاة الى بادية السماوة طرف شمال نجد (٦) وهكذا كان لحادثة سيل العرم وانحطام السد اثر كبير فى مجرى الحياة الاجتماعية فى الجزيرة كلها (٧) وهذا مما يعيننا فى موضوع البحث فان القحط والمجاعات التى يخلفها السيل وتهدم السد الذى ترتكز عليه الحياة الاقتصادية ، ثم ما تعانیه القبائل المهاجرة من قسوة العيش أثناء الهجرة ، ثم فى المكان الذى تهاجر اليه فى بدء تكون حياتها الاقتصادية ، واحتكاكها فى خلافت وحروب مع القبائل المقيمة فى هذا المكان نتيجة للصراع على ملكية موارد البيئة ، وعلى تثبيت الكيان الاجتماعى والنفوذ القبلى ، كل ذلك من العوامل التى تلقى ضوءا على نشأة الصعلكة بما يمكن أن تساهم به فى نشأتها .

ونعود الى حديث سبأ فنقول انه بعد تفكك المملكة السبئية قامت المملكة الحميرية التى ظل حكمها لليمن من قبل الميلاد المسيحى بنحو قرن حتى غزو

(١) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٤ .

(٤) سورة النمل الايات ١٩ - ٤٤ .

(٥) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٦) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٨ - ١١ .

(٧) انظر معجم ما استمعج للبكرى عن هجرات القبائل العربية وانسابها ج ١ من ص ٥

ص ٩١ . وانظر الزمخشري فى الكشاف تفسير الآية ١٨ من سبأ .

الأحباش لليمن في قصة الفيل الشهيرة قبيل الاسلام (١) ، واستمر حكمهم نحو سبعة قرون .

هذه ممالك الجنوب ، وقد كانت في الطرف الجنوبي للجزيرة .
وأما في الطرف الشمالي فقد قامت مملكتان صغيرتان ، وكان نفوذ الملك فيها يكاد يكون محصورا في أبناء قبيلته ، فهو في واقع أمره رئيس قبيلة ، يمتاز عن رؤساء القبائل بأنه ملك متوج ، وبأن سلطانه أثبت ، بما يحوطه من وسائل الملك ، وهاتان المملكتان هما مملكة الحيرة ، وهي من المناذرة الذين جاؤوا الفرس ، وموقعها على بحيرة النجف قرب الكوفة ، ومنهم النعمان ابن المنذر (٢) .

ومملكة غسان ، من قبائل قضاة التي هاجرت من اليمن الى شرق الاردن (حاليا) وهاجر بطن منهم (من الازد) الى الشام على ماء يسمى غسان فسموا به ، واستقروا فيما حول دمشق وتدمر ، متجولين في فلسطين ولبنان (٣) (حاليا) .

أما الحجاز - تهامة وغوره (٤) - ونجد فلم يعرفا في تاريخهما كله قبل الاسلام نظام الملك والدولة انما عاشا على النظام القبلي .

ومن هذا العرض السريع نستنبط أنه لم تكن للعرب دولة تجمعهم بحيث يشعرون معها بالخضوع والالتقياد ، وأن هذه الممالك التي قامت لم تبسط سلطانها على الجزيرة ، وانما كان بعضها أشبه بالنظام القبلي كما في ممالك الشمال - الحيرة والفسانية - وبعضها كان أشبه بالامارات المحلية كالمملكة للمعينية والحميرية . على أن هذه الامارات لم يستقر فيها الملك بالمعنى الحقيقي الكامل له ، وانما غلب عليها نظام العشائر والقبائل في عصور كثيرة ، فالمملكة المعينية مثلا لم تكن ملكا خالصا ، وانما كانت خليطا من ملوك متوجين ومن رؤساء عشائر (٥) ، والمملكة الحميرية كانت نهبا في الصراع بين الحميريين والكهلانيين (٦) فلم يكن لاحدهما اذن من السلطان الثابت والهيبة المستقرة ما يبسط أثره على الحياة - الاجتماعية وعلى سلوك الأفراد ، ومن ثم لا يرى الأفراد حاجرا على سلوكهم ولا حائلا بينهم وبين ما يرتضونه لأنفسهم من سبل السلوك ، سواء كان هذا السلوك صعلكة أو غيرها .

(١) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٨ - ١١ .

(٢) تاريخ الاسلام السابق ج ١ ص ٣٢ .

(٣) نزلة البشائر ج ٢ ص ٣٠٢ نقلا عن الصحاح والاصمعي ، وفي القاموس المحيط مادة (نجد) جبل الفود هو تهامة .

(٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢١ .

(٥-٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢ .

ونجد الصعاليك أنفسهم يعتزون بهذا المعنى ، ويتوارثونه ، مفتخرين بأنهم لا يرون لأحد سلطانا على حياتهم وسلوكهم حتى بعد أن أصبحوا فى ظل الملك والسلطان فهذا عبد الله بن سبرة الحرشى يقول :

إذا شالت الجوزاء والنجم طالع فكل مخاضات الفرات معابر
وانى إذا ضمن الأمير بأذنه على الأذن من نفسى إذا شئت قادر(١)

ومالك بن الربيع صعلوك بنى مازن ، لا يخضعه سلطان بنى أمية القوى العريض فيتوعددهم وعيد الند المكافى ، ولا تهربه سطوة الحجاج الثقفى وبأسه الغنيف ، فيهجوه الهجاء البالغ ، ويسخر منه السخرية المرة الموحجة ، فى تعريضه بتعليم الحجاج الصبيان فى سابق عهده فيقول لبنى مروان وللحجاج -

ان تنصفونا يال مروان تقترب اليكم والا فاذنوا بعباد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلادى
فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده اذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد ايباد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويقادى (٢)

ولم يكن هناك حينئذ من يتوقع منه أن يجترىء على الحجاج على الأخص بمثل هذا الهجاء غير مثل مالك بن الربيع ، لا لأنه مالك أو غيره ، وانما لأنه أحد الصعاليك الذين يملكون من سعة الأرض مالا يملكه غيرهم ، حيث يرون - دون غيرهم - أن كل مكان على وجه البسيطة يمكن أن يكون وطننا لهم ، كما يقول مالك فيما سبق « وكل بلاد أوطنت كبلادى » وفوق ذلك فان الهجرة ليست عبثا ولا مبغضة لهم ، وانما هى أمنية يعبر عنها مالك فى هذا التعبير الجميل عن شوق ناقتة الى ريح الفلاة فيما سبق .

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صوادى

وهذه النزعة فى صعاليك المجتمع الاسلامى ، أعنى نزعة الشعور بالتححر من السلطة ، لم تكن وليدة البيئة ولا العصر ، فانهما لم يكونا حينذاك يسمحان بذلك ، وانما كانت وليدة « المهنة » وهى الصعلكة ، وميراثا متنقلا بين الصعاليك منذ الجاهلية .

وأما فى الجاهلية فلم تكن هناك سلطة « رسمية » فوق الصعاليك حتى نستشهد لاستهانتهم بها ، فلم تكن هناك الا سلطة المجتمع بعاداته وتقاليده ،

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام ج ١ ص ١٨٥ وفى شرح التبريزى أن عبد الله بن سبرة من الفتيان وحرض موضع باليمن .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٦ .

وحى هذه السلطة أباهما الصعاليك ، لأنهم لا يؤمنون بأى سلطان من أى نوع ،
ونجد هذه النزعة شائعة فى شعرهم ، فالشعرى يعبر عن ثورته على المجتمع
البشرى كله بالهجرة عنه الى مجتمع الوحوش ، ساخطا على الأول ، راضيا
عن الثانى فيقول من اللامية الشهيرة •

القيموا بنى لى صلور مطيكم فانى الى قوم سواتم لامييل
وفى الأرض منى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل
كمرك هافى الأرض ضيق على امرى سرى راعبا أو راهبا وهو يعقل

ثم يتحدث عن القوم الذين يريد أن يهجر الناس جميعا من أجلهم ، فإذا
من ذنب ونمر وضع •

ولى دوتكم اهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال
هم الاصل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بما جر يخلد

وتأبط شرا يابى أن يخضع لأعراف المجتمع وتقاليده ، ويصر على أن
يفرض نفسه وسلوكه على المجتمع ، فإذا لم يقبل الناس منه ذلك فإن فى
الأرض متسعا له لا يعبر عنه بالأماكن ، وإنما بالآفاق •

انى زعيم لئن لم تتركوا عدلى أن يسال الحى عنى اهل آفاق
أن يسال القوم عنى اهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاقى (١)

وهكذا نجد نزعة التحرر من السلطة والنفور منها شائعة فى شعر
الصعاليك ، ومعنى ذلك أن الصعلكة والسلطة - الحقيقة المتمكنة - لا يتفقان ،
فقد وجدت أو بمعنى أصح شاعت الصعلكة لعدم وجود هذه السلطة ، ومفهوم
ذلك أنه حين توجد هذه السلطة لا توجد الصعلكة ، ولو كظاهرة اجتماعية ،
وهذا لا ينفى وجودها كحالات فردية ، فإن الشذوذ لا يخلو منه مجتمع •
وهذه الحقيقة هى التى تهدف للوصول إليها ، فإن عدم وجود هذه السلطة
فى المجتمع الجاهل كان من الأسباب الأساسية فى وجود الصعلكة كظاهرة ،

هذا عن الدولة ، وأما عن القانون كصورة من صور القوى المهيمنة المحددة
لسلوك أفراد المجتمع ، فنقول أنه من الواضح أنه لم يكون هناك قبل الاسلام
قانون عربى ، والواقع أنه بانتفاء وجود الدولة ينتفى وجود القانون ، لأن
القانون أو أى تشريع لابد له من سلطة تنفذه وتحميه ، وإذا انتفت هذه
السلطة ينتفى الوجود الحقيقى للقانون ، ولو افترضنا وجود قانون بدون
سلطة متفذة حامية له يصبح وجوده كلا وجود ، من حيث تأثيره والزامه
للأفراد ، والأدنان - حتى الباطل والبدائى منها - بوصفها تشريعات اجتماعية

(١) الأماي للقال ج ٣ ص ٣٠٥ •

(٢) الفضليات للضبي ص ٢٧ •

وخلقية روحية ، قوتها ليست فى ذاتها وإنما فى القوة الالهية التى يعتمدها أفراد المجتمع كأمّة ورامها ، فاعتناق الفرد لأى دين ، وانقياده له ليس مصدره الدين نفسه ، وإنما القوة الالهية التى يعتقد أنها مصدر هذا الدين وحماه ، والتزامه الانقياد لهذا الدين إنما مصدره الخوف من هذه القوة الكامنة وراء هذا الدين ، بصرف النظر - فى هذا المعنى - عن صحة عقيدته أو بطلانها ، فالمهم هو مجرد اعتقاده ودرجة هذا الاعتقاد ، فإن ذلك هو الذى يحدد انقياده ومدى تأثيره فى نفسيته وسلوكه .

وحين نتحدث عن العرب الجاهليين فى مجال التشريع بنوعيه الوضعى والدينى نقول :

أما من ناحية التشريع والقانون فهو كما نقول أنه من المعروف أنه لم يكن هناك قانون بهذا المعنى ، وكل ما كان هناك هو العرف الاجتماعى ، فى صورة أعراف وتقاليد تواضع عليها المجتمع نتيجة لظروفه ومقتضيات حياته ومعيشته كتحرير القتال فى الأشهر الحرم ، وحماية الجار ، وخلع الشخص الذى تكثر جناياته فيعلن قومه أنهم برآء منه ومن جناياته فلا يأخذهم أحد بعدها بجريرة له (١) .

الا أن هذه الأعراف كان ينقصها وجود القوة التى تضمن تنفيذها ، فلم يكن لها من قوة أو سلطة الا العرف الاجتماعى ، ولهذا كان تنفيذها يتأثر بالاعتبارات الذاتية أكثر من القيود الاجتماعية ، بمعنى أن القبيلة تجاه هذه الأعراف ، كانت تنظر الى ذاتها أولا ، فإذا وجدت فى نفسها الشجاعة والقوة بحيث لا تستطيع القبائل الأخرى أن تجبرها على تنفيذها كانت حينئذ ترى نفسها فى حل من التقيد بها ، ما لم يرتبط بها معنى آخر كالاعتزاز بالكرامة والخلق ، حين ترى فى التحلل من الموقف الذى يقتضيه العرف ما يسىء الى سمعتها أو كيانها بين القبائل ، على أن مسألة المجتمع كانت تأخذ أحيانا وضعا نسبيا ، فتستطيع القبيلة اذا كانت ذات كيان قوى أن تجعل من نفسها مجتمعا خاصا يمكن أن يخالف عرف المجتمع العام اذا وجدت فى ذلك مصلحة ذاتية لها ، كما كانت تفعل قريش فى احرامها بالحج فى الجاهلية ، حيث كانت تحرم بالحج من داخل الحرم ، فى حين كان يتعين على سائر العرب أن يحرموا من خارجه .

ولهذا نجد التقيد بهذه الأعراف يأخذ عند العرب طابعا عجيبا من التناقض ، فيتشبثون أحيانا بها الى حد المبالغة الشديدة ، ويستهيئون بها أحيانا الى حد التجاهل ، بل قد يتعدون حدودها الى النقيض .

(١) القاموس المحيط مادة خلع .

فمثلا ايواء الضيف ، كان من هذه الأعراف ، حتى أن ما يترتب عليه من الجود والبذل كان من أهم مقومات السيادة ومجالات الفخر ، وقد بلغ من كفايتهم فيه الى حد مثل قصص حاتم الطائي المشهورة في الجود ، والى مثل قصة أبي خراش - أحد مصاليك بني هذيل - التي كان حرصه فيها على اكرام ضيوفه سببا في هلاكه ، حينما أخذ يهيئ لهم الطعام والذبيحة ، ثم رجاهم أن يحضروا ماء من مكان قريب فأبوا الا أن يحضروه فبؤ ، فنزل على ارادتهم وأحضر الماء ، ولكنه أثناء عودته به تلذغه حية ، ولكنه يتحامل على نفسه فيكمل رحلته بلقاء اليهم ، ويزداد تحاملا فيأبى الا أن يتم لهم الطعام دون أن يخبرهم حتى لا يفسد عليهم شهيتهم للطعام ، وتبلغ الصورة ذروتها حينما يبيت عندهم وهو يعاني سكرات الموت دون أن يخبرهم بأمر اللدغة ، حتى لا يفسد على لزمهم التمتع بضيافته وبالنوم الهنيء ، ثم يصبحون فينظرون فإذا هو يحتضن ويكون ختام ضيافتهم تشييع جنازة أبي خراش ، وقد عقب عمر بن الخطاب بعد ذلك على قصة أبي خراش وأضيافه اليمينيين ، بأنه لولا أن تذهب سنة لأمر الأستضاف يبنى بعدها أبدا ، (١) وجعل الأصمعي هذه القصة سببا في نهى النبي عن لختناث ثم القرية (٢) بل قد تذهب المبالغة ببعضهم الى حد استضافة الوحوش ، كما فعل الفرزدق بن غالب حينما استضاف ذئبا ، وأبى الا أن يشاركه الذئب الطعام ليقول بعد ذلك مفتخرا .

والمجلس عسال وما كان صاحباً	رفعت لنا رى موهنا فأتاني (٣)
فلما دننا قلت إن دونك أننى	واياك فى زادى لمشتركان
فبت القد الزاد بينى وبينه	على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تكسر ضاحكا	وقائم سيفى من يدي بمكان
تشر فلان عاهدتني لا تخونني	نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وقلت امرؤ يا ذئب والفدركنتما	أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غرنا نيهت تلتمس القسرى	رمالك بسهم أو شباة سنان (٤)

ومع هذه الصور التي ترتفع بالاهتمام بالضيف وبالجود الى هذه الدرجة نجد صورة أخرى تنزل به الى أدنى درجاته بل تتجاوز حدوده الى صور غريبة من البخل والشح تبلغ من كثرتها حد أن يفرد لها الجاحظ كتابا كاملا (٥) .

ومن أعرافهم حفظ الجوار ، فقد كان من حق الخليل والمستضعف والخائف وغيرهم أن يلجأ الواحد منهم الى من يجيره ، ومن الحق على المجير أن يحمي

(١) خزائن الأدب للبغدادي ج ١ ص ٢٩٧ .

(٢) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٣٦٧ واختناثها الشرب من ليها بعد كسره الى الخارج .

(٣) المجلس الأدب الأمير ، وعسال خليف اللحية : رفعت لنا رى أى رفعت لنا رى له أى أظهرتها له ليظهر اليها .

(٤) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢١٦ .

(٥) انظر كتاب البخله للجاحظ .

جاره مما يحمى منه نفسه وأهله ، ونرى في هذا العرف أيضا صورا من المتناقضات فأحيانا تبلغ صور المحافظة على الجوار الى ذروة الوفاء ، كالسموال ابن حيان الذى يضرب به المثل فى الوفاء (١) والذى بلغ من وفائه أن أمرا القيس الكندى استودعه دروعا له ثم مات ، فأراد ملك كندة أن يستولى على هذه الدروع فأبى السموال أن يسلمها الا الى ورثة امرئ القيس ، فغزاها الملك وحاصره ، فتحصن منه السموال ولكن الملك استطاع أن يأسر ابن السموال ، ثم طلب الملك السموال فأشرف عليه من الحصن ، فقال له الملك متوعدا وابن السموال عنده : سأذبح ابنتك ان لم تسلم الدروع وتحت وطأة البشاعة التى ارتسمت فى نفس السموال لذبح ابنته قال له : أنظرنى الى غد ، ثم جمع قومه وأهل بيته فكلهم أشار بتسليم الدروع ، ولكن الوفاء كان أقوى فى نفس السموال من كل شيء ، فحين أصبح أشرف على الملك مكررا رفضه فى حزم واصرار ، وجاء الملك بابن السموال ليذبحه أمام عينى أبيه ، ثم ذبحه والسموال ينظر اليه ، واحتفظ السموال بالدروع ، ثم قدم بها الموسم فسلمها الى ورثة امرئ القيس ثم قال :

**وفيت بادرع الكندى ائى اذا ما خان اقوام وفيت
وقالوا انه كنز وغيب ولا والله اغدر ما مشيت (٢)**

بل بلغ ببعضهم أن يجير بالقبر ، كما كان الفرزدق يجير من استجار بقبر أبيه (٣) كما أجاز المرأة الجعفرية التى استجارت بقبر أبيه وفى ذلك يقول :
عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب فلا والذى عاذت به لا اضيرها (٤)
بل كان بعضهم يجير الوحوش فتصبح حمى له لا يمس ، كما كان كليب ابن ربيعة يقول :

« وحش ارض كذا فى جوارى ، فلا يهاج » (٥)

ومع ذلك فهناك صور أخرى كان ينزل فيها الحفاظ على الجار الى درجة واهية من الوفاء ، تبلغ أحيانا حد التجاهل والتنكر ، فمن ذلك قصة السليك ابن السلكة مع ابن مويك الحثعمي ، فقد استجار السليك بأبن مويك ، وإذا أسد بن مدرك الحثعمي يعدو على السليك وهو قافل من احدى غزواته فيقتله ، وأراد ابن مويك مجيره أن يثار له أو يطلب ديته ، ولكن أسدا يقول :

(١) مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٩١ .

(٤) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٩١ .

(٥) خزائن البغدادي ج ٢ ص ٢٤ والمقد الفريد ج ٢ ص ٧٨ .

والله لا أديه ولا كرامة ، ولو طلب في ديتة عقالا ما أعطيته ويقول :
انى وقتلى سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر (١)
وهكذا تنتهى حياة السنيك دون نار أو دية ، كما كان ينبغي فى عرف
الجاهلية .

ومحرز بن المكبر الضبى يهجو بنى عدى الذين أغير على إبله فلم يحركوا
ساكننا وهو جارهم ، حتى اضطر الى أن يستجير بجيران آخرين من بنى
مازن (٢) فيقول :

أبلغ عديا حيث صارت بها النوى وليس للنهر الطالين فناء
كسالى اذا لاقيتهم غير منطق يلهى به التبول وهو عناء
فهلا سعيتم سعى عصبة مازن وهل كفلاى فى الوفاء سواء ؟ (٣)

وهكذا حين نتبع تقيد المجتمع الجاهلى بأعرافه وتقاليده (٤) ، نجد هذا
التقيد يخضع أكثر ما يخضع لعاملين ، القوة والمنفعة الذاتية - لا العامة -
فحيثما وجدت القوة خضع لها المنطق والعرف ، وحيثما وجدت المنفعة الذاتية
كانت أول الأهداف ، وهذا لا يمنع أن تكون هناك أهداف أخرى من المصلحة
العامة والحفاظ على الخلق الاجتماعى والتقاليد المتوارثة ، ولكنها جميعا ناتى
بعد ذلك الهدف ، وهو المصلحة الذاتية .

ونخلص من هذا الى أن أحد شقى التشريع ، وهو القانون الوضعى لم
يكن معروفا لدى العرب الجاهلين ، وانه كانت هناك أعراف وتقاليد اقتضتها
ظروف المجتمع وطبيعته ، ولكن هذه الأعراف لم تأخذ صفة الالتزام بحيث يتقيد
الأفراد بالتزامها ، ولعدم وجود سلطة تقوم على تنفيذها .

والصعاليك كانوا أقدر أفراد المجتمع على انتهاك هذه الأعراف والتنكر
لها ، لأنهم يملكون أمرين مهمين فى هذا المجال ، أحدهما القوة المتحررة من كل
قيد وسلطان ، والتي تسير دفة الحياة فى مجتمعهم ذاك ، والآخر أنهم أكثر أفراد

(١) مهلب الأغاني للخصرى ١٦٧/٢ .

(٢) شرح حاسة أبى تمام للتبريزى ج ٢ ص ١٩١ .

(٣) ديوان الحسانة لأبى تمام ج ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ . والنوى : البعد .
والشطر الثانى من البيت الأول معناه أن النار لا يذهب مادام صاحبه يطلبه . والتبول : ذو
العداوة والحقد .

(٤) وعن انتهاك تقليد الحرم أنظر معجم ما استعجم للبكرى ج ٢ ص ٥٣٠ فى قتل زهير بن
هرة محرما وشعر أبى خراش فيه وأنظر أيضا لسان العرب مادة فتك عن فتك النيمان وقتله
فى بنى عوف بن كعب أثناء الشهر الحرام وشعر المخبل السعدي فى ذلك وأنظر هجاء أبى
خراش فى الفدر بالجواز ديوان هذيل ؟

المجتمع وطوائفه تحللا من روابطه وعراه ، بل لا يربطهم بالمجتمع الا ما يرون فيه منفعة لهم ، سواء كانت مادية او أدبية ، لذلك لم يكن المجتمع بما فيه من تقاليد وأعراف حجرا على حريتهم وسلوكهم ، ولذلك نرى الشنفرى يقتل قاتل أبيه وهو محرم بالحج ، مخالفا بذلك عرف المجتمع ، بل مفاخرا بذلك فيقول :

قتلنا قتيلا مهديا بملبد جمار منى وسط الحجيج المصوت
جزينا سلامان بن مفرج قرضها بما قلعت أيديهم وأزلت (١)

وأما عن الشق الآخر من التشريع ، وهو التشريع الدينى فنقول :

الواقع أن الأديان نوع من التشريعات ، سواء أكانت تشريعا روحيا ، وخلقيا اجتماعيا ، كسائر الأديان ، أم كانت تشريعا كاملا ، روحيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، وهو الاسلام بالذات .

وفى كل حال فالدين نوع من التشريع ، والقوة التى تحمى هذا التشريع هى الايمان ، الايمان بأن وراء هذا التشريع قوة تحميه ، وتعاقب وتثيب عليه ، ولذلك نجد سلطان الأديان وتأثيرها محصورا فى المؤمنين بها ، ونمنى بهذه القوة القوة الإلهية لدى المؤمنين بالأديان السماوية ، وحين ننظر الى الدين فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، نجد أن الوثنية هى الدين الغالب ، ان كان للوثنية أن تسمى دينا ، بل تكاد تكون هى الدين الوحيد الذى طغى وسيطر عليها ، فباستثناء الأقليات المنتصرة فى شمال الجزيرة وخاصة فى غسان ، وفى جنوبها وخاصة فى نجران والجماعة التى تهودت فى اليمن بزعامة (أسعد أبو كرب) أحد ملوك حمير (٢) وما انبثق عنها من جماعات محدودة ، وخاصة فى يثرب (المدينة) وما حولها ، باستثناء هذه الأقليات كانت الجزيرة بصفة عامة وثنية .

على أننا نلاحظ أن هذه الأقليات كانت منزوية منطقية على نفسها ، ولم يكن نشر أديانهم والتبشير بها من أهدافهم ، وحتى المتحنفون (٣) لم يكن تنصرهم تأثرا بغيرهم ، وإنما كان هروبا من الوثنية التى لم تسفها عقولهم ، ومرحلة من مراحل سعيهم وراء الحقيقة الكاملة التى أظهرها الاسلام ، فلم تحدثنا الأخبار عن نشاط تبشيري فى الجزيرة ، الا ما كان من (يوسف ذو نواس) الحميرى الذى حرق المسيحيين فى نجران ليحملهم على اليهودية (٤) ، والذى أثار عمله هذا موجة من النشاط الدينى لأول مرة فى الجزيرة ، حيث

(١) المغضليات للنسبى ص ١١١ وبنو سلامان بن مفرج هم قبيلة حرام بن جابر قاتل أبيه وأنظر لسان العرب مادة فكك عن انتهاك هذا العرف .

(٢) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٨ .

(٣) ورقة بن نوفل وزملاؤه .

(٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٩ وكان ذلك سنة ٥٣٤ م .

تقرب عليه أن غزت الحبشة اليمن لنتار لشهداء دينها ، ثم حاولوا نشر
للمسيحية بهلم الكعبة الذي لم يستطيعوا تحقيقه كما فى قصة الفيل المعروفة ،
وكانت هذه الموجة قبيل الاسلام ، كما كانت من عوامل التمهيد النفسى له ،
حيث سرت فى الحجاز لأول مرة موجة حية من الاحساس بالاديان السماوية
والصراع حولها ، فالحجاز بالذات كان مركز الوثنية الذى لم تزعزعه هزة
دينية قبل الاسلام .

ومهما يكن من شئ ، فلم يكن هناك دين يوصف المجتمع الجاهلى بالانتماء
له ، وأما الوثنية فلا توصف بأنها دين ، وإنما هى مظهر من مظاهر البدائية
لا تقصر له ، وقصارى تأثيرها فى المجتمع من الناحية الروحية ارضاء جانب
من غريزة التدين فى الانسان ، واحساسه الفطرى بالقوة الالهية ، ولذلك يعبر
القرآن الكريم عن ذلك بقوله « وقالوا ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى »
على أن عبادتهم للأصنام آلت الى نوع من التنافس والعصبية ، حيث خصت
كل قبيلة نفسها باله (صنم) تعبد وتقترب اليه .

وأما من الناحية الاجتماعية السلوكية فلم يكن لعبادتهم الأصنام فيها
أثر ، فلم تحدثنا الأخبار فيما نعلم أن أحدا منهم امتنع عن سلوك معين خوفا
من الأصنام ، أو زاول سلوكا معينا تقربا اليها .

وإذا كانت عبادة الأصنام لم تحمل أحدا من الأفراد العاديين فى المجتمع
على شئ ، ولم تستطع أن تمنع أحدا منهم عن شئ ، فأولى ألا تحمل ولا تمنع
الصعاليك والفتاك ، الذين لا يؤمنون بشئ الا بأشخاصهم ، ضاربين بالمجتمع
وما فيه ، وبسخطه ورضاه عرض الحائط ، كما يقول أحدهم :

غلام إذا ما هم بالفتك لم يسل
الإمت قليلا ام كثيرا عواذله (١)

وحتى المشورة التى تواضع المجتمع على أنها سداد وحزم ، يرونها هم
ترددا وعجزا ، كما يقول قائلهم :

وما العجز الا أن تشاور عاجزا
وما الحزم الا أن تهتم فتفصلا (٢)

وننتهى من هذا الحديث الى أنه لم تكن هناك سلطة من دولة أو قانون
أو دين ، تمنع وجود طائفة كالصعاليك ، أو تحجر على سلوكهم حين يوجدون .

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق .

٢ - ظهور زعامات غير متزنة :

على أن عدم وجود هذه السلطة ترتبت عليه أمور أخرى نعتقد أنها ساهمت في نشأة الصعلكة وفي انتشارها ، وأهم هذه الأمور ظهور زعامات غير متزنة في المجتمع الجاهلي ، كانت هذه الزعامات تتمثل في رؤساء القبائل والعشائر ، وهؤلاء الرؤساء لم يكن هناك قانون ينظم وصولهم إلى الرياسة ، وإنما كانت هناك صفات تعارفوا على أن يسودوا من أجلها من يتحلى بها ، وإن اختلفت نظرة القبائل إلى هذه الصفات ، وصاحب الخزانة يسوق لنا طرفاً منها نقلاً عن الجاحظ فيقول « قال الجاحظ في كتاب شرائع المروءة : وكانت العرب تسود على أشياء ، أما مضر فتسود ذاً رأيها ، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال ، السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وأصبحت في الإسلام سبعة ، وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ قال ببذل الندي ، وكف الأذى ، ونصرة المولى ، وتعجيل القرى ، وقد يسود الرجل بالعقل والعفة ، والأدب والعلم » (١) .

ولكننا مع ذلك نجد أن هذه الصفات ليست ملتزمة ، والرواة أنفسهم يتحدثون بذلك ، فصاحب الخزانة أيضاً ينقل عن الأصمعي « قال الأصمعي : ذكر أبو عمر بن العلاء عيوب جميع السادة وما كان فيهم من الخلال المذمومة إلى أن قال : ما رأيت شيئاً يمنع من السؤدد إلا قد رأيت في سيد ، وجدنا الحداثة تمنع السؤدد ، وساد أبو جهل بن هشام وما طر شاربه ودخل دار الندوة وما استوت لحيته ، وجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سفيان بخيلاً عاهراً ، وكان عامر بن الطفيل بخيلاً قاهراً وكان سيدياً ، والظلم يمنع من السؤدد وكان كليب بن وائل ظالماً وكان سيد ربيعة ، وكان حذيفة بن بدر ظالماً وكان سيد غطفان والحقق يمنع السؤدد وكان عيينة بن حصن أحقق وكان سيدياً ، وقلة العدد تمنع السؤدد وكان السيل بن معبد سيدياً ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلاً والفقير يمنع السؤدد وكان عتبة بن ربيعة مملقاً وكان سيدياً » (٢) .

ومن هذا الاختلاف والاضطراب في تحديد مقومات الرياسة والسيادة ، وفي انطباق هذه المقومات على الذين تسند إليهم السيادة والرياسة نقول أنه من الواضح أنه لم يكن للزعامة كما قلنا قانون ولو عرفى ينظم الوصول إليها . ومن باب أولى لا يوجد قانون - ولو عرفى أيضاً - يحدد المقومات التي ينبغي التحلى بها أو المحافظة عليها أثناء الزعامة ، وآية ذلك أن الروايات فيما

(١) خزانة الأدب للبيهقي ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٠ .

نعلم لم تحدثنا عن زعيم خلعه قومه من الزعامة لاختلال مقومات معينة ، أو
اختلاله بصفات محددة ، ومن ذلك هؤلاء الذين عددهم الأصمعي آنفا .

ويمكن أن نستخلص مما تحدثنا به الروايات عن نظيرة العسرب الى
السيادة ، أنها كانت تحتاج الى دعامين ، أولاهما قوة الشخصية ، ونعني بقوة
الشخصية المدلول الخاص لهذا التعبير ، وليس مجرد القوة أو شدة البأس ،
فقد كان في القبائل كثير من هذا النوع ، وكانوا يوصفون بأنهم شجعان أو
فرسان أو فتاك ، ولكن لم يوصفوا بأنهم سادة . والدعامة الثانية هي الوراثة
ولو غير المباشرة ، بأن يكون طالب الزعامة من بيت ألفت فيه الزعامة ، سواء
كان أبوه زعيما أم غير زعيم .

وليس هذا الحديث مما يعنينا لذاته ، وإنما يعنى الموضوع منه أنه
حينما لم تكن لهؤلاء الرؤساء ضوابط أو أسس تقوم عليها رئاستهم اندفع
بعضهم فى بغي لا يتقبله المجتمع ، وظلم تأباه طبيعة مجتمع لم يالف الذل قط ،
بل ولا مجرد الخضوع ولكن هذا البعض استطاع أن يستغل بعض الظروف
فى شخصيته أو عصبيته ، فيطغى ويبغى ، كما فعل كليب حين كان يحمى
المراعى والوحوش ومواقع السحاب (١) وصورا أخرى من البغى والطفيان
وكهؤلاء السادة الذين تحدث عنهم الأصمعي آنفا (٢) ، وهذا البغى والطفيان من
شأنه أن يدفع بعض النفوس الأبية الى التمرد ومحاولة صده والخروج عليه
كما فعل جسساس بن مرة فى قتله لكليب ، وكما فعل علقمة بن علاثة فى صراعه
مع عامر بن الطفيل الذى عدّه الأصمعي من السادة القاهرين الظالمين كما سبق .

على أنه من مظاهر ظلم بعض هؤلاء السادة احتكارهم موارد الرزق
المحدودة فى البيئة ، وتضييقهم بذلك على الناس بما فيهم أقوامهم ، ويدل
على ذلك ما تفيض به الأخبار من ثرائهم الفاحش إذا قورن بالفقر الشديد
الذى يعانيه الناس من حولهم ، ومن أمثلة البغى فى مصادر الرزق ما سبق
من احتجاز كليب التغلبى سيد ربيعة للمراعى بل ولمواقع السحاب لنفسه
دون الناس جميعا بما فيهم قومه .

وبذلك يكون هؤلاء السادة قد ساهموا مع الظروف فى قسوتها على مجتمع
محدود الموارد . ومن الطبيعى أيضا أن يكون هذا السلوك من جانب بعض
الرؤساء عاملا من عوامل تمرد بعض الأفراد ، ولجوئهم الى وسائل كالصعلكة .
فانه اذا كان فى المجتمع من يأبى الظلم ويتمرد عليه ، ويرفض البغى
ويتصدى له ، واذا كان فى المجتمع من يؤله الفقر الذى سببته السادة فى

(١) خزائن البغدادى ج ٢ ص ٢٤ ، والمقد اللزى ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) خزائن البغدادى ج ٢ ص ٢٧٠ .

خلقه ، وإذا كان في المجتمع من تفريه أموال هؤلاء السادة بالتلصص اليها والسطو عليها ، فأولى الناس بذلك هم الصعاليك ، لأنهم أكثر الناس امتلاكاً للوسائل المضادة ، وأقواهم على استخدامها ، سواء أكانت مضادة البغى والظلم ، أم مضادة الاحساس بالفقر ، أم مضادة الثراء والغنى .

٣ - علم التوازن بين الفقر والغنى :

أجمعت كتب اللغة ومعاجمها كما رأينا ، وكذلك ذوائر المعارف التي أخذت عنها (١) على أن أصل الصعلكة الفقر ، ولا شك أن هذا يلقي ضوءاً قوياً على نشأة الصعلكة وكذلك على حياة الصعاليك المادية ، حيث يبين من هذا الضوء أن من أبرز ما قامت عليه الصعلكة في نشأتها وفي حياتها الفقر .

وشعر الصعاليك أنفسهم ينطق بهذه الحقيقة ، بل يمكن أن يقال أن الفقر كان أبرز المعاني التي تردت في شعرهم على الإطلاق ، بل نكاد لا نجد شاعراً منهم لم يتحدث عن الفقر في صورة من صورته ، وصور الفقر عند الصعاليك لم تكن تمثل فقراً عادياً ، وإنما فقراً قاسياً ، وكانت آثاره من الجوع والهزال والحرمان أشد إمعاناً في القوة ، والسليك يرسم لنا صورة بيئة الصديق عن الجوع وآثاره ، فيقول أنه حتى في الصيف الذي تكثر فيه البان البادية وخيراتها يبلغ منه الجوع أحياناً أن يأخذه الدوار حين يقف فتظلم عيناه ، يقول :

وحتى رايت الجوع بالصيف حرني إذا قمت تفشاني ظلالاً لأسدك (٢)

ولحديث الشعر عن الفقر موضعه حين نتحدث عن الشعر ، ولكن الذي يعيننا الآن هو مساهمة الفقر في نشأة الصعلكة وحياتها ، من زاوية اتصاله - أعني الفقر - بالغنى .

والواقع أن الفقر ليس جديداً ولا غريباً على البيئة في الجزيرة العربية ، وخاصة في الحجاز (٣) فهي بيئة أهم مواردها الرعي ، ثم قليل من الخصب الزراعي في مناطق محدودة من اليمن وخاصة بعد تهدم سد مأرب - وفي شمال الجزيرة ، وبقع متناثرة في نجد وحول يثرب (المدينة) يضاف إلى ذلك النشاط

(١) مثل دائرة معارف القرن العشرين ج ٥ مادة (صعلك)

(٢) مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ١٠ ومهذب اللغات ج ١٦٧/٢ وأسند أي دخل في

السدفة وهي الظلام .

(٣) انظر ملحة ابن خلدون ص ٨٣ للمقدمة الخامسة فصل اختلاف أحوال العمران في الحصب

والجزر .

التجارى الذى يعتمد على موارد البيئة من ناحية ، واحتياجاتها من ناحية أخرى .
وكلاهما تبعاً لذلك محدود أيضاً .

وإذن فالفقر من حيث هو ليس غريباً ولا نادراً فى بيئة كهذه البيئة . ولكن
الفقر من حيث هو لا نعتقد أنه يكفى أن يكون سبباً فى الصعلة ، وإنما
نعتقد أن الاحساس بالفقر هو الذى يصلح أن يكون سبباً ، والفرق كبير بين
الفقر والاحساس به من حيث ما يترتب عليهما من آثار فى حياة صاحبيهما ،
وليس هذا الفارق فى الفقر وحده ، وإنما فى كل المعانى التى يمكن أن تترتب
عليها آثار اجتماعية ، فالثورات على الظلم مثلاً ليس مصدرها الظلم نفسه
وإنما مصدرها الاحساس بالظلم .

ولا نعى بالاحساس مجرد العلم ، فكثير من الفقراء يعلمون أنهم فقراء
والمفروض أن يعلم الفقير أنه فقير ولكنهم مع ذلك يستكينون لقسطهم وحظهم من
الحياة ، لأن هذا العلم لم يبلغ من نفوسهم مبلغ الانفعال والتأثر ، ولكن بعضاً
آخر منهم يس هذا الاحساس نفسه ، ويثير حوافزها فيترتب على ذلك ما يترتب
فى حياته من سلوك وأحداث . وهناك عوامل فى المجتمع من شأنها أن توجد
الفقر نفسه ، وتوجد الاحساس به ، ومن أهم هذه العوامل ما يأتى :

١ - ضعف موارد البيئة جعل ميزان التبادل بين الأفراد والجماعات
حساباً من الناحية المادية . فإذا أثرى فرد كان ثراؤه على حساب الآخرين ، وإذا
غنت جماعة كان غناها يمثل هبوطاً أو فقراً فى حياة جماعة أخرى من الناحية
للمعيشية والمادية ، كما يعبر العربى عن هذا المعنى فى سياق فلسفى فيقول .

غنى زيد يكون لفقر عمرو فلا فقير يسلم ولا غنى .

ومن الطبيعي ألا يكون هناك توازن أو تقارب فى الثروة بين الأفراد وبين
الجماعات فى بيئة أبرز شرائعها السيف وشعة البأس ، فكلما كان الفرد أشد
بأساً وأمضى سيفاً أتيح له أن يحصل على أكبر قدر من كل شيء ، ومن هذه
الأشياء الثروة ، وكلما كانت الجماعة أو القبيلة أشد بأساً وأزهد جانباً دنت
منها الأهداف والغايات وفى مقدمتها الثراء .

وأخبار الثراء الفاحش الذى وصل اليه بعض العرب دون بعض تفيض بها
الروايات والأخبار وبعضها مشهور كثرثاء عثمان بن عفان وصفوان بن أمية منذ
الجاهلية ، وكآلاف الآلاف التى تركها عبد الرحمن بن عوف عند موته ، بل كان
بعضهم يحتكر لنفسه موارد الطبيعة من المراعى ومواقع الغيث ، كقصص كليب
المشهور ، ومن هؤلاء الأثرياء غالب أبو الفرزدق ، الذى أصاب الناس مجاعة
فكان ينحر لقومه كل يوم ابلاً يطعمهم حتى نحر ذات يوم مائة ناقة (١) ، وبلغ

(١) خزائن الجندى ج ٢ ص ٢٤٩ وفى الأمال ج ٣ ص ٥٣ أن الإبل التى نحرها مائتان

من شهرته بكثرة ابله ، انه حين دخل على علي بن ابي طالب سئله علي : من الشيخ ؟ قال : انا غالب بن صعصعة ، قال هو الابل الكثيرة ؟ قال : نعم (١) ، ومن هؤلاء ايضا سحيم بن وثيل بن حنظلة الذي نافس غالبا في نحر الابل ، فنحر لقومه ذات يوم نحو ثلاثمائة ناقة (٢) .

ويتضح هذا الثراء في الديات والمغارم التي كان يلتزمها سادة القبائل وزعمائها في الجنايات التي كانت « تعفى بالثنين (٣) » من الابل كما يقبول زهير بن ابي سلمى في قصيدته المشهورة ، وكما فعل الحارث بن ابي سفيان الذي ألزم نفسه دية قدرها الف بعير (٤) ، وكما فدى هودة بن علي نفسه من أسر بني سعد بثلاثمائة بعير (٥) ، وكما تحصل حاتم عن قيس بن خفاف ثلاثمائة بعير (٦) ومصادر هذه الثروة كانت الابل ومراعيها في البادية اما في المدن فكانت مصادرها التجارة ، كتجارة قريش المشهورة ، ورحلتها في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام (٧) كل عام وهما اللتان يتحدث عنهما القرآن الكريم في قوله تعالى « لا يلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ، وكلطائم النعمان بن المنذر ، التي كانت تشبه القوافل التجارية ، يرسلها الى الاسواق لتباع فيها ، ومن ذلك أنه كان يرسل الى سوق عكاظ كل عام بلطيمة تباع له هناك (٨) بالسوق .

ونتيجة لذلك نجد فضلا عن الافراد جماعات وقبائل اشتهرت في جملتها بالثراء منذ عصور الجاهلية كقريش الذين يصفهم الزمخشري بأنهم كانوا كسابين بتجارتهم وضربهم في البلاد (٩) وكال المنذر لما لهم من اماراة ولطائم كما سبق .

-
- (١) امال القالي ج ١ ص ١٥٣ .
 - (٢) خزانة البغدادي ج ٢ ص ٢٤٩ وفي المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٢ عن ابن دريد أن سحيم عاش في الجاهلية أربعين سنة وفي الاسلام ستين سنة وغالب بن صعصعة معاصر له فقراؤهما يمثل الجاهلية والاسلام والقصة ايضا في الامال ج ٣ ص ٥٣ .
 - (٣) خزانة البغدادي ج ٢ ص ٢١٧ وتعفى أي تمحى بالثلاث يقصد الديات .
 - (٤) شرح حماسة ابي تمام للثيريزي ج ٢ ص ١٧٤ .
 - (٥) مجمع ما استعجم للبكري ج ٣ ص ١٠٦٥ .
 - (٦) الامال ٢١/٣ .
 - (٧) تفسير الكشاف (سورة قريش) الجزء الرابع ص ٦٣٩ .
 - (٨) مجمع الامثال ج ٢ ص ٨٧ .
 - (٩) تفسير الكشاف (سورة قريش) ج ٤ ص ٦٤٠ .

وهذا الثراء المجاور للفقر ، هو الذى نعينه فى إثارة الاحساس بالفقر ، وفى إثارة التطلع للغنى معا ، فبعض الفقراء الذين وجدوا فى نفوسهم صفات خاصة - هى صفات الصعاليك - من حساسية النفس وقوة العزيمة ، ألم هذه الحساسية فى نفوسهم أن يرتعوا فى البؤس والحرمان ، بينما يلاصقهم أناس آخرون يرتعون فى الثراء والنعيم ، وقد لا يكون كثير من هؤلاء الأغنياء أحق منهم بالغنى ، ثم ينظرون فإذا فى نفوسهم قوة قوية ، وإرادة ماضية ، ففيم استكانتهم لحرمان لا يرونه حقاً عليهم ؟ وفيم قعودهم عن آمال لا يعجزهم تحقيقها ، أو تحقيق بعضها على أسوأ الظنون ؟ وفيم رضاهم بالهوان بين الناس ؟ والعصاليك أنفسهم يتحدثون عن جولان هذه المعانى فى نفوسهم ، فهذا عروة ابن الورد يخاطب امراته قائلاً :

دوينى للغنى اسمى فانى	رايت الناس شرهم الفقير
واحقرهم واهونهم عليهم	وان اسمى له كرم وخير
ييساعده القريب وتزددية	حليته وينهره الصغير
وتلقى ذا الفنى وله جلال	يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب حتم	ولكن للغنى رب غفور (١)

وكما يقول تابط شرا .

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع ولأسى امره وهو مدير (٢)

٢ - نواحى البيئة نفسها غير متفقة فى خصبها وجودها بالخير ، فمع أن الجزيرة العربية معروفة بأنها منطقة صحراوية جبلية فى جملتها ، تتمثل فى سلاسل من الجبال والصحراوات تتخللها طولاً وعرضاً ، وتعتمد على الامطار التى تتساقط فى فترات متقطعة على أرض غير خصبة ، وعلى قليل من العيون التى تشبه الآبار ، والتى غاية ما يرمى منها أن تكفى الملتفين حولها فى مشربهم وحفظ حياتهم ، نقول مع ذلك نجد فى الجزيرة مناطق محدودة اشتهرت بالخصب والجودة ، وقد يكون هذا الخصب نسبياً ، أعنى بالنسبة للأرض المجربة حولها ، ولكننا لا يعنينا تقويمها لذاتها ، وانما تعنينا نظرة المجتمع حينذاك اليها واكباره لخصبها وتطلعه الى هذا الخصب ، فمن هذه المناطق المشهورة بالخصب بعض الاماكن فى اليمن وخاصة فيما حول مأرب حين جعل السبأيون منها جنة لياضة بالخيرات ، كما يصف القرآن الكريم ذلك فى قوله « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى آكل خبط وأثل وشىء

(١) العقد الجديد ج ١ ص ٢٢٧ (باب السعى للرزق) .

(٢) ديوان الحسانة لأبى تمام ج ١ ص ١٧ .

من سدر قليل » (١) ويقول ابن عباس عن خصبها « كانت أخصب البلاد وأطيبها
تخرج المرأة وعلى رأسها الكتل فتعمل بيدها وتعبر بين تلك الشجر فيمتلئ الكتل
بما يتساقط فيه من الثمر » (٢) .

ومن هذه المناطق الحصبة الطائف وما حولها وشهرتها كمصيف لِسادة
العرب ، وشهرتها أيضا بكرومها وثمارها قديمة منذ عصور الجاهلية ، ومن كرومها
هذا الحائط لذى لجأ اليه النبي صلى الله عليه وسلم في أزمة لجوئه الى ثقيف وتخطى
ثقيف عنه وايدأها اياه في القصة المشهورة ومن مناطق الحصب المشهورة أيضا
يثرب (المدينة) المعروفة بثمارها وخاصة النخيل ، ومنها أيضا منطقة نجد في
بعض نواحيها ، ومنها بعض مناطق السماوة ، مثل بيشة التي وصف جرير بن
عبد الله خصبها للنبي صلى الله عليه وسلم (٣) ومنها قطر التي اشتهرت في
القديم بكثرة خمورها (٤) لكثرة الكروم فيها ، ومنها اليمامة التي يقول عنها
الطبري « واليمامة اذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا ، لهم فيها
صنوف الثمار ، ومعجبات الحداثق » (٥) والخصب البارز في هذه المناطق كان
يجاوره فقر مدقع في المناطق نفسها بتفاوت أفرادها في الثراء وطفيان بعضهم
على أنصبه الآخرين فيها ، وكان يجاوره أيضا فقر مدقع في الأحياء والقبائل
القرية منها بطبيعة الحال .

وهنا يثور الاحساس بالفقر عند بعض الفقراء ، حين يجدون جيرتهم
وأقرباءهم يتمتعون بما يتمتعون به ، في الوقت الذي يعانون فيه هم ما يعانون ،
وهنا أيضا يثور في نفوسهم التطلع للغنى والحصول على المال ، حين يجدونه
قريب المال .

وليس من المصادفة أن نجد معظم الصعاليك والفتاك ينتمون الى هذه المناطق
الخصبة ، فمثلا نجد من منطقة مارب عددا كبيرا ، ومنهم حاجز بن عوف الازدي ،
وأبو الطمحاء القيني ، ومالك بن حريم الهمداني ، وعبد الله بن سيرة الحرشي ،
ومن منطقة الطائف وما حولها صعاليك هذيل وهم كثير ، منهم أبو خراش والأعلم
وصخر الغي ، ومن منطقة اليمامة صعاليك بنى تميم وهم كثير أيضا ، ومنهم عبدة
ابن الطبيب والسلوك بن السلوك ، وسعد بن ناشب ، ومن منطقة يثرب وما حولها
عدد كبير أيضا منهم عروة بن الورد العبسي وتأبط شرا الفهمي ، مع مراعاة أننا
لا نتحدث الا عن الشعراء من الصعاليك ، والمفروض أن الذين لم يكونوا شعراء
أكثر من الشعراء ، ومع مراعاة أن هؤلاء البارزين من الصعاليك الذين تحدثت

(١) سورة سبأ الآيات من ١٤ الى ٢١ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري الآيات السابقة ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٣) انظر معجم ما استعجم للبكري ج ١ ص ٢٩٣ .

(٤) انظر المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٨٢ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٤٥٢ .

عنهم الرويات والاخبار كان معظمهم رؤساء عصابات من الصماليك كما يتحدث السليلك عن رفاقه في العصابة فيقول :

ويأتوا يظنون وصحبتى اذا ماعلوا نشزا اهلوا واوجلوا (١)
وكما يقول تابط شرا عن الرفاق .

سمحاق غايات مجد في عشرته مرجع الصوت هذا بين ارفاق (٢)
وكعصابات عروة بن الورد المشهورة في اخباره .

بقى في هذا المجال أن نشير الى مصدر من مصادر الثروة في المجتمع العربي القديم ، وهو التجارة وما يرتبط بها من الأسواق والطرق التجارية وما لذلك من أثر في الصلعة .

والتجارة كانت بالنسبة للمدن موردا أساسيا يعتمدون عليه في حياتهم الاقتصادية ، كما تحدثنا عن قوافل قريش ، وعن لطائم النعمان بن المنذر ، وكذلك كانت لكسرى لطائم تمتد بينه وبين عمالة بالجزيرة في اليمن مدة احتلال الفرس لها - وفي الشمال عند المناذرة ، ومن هذه اللطائم لطيمته التي أرسلها اليه عامله على اليمن فاغار عليها بنو تميم وأخذوها بعد أن قتلوا بعض خفرائها وأسروا البعض الآخر (٣) .

وكان لتجارة القوافل طريقان معروفان منذ القدم ، وكلاهما يبدأ من **حظار** بجنوب اليمن وهي التي كانت تسمى ريدان (٤) في عواصم الممالك اليمنية القديمة ، ويسلك أحدهما في تعاريجه بشرق الجزيرة متجها الى الشمال في محاذاة الخليج العربي ، ويسلك الآخر في تعاريجه وانحناءاته أيضا غرب الجزيرة مارا بالمجاز ومحاذا البحر الاحمر (٥) وكان الطريقان يمران بمعظم البلاد والقبائل العربية .

وفضلا عن نشاط القوافل التجارية التي كانت تتردد بين الجزيرة وبين ممالك أخرى كالفرس والروم والحبشة والهند ، وتخترق في تردها هاتين الطريقين مارة بالبلاد والقبائل العربية ، قاصدة في أغلب الأحيان أسواق العرب بائعة ومشتريه ، فضلا عن ذلك كانت هناك التجارات الداخلية المحلية ، بين قبائل العرب وهذه الأسواق ، سالكة إحدى الطريقين أو طرقا فرعية أخرى من

(١) مهذب الخفري لأغاني الاصمعياني ١٦٧/٢ .

(٢) الفضليات للقبلي ص ٢٧ . وهذا أى رافعا صوته بالأمر والنهي .

(٣) أنظر معجم ما استعجم للبكري ج ٢ ص ١٠٥٩ .

(٤) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ج ١ ص ٢٨ .

(٥) أنظر الشعراء الصماليك للدكتور يوسف خلف ص ١٢٤ عن مراجع أخرى .

شأنها أن يهينها أو يبحث عنها المقيمون في مكان لانفسهم حتى توصلهم بالاماكن والمجتمعات الأخرى .

وأما أسواق العرب فكانت كثيرة منبثة حول أهم البلاد والطرق ، وقد عدد صاحب كتاب الشعراء الصعاليك منها نحو ثلاث عشرة سوق متفرقة في أنحاء الجزيرة كلها ومنها الاسواق المشهورة كعكاظ ومجنة وذى المجاز (١) .

ومع ذلك فهناك أسواق أخرى وإن كانت غير مشهورة ، تحدث البكرى عن بعضها ، مثل سوق الحربة - بفتح الحاء وسكون الراء - التي يقول عنها « وخربة سوق من أسواق العرب في عمل اليمامة ، وفيه أدركت أم الورد العجلانية بشار ذات النحين الهذلية (٢) » في قصة ساقها تتعلق بالمثل العربي « أشغل من ذات النحين » وقصة هذا المثل (٣) .

والذي يهمنا في حديث التجارة والاسواق أنها كانت من العوامل المهمة في خلق الصعلة ، فهذه القوافل التي كانت توغل في مجاهل الصحراء ، والتجار الذين كانوا يترددون بتجارهم على الاسواق في هذه الطرق والمجاهل ، كل ذلك كان صيدا ثمينا يقرى طوائف الصعاليك من قطاع الطرق وأصحاب الغارات بأن يتعرضوا لها ويستमितوا في الفوز بها ، بل إنها كانت تغري القبائل نفسها وعلى رؤسها سادتها بأن يتعرضوا لها ويقاتلوا دونها ، ولذلك كان من المعروف عندهم أن أصحاب القوافل لا يستطيعون أن يعبروا هذه الطرق بقوافلهم الا اذا أمنوا القبائل التي يمرّون بها سواء بحلف أو اتاة ، أو خفارة قوية ، كما ورد في أخبار النعمان بن المنذر في لطائفه التي كان يتاجر بها في الاسواق ، حيث قال ذات مرة - وعنده البراض (بن قيس الكنانى) وعروة بن عتبة الرجال - من يجيز لى لطيمتى هذه حتى يقدمها عكاظ ؟ فقال البراض أنا أجبرها على كنانة . قال النعمان : ما أريد الا رجلا يجبرها على الحين من قيس وكنانة ، فقال عروة الرجال أنا المجيزها على أهل الشيخ والقيصوم من نجد وتهامة . وفيها قصة فتك البراض وعروة الرجال في هذه الرحلة (٤) . ومن ذلك قصة لطيمة باذام عامل كسرى على اليمن والتي كان خفيها هوذة بن على ، فأغار بنو تميم على اللطيمة وقتلوا خفراءها وأساور كانوا معها وأسرت بنو سعد هوذة بن على (٥) وفي أخبار السليك بن السلكة « أنه كان يعطى عبد الملك بن مويك الخثعمى اتاة من غنائمه على أن يجيزه فيتجاوز بلاد خثعم الى من وراءهم من أهل اليمن » (٦) .

(١) أنظر المصدر السابق ص ١٢٧ نقلا عن اليمقوبى وابن حبيب وياقوت ومصادر أخرى .

(٢) معجم ما استمع به ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٣) أنظر معجم الأمثال ج ١ ص ٣٧٦ .

(٤) أنظر المصدر السابق ج ٢ ص ٨٧ وفيه القصة كاملة .

(٥) أنظر معجم ما استمع به للبكرى ج ٢ ص ١٠٥٩ مادة (سئو) وفيه القصة كاملة .

(٦) مهذب الخضرى لأغاني الاصبهاني ج ١٦٧/٢ .

ولم يكن يسلم من هذا الخوف الذى يؤرق التجار والمنتقلين بأموالهم الا قريش كما يقول الزمخشري « وكانت لقريش رحلتان : يرحلون فى الشتاء الى اليمن وفى الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا فى رحلتهم آمنين لانهم أهل حرم الله وولاية بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويفار عليهم (١) »

وننتهى من هذا الحديث الى أن الفقر وان كان من الاسباب البارزة فى الصعلة الا أنه لذاته لم يكن السبب الوحيد ولا الأهم ، وانما الأهم هو احتكاكه بالفنى ، غنى أصحاب الابل فى البادية أو « أرباب المخاض » كما يسميهم الصعاليك فى شعرهم ، وغنى أصحاب التجارة فى المدن والبلاد ، وهذان المجالان ، مجال المخاض ، ومجال التجارة أهم مجالات الصعاليك ، كما كان الصعاليك أهم خطر يهدد هذين المجالين ، ولذلك نرى يزيد بن الصقيل العقيلى أحد الصعاليك يمن على أصحاب المخاض بعد توبته ، ويبشرهم بالأمن والاطمئنان بعد هذه التوبة فيقول :

الا قل لأرباب المخاض أهملوا فقد تاب ممسا تعلمون يزيد (٢)
والاحيمر السعدى - أحد الصعاليك - يجعل من سيفه سلطانا قاهرا قادرا على أموال التجار فيقول :

تعيرنى الاعدام والبعو معرض وسيفى بأموال التجار زعيم (٣)

ثم تاب الاحيمر أيضا فراح يتحدث عن حزن ومرارة لا يستطيع أن يخفيها كلما مرت قوافل التجار أو عبرت زواجل المتاع ، وكلما عاوده الحنين الى الصعلة ولكنه مع ذلك ينصح زملاءه السابقين فى الصعلة أن يتناسوا خيرات العراق واليمن التى يجوز بها التجار عليهم ، ويتوبوا مثلما تاب فيقول :

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما ألقى اذا مروا من الحزن
قل للصوص بنى اللغناء يحتسبوا بز العراق وينسو طرفة اليمن (٤)

(١) تفسير الكشاف (سورة قريش) ج ٤ ص ٦٣٩ .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٦١ .

(٣) الأماالى للقال ج ١ ص ٤٨ : والاعدام الفقر .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٤٩ - والزائلة الناقة عليها حملها والبن النياب .

٤ - طبيعة الأرض والحياة :

أ - الأرض :

نتيجة لما هو معروف من أن أرض الجزيرة العربية يغلب عليها الطابع الجبلي الصحراوي ، نجد أن هذه الطبيعة تخلق حصونا طبيعية لأبنائها ، تحميهم حينما يلتمسون الحماية ، وتخفيهم حينما يطلبون الحفية ، وأرض هذه طبيعتها من شأنها أن تفرس في أبنائها طبائع خاصة يتوارثونها وتؤكد لها لهم وسائل حياتهم ، وابن خلدون يقول عن هذه الطبيعة التي أوحتها البادية الى أبنائها وعن حمايتها لهذه الطبيعة يقول عن العرب بالبادية « وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر (١) » وابن خلدون من أول المنادين بأن الانسان في خلقه وسلوكه ولغته ولونه ونفسيته ابن بيئته ، وأن البيئة بكل ما تحويه من أرض ومناخ وخصب وراء كل اختلاف وتغاير بين البشر (٢) .

والبيئة العربية في الجزيرة كل ما فيها قاس عنيف ، فقرها وجد بها قاس عنيف (٣) ومناخها في كلتا حالتيه كذلك ، برد شديد ، وحر أشد منه ، كما يصف خالد بن صفوان لهشام بن عبد الملك برديشة السماوة فيقول «حتى اذا كنا ببيشة السماوة بعث الله علينا ريحا حرجفا (باردة) انجحرت لها الطير في أوكارها والسباع في أسرابها ، فلم أهد لعلم (جبل) لا مع ، ولا لنجم طالع » (٤) .

ويصف الشنفرى ليلة أشدت فيها البرد ، حتى أن صاحب القوس ليضطر الى تحطيم فوسه - التي تقوم عليها حياته - ليستدفى بها وبأدواتها فيقول .

وليلة نحس يصطلي القوس ربهما وأقطعه اللائي بها يتنبل (٥)

ويصف الشنفرى أيضا يوما من أيام الحر الشديد الذي ملأ الجو لوابا يشبه الخيوط حتى أن الافاعي التي درجت وعاشت في الصحراء لم تحتمل وطأة هذا الحر فيقول :

ويوم من الشعرى يدوب لوابه أفاعيه في مضائه تتلمل (٦)

(١) المقدمة ص ١٤١ فصل (العرب لا يتغلبون الا على اليسائط) .

(٢) أنظر المقدمة من ص ٧٨ الى ٨٧ المقدمات الثالثة والرابعة والخامسة .

(٣) أنظر المصدر السابق ص ٨٣ .

(٤) معجم ما استعجم للبكري ج ١ ص ٢٩٣ .

(٥) الأماي للقال ج ٣ ص ٢٠٥ ونحس : برد شديد ويصطلي يستدفى ورهبا صاحبها .

(٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٦ الشعرى الحر الشديد الرضاء الرمال الحامية

من الحرارة .

كل شيء في هذه الصحراء اذن قاس عتيق ، فلا عجب ان تنجب أبناء قساة
أشداء .

وقد كانت بهذه الطبيعة ، وبما تيسره من الاختفاء في مجاهلها وجبالها
ومتاهاتها ، من العوامل البارزة في نشأة الصعلكة وحياتها .

ولذلك نجد أن الصعاليك على الرغم من نشأتهم في أماكن قريبة من
الخصب ، إلا أنهم يفضلون دائما أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة الصعبة المنال ،
فنجدهم يالفون الجبال والقفار والأماكن التي يخشى غيرهم ارتيادها ، وحين ننظر إلى
شعرهم نجده حافلا بذكر هذه الأماكن الوحشية البعيدة في الوحشة والامتناع ،
فتأبط شرا يتحدث عن موضع موحش يخافه العرب لاعتقادهم أنه لا يخلو من
السعالى والفلول وهو رجا بطان (١) ، ولكن تأبط يالف هذا المكان ولا يخاف
غيلانه وسعاليه ، بل يتحدث عن قتله أحدها فيقول .

إلا من مبلغ فتيسان فهم بما لاقيت يوم رحي بطان
باني قد لقيت الفلول تهوى بقفر كالصحيفة صحصحان

وليس هناك ما يوجب اعتقادنا بأنه حادث خرافة ، فليس من مانع أن يكون
قتل فعلا نوعا من الحيوانات الوحشية التي تقرب في صفتها من الارصاف
الأسطورية أو الخرافية للفول ، وهناك حقا بعض هذه الأنواع كبعض فصائل
القرود ، ويتحدث تأبط شرا أيضا عن بعض الجبال التي يالفها كجبل اسمه مروان
فيقول :

ولا بالشليل رب مروان قاعدا باحسن عيش والنفائي نوفل (٢)

والشنفري يتحدث عن الأماكن الكثيرة التي يرتادها ويتنقل بينها ، ويصفها
بأنها جميعا أماكن نائية متفورة « هنالك يلقى المتفورا » ومنها عصوصر ، الجبل
المداني لبني سلامان الذين كان يعيش فيهم فيقول :

أمشى بأطراف الحماط وتارة تنفض رجلى أسبضا فعصوصرا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك يلقى القاصى المتفورا (٣)

ويتحدث عن أبعاده في الفوز حتى يبلغ أماكن موهلة في البعد ، وجميعها
جبال موحشة فيقول :

غزوت من الوادى الذى بين مشعل وبين الحشا هيهات أبعدت غزوتي (٤)

(١) انظر معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٥٧ ولله القصة وكذلك انظر القاموس المحيط مادة (غال)

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢١٧ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٩٤٦ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢٩ ولله من الحملا : هو جبل لنامخ مرتفع .

ومن الجبال الاخرى جمدان ، وكان يرتاده مالك بن الربيع وعنه بقول :

سرت في دجى ليل فاصبح دونها مشاوي جمدان الشريف فغرب (١)

ومنها الفرط وكان يرتاده عمرو بن بركة ويذكره بقوله :

اذا الليل ادجى واكفهر ظلامه وصاح من الاطراف يوم جوائم (٢)

ومال باصحاب الكرى غالباته فاني على امر الفواية حازم (٣)

ومنها ثبير وكان يرتاده ابو خراش الهذلي ، ويقول عن قلته التي تسمى غينا :

لقد علمت هذيل ان جارى لدى اطراف غينا من ثبير (٤)

ومن الجبال ايضا تعشار ، وكان يرتاده عبدة بن الطبيب وعنه يقول :

صاحبت قيسا صحبة فومقتنه بتعشار لم اسمع له بعد قاليا (٥)

واما الفاويز واماكن القفر والوحشة التي اختص الصعاليك بالفتها والتردد عليها فكثيرة ، ومنها كراء وتيمن اللذان يذكرهما عروة بن الورد قائلا :

تحل بواد من كراء مفلة تحاول سلمى ان اهلب واحصرا

وكيف يرجيها وقد حيل دونها وقد جاورت حيا بتيمن منكرا (٦)

ومنها حلية ، التي يتحدث عنها الهذلي فيقول :

كانما ابطنت احشاؤها قصبا من بطن حلية لا رطبا ولا نقلا (٧)

والاحيمر السعدي يحدثنا عن فترة من حياته في هذه الاماكن المقفرة الموحشة فيقول « كنت ممن خلعتني قومي واطل السلطان دمي وهربت وترددت في البوادي حتى ظننت اني قد جزت نخل ونار ، وكنت ارى النوى في رجيع

(١) معجم ما استمع ليالكبرى ج ٢ ص ٣٦٣ وعن جمدان يقول : هو جبل بالمجازين قديد وعسفان .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٩٣ وعن الفرط يقول : هو الجبل الصغير وجمعه افراط .

(٣) الامالي للقال ج ٢ ص ١١٩ وفي مهذب الخضرى لاغانى الاصمعياني ج ١ ص ٩٢ وهو لكلمة لمعنى البيت الاول وكلامها من قصيدة .

(٤) معجم ما استمع ليالكبرى ج ٢ ص ١٠١٢ . ويقول عن غينا : هي قلة ثبير وهي التي في اعلاه .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٣١٦ (حرف القاء والمين) وفيه عن تعشار على خلاف : هو جبل في بني ضبة .

(٦) المصدر السابق ج ٤ ص ١١٢١ وفيه عن كراء : من ارض بيشة كثيرة الاسد وعن تيمن : ارض قبل جراش وكراء في شرق اليمن .

(٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٣ وفيه عن حلية : اجمة باليمن معروفة وهي ماسدة .

الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى لأنها لم تر
أحدا قبلى ٠٠٠٠ (١) « وسواء صحت هذه التفاصيل أم لم تصح فإن الرواية على
أى حال تدل على أنه ألف أماكن لم يألّفها غيره : والذى يعنينا من حديث هذه
الأماكن أنها كانت بمثابة حصون للصعاليك حين يلم بهم خطر أو يتعقبهم طالب
أو مطارّد ، وما كان أكثر مطالبهم ومطارديهم ، لكثرة ما كانوا ينجون ويعتدون ،
بل كانت أحيانا مستراحا لهم حتى حينما يشعرون بالضيق بالناس والتفور
منهم ، وما كان أكثر ما يضيق الناس بهم ويضيقون بالناس ، لما بين حياتهم
وحياة الناس من اختلاف وتصارع . ولذلك نجد هذا المعنى شائعا فى شعر
الصعاليك معبرا عن روح النفور من المجتمع ، والاستعداد ، بل الشوق للهجرة
الى القفار والأماكن الموحشة بالذات ، كما يقول الشنفرى فى اللامية :

اقيموا بنى أمى صنود مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميل

ثم بين هؤلاء القوم الذين يهفو اليهم ويتمنى الرحيل نحوهم ، فاذا هم
صنوف من الوحوش فيقول :

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال
هم الأهل لا مستودع السر ذاتع لديهم ولا الجانى بما جر يغذل (٢)

ومالك بن الريب يعبر عن هذه المعانى فيقول :

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أو طنت كبلادى (٣)

فحتى ناقتة ألفت الفلاة وريحها فهى صادية إليها ، وقوله « كل بلاد أو طنت
كبلادى » يدل على روح التنقل وحب الهجرة ، بل يوحى معناه فى جملته بأنه
لا يربط نفسه بمكان معين ، ولا يرى له وطنا يشده اليه ، ويقيده بالاقامة وإنما
كل الأرضى وطنه ، مادامت تحقق له ما يريد ، وتنحى عنه ما لا يريد وهذا
المعنى شائع فى شعر الصعاليك ، ولذلك كان شعرهم أقل حنينا الى الأماكن ، أو
تعلقا بمكان معين ، وهذه الروح كانت من عوامل صعلكتهم وأسبابها ، كما كانت من
لوازم الصعلكة أيضا ، لأن المشدود الى مكان معين لا يصلح أن يكون صعلوكا .

(١) المقفد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ (المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢١ هـ) والصحيح نخل وبار

كما فى الشعر والشعراء وغيره .

(٢) الأماهى للقالى ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٢ .

(ب) طبيعة الحياة :

سيطرت على المجتمع العربي حينذاك ظروف كثيرة كان من شأنها ان تساعد على نشأة الصعلة وعلى استمرارها ، ويمكن أن نجمل أهم هذه الظروف فيما يلي :

١ - طبيعة البيئة - كما قال ابن خلدون آنفا (١) من شأنها أن تخلق القسوة والعنف ، ونعني بطبيعة البيئة ناحيتها الطبيعية - بطبيعة أرضها ومناخها - والاجتماعية بوضع الصلات الاجتماعية والاقتصادية بين الجماعات والقبائل والأفراد .

وقد تمثل هذا العنف الذي اقتضته طبيعة البيئة في أكثر من ناحية ، أهمها الصراع الدائم المستميت بين القبائل ، والغزو والاغارة ، وكلاهما كان ينبع في ظاهره من أسباب ملموسة ، ولكنه كان في حقيقة أمره يمثل تشبث كل جماعة بالحياة ، وحرصها على اثبات الكيان .

فأما الصراع فتمثله أيام العرب المشهورة كيوم ذي قار ويوم الفجار ، وقد حولت هذه الأيام حياة العرب الى ربح من الحروب لا تكف عن الدوران ، لا يتوقف سيل طحنها من الآدميين . حتى أن بعضها كون سلسلة من الأيام المتلاحقة التي ظلت عشرات السنين ، حتى أصبحت تهدد طرفيها بالفناء كحرب البسموس (٢) وداحس والقبراء (٣) وقد تتبع العلماء هذه الأيام احصا وتاريخا ، ولكن الذي يهمنا من هذه الأيام الآن انها طغت حتى شملت كل الجزيرة واستوعبت كل الأجيال التي بلغنا تاريخها من الجاهلية ، وان الاشتراك فيها كان ضريبة عينية على كل فرد من أفراد القبيلة طالما يستطيع حمل السلاح بل كان الأطفال يشتركون فيها من باب تدريبهم على القتال وفنونه ، والاستعانة بكل قوة في القبيلة ، كما يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينبل على أعمامه في حرب الفجار وهو صبي صغير . وأما الغزو والاغارة فكانت وجهها آخر للصراع بين الجماعات والقبائل ، هذا الصراع الذي كانت أهدافه غير المباشرة من التشبث بالحياة واثبات الكيان أهم وأعرق من أسبابه المباشرة ، سواء كانت هذه الأسباب انتقاما وقصاصا ، أم كانت طمعا ورغبة ، أم كانت ارهابا وتهديدا ، فنجد أخبارهم حافلة بالغايات التي تبدأ غالبا بالطمع في المال

(١) المقدمة ص ١٤١ .

(٢) أنظر خزنة الأدب للبغدادي ج ٢ ص ٢٢ - ٢٩ وما كان بين بكر وتغلب من أيام مثل شيبان والذئاب وواردات وهبأة وعنيزة . . الخ وظلت هذه الحروب بينهم أربعين سنة . أنظر مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٧ .

(٣) أنظر خزنة البغدادي ج ١ ص ٨٩ و ج ٢ ص ٣٦١ من أيام أخرى وكذلك الأمالي ج ٣ ص ٥٣ عن بعض أيامهم .

ثم نأخذ طابع الدور والتسلسل كما يقول المنطقة ، تغير جماعة على أخرى رغبة في مالها ، فتضطّر الجماعة الأخرى للانتقام بغارة ترد بها على الجماعة المعتدية ، وتعود هذه إلى غارة انتقامية وهكذا (١) ، وهذا الوضع نجده شائعا عاما بين سائر القبائل ، حتى أن أسلوب الغارات من حيث هو لم يكن وقفا على طائفة معينة بل كانت تزاوله كل طبقات المجتمع (٢) وفي مقدمتهم زعماء القبائل وساداتها ، بل تحول أسلوب الغارات عندهم إلى نوع من قطع الطريق كما رأينا في أخبار القوافل واللطائم وحتى هذا النوع الذي يبدو لنا انحرافا في السلوك الاجتماعي ، لم يكن في نظرهم كذلك ، بل كان مظهرا من مظاهر القوة والمنعة ، ولذلك نجد أخبار قطع الطريق تتردد كثيرا في تراجم سادة القبائل ورؤسائها ، على أنهم كانوا يقطعون الطريق ، لا على القوافل واللطائم فحسب ، وإنما على الأفراد أيضا ، ومن هؤلاء دريد بن الصمة سيد بني جشم الذي ورد في أخباره أنه بينما كان خارجا في فوارس من بني جشم إذ رأى رجلا معه طعنة - امرأة في هودج - فأمر فرسانه أن يسلبوا الرجل طعنته ، في قصة طويلة (٣) ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي في حوادث قطعه للطريق (٤) ومنهم عامر بن الطفيل الذي بلغ من سيادته في بني عامر أنهم حين مات نصبوا حول قبره نصباً ميلاً في ميل ، وجعلوها حتى لا تنتشر فيه راعية ، ولا يسلكه راكب ولا راجل ، بل أن بعضهم استصيق هذا الميل قائلاً : ضيقتم على أبي علي ، ومع ذلك كان عامر بن الطفيل يوصف بأنه من شياطين العرب (٥) وقطاع طرقها ، ومنهم الحارث بن بدر أحد سادة بني تميم المشهورين الذي جعلوا قطعه للطريق ثم توبته من أسباب نزول حكم قطاع الطرق في قوله تعالى « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعملوا إن الله غفور رحيم » (٦) ومنهم النابغة الذبياني الشاعر المشهور ، الذي ورد أنه كان يغزو للسلب والغنيمة مع رفيقه زبان بن منظور أو زياد بن سيار (٧)

-
- (١) أنظر على سبيل المثال معجم ما استعجم للبكري ج١ ص ١٦٦ وج٢ ص ٥٣٠ عن هذيل وقيائل أخرى وخزانة البغدادي ج١ ص ٨٩ عن عيسى وقيائل أخرى .
(٢) أنظر تفسير الكشاف للزمخشري آية ٣٣ المائدة عن قطع قوم حلال بن عوينر الطريق وخزانة البغدادي ج٢ ص ٣٦٨ عن قصص أخرى .
(٣) أنظر الأمالي للقال ج٢ ص ٢٧١ .
(٤) أنظر خزانة البغدادي ج٢ ص ٢٦٧ ونهاية العرب للنويري ١٩١/٢ - ١٩٦ .
(٥) أنظر خزانة البغدادي ج٢ ص ٢٦٤ وأنظر شرح الفضليات عن ابن الأثير ص ٣٦٠ وعن سيادته معجم الأمثال ج٢ ص ٨٦ .
(٦) أنظر تفسير الكشاف للزمخشري في الآيتين ٣٣ ، ٢٤ سورة المائدة .
(٧) أنظر المصنف لابن رشيقي ٣١١/٢ .

فلم يكن السطو والغزو وقطع الطريق اذن شذوذاً أو انحرافاً في عرف المجتمع الجاهلي وانما كان ميداناً مرموقاً ، يتنافسون فيه ، ولكنه لم يكن يبرز فيه الا ذوو القوة والبأس الشديد وكان هذا البأس هو كل ما يحتاجه شخص أو جماعة ليفتحوا لأنفسهم هذا الميدان على مصراعيه ثم لا يلقون من المجتمع بعد ذلك الا كل تهيب واكبار .

والصعاليك كانوا يملكون هذه القوة وهذا البأس ما في ذلك شك ، كما يبدو ذلك واضحاً في أخبارهم وأشعارهم ، بل كان معظمهم يملك قوة كادوا ينفردون بها عن المجتمع ، هي سرعة العدو الذي يصفونه بأنه يسبق الخيل كما في أخبار كثير منهم مثل الشنفرى والسلوك وأبى خراش وتابط شمرأ وابن براق (١) هذه القوة كانت تمثل حصناً دائماً متنقلاً مع كل منهم ، يتيح لهم حرية الحركة والتنقل ، ويتيح لهم الأمن من المخاطر ، وفي الوقت نفسه لا يلقى سلوكهم انكاراً من المجتمع من حيث أنه سلوك شائع حتى بين السادة الزعماء .

على أن هذه الحروب والغارات ، وما تبعها من فتك وجنایات ، قد غيرت مجرى حياة كثير من أفراد القبائل ، فبعضهم كثرت جنایاته وثقلت آثارها على قومه حتى اضطروا الى خلعه فلم يجد أمامه الا طريق التصعلك (٢) ، وبعضهم اكتشف في نفسه صفات معينة من الجرأة أو سرعة العدو أو حسن التسلل فشجعه ذلك على الاتجاه للصعلكة ، كهذيل التي اشتهرت بكثرة غاراتها (٣) وكثرة هجماتها حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة اخوة كلهم عداً لا تسبقه الخيل (٤) وقد كانت هذه القوة والسرعة في العدو لذاتها من العوامل الهامة في الصعلكة كما كانت من أهم أسلحة الصعاليك .

٢ - كانت في البيئة التي يعيش فيها الصعاليك عوامل كثيرة من شأنها أن تدفع الى الصعلكة وتيسر السبيل أمام اللاجئين اليها ، ومن هذه العوامل الفراغ الكبير الذي يتخلل حياة الأفراد في بيئة لا عمل فيها الا الرعى للذين يملكون ما برعونه أو يجدون من يرعيهم ، وكثير من الأفراد لا يجدون هذا ولا ذاك فماذا يفعلون ليجدوا ما يقتاتون به ؟ وماذا يفعلون ليثبتوا لأنفسهم وللناس مجرد ويملاوا به حياتهم الفارغة ؟ وماذا يفعلون ليثبتوا لأنفسهم وللناس مجرد وجودهم في الحياة ؟ لاشئ الا الصعلكة ، فان فيها متسعاً للجميع ، وجواباً لكل ما سبق من سؤال . والصعاليك أنفسهم يتحدثون عن هذا المعنى كثيراً ، حامدين

-
- (١) انظر شرح الفضليات عن ابن الانباري ص ٢٧ و ١٠٨ ومعجم البكري ج٤ ص ٣٥١ والأغاني في تراجم هؤلاء وغيرهم من المدائين من الصعاليك .
(٢) انظر على سبيل المثال المقد الفريد ج٣ ص ٢٩٠ .
(٣) انظر معجم ما استعجم للبكري على سبيل المثال ج١ ص ١٩٦ وج٢ ص ٥٣٠ .
(٤) معجم البكري ج٤ ص ٣٥١ .

خروجهم من هذا الفراغ ، لاثنين في شدة على من ارتضى لنفسه أن يكون فراغ
الحياة نؤوما ، مضيقا بين الناس ، كما يقول تأبط شرا :

فلا تملئ بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعد من العيسال (١)
وكما يقول عروة بن الورد :

لما الله صعلوكا إذا جن ليله مصافى المشاش ألفا كل مجزر
ويسخر عروة سخرية مرة من فراغ هذا الفراغ فيقول :

ينام عشاء ثم يصبح ناعسا يبحث الحصى عن جنبه المتعسر
يعين نساء الحى ما استعنه ويمسى طليعا كالبعير المحسر (٢)
ويقول الإخيمر السعدى أيضا مستخفا بنؤوم الضحى كناية عن الفراغ :

وقالت أرى ربح القوام وشاقها طويل القناسة بالضحاء نؤوم
فإن آك قصدا فى الرجال فأننى إذا حل أمر ساحتى لجسيم (٣)

ومن هذه الظروف والعوامل التى كانت بارزة فى البيئة ، والتى كانت من
شأنها أن تدفع إلى الصعلكة وتحببها سهولة الهجرة ، وتيسر الاختفاء ، وكلاهما
من الأمور الهامة بل اللازمة لحياة الصعاليك . فالصعاليك خفيفو الحركة لا يقيد
حركاتهم شيء ، ولا يثقلهم متاع . ليس لهم ما يشد الناس إلى الأرض شئ .
فليست لهم حرفة ثابتة ، من زراعة أو صناعة ، وليس لهم مما يملكه الناس
من عقار أو شئ ثابت ، فالصعلوك « جل ماله حسام » (٤) كما يقول عمرو بن
براقة ، وهذا مما يجعل ارتباطهم بالأماكن ضعيفا ، وبحكم مسلكهم واتجاههم
الدائى يزداد ارتباطهم بالأماكن ضعفا ، فكل الأمكنة مادامت تحقق لهم مآربهم
سواء ، كما يقول مالك بن الريب « كل بلاد أوطنت كبلادى » (٥) .

والواقع أن طابع الهجرة والتنقل صفة عامة فى بوادى العرب لضعف
ارتباط مصالحهم بالأرض نفسها ، ولذلك نجد الفرق واضحا بينهم وبين أصحاب
الأرض المنزرعة .

ولكن الصورة بالنسبة للصعاليك أوضح ، فلئن كانت الهجرة فى حياة
مجتمعهم ظاهرة أو أحداثا متكررة ، فإنها بالنسبة إليهم قوام حياتهم وصفاتهم

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠

(٢) ديوان الحنابلة لأبى تمام ج ١ ص ١٥٩ ومصافى من المصافاة والمشاش العظيم اللين
والمجزر مكان الذبى أى كل منه جمع العظام من المجازر ليأكلها والطيح المحسر الكل المتعب .

(٣) الأمالى للقال ج ١ ص ٤٨ وربع القوام وقصدا كلاهما معناه متوسط الطول .

(٤) الأمالى ج ٢ ص ١١٨ .

(٥) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠١ .

الدائمة وقد تبعد بهم الهجرة أو تدنو ، ولكنها تنقل دائم على أى حال ، والشنفري
يصور فى بيتين اثنين تنقله بين خمسة أماكن فيها الجبال والقفار والمتاهات
فيقول :

امشى باطراف الحماط وتارة تنفض رجلى أسبطا فعصورا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك يلقى القاصى المتفورا (١)

على أننا نجد الفاظه تنبئ عن عمق احساسه بالتنقل ، فهو لم يقل اننى
ارتاد هذه الأماكن لأستقر فيها ، وانما قال أنه كأنه يمر بها مروراً ، ولذلك
اختار هذا التعبير البليغ وهو « تنفض رجلى » .

وهدفهم من هذا التنقل بطبيعة الحال هو ما تقتضيه حياتهم فى الصعلكة
من حاجتهم الى الأماكن التى يزاولون فيها صعلكتهم ، والى يحتمون فيها من
نتائج هذه الصعلكة ، وذلك ان مجالات الصعلكة بما فيها من لصوصية وسطو
وسلب ليس لمزاوتها مكان معين ، بل غالباً ما يكون نشاط الصعلوك بعيداً
عن متاع أهله وقومه ، فيركز نشاطه على القبائل الأخرى وخاصة الذين بين
قوما وبينهم عداوات حتى يجد من قومه عوناً اذا دعت الحاجة ، والمسافات بين
القبائل بعيدة مترامية ، مما يضطر الصعلوك الى اجتياز أماكن كثيرة قبل أن
يصل الى أدنى مكان يحقق له غرضه من غارته ، على أنهم كانوا كثيراً ما يبعدون
فى غزواتهم ، حتى ان بعض صعاليك السراة ويشرب واليمامة كان يبعد فى
غارته حتى يبلغ اليمن ، كما كان بعض اليمنيين يعكسون الأمر ، كما ورد
كثيراً فى أخبارهم المتناثرة مما لا نرى حاجة الى الإفاضة فيه الآن (٢) .

ولكن الذى يعيننا من هذا الحديث ان ظروف الصعاليك الشخصية
والاجتماعية كانت تيسر لهم التنقل الى أوسع مداه ، وان طبيعة الأرض بجبالها
وقفارها كانت تتيح لهم الحصانة والحماية الى أوسع مدى أيضاً ، ومن أمثلة
ذلك أخبار الاحيمر السعدى وان ذلك كله كان من العوامل البارزة فى
الصعلكة .

(١) معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٩٤٦ والحماط وأسبطا وعصور وذات الرس وبطن
منجل كلها أماكن .

(٢) وانظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٧٥ - ٨٦ وكما فى أخبار
السليك أنه كان يفر على اليمن مع أنه من بنى تميم باليمامة ومنازلهم باليمامة وما حولها قرب
شمال الجزيرة . انظر ترجمة السليك وأخباره بمهذب الأغاني (بالهرس)

هـ - عوامل أخرى :

وهناك من عوامل الصعلكة عوامل أخرى غير ما سبق ، وإن كنا لا نسلکہا
فى العوامل العامة لكونها يغلب عليها الطابع الفردى ، إلا أننا لا نستطيع أن
نتجاهل تأثيرها مهما قل فى ظاهرة الصعلكة

ويمكن أن نلخص أهم هذه العوامل فيما يأتى :

(أ) عوامل فردية :

وأعنى بها العوامل التى من شأنها أن تتعلق بالفرد وحده ، وتنصب عليه
آثارها دون أن يشاركه المجتمع أو الجماعة فيها ، وهى ظروف كثيرة منها ظرف
الأغربة والأغربة عند العرب تعبير يقصدون به نوعا من أبنائهم ، وهو النوع
الذى يولد أسود ، لأن أمه من الاماء السود ، وفى وصفهم بالأغربة ما يشير
إلى لونهم لأنه تشبيه بلون الغراب ، وهؤلاء الأغربة كانوا يشقون أيما شقاء
لا بلونهم الأسود - وإن كان اللون من مفاخر العرب - ولكن بنسبهم غير
الخالص حيث أن أمهاتهم غير حرائر ، والعرب فى الجاهلية لم يكونوا - فى
أغلب الأحيان - يعترفون بأبنائهم من الاماء ، اعتزازا بخلوص أنسابهم
وتنقيتها من أى دم غير عربى ، وخاصة إذا كان هذا المولود أسود ، فانه يجمع
فى نظرهم بين خستين لا يرتضون نسبتهما إليهم ، هما عدم خلوص النسب
والسواد فيبقى هذا الوليد ومن يخرج من نسله عبيدا كسائر العبيد ، مع علم
أبيه بل والقبيلة كلها أحيانا بأنه ابنه ، كما حدث لعنترة بن شداد الذى قضى
شطرا كبيرا من عمره عبدا ، لا يملك الا أن يرعى مع زملائه العبيد ، ولم يكن
اعتراف شداد بعنترة ابنا له تروجا على هذه العادة ، وإنما كان اضطرارا أملاه
ظرف ، كان يهدد كيان القبيلة وحياتها (١) .

فكان هؤلاء الأغربة ينشأون فى ظروف قاسية على نفوسهم أشد القسوة
متناقضة فى نفوسهم أشد التناقض ، كانوا يخرجون إلى الحياة فيجدون أنفسهم
عبيدا يلقون كل ما يلقى العبيد من ضياع ومذلة وهوان ، ومع ذلك فهم موقنون
فيما بينهم وبين أنفسهم كل اليقين بأنهم مظلومون عن عمد واصرار ، فهم فى
حقيقة أمرهم أحرار لا عبيد ومن حقهم أن يكونوا من طبقة السادة ، لا من طبقة
الأرقاء ، وكان أشد ما يؤلمهم بطبيعة الحال أن يجدوا هؤلاء الذين يرونهم - فى
الواقع - أخوة لهم متسلطين عليهم ، مستعبدين إياهم .

(١) انظر القصة فى خزنة البغدادى ج ١ ص ٨٧ - ٨٩ .

فأما العاجزون منهم وذوو الهمم الضعيفة فكانوا يبتلعون أحزانهم ، ثم يظلون يجترونها حتى يدركهم الموت أو يدركوه ، وأما الذين يجدون في نفوسهم قدرة على كسر هذا القيد ، ومهريا من هذا السجن الاجتماعي ، فانهم كانوا لا يترددون .

وأقرب طريق - وإن لم يكن أسره - لديهم ، لكسر هذا القيد هو القوة في أى صورة من صورها ، فإن اعترفت القبيلة بهذه القوة ورغبت في الاستفادة منها - كما فعل قوم عنتره بن شداد - أصبح هذا الغراب فردا من القبيلة والا فإوسع مجال أمامه هو مجال الصعلكة الفسيح ، كما فعل السليك بن السليكة (١) ، على أننا نلاحظ انه ليس من اللازم أن تكون الأم أمة كام خفاف ابن نديبة (٢) الحرة والأخبار تحدثنا عن أن أغربة العرب في الجاهلية ثلاثة عنتره ابن شداد وخفاف بن نديبة ، والسليك بن السليكة (٣) ، إلا أن خفافا لم يكن يشارك صاحبيه هذه الأزمة فقد كانت أمه حرة وليست أمه .

ومهما يكن من شيء فاننا نعتقد ان الأغربة في الجاهلية كانوا أكثر من ذلك بكثير وانهم انما تحدثوا عن هؤلاء باعتبار انهم من الأشخاص البارزين الذين عنى العرب جميعا بأخبارهم ، وأعجبوا بما أوتوا من بسالة وقوة وشدة بأس .

والذي نريد أن نصل اليه من ذلك هو أن هذا الوضع - وضع الأغربة - الاجتماعي ، من شأنه - وإن كان من الحالات الفردية - أن يكون من عوامل الصعلكة وأسبابها ، كما كان السليك بن السليكة الذي يقول عن احساسه بهذا المعنى « انى لو كنت ضعيفا لكنت عبدا ولو كنت امرأة لكنت أمة ، اللهم أعوذ بك من الحية ، اما الهيبة فلا آهاب أحدا (٤) ، وقد كان يمكن أن نتحدث هنا عن وضع الخلعاء ، ولكن الخلع - كما قلنا - نتيجة للجنايات والصعلكة ، وليس سببا لها ، ونحن نتحدث عن أسباب الصعلكة .

ومن هذه العوامل الفردية حالات الأسر ، ومما سبق علمنا ان الغارات كانت أمرا شائعا متداولاً في أنحاء الجزيرة كلها ، وإن القبائل وعلى رأسها ساداتها وزعمائها كانت تزاوّل هذه الغارات ، أحيانا للانتقام ، وأحيانا للسلب بآدى ذى بدء ، وحتى في حال الانتقام لم يكن القتل وحده هدفا لها ، وإنما كان السلب والأسر من أهم أهدافها ، لأنه مقنن مادي ، سواء كان سلبا أو أسرا

(١) أنظر ترجمته في شرح التبريزي لحسانة أبي تمام ج١ ص ٣٧٨ وفيه أن أمه السليكة وهى سوداء وأنه أحد العدائين الذين لا تلحقهم الخيل وترجمة أخرى وقصة طويلة وأنظر مذهب النضرى لأغاثى الأصفهاني ج٢/١٦٧ وبها ما سبق وترجمة طويلة .

(٢) أنظر شرح الاصمعيات عن ابن الألبارى ص ٨ وفيه أن أمه نديبة وكانت سوداء وهى بنت شيطان بن قتان من بني الحارث بن كعب .

(٣) فى القاموس المحيط مادة (غرب) أضاف اليهم رابعا هو أبو عمير بن الحباب .

(٤) مجمع الأمثال ج٢ ص ٩ .

فان الأسير كان يفدى نفسه أو يفديه قومه بالمال وأهم ما كانوا يحرصون على أسره النساء في غاراتهم ، والظعائن (١) في قطعهم للطريق ، كما سبق في قصة دريد بن الصمة وظعينة ربيعة بن مكدم (٢) ، وفي أخبار السليك انه خرج في تيم الرباب يتتبع الأريا فويغير على الاحياء والأموال حتى مر بأرض بين ديار بنى عقيل وسعد بن تميم فلقى رجلا من خثعم ٠٠ ومعه امرأة ، فأخذه هو والمرأة ، ثم أطلقه وبقيت المرأة (٣) . ومثل هذا كثير في أشعارهم .

وفي الحرص على أسر النساء - بالاصافة الى معنى الاهانة للأعداء والمنافسين - معنى مادي ، فان قوما سيكونون أحرص على فدائها غيرة على الحرمات ، فان لم يفدوها تصبح هي ومن تلده عبيدا لأسرها ، وهذا كسب بالنسبة اليهم كبير .

والذى يعنيننا من هذا هم الأسرى ، فانه وان كان كثير منهم كان يفدى نفسه أو يفديه قومه ، إلا أن بعضهم كان يظل عبدا ، اما لجهل قومه بمكانه أو بأسريه كما حدث في قصة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى وهبته إياه خديجة زوجه ، وكان زيد قد سبى وهو صغير من قومه بنى كلب ، ثم اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، ثم قدم حجاج من كلب الى مكة فعرفهم وعرفوه ، فأخبروا أباه حارثة وعمه كعبا ، فقدموا مكة وعرضا على محمد فداءه ، فقال ان اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا ، فاختار زيد محمدا ورفض الذهاب مع أبيه ، فقام محمد الى الحجر فأعلن أن زيدا منذ اليوم ابنى يرثنى وأرثه وهى مرتبة فوق مجرد الحرية ، فطابت نفس أبيه وانصرف راضيا (٤) ، وأما لرفض الأسرى الفداء ، وذلك غالبا ما يكون في حالات أسر النساء حرصا على امساكنهن ، وفي حالات استحكام العداء بين الأسرى والمأسور منهم اهانة وتشفيا ، واما لعجز الأسير عن الفداء .

وهنا نجد هذا الأسير يمر بالحالة النفسية التى يمر بها الأخرى ، يشعر فى قرارة نفسه بأنه عربى حر ، وانه كان ينبغى أن ينال من الحقوق ما يناله السادة ، بل أن يكون سيدا منهم ، ولكنه يجد الواقع عكس ما تحدته به نفسه كما حدث للشنفرى الذى أسره بنو شيبابة بن فهم من قومه وهم بنو الأواس ابن الحجر ، فمكث فترة فى بنى شيبابة حتى أسر بنو سلامان بن مفرج رجلا من بنى شيبابة ففقدوم بالشنفرى ، وهكذا انتقل الشنفرى الى بنى سلامان وعاش فيهم عيش العبيد يرعى ابلهم ، وقد شغله العمل والرعى وعدم الاحتكاك الكثير

(١) فى القاموس مادة (ظعن) : الظعينة : المرأة مادامت فى هودج (وهذا يكون أثناء السفر)

(٢) الأماالى للقالى ج ٢ ص ٢٧١ .

(٣) انظر القصة فى شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ج ١ ص ٣٧٨ .

(٤) انظر خزائن البغدادي ج ٢ ص ١١٠ .

بالناس عن الاحساس المثير بوضعه الاجتماعى ، ولكنه حينما بدأ يحثك هاجت فى نفسه كل الاحاسيس بالأوضاع التى فرضها عليه هذا الظلم الاجتماعى فثار ثورته العارمة ، وصب هذه الثورة على بنى سلامان فى نقمة عجيبة ، بدأت باندفاعه الى الصعلكة ، وانتهت بقتله من بنى سلامان تسعة وتسعين رجلا فيما تتواتر به الروايات . وكان بدء ثورته حينما صفعته ابنة الرجل الذى يعيش فى كنفه ، احتقارا له ، ونفورا من ندائه اياها بقوله « يا أخيه مترفعة عن أن يكون أخاها ، أو اهانة له على التفكير فى الزواج منها - على اختلاف الروايات ، وأغلب الظن ان وراء هذه القصة المبتورة قصة حب خالج قلب الشنفرى وأضاءه بآمال مشرقة براقة أسكرته حينما من الدهر ، فتناسى نفسه وتناسى الوضع الاجتماعى فى غيبوبة هذا الحب العميق ، ولم توقظه من هذه الغيبوبة الا لطة قعسوس ابنة الرجل الذى يعيش فى كنفه - فاذا هو يقظ كأقوى ما تكون اليقظة ، حازم أمره كأشد ما يكون الحزم ، واذا هو منطلق الى الصعلكة بأقصى ما يملك من ارادة - وما كان أقوى ارادته - وبأسرع ما يملك من عدو - وما كان أسرع عدوه (١) - ليصبح من أبرز أعلام الصعاليك ، وأشعر شعرائهم (٢) .

فقد كانت الظروف الشخصية التى احاطت بالشنفرى من أسره وشعوره بالهوان بين أناس لا تربطه بهم رابطة ، ولا يرى لهم عليه حقا بل ولا يراهم خيرا منه شخصا أو نسبا ، كل ذلك كان سببا قويا وأصيلا فى اتجاه الشنفرى الى الصعلكة ، ومن يدري لو كانت قد تهيأت له ظروف أخرى مستقيمة وادعة كيف كان يكون ؟ أغلب الظن انه كان يصبح سيدا مرموقا وزعيما قائدا لا فى الأزد وحدها ، فان عقليته الفذة التى تبين من خلال شعره ، وارادته الفذة أيضا كما تحدثنا عنها أخباره ليسا من طراز عادى فى الناس ، وانما من طراز تبخل الحياة بمثله أن يكون كثير التكرار ، والتبريزى يلخص رأى العرب فى عقلية الشنفرى فيقول « يضرب به المثل فى الحذق والدهاء (٣) » فلننظر الى ما كان يعانيه فى صعلكته وتنقله الدائم ، من صور عجيبة غاية العجب

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى شرح الفضليات عن ابن الانبارى ص ١٠٨ وشرح ديوان الحماسة للتبريزى ج١ ص ١٨٧ ومهذب الخضرى لأغاثى الأصبهانى ج١ ص ٩٥ ومجمع الأمثال ج٢ ص ٤٦ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ج١ ص ١٠٤ ثم أمال القال ج٢ ص ٢٠٥ ، ٣٦ وأعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري والكمال للمبرد ج٢ ص ٧٩ والمقد الفريد ج١ ص ٣٠ وأخطا صاحب القاموس المحيط فى عدة من الاسلايين الأفرجة (مادة غرب) مع أنه جاهل وله فى معجم البكرى ج٢ ص ٤٣٩ ، ج٣ ص ٩٤٦ وفى الحيوان للجاحظ (بالفهرس) .

(٢) أنظر الشوامخ للدكتور محمد صبرى ص ١٢٥ والحياة المريية من الشعر الجاهل للدكتور الحوفى ص ٢٣٤ .

(٣) شرح الحماسة ج١ ص ١٨٧ .

قاسية أشد القسوة ، فى احتمال الجهد والجوع والبرد والحرق والمخاطر ، وقدرته الأشد عجبا على تصوير هذا كله (١) فى صور حية ناطقة ، بل انه ليخيل الى من يدرس شعره أن الصور نفسها تشارك الشنفرى فى احساسه وانفعاله ، فتتلوى من الجوع حينما يتحدث عن الجوع ، وترتعش من وقع البرد حينما يتحدث عنه ، وتتأفف من وهج القيظ حينما يتحدث عن الحر . وهكذا ، وحين ننظر الى صلابته فى قوة ارادته ، وتصميمه على انفاذ عزمه كما آلى على نفسه أن يقتل من بنى سلامان مائة رجل فقتل منهم تسعة وتسعين ، ثم حال الموت بينه وبين اكمال المائة ، ومن طريف ما يروى ان أحد بنى سلامان مر بقبر الشنفرى فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فعقرت رجله فمات ، فكملت بهذا السلامى المائة التى كان الشنفرى يتمنى أن يبلغها من بنى سلامان وهو حى (٢) ومع أن مثل هذا الخبر يبدو غريبا غير مصدق ، الا أن علماء الروح اليوم لا يرون فى مثله غرابة ، بل ينسبون للأرواح ما هو أبعد من ذلك وأشد غرابة ، فليس بغريب فى منطقهم صدور مثل ذلك من روحه بعد موته (٣) .

وننتهى من هذا الحديث الى انه كانت هناك ظروف كنظرة المجتمع الى الأغربة ، وظروف الأسرى وما يلقونه فى حياتهم كانت تدفع أصحابها الى أى مسلك يحرمهم من هذا الظلم الاجتماعى وكانت الصعلة أقرب هذه السبل اليهم ، كما حدث للسليك والشنفرى ، ومما لاشك فيه ان كثيرين كانت ظروفهم مثل ظروف هذين ، وأن بعضا غير قليل منهم سلك ما سلكه ، غير انه لم يحظ بعناية التاريخ منهم الا أولئك الذين كانوا مثارا لعجاب المجتمع ، والذين فرضوا أنفسهم على التاريخ بما أوتوا من مواهب ومقومات حية متحركة ، وأغلب الظن ان شخصا كعنترة بن شداد كان الحاجز بينه وبين الصعلة اعتراف أبيه بنسبه ، فان عنترة كان يملك من القوة والاباء والنفور من الهوان ما يملكه أقوىاء الصعاليك ، وقد مو عنترة قبل تحريره بالظروف النفسية التى يمر بها الأغربة والأسرى الذين نحولوا الى صعاليك ، فلو لم يعترف أبوه بنسبه ، فمن المرجح أنه لم يكن ليستسيخ الذل والهوان مع ما فى نفسه من مقومات العزة والأثفة ، ولم يكن حينئذ أمامه للهروب من وضعه الاجتماعى والخروج عليه الا الصعلة .

(١) أنظر للمثال لأمية العرب فى الأمال ج ٣/٢٠٥ وأعجب العجب فى شرح لامية العرب.

للزمخشري .

(٢) أنظر ترجمته فى المصادر السابقة .

(٣) أنظر العالم غير المنظور للأستاذ على عبد الجليل راضى .

(ب) الوراثة :

الوراثة من العوامل الانسانية الموجهة لحياة البشر جميعا ، بل هي عنصر الحياة الأول ، أعنى انها عنصر الامتداد لحياة الكائنات الحية جميعا بما فيها النبات .

وعلماء الوراثة اليوم يسلمون بسيطرتها حتى على نزعات السلوك المختلفة كالشدوذ في أى ناحية من نواحي النزعات السلوكية ، وكادمان الخمر . وإن كان كثير منهم مع تسليمه بأثر الوراثة لا يرى فيها تعارضا مع أهمية تأثير البيئة وليست التفاصيل مما يعنى موضوعنا ، وإنما يعنينا هذا الحديث عن نزعات السلوك وأثر الوراثة فيه .

والعرب كانوا يعرفون الوراثة ويقدرُون آثارها . بل كانوا يعتزون بها الى حد المبالغة والافراط في كثير من الأحيان ، حتى انه يمكن ارجاع كثير من عاداتهم الاجتماعية الحيوية الى تقديرهم للوراثة ، وذلك ، كنفورهم أحيانا من التزوج بغير العربيات حفاظا على توارث الدم العربى فيما يلد لهم من أولاد ، وبالتالي ازديادهم لمن يولدون بينهم من أمهات غير عربيات ، وقد ظلت هذه النظرة فيهم حتى بعد الاسلام ، وأخبارها أوضح وأكثر من أن تحتاج الى بيان .

ومن الزاوية التى تعنينا وهى زاوية السلوك ، فإن العرب كانوا يدركون أثر الوراثة فيها ، ولهم أخبار وأمثال فى ذلك كثيرة مشهورة ، منها قولهم « شنشنة أعرفها من أخزم » (١) ومنها « من أشبه أباه فما ظلم » (٢) وفى الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » على أنهم بلغوا بالوراثة فى فهمهم لها حد النزعات النفسية ومن ذلك قصة المناقرة التى قامت بين سيدى عشرين من العرب ، حتى انتهيا الى أن قال أحدهما :

أبذلك العداوة ما حيننا

فرد عليه الآخر بقوله :

ونحن اذا متنا نودئها البينا

ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكون سلوك الصعلكة التابع من النزعة النفسية موروثا ، وحيث أن الصعلكة كما قلنا كانت ظاهرة اجتماعية غير محدودة

(١) مجمع الأمثال ج١ ص ١٣٦ وملخصه أن أبا أخزم الطائى كان له ابن يسمى أخزم ، وكان عاقا له ، ثم مات وترك بنتا له ، فوثقوا يوما على جدهم يضربونه حتى أدموه ، فقال : أن بنى خرجنى بالدم شنشنة أعرفها من أخزم
فذهب الشطر الأخير مثلا ، وتشمل به عمر بن الخطاب إعجابا بعمد الـ ابن عباس وإشارة الى أنه ورت مداد الراى من أبيه ، ومن أمثلتهم فى هذا «الصنا من الصنية» .
(٢) مجمع الأمثال ٢/٣٠٠ .

العدد بالنسبة الى مزاوليها ، فان الوراثة من شأنها أن تحافظ على بقائها ، ما دامت الظروف مهية لها ، وإن تنمى عدد روادها ومزاوليها ، وحين نتتبع بعض أخبار القبائل نجد ان منها ما اشتهر بصفات معينة ظل أفرادها يتوارثونها حتى أصبحت صفة لهم يعرفون بها ومن ذلك تسمية بعض بنى عامر بن صعصعة بالحللاء لانهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة « (١) فقد اتفق هذا البطن أن من بنى عامر فى صفة واحدة مشتركة بينهم هى الصفة السابقة ، وسماوا من أجلها باسم معين ولاشك ان للوراثة أثرا ظاهرا فى شيوع صفة معينة بين جماعة دون مجتمعهم الذى يعيشون فيه ، وكذلك نجد بطنا من عبد القيس يسمون الرواطي كانوا يوصفون بأنهم لصوص (٢) ويسرى هذا الوصف عليهم .

وحين نمضى فى تتبعنا لأخبار القبائل وأخبار الصعاليك ، نجد أن بعضها اشتهر بتخريج عدد كبير من الصعاليك ، بالإضافة الى شهرتها بكثرة غاراتها واشتراكها فى صراعات متوالية حتى أصبح طابع الغارات والسطو والقتل والصعلكة صفة غالبية عليها ، ومن هؤلاء بنو سعد ، من بنى تميم ومن صعاليكهم السليك بن السلكة ، وعبيد بن أيوب ، وعبد بن الطبيب والأحيمر السعدى (٣) ومن هذه الجماعات التى كانت بهذه الصفة بنو مازن وهم أيضا بطن من بنى تميم ومن صعاليكهم سعد بن ناشب (٤) ومنهم مالك بن الريب وأبو حردبة اللذان يقول عنهما الراجز :

الله نجاك من القصيم
وبطن فلج وبنى تميم
ومن غويث فاتح العكوم
ومن أبى حردبة الأثيم
ومالك وسيفه المسموم (٥)

ومن هذه الجماعات أيضا هذيل ، وهى مشهورة بكثرة الغارات (٦) ، وكثرة الحللاء (٧) والصعاليك ومنهم أبو خراش وصخر الغي والاعلم ، ومن

(١) القاموس المحيط مادة (خلع) .

(٢) أنظر معجم ما استعجم للبكرى ج٣ ص ١٠٨٢ .

(٣) تراجعهم وأخبارهم متفرقة فى مصادر كثيرة منها العقد الفريد ج٣ ص ٢٩٠ عن الأحيمر وعن السليك شرح التبريزى لديوان الحماسة ج١ ص ٣٧٨ وعن عبيد بن أيوب الكامل ج١ ص ٢٠٠ وعن عبد بن الطبيب عن شرح ابن الانبارى للمفضليات ص ١٣٤ وغاراتهم كثيرة خلال هذه التراجع وغيرها وأنظر على سبيل المثال معجم البكرى ج٣ ص ١٠٨٢ .

(٤) أنظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ج١ ص ١٤ .

(٥) أنظر معجم البكرى ج٣ ص ١٠٢٧ وفيه أن أبا حردبة ومالك بن الريب لصان مازنيان ومالك ترجمات لى مصادر أخرى .

(٦) أنظر للمثال معجم البكرى ج١ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، ج٢ ص ٥٣٠ .

(٧) أنظر مثلا لسان العرب مادة (خلع) ومهذب الأغاني ج٢ ص ١٨٥ .

توارث مقومات الصعلكة فى هذيل شهرتها بكثرة العدائين الذين لا تلحقهم الحيل ، حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة أخوة كلهم عداء لا تسبقه الحيل (١) وسرعة العدو كانت من أهم أسلحة الصعاليك .

ومع ذلك فلسنا نقول ان هذه الوراثة مجردة من أثر البيئة ، فان الوراثة وخاصة اذا كانت جماعية تتحول نفسها الى بيئة ، بمعنى ان الصعلوك حين يرث نزعة الصعلكة ، ثم ينشأ فاذا هو فى بيئة تظللها هذه النزعة ، تصبح الصعلكة المنتشرة من حوله بيئة فى ذاتها تهيم المجال لايراز عنصر الوراثة واستغلاله ، وكثيرا ما تختلط الوراثة بالبيئة ، فى مثل هذه الحال التى يورث فيها الوليد ميراثا ثم ينشأ فى بيئة يشيع فيها سلوك هذا الميراث ، وقد عبّر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وانما يتميز عامل الوراثة عن عامل البيئة حينما ينفرد صاحبه بصفة أو سلوك غير مألوفين فى مجتمعه ، ويمكن أن ينطبق هذا على تلك الجماعات التى تميزت، بسلوكها المعين كالرواطى ومع تكرارنا للملاحظة ان أسلوب الفارات والسطو والصعلكة كان ظاهرة مألوفة فى المجتمع الجاهلى كله ، الا اننا نلاحظ ان هذه الجماعات سيطر عليها هذا الأسلوب ، حتى لصق بها كصفة غالبية على أفرادها ومتعاقبة فيهم ، بصورة تميزهم عن الجماعات الأخرى .

وهنا نتساءل : ما الذى جعل هذه الجماعات تتميز بهذا السلوك على هذا الوضع الشائع ، وحين نجيب عن ذلك ، ننظر فاذا جماعات أخرى تشارك هذه الجماعات فى ظروفها وموقعها من البيئة ولكنها لا تتصف بما اتصفت به الجماعات الأخرى ، ومثال ذلك هذيل ، فان شهرتها بالفارات والحلعاء والصعاليك لا تشاركها فيها قبائل أخرى تشاركها الظروف والبيئة ومن هذه القبائل هوازن وسليم وغفار (٢) ، وكلهم فى ظروف هذيل الجغرافية والاجتماعية ، وكذلك الاقتصادية ، وأهم ما فى هذا الموقع من عوامل الصعلكة ومقتضياتها من الفارات والحلج والفتك وغير ذلك وقوعه حول طريق القوافل الأساسية الموصلة بين اليمن والشام ، وحول الطرق الفرعية الموصلة بين مكة وقبائل الشمال فى اتصالهم بمواسم الحج ، ووقوع هذا الموقع أيضا قريبا من أهم أسواق العرب وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وهذه العوامل وان كانت من أهم ما أشاع الصعلكة فى هذيل الا أن نقطة التساؤل هى : ولماذا لم تكن هذه القبائل المذكورة مثل هذيل فى صفتها هذه ، مع انها تشارك هذيل فى هذه الظروف ؟

(١) معجم البكرى ج٤ ص ٣٥١ .

(٢) أنظر الخريطة بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج١ ص ٩ ومعجم البلدان

ومعجم ما استعجم عن أماكن هذه القبائل .

وحينئذ لا نجد ما تستريح اليه النفس في الاجابة سوى ادخال عامل الوراثة الذى تدل عليه شهرة هذيل بتوارث أهم أسلحة الصعاليك وهو سرعة العدو حتى أن أبا خراش الهذلي كما قلنا كان أحد عشرة اخوة كلهم لا تسبقه الخيل .

وكذلك الجماعات الأخرى مثل بنى مازن وبنى سعد ، وكلاهما من بنى تميم فانه وإن كانت بعض القبائل قد شاركتهم شهرتهم بالصعلكة كبنى عبد القيس الذين اشتهر الرواطي بأنهم لصوص (١) إلا ان هناك قبائل أخرى تقع فى مثل موقعهم من البيئة وتشاركهم ظروف الحياة ومع ذلك لم يشع فيها أسلوب الصعلكة ، كبنى بكر وبنى تغلب ، وطبيء وغطفان (٢) وأهم ما تشترك فيه هذه القبائل من عوامل الصعلكة هو وقوعها حول أحد الطريقين الرئيسيين للتجارة ، وهو الطريق الشرقى الذى يحاذي الخليج العربى ويصل ما بين ظفار فى جنوب اليمن الى شمال الجزيرة : ثم العراق والشام ، وكذلك قريبا من الطرق المؤدية الى الموانئ الواقعة قديما على الخليج العربى . وقربها أيضا من اليلامة التى اشتهرت ببعض الحصب بالنسبة الى غيرها من الأماكن واختلاف جماعتين فى الصفات والسلوك مع تساويهما فى الموقع والظروف ، لا يبدو له من مبرر غير عامل الوراثة ، وإن كانت هذه الوراثة فى أغلب أحيائها ممتزجة بظروف البيئة ودوافعها .

وهذا عبيد بن أيوب العنبرى يقرر ان صعلكته انما هى وراثة عن آبائه فيقول :

وأت خلق الأكدراس اشعث شاحبا على الجندب بساما كريم الشمال
تعود من آبائه فتكاتهم واظعامهم فى كل غبراء شامل (٣)

واذن فالوراثة فى صورها السابقة كانت من الأسباب التى ساهمت فى نشأة الصعلكة وفى حياتها ، سواء أكان أثر الوراثة من حيث النزعة النفسية الى العدوان وما يلابسه من نواحي الصعلكة أم من حيث الدوافع المباشرة التى كانت تشجع على الصعلكة وتدفع اليها ، كتوارث صفة العدو ونحوها من الأدوات المباشرة فى مراولة الصعلكة والتهيؤ لها ، وهذا النوع الأخير وإن كان يعتبر من قبيل الاستعداد الشخصى إلا أن إقترانه بالوراثة يزيد من فاعليته ومن توجيهه فى مجال معين من السلوك .

(١) انظر مجرم ما استجمم للبكري ١٠٨٢/٣ .

(٢) انظر خريطة بلاد العرب قبل الاسلام بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٦

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .

(ج) الاستعداد والشذوذ :

قلنا اننا فى هذا الفصل من فصول اسباب الصعلة نحاول أن نعرض لبعض العوامل والأسباب التى وإن لم تكن ذات طابع عام فاننا لا نستطيع تجاهلها فى مقام حصر الأسباب التى من شأنها أن تكون دافعا من الدوافع الى الصعلة .

ونعنى بالاستعداد التهيؤ الفطرى فى الشخص للاتجاه الى الصعلة ، سواء أكان تهيؤا من الناحية النفسية كالميل الغريزى للعدوان ، أو امتلاك قوى نفسيه معينة تستلزمها حياة الصعلة كالجرأة وقوة العزيمة ، وشدة التحمل أم كان تهيؤا جسمىا كامتلاك صفات معينة تحتاجها حياة الصعاليك احتياجا أساسيا كخفة الحركة وسرعة العدو ، وحسن التسلل والمراوغة ونحو ذلك .

ونعنى بالشذوذ وجود صفة أو تهيؤ فطرى معين ، فى فرد أو أفراد ينفردون به عن سائر أفراد مجتمعهم فيصبحون بهذا الانفراد شاذين عن الوضع العام فى المجتمع .

وقد شاعت مشيئة الله القدير الحكيم ، أن يبدع الكون وما فيه فى نظام عجيب ، ظل وسيظل فهمه فوق مستوى العقول ، فلا يتاح للعقول من نظام هذا الكون إلا أهونه وأيسره ، أما أجله وأعظمه فهو فى منأى عن عقول البشر مهما عظمت هذه العقول .

ومن نظام الله العجيب فى كونه ، أن نرى النقيضين فى كل شيء ، لا يوجد مطلق قط فى الحياة ، وإنما تقيده مجاورة نقيضه له ، الخير معه الشر ، والظلام معه النور ، والذكاء معه الغباء ، والحياة معها الموت وهكذا .

وفى حياة الناس الشجاعة يجاورها الجبن ، والجود يجاوره البخل ، والصدق يجاوره الكذب ، والكرم يجاوره اللؤم وهكذا .

على أن النقيضين لا يسيران فى خط واحد ، وإنما يتدرجان الى قمتين متناقضتين ، ينتهى كل منهما الى احدها ، فالذكاء والغباء مثلا ، نجد عامة الناس يتفاوتون فيهما ، ولكن فى مجال متقارب ، بينما يشذ بعض الناس فيرتفعون الى درجات عليا من الذكاء ، يتفاوتون فيها أيضا ويتدرجون حتى يكون بعضهم فى القمة العليا ، بينما يشذ بعض آخرون فيتدرجون الى أسفل متفاوتين فى الغباء ، ويظلون فى التدرج ، حتى ينتهى بعضهم الى القمة السفلى وهى الجنون .

ومن يدرى ، فلعله لو اطلع مطلع فى مثل هذا المجال ، لوجد الناس يكونون ما يشبه الهرمين ، أحدهما الى أعلى ، والآخر الى أسفل ، وأن التدرج فى كلا الهرمين متساو ، وأن حجم الهرمين نفسه متساو ، وتكون النتيجة أن يكون

عدد الأذكياء في كل درجة من درجات هوم الذكاء يقابله ويساويه عدد الأغبياء في الدرجة نفسها من هوم الغباء .

ومن يدري أيضا فلعل هناك أشياء كثيرة في الحياة بنظام كهذا النظام .
ومن يدري أيضا فلعل كل ما في الناس من صفات الخير والشر يتدرج في هرمين متضادين أيضا كهذا النظام ، بحيث يتساوى عدد الخيرين ، وعدد الشريرين في كل درجتين متقابلتين من هذين الهرمين .

ومن الحق ان التاريخ لم يعرف جيلا كاملا في أمة كاملة من الناس حطم هرم الشر - ان كان حقا هرما - وخرق التوازن بين قوتي الخير والشر ، بحيث ذابت قوة الشر في جميع صورها التي يتصف بها الناس من صفات وسلوك فلم يبق منها الا الشذوذ الفردى الذى تأبى سنة الحياة الا أن تتشبه به في كل شيء . من المحقق ان التاريخ لم يعرف هذا الجيل الكامل في الأمة الكاملة الا جيل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهذه حقيقة لا نظن ان هناك من يمارى فيها ولو كان من أعداء الاسلام . ولعل في هذا تفسيراً لقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولقول النبي « خير القرون قرنى » .

ومهما يكن من شيء بالنسبة لموضوعنا ، فان الخير والشر كل منهما يمثل استعدادا فطريا عند بعض الناس ، واذا كان في الناس من هم مهيتون بطبعهم للخير فان فيهم أيضا من هم مهيتون بطبعهم للشر ، بل ان من الناس من يرى ان بعض نوازع الشر كالظلم هي الأصل في الانسان ، وان الامتناع عنها انما يكون لظروف تمنعه من مزاولتها : كما يقول الشاعر العربى :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة قلعة لا يظلم

وحين نعرض هذا المعنى - على غرابته عن العرف - على التحليل لا نجد فيه بعدا كبيرا عن الحقيقة ، فان الظلم بمعنى الجور على حقوق الآخرين يمثل إحدى الفرائض الفطرية في الانسان ، وهى غريزة الأنانية ، التى يسلم علماء النفس بأنها إحدى الفرائض فى الانسان وهكذا كل صفات الشر التى تتصل بالفرائض البشرية يمكن اعتبارها هى الأصل فى سلوك الفرد ، وان الظروف الخارجية هى التى تحول بينه وبين مزاولتها ، وهى ظروف كثيرة تختلف من مجتمع الى آخر ، فأحيانا تتحمل هذه الموانع فيما يسميه علماء الاجتماع « سلطة المجتمع » بمعنى شعور الفرد بأن المجتمع ينكر هذا السلوك ويسخط عليه وأحيانا تتمثل فى التشريع الذى يحرم هذا السلوك ويحدد له عقابا ، سواء أكان التشريع دينيا أم دنيويا ، وسواء أكان العقاب أيضا بشريا أم الهيا ، وأحيانا تتحمل هذه الموانع فى سلطة العقل ، بمعنى أن يدرك الفرد قبح هذا السلوك فيكف عنه .

(١) الآية ١٠٩ من سورة آل عمران .

والصعلكة فى جملة مضمونها نوع من الظلم ، بمعنى الجور على حقوق الآخرين ، فى أى صورة من صور الجور ، فالاستعداد الفطرى لها فى طبيعة الافراد ليس غريبا على الفرائز البشرية ، مالم تتجمع حول هذا الاستعداد الموانع التى أشرنا اليها لتحول بين الفرد وبين إبراز هذا الاستعداد . وقد رأينا ان الموانع السابقة قد ضعفت فى المجتمع الجاهلى ، حتى أفلت منها زمام السلوك فى المجتمع كله ، لا فى مجتمع الصعاليك وحدهم ، حتى جعلوا الظلم - الذى تعتبر الصعلكة نوعا منه - شعارا لهم يعبر عنه شاعرهم بقوله :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهزم ومن لا يظلم الناس يظلم

حتى أصبح كثير من أفراد المجتمع - غير الصعاليك - يزاولون كثيرا من أساليب الصعلكة كالغارات والسطو وقطع الطريق ، وفى مقدمتهم بعض سادة القبائل الذين كانوا يزاولون هذه الأساليب اما بأنفسهم ، كما مثلنا بصمر بن معد يكرب وعامر بن الطفيل ودريد بن الصمة والحارث بن بدر ، وأما بمقاسمتهم الصعاليك غنائمهم التى يغمونها ، كما كان يفعل عبد الملك بن مويك الخزاعى (١) ، والعباس بن مرداس السلمى (٢) .

على انه مهما وجدت الموانع ، ومهما بلغت هذه الموانع من القوة ، فهناك الشذوذ الفردى الذى يعتبر أقوى من الموانع جميعا ، والذى نعتقد انه سنة الحياة التى لا تتخلف فى كل شئ ، حتى فى القواعد العلمية ، ولذلك حكم العلماء مطمئنين بأنه « لكل قاعدة شواذ » وحتى هذا المجتمع الاسلامى الذى كان خير أمة أخرجت للناس ، لم يخل من الشذوذ الفردى ، ولذلك أقيمت كل الحدود الشرعية فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أفراد مثلوا هذا الشذوذ فى سلوكهم (٣) .

وكذلك اليوم نرى الدول التى بلغت فيها موانع الانحراف درجة عالية من سيادة السلطة والقانون كما فى أوروبا وأمريكا ، لم تخل ولن تخلو دولة منها قط عن الشذوذ الفردى ، بل ان بعضها تجاوز فيه الانحراف حالة الفردية الى ما يشبه الظاهرة الاجتماعية ، وفيما يتعلق بالصعلكة ، تجد صورة منها فى هذه الأمم فيما يسمونهم هناك «رجال العصابات» الذين يسلكون مسلك صعاليك العرب نفسه ، ويهدفون الى ذات الغاية التى استهدفها الصعاليك ، وهى الحصول على المال . بل اننا لو حاولنا أن ندرس موقف هذه الأمم من صعاليكها ، أعنى

(١) أنظر مذهب الأغاني فى اخبار السليك ١٦٧/٢ .

(٢) أنظر شرح التبريزى لمباسة أبى تمام ج١ ص ٢٥٠ فى حديث خفاف بن ثدية عن

العباس بن مرداس .

(٣) كما أقيم حد الزنا بالرجم على المرأة الفامدية ، وحد السرقة على المرأة التى ورد فى

قصتها حديث «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» وحد القذف على قاذفى الخيرة

ابن شعبة ، وحد الشرب على أبى محجن الثقلى وآخرين .

من يسمونهم رجال المصائب لرأينا ان موقفها يتضمن الاعتراف بأن السلوك العدوانى ، الذى يمكن أن يسمى بالظلم - باعتباره السابق - الذى يمثل سلوك الصعاليك يتضمن الاعتراف بأن هذا السلوك يمثل استعدادا فطريا غريزيا ، وذلك بتركيزها فى وسائل الاعلام والترفيه على تجسيم سلوك الصعاليك - المصائب - وابراز أحداثه وأهدافه ، والتفنن فى تصويرها ونشرها ، ومعنى هذا ، ان ذلك من حاجات المجتمع النفسية ، لأن وسائل الاعلام والترفيه إنما تستهدف ارضاء الاستعداد والحاجات النفسية والعقلية لدى الأفراد .

وليس من شأن موضوعنا أن يفيض فى مثل هذا الحديث ، ولكن الذى يعيننا هو أن الاتجاه الى الصعلكة فى جذوره النفسية العميقة يمثل استعدادا فطريا يتعلق ببعض غرائز الانانية والذاتية ، وأن هذا الاستعداد ان لم تكبح جماحه موانع خارجية يبرز ممثلا فى سلوك يعبر عن هذا الاستعداد ، وانه حتى مع وجود الموانع وقونها فان الشذوذ الفردى حتم فى كل حال . ونفصل من هذا الى أن الاستعداد الفطرى سواء تمثل فى اتجاه شائع أو فى شذوذ فردى يعتبر من الدوافع الى الصعلكة ، واننا لا نستطيع اغفال الحديث عنه فى مقام حصر أسباب الصعلكة والدوافع اليها .

وفى ختام الحديث عن أسباب الصعلكة ونشأتها ، نقول ان ما سقناه من أسباب ودوافع وان كان لا يمثل الاستقصاء الكامل للأسباب ، الا انه يمثل فيما نعتقد الأسباب المباشرة والقريبة من المباشرة ، وانه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كالشعور بالقراية بين العرب ، فان شعور القبائل العربية بأنها جميعا تنتمى الى أصل واحد ، هذا الشعور يغرس فى نفوسهم معنى التكافؤ ويجعلهم لا يتقبلون البغى أو الظلم من أحد ممن تجمعهم به هذه القراية ، ويرون من حقهم أن يكونوا أكفاء له ، ويجعل وقع البغى والظلم فى هذه الحالة ثقila على النفوس مثيرا لها أكثر من إثارة ظلم الأجنبى وبغيه ، وشاعرهم يعبر عن هذا المعنى بقوله :

فظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند (١)

وقد يكون هذا المعنى من الأسباب التى زادت نيران الحروب والصراع بينهم اشتالا ، وهذه الحروب تخلف فيما تخلف ظروفا تهيم الجبال للصعلكة ، وأشخاصا القوا حياة الغارات والسطو يستطيعون أن يستغلوا هذا الألف فى مجال الصعلكة ، نقول انه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كهذا السبب الا انها أسباب تعتبر بعيدة ، ويبدو الارتباط بينها وبين الصعلكة واهيا ،

(١) من شعر طرفة بن العبد .

مما يجعل فى تتبعها شيئا من الشطط والخلو ، والحديث الشريف يشير الى معنى الاستعداد القطرى ، أو اليه والى الورائة معا فى قوله « الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام » (١) .

الصعلكة فى الجاهلية

١ - الصعلكة والمجتمع :

رأينا فى حديث كتب اللغة وفى أحاديث الروايات انهم لم يصفوا للصعلكة صفة محددة ، ولا نوعا معينا من السلوك ، فأحيانا يصفونهم بالذئاب لأن سلوكهم يشبه أسلوب الذئاب (٢) وأحيانا يصفونهم بأنهم لصوص (٣) . وأحيانا يصفون الصعلوك بأنه المتجرد للغارات (٤) ، وبأنهم ذوو الأسلاب أى الذين يغنمون من غاراتهم اسلأبا (٥) ، وأحيانا يصفون بعضهم بأنهم فتاك (٦) أو بأنهم خلعاء من الذين خضعهم ذووهم لكثرة جناياتهم (٧) ، وبأوصاف أخرى فى هذا المحيط (٨) ونخرج من هذا كله بأن الصعلكة ليس لها فى عرفهم صفة أو سلوك محدد ، وان هذه الصفات التى ساقوها متفرقة فى جبلتها تكون مفهوم الصعلكة ، وصفات الصعاليك ، واننا يمكن أن نجمل ذلك فى أن الصعلكة هى « احتراف السلوك العدوانى بقصد المقتنم » سواء كانت فى صورة لصوصية أو قطع طريق أو سطو أو غارات أو اغتيال .

وعلى ضوء ما سبقنا من أسباب الصعلكة ونشأتها فى الجاهلية ، ومن علاقتها بالمجتمع ، نرى ان الصعلكة كانت جزءا من ظاهرة عامة حينذاك ، من حيث أن معظم أساليب الصعلكة كان يزاولها كثيرون غيرهم كالفتك وقطع الطريق ، بل بعضها كان مظهرا شائعا تقوم عليه حياة القبائل كالغارات ، والفارق بين

(١) أنظر صحيح البخارى .

(٢) أنظر لسان العرب مادة (ذأب) والصحاح مادة صعلك .

(٣) المصدر السابق مادة (ذأب) .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١١٥ .

(٥) أنظر حديث خفاف بن ثدبة عن عباس بن مرداس شرح التبريزى للحسانة ج ١ ص ٢٥٠ .

(٦) أنظر مثلا مهذب الأغاني عن فضالة بن شريك ٢/٢١٠ وعن قيس بن منقل ١/٩٩ .

(٧) أنظر مثلا المقدم الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ عن الاحير السعدى ومهذب الأغاني ج ٢ ص ١٨٥ .

عن صخر الغى .

(٨) مثل شيطان وخارب . أنظر مهذب الأغاني .

الصعاليك وغيرهم في هذا ، انهم كانوا يتخذون من هذه الحياة ما يشبه الحرفة في التفريغ لها والمداومة عليها والانتقطاع لها ، وان غيرهم كان يتخذ منها ما يشبه الهواية التي تزاوَل في ظروف نفسية واجتماعية معينة * غير ان شيوع اساليب الصعلكة في المجتمع ، لم يجعل الصعلكة من حيث هي شذوذا ينكره المجتمع بل كانت تمثل غاية ما يتنافس فيه الافراد وهو القوة ، بل يرى بعض الباحثين انها كانت مفخرة (١) .

ومما لا شك فيه ان الصعلكة لم تكن تلقى في الجاهلية انكارا ، وان الصعاليك لم يكونوا موضع النفور أو الازدراء أو البغض ، فلم تحدثنا أخبارهم فيما نعلم قط عن انكار أو ما يشبه الانكار لهم أو نصلحتهم ، مع انه كانت لهم مجامع عامة للشورى ، كدار الندوة في مكة ، والجامع المشهورة في الأسواق وخاصة سوق عكاظ ، وكانوا يتباحثون في هذه المجامع في أمورهم العامة ويعالجون مشاكلهم المشتركة ، ويعلمون قراراتهم وما يستحدثونه من عرف أو اتفاق أو حكم ، ومع ذلك فلم يثر موضوع الصعلكة ولم يناقش فيها ، ولم يرو الرواة ان قبيلة من القبائل حانت بين أبنائها وبين سلوك الصعلكة ، وأما موضوع الخلع الذي كانوا يخلعون به أحدهم ، فم يكن لسلوك الصعلكة من حيث هو وانما تفاديا للمغامر التي يجرها ، ولذلك أجمعت كل الروايات على ان سبب الخلع هو كثرة الجنايات من حيث مطالبة أهل الخلع بها ، أعنى من حيث كونهم مطلوبين للاعداء بها ، فكان خلعهم للشخص تفاديا للمغامر ، وليس انكارا للسلوك من حيث هو .

بل على العكس كانوا ينظرون الى الصعلكة على انها مظهر من مظاهر القوة والمنعة ، وان أفرادها كسب كبير لقبائلهم ، وسلاح قوى يذود عنهم قوى كثيرة مماثلة ، ويحصيهم من عداوات كثيرة متربصة ، ويحتاجون اليه حين تدعو الحاجة ، ففي أخبار هذيل ان أبا جندب الهذلي حينما أراد أن يثار لأخيه الأسود مر بنى لحيان جمع الخلاء والفتاك ليغير بهم على بنى لحيسان (٢) في أخبار امرئ القيس انه حينما أراد أن يثار لأبيه جمع جموعا من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكهم (٣) بل كانوا يصرحون بالفخر بهؤلاء الصعاليك فمن الأخبار ان عمر بن الخطاب سأل الخطيئة الشاعر العيسى : كيف كنتم في حربكم ؟ قال كنا ألف حازم ، قال وكيف ؟ قال « كان فينا قيس بن زهير حازما لا نعصيه ، وكنا نقدم أقدام عنجرة ، وثاقم بشعر عروة بن الورد » (٤) وعروة هذا من أعلام الصعاليك .

(١) أنظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي ص ٢٣٦ .

(٢) أنظر مجمل البكري ج ٢ ص ٥٣٠ .

(٣) أنظر الشعراء الصعاليك ص ٢٢ نقلا عن الخزائن للبيهقي .

(٤) التنبيه على أوهام القائل للبكري ص ١١٣ ومهذب الأغاني ج ٢/٢٣ .

والواقع ان الصعاليك اثاروا فى المجتمع الجاهلى موجة عاتية من الرعب والفرع ، كما تحدثنا بذلك اخبارهم واحاديث المجتمع عنهم ، فأرهبوا أصحاب الابل على مراعيهم وحظائرهم ، وأرهبوا التجار فى طرقهم ومسالكهم ، وأرهبوا المارة فى سبلهم ومعاربهم (١) ، ولكن ذلك لم يكن ليحظ من قدرهم فى المجتمع الجاهلى بالذات ، بل أحاطهم بهالة من الرهبة والاعجاب والاكبار ، وأصبحوا أمنية القبائل ، تتمنى كل قبيلة أن يكون من أبنائها من يشبه هؤلاء الاقوياء العناة ، الذين ترتعد منهم فرائص البادية ، ويرن صدى ذكرهم واحاديثهم فى طول الجزيرة وعرضها . وحتى حكماء العرب ، كانوا يرون مجد القبيلة وقوتها وحمايتها غاية تبررها كل الوسائل ومن حكمهم المشهورة فى ذلك قولهم « ما خلا قوم من السفهاء الا ذلوا » ، فما دام الأمر يتعلق بمجد القبيلة فهم يتمنون حتى السفهاء ، فضلا عن الصعاليك الذين لم يكونوا سفهاء ، وانما كان الكثير منهم من الشخصيات اللامعة التى أوتيت من المواهب العقلية والبدنية حظا مرموقا ، وأوتيت أيضا من بريق اسمها ودويه فى الأذان حظا أكبر واعظم وهذا السليك بن السلكة يجعله عمرو بن معد يكرب فارس اليمن أحد أربعة لا يخشى غيرهم فى الجزيرة كلها فيقول عمرو : ما أبالى أى طعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقتنى دونها عبداها أو حراها وعنى بالعبدین غنتره العبسى والسليك بن السلكة ، وبالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث اليربوعى (٢) وقد عبر المجتمع عن اكباره للصعاليك فى المراثى التى رثى بها كثير منهم (٣) وكانت مواهب الصعاليك من أشد ما تحتاج اليه البيئة حينذاك ، ومن أهم ما يحرص أبناء البيئة على التنافس فيه .

ومن ذلك القوة والشراسة وصعوبة المراس التى يدرك سعد بن ناشب اثرها فى نظرة المجتمع الى صاحبها فيقول :

وفى اللين ضعف والشراسة هيبه ومن لا يهب يحمل على مركب وعر (٤)

وكون الصعاليك يمثلون غاية القوة الفردية فى المجتمع الذين يعيشون فيه أمر واقع كما سيأتى خلال الحديث عن شعرهم ، وكانت هذه القوة من مقومات مركزهم فى المجتمع .

ومن ذلك ميزة كادوا ينفردون بها عن مجتمعاتهم وهى ميزة العدو الخارق

(١) من الأدلة على ذلك نزول حكم خاص بقطاع الطرق فى القرآن الكريم وهو فى الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المائدة فى قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)

(٢) خزائن الجهادى ج٢ ص ٢٦٣ .

(٣) أنظر للتمثيل مهذب الأغاني ج٢ ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، ج١ ص ٢٢٤ وحساسة ابى تمام

ج١ ص ٣٧٨ .

(٤) أمال القائل ج٢ ص ١٧١ .

للعادة ، وهو ما يصورونه بأنه لا تسبقه أو لا تلحقه الخيل ، وقد اشتهر كثير من الصعاليك بهذه الميزة ، منهم الشنفرى والسلوك وتابط شرا وابن براقه وأكثر ما كانت سرعة العدو شهرة في هذيل الذين كان أبو خراش فيهم أحد عشرة أخوة كلهم عداء لا تسبقه الخيل كما قلنا ، وأبو خراش هذا هو الذى رأى الوليد بن المغيرة ذات مرة يريد أن يرسل فرسين له فى سباق فقال له : ما تجعل لى أن سبقتهما عدوا ؟ قال أن سبقتهما فهما لك ، وسابق أبو خراش الفرسين فسبقتهما وأخذهما (١) وكان هذا العمل من جانب الوليد بن المغيرة تعبيرا ومثالا لأعجاب المجتمع بهذه الميزة وإكباره لها . والأخبار عن مطاردات الخيل لكثير من العدائين كالسلوك وتابط شرا والشنفرى وابن براقه وانتصارهم فيها تثير الإعجاب والاعجاب معا ، حتى ضرب ببعضهم المثل فى العدو (٢) ومن المواهب التى أعلت من شأن الصعاليك فى المجتمع الجاهلى الشعر ، والشعر من أهم أسلحة العرب فى السلم وفى الحرب على السواء ، ولذلك كان أبرز مفرخة لهم ، وحتى أنه كان من عاداتهم المشهورة أن القبيلة التى يظهر فيها شاعر فقد القبائل الأخرى لتهنئتها بهذا السلاح الذى وهبت إياه ، وحتى أن النبی صلبت الله وسلامه عليه لاحتساسه بخطورة هذا السلاح فى هذا المجتمع ، ضاق فى أول الأمر بأن المسلمين لا يملكون من هذا السلاح ما يكفى للذود عنهم ، حتى هيا الله لهم حسان بن ثابت فطابت به نفس النبی وكان يدعو الله له أن يؤيده بروح القدس ، وقد حدث ذات مرة أن بلغ النبی أن أبا سفيان يهجو ، فقال : اللهم انه هجاني . وأنى لا أقول الشعر ، فاهجه عنى ، فقام عبد الله بن رواحة يعرض على النبی أن يهجو أبا سفيان ، فقال له النبی : لست له ، ثم قام حسان ابن ثابت ، فقال له النبی : أنت له ، وهجا حسان أبا سفيان (٣) .

وصعاليك الجاهلية كان فيهم الشعراء الذين يفرض شعرهم نفسه على المجتمع بل وعلى التاريخ والذين يعدون فى الصفوة المجيدة والامتازة فى شعواء المجتمع الجاهلى ، كالشنفرى وابن الورد وتابط شرا والهذليين وهذا الشعر كان ولاشك من مدعيات اكابر المجتمع لهم ، بل نستطيع أن نقول ان مركزهم الشعرى كان من أهم ما أضفى على الصعلكة نفسها ثوب الجلال والتقدير فى المجتمع الجاهلى ، كما يقول الخطيب لعمر بن الخطاب ، كنا نأتم بشعر عروة بل ان الشعر من أبرز العوامل التى حفظت لهم كثيرا من تقدير المجتمع لهم بعد الاسلام ، كما رأينا من اقرار عمر بن الخطاب للخطيب فى كلامه عن شعر عروة بن الورد ، وكقول معاوية بن أبى سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد

(١) خزائن البغدادى ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) انظر مجمع الأمثال ج ٢ ص ٤٧ ، ٣٢٣ .

(٣) المقدم الفريد ج ٣ ص ١٠٨ .

لأحييت أن أتزوج اليهم (١) وقول عبد الملك بن مروان : ما يسرنى أن أحدا من العرب لم يلدنى ولدنى الا عروة بن الورد لقوله :

وانى امرؤ عافى انانى شركة وانت امرؤ عافى اناءك واحد
اتهزأ منى أن سمئت وان ترى بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
افرق جسمى فى جسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء بسارد (٢)

وانه وان كان من نواحي اعجاب هؤلاء الخلفاء بعروة الناحية الخلقية الاشتراكية التى عرف بها الا اننا لا نفعل أثر الشعر فى هذه التزكية ، وكونه كان الأداة التى حملت أخلاقه الى الناس ، وعلماء النقد العربى لا يتجاهلون قدرهم الشعري ، كما ذهب أبو عبيدة مثلا فى وضع شعر عروة فى الطبقة الثالثة (٣) بالنسبة لسائر شعراء العرب ، وكما عد صاحب الأغاني السليك « من شعر شعراء العرب » (٤) على أنه ينبغي أن نلاحظ فى مقام حديثنا عن صعلكة الجاهلية ، ان ما وصل إلينا من صعاليكها وأخبارهم دون ما كان يتوقع بكثير ، ففى مجتمع كالجاهلية يبلغ فيه شيوع الصعلكة وخطرها حدا يجعل التشريع الاسلامى يفرض لها عقوبات صارمة تتمثل فى حد قطع الطريق الذى ورد فى قوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم » (٥) وفى حد السرقة الذى ورد فى قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » (٦) ومن المنطقى فى أى قانون أو تشريع أن تكون العقوبة تخفيفا وتشديدا على قدر الجريمة ، ومن الواضح فى هذين الحدين الاتجاه الى أقصى الشدة فى العقاب ، وهذا يعنى خطورة الجريمتين المشرع لهما ، ويتضمن انتشارهما بصورة تهدد أمن المجتمع كله واستقراره ، ويؤيد هذا ان النبى صلى الله عليه وسلم فى بدء دعوته ، حرص على أن يجعل من أهم ما يغرى به الناس ليقبلوا على الاسلام هو تبشيرهم بأن الاسلام سيحقق لهم الأمن فى طرقهم ومسالكهم حيث يقول : والله ليؤمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، وأخطر من كانوا يهددون

(١) انظر مذهب الأغاني عن عروة بن الورد ٢٣/٢ .

(٢) المصدر السابق عن عروة ج٢/٢٣ .

(٣) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ٣٤ .

(٤) مذهب الأغاني عن السليك ١٦٧/٢ .

(٥) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة المائدة .

(٦) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة المائدة .

هذه الطرق هم الصعاليك ، وهم أيضا أخطر من تنطبق عليهم أحكام الحدين السابقين في القرآن الكريم :

ومع ذلك فلم يبلغنا من هؤلاء الصعاليك إلا العدد المحدود ، ومن الواضح في تحليل ذلك أن التاريخ العربي قبل الإسلام لأسباب كثيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق لم يصلنا منه إلا ما يتعلق بالأمجاد القبلية لحرص أبنائها على تناقلها وبالطرائف ليل الناس بطبعهم إليها ، وبالشعر لتمجيد العرب أياهم وخاصة جيدهم ، ولذلك نلاحظ أن كل ما ورد إلينا من أخبار الصعاليك في الجاهلية يمكن رده إلى هذه الأسباب ، أما الأخبار التي لا تحمل طابعا من هذه الطوايع فلم يصل إلينا منها شيء ذو غناء .

وفي ختام هذا الحديث عن موقف المجتمع من الصعاليك نحسب أن نشير إلى أن ما ورد مما يوحى بمهانة أو تحقير لبعضهم كان لا يمثل رأى المجتمع ، كما ورد في أخبار قيس بن الحداية (بن منقذ) أنه قال لجماعة طلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا لهم : أن قومي لن يقدونني ولو طلبتم بي عنزا جرياء ما أعطيتموها (١) فانما قال ذلك لأن قومه كانوا قد خلعوه ، فهو يعبر عن حقيقة صلته بقومه لا عن قيمته ، ولا عن تقويم قومه إياهم ، كذلك قصة المفادة بالشنفرى إنما كانت إبان أسره قبل أن يصبح صعلوكا (٢) .

٢ - أساليب الصعلكة :

واذن - كما قلنا آنفا - فلم يكن للصعلكة أسلوب واحد معين ، وإن كان يجتمع جميعا أنه سوك عدواني يستهدف الغنيمة ، ولذلك تعددت وسائل مزاولتها واختلفت باختلاف استعداد الصعلوك وامكانياته الذاتية ، فإن كل صعلوك إنما يزاول ما يناسب امكانيات القوة والاستعداد فيه ، واختلفت أيضا باختلاف الظروف التي تتيح للصعلوك مزاوله صعلكته ، وعلى ضوء ما آتينا به نستطيع أن نتصور أن أهم مجالات الصعلكة ، الطرق التجارية سواء أكانت أساسية أم فرعية وخاصة في مواسم عبور القوافل ، ومواسم الأسواق والمراعى وخاصة مراعى الأبل ، والحظائر الخاصة بها ، ثم ما يعرض من ظروف طارئة غير منتظمة .

ولسنا نريد من هذا الحديث استقصاء حوادث الصعلكة في الجاهلية وإنما نريد أن نعرض لنماذج تمثل أنواع الصعلكة من لصوصية أو سطو وغارة أو قطع طريق .

(١) مذهب الأغاني ١٩/١ - ١٠٥ .

(٢) شرح حساسة أبي تمام عن التبريزي ج ١ ص ١٨٧ .

فمن ذلك ما ورد في أخبار السليك ، انه خرج ذات ليلة يريد الغسرو
ومعه رجلان كمال يقول صاحب الأغاني أو جماعة كما يقول مجمع الأمثال
وكانت ليلة ذات مطر وبرد ، فعرض له بيت منفرد من البيوت ، فواعد أصحابه
أن ينتظروه في مكان قريب معين ، ليستطلع لهم ، ثم تسلل الى مؤخرة البيت
وكان البيت ليزيد بن رويم الشيباني وكان شيخا ، وإذا الشيخ وامراته بفناء
البيت ، وظل السليك في مؤخرته منتظرا يفحص البيت بعينه الحاذقة ، فإذا
ابن الشيخ يأتي بالابل من مراتعها ، فيقول له أبوه غاضبا منكرا عودته :
هلا انتظرت بها وعشيتها ساعة من الليل ؟ قال ابنه : انها أبت العشاء ، قال
الشيخ : العاشية تهيج الآبية ، فذهبت في مثالهم ، ثم قام الشيخ مغضبا
فنفض ثوبه في وجوه الابل لترجع ، وعاد بها الى مراتعها ، ثم جلس الشيخ
قريبا من ابله وقد غطى وجهه من البرد ، وإذا السليك الذي كان متتبعا حركاته
يسلمه من ثوبه ويعلوه بالسيف فيطير رأسه ، ثم يطرد الابل حتى يأتي بها
أصحابه ويقول بعد ذلك واصفا الابل وتمكنه منها :

وعاشية رج بطن ذعرتها بسوط قتيل وسطها يتسيف

وواصفا قتله الشيخ ومنظر طرائق الدم عليه كأنه لون نسيج مخطط :

كان عليه لون برد محبر اذا ما آتاه صارخ متلف

وواصفا لهفة أصحابه في انتظاره ، وظنهم الظنون بإبطائه :

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى اذا ما علوا نشزا أهلوا وأوجفوا

ومتحدثا عما يلاقيه في مثل عمله هذا من مخاطر ، وعن السبب الذي
يضطره الى هذه المخاطر .

وما نلتها حتى تصعلكت حقة وكنت لأسباب المنية أعرف

وحتى رايت الجوع بالصيف ضرني اذا قمت تغشاني ظلال فاسد (١)

وفي أخبار السليك أيضا انه خرج في رفقة حتى أتوا جوف مراد باليمن
فإذا ابل كثيرة بالوادي فقال لصاحبيه : انتظرا قريبا حتى آتى الرعاء ، فأعلم
لكما علم الحى ، أقریب هم أم بعيد فان كانوا قريبا رجعت اليكما ، وان كانوا
بعيدا قلت لكما قولاً الحى به لكما فأغيرا ، فانطلق حتى آتى الرعاء ، فلم يزل
يسنדרهم في الحديث حتى علم ان الحى بعيد لا يلحقوه ان طلبوه فقال للرعاء :
ألا أغنيكم ؟ قالوا بلى فتغنى بأعلى صوته :

(١) انظر مجمع الأمثال ج ٢ ص ٩ ومهذب الأغاني ج ٢/١٦٧ مع اختلاف بينهما في الفاظ

الشعر .

يا صاحبي الا لاحي بالسوادى الا عيسد وآم بين اذواد
انتظران قليلا ريث غفلتهم أم تغفوان فان الريح للغادى (١)

فلما سمع صاحبه ذلك اتياه فآخذوا الابل وذهبوا بها ، ولم يبلغ الصريح
الحى حتى كانوا قد مضوا بالابل (٢) .

ومن اساليب السليك فى الصعلكة أنه كان أثناء رحلاته وغاراته يجمع
من يعترضه من الصعاليك فيضمهم اليه حتى يكون منهم عصائباته (٣) وان
كانت عصائباته فى أغلب الأحيان كما يبدو من أخباره لا تتجاوز نفرا قليلا .

على أن السليك لم تقتصر صعلكته على الابل ، بل تعدتها الى خطف الناس
وأسبرهم بغية الحصول على الفداء ، ففى أخباره أنه أثناء خروجه للغارات ذات
مرة لقي رجلا من خثعم ومعه امرأة فأخذهما ، ثم قاض الخثعمى على الفداء (٤) .

وأما تأبط شرا فكان يؤثر أن يغزو وحده على رجليه (٥) لثقلته فى سرعة
عدوه ، حيث كان أحد ثلاثة هم أعدى العدائين فى العرب (٦) هو والشنفرى
وعمر بن براقه وكلهم من الصعاليك وفى أخباره قصته مع زوج أمه - أبى كبير
الهالى - الذى أراد أن يستدرجه ليقتله بتواطؤ مع أمه ، حينما أحس أبو كبير
غيرة تأبط على أمه ، قال أبو كبير لتأبط شرا « هل لك فى أن تغزو ؟ قال : ذلك
من أمرى ، فخرجا ليلا حتى اذا أدركهما مساء اليوم الثانى أبصرا نارا .
يعرف أبو كبير انه نار أعداء لتأبط شرا ، فوجهه اليها فرأى عليها رجلين
من الص العرب فوثبا اليه يريدان قتله ، فلما كان أحدهما أقرب اليه من الآخر
عطف عليه فقتله ، ورجع الى الآخر فرماه أيضا فقتله ، ثم جاء الى نارهما فأخذ
الخبز وجاء الى أبى كبير ، فألح عليه حتى أخبره بالخبر فخاف أبو كبير منه
فلما رجعا قال أبو كبير : ان أم هذا الغلام لا أقربها أبدا ، (٧) وأما عروة بن الورد
فكانت عصابته كثيرة العدد ، لأنه كان بمثابة مدرسة يتخرج فيها الصعاليك
واشتهر بأنه كان ماوى خيرا لهم ، ولذلك لقب بعروة الصعاليك . وصاحب
الأناني ببسط صوة من ذلك فيقول « وكان عروة اذا أصابت الناس سنة
شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه

(١) أم فى البيت الأول جمع أمة واذواد جماعات الابل الذكور والريح القوة والصر .

(٢) مجمع الأمثال ج ٢ ص ١١ .

(٣) أنظر المصدر السابق ج ٢ ص ١١ .

(٤) أنظر شرح التبريزى لحسانة أبى تمام ج ١ ص ٣٧٨ .

(٥) أنظر خزائن البغدادي ج ١ ص ٩٥ ، ٩٦ ترجمته وسبب تسميته تأبط شرا والخلاف

فى ذلك .

(٦) أنظر شرح المفضليات عن ابن الأثير ج ٢ ص ٢٧ .

(٧) أنظر شرح الحسانة عن التبريزى ج ١ ص ١٩ .

هؤلاء من دون عشيرته ثم يحفر لهم الأسراب ويكتف عليهم الكنف ويكسبهم ومن قوى منهم اما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب اليه قوته خرج به معه ، فأغار وجعل لأصحابه الباقي في ذلك نصيبا ، حتى اذا أخصب الناس والبثوا ، وذبحت السنة ، ألحق كل أنسان أهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان أهله وقد استغنى ، (١) وهذه الشهرة عنه من شأنها أن تجذب اليه الراغبين في التصعلك والذين يأنسون في انفسهم استعدادا له ، وكان هذا الخير الذي يفيضه عليهم مصدره بطبيعة الحال الصعلكة ، لأن عروة لم يكن غنيا ، بل لم يكن له مال ، وكان أكثر المتحدثين عن الفقر والحاجة (٢) ، وهذه النفقات للكثرة التي كان يحتاج اليها لاعالة هذا العدد الكبير كانت تقتضى منه بطبيعة الحال أيضا كثرة الغارات ، وكثرة المشتركين فيها ليحصلوا على أكبر مغنم مستطاع ، ومن غزواته هذه الغزوة التي تعتبر مثلا من أمثلة اشتراكية الصعاليك ، حينما غنم من غزواته تلك مائة من الابل وامرأة وقسم الابل بين أصحابه بالسواء وكان نصيبه كواحد منهم ، غير انه أخذ المرأة ، فأبى صنائعه من الصعاليك ذلك عليه ، حتى اضطر الى أن يتنازل عن نصيبه من الابل في مقابل المرأة (٣) .

وكان من أصحاب هذه الغارات التي تستهدف القبائل قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية والذي يقول عنه صاحب الأغاني انه « أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب ، ومن كان يعدو على رجله عدوا يسبق الخيل » (٤) ومن هؤلاء المغيرين على القبائل عمرو بن براق ، ومن أخباره قصة غزوته لحريم الهمداني التي استاق فيها كل شيء لحريم والتي يخاطب همدان بعدها قائلا :

وكننت اذا قسوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا بالهمدان ظالم (٥)

ومنهم عمرو بن العجلان المعروف ببنى الكلب والذي يقول عنه صاحب الأغاني « كان يفرو بنى فهم غزوا متصلا » (٦) ، والتي تصف أخته ربيعة سبيه للعدارى فتقول :

والخروج العاتق العلواء ملعنه في السبي ينفج من أردانها الطيب (٧)

(١) مهذب الأغاني ج٢/ ٢٣ .

(٢) أنظر ديوانه .

(٣) أنظر مهذب الأغاني ج٢/ ٢٣ .

(٤) أنظر ترجمته بمهذب الأغاني ج١ ص ٩٣ .

(٥) القصة والتصيدة في الامالي ج٢ ص ١١٨ ومهذب الأغاني ج١ ص ٩٢ وثلاثة أبيات منها في المقد الفريد ج١ ص ٣٤ .

(٦) أنظر ترجمته في مهذب الأغاني ج٢ ص ١٨٨ .

(٧) المصدر السابق ج٢ ص ١٨٨ وفيه بقية القصيدة .

والشغرى يصور لنا بالشعر غزوة من غزواته يبدو انه كان فيها وحده فيقول انه في ليلة شديدة البرد مطرة خرجت غازيا - يمكن يسمى الفميصاء - وعدت ومازال الليل حالكا ، ولكنى فى غزوتى هذه « أيمت نسوانا وأيتمت اللة » وأصبح أهل الحى يتساءلون منقسمين فى رأيهم عن أحدث هذه الآثار - التى يبدو انها كانت قتلا وليس حصولا على مال - فبعضهم يقول ان الذى سطا بالليل انما هو ذئب أو وحش ، ويرد البعض الآخر مؤكدا أنه سطو عفريت من الجن ، وليس من الناس (١) ، وفى أخباره الأخرى انه كان يقير على الأزد .

على ان أساليب الصعلكة فى الجاهلية لم تكن تخلو من طرافة فى مزاولتها كما يروى الملاحظ عن أسلوب جحدر بن ضبيعة فى سرقة الإبل فيقول : « كان جحدر اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة فجعل فيها قردانا ثم نثرها بقرب الإبل ، فاذا وجدت الإبل مسها نهضت ، وشد الشنة فى ذئب بعض الإبل فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ثم كان يشب فى ذروة ما ند منها ويقول : ارحم الغارة الضعاف ، يعنى القردان . قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا (٢) »

وعروة بن الورد مع كثرة رفقة وأتباعه من الصعاليك واللائذين به فى أحيان كثيرة ، الا أنه كان كما يبدو من أخباره يعتمد على نفسه فى الهجوم وكانت أساليبه تدور حول التسلل بمفرده الى حظائر الماشية كما فى قصته مع الرجل الذى كانت امراته تجوئه مع عبده . أو السطو كما فى قصته مع أصحاب الكنيف (٣) .

الصَّعْلَكَةُ فِي الْإِسْلَامِ

أشرقت الأرض بتور ربها حينما أهل عليها نور الاسلام ، فأضاء القلوب وأضاء الأرض وما عليها ، وأحست الصعلكة بعشى شديد أمام هذين التورين نور القلوب الذى لا يتيح لأصحابه أن ينحرفوا الى متاهات الظلمة والتواء

(١) انظر اللامية فى الأمال ج ٢ ص ٢٠٥ من البيت ٥٠ الى ٥٧ وأول الايات (وليلة تحس ٠٠)

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٤٢٢ مع أن التبريزى فى شرح الحاشية ج ١ ص ١٩٥ يصفه بقوله من الفرسان للنفوس ، والشنة القرية .

(٣) انظر أخباره فى شرح ديوانه لابن السكيت .

السلوك ، ونور الحياة الذى لا يترك فيها كهوفا للعبث ، ولا منعرجات ياوى اليها أولئك الذين لا تطيب لهم الحياة الا فى الظلام ، ولا يحلو لهم العيش الا فى التاهات والسبيل الملتوية ، من أمثال الصعاليك وقد كانت اليد التى تحمل هذه الشعلة المشرقة يداً قوية حازمة ، وأعنى بها التشريع الإسلامى نفسه .

هذا التشريع الذى راعى فيما راعاه - فضلا عن عمومته وصلاحيته لكل العصور والبيئات - ظروف البيئة التى نزل بها هذا التشريع ، وقد كانت أساليب الصعلة من أبرز مشاكل البيئة حينئذ وأكثرها اقلاقاً لطمانينة المجتمع وازعاجاً لآمنه ، وتهديداً لحياة الأفراد وأموالهم ، حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل فى مقدمة ما يبشر به من هذا الدين الجديد أنه يحقق لهم الأمن حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، وحتى أن الله سبحانه يمن على قريش أن جعل لهم حرماً آمناً بينما يتخطف الناس من حولهم فيقول « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم اقبال باطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » (١) فما كان أحوجهم حينئذ الى تشريع يعالج لهم فيما يعالج هذا المشكل من حياتهم ، وقد عالج التشريع الإسلامى بأحزم ما يكون الحزم ، وأحكم ما تكون الحكمة . ممثلاً فى حدى السرقة وقطع الطريق المشار اليهما آنفاً ، ومن هذه الزاوية يعلم الذين يتهمون بعض الحدود والعقوبات فى الاسلام بالشدة والقسوة ألا قسوة فيها ولا شدة اذا نظروا الى مدى فظاعة الجرائم التى استوجبت هذه العقوبات ، وأثر هذه الجرائم فى أمن المجتمع واستقراره وطمانينته ، وأذكر نقاشاً دار بينى وبين أحد أساتذة علم الاجتماع فى هذا الموضوع (٢) حينما كان مشرفاً على بحث أعده فى موضوع عادة الثأر (٣) ، حيث سألتى : وما الذى تراه لعلاج عادة الثأر ؟ قلت : وسائل كثيرة ، ولكن فى مقدمتها شريعة القصاص فتولاه ما يشبه الدهشة ، ثم دار بينى وبينه حوار قصير ، كنت فيه أمثل وجهة نظر التشريع الإسلامى ، وكان هو يمثل جلال العلماء ، فى سعيهم وراء الحقيقة ، وتسليمهم للحق فور انبلاجه ، قال بعد أن أفاق من دهشته : ولكنه تشريع بدائى ، ونحن فى القرن العشرين فهل تريد أن نعود الى البدائية الأولى ؟

قلت : لنسلم جدلاً بأن شريعة القصاص بدائية ، ولكنى أسألك اليس شيوع عادة الثأر فى مجتمع ما مظهرًا من مظاهر البدائية ؟

قال : بلى .

قلت : وعلماء الاجتماع فى العالم وفى مقدمتهم « سافينى » متفقون على أن

(١) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

(٢) هو الدكتور على فؤاد .

(٣) هو بحث (بركان الدماء : الثأر) بدار الكتب المصرية رقم ٢٩٣٣٥ الى ٢٩٣٣٩ لصاحب

هذا البحث .

أى تشريع فى أى أمة وفى أى بيئة لن ينجح إلا إذا كان نابعاً من عادات الأمة وتقاليدها وتاريخها مراعيًا ذلك كله فيما يصدر عنه من بنود ، أليس كذلك ؟

قال . بلى .

قلت . والتشريع الإسلامى هو التشريع الوحيد النابع من عادات أمتنا وتقاليدنا وتاريخنا والمراعى لذلك كله ، ومن أوضح ما يكون ذلك فيه القصاص أليس كذلك ؟

قال : بلى .

قلت : وأذن فهل من الحكمة أن نعالج عادة الثار بتشريع القرن العشرين النابع من أمة تختلف عن أمتنا فى عاداتها وتقاليدنا وتاريخها ؟
قال بعد لحظة من التفكير : لا ، وأنا أؤيدك فيما تقول .

وكانت النقطة التى تدور حولها حكمة التشريع الإسلامى فى القصاص فى ذلك البحث ، هى أن الحكمة البالغة ليست فى القصاص ذاته ، وإنما فى مراعاة عادات الأمة وتقاليدنا فى تطبيق القصاص ، ويتركز هذا فى اعتبار القصاص حقاً مدنياً لا جنائياً ، بمعنى اشعار أولياء الدم أن القصاص حق لهم يملكون فيه التنفيذ ، والتعويض (الدية) والعفو ، وشعورهم بملكية هذا الحق فيه مفتاح الاشكال ، كما أن الفارق بين التشريع الإسلامى وغيره فى اعتبار القصاص حقاً مدنياً أو جنائياً فيه أيضاً كل الاشكال بالنسبة للتشريعات الأخرى حيث تجاهلت عادات المجتمع وتقاليدته فى اعتباره أن كل تعدد على فرد من الجماعة تعدد على الجماعة كلها ، وفيه كل النجاح بالنسبة لشريعة القصاص حيث راعت هذه العادات والتقاليد (١) وكان من حكمة تشريع الحدود والقصاص فى الإسلام أنها تبدو فى ظاهرها رهيبية عنيفة لتحث أثرها فى الزجر والردع ، ولكنها حينما تصل إلى التطبيق والتنفيذ تكون قد انتهت إلى درجة كبيرة من الرفق واللين ، تكاد تكون عكس صورتها الظاهرية (٢) ، ومن أمثلة ذلك القصاص الذى يبدو مصبوغاً بحمرة قانية من الدم ، ولكنه فى طريقه إلى التنفيذ يمر بمراحل من عرض الدية والعفو حتى أنه لو عفا واحد فقط من الورثة أو قبل الدية سقط القصاص ، والزم الباقيون قبول الدية أو العفو وهكذا حين ينتهى إلى التنفيذ نجده فى أغلب الأحيان أبيض ناصعاً بدلاً الحمر القانية ، مع نجاحه فى حسم الاشكال ، وهكذا الحدود ، تبدو أيضاً رهيبية عنيفة ، ولكنها فى طريقها إلى التنفيذ يكفى لترقيقها وتلطيفها ، أن تمر بالحديث الشريف « ادروا الحدود بالشبهات » لأن الحدود والقصاص ، وإى عقوبة فى أى تشريع ليست مقصودة لذاتها ، وإنما لآحداث أثرها فى الردع والزجر .

(١) انظر المصدر السابق (بركان الدماء : الثار) ص ٨٠ وما بعدها

(٢) انظر من هنا تبدأ لمحمد خالد .

والحدود والقصاص قد أدت أثرهما على أكمل وجه مستطاع ، وآية ذلك ان المجتمع العربي الذى طغت فيه أساليب الصعلكة والفتك والغارات ، سواء أكان مزاولوما من المحترفين وهم الصعاليك ، أم من الهواة وهم غير الصعاليك حتى أصبحت هذه الأحداث أبرز ما يلمسه الناظر الى المجتمع الجاهل ، هذا المجتمع ننظر اليه منذ سيطر الاسلام على شبه الجزيرة فنجد هذه الظاهرة قد اختفت ، سواء منها ما ظهر من قطع الطريق والغارات ، وما بطن من أساليب الفتك واللصوصية ، بل من العجيب انه حتى الشذوذ الفردى - الذى يفترض انه لا يخلو منه مجتمع - أوشك على الانحفاء حين جاء الاسلام ، فاننا لو أحصينا ما بلغنا من حالات الشذوذ التى استوجبت تنفيذ الحدود ، وخاصة حد السرقة وقطع الطريق منذ سيطر الاسلام على شبه الجزيرة حتى نهاية خلافة عمر بن الخطاب لما وجدنا هذه الحالات تتجاوز أصابع اليد الواحدة فيما نعلم .

ومن أثر الاسلام فى الصعاليك اننا نجد التوبة شائعة فيمن بلغتنا أخبارهم ، زمن هؤلاء الثائبين الاحيمر السعدى الذى كان سيفه يهدد التجار وقرانهم كما يقول :

تعيرنى الاعداء والبلدومعرض وسيفى باموال التجار زعيم

ثم تاب فلم يخف حينئذ الى عادة سيطرت على حياته وهى الصعلكة ، ولكنه مع هذا الحنين مصر على التوبة ، بل ناصح للصعاليك أن يسلكوا طريق التوبة فيقول :

اشكو الى الله صبرى عن ذواملمهم وما الاقى اذا مروا من الحـزن
قل للصوص بنى اللغناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن (١)

ومن هؤلاء الثائبين يزيد بن الصقيل العقيل ، الذى يقارن بين حال أصحاب المخاض قبل توبته وبعدها ثم اطمئنانه الى التوبة فيقول :

الا قل لأرباب المخاض اهمـلوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
وان امراء ينجو من النار بعدما تزود من اعمالها لسعيد (٢)

وليس معنى ذلك كله موت الصعلكة ، فان من عواملها ما هو طبعى ملازم للحياة ، كالاستعداد الفطرى والشذوذ الفردى فى المجتمعات م وبالنسبة لشبه الجزيرة العربية هناك عامل هام طبعى وهو طبيعة الأرض وما تيسره لأبنائها من الاختفاء والاحتفاء ، يضاف الى ذلك أن سلطة الدولة بدأت تضعف ، وقبضتها بدأت تتراخى عن الأفراد حينما بدأت الفتن والخلافات تثور فى معظم أنحاء الدولة فى سلسلة طويلة متشعبة ، بدأت هذه السلسلة بالخلافات بين على

(١) أمالى القالى ج١ ص ٤٨ .

(٢) الكامل للمبرد ج١ ص ٦١ .

وصاوية ، ثم اعتدت حلقاتها ممثلة في الجروب بين العلويين والأمويين ، وبين الأمويين والعباسيين ، وبين العباسيين والعلويين ، بالإضافة الى ما تخلل ذلك من فتن الفوارج والمذاهب المنحرفة ، والمتبردين ثم توالى الفتن بين بعض طوائف الأمة والبعض الآخر ، وبينهم جميعا وبين الأمم الطامعة ، والطوائف المتمردة في دوامة عاتية هيات مجالا واسعا للصعلكة أن تعيد نشاطها ، فتوالى ظهور مجموعات من الصعاليك لم تكف تخلق منهم الأمة في فترة من الفترات بل هيات هذه الظروف للصعلكة أن تستعيد كثيرا من مكائنها ، وأن تخفف نظرة السخط التي كانت تواجه بها أيام عنقوان الدعوة الإسلامية حتى أن صعلوكا كعبيد الله بن الحر استطاع بقوة شخصيته وبما جمعه حوله من صعاليك وأعوان أن يفرض نفسه في المجتمع كقوة تستعصى على الأمراء ومنهم ابن زياد والمختار ومصعب بن الزبير ، بل تفرض التودد إليها على بعض الخلفاء كعصاة وعبد الملك ابن مروان (١) ، وحتى استطاع أحد فتاكهم كعبيد الله بن سبرة الحرشي أن يفرض قوته أيضا حتى يستعين به الأمراء في طلائعهم لغزو الروم (٢) ونستطيع أن نجل أهم ما يميز حياة الصعاليك الإسلاميين بعد الفترة الأولى من الإسلام فيما يأتي :

١ - تغيرت النظرة الى الصعلكة بعد الإسلام ، فبعد أن كانت مجالا للفخر وميدانا للتنافس ، وموضعا للعجاب ، أصبحت موضعا للسخط والانتكار ، وإن كانت في أغلب العصور لم تكن موضعا للاحتقار ، وفرق بين السخط والاحتقار وكان أهم مصادر هذا السخط الانتكار الشديد الذي صبه الإسلام عليها ثم زوال معظم الأسباب والظروف التي تهيئ لها الحياة المظلمة الراضية ونتج عن ذلك تبدل كبير في وضعها بالنسبة للجاهلية ، فبعد أن كانت مظهرا شائعا أصبحت مزاولتها - مهما كثر مزاولوها - شذوذا ، وأصبح مزاولوها مهما كثروا قلة يمكن اعتبارها حالات فردية في النسبة العامة للمجتمع وأصبحت نظرة المجتمع في جملته إليها نظرة السخط والانتكار والاضطهاد ولذلك نرى اضطهادهم شائعا في أخبارهم ، فمن أخبار الإخيم السعدي أن السلطان أهدر دمه وإن قومه خلعه ، وأنه أصبح طريدا شريدا لا ملجأ له إلا التياقي والتغار ، ولا أنيس له إلا الوحوش وأصواتها (٣) ، وهو القائل فيما قال عن حاله هذه :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وهو أنسان فكنت أظير

(١) خزائن البغداد ج٢ ص ١٩ - ٢٢ نقل عن كتاب العصور للسركي في ترجمة طويلة وتصيل لهذه الأحداث .

(٢) عن شرح التبريزي لديوان الحملة ج١ ص ١٨٥ .

(٣) العقد المفرد ج٢ ص ٢٩٠ .

ومن أخبار سعد بن ناشب المازني ان السلطان حرم داره (١) فاضطر الى التشرد وهو القائل :

عليكم بدارى فاهدموها فانها تراث كريم لا يغاف العواقبا (٢)

ومن أخبار مالك بن الرب انه اضطر الى أن يهرب من مطاردة الججاج ابن يوسف وانه مما قال في ذلك :

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ربح الفلاة صوادي
فلى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلادي (٣)

ومن أخبار شبيب بن عمرو ان علي بن أبي طالب وجه اليه شخصين يدعيان ابني شميظ ليقبضا عليه فتجا منهما بفرسه التي سماها العصا ، وفي ذلك يقول :

ولما ان رايت ابني شميظ بسكة طيء والباب دوني
تجللت العصا وعلمت - اني رهين مخيس ان أدركوني (٤)
ولو اني لبثت لهم قليلا لجروني الى شيخ بطين (٥)
شديد مجامع الكتفين باق على الحدائث مختلف الشئون

وقد قال على تعقيبا على قول شبيب :

تجللت العصا وعلمت اني رهين مخيس ان أدركوني

« والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعنى لأودعته السجن وكان نتيجة لاحتساسهم بسخط المجتمع ان ضعفت نزعة الفخر فى شعرهم ، وخاصة الفخر بالصعلكة نفثها ، بعكس ما كان شائعا فى شعر الصعاليك الجاهلية ، بل ظهر حديثهم عن السجن وما يعانونه . كما نجد فى شعر جحدر بن معاوية (٧) ، وشعر الجرففس (٨) وشعر مالك بن الرب (٩) .

٢ - كان الصعاليك الاسلاميون فى جملتهم أكثر اختلاطا بالمجتمعات من الصعاليك الجاهليين ، وقد يبدو هذا متعارضا مع قولنا انهم كانوا يواجهون

(١) شرح التبريزي لحماسة أبي تمام ج١ ص ١٤

(٢) الكامل للمبرد ج١ ص ١٢١ .

(٣) الكامل للمبرد ج١ ص ٣٠١ .

(٤) تجللت : ركبت - مخيس اسم سجن بناه على بن أبي طالب .

(٥) بطين : عظيم البطن يعنى عليا كرم الله وجهه .

(٦) شرح التبريزي لحماسة أبي تمام ج١ ص ٢٥٢ .

(٧) أنظر معجم البكري ج٤ ص ١١٤١ .

(٨) الحيوان للجاحظ ج٧ ص ١٥٨ .

(٩) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ .

موجة من سحق المجتمع ، والواقع أنه كانت هناك ظروف جانبية أو فرعية كانت تعترض هذا السخط أو تتخلله في كثير من الأحيان ، ومن هذه الظروف ، أن عددا من الصعاليك كانت لهم من القوة والمنعة ما جعل الأطراف المتطاحنة في صراع الخلافات والفتن التي أشرنا إليها تحرص على أن تتقي شر انضمامهم إلى عدائهم ، وتحرص على أن تكسبهم في قواها ، كما في أخبار عبد الله بن الحر الذي تودد إليه كل من معاوية وعبد الملك بن مروان وعماليهما ، ولكنه ظل حصنا مستقلا عن الانطواء تحت أي سلطان ، وكذلك طلب منه الحسين بن علي العون في القتال فابى وظل معتصما بقوته واستقلاله (١) .

وكان منهم الشعراء البارزون الذين حرص الولاة والأمراء على الاستفادة بشعرهم فقبوهم إليهم ، متجاهلين سلوكهم حيناً ، وناصحين لهم بالتوبة أحياناً كما في أخبار بكر بن النطاح الحنفي مع أبي دلف وقرة بن محرز وما كانا يفيضان عليه من العطاء ويجريان عليه من الأوزاق ويهبانه من الهبات مقابل مدحه لهما واشادته بمكانتهما ، وقد صنع صنيعهما أمراء آخرون توددوا إلى بكر وانتفاعا بشعره (٢) .

وكما في أخبار مالك بن الربيع وسعيد بن عثمان وإلى خرسان (٣) وكما في أخبار فضالة بن شريك مع يزيد بن معاوية (٤) .

وكان من هذه الظروف التوبة المستمرة أو المتقطعة التي تعترض حياة بعض الصعاليك فيهجرون صعلكتهم ليندمجوا في المجتمع ، ومن هذه الظروف أيضا أن الفقر والحاجة التي كانت تفرض على صعاليك الجاهلية قضاء كل أوقاتهم أو معظمها في الصعلكة طلبا للوقت قد خفت حدتها بعد الإسلام بتيسر الرزق وبسطة العيش فلم يكن الصعلوك الإسلامي في مثل حاجة الجاهلي إلى قضاء حياته متجولا متنقلا وراء لقمة يسيرة من العيش ، بل كان خيرا منه حالا مما لا يضطره إلى التنقل الدائم ، على أن المفانم بعد الإسلام كانت أجدى على الصعاليك منها في الجاهلية ، فقد يقنم الصعلوك غنيمة تكفيه أمدا ليس بالقصير على أننا لا ننسى أن الأخبار في الإسلام كانت في وصولها إلينا أوضح منها في الجاهلية ، وخاصة فيما يحيط بالخلفاء والأمراء ، وهو مجال كانت تفتقده الحياة في الجاهلية ، ونتيجة لهذا الجانب من الألفة بين معظمهم وبين المجتمع ظهر في شعرهم جانب لم يكن ملموسا في شعر صعاليك الجاهلية ، وهو جانب

(١) أنظر خزنة اليعقوبي ج ٢ ص ١٩ - ٢٢ نقل عن كتاب اللصوص للسري .

(٢) أنظر مذهب الخضرى لأغاني الأسقاني ج ٨ ص ٨٤ والأمالى ج ١ ص ٢٣٦ والمقد القرين ج ١ ص ٦٦ والكامل ج ٢ ص ٨٧ .

(٣) أنظر الأمالى ج ٢ ص ١٢٥ وخزنة اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣ - ٥٢ ومذهب الأغاني ج ١ ص ١٠ - ١١ .

(٤) أنظر مذهب الخضرى لأغاني الأسقاني ج ٢ ص ٢١٠ .

المدح والهجاء والرثاء ، كما فى مدائح بكر بن النطاح لأبى ذلف ومالك بن على الخزاعى وخريان بن عيسى (١) وكما فى مدائح ومراثى أبى الطمجان القينى لمالك بن سعد وبجير بن أوس بن حارثة (٢) وفضالة بن شريك لعاصم بن عمرو يهجو (٣) ، وإن كان هذا الجانب يعتبر وهنا فى صلافة الصعلكة وعتوها وتمردها هذه الصلافة وهذا التمرد للذات قامت عليهما الصعلكة وحفظا لها كيانهما وحصناهما من الضياع ، كما أنهما كانا من أهم مدعيات مركزهم سواء فى الجاهلية والإسلام ، على أن الذين ظهر فى شعرهم هذا الجانب الاجتماعى من الهجاء والمدح والرثاء عدد محدود ، ومع أن ما ورد منه غير قليل ، إلا أنه يبلغ من الكثرة بحيث نعتبره من الطوايع المميزة ، أو المثلة لشعرهم .

٣ ، مما يلاحظ فى وضع الصعاليك الإسلاميين أنهم احتفظوا بالطابع العام لشخصية الصعاليك ، وهو ما أشرنا إليه من الصلافة والتمرد والاعتداد بالذات إلى حد الاستهانة بكل شيء فى سبيل هذا الاعتداد ، حتى الموت ، ولذلك تجد من أبرز ما يتردد فى شعرهم جاهلية وإسلامية استصغار الموت ، والتحقز دائما لاستقباله كشيء عادى مرتقب ، هذه الصفات المتنوعة من القوة فى أشخاص الصعاليك ، يجمعها اعتبار الصعلوك نفسه قوة مستقلة تآبى على الخضوع والانقياد ، حتى ولو كان شخصا مفردا ليس ذا اتباع أو أنصار ، وحتى لو كانت القوة التى تريد أن تسيطر عليه قوة غالبية فى المجتمع أو متسلطة عليه ، فإذا أحس الصعلوك أنه لن يستطيع الصمود أمام « هذه القوة أو مقاومتها ، فإنه لن يتردد فى الهجرة إلى أى مكان يحتفظ فيه بقوته واستقلاله وعزته ، كما يقول الشنفرى فى الجاهلية « وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى (٤) » وكما يقول مالك بن الريب فى الإسلام « وفى الأرض عن دار المذلة مذهب (٥) » ، وليس للصعلوك مكان خاص يميل إليه ، وليس له مجتمع معين يهوى العيش فيه ، فإن هدفه الوحيد هو الاحتفاظ بحريته كما يريد ما هو ، وبقوته كما يصرفها هو ، وبعد ذلك تتساوى لديه الأماكن والمجتمعات ، كما يقول مالك بن الريب قاصدا هذا المعنى نفسه « وكل بلاد أوطنت كبلادى (٦) » ، بل أنه يؤثر الفياق والقفار إذا جارت مجتمعات البشر على حريته وقوته واستقلاله كما رسمهن لنفسه ومالك ابن الريب يقول فى ذلك :

أن تنصفونا يال مروان نقترب اليكم والا فاذنوا ببعساد

(١) أنظر أمال القال ج١ ص ٢٣٦ ومهذب الأغاني ج٨ ص ٨٤ وما بعدها .

(٢) أنظر أمال القال ج١ ص ١٠١ ، ج٢ ص ٣٢٥ ومهذب الأغاني ج٦ - ٢٨ .

(٣) أنظر مهذب الأغاني ج٢١٠/٢ .

(٤) أمال القال ج٢ ص ٢٠٥ اللامية .

(٥) الكامل للمبرد ج١ ص ٣٠١ .

(٦) الكامل للمبرد ج١ ص ٣٠١ .

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعبس الى ريج الفلاة صواى (١)

وكما فعل الاخيمر السعدى فى هجرته الى الفيافى المقررة الا من الوحوش (٢)
وان الصعلوك ليؤثر الوحوش (على اختلاف أنواعها وعلى خطورة جيرتها) على
بنى آدم اذا ضيقوا على حريته أو حاولوا المساس بعزته كما يقول الاخيمر صعلوك
الاسلام :

عبوى الذئب فاستانست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكسدت اطسبر (٣)

وقد قال قبله صعلوك الجاهلية الشنفرى :

ولى دوتكم اهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال (٤)

والذى يعنيننا من هذا ان صعاليك الاسلام احتفظوا بطابع القوة والاستقلال
الذى تقوم عليه الصعلكة وتعزز به ، ولم تستطع قوة أن تخضعهم أو تسيطر
عليهم ، بل فرض بعضهم على كل القوى أن تتودد اليه بعد أن أعياها كعبيد الله
ابن الحر الجعفى الذى أعيا الأمراء والولاة من مثل ابن زياد والمختار والمصعب
ابن الزبير ، واضطر كلا من معاوية وعبد الملك بن مروان والحسين بن على أن
يتوددوا اليه كما أشرنا ، وكما استطاع عبد الله بن سبرة الحرشى أن يجعل
الولاة يستعينون به فى غزواتهم ومناوشاتهم كما قلنا ، فأمثال هذين استطاعوا
أن يفرضوا قوتهم على المجتمع وعلى القوى المتعادلة فى المجتمع ، والذين لم
يستطيعوا أن يفرضوا قوتهم فروا بها الى حيث يكونون فى مأمن ، وإلى حيث
يستطيعون أن يزاولوا حريتهم كما يحلو لهم ، كما فعل مالك بن الربيع فى
هروبه من الحجاج (٥) وشبيب بن عمرو فى هروبه من على بن أبى طالب (٦)
وكما فعل سعد بن ناشب الذى ترك داره للوالى يهدمها (٧) وآثر الفرار بقوته
وحريته ، وكما فعل الاخيمر السعدى فى اختياره حياة الفيافى ومصاحبة
الوحوش على الاستسلام للسلطان (٨) .

وهذه الصلابة التى احتفظ بها الصعاليك واشتهروا بها فى مجتمعاتهم ،
دعمت مكائنتهم فى المجتمع ، واضفت على صعلكتهم كثيرا من الهيبة ، وشيئا

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ وانظر الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٠٠ والاصمعيات
ص ١٢٥ عن صعاليك آخرين .

(٢) انظر المقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) معجم الشعراء ص ٣٧ .

(٤) أمالي القائل ج ٣ ص ٢٠٥ والسند : الذئب والأرقط والنمر والعرفاء الضبع .

(٥) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠١ .

(٦) شرح الخطيب لحماسة أبى تمام ج ١ ص ٢٥٢ .

(٧) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٢١ وشرح التبريزى لحماسة ج ١ ص ١٤

(٨) المقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ .

غير يسير من التقدير ، بالإضافة الى أن النظرة الدينية التي وصمتهم بالانحراف والشذوذ والتأنيث الشديد ، وإن كانت لم تنجح ، إلا أنها بعد عصر الخلفاء ، وبعد تحذر الفتن في الأمة من كل صوب ، وبعد أن أصبح الصعاليك مجرد جزء من هذه الفتن ، خف لهيب النظرة الدينية اليهم ، لأن هذه النظرة لم تعد مركزة عليهم وحدهم ، بل كانت موزعة على فتن كثيرة ، لم تكن الصعلكة أهمها ولا أخطرهما .

ومن هذه القوة العنيدة التي استطاعوا أن يحافظوا عليها ، والتي كان من أهم وسائل احتفاظهم بها تهيؤ ظروف كثيرة لذلك ، أبرز هذه الظروف أن لم يكن أهمها شيوع الفتن المثلة في قوى كثيرة متصارعة متطاحنة ، من هذه القوة العنيدة انساب شعر كثير لهم ، لا يمثل الشعور بالشذوذ والانحراف ، وإنما يمثل القوة والاعتداد بالنفس ، والشأى فيهما الى درجة واضحة متميزة .

على أننا في خلال هذا لا ننسى الفارق بين الفترة الأولى من الاسلام ، وما وليها من العصور وبين العصور نفسها في موقفها من الصعلكة ، وتأثر الصعلكة بهذا الموقف ، وإن كانت الروايات غير واضحة كل الوضوح في التحديد الزمني لما ناقته من شعر ، إلا أننا نحس أثر الفترة الأولى من الاسلام في شيوع التوبة بين الصعاليك ، وفي تحدث شعرهم بهذه التوبة وفي ظهور معنى يظهر لأول مرة في شعر الصعاليك وهو الحديث عن السجن والقيد ، حيث أن الذين لم يستطيعوا الهرب وقعوا في طائلة السلطان والشرية ، فإذا هم في السجون والقيود .

وفي الآية الكريمة التي تقارن بين حال أهل الحرم في أمنهم ، وحال المجتمع الجاهلي فيما عدا الحرم نرى التصوير العميق في قوله تعالى « أو لم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أقبالباطل يؤمنون بوعده الله يكفرون (١) فهذا التعبير « يتخطف الناس من حولهم » يصور لنا حال المجتمع الجاهلي ، ويشير الى أثر الصعلكة فيه . ولذلك يتول الزمخشري في تفسير الآية « كانت العرب حول مكة يفزو بعضهم بعضاً ، ويتفاوون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون آمنون فيها ، لا يفزون ولا يفار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب (٢) » ومن هذا يمكن أن نتصور الفارق بين الجاهلية والاسلام في حالهما ، وفي أثر الصعلكة في كل منهما .

أساليبها :

أساليب الصعلكة تتحكم في تحديدها وتوجيهها عدة ظروف ، منها طبيعة الأرض ، وطبيعة المجتمع وحياته . ومنها استعداد الصعلوك نفسه ، ومن هذه

(١) الآية ٦٧ سورة المنكبوت .

(٢) تفسير الكشاف في الآية السابقة ٣٦٥/٢ .

الظروف ما ظل ثابتا لم يتغير كطبيعة الأرض واستعداد الصعاليك ، ومنها ما طرأ عليه كثير من التغيير كحياة المجتمع بجوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذا التغيير بدوره لم يكن ثابتا ، وانما اختلف باختلاف العصور والحكام ، وما يسود المجتمع من أحداث .

وحين ننظر الى أساليب الصعاليك الاسلاميين نجد أساليب صعلكتهم تبعا لذلك مختلفة أيضا ، ولكن التغيير الملموس الذي نحسه في الفارق بين أساليب الجاهليين والاسلاميين هو ضعف أسلوب الفارات الى حد الاختفاء في معظم العصور ، وتبعه لذلك اختفاء نفمة الفارات والتمدح بها في الشعر ، فبينما نجد الفارات أبرز ما يتحدث عنه صعاليك الجاهلية ويفخرون به في شعرهم ، وبينما يشيع في الروايات أيضا عنهم حديث الفارة ووصفهم بها ، نجد شعر الاسلاميين يكاد يخلو منها ، ونجد الروايات أيضا تتحاشى وصفهم بالفارات ، وهذا أثر مباشر لما طرأ على الحياة الاجتماعية من تغيير ، فبينما كانت حياة القبائل في الجاهلية تقوم على غارات بعضها على بعض بصفة دورية متصلة لا تكف ولا تكاد تنقطع وقد اتخذ الصعاليك من هذه الحياة أسلوبا من أساليب صعلكتهم ، بينما الوضع كذلك في الجاهلية نجد طريقة الفارات تكاد تختفي في الحياة الاجتماعية بعد الاسلام ، ولم تعد الظروف تسمح بانتهاجها فتختفي تبعا لذلك من أساليب الصعاليك ، الا في الظروف الشخصية أو السياسية الشاذة حينذاك ، كما ورد في أخبار عبيد الله بن الحر حينما أحس نقمة معاوية عليه « ثم خرج عبيد الله مضطربا وارتحل الى الكوفة في خمسين فارسا وسار يومه ذلك ، حتى اذا أمسى بلغ مسالح معاوية ، فمنعوه من السير فشدد عليهم وقتل منهم نفرا وهرب الباقيون ، وأخذ دوابهم وما احتاج اليه ، ومضى لا يمر بقرية من قرى الشام الا اغار عليها حتى قدم الكوفة (١) فقد كان هذا الظرف السياسي حينذاك في الصراع العنيف بين معاوية وعلى ، وما استتبعه من ظهور الخوارج والطوائف المنشقة ، والمذاهب المنحلة وما الى ذلك من الظروف الشاذة ، كما ان شخصية عبيد الله بن الحر في شهرته بالقوة ، وانقياد اتباع طيعين له من الظروف غير العادية أيضا ، فقد كان وضع عبيد الله بن الحر في صعاليك الاسلام أقرب الى وضع عروة بن الورد في صعاليك الجاهلية .

والذي يشيع في أساليب صعاليك الاسلام كثيرا قطع الطريق ، كما تحدثوا بذلك في شعرهم ، وكما ورد في وصف كثير منهم بأنه « يصيب الطريق (٢) » سواء أكان الطريق طريق القوافل أم طريق الأفراد ، وسواء أكان المغنم مالا ، أم بضاعة مما تحمل القوافل كما يقول الاحيمر السعدي :

(١) خزنة البغداد ج ٢ ص ١٩ .

(٢) انظر للمثال شرح التبريزي لحسانة ابن تمام ج ١ ص ٢٥٢ ومهذب الأغاني ج ٨ ص ٨٤

أشكو الى الله صبرى عن زوملهم وما الاقى اذا مروا من الحزن
قل للصوص بنى اللغناء يحسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليم
قرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)

فهو يتحدث عما تحمله الابل من بز وثياب وطرف ، وفى أخبار أبى
النشناس النهشلى أنه كان يعترض القوافل فى شذاذ من العرب بين الحجاز
والشام فى عصر مروان بن الحكم (٣) ، ويتحدث أبو النشناس عن مغامره فيقول
انه يستهدف الجزيل من المفاتم ، أى أنه يربأ بصعلكته عن اليسير منها كما
يقول :

وداوية يهماء يغبى بها الردى سرت بابى النشناس فيها ركائبه
ليدرك ثارا أو ليدرك مغنما جزىلا وهذا الدهر جيم عجائبه (٣)

وكذلك يبرز من أساليبهم الحديث عن سرقة الابل أيا كان أسلوب سرقتها،
كما يتحدث عن ذلك يزيد بن الصقيل بعد توبته فيقول :

ألا قل لأرباب المخائف أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد (٤)

وكما يقول الاحيمر السعدى فى شعار جعله لنفسه :

وانى لأستحيى من الله ان أرى أجسر حبالا ليس فيه بعير
وان أسال الجبس اللثيم بعيره وبعران دوى فى البلاد كثير (٥)

ومن أساليبهم الفتك بما يوحيه الفتك من فهمهم له وحديثهم عنه ، من
أساليب التفرير والقدر التى تنتهى بحياة المفرر بهم فى أغلب الأحيان كما سبق
فى شرح اللفظ ، ومن أساليب الفتك أيضا أعمال المجازفة وركوب المخاطر ، كما
يقول المبرد « والاقدام على الفرر وركوب الخطر ، قد يتحسن عند الفتاك (٦) »
وقد وصف كثير من صعاليك الاسلام بأنهم فتاك كسعد بن ناشب (٧) وعبدالله
ابن سبره (٨) وفضالة بن شريك (٩) .

(١) الأمالى للقال ج ١ ص ٤٨ والزوامل الابل اذا كانت محملة ، والقطار الابل المتطورة

وراء بعض .

(٢) الأمانى للأصمغاني ج ١١ ص ٤٢ .

(٣) الاصمغانيات ص ١٢٥ وانظر مالك بن النرب يغزاة البغدادي ج ٢ ص ٥١ .

(٤) الكامل للمبرد ج ١ ص ٦١ .

(٥) معجم الشعراء ص ٣٧ .

(٦) الكامل ج ١ ص ١٢٠ .

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ١٧١ .

(٨) عن شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ١٨٥ .

(٩) مذهب الأغاني ج ٢/٣١٠ .

الباب الثاني

الشعراء الصعاليك

من الواضح أننا لا نعتني من حديث الصعاليك إلا بالشعراء منهم ، وأن الشعراء ليسوا كل الصعاليك ، بل المفروض في غير شك أن الشعراء منهم قلة قليلة بالنسبة لغير الشعراء ، ومن فضل الشعر على التاريخ الأدبي العربي أنه حفظ جانبا كبيرا من حياة الأمة العربية وتاريخها لولاها لم يكن ليلفنا عنه شيء يفتنى ، كما لم ييلفنا عن مجالات كثيرة شيء يفتنى .

أما غير الشعراء من الصعاليك ، فلم يكن هناك ما يدعو الروايات إلى العناية بهم وخاصة بعد الإسلام ، فإن الإسلام يفكر الصعلكة أشد الانكار ، فلم يكن يسع الرواة أن يجعلوا من حديثها لذاته موضوعا يتناقلونه ويضعونه موضع العلم الذي يتناقلونه تعليما وأخبارا ، ولكنهم وجدوا من جلال الشعر وتعظيم العرب له مبررا للعناية بشعر الصعاليك وبعض أخبارهم .

ومن أمثلة ذلك أن مالك بن الريب اقترنت أخبار صعلكته بزميلين له ، أحدهما شظاظ الضبي (١) الذي ضرب به النمل في اللصوصية ، فقيل الص من شظاظ (٢) ، والآخر أبو حردبة المازني (٣) وأبو حردبة هو الذي يقول عنه الراجز وعن مالك :

الله نجاك من القصيم

ثم ومن أبي حردبة الأثيم

ومالك وسيفه السموم (٤)

ولكن مالك بن الريب كان شاعرا ، فعنيت به الروايات ، أما أصحابه فلم يكونوا شاعرين ولذلك ، لم ييلفنا عنهما شيء مقيد ، وهناك صعاليك من غير

(١) خزائن البغدادي ج٢ ص ٤٢ .

(٢) مجمع الأمثال ج٢ ص ٢٥٧ .

(٣) أنظر مجمع ما استجيب للبكري ج٢ ص ١٠٢٧ .

(٤) المصدر السابق .

الشعراء ساقط الروايات عنهم ذكرها خاطفا لارتباطهم أو ارتباط أسمائهم بشئ آخر ، كذى الشنة وهب بن خالد قاطع الطريق ، فملازمة الشنة وهى القرية له كانت فى ذاتها حديثا ، وسببا فى تعرض معاجم اللغة لذكره فى سياق شرح الشنة (١) ومن الأدلة على أن الصعاليك غير الشعراء كانوا أكثر بكثير من شعرائهم ما ورد من أن أبا جندب الهذلى حين أراد أن يثار لأخيه الأسود بن مرة من بنى لحيان ، واعد كل خليع وفاتك أن يأتوه فى موعد ومكان معينين ليغير بهم على بنى لحيان (٢) ومعنى ذلك أن هؤلاء الصعاليك من الخلفاء والفتاك الهذليين كانوا عددا كبيرا ، فى حين أنه لم يبلغنا من أخبارهم إلا أخبار أبى خراش والأعلم وصخر الفنى ونفر قليل ، وذلك لأن هؤلاء كانوا شعراء .

ومساق الحديث عن الشعر يجعلنا مضطرين الى التمييز بين الشعراء الجاهليين ، والمضمرين والاسلاميين منهم ، لما لهذا التحديد الزمنى ، وما يرتبط به من نظام الحياة والمجتمع من أثر فى الشعر .

والواقع أن الحديث عن الشعراء الصعاليك وعن شعرهم يحيط به كثير من الالتواء والتبشتر ، والباحث فى هذا المجال يجد مشقة أى مشقة فى الوصول الى صور واضحة عن هؤلاء الشعراء وعن أشعارهم نتيجة لضعف التاريخ العربى القديم واضطرابه فيما يتعلق بالأفراد وبخاصة اذا لم يكن لهم وضع بارز فى الدين أو السياسة ، وعلى الأخص هؤلاء الصعاليك ، فلولا ما تميز به الاسلام من سيطرة وبسطة وسعة فى الأفق والفهم للأمور ، لكان الحديث عن الصعاليك فى ذاته جريمة ، لأن الصعلكة نفسها جريمة أى جريمة فى الاسلام . ولكن سلاحين قدّرع بهما العلماء فى تداول رواياتهم ، أحدهما هذه البسطة والسعة فى فهم الاسلام للأمور مما لا نرى ما يدعو للافاضة فى حديثه ، ولكن يجعله مثل شعار العلماء فى هذا المقام من قولهم « ناقل الكفر ليس بكافر ، فالمنكر شئ » ، والحديث عنه وروايته شئ آخر ، والسلاح الثانى هو تعظيم العرب للشعر وجعله ميدانا للتنافس بينهم ، ثم اقرار الاسلام للشعر واعترافه بهذه المكانة له ، هذان العاملان كان لهما الفضل فيما تعتقد فى مجرد وصول أخبار الصعاليك الينا .

ولكن هذه الأخبار لكونها معتمدة على الروايات ، ولما يفرض فى الروايات من اختلاف الرواء فى قوة ذاكرتهم ، وفى دقتهم فى النقل تعرضت لاضطراب وتعارض واضحين فى شعر الصعاليك ولذلك نجد معظم شعرهم تختلف فيه الروايات ، ومما يلفت من هذا الاختلاف أن معظم الخلاف منصّب على الألفاظ ، وأقله ما يصيب المعانى كما سيأتى .

والذى يعيننا هنا هو أن نقول أننا حين نتحدث عن الشعراء الصعاليك لانزعم أننا نستطيع الحصر على وجه اليقين ، لأن هؤلاء الشعراء وأخبارهم متفرقة بل

(١) انظر القاموس المحيط مادة شنة ج ٤ ص ٢٤١ .

(٢) سجع البكرى ج ٢ ص ٥٣٠ .

متناثرة في كل الكتب القديمة تقويها ، سواء أكانت كتب تاريخ ، أم كتب ادب
ولغة ، أم كتب معاجم ، ولا نستطيع أن نزعم ، ولا نعتقد أيضاً أن هناك من
يستطيع أن يزعم أن في وسعه أن يلم بجميع الكتب العربية ليستقصى كل ما
فيها عن الصعاليك .

ومما يزيد موضوع الصعاليك صعوبة أنه موضوع لا زال بكراً ، وأول
من أفرد الصعاليك ببحث خاص هو أبو سعيد السكري في كتاب اللصوص ،
وقد أخذ عنه كثير من العلماء كالبغدادي في خزائنه ولكن منهج السكري لم
يتصل ، ولم يجد من العلماء من يواليه ، واقتصر الحديث عنهم على الاستشهاد
بأبيات أو أخبار متفرقة في معظم الأحيان ، يتبين منها أنها غير مقصودة لذاتها ،
وانما ثباتها ما هي مسوقة من أجله ، ولو قد وجد السكري من يواليه لكان في
تضافر العلماء والباحثين ما يبرز لنا صورة واضحة أو قريبة من الوضوح محددة
أو قريبة من التحديد فيما يتعلق بأشخاص الصعاليك وشعرائهم ، فيما يتعلق
بأخبارهم وأشعارهم وفي برد كل ذلك إلى الوضع الصحيح من التحديد الزمني ،
ونسبة كل شاعر وشعره وأخباره إلى عصر معين وزمن معين ، ولكننا نتيجة لعدم
تحقق ذلك نجد عناء في نسبة شعراء الصعاليك إلى عصورهم وأزمانهم التي
عاشوا فيها ، ولئن كنا نستطيع أن ننسب كلا منهم إلى انفاصل الرئيسية في
التاريخ العربي من الجاهلية والحضرة والإسلام ، فأننا نعني بما هو أبعد من ذلك
في الدقة ، من نسبة الجاهلي إلى عصر أو جيل معين في الجاهلية ، ومن الفصل
الدقيق بين الشعر الجاهلي والإسلامي بالنسبة للمخضرمين ، بمعنى أننا حين
ندرس شعر المخضرمين لا نجد الوسيلة الدقيقة أو الروايات التي ترشدنا إلى
فصل الشعر الذي قالوه في الجاهلية عن الشعر الذي قالوه في الإسلام ، إلا إذا
كان الشعر نفسه يتضمن ما يوحى بذلك ، أو كان يرتبط بحادث عرفت نسبته
إلى الجاهلية أو الإسلام ، ومع ذلك فقلما نجد هذه الاعتبارات ، ومن نسبة
الصعلوك الإسلامي إلى عصر أو جيل معين في الإسلام وإن كان هذا الجانب أوضح
الجوانب في موضوع الصعاليك ، أو بمعنى أدق ، أقلها في القموض .

ولهذا كله لم يلق موضوع الصعاليك إقبالا من الباحثين المحدثين ، مع
سعة البحوث الأدبية وتشعبها في العصر الحديث ، فبصرف النظر عن المقالات
على قدرتها ، والفصول الموجزة العجلى والمسوقة ضمن موضوعات أخرى (٢) .
لا نعلم بحثاً أخرجته المطابع إلا بحث « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي »
للدكتور يوسف خليف عن جانب واحد من الموضوع كما يبين من عنوانه ،
هو الجانب الجاهلي .

(١) للمثال انظر خزانة الأدب للبغدادي ج ٢ ص ١٩ ، ٢١ .

(٢) مثل ما جاء في فصل الفن والفقر بكتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور
الحرفي ص ٢٢١ - ٢٣٤ وبض اللقوات بكلية اللغة العربية وحديث كارل بروكلمان في تاريخ
الأدب العربي عن بض الصعاليك كالشعري وثابت شرأ وعروة بن الورد .

فحين نتحدث اذن عن الصعاليك لا نجد مفرا من الاعتماد الكامل على
الراجع العربية القديمة ، متقلين بين اشتاتها ومتنثراتها ، بل وكلماتها الخاطفة
أحيانا عن الصعاليك ما وسعنا التنقل ، راجين ألا يكون القصور - أن كان -
شديدا .

وحيث أن تراجم الشعراء لا تعيننا لذاتها في هذا الموضوع ، لذلك نكتفي
منها بما يميز الشاعر عن غيره ، أو يحدد مسافته ، في أقصى ما يستطيع من
إيجاز ، تاركين التفاصيل بعد الإشارة إلى أهم مصادرها ومراجعها لمن أراد
الرجوع .

الجاهليون

١ - الشنفرى :

نشأ في أزد اليمن ، ولكن بنى شبابه بن فهم أسروه صغيرا ، فظل فيهم
حتى أسر بنو سلامان بن مقرج رجلا من بنى شيبابة ففدوه بالشنفرى ، فعاش في
بنى سلامان بتجد أسيرا كالعبد ، أو عبدا كالأسير ، حتى تعلق بفتاة هى بنت
الرجل الذى يعيش عنده ، وأراد أن يتزوجها فأققت من ذلك ، وأذنه ، وأحسن
المهانة فى مقامه بين بنى سلامان فلجأ إلى الصعلكة ، واستغل معظم نشاطه فيها
فى الانتقام من بنى سلامان ، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا ، والشنفرى
هو الذى يضرب به اللثل فى سرعة العدو الذى يسبق الخيل ويضرب به المثل فى
الخلق والدماء ، وهو ابن أخت تأبط شرا رغم أنه أكبر منه سنا ، وكان أحد
رفقة ثلاثة ، اشتهروا بأنهم من أقوى الناس وأعداهم ، هو وتأبط شرا وعمرو بن
براقة وهو أحد شخصين لكل منهما ديوان شعر ، هو وعروة بن الورد ، وإن
كان ديوانه هو لم يصل إلينا منه إلا أقله ، وهو صاحب لامية العرب ، التى يعتز
الشعر العربى كله باحتوائه على مثلها ، والتى فتنت المستشرقين فأولعوا بها
وترجمتها ، حتى ترجمت إلى نحو خمس لغات أجنبية ، والتى حظيت منذ القديم
بأعجاب الأدباء والنقاد ، حتى أفرد الزمخشري لها كتابا لشرحها هو « أعجب
العجب فى شرح لامية العرب (١) » ويجمل بعض الباحثين شعره فى المرتبة الأولى
من حيث التمثيل والتصوير .

(١) انظر منه الأخبار وغيرها عنه وعن شعره متفرقة فى المصادر الآتية : مجيع الأمثال
١٦/٣ والحدائق ٢٠/١ والمقال ٢٠٥/٣ و ١٥٥/١ وشرح المفصليات ص ١٠٨ وشرح
حاسة ابن تيم للشمس ١٨٧/١ والكامل للمبرد ٧٦/٢ وتاريخ الأدب العربى لكارول بروكلمان

٢ - تابط شرا :

هو ثابت بن جابر الفهسي ، خال الشنفرى ، واحد الثلاثة السابقين الذين اشتهروا بأنهم أقوى وأعدى من عرفهم زمانهم ، وقد بلغ من اعتداده بنفسه وبقوته وعدوه أنه كان يغير وحده على رجلية ولا يهاب أحدا ، والذي عدوه من أبطال البدو المعدودين ، حتى أن قصص مغامراته وأقدامه تشبه الأساطير ، وإن كان معظمها موضع اتفاق بين الروايات مما يحتمل على تصديقها ، والذي عرف مع شدة بأسه وصرامته ، بالمهارة البارة في التخلص من المآزق البالغة الخطورة ، والتي لا يتاح الخلوص منها الا لشخص وهب حظا عظيما من الذكاء وسرعة البديهة والعدو الحارق للعادة في قصص كثيرة لا تكاد تختلف عليها الروايات ، وقد سجل معظمها في شعره ، وكان مع ذلك من مشاهير الشعراء المجيدين (١) ، وأمه تصف للناس طريقة تربيتها إياه وكأنها أحست تساؤلهم عن سر ما أوتيته من صفات لم يالفوها في غيره ، فهي تسوق لهم جانبا من تعليل ذلك كما روى الجاحظ في قوله « رويوا جميعا أن أم تابط شرا قالت : والله ما ولدته يتنا ، ولا سقيته غيلا ، ولا أبته على مآفة ، وقد شرح الجاحظ هذه الالفاظ بأن اليتن خروج المولود قبل رأسه وذلك علامة سوء ، وأن الغيل ارتضاع لبن الحبل وذلك فساد شديد ، وأن المآفة هي مضمون العنف والحق من الأم في ترقيص أبتها واعتداده للنوم بطريقة مفزعة لا رفق فيها (٢) ، مع أن بعض الروايات تنهم أمه بالتواطؤ مع زوجها أبى كبير الهذلي على قتل تابط شرا ، وهو غلام ناشئ ، حينما توقع أبو كبير الشر من تابط شرا ، وأحس بالحق في نظراته نتيجة لكثرة دخوله على أمه ، وقد استدرجه أبو كبير إلى حيث يلقي هلاكه في إحدى الغارات حتى انتهى

١٠٤/١ وما بعدها وأعجب العجب في شرح لأمية العرب للزمخشري وأمال القائل ٣٦/٢ والشوامخ لمحمد صبرى ص ١٢٥ ومهذب أغاني الأصفهاني ٩٥/١ ومعجم ما استعجم للبكري ٤٢٩/٢ ، ٥٥٩ ، ٢٤٩/١ و ٩٤٦/٣ و ١٣٩٢/٤ والحيوان للجاحظ في سبعة مواضع (بالفهرس المجمع) وخالف صاحب القاموس فعده في الاسلاميين مادة (غرب) والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٥/١ .

(١) انظر تفصيل ما سبق وأحداثا وأخبارا عنه وعن شعره في المصادر الآتية : مهذب الأغاني للأصفهاني ٢٢٤/١ وأمال القائل ٣٨/١ ، ١٣٤/٢ ، ٢٧٨ ، وتنبيه البكري على أوام القائل ص ١٠٨ ومعجم الأمثال ٤٦/٢ وخزانة البغدادى ٩٣/١ ، ١٣٩/١٥ والمفضليات للضبي ص ٢٧ والاصمسيات ص ١٣٥ وحساسة أبى تمام ١٦/١ ، ١٩ ، ٢١ ، ١٨٩ ، ٣٤٢ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١٠٤/١ والقند الفريد ٣٤/١ ، ١٢٧/٣ ومعجم ما استعجم للبكري ١٨٧/١ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ وبه قصة قتله الغول وشعره في ذلك و ٣١٨/١ ، ٤٠٠/٢ ، ٤٢٤/٢ وبه قصة مقتله ، ٥٠٨/٢ ، ٦٣٨/٢ ، ٦٤٦ واحد عشر موضعا آخر (بالفهرس المجمع) والحيوان للجاحظ ٦٣/١ ، ١٨٢ ، ٦٨/٣ ، ٢٥٥/٦ على شك في نسبة شعر له في هذا الموضع ، ٤٥٠/٦ (على شك أيضا) ، ٢٨٦/١ رثاء أمه إياه وعده القاموس المحيط اسلميا مادة (غرب) وهو غير صحيح والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٨٦/١ وشرح القصائد السبع لابن الأثير ص ٤١ مع اختلاف في بعض الألفاظ .

به الى عدوين له ، ولكن أبا كبير رجع أكثر خوفا من تابط شرا وأشد فرقا حينما وجده قتل عدويه وعاد بطماهما (١) ، وليس من اللازم أن نعتقد أن أمه توطأت مع زوجها في هذه المؤامرة ، فيجوز أن يكون أبو كبير منفردا بها ، أو أنه نسب الى أمه الاشتراك ليخفف من جرمه ، وعلى فرض صحة الرواية كلها ، فليس من اللازم أن تكون متعارضة مع حديث أمه عنه ، ووصفها لتربيتها إياه .

٣ - السليك بن عمر السعدى :

وهو المشهور بالنسب الى أمه السلركة ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه كانت أمة سوداء فورث عنها لونها ، وكان لذكره وشهرته دوى فى أنحاء الجزيرة كلها ، حتى أن عمرو بن معد يكرب يقول (ما أبالي أى طعينة لقيت على ماء من أمواء معد ما لم يلقي دونها عبداها أو حراها) وعنى بأحد العبيدين السليك ، وقد ضربت به الأمثال التى بلغت من الشهرة فى أنحاء الجزيرة كلها حدا بارزا فلا يعد بضعة نف رالا ويكون السليك أحدهم سواء فى سرعة العدو أو فى مضاء العزيمة وشدة البطش أو فى الشجاعة والقروسية ، فالروايات تصفه بأنه أحد العدائين الأربعة فى العرب ، وأحد الغريبان الثلاثة ، وأحد خمسة يصفهم الجاحظ بقوله : « فهؤلاء أسد الرجال ، وأشدهم قلبا وأشجعهم بأسا ، وبهم يضرب المثل (٢) ، حتى فى الخيل المشهورة عند العرب كان يسهم فيها بفرسه المشهورة بالنحام » .

وقد شمل نشاطه فى الصعلكة أرجاء واسعة من الجزيرة حتى أنه كثيرا ما كان يغير فى أنحاء اليمن مع أن موطنه فى تميم باليمامة ، ولكثرة غاراته اشتهر بأنه « سليك المقائب ، والمقائب جماعات الخيل ، وقد استطاع بهذه المقومات التى اقترنت بشخصيته الفذة فى مجالها أن يرفع من خسيسته التى ورثها من سواد أمه ورقها ، فيبدل ان كان موضعه المرتقب بين العبيد ، أصبح فى موضع الهيبة والتقدير والاعجاب اللاتى لم يحظ بهن فى جيلة سوى نفر المحدود ، وكأثر من أبرز مواهبه قوة شاعريته التى جعلته من الشعراء البارزين المجيدين فى عدة مجالات ، والذين يتردد شعروهم فى سائر أنحاء شبه الجزيرة (٣) .

(١) شرح التبريزى لحاسة أبى تمام ج١/١٩ .

(٢) رسائل الجاحظ ١٩٢/١ .

(٣) أنظر ترجمته وتفاصيل أخباره وأشعاره فى مجمع الأمثال ١/٢ ، والمقد الفريد ٧١ ، ٢٥٠ وأمال القاتل ١٨٦/٣ ، وشرح التبريزى لحاسة أبى تمام ٣٧٨/١ وخزانة البغدادى ٨٩/١ والكمال للمبرد ٢١٠/١ وشرح الفضليات لابن الأثير ٧٠٤ ، ٧٠٥ والكمال للمبرد ٥٧/٢ ودائرة مآرق البستانى مادة (سلك) ومجمع الأمثال ٣٠/٢ ، ١١/٢ ، ٤٧ ومما صدق النصيب ٣٠/٤ وبيتية الدمر للشاعري ١٢٣/٤ والحيوان للجاحظ ١٨/١ ورسائل الجاحظ ١٩٢/١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٢٤/١ ومجمع ما استعجم للبكرى فى مواضع كثيرة منها ١٠٨٠/٣ ، ١١٧٠/٤ ، ١٣٣٩ والقاموس المحيط مادة (نعم) ومادة (غرب) .

٤ - عروة بن الورد العيسى :

أمتاز عروة بأنه أضفى على الصعلكة كثيرا من الاحترام والتقدير سواء أكان في عصره الجاهلي أم فيما يليه من بعض عصور الاسلام ، وذلك بما تحلى به عروة من خلق فريد في السخاء والعطف الشديد على الفقراء ، واعتبار نفسه مستثلا عن تفريغ كرباتهم وضوائق العيش عنهم ، ثم في تواضعه الشديد معهم ، وتطبيق أكرم صور الاشتراكية معهم سواء في بذله ما عنده لهم ، أو في مقاسمتهم إياه غنائمه في عزواته وغاراته من أجلهم في قصص وأخبار كثيرة أفاضت فيها الرواة وكتب القدامى ، ولذلك لقب « عروة الصعاليك » ، ويريدون بالصعاليك في هذا اللقب الفقراء ويعملون دائما سبب هذا اللقب بأن عروة كان يجمع الفقراء ليعولهم ويعطف عليهم ، ثم يسوقون أخباره في ذلك . ولذلك يقول عنه عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد ، ويقول أيضا : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدني ولدني الا عروة ابن الورد لقوله :

واني امرؤ عافى انانى شركة وانت امرؤ عافى اناءك واحد

ولذلك يقول معاوية بن أبي سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم ومن أخباره أيضا أن ابنا للحصين بن الحمام أتى باب معاوية ابن أبي سفيان ، فقال لحاجبه استأذن لي على أمير المؤمنين ، وقل : ابن مانع الضسيم ، فاستأذن له فقال له معاوية : ويحك ، لا يكون هذا الا ابن عروة ابن الورد العيسى أو الحصين بن الحمام المرى ، أدخله .

وقد اقتضت منه هذه السباحة في خلقه ، وهذا التزام من الفقراء والصعاليك على بابه أن يكثر من غاراته وأن يبعد في أرجاء الأرض طلبا للغنائم والأسلاب .

وهو الوحيد من بين شعراء الصعاليك الذي وصلنا ديوان مطبوع له (١) جمعه ابن السكيت وكان من الشعراء الكثيرين ، ويمكن أن يعد أكثر شعراء الصعاليك تناولا لأغراض مختلفة وقد عده أبو عبيدة في الطبقة الثالثة من الشعراء وعده صاحب جمهرة أشعار العرب من الشعراء ذوي القصائد المنتقيات وهو من الشعراء القليلين الذين كان لشعرهم تأثير في حياة الاجتماعية ، ولذلك يقول الخطيب لعمر بن الخطاب حينما سأله عن قومه : كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألف حازم ، قال : وكيف ؟ ، قال : كان منا قيس بن زهير وكان حازما لا نعصيه ، وكنا نأثم بشعر عروة بن الورد ، وقدم بأقدام عنترة . وكان عبد الله ابن جعفر يوصي معلم ولده ألا يعلمهم قول عروة :

(١) للشنفرى ديوان مخطوط بدار الكتب المصرية وينقل بعض الباحثين أنه مطبوع انظر

الشعراء الصعاليك د. يوسف خليف .

قوينى للفنى اسعى فانى وايت الناس شرهم الفقير

ويقول : ان ذلك يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم (١) .

٥ - قيس بن منقذ السلولى الخزاعى :

وهو المشهور بابن الحدادية ، وهى أمه ، وكان ذا بأس شديد ، وكان من الفتاك ومن شجعان الصعاليك ، وقد كثرت غاراته ، وثقلت جنياته على قومه فخلعوه ، وأشهدوا على خلعه بسوق عكاظ على ألا يحتملوا جريرة له ، ولا بطلون أحداً بجريرة يجرها على قيس ، ولكن ذلك لم يفت فى عزمه ، ولم يصرفه عن غاراته وجنياته ، بل ازداد ضراوة وشراسة ، وجعل قومه هدفاً من أهداف غاراته . وأصبح مأوى للصعاليك والشذاذ والخلعاء ، يغير بهم ويعتمد على بأسهم ، وكانت له مواقف يمثل فيها خلق السيد الكريم ، لا الصعلوك الخليع ، كقصة الغنائم التى استاقها فى غارته على بنى قمين من قومه خزاعة ، حينما ناشده ابن محرف أن يرد ما استاقه من غنائم ، فقال له قيس : أما ما كان لى ولقومي فقد أبررت فسمك فيه ، وأما ما اعتورته أيدى هذه الصعاليك فلا حيلة لى فيه .

وله شعر كثير ، يبرز فيه جانب الغزل وجانب الفخر بقومه قبل أن يخلعوه ، بالإضافة الى شعره فى محيط الصعلكة (٢) .

٦ - مالك بن حريم الهمداني (٣) :

مع ان الروايات تصفه بأنه من لصوص همدان ، الا أن أخباره تنبئ عن أن أسبوه فى الصعلكة كان يعتمد على الغارات أكثر من التلصص ، ومع ذلك

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٥٩ - ١٦٠ ، وشرح ابن السكيت لديوان عروة ، وديوانه ، وأمالى القالى ٢/٢٣١ ، ١٨/٣ ، ٥٩ ، ٢٠٠/٢ .
والتنبيه على أوهام القالى للبكرى ص ١١٢ وشرح الاصمعيات لابن الانبارى ص ٣٥ والاصمعيات ٣٥ - ٣٨ وحماة أبى تمام ١٥٩/١ ، ١٧٧ ، ٣٠/٢ ، ٢٥٨ ، ٣٠١ وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١٥٩/١ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١٠٩/١ والكامل للمبرد ٧٨/١ ، ٣٦٢ والقاموس المحيط مادة (صعلك) ومعاهد التنصيص ١٢١/٣ والكامل ٣٦/١ وجمهرة أشعار العرب للقرئى ص ٣٤ والصدقة لابن رشيق ٣٥/٢ والجوان للجاحظ ٢٧٢/٢ ، ٣٥٦/٤ ، ٣٠٩/٦ وبيان والتبيين للجاحظ ٢٢٤/١ والأغانى للأصفهاني ٢/١٤ ، ٦٦/١٣ ، ٣٧/٣ - ٣٨ ٧٢ - ٨٨ ومعجم البكرى ٧٣٧/٣ ، ٨٩٢ ، ٩٩٩ ومواضع أخرى .

(٢) انظر ترجمته وشعره وأخباره فى الأغانى للأصفهاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

(٣) اختلف فى ضبط حريم والأدراج أنه يفتح الحاء المهملة وكسر الراء ، وروى حريم بالحاء وحزيم بالزاي وسماه البحتري فى حماسته خطا ملك بن حريم .

فإن شعره ينبئ عن شخصية قوية كريمة تلتزم منهج الخلق الحميد فيما تقتضيه الصلات الاجتماعية ، حيث نجد شعره يركز على الحديث عن الخلق والفسدة ، الدعوة إليهما ، ويعد النقد من فحول الشعراء ، وهو من القليلين الذين رويت لهم قصائد طويلة من شعراء الصعاليك وقد روى له الأصمعي في أصمعياته أحداها وتبلغ أربعين بيتا ، وكانت بينه وبين عمرو بن معد يكرب مناسقات شعرية (١) .

٧ - صخر الغي الهذلي :

هو صخر بن عبد الله الحيثمي من هذيل ، كان مع أخوته صخير والأعلم وأبى عمر يكتونون عصابة عتية عنيدة ، دائبة النشاط والغزو ، وقد ساقبت لهم الأخبار قصصا طريفة في حسن التخلص والتمويه على الأعداء ، وكانوا من العدائين .

ويغلل الأصمعي سبب تلقيب صخر بالغي بقوله « ولقب بالغي لخلاعه وشدة بأسه ، وكثرة شره » ، ويبلغ من شدة بأسه واعتزازه بشجاعته أنه حينما أحاط به أعداؤه من بني المصطلق أبى أن يسام نفسه اليهم ، أو أن يحاول النجاة منهم ، بل ظل يقاتلهم ، ويرتجز بشعر مؤثر ، حتى قتل .

وكان شاعرا قويا عميقا ، أبرز شعره شعر الصراع مع أعدائه ، ومنافراته مع عدوه أبى المثل ، وشعر الطبيعة الذي يعكس حياته في الصعلة .

ولئن كانوا يقولون في أمثالهم « الفضل ما شهدت به الأعداء » فإن في شهادة أبى المثل لعدوه صخر ما ينبئ عن خلق صخر وشخصيته ومركزه في المجتمع ، فحينما قتل صخر رثاه أبو المثل بقوله :

لو كان للدهر مال عند مثله	لكان للدهر صخر مال قنيان
أبى الهضيمة ناب بالعظيمة	متلافى الكريمة لا سقط ولا وان
حامي الحقيقة نسال الوديقة معتاق	الوسيقة جلد غير ثنيان (٢)
ربة مرقبة مناع مقلبة	ركاب سلهة قطاع اقيران (٣)

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره في الأغاني للأصمعي ٢٥/١٤ وأمال القال ١٢٠/٢ ، وحساسة أبى تمام ٣/٢ والحيوان للجاحظ ٢١٠/٢ وشرح الأصمعيات عن ابن الأثير ص ٥٦ - ٦٣ وشرح التبريزي للحساسة ٣١/٢ ، ٣٢ ، والأصمعيات ٥٦ - ٦٢ والمدة لابن رشيق ٢٠/١ .

(٢) الحقيقة : الراية والحرمات والوديقة الحر الشديد أي يسرع المسير في الحر الشديد والوسيقة الأيل .

(٣) الرياء المشرف من مرتفع والرقبة للنظرة في رأس الجبل والمسلهية الفرس الذكر العظيم . والأبيات في المدة لابن رشيق ٣١/٢ والبيان والبيان للجاحظ (هامش) ٣٢٦/٣ .

هباط لودية جمال الوية شهادة اندية سرحان فتيان
يعطيك ما لا تكاد النفس تسلمه من التلاد وهوب غير متان
وزاد الاصغفاني عليها البيتين التاليين :

يعنى الصعاب اذا جد الضراب ويكفى القائلين اذا ما كبل العمانى
وينرك القرن مصفرا انامله كان فى ريطته نضغ ارقسان (١)
وفى هذه الابيات من اوصاف القوة والشجاعة ، والخلق والمروءة والسماحة
ما يكفى لرفع صبر الى صفوة البارزين فى مجتمعه (٢) .

٨ - عمرو بن براءة الهمداني :

غلبت عليه نسبته الى أمه براءة ، واسمه عمرو بن منبه بن يزيد الهمداني
وكان رفيقا للشنفرى وتأبط شرا فى الصعلكة وعمرو يعتبر من الأشخاص
القليلين الذين يعتبرون نموذجا لشخصية الصعلوك القوى العنيد ، الذى
لا يصدم عن عزمه شئ ، ولا تقف فى طريق أهدافه عقبة ، وقصته مع حريم
الهمداني مثال لذلك ، حيث أغار حريم فسطا على ابل لعمرو ، وكان حريم
مخوفا رهيبا ، فصمم عمرو على أن يغير عليه وقد حذره بعض الناس بقولهم
« لا تعرض لتلفات حريم » ولكنه أنفذ عزمه ، وأغار على حريم فاستاق كل شئ
يمتلكه حريم ، وقد أخذته نشوة النصر ، فأنشأ قصيدة رائعة ، بل كل بيت
قيها رائع . ومنها هذه الحكمة التى كان العرب يعتبرون مضمونها شعارا لهم
وهذا ، والتى لم تزدها العصور حتى اليوم الا اجلالا لها وإيمانا بها وهى :

متى تجمع القلب الداكى وصارما وانفا حميا تجتنبك المظالم (٣)
ومنها هذا البيت الذى يعتبر الصعاليك مضمونه شعارا وهذا لهم ، وهو :
ومن يطلب المال للمنع بالقنا يعيش ذا غنى أو تخترمه المخارم (٤)

(١) الأرقان اليرقان يعنى نصفرة والبيتان والأبيات السابقة فى الأغاني ٢٠/٢٠ مع اختلاف
يسير فى الألفاظ .

(٢) أنظر ترجمة سحر وأخباره وشعره فى الأغاني ٢٠/٢٠ ، ومهذب الأغاني ١٨٥/٢
وغزاة البشلى ٤٢/١ وأمال القال ٢٠٤/١ ، ٢١٠ وزهر الآداب للمصرى ٢٢٩/١ ترجيحاً
وعيون الهذيلين ٥١/٢ والبيان ٢٧٥/٢ والمعدة ٣٦/٢ ونهاية الأرب للنويرى ٢٠٥/٦

(٣) أنظر شرح الصعاليك ٥٦ حيث قال « ومالك هذا هو صاحب البيت السائر الحكيم :
متى تجمع اللاب .. الخ » والبيت من قصيدة ١٩ بيتاً ذكرها القال فى الأمال ١١٩/٢ والأصغفاني
أنظر الأغاني (بالفهرس) ومهذب الأغاني ٩٢/١ وفى المقد الفريد ٣٤/١ هذا البيت وبيتان معه
ومعهم البكرى ٣٦٣/٢ وكل المصادر تنسبها لعمرو بن براءة .

(٤) القنا جمع قناة والمخارم سبل الموت .

وقد تمثل الحجاج ببعض القصيدة في خطبته التي توعده فيها أهل العراق (١) وكان ابن بركة من العدائين المشهورين بأنهم لا تلحقهم الخيل ، وفيما تسوقه الأخبار من قصص عدوه مع الشنفرى وتابط شرا ، وفي صراع هذا العدو مع الأعداء والمغار عليهم كثير من العجب والطرافة (٢) ، وقد عده صاحب المقد الفريد من فرسان العرب المعدودين في الجاهلية (٣) .

٩ - الأعلام الهدلى :

اسمه حبيب بن عبد الله من هذيل ، وهو أخو صخر الغي ، ولئن كان صخر أقوى منه في الشاعرية ، فإن الأعلام كان أقوى من صخر في الصلعة وبدو من أخباره أنه كان يتزعم العصاة التي كانت تعتمد من حيث أفرادها على صخر وصخر وأبي عمرو ، وكان الأعلام من العدائين البارزين ، ويبدو اعتزازه بهذه الميزة في شعره ، كما أن حياة الصلعة وما تقتضيه من ارتياد القفار جعلت منه وصافا مجيدا لحيوانات الصحراء ووحوشها ، ويمتاز شعره بصفة عامة بالجودة البارزة في تصوير البيئة ومشاهدها .

١٠ - عمرو بن عجلان :

اسمه عمرو بن عجلان بن عامر جار هذيل ، واشتهر بعمرو ذى الكلب لأنه كان يصطحب دائما كلبا له ، كما يقول ابن الأعرابي ، أو لأنه اصطحب كلبا للصيد فتودى إذا الكلب فقلب عليه واقترب به ، كما يقول أبو عبيدة ، وكان كثير الغزو والغارة وخاصة على بني فهم ، وشعره القليل الذي بلغنا ينسب عن سيطرة حب الغزو والتنقل عليه ، ويروون في سبب موته أنه نام ذات ليلة في غزوة لبني فهم ، فوثب عليه نمران فافترساه ، فادعت فهم قتله ، وأخته جنوب تصفه لنا في رثائها إياه في شعر كثير (٤) ، منه قولها :

(١) البيان والتبيين ١٢٨/٢ وتمثل بالبيت الأول (متى تجمع القلب .. وبيت آخر هو : إذا قوم غزوني غزوتهم .. فهل أنا في ذا بالهمدان ظالم ؟ وفي الامال ١١٨/٢ حريم المرادى وليس الهمداني .

(٢) أنظر مجمع الأمثال ٤٦/٢ والمصادر السابقة ، وسماء صاحب مجمع الأمثال ابن بركة وهو غير دقيق لأن بركة أم عمرو .

(٣) أنظر المقد الفريد ٣٤/١ (باب فرسان العرب في الجاهلية والاسلام) .

(٤) أنظر ترجمته وشعره وأخباره في شرح السكري لديوان الهذليين ٧٧/٢ وديوان الهذليين ٧٧/٢ - ٨٨ ومهذب الأغاني ١٨٥/٢ والحيوان للجاحظ ٣٣٦/٤ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٧٥/١

فاقسم يا عمرو لو نبهاك اذا نبها منك داء عضالا
اذا نبها ليث عريسه مفيتا مفيدا نفوسا ومالا
وخرق تجاوزت مجهوله بوجته حرف تشكى الكلالا
فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلالا (١)

وفى شعر آخر لها تقول منه :

الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها مشعجر من نجيع الجوف أسكوب
والتارك القرن مصفرا أنامله كأنه من رجيع الجوف مخضوب (٢)

وصاحب الأمالى يسوق ما يفهم منه أن عمرو بن عجلان كان من صرعى الغرام ، وأنه ضرب به المثل في كونه قتيلا الحب (٣) ، وما ذكره السكري في سبب موته من أن بنى فهم أرصدوا له على ماء حتى قتله (٤) أنسب من الروايات الأخرى ، ويؤيده شعر أخته في ديوان الهذليين ، ولعل الذى أدخل اللبس قول أخته قبل الأبيات السابقة الأولى « أتيج له نمرأ أجبل » (٥) ويمكن حمله على تشبيه القاتلين بالتمرير .

١١ - حاجز بن عوف الأزدي :

من العدائين الذين اشتهروا بأنهم يسبقون الحيل ، ومن الصعاليك الذين سلكوا أسلوب الفارات فالأخبار تصفه بأنه كان من المغيرين على قبائل العرب وشعره يظهر فيه الاعتداد بسرعة العدو على رجله ، ومع ذلك كان من أصحاب الحيل التى نالت شهرة في العرب فقد كانت له فرس اسمها ذئبة ، وكان حليفا لبنى مخزوم ، وله شعر يعتز فيه بحلفهم ، وكان موته مجهول الموضع والسبب حيث خرج في بعض غزواته فلم يعد ، ولم يظهر له أثر ، ولاخته شعر في رثائه ، ويصفه صاحب الأغاني بأنه « شاعر جاهل مقل ليس من مشهورى الشعراء » ويصفه أيضا بقوله « وكان حاجز مع غاراته كثير الفرار » وقد وصفته عمته في رثائها إياه بقولها « كان حاجز لا يشبع ليلة يضاف ، ولا ينام ليلة يخاف » (٦) .

(١) العمدة لابن رشيقي ٣١/٢ والعريسة الشجر للتلث والخرق المكان الراسع ذو الرياح والوجناء النافذة والحرف المهزولة .

(٢) الأغاني ٢٢/٢٠ - ٢٣ من قصيدة .

(٣) الامال ٢١٦/٢ في شعر قيس بن ذريح ، وانتظر ترجمته وأخباره وشعره ورثاء أخته في العمدة لابن رشيقي ٣١/٢ والأغاني ٢٢/٢٠ - ٢٣ ومهذب الأغاني ١٨٨/٢ والحيوان للجاحظ ١٨٥/٢ ومعجم الكبرى ٩٩٥/٣ ، ١٢١٦/٤ وديوان الهذليين ١١٣/٣ - ١٣٦ .

(٤) ديوان الهذليين ١٢٠/٣ .

(٥) ديوان الهذليين ١٢١/٣ .

(٦) انظر ترجمته وأخباره وشعره ورثاء أخته وعمته في الأغاني للأصمغاني ٤٧/١٢ - ٥٠ .

والبيان والتبيين للجاحظ ٢٩٩/١ والقوس المحيط (مادة ذاب) ومهذب الأغاني ٩٣/١ .

١٢ - جحدر بن ضبيعة بن قيس :

اسمه ريبة ولقب جحدرا لقصره ، وهو من فرسان بكر الذين أبلوا في حرب البسوس ضد تغلب ، واشتهر جحدر بيوم التحاليق ، حينما اتفقت بكر كلها على حلق رعوسها في هذا اليوم لتكون علامة يتميزون بها ، ويعرف بها بعضهم بعضا ، ولم ينفرد منهم الا جحدر ، فقد كان دميم الوجه والجسم ، وأشفق أن تكتمل دمامته حينما يحلق رأسه ، فناشداهم أن يبقوا على لثته لأول فارس يطلق من الثنية حينما يبدأ القتال (١) ، وقال لهم في ذلك شعرا يعاملهم فيه على أن يجزوا لثته ان نجا منه أول فارس يلقاه من تغلب (٢) وكانت له مواقف شجاعة بارزة في أيام أخرى من أيام حرب البسوس ، فمن ذلك ما ورد من أن أحد خلفاء بنى أمية أرسل ابنه الى قتادة يسأله سؤال الممتحن ، من قتل عمرا وعامرا التغلبيين يوم قضة ؟ قال قتادة : قتلها جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، فشخص بها السائل ثم عاد الى قتادة ، فقال : أجل قتلها جحدر ، ولكن قتلها جميعا ؟ قال قتادة : اعتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزج فمضى بينهما (٣) ، ويصفه التبريزي بأنه من الفرسان المعدودين (٤) ولكن جحدرا مع فروسيته كان فيما يبدو من أخباره ضعيف الهمة في الصلعة ، وكان يعتمد على أسلوب التلصص وليس الفارة ، وكانت له حيل طريفة في التلصص فمن ذلك ما رواه الجاحظ « كان جحدر اذا نزلت رقعة قريبا منه أخذ شنة (٥) فجعل فيها قردانا ثم نشرها بقرب الابل ، فاذا وجدت الابل مسها نهضت وشد الشنة في ذنب بعض الابل ، فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ، ثم كان يشب في ذروة ما ند منها ويقول : ارحم الفارة الضعاف ، يعنى القردان ، قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا ، (٦) » .

المختصر

١ - عبلة بن الطيب :

والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن بنى تميم ، وعاش عبلة في الاسلام زمننا ليس بالقصير ، وساهم في بعض الوقائع والحروب ، وله قصيدة طويلة

(١) شرح التبريزي لحاسة أبي تمام ١٩٥/١ .

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ١٩٥/١ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي نقلا عن مصادر أخرى .

(٤) شرح الحماسة ١٩٥/١ .

(٥) الشنة القربة من الجلد الجاف القديم .

(٦) الحيوان للجاحظ ٤٣٣/٥ .

قالها على أثر موقعة القادسية ، وكان أسود اللون وتصفه الروايات بأنه من
لصوص الرباب :

وشعره من أجود ما جادت به القرائح العربية ، وقد احتل شعره مكانا مرموقا
ونال شهرة واسعة ، ونكاد لا نجد مؤلفا من القدامى الا ويشيع في إجادته
الاستشهاد بشعر عبدة ، وهو صاحب البيت المشهور في رثاء قيس بن عاصم
المنقري :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

والذي يرى أبو عمرو بن العلاء والأصمعي أنه أرثى بيت قالته العرب ،
والذي يقول عنه ابن الأعرابي هو قائم بنفسه ، ماله نظير في الجاهلية ولا
الاسلام ، وأنشدوا أمام عمر بن الخطاب قصيدته التي أولها :

هل جبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد النار مشقول (١)
فلما بلغوا قوله :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

قال عمر مرددا « والعيش شح واشفاق وتأميل » ثم كان يردد هذا الشطر
متعجبا من حسن تقسيمه وتفصيله وما يتضمنه من حكمة ، ومع أنهم يصفونه
بأنه من الشعراء المجيدين المقلين ، الا أننا حين نتتبع بعض المصادر نجدهما
تسوق شعرا كثيرا له ، يدل على أنه مبتور من قصائد كثيرة لم تصل إلينا (٢) .
وقد أجاد عبدة في كل ما تعرض له من أغراض ، وعبد الملك بن مروان يرى
أن أجود ما وصفت به مناديل الخيل أوصاف عبدة بن الطبيب لها ، (٣) وقد عدد
عبدة لبنيه حصيلة ما جمعه من حياته الطويلة في أربع مآثر ، فمما قاله في
قصيدة جامعة في الحكم :

أبني اني قد كبرت وربني بصرى وفي لمصلح مستمتع
فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا تبقي لكم منها مآثر أربع
ذكر اذا ذكر الكرام يزينكم ووراثه الحسب المقدم تنفع

(١) القصيدة بالفضليات ص ١٣٥ وتبلغ ٨١ بيتا وهي التي قالها بعد القادسية .

(٢) من هذه المصادر معجم ما استمع للبكري أنظر ٤٠٢/٢ ، ٦٥٥/٢ ، ١٠٨٢/٣ ،
٣٧١/٤ ومواضع أخرى والحيوان للجاحظ .

(٣) أنظر ترجمته وشعره وأخياره في الفضليات ١٣٤ - ١٤٩ وشرح الفضليات ١٣٤ نقل
عن الطبري ٤٣/٤ ، ١١٥ ، وآمال القال ٤٦/١ ، ٢٧٠ ، ١٣٨/٣ وحاسة أبي تمام ٣٢٨/١ ،
ومعاهد التنصيص للعباسي ١٠٢/١ وشرح التبريزي للحماسة ٣٢٨/١ والحيوان للجاحظ
٤٠/١ ، ٢٥٤/٤ ، ٤٦/٣ ، ١٦٦/٤ ، ٥١٣/٥ ، ٦٧/٦ ، ٧٢ ، ٤٦٢ والبيان والتبيين ١٢٢/١
٢٤٠ ، ٢٥٣/٢ ومجالس ثعلب ٢٤٣/١ .

ومقام أيام لهن فضيلة عند الحفيظة والمجامع تجمع
ولهن من الكسب الذي يفيكم يوما اذا احتضر النفوس الملمع
ونصيحة في الصدر صادرة لكم ما دمت أبصر في الرجال واسمع (١)

٢ - أبو خراش الهذلي :

اسمه خويلد بن مرة من بني هذيل ، وكان أحد عشرة أخوة كلهم عدا
لا تسبقه الخيل وكان أبو خراش أبرزهم موضعا وأشهرهم ذكرا ، وهو أحد
فرسان العرب وفتاكهم ، أسلم وهو شيخ كبير ، ولم تثبت له صحبة بالنبي
صلى الله عليه وسلم ، وبلغ من شهرته بسرعة العدو ، وثقته بنفسه فيها
أنه دخل مكة يوما فرأى الوليد بن المغيرة يهيئ فرسين له للسباق ، فقال له
أبو خراش : ما تجعل لي أن أنا سبقتهما ، قال : إن سبقتهما فهما لك ،
وسابقهما فسبقتهما ، وأخذ الفرسين ، والروايات تسوق أخبارا كثيرة عن
مطاردة أعدائه إياه وعدم استطاعتهم اللحاق به ، ويبدو من أخباره أنه كان
كريما سمحا إلى حد بعيد ، وأن هذه السماحة كانت طبعا غالبا عليه ، حتى
أنها كانت سببا في هلاكه ، كما ورد في قصة ضيوفه اليمانيين ، الذين
نزلوا عليه ، فهيا شاة يذبحها لهم ، ولم يكن لديه ماء ، فسألهم أن يحضروا
ماء من مكان قريب ، فأبوا إلا أن يحضروه هو ، فخرج بقربته تحت الظلام
ليحضر الماء ، وفي عودته لدغته حية ، فتخامل على نفسه وأسرع إلى ضيوفه
فأعطاهم الماء ، وظل متحاملا على نفسه فلم يخبرهم حتى لا يفسد عليهم إقامتهم
عنده ، وأصبح ضيوفه فاذا أبو خراش في الموت ، فأقاموا حتى دفنوه وحين
بلغ عمر بن الخطاب ذلك ، قال : والله لولا أن تكون سنة لأمرت ألا يضاف
يماني بعدها .

ثم كتب إلى عامله باليمن أن يأخذ النفر الذين نزلوا به فيقرمهم ديتة .
وكان أبو خراش من الشعراء المجيدين ، والذين بلغنا من شعرهم قدر
كبير ، وقد تمثل النبي صلى الله عليه وسلم ببعض شعره ، فقد كان أبو خراش
يقول وهو يسعى بين الصفا والمروة .

لا هم هذا خامس أن تما أتمه الله وقد أتما
أن تغفر اللهم تغفر جما .. الخ (٢)

(١) القصيدة في المضليات للضبي ص ١٤٥ وهي ثلاثون بيتا ، وانظر شعره في الصلابة
في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧١ م الغالبي .
(٢) يقول البهزادى في الخزائن أن البيت الأول لامية بن أبي الصلت اخذ أبو خراش
وضم إليه آخر وتمثل بهما النبي .

وقد تمثل به النبي وصار من الأحاديث النبوية التي تتداولها كتب الحديث .

وقد أجاد أبو خراش في وصف الصنعراء وحيوانها ، وفي حديثه عن سرعة العدو ، وفي رثائه لأخوية مرة وعروة (١) ، ومات مسلما في خلافة عمر بن الخطاب ، وفي شيخوخته ، غزا ابنه خراش في جيش عمر بن الخطاب فتوسل أبو خراش الى عمر بقصيدة ، فأصدر عمر قرارا بالآلا يفزرو وحينئذ أبويه الا بعد اذنهما .

٣ - فضالة بن شريك الأسدي :

يصفه صاحب الأغاني بقوله « كان شاعرا فاتكا صعلوكا مخضما أدرك الجاهلية والاسلام » ، وفضالة من القلة بين شعراء الصعاليك الذين احتكوا بالمجتمعات وخاصة الأمراء ، فاضطربهم هذا الى أن يخوضوا في المدح والذم ، ولكن فضالة مع جرأته في الهجاء حتى على الأمراء ووجوه الناس كان عفيف الهجاء غير مقدع فيه ، ولكنه مع ذلك كان يبليغ من مذمومه مبلغا اليماء ، ومن ذلك قصته مع عاصم بن عمر بن الخطاب حينما أبى عاصم أن يقريه فكان مما قاله فضالة في هجائه :

الا ايها الباغى القرى لست واجدا فراك اذا ما بت في دار عاصم
اذا جتته تبغى القرى بات نائما بطينا وأمسى ضيفه غير نائم

ففرع عاصم من هجائه واستغاث بأمر المدينة ، فهرب فضالة الى الشام مستعيذا بيزيد بن معاوية مادحا إياه ، وفضالة أو ابنه عبد الله - على اختلاف الروايات - صاحب القصة المشهورة مع عبد الله بن الزبير ، حينما وفد فضالة - أو ابنه - على عبد الله بن الزبير ملتتمسا العطاء بقوله : ان ناقتي قد تعبت ودبرت ، فقال ابن الزبير : أرقعها بجلده ، وأخضفها بهلب ، وسر بها البردين ، فقال : انى جتتك مستحلا لا مستشيرا ، قلن الله ناقة حملتنى اليك ، قال له ابن الزبير : ان وراكبها (٢) .

(١) انظر ترجمته واخباره وشعره في خزنة الأدب البغدادي ٢٩٧/١ ، والمقد الفريد ٥٣/١ ، وصلة أبي تمام ٣٣٦/١ وأمال القال ٢٦٧/١ وشرح حساسة أبي تمام عن التبريزي ٣٣٦/١ والكمال للمبرد ٣٦٧/١ ، ٣٤٧ ، ٤٦/٢ ، والحيوان للجاحظ ٢٦٧/٤ والبيان والبيان للجاحظ ١٥٤/١ ومعجم ما استمع للبركي ٢٥٥/١ ، ٧٤١/٣ ومواضع أخرى . وديوان الهذليين ١١٦/٢ - ١٧٢ وشرح ديوان الهذليين للسكري ١١٦/٢ وما بعدها والأغاني للأسفهاني ٦٣/٢١ وما بعدها . وخراسان ابنه وعاصم الحيوان ٣٥١/٤ .
(٢) أى تم وراكبها دعاء على الناقة وصاحبها .

ومن ذلك أيضا قصة هجائه لابن مطيع أمير الكوفة ، حيث بلغ من عفة هجاء فضالة أياه ، أنه لم يهج من ابن مطيع الا كفه ، ومع ذلك بلغ منه ما لا يبلغه هجاء آخر حيث قال عن بيعة ابن مطيع :

دعا ابن مطيع للبياع فجثته الى بيعة قلبي بها غير عارف
فقرب لي شسنا لما لمستها بكفى لم تشبه أكف الخلاف
معوذة حمل الهراوى لقومها فرورا اذا ما كان يوم التسايف
من الشسناات الكزم انكرت لساها وليست من البيض السباط للطائف

ومات فضاله قبل خلافة عبد الملك بن مروان (١) .

٤ - أبو الطمحان القينى :

هو حنظلة بن الشرقى القينى القضاعى ، يصفه الأصمهانى بقوله :
« شاعر فارس خارب صعلوك من المخضمين أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيث الدين فيها » ، وقد روت له الاخبار قصصا كثيرة فى صعلكته ، وركوبه المخاطر ، وتنقله فى أنحاء كثيرة من الجزيرة ، ومن ذلك قصته مع قيسبة بن كلثوم أحد ملوك اليمن ، وكان قد أسره بنو عامر أثناء قصده الى الحج بمكة ، فمر به أبو الطمحان وهو فى القيد ، فاتفق قيسبة مع أبى الطمحان على أن يكتب قيسبة رسالة شعرية على رجل أبى الطمحان ، وعلى أبى الطمحان أن يشخص بها الى اليمن حتى يبلقها الى قومه مقابل مائة ناقة ، وقد أنفذ أبو الطمحان الاتفاق .

ولكننا من خلال أخبار أبى الطمحان نلاحظ عليه ملاحظتين شديهما عن أخص ما يميز الصعاليك ، احدهما اسفاهه وتنزله الى أعمال يتفر منها خلق الصعاليك ، فالصعاليك على أن حياتهم كانت تعتمد على السلب والنهب والتلصص الا أنهم كانوا يتعففون دائما عما ينافى المروءة والخلق الكريم ، ولكن أبا الطمحان لم يتعفف عن ذلك ، ومن هذا قصته مع المرأة التى آوته وأكرمته ، فسطا على شرفها ومالها ثم هرب ، وأكثر من ذلك أنه كان يفخر بهذه القصة وهى المعروفة بقصة الدير ، والأخرى أن شعره على كثرتة وان لم يخل من جودة يخلو دائما من روح العزة والاباء ، والاعتداد بالذات ، وهى الروح التى تعتبر أهم ما يميز شعر الصعاليك وأحاديثهم عن أنفسهم (٢) .

(١) أنظر مذهب أغاني الأصمهانى للخضرى ٢١٠/٢ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٧٩/٢ .

١٥/٣ .

(٢) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى الأغاني للأصمهانى ٢/١٣ - ١٤ وأمالى القال ١٠٩/١ ، ٣٢٥/٢ وحماصة أبى تمام ٨٣/٢ ، ٢٧٠ ، ٤١٢ والكامل للمبرد ٣٠/١ والحيوان للجاحظ ١٠٥/٣ ، والبيان والتبيين للجاحظ ١٨٧/١ ، ٢٣٥/٣ والفسر والشمراء لابن قتيبة ٣٤٨/١ ومصادر الشعر الجاهل لناصر الدين الأسه ٢٣١ .

الإسلاميون

١ - مالك بن الربيع :

من بني مازن بطن من تميم ، عاش في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وكان يقطع الطريق مع رفقة اشتهر منهم شظاظ الضبي الذي ضرب به المثل فقالوا « الص من شظاظ » وأبو حردبة المازني الذي قال أحد الراجزين في الحوف منه :

الله نجاك من القصيم ٠٠٠٠

ومن أبي حردبة الأثيم ومالك وسيفه السموم (١)

ويعتبر مالك بن الربيع أشهر الشعراء الصعاليك في الاسلام لعدة أسباب ، منها شدة بطشه في قطع الطريق كما يقول الراجز السابق ، وكما ورد في أخباره الكثيرة ، ومنها ما يدل على أنه كان يتحدى حتى منافسيه في قطع الطريق ، ومن شهرة قوته أنه قتل أفلح الذي ظل يقطع الطريق على القوافل وحده بخراسان عشرين سنة ، ومن تلك الأسباب أنه يعتبر من الشعراء البارزين في اجادتهم وكثرة ما جادوا به من شعر وشعره يعتبر في رفته وتعبيره الصادق السمع عن النفس لونا جديدا الى حد ما في الشعر العربي آنذاك ، وقد اكتسبت مرتبته التي رثى بها نفسه حين أحس الموت شهرة وذيوها ، سواء من حيث اعجاب مجتمعه بها ، أم من حيث ولوع الرواة والمؤلفين بتناقلهما وهي التي أولها :

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الفضي أزجي القلاص النواجيا(٢)

وقد عدما صاحب جمهرة أشعار العرب من عيون المرائي (٣) . وله شعر عده النقاد في القمة التي حاول شعراء كثيرون أن يبلغوها أو يقلدوها فلم يوفقوا (٤) .

ومن تلك الأسباب ما عرف عنه من صفات تميز بها سواء في خلقه أو خلقه ، فيصفونه بأنه كان من أجمل العرب جمالا وأبينهم بيانا ، وبأنه كان من ذوى السماحة والروعة ، حتى أنه حينما سأله سعيد بن عثمان وإلى خراسان عن سبب قطعه للطريق مع ما فيه من جمال وحسن بيان أجابه بأن

(١) معجم ما استمع للبيروني ١٠٢٧/٣ .

(٢) خزائن البغدادي ٤٧/٢ - ٤٩ وأمال القال ١٣٥/٣ والشعر والشعراء ٣١٢/١ والأعالي ٤٨/١٢ .

(٣) انظر خزائن البغدادي ٥٢/٢ والشعر والشعراء ٣١٢/١ .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ١٤٣ وساق القصيدة كاملة .

السبب عجزه عن مكافأة الاخوان ، وبأنه كان من الجراءة والتمرد بحيث توعد بنى مروان ، وهجا الحجاج بن يوسف هجاء موجما بعد أن تمرد على الحجاج واستعصى عليه (١) .

٢ - بكر بن النطاح :

عاش في صدر العصر العباسي وعاصر الرشيد والمأمون ، يصفونه بأنه « كان شجاعا بطلا ، فارسا شاعرا ، وبأنه » كان صعلوكا يصيب الطريق ثم أقصر ، وشهرته بالشعر أكثر من شهرته بالصعلكة ، حيث أن الروايات لم تكثر من أخبار تصعلكه ، بينما ساقته له شعرا كثيرا في عدة أغراض ، ويعدونه من الشعراء المجيدين كما يقول التبريزي « حسن الشعر جيد التصرف فيه » ولكننا حين نعرض شعره على الطابع المميز لشعر الصعاليك نجده يفقد جانبا كبيرا من روح العزة والاباء والصلابة التي يمتاز بها شعرهم ، هذا على الرغم من أن بكرا كان كثير الفخر بشجاعته في شعره ، ولكن روح العزة التي نتحدث عنها في شعر الصعاليك شيء غير مجرد الفخر ، بل قد تكون شيئا غير الفخر ، فقد يتحدث الصعلوك عن فقره أو جوعه أو تشرده أو اضطهاده أو أى معنى من المعانى التى تقترب عادة بالمهانة والضعف واستصغار النفس ، ولكن الصعلوك يجعل من هذا الهوان عزة وإباء ، كما يقول الشنفرى « وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى » وكما يقول مالك بن الريب « ففى الأرض عن دار المذلة هجرة » وكما يقول الشنفرى عن الجوع فى لاميته :

واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول

ويمكن تحليل فقدان بكر بن النطاح لهذه الروح فى كثير من شعره بأنه يمكن تقسيم حياته الى قسمين ، قسم زاول فيه الصعلكة وتجاوب مع حياتها وأحداثها ومشاعرها ، وقسم ألق فيه عن الصعلكة ، وهو الذى يصفونه فيه بأنه « أقصر » فيه عن التصعلك ، ثم ركن الى أبى دلف الأمير متمتعا بعبائنه ، مقيضا فى مدحه ومدح أخيه معقل ، ولذلك نجد شعر بكر بن النطاح لا يسير على نغمة واحدة من حيث الروح الصعلوكية ، ولكن الروايات لم تحدد لنا أى شعره قاله فى القسم الأول من حياته ، وأيه قاله فى القسم الثانى ، ولكننا نرى أثر القسمين واضحا فى مثل ما بين البيتين الآتيين من فرق ، فبينما نجد فى شعره مثل قوله :

(١) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى غزاة البغدادي ٤٧/٢ - ٥٢ والأغاني للأصفهاني ٤٨/١٣ ومواضع أخرى وأمالى القالى ١٥٨/١ ، ١٣٥/٢ ، والكامل للمبرد ٣٠١/١ وجهرة القرشى ١٤٣ - ١٤٦ والشعر والشعر ١ لابن قتيبة ٣١٢/١ ورسائل الجاحظ ١٩٣/١ والبيان والبيان للجاحظ ٣٧/٣ .

وصن يفتقر منا يعيش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل (١)
تجد في شعره مثل قوله مستجديا أبادلف :

له راحة لو أن معشار جودها على البركان البر أنلى من البحر (٢)
فبينما البيت الأول ينطق بأنه من صميم شعر الصعاليك وتعاليمهم على
السؤال في أى صورة من صوره ، مؤثرين الغضب والسلب عليه كما يقول
الأخير السعدى :

وأنى لاستحى أن أسأل العبد اللثيم بعيره
وبعيران ربي في البلاد كثير (٣)

بينما البيت الأول كذلك ، تجد البيت الثاني بعيد كل البعد عن روح
الصعاليك وطابع شعرهم ، ونلاحظ أن النوع الأول قليل في شعر بكر ،
بينما الثاني كثير متعدد الأغراض وخاصة في المدح والغزل والوصف (٤) .

٣ - عبيد بن أيوب العنبري

والعنبري نسبة الى بنى العنبر من بنى سعد ، ويصفونه بأنه « من
للصوص » وله في اتجاهه الشعرى طابع غريب من حيث الغرض ، فقد
أولع بالحديث عن الحرافات ، وشاع في شعره وصف مخلوقات وأوهام
غريبة ، كالغيلان والسعالى والجن ، حتى أصبح هذا الاتجاه طابعا مميزا
لشعره ، ويبدو أن هروبه من السلطان وتشرده وحيدا ، وخوفه الشديد في
متاهات الصحراء ، وقفارها ، قد خيل اليه هذه الأوهام ، وشعره نفسه
ينحدث كثيرا عن هذه المخاوف التي زلزلت ثباته ، وصورت له كل شيء
يراه أمامه أو يتخيله عدوا مخيفا ، وهو يصور مبلغ الخوف منه بمثل قوله :

لقد خفت حتى لو تمر حمامة لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل أمن قلت هذى خديعة وان قيل خوف قلت حقا فشمس
وخفت خليل ذا الصفاء ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٥)

(١) مهذب الأغاني ٨/ ٨٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الشعر والصحراء لابن قتيبة ص ١٨٣ م الغاتجى .

(٤) انظر لترجمته وشعره وأخباره في مهذب الأغاني ٨/ ٨٤ وآمال القائل ١/ ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
٢٤٤ والعقد الفريد ١/ ٦٦ والتنبيه على أوهام البكرى ص ٧٧ ، ودويوان الحماصة لأبى تمام
٢/ ٦٣ - ٩٥ ، ومعاهد التنصيص المعين ٣/ ٩٠ ، ٦١/ ٤ ، ٩٩ وشروح التبريزي للحماصة
٢/ ١٠ .

(٥) ديوان الجاحظ ٦/ ١٦٥ .

ونحس مبلغ سيطرة الفزع والخوف على نفسه في هذه اللهفة التي يبديها
في طلبه للامن كما يقول :

لذئني ظم الامن توصل حقيقة على فان قاعت لفصل بتانيا
خلعت فؤادى فاستطير فاصبحت ترامى بي البيد القفار ترامية (١)

ولكنه لم يجد هذا الامن الذي تتمطش اليه نفسه ، فسيطر عليه فزع رهيب جعله يفرق من كل شيء في قرارة نفسه ، ثم يصور هذا الرعب والفرق في صورة بطولة وشجاعة يمتاز بها عن سائر الناس ، فيتحدث عن أنه يخالط الفيلان والجن والوحوش ولا يخافها ، بل يصف أحاديثه معها ، ومخالطته ومعاشرته إياها ، كما فصل الجاحظ هذا الحديث في سرد ما تحدث عنه شعر عبيد من الفيلان ، وأساطير الضب والضفدع ، والسحاة ، ومناكة الجن ومخالفتهم ، واليربوع ، وقد علل الجاحظ هذه النزعة باستغلال الشاعر لسداجة محيطه ويبدو أن عبيدا عرف أخيرا جدا طريقه الى الامن حينما عرف طريق الرجوع الى الله ، والتوبة اليه ، ولذلك نراه يتحدث عن توبته حديثا يظهر فيه انكاره لما أسلف من أعمال ، ويظهر أيضا استخفافه بما أسلف مما لا يتفق مع « العقل » الذي يتحدث عنه فيما يتحدث من قوله :

يارب عفوك عن ذى توبة وجل كانه من حذر الناس مجنون
قد كان قلم اعمالا مقاربة أيام ليس له عقل ولا دين (٢)

وقد سبقه الى الحديث عن مخالطة الوحوش من الصعاليك الاحيمر السعدى في حديث نثرى له (٣) ولكنه لم يسرف اسراف عبيد ، بل كان أقرب الى التحفظ منه ، وتحدث تأبط شرا في شعره عن أنه قتل الغول (٤) ، وقلنا فيما سبق أنه ليس من اللازم تكذيبه ، وليس من اللازم القول بأن فيه الاتجاه الى نزعة الوهم أو استقلال سداجة مجتمعه البدوى ، وانما كان حديثا عن حادثة فردية ، يمكن حمل الأمر فيها على أنه قتل حيوانا غريبا عليه يظنه الغول كما تصورها أساطيرهم (٥) وستأتى مناقشة لهذا الموضوع في فصل الوهم .

(١) المصدر السابق .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٦٢/٤ .

(٣) انظر المقد الفريد ٢٩٠/٣ والحيوان للجاحظ ١٣٣/١ .

(٤) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ والقاموس المحيط مادة (غال) .

(٥) انظر اخبار عبيد وشعره وترجمته في الكامل للمبرد ٢٠٠/١ والحيوان للجاحظ ٤٨٢/٤
١٣٨/٥ ، ٢٤١ ، ١٢٨/٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ : ٣٩٥ والبيان والتبيين للجاحظ
٦٢/٤ .

٤ - عبيد الله بن الحر الجعفي

كان عبيد الله من الشخصيات اللامعة في المجتمع ، بل في الدولة حينذاك ، وله تاريخ بارز ، منه أنه شهد القادسية وأبلى فيها ، وقد أحس في نفسه قوة ومنعة ، فاستعصم بقوته ومنعته وأبى أن يسلم قياده لأحد حتى الأمراء والخلفاء ، وأصبح من أوصافه أنه لا يعطى للأمراء طاعة ، وقد جمع حوله صفوة من ذوى القوة والفروسية ، يقدرون في بعض الأخبار بخمسين فارساً ، لم يكونوا من قومه . أو من جماعة معينة ، ومعنى ذلك أنهم من المتمردين في أى صورة من صور التمرد كقطاع الطرق واللصوص ومن على شاكلتهم ، وأخذ يعيث بهم في البلاد ، ويغير على القرى والقوافل ، وبلغ من قوته أن حاول جميع أطراف الحصومات في زمنه أن يستميلوه اليهم ، ومنهم معاوية بن أبى سفيان ، وعلى بن أبى طالب ، والحسين بن على ، وأمراء الأمصار ، ولكنه أبى ، وظل معتصماً بقوته ، راسماً حياته وسلوكه ، كما يريد هو ، لا كما يريد له الخلفاء والأمراء ، وبلغ من شهرة قوته وأخباره أن التبس أمره على بعض المتأخرين من العلماء كابن الأثير ، فعده من القواد (١) مع أن السكري ترجم له في كتاب اللصوص ونقل عنه ذلك البغدادي في الخزانة (٢) والجاحظ في رسائله يذكر بعض رفاقه في قطع الطريق ، كما يقول في مفاخر السودان والزنج والحبش قالوا : « ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر ، لم يكن في الأرض أشد منه ، كان يقطع على القافلة وحده ، بما فيها من الحماة والحفراء » (٣) ، وزاد الجاحظ فذكره (بعد أن تحدث عن فروسيته) في سياق الحمقى حيث قال « ومن النوكى عبيد الله بن الحر وكنيته أبو الأشوس » (٤) ، ويبدو أن عبيد الله كان من الذين مستهم عقدة الشعور برق الأمهات ، كما كان السليكم وأضرابه من أبناء الاماء والأسيرات ، فأراد بالتمادى في مظهر القوة أن يعوض شعوره بهذا النقص الاجتماعى وبصعكلته وتمرده الانتقام من المجتمع لوضعه هذه الفواصل غير المنطقية بينه وبين أبناء الحرائر ، وعبيد الله نفسه يحدثنا بذلك فيقول :

أن تك أمى من نساء أصابها سباء القنا والمهفات الصفايح
فتبا للفصل الحر أن لم أتل به كرائم أبناء النساء الصرائح (٥)

ومات عبيد الله بن الحر طريد الأمراء ، وبروون في موته قصة تدل على

(١) ابن الأثير حوادث سنة ٦٨ ونقل عنه ذلك مؤيداً له عبد السلام هارون هاشم الحيوان للجاحظ ١٣٤/١ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ١٩/٢ ، ٢٢ .

(٣) رسائل الجاحظ ١٩٣/١ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢١/١ .

(٥) الأمالى للنقلى ٣٢٠/٣ .

مبلغ خطورته ، حيث وجه اليه امير الكوفة ستمائة فارس بينما لم يكن معه من أصحابه حينئذ الا عشرة ، ومع ذلك قاتلهم ، فلما تساقط أصحابه ، وبلغت منه الجروح ، انحاز الى معبر (١) فوثب اليه رجل نبطي قوى يريد أن يقبض عليه ، فلما يئس عبيد الله ، قبض على النبطي ، وألقى بنفسه وبالنبطي في النهر فماتا معا ، فرأى الناس شيئا يتوجع ، وكان أب النبطي ، قائلا : كان ابني يقتل الأسد ، وكان يخرج هذا المعبر من الماء فيقره ثم يعيده وحده ، حتى ابتلى بهذا الشيطان - يعنى عبيد الله بن الحر الذي أغرقه معه - وجعلوا يسكتونه وهو يردد : ما كان ليغرق ابني الا شيطان (٢) ، وكان عبيد الله من الشعراء المجيدين ، وله مدائح في الحسين بن علي .

٥ - الأحير السعدي

من لصوص بني سعد ، وأجمعت الروايات على أنه من الخلاء ، حيث خلعه قومه بعد جنائياته ، وطارده السلطان ، فهم على وجهه ، في مجاهل الصحراء ومكائنها ، ثم كان يحدث الناس بغرائب وحدته وتشرده ، وما يلقاه خلال ذلك ، وأنه لطول ألف الوحوش له أنست اليه ، فلم تكن تنقر منه ، ومثل هذه الأخبار وإن لم تكن تدعو الى التصديق الا أنها على أى حال تصور حياة صاحبها في تشرده وحيدا وتعرضه للأخطار ، وقد صور الأحير حياته هذه في شعره ، وهو صاحب البيت المشهور :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكنت اظير

كما صور في شعره صعلكته وتهديده لامن التجار وقوافلهم بمثل قوله :

تعيرني الاعلام والبلد معرض وسيقى بأموال التجار زعيم

وقد عده صاحب العقد الفريد من الفرسان القلائل في العرب ، وإن صح ذلك يحمل على حياته قبل خلعه وتشرده .

والأحير تاب ، وتحدث عن توبته في شعره ، ولكن حديثه يوحى بتأصل نزعة التصعلك في نفسه ، ولذلك نراه مترددا بين الرجوع الى الله ، والحنين الى أموال التجار ، ونصيحة الصعاليك بالتوبة فمن ذلك قوله :

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مروا من الحزن
قل للصوص بنى اللخاء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمى
فرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن

(١) ما يسمى بالعامية « الكوبرى » فوق النهر .

(٢) خزانة البغدادى ٢٢٧٢ وهامش الحيوان للجاحظ ١٣٤/١ .

وقد تحدث في شعره عن عدة أغراض أهمها ما يتعلق بحياة خلقه
وصقلته (١) وهو القائل :

واني لأستحيى لنفسى أن أرى امرء جعل ليس فيه بحر

٦ - يزيد بن العنقل العقيل

أما يزيد العقيل فقد كان كما يبدو من حديثه صادق التوبة عن المصطلكة،
مطمئن النفس في رجوعه عنها ، فقد كان يسرق الإبل ثم تاب ، ويبدو من
شعره ما كان له من رهبة وخطورة عند أصحاب المخاض من الإبل ، ولذلك
يطمئنهم يزيد بتوبته حين يقول :

الا قل لأرباب المخاض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
ويبدو صدق توبته في مثل قوله :

وان امرءا ينجو من النار بعلمها تزود من أعمالها لسعيد
ولكن ما بلغنا من أخباره وشعره قليل (٢)

٧ - أبو النشاش النهملي

غلبت هذه الكنية عليه حتى طمست اسمه فلم تتحدث به الروايات ،
وكان من لصوص بني تميم ، واسع النشاط في لصوصيته حتى أنهم يصفونه
بأنه كان يقطع طريق القوافل بين الحجاز والشام ، وكان يجمع حوله رفقة
من الشذاذ والصعاليك ، وأبو النشاش يجيد تصوير تفسيرة الصعاليك
وحياتهم ومن ذلك قوله :

وداوية يهملها يغطي بها الردى سرت بأبي النشاش فيها دكايبه
ليلدك ثارا أو ليلدك مقنما جزىلا ، وهلا الدهر جم عجائبه

ويصور شعاع الصعاليك وآمالهم في مثل قوله :

فللموت خير للفتى من قصوده فقيرا ومن مولى تلب عقاربته

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره في الأمل للقال ٤٨/١ ، ٤٩ ، والعقد الفريد ٣٤/١
(باب غرسان العرب) و ٢٩٠/٣ والحياة العربية من الشعر الجاهل للدكتور الحوفي والشعر
والشعر لابن قتيبة من ١٨٣ م الخاتمي والحيوان للجاحظ ١٣٣/١ والبيان والتبيين للجاحظ
٣٠٠/٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

(٢) انظر الكامل للمبرد ٦١/١ وأمل للقال ٢٠٢/٢ ، حاشي على شك ()

ولم أر مثل الهم ضاحجه القى
فمت معما أو عنى كريمها فأننى
والتهشل نسبة الى بنى نهشل .

٨ - سعد بن ناشب المازنى

من بنى مازن من تميم ، اتخذ من البصرة موطنها ، وزاول صعلكته وجنباياته ، فهلم بلال بن أبى بردة والى بنى مروان داره وتوعده ، ولكن ذلك لم يشنه عن عزمه الشديد ، واندفاعه بأساليب الصعلكة نحو غاياته ، بل سخر بشعره من هدم داره واستصغر أن يكون هدم الدار صارفا لمن كان فى مثل عزمه وقوته عما يريد .

ويبدو من خلال شعره أنه كان يتمتع بإرادة قوية وعزم عنيد ، ويعتبر شعر سعد من خير ما يمثل شخصية الصعلوك الواصل من عزمه ، المتكمن من قوة إرادته ، وله أبيات كثيرة شائعة التردد مشهورة ، تصور قمة العزم العنيد كقوله :

إذا هم لم تردع عزيمة همه
فبالرزام رشحوا بى مقما
إذا هم القى بين عينيه عزمه
ولم يستشر فى رايه غير نفسه
ولم يات ما يأتى من الأمر هائبا
الى الموت خواضا اليه الكتاببا
ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يرض الا قائم السيف صاحبا

ولسيطرة هذه المعانى على نفسه نراها تتردد كثيرا فى شعره ، فمن ذلك قوله :

وفى اللين ضعف والشراسة هيبة
وما بى على من لأن لى من فظاظمة
أقيم صفا ذى الميل حتى أوده
إذا هم القى بين عينيه عزمه
ومن لم يهب يحمل على مركب وعر
ولكننى فظ أبى على القسر
وأخطمه حتى يعود الى القلور
وصمم تصميم السريجي ذى الأثر

ولم يخل شعره من الحديث عن خلقه ، فهو يقول أنه كريم فى فقره وغناه ، أن أعسر وافقر فهو خير كريم ، وأن غنى وأيسر فيساره شركة بينه وبين الناس .

ان تعذلىنى تعذل بى مرؤءا
كريم ثنا الأعصار مشترك اليسر

(١) انظر ترجمته وشعره فى الاصمعيات ١٢٤ والخزانة للبيهادى ٢٦٢/١ وديوان الحماسة لأبى تمام ١١٥/١ وشرح الاصمعيات (هامش ص ١٢٤) وشرح التبريزى لعمامة أبى تمام (هامش ١١٥/١) والقاموس المحيط مادة (نش) .

ويصفونه بأنه من الفتاك ، وأنه من مرده العرب ، وقد ورث الصعلكة عن أبيه كما يصفه ابن قتيبة بقوله « وكان أبوه ناشب أعور ، وكان من شياطين العرب » (١) وهو مازنى من عشيرة مالك بن الرب .

٩ - توبة بن الحمير

أبوه الحمير بن حزم من بنى عقيل ، وكان توبة من اللصوص البارزين ، ولكن شهرته بعشق ليلي بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية غلبت عليه ، حتى أصبح هذا العشق قرين اسمه ، وكاد يطفى على صفته الأصلية وهى اللصوصية وزاد من هذه الشهرة أن ليلي كانت شاعرة ، بل لم يقدم عليها من شاعرات العرب سوى الحنساء ، وقد رثته ليلي بأشعار كثيرة ، وليلى هى التى يقول توبة فى حبها :

ولو أن ليل الأخيلى سلمت على ودونى جنبد وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدق من جانب القبر صائح

وقد وفدت ليل على عبد الملك بن مروان وهى كبيرة ، فقال لها : ما رأى توبة فيك حين عشقك ؟ قالت : ما رأى الناس فيك حين جعلوك خليفة ، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها .

وكان توبة واسع المجال فى صعلكته ، ويبدو من أخباره أنه كان يركز غاراته على همدان وبنى الحارث بن كعب مع أن بينهما وبين موطنه مفاوز ، ومن أخبار لصوصيته تلك الغارة التى أودت بحياته حين أغار على بنى الحارث فلم يتمكن من الغنيمة فأغار فى عودته على بنى عوف فاستاق إبلالهم بعد أن قتل منهم رجلا ، فلاحقوه ومعه أخوه وابن عم له أو مولى له يدعى قابض ، على اختلاف الرواية فقتلوه وأخرجوا أخاه وتحدثت الروايات عن أن توبة - لابعاده فى غاراته - كان يحمل معه الماء . وقد يبدو غريبا بعض الغرابة أن تجتمع فى توبة صفتان غير متآلفتين ، هما عاطفة الحب العميق بما توحى به من رقة وسماحة نفس ، والصعلكة بما توجيه من صفات الجفوة والعنف ، ولكننا حين ننظر الى عوامل الصعلكة ودواعيها فى المجتمع العربى كما أسلفنا نجد أنها لم تكن مجرد نزعة شريرة فى نفس مزاوليها ، بل أحيانا لم تكن من النزعة الشريرة فى شيء ، وإنما كانت مظهرا اجتماعيا تولد من عوامل عديدة متشعبة ، وليلى حبيبة توبة تحدثنا عن هاتين الصفتين فى رثائها أيام فتقول عن توبة :

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى أمال القائل ١٧٠/٢ ، ١٧١ ، والكامل للمبرد ١٢١/١ وديوان الحماصة لأبى تمام ١٤/١ ، ٢٧٠ والعقد الفريد ٢٣٠/١ وشرح التبريزى لحماصة أبى تمام ١٤/١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٦٣ م الغامض .

فتى كان أحیی من فتاة حیبة وأشجع من لیث بخفان خادر
فنعنم الفتى ان كان توبة فاجرا وفوق الفتى ان كان لیس بفاجر (١)

١٠ - عبد الله بن سبرة الحرشى

منسوب الى حرش وهو موضع باليمن ، وكان عبد الله كما يبدو من أخباره من الأشخاص المعروفين فى المجتمع بالقوة والبأس الشديد ، وتصفه الروایات بأنه من فتاك العرب ، ولكن حادثة له مع الروم طغت على أخباره فى الصعلكة والفتك ، ذلك أنه فى فترات المناوشات التى كانت تحدث بین المسلمين والروم على الحدود مما يشبه ما يسمى اليوم بحرب العصابات ، استعان أحد الولاة بعبد الله بن سبرة لیغیر فى عصابة على بعض الروم ، وتختلف الروایات فى تفاصيل هذه الغارة ، ولكنها تتفق على أن عبد الله بن سبرة قاتل فى هذه الغارة بطريقا روميا فقتله عبد الله بعد أن قطع الرومى يد عبد الله أو أصبعیه على اختلاف الروایة ، وقد قال عبد الله فى قطع يده شعرا كثيرا معتزا بأن قطعها اقترن بنصر له كبير (٢) .

١١ - شبيب بن عمرو بن كريب :

أحد لصوص طيء ، وكان يقطع الطريق فى خلافة على بن أبى طالب ، فبعث إليه على أحمر بن شبيب وأخاه فى فوارس ، فهرب شبيب ، واستطاع النجاة منهم ومن على بن أبى طالب وحين اطمأن الى نجاته قال فى ذلك شعرا منه :

ولما رايت ابنى شبيب بسكة طيء والباب دونى (٣)
تجللت العصا وعلمت انى وهين مخيس ان يثقفونى (٤)
ويتابع شعره واصفا على بن أبى طالب بقوله :

ولو انى لبثت لهم قليلا لجرونى الى شيخ بطن (٥)
شديد مجامع الكتفين باق على الحدان مختلف الشئون

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره وأخبار ليل وشعرها معه فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠ م الخانجى وحماسة أبى تمام ١٠٨/٢ والكامل للبرد ٢٧٥/٢ ، ٣٠٧ والأغانى للأسقفانى ٢٨٠/٣ والحيوان للجاحظ ٢٩٩/٢ ومجموع البكرى ٨٨٥/٣ ، ١٣٤٠/٤ ، ٤٥٣/٢ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١٠٨/٢ والعمدة لابن رشيق ٢٨/٢ .
(٢) انظر ترجمته وشعره وأخباره فى التنبيه على أوام القائل للبكرى ص ٣٢ ، ٣٣ ، وأمال القائل ٤٧/١ وديوان الحماسة لأبى تمام ١٨٥/١ ، ١٨٦ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١٨٥/١ ، ١٨٦ .

(٣) السكة السطر من الشعر .

(٤) العصا فرس شبيب مشهورة ، ومخيس بضم الميم وتشديد الياء المكسورة سجن على ابن أبى طالب ويشقونى رواية الجاحظ وفى ديوان الحماسة أن يدركونى .
(٥) بطن أى عظيم البطن ومى سلة الامام على .

وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بلغه هذا الشعر : والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لو ظفرت به لصدقت ظنه ، يعني وضعه في السجن (١) .

١٢ - فرغان بن الأعرف الكري :

تختلف الروايات في ضبط اسم ، فيرويه أبو تمام في حماسته فرعان بالعين ، ويرويه ابن قتيبة بالعين المجبة ، وهو مناسب لما ورد من شعره كما ضبطه ابن قتيبة ، وهو من بني مرة بن عبيد وكان شاعرا لصا ، وكان يثير على الأبل ، ويروي ابن قتيبة أن فرغان أخذ جملا لرجل فجاء الرجل فأخذ بشعر فرغان وجذبه فبرك ، فقال الناس : كبرت والله يا فرغان ، قال كلا ، ولكنه جذبني جذبة محق . وقد اعتمد فرغان في فخره على قوته ببنيه كما يقول :

يقول رجال ان فرغان طاجر ولا الله اعطاني بني وماليا
ثمانية مثل الصقور وأدبعا مراضيع قد وفين شعنا ثمانية

ويشاء له حظه السيء أن يرى بنيه هؤلاء الذين يفخر بأن فجوره قائم على قوتهم وقد أذاقوه الهوان ، وهذا ابنه منازل أحد الثمانية الصقور كما يقول فرغان يعق أباه ويؤذيه ويضربه كما يقول فرغان نفسه :

جزت رحم بيني وبين منازل جزاء كما يستنزل الدين طالبه

ثم يقول في ذلك واصفا شيخوخته وضعف بصره وصفا مؤثرا :

فلما دأني ابصر الشخص اشخصا قريبا وذا الشخص البعيد القلوبه
تفهد حتى ظلالا ولو يدي يدي لوي يده الله الذي هو غالبه

ثم يقول أيضا :

أ ان رعشت كفا أبيك واصبحت يداك يدي ليث فانك ضاربه ؟

وتوارث أباؤه هذا العقوق ، فيروي التبريزي أن ابنه منازل هذا كان له ابن يدعى خليج فعق خليج أباه فنزلا فقدمه الى ابراهيم بن عربي مستعديا عليه قائلا :

تظلمني حقسي خليج وعقني على حين كانت كالحني عظامي

في أبيات أخرى ، فأراد ابراهيم بن عربي ضربه ، فقال خليج أصلح الله الأمير ، لا تعجل ، أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا منازل بن فرغان الذي

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره في حماسة أبي تمام ٢٥٢/١ والبيان والتبيين للجاحظ ٨٥/٣ وشرح التبريزي للحماسة ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ .

عن أبيه ، وفيه يقول « جزت رحم بيتي وبين منازل » الايات . فقال : ابراهيم :
يا هذا ، عقلت فعمقت ، فما أعلم لك مثلاً الا قول خالد لأبي ذؤيب .

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فلولا راضي سيرة من يسرها (١)

١٣ - جحدر بن معاوية العكلى :

غلب عليه فى معظم الروايات لقب جحدر اللص ، مما يدل على شهرته
باللصوصية ، وخطورته فيها ، ويصفه القالى بقوله « وكان لصاً مبراً » ثم يفسر
المبر بالغالب ، وينسب جحدر نفسه فى شعره الى بنى كعب بن عمرو وقد تردد
اسم جحدر كثيراً فى المناقشات الشعرية المشهورة بين غالب أبى الفرزدق
وسحيم التميمي على أن جحدرا رفيق سحيم ومن أشد أعوانه على غالب ،
واتفقت الروايات على أن جحدرا وقع فى طائلة الحجاج وأودعه الحجاج سجنه ،
ومن بين جدران سجن الحجاج جادت شاعرية جحدر بقصائد غراء ، تعتبر من
أجود الشعر فى موضوعها ، من حيث تصوير الهموم ، والحزن الى الامل والوطن ،
والشعور بالحجر على الحرية ، وقد ساق القالى إحدى هذه القصائد فى واحد
وعشرين بيتاً ، ونحن ندرس هذه القصيدة نرى أن المتنبي فى قصيدته
المشهورة عن الحسى لم يكن مبتدعاً ، وإنما كان متأثراً بقول جحدر :

تأوبنى فبت لها كنيما	هموم ما تفرقتى حوانى
هى العواد لا عواد قومى	أظن عيادتى فى ذا المكان
إذا ما قلت قد أجلىن عنى	تتى ريعانهن على ثانى
وكان مقر منزلهن قلبى	فقد أنفنه والهم أنى

ويقول منها فى الحنين الى الامل والأحبة :

ليس الليل يجمع أم عمرو	وايانا فذاك لنا تدانى
نعم وترى الهلال كما أراه	ويعلوها النهار كما علانى

ويقول عن سجنه :

إذا جاوَزتها سَعَفات حجر	وأودية اليمامة فأنعمانى
وقولا جحدر أمس رهيناً	يحاذر وقع مصقول يمانى

ويقول من قصيدة أخرى عن هذا السجن بالكوفة :

يارب أبفض بيت أنت خالقه بيت بكوفان منه استعجلت سفر (٢)

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٠ وحماسة أبى تمام

١٨٢/٢ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١٨٢/٢ ، ١٣ .

(٢) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى أمالى القالى ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ ، ٥٣/٣ ، ٥٥ والحيوان

للجاحظ ٤٣٥/٥ ومعجم ما استعجم للبكرى ١١٤١/٤ .

١٤ - الجر نفس اللص :

لم تفصح الروايات فيما نعلم عن أكثر من هذا اللقب في ترجمته ، وإن كان ينسب نفسه في شعره إلى بنى ثعل ، وهو ممن وقع في قبضة السلطان من الصعاليك ، وذاق مرارة القيد والسجن ، وفي ذلك يقول :

أبلغ بنى ثعل عنى مغللة فقد أنى لك من نى بانفجاج
لما النهار فى قيسد وسلسلة والليل فى جوف منحوت من الساج (١)

وبعد هذه النبذ السريعة عن هؤلاء الشعراء ، والتي لم نقصد بها الترجمة الكاملة المفصلة لكل شاعر حيث أن ذلك ليس هدفا أساسيا للموضوع ، وإنما قصدنا تمييز شخصية كل شاعر عن الآخر ، وتحديد الخطوط العامة فى حياة كل شاعر وشخصيته حتى نستطيع منها فهم اتجاهه الشعرى ، والحكم على هذا الاتجاه على ضوء ظروفه الشخصية والاجتماعية ، بعد ذلك نقول أن هناك عددا من شعراء الصعاليك لم يرد استشهاد بشعر أحد منهم فى هذا البحث ، ولذلك نكتفى بمجرد ذكر أسمائهم وهم :

- ١ - جعفر بن علبة الحارثي. (٢) ٢ - إبراهيم بن هاني. (٣)
- ٣ - أبو مارد الشيباني (٤) ٤ - حاجز بن الجعد (٥)
- ٥ - قواد بن عباد (٦) ٦ - عروة بن مرة الهذلي (٧)

ومع ذلك لا نستطيع أن نقطع بأن من سبق ذكرهم هم كل شعراء الصعاليك ، ولكن الذى نؤكد أنه ليس هناك مرجع معين لشعراء الصعاليك ، وأن المرجع الوحيد الذى خصص للصعاليك تراجعهم وأخبارهم وأشعارهم فيما نعلم هو كتاب اللصوص للسكرى ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، وإنما نقل عنه بعض العلماء كالبيضاوى (٨) فجمع هؤلاء الشعراء الذين سبق ذكرهم وجمع تراجعهم وأشعارهم وأخبارهم مجرد اجتهاد فى التنقل بين متناثرات المراجع واحتاتها .

-
- (١) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ وفى الهامش أنه ذكر فى الاشتقاق ٢٣٣ لابن دريد .
 - (٢) أنظر خزنة البيضاوى ٤٦/٢ الشاهد ١١٥ وأغانى الأسفهانى ٤٨/١٣ ومواضع أخرى بفهارس الأغانى وهو مخفم .
 - (٣) أنظر الحيوان للجاحظ ١١٠/٣ ورسائل الجاحظ ١١٢/١ .
 - (٤) أنظر شرح القصائد السبع الجاهليات لابن الأثيرى ص ١٢٥ .
 - (٥) أنظر معجم ما استمع للجبرى ١٣٨/٢ .
 - (٦) أنظر حناسة أبى تمام ٣٧٣/١ .
 - (٧) أنظر الحيوان للجاحظ ٣٥١/٤ وديوان الهذليين ١٥٧/٢ فى رثاء أبى خراش أخيه
 - (٨) أغانى الأسفهانى ٦٣/٢١ وقتل عروة شحبة الهى غاراته .
 - (٨) أنظر خزنة الأدب ١٨/٢ - ٢٢ .

وأعود فأكرر القول بأن الروايات في بعض حديثها عنهم لم تكن موضحة ولا محددة كل التحديد ، وخاصة فيما يتعلق بالفواصل الزمنية ، كشعر المخضرمين ، حيث لا نعلم أى شعرهم قالوه في الجاهلية ، وأيه قالوه في الاسلام ، الا ما ارتبط بحادث معروف الزمن ، أو ما دل عليه موضوع الشعر نفسه ومعانيه ، ونواحى أخرى من الغموض والاختلاف والتجاهل لبعض النواحى المهمة في الحديث عنهم ، ونعتقد أن هذا هو ما يدفع الباحثين فى الشعراء الصعاليك الى الاتجاه الى التعميم ، وتحاشى التخصص والحصر ، ايثارا لتجنب الخطأ أو القصور ، ولكننا نؤثر القول بأن المجتهد اذا أصاب فله أجران ، واذا أخطأ لم يحرم من أجر ، وقبل أن أفرغ من هذا الحديث أضيف أن الستة الآخرين الذين لم أترجم لهم ، بالاضافة الى عدم الاستشهاد بشعرهم فانتى لم أصل الى تراجم وافية لهم فيما استطعت الوصول اليه فى فترة البحث غير أنهم شعراء صعاليك مع اضافات غير كافية الا جعفر بن علبة الذى ذكر البغدادى له ترجمة وشعرا فى باب ان المشددة بالاضافة الى المواضع المشار اليها بالهامش .

الباب الثالث

شعر الصعاليك

لم يكن من قبيل المصادفة أن يتجنب الباحثون موضوع الصعاليك ، فلا يجعلونه هدفا لبحوثهم ودراساتهم ، فالواقع أن جانب الصعاليك وأشعارهم يكاد يكون أشد موضوعات الأدب العربي صعوبة واستعصاء على اليسر في البحث والدراسة ، من حيث أنه الموضوع الوحيد تقريبا الذي لم تصل إلينا عنه دراسة أو بحث متكامل ، مع أن الصعاليك سواء في الجاهلية والإسلام يمثلون طائفة بارزة مميزة في المجتمع العربي ، سواء أكان بروزها وتميزها موضع رضى أم سخط وكلا الحالين كان المفروض أن يدعو إلى الدراسة والاهتمام ، فإن التميز من شأنه لذاته أن يحظى بالاهتمام والتتبع والرغبة في الاستطلاع ، فكنا نتوقع أن نجد من الدراسة المستقلة ولو القدر الذي يعين الباحثين .

ولكن الواقع أننا حين نرجع إلى الأقدمين في بحوثهم ، نجد أنه لم يكن بدراسة مستقلة عن الصعاليك إلا أبو سعيد السكري في كتابه اللصوص ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، وإنما نقل عنه بعض العلماء مقتطفات مبتورة ، كما نقل البغدادى عنه بعض حديثه عن عبيد الله بن الحر (١) وقد تتبع بعض الباحثين مصادر شعر الصعاليك (٢) ولكن نتيجة واحدة ينتهي إليها كل باحث في مصادر شعرهم ، وهي أنه بعد فقد كتاب اللصوص للسكري لم يعد هناك مصدر جامع لشعرهم ، وعلى كل باحث إذا أراد أو حاول الاستقصاء - مع تعذر إمكانه - لشعرهم أن ينتقل بين كل ما كتبه القدامى ، سواء من كتب منهم عن اللغة ، أو الأدب ، أو التاريخ ، أو المعاجم ، أو التراجم .

(١) خزنة الأدب ١٩/٢ ، ٢٢

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لكادول بروكلمان عن الشنفرى وتايبط شرا وعروة بن الودد

وانظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ١٥١ - ١٦٧ .

وتفاديا للاطالة في تتبع مصادر شعر الصعاليك ، والتي تعلم مقدما أنها
مستنتهى الى النتيجة السابقة ، فلم في حديث موجز عن هذه المصادر فنقول :

بعد فقد كتاب اللصوص للسكري لم يعد في المراجع القديمة حديث مستقل عن
الصعاليك ولا عن شعرهم ، وانما سبقت تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم متفرقة
لا قصدا الى موضوعها لذاته وانما في سياق موضوع الحديث أو الكتاب ، أعني
ضمن الموضوع الذي يتعرض له المؤلف فمثلا معاجم اللغة كالصاحح للجوهري
والقاموس المحيط للفيروزابادي ولسان العرب لابن منظور هدفها شرح الألفاظ
وبيان معانيها في استعمالاتها المختلفة ، وفي هذا السياق قد يورد بعض
ما يتعلق بأحد الصعاليك ، فمثلا في مادة غرب يتحدث عن أغربه العرب هم فلان
وفلان والسليك بن السلكة ، وفي مادة نجم والنحام فرس السليك بن السلكة ،
وفي مادة صعلك ، وعروة الصعاليك ، هو عروة بن الورد كان يجمع الفقراء في
حظيرة فيرزقهم مما عنده ، وفي مادة ذاب ، وذوبان العرب لصوصهم ، وذئبة
فرس حاجز بن عوف وهكذا ، وقد حفلت هذه المعاجم بمجموعة لا بأس بها من
شعر الصعاليك نظرا لان شعرهم يحتوى على كثير من أسماء الأماكن ، ومن
الألفاظ القريبة التي تحتاج الى شرح .

وفي كتب القواعد اللغوية ، كخزانة الأدب للبغدادى ، تحتاج هذه القواعد
الى شواهد عليها ، وفي سياق الشاهد تذكر القصيدة التي أخذ منها هذا
الشاهد ، ومن باب الاستطراد الذي يكاد يكون ملتزما ، يساق الشعر الذي
تربط بينه وبين شعر الشاهد أى رابطة ، كتشابه المعنى أو اتفاق الغاية أو
الحادثة التي قيل فيها هذا الشعر أو نحو ذلك ، وفي خلال ذلك نجد مجموعة
لا بأس بها من الأحاديث عن عدد كبير من الصعاليك وشعرهم .

وفي كتب الأخبار الادبية كامالى القالى وكامل المبرد ، لا نجد لهذه الكتب
موضوعا معينا ، وانما هي روايات أدبية مقصودة لذاتها ، ورغم تبويب هذه
الكتب ، الا أننا نجد أن موضوعات كل باب لا تنطبق عليه كلها ، وانما يبدأ
الباب برواية أو روايات تناسب عنوانه ، ثم يستطرد في موضوعات شتى قد
لا يربطها بعنوان الباب سبب ، فمثلا في الكامل باب ذكر الأذواء من اليمن في
الاسلام ، يبدؤه بالأذواء ثم يستطرد الى أحاديث عن بعض الأمويين والعباسيين
وولاء مصر ، الى أشعار مختارة ، وآيات من القرآن قد يغلط في مجازها النحويون
وهكذا مما لارابطة بينه وبين عنوان الباب الا مجرد الاستطراد (١) وقد كان من
فضل هذا الاستطراد أن حفلت هذه الكتب بمجموعات كثيرة من أشعار
الصعاليك .

وفي كتب الامثال كمجمع الامثال للميداني ، نجد طائفة من أخبار

(١) انظر الكامل للمبرد ٣١٣/٢ - ٣٢٨ .

الصعاليك وأشعارهم حيث أن بعض الأمثال قيلت في حوادث لبعض الصعاليك مثل « العاشية تهيج الآبية » في قصة سطو السليك على بيت رويم الشيباني وما قاله السليك فيها من شعر ، وبعض الأمثال يتحدث عن الصعاليك ولو بالمعنى العام مثل « كل صعلوك جواد » .

ومن أهم الكتب في الحديث عن الصعاليك وشعرهم وإن لم يكن أدقها كتاب الأغاني للإصفهاني وقد سيطر على الإصفهاني فيه هدفان ، أحدهما ما جعله هو هدفا في حديثه بمقدمته وعنوانه للكتاب ، وهو أصوات الغناء ، وما يتغنى به من الشعر ، والآخر ولعه بطرائف الأخبار وغريبها ، وقد سلك إلى هذين الهدفين أسلوب الاستطراد الذي غلب على معظم كتب الأخبار القديمة وبذلك كله ساق كثيرا من الأخبار والتراجم والشعر عن كثير من الصعاليك لأن في طرافة تراجمهم وأخبارهم ما يغري مثله بالأفاضة في الحديث عن يتعرض لحديثه منهم ، فضلا عن أن بعضهم له أشعار يتغنى بها ، ومع أن الإصفهاني ليس موضع الثقة الكاملة في رواياته وأحاديثه (١) إلا أن له من علمه الواسع ، وذاكرته الجبارة في تأليفه ، ما لا يجعل لباحث أدبي غنى عنه .

ومن أهم آثار السكري بالنسبة لشعر الصعاليك ، مجموعتنا « أشعار الهذليين » و « ديوان الهذليين » حيث احتويا على مجموعة كبيرة من شعر صعاليك هذيل كأبي خراش والأعلم وصخر الغي وما تبودل بين الهذليين وعدوهم تأبط شرا من شعر ، ومن المصادر الهامة أيضا في شعر الصعاليك ، كتب المختارات من الشعر ، كحماسة أبي تمام وحماسة البحتري ، حيث جمعا فيهما شعرا كثيرا من بينه قصائد ومقطوعات عديدة لكثير من شعراء الصعاليك ، ومن خير هذه الكتب دقة واستيفاء للقصائد المفضليات للضبي والأصمعيات للأصمعي وفي كتب التراجم كالشعر والشعراء لابن قتيبة ومعجم الشعراء للمرزباني نجد تراجم لعدد لا بأس به من شعراء الصعاليك ، إلا أن تراجمهم غير وافية ، وكذلك شعر من ترجموا لهم حيث نجد معظمه مقتطفات من القصائد غير مقصودة لذاتها في أغلب الأحيان ، وإنما لارتباطها بالترجمة أو الأحداث .

وفي معجمات الأماكن والبلدان كمعجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت نجد مجموعة كبيرة من شعر الصعاليك ، لأن هدف هذه الكتب شرح أسماء الأماكن وبيان موضعها ، وشعر الصعاليك حافل بالحديث عن الأماكن نظرا لكثرة تنقلهم في أماكن كثيرة تقتضيها حياة الصعلكة وأعمالها ، وأماكن نائية أو موعلة ليس من اليسير على غيرهم أن يرتادها ، حتى أن بعض هذه الأماكن لم يرد إلا في شعر الصعاليك مثل نبال التي قال القالي : لم أر نبال إلا في شعر السليك (٢) ويعتبر معجم البكري من أكثر الكتب ترديدا لشعر الصعاليك ،

(١) انظر آراء كثير من قدامى العلماء في تجريده بترجمة المؤلف في صدر كتاب الأغاني .

(٢) انظر معجم البكري ١٣٣٩/٤ .

فإن به مجموعة كبيرة من شعرهم ، بل انفراد يذكر شعر لم يرد في مصادر أخرى فيما أعلم كبعض ما أورده من شعر جندب بن معاوية (١) وتوبة بن الحمير (٢) إلا أن ما ساقه من شعر يعتبر في جملته أبياتاً مفردة ، وقل أن يسوق بيتين أو ثلاثة مجتمعة ، ومع ذلك فإن ما أورده من شعر له دلالة على جانب كبير من الأهمية ، فإن بعض ما أورده من أبيات مفردة أو مثناة ، انفراد بذكره عن المصادر الأخرى كما مثلنا آنفاً ، ومعنى ذلك أن هذه الأبيات بترت من قصائد كانت معروفة أو مدونة حتى زمن البكري ، ثم عبت بها الزمان فضاغت ولم تصل إلينا ، وينطبق هذا على كثير جداً من الأبيات التي ساقها البكري في المعجم ، فافقنا حين نأخذ هذه الأبيات الكثيرة لنحاول العثور على القصائد التي انترعت منها هذه الأبيات ، لا نعثر على قصائدها ، وفي هذا جانب مهم من الحجة للذين يرون أن كثيراً من الشعر القديم أو أغلبه لم يصل إلينا ، وفيه أيضاً جانب من الحجة على الذين يرون أن النثر هو الذي ضاع معظمه ، وأن الشعر لم يذهب إلا أقله (٣) .

ثم بقية للراجع القديمة منها اختلفت موضوعاتها ، ولا اعتقد أن هناك شيئاً من المبالغة أو تجاوز الحقيقة في القول بأنها جميعاً وبدون استثناء تكاد لا تخلو من حديث أو شعر لبعض الصعاليك ، قل ذلك أو أكثر ، على ما في الوصول إلى هذه الأحاديث من صعوبة بالغة ، لا لتناثرها فحسب ، بل لأنه لا يجمعها موضوع معين ، ولا تندرج في حديث بعينه ، وإنما تأتي عرضاً في سياق حديث قد يكون بعيداً عن كل ما يتعلق بالصعاليك ، وقد يضطر الباحث إلى استعراض كتاب كامل ليخرج منه بيضة أبيات ، أو يضع فقرات عن الصعاليك ، ومن نحو هذا تتبين قيمة الجهد المشكور لهؤلاء نفر الذين عكفوا (٤) على دراسة بعض الكتب القديمة كالإعاني وبعض كتب الجاحظ وبعض معاجم الأماكن وكتب أخرى لحصر ما ورد فيها من أسماء الاعلام والأماكن والطوائف والمعاني ثم بتبويبها في فهراس مجمعة تعين الباحثين أي عون ، وتسخر لهم كثيراً من الوقت والجهد .

وأما عن دواوين الصعاليك ، فلم يصل إلينا منها إلا ديوانان ، أحدهما ديوان عروة بن الورد وأهم من جمعه ابن السكيت ، وله شرح عليه ، أورد فيه ترجمة عروة وأخباره والحوادث التي ارتبطت بها بعض شعره ، وهو مطبوع بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة دواوين في مجلد واحد ، والآخر ديوان الشنفرى وقد طبع طبعة غير وافية لعدم استيعابها كل ما في النسخة الخطية . الموجودة بدار الكتب المصرية (٥) .

(١) معجم البكري ١١٤١/٤ بيت واحد .

(٢) المصدر السابق ٨٨٥/٣ بيت واحد .

(٣) انظر العسلة لابن رشيقي ٢٠/١ .

(٤) مثل جهود الأساتذة محمد عبد الجواد الاصمعي وعبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر .

(٥) انظر تنبع مراحل الديوانية في تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ١٠٥/١ وما بعدها .

وقد تتبع صاحب تاريخ الادب العربي أهم المراجع التي ورد فيها أخبار
أو أشعار عن مجموعة من شعراء الصعاليك ، هم تأبط شرا والشنفرى وعروة
ابن الورد (١) .

روايته :

مع أن الرواة والعلماء القدامى بذلوا جهدا بالغا في تحرى الرواية والتزام
الصدق في كل ما يتقلونه ويروونه ، وأخذوا أنفسهم وأخذوا غيرهم أيضا بالتزام
الدقة في النقل والرواية وكان حسابهم على التهاون في ذلك شديدا عسيرا ، حتى
ان صاحب بن عباد يصف أبا الغوث بأنه ابن سوء وأنه جاء من قبله الخذلان لانه
روى عن البحترى قوله .

واحق الايام بالانس ان يؤ ثر فيه يوم المهرجان الكبير

مع أن صحة البيت فيما يعرفه :

واحق الايام بالانس ان تؤ ثر يوم المهرجان الكبير

وحتى ان الاحمر أخذ على المفضل الضبى أنه روى لا مرى القيس .

« نمس بأعراف الجياد أكفنا » مع أن صحته « نمش » بالشين المعجمة
لا السين وأخذ عليه أيضا قوله :

واذا الم خيالها طرقت عيني فمء شجونها سجم

بالقاف مع أن صحته « طرفت » بالفاء ، وأخذ الاصمعي على المفضل أيضا
روايته لبيت أوس « تصمت بالماء تولبا جذعا » بالذال ، مع أن صحته « جدعا »
بدال مكسورة (٢) نقول مع أن العلماء التزموا مثل هذه الدقة ، وعابوا على الناقلين
والرواة مثل هذا الخلاف الذى يعتبر معظمه يسيرا ولا يحدث فى المعنى كبير
تغيير ، الا أننا حين نذهب الى شعر الاقدمين وخاصة شعر الصعاليك نجد فيه
اختلافا غير هين ولا يسير من ناحيتين :

(١) أنظر المصدر السابق .

(٢) أنظر العمدة لابن رشيق ٢/٢٤٩ ، ٢٥٠ .

أولا : الاختلاف في الالفاظ :

قد يكون الاختلاف في الالفاظ في الاخبار والتاريخ شيئا مقبولا مادام أصل المعنى محفوظا ولكن الامر يختلف بالنسبة للادب عامة ، والشعر خاصة ، فان الالفاظ في الشعر مقصودة لذاتها بما تؤديه من جرس وإيحاءات قد لا تستطيع الفاظ أخرى وان رادفتها أن تؤديها وقد يتوارد شعراء كثيرون على معنى واحد ، فيصوغه كل منهم في أسلوبه الخاص ، وقد يتفاوتون في ذلك جودة وضعفا تفاوتا كبيرا مع أن المعنى واحد ، وإلى هذا قصد الجاحظ حين رأى أن المعاني مطروحة في الطريق يلقاها العربي والعجمي ، وإنما يتفاوت الشعراء بحسن السبك وجودة اللفظ .

وشعر الصماليك تعرض لاختلاف في كثير من الفاظه ومن أمثلة ذلك ميمية عمرو بن بركة ، فقد تعرض بعض أبياتها للخلاف في الفاظها فصاحب الأملالي يروى :

وكيف ينام الليل من جل ما له حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض إذا غص الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمين ملازم

بينما يروى البيت الثاني صاحب الاغانى هكذا :

صموت إذا غص الكريهة لم يدع لها طمعا طوع اليمين مكارم
ويروى القالي (١) والبكري (٢) وابن عبد ربه (٣) منها :

إذا الليل أدجى واكفهر ظلامه وصاح من الإفراط يوم جوائم
بينما يرويه صاحب الاغانى هكذا (٤) :

اذ الليل أدجى واسجهرت نجومه وصاح من الإفراط هام جوائم
ويروى القالي منها :

أفا ليوم ادعى للهوادة بعد ما أجبل على الحى المذاكى الصلادم
فان حريما ان رجا ان أردھا ويذهب ما لى يا ابنة القيل حاله
ويروى الاصفهاني :

أفا لأن ادعى للهوادة بعد ما أميل على الحى المذاكى الصلادم
كان حريما اذ رجا ان يضمھا ويذهب ما لى يا بنة القوم حاله

(١) الأملالي ١١٩/٢ .

(٢) معجم ما استنجم ٢٩٣/٢ .

(٣) العقد الفريد ٣٤/١ .

(٤) ويروى في موضع « واسجهرت نجومه » .

ويروى القالي والاصفهاني منها :

وكننت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا يالهمدان ظالم

ويروى ابن عبد ربه في العقد الفريد (١) :

وكننت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا آل همدان ظالم

ويروى القالي :

فلا صلح حتى تقدع الحيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم

ويروى الاصفهاني :

فلا صلح حتى تعثر الحيل بالقنا وتضرب بالبيض الدقاق الجماجم

ويروى القالي :

متى تطلب المال الممنوع بالقنا تعش ما جدا او تخترمك المخارم

ويرويه الاصفهاني :

ومن يطلب المال الممنوع بالقنا يعش ذا غنى او تخترمه المخارم

وفيها اختلاف غير ذلك ، ومن أمثلة ذلك الاختلاف في بعض شعر شبيب عمرو بن كريب ، فيروى أبو تمام منه (٢) :

ولو انى لبثت لهم قليلا لجروني الى شيخ بطين
شديد مجامع الكتفين باق على الحدتان مختلف الشئون

بينما يرويهما الجاحظ هكذا (٣) :

ولو انظرتهم شيئا قليلا لساقوني الى شيخ بطين
شديد مجالز الكتفين صلب على الحدتان مجتمع الشئون

واذا اردنا مثالا واضحا لاختلاف الرواية في الالفاظ ، وفي ترتيب الابيات ، فلنرجع الى مريئة مالك بن الريب ، فقد عنيت مراجع كثيرة بسردها منها أمالي القالي وأغاني الاصفهاني ، وخزانة البغدادي وجمهرة أشعار العرب للقرشي ، وفي كل منها اختلاف عن الآخر سواء في الالفاظ أو في ترتيب الابيات ، ولسنا نرى بأسا بسردها على طولها لتتخذها نموذجا لهذا الاختلاف ، لأهمية أثر هذا الاختلاف من وجهة القيمة الأدبية سواء أكان الاختلاف في الالفاظ أم في

(١) الموضوع السابق من العقد الفريد

(٢) ديوان الحماسة ٢٥٣/١

(٣) البيان والتبيين ٨٥/٣

الترتيب ، وهذه القصيدة قالها مالك حين أحس الموت ، يرثى بها نفسه ويعبر
عن شعوره بالتشرد والغربة ، وهي كما رواها القالي (١) .

- ١ ألا ليت شمري هل أبيتن ليلة
 - ٢ فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
 - ٣ لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى
 - ٤ ألم ترني بعث الضلالة بالهدى
 - ٥ وأصبحت في أرض الأعادي بعدما
 - ٦ دعاني الهوى من أهل أود وصحبتي
 - ٧ أجبت الهوى لما دعاني بزفرة
 - ٨ أقول وقد حالت قرى الكرد بيننا
 - ٩ إن الله يرجعني من الغزو لا أرى
 - ١٠ تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي
 - ١١ لعمري لئن غالت خراسان هامت
 - ١٢ فإن أبع من بابي خراسان لأعد
 - ١٣ فله دري يوم أترك طائعا
 - ١٤ ودر الأطباء السانحات عشية
 - ١٥ ودر كبرى اللذين كلاهما
 - ١٦ ودر الرجال الشاهدين تفتكي
 - ١٧ ودر الهوى من حيث يدعو صحابتي
 - ١٨ تذكرت من يبكي على فلم أجد
- بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
مزار ولكن الغضى ليس دائيا
وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
أراني عن أرض الأعادي قاصيا
بذي الطبيين فالتفت ورائيا
تقنعت منها أن الأم ردائيا
جزى الله عمرا خير ما كان جازيا
وان قل ما لي طالبا ما ورائيا
سفارك هذا تاركي لا اباليا
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
اليها وان منيتموني الامائيا
بني بأعلى الرقمتين وماليا
يخبرن أني هالك من ورائيا
على شفيق ناهج لو نهائيا
بأمرى إلا يقصروا من وثاقييا
ودر لجساجاتي ودر انتهاييا
سوى السيف والرمح الرديني باكيا

(١) الامال للقال ١٣٦/٢ .

- ١٩ واشقر محبوبكا يجر عنائه
 ٢٠ ولكن بأكتاف السمينه نسوة
 ٢١ صريع على أيدي الرجال بقفرة
 ٢٢ ولما تراءت عند مروميتي
 ٢٣ أقول لأصحابي أرفعوني فانه
 ٢٤ فيا صاحبى رحلى دنا الموت فانزلا
 ٢٥ أقيما على اليوم أو بعض ليلة
 ٢٦ وقوما اذا ما استل روحى فهينا
 ٢٧ وخطا بأطراف الاسنة مضجعى
 ٢٨ ولا تحسدانى بارك الله فيكما
 ٢٩ خذانى فجرانى بثوبى اليكما
 ٣٠ وقد كنت عطافا اذا الحيل أدبرت
 ٣١ وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى
 ٣٢ خطورا ترانى فى ظلال ونعمة
 ٣٣ ويوما ترانى فى رجا مستديرة
 ٣٤ وقوما على بشر السمينه أسمعيا
 ٣٥ بانكما خلفتمانى بقفرة
 ٣٦ ولا تنسيا عهدى خليلي بعدما
 ٣٧ ولن يعلم الوالون بثا يصيبهم
 ٣٨ يقولون لا تبعده وهم يدفنونى
 ٣٩ غداة غد يا لهف نفسى على غد
 ٤٠ وأصبح مالى من طريف وتالد
 ٤١ فيا ليت شعرى هل تغيرت الرجا
 ٤٢ اذا الحى حلوها جميعا وانزلوا
 ٤٣ رعين وقد كاد الظلام يجنها
- الى الماء لم يترك له الموت ساقيا
 عزيز عليهن العشية ما يسا
 يسوون لحدى حيث حم قضائيا
 وخل بها جسمى وحانت وفائيا
 يقر بعينى أن سهيل بداليا
 براية انى مقيم لياليا
 ولا تعجلانى قد تبين شائيا
 لى السدر والاكتاف عند فنائيا
 وردا على عيني فضل ردائيا
 من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
 فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
 سريما لدى الهيجا الى من دعائيا
 وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
 وطورا ترانى والعناق ركائبيا
 تخرق أطراف الرماح ثيابيا
 بها الفر والبيض الحسان الروائيا
 تهيل على الريح فيها السوافيا
 تقطع أوصالى وتبلى عظاميا
 ولن يعلم الميراث منى المواليا
 واين مكان البعد الا مكانيا
 اذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويا
 لغيرى وكان المال بالأمس ماليا
 رجا المثل أو أمست بفلج كما هيا
 بها بقرا حم العيون سواجيا
 يسفن الحزامى مرة والا قاحيا

- ٤٤ وهل أترك العيس العوالي بالضحى
٤٥ إذا عصب الركبان بين عنيزة
٤٦ فيا ليت شعري هل بكت أمهالك
٤٧ إذا مت فاعتادى القبور وسلمى
٤٨ على جدت قد جرت الريح فوقه
٤٩ رهينة أحجار وترب تفضمت
٥٠ فيا صاحباً أما عرضت فبلغن
٥١ وعز قلوبى فى الركاب فانها
٥٢ وأجبرت نار المازنيات موهنا
٥٣ يعود النجوج (١) أضواء وقودها
٥٤ غريب بعيد الدار ثار بقفرة
٥٥ أقلب طرفى حول رحلى فلا أرى
٥٦ - وبالرمل منا نسوة لو شهدتنى
٥٧ وما كان عهد الرمل عندى وأهله
٥٨ فمنهن أمى وابنتاى وخالتى
- بركباتها تعلقو المتان الفيافيا
وبولان عاجوا المبقيات النواجيا
كما كنت لو عالوا نعيك باكييا
على الرمس أسقيت السحاب الفواديا
ترايا كسحق الرنباى هايبيا
قرارتها منى العظام البواليا
بنى مازن والريب ألا تلاقيا
ستفلق أكبادا وتبكي بواكييا
بعلياء يثنى دونها الطرف رائيا
مها فى ظلال السدر حورا جوازيا
يد الدهر معروفا بأن لا تدانيا
به من عيون المؤنسات مراعييا
بكين وفدين الطيب المداويا
ذميما ولا ودعت بالرمل قاليا
وباكية أخرى تهيج البواكييا

وهى فى رواية الأمالى كما نرى ثمانية وخمسون بيتا ، وكذلك أوردها
البغدادي فى خزائنه (٢) من حيث العدد وكذلك أيضا أوردها صاحب
الأغانى (٣) بينما جعلها القرشى فى جمهرته (٤) اثنين وخمسين بيتا فقط ،
وأما من ناحية الاختلاف فأقرب الروايات الى بعضها روايتا الأمالى والأغانى ،
ومع ذلك فبينهما اختلاف فى الألفاظ فى تسعة أبيات ، وإذا تجاوزنا عن أن
الأصفهاني صدر القصيدة بالبيتين الرابع والعشرين والسابع والعشرين فذكرهما
أولا ساردا القصيدة بعدها ثم كررها فى موضعها من القصيدة مرة أخرى ،
ويمكن حمل ذلك على أنه فكر أولا فى الاكتفاء بهما كنموذج من القصيدة ثم رأى
أن يوردها كاملة ، وكل ما يؤخذ عليه أنه كان ينبغي أن يفصل بينهما وبين

(١) النجوج والنجوج عود الطيب يتبخر به .
(٢) الخزائنه ٤٧/٢ .
(٣) الأغانى ٤٨/١٣ ومواضع أخرى بالفهرس .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٤٣ .

القصيدية ، حتى لا يوحي ذلك بأنها مطلع القصيدة خاصة وأن القصيدة لم تلتزم التصريح في مطلعها ، مما يجعل أى بيت من هذه الوجهة يصلح مطالعاً لها ، إذا تجاوزنا ذلك نقول أن الأبيات التسعة التى اختلف فيها مع القائل تفاوت فيها الاختلاف قوة وضعفاً ، فبعضها فى مجرد حرف كالبیت الرابع والعشرين الذى ساقه الأصفهاني فى أول القصيدة ثم كرره فى موضعه منها فرواية الأملی « فیا صاحبی » ورواية الأصفهاني « أيا صاحبی » وبعضها فى الكلمات وهيئتها كالبیت التاسع عشر ، فى الأملی « واشقر محبوبكأ يجرعناته وفى الأغاني « واشقر محبوبك يجرع لجامه » والبیت التاسع والعشرين ، فى الأملی « خذاني فجراني بثوبی » وفى الأغاني « ببردى » والأملی « فقد كنت » والأغاني « فقد كان » وفى البیت الثلاثين فى الأملی « وقد كنت ٠٠٠ سريعا لدى الهيجاء » وفى الأغاني « الى الهيجاء » وفى البیت الثالث والأربعين فى الأملی « كاد الظلام » وفى الأغاني « كان الظلام » وفى البیت الخمسين فى الأملی « فیا صاحباً » وفى الأغاني « فیا صاحبی » وفى البیت الذى بعده فى الأملی « وعمر قلوصى » وفى الأغاني « وعطل قلوصى » وفى البیت الذى بعدهما فى الأملی « موهنا » وفى الأغاني « أنها » وفى الأملی « رانيا » وفى الأغاني « رانيا » وفى البیت الاخير فى الأملی « فمنهن أوى وابنتاى وخالتى » وفى الأغاني « أوى وابنتاهما » وسياق القصيدة يرجع رواية الأملی حيث يتحدث فيها عن بعض بناته فى البیت العاشر .

وأما فى رواية البغدادي فاختلاف أكثر ، حيث نجده فى خمسة عشر بيتاً هى الأبيات الخامس والثامن والثاني عشر والسابع عشر والتاسع عشر وفي التاسع والعشرين والثلاثين والثاني والأربعين والثالث والأربعين ، والسادس والأربعين ، والخمسين والذى بعده والثالث والخمسين والذى بعده والآخر ، وفى بعضها وافق الأملی وفى البعض الآخر وافق الأغاني ، وزاد البغدادي أن فى اختلافاته يتغير تركيب الكلمات ، ففي البیت الرابع والخمسين فى الأملی « غريب بعيد الدار » أما فى الخزانة فهى « بعيد غريب الدار » .

عل أننا نلاحظ أن هذه الخلافات فى جملتها لا تغير المعنى ، وكل حديثنا عنها من ناحية أهمية الألفاظ نفسها وترتيبها كما نطق بها الشاعر ، فإن الأديب أو الشاعر المطبوع ينفث فى كلماته وفى ترتيبها من الجرس ، والأحاسيس الخاصة ما لا نجده فى اللفاظ أخرى وأن رادفت اللفاظ ، بل ولا فى اللفاظ نفسها إذا أخرجت من موضعها أو تغير ترتيبها ، ويكون مثل ألفاظ الأديب أو الشاعر حينئذ ومرادفاتهما من الألفاظ الأخرى مثل سلكن من نوع وحجم واحد يسرى فى أحدهما تيار كهربى دون الآخر ، فهما فى مرأى العين لا يختلفان فى شئ ، ولكنهما عند اللمس والتذوق يختلفان اختلافاً شديداً .

وإذا كان الاختلاف في المصادر السابقة - على أهميته - في الالفاظ فقط ، بحيث لا يتغير بها المعنى تقيرا كبيرا ، فإن صاحب جمهرة أشعار العرب (١) كان اختلافه أبعد من ذلك ، فمن حيث العدد جعلها اثنين وخمسين بيتا فقط وخالف في الترتيب بين بعض أبياتها ، وزاد فيها بما لم يرد في الروايات الأخرى كقوله بعد البيت الثلاثين « وقد كنت محمودا لدى الزاد ٠٠٠ الخ ، وغير الالفاظ لم يرد خلاف فيها فيما سبق كقوله في البيت قبل الأخير (٢) « فمنهن أم » مع أن الروايات الأخرى تتفق على أنها « أمي » .

هذا عن المراجع التي ساقته القصيدة كلها ، ونحن نذهب إلى المراجع التي استشهدت منها بأبيات مفردة ، أو اقتطعت منها نماذج ، نجد فيها أيضا اختلافًا فيه بعض ما سبق وفيه اختلاف عن كل ما سبق فابن قتيبة يورد منها ثمانية أبيات (٣) فيها بعض ما سبق من اختلاف وفيها مخالفة في بعض الالفاظ لكل ما سبق كقوله في البيت الرابع والعشرين « فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا » مع أنه في الروايات السابقة « فافزلا » .

والأصفهاني في موضع غير الموضع الذي ساق فيه القصيدة (٤) يذكر بيتا منها منسوبًا لجعفر بن عتبة الحارثي ضمن قصيدته ويقول إن هذا البيت بعينه يروي مالك بن الريب في قصيدته المشهورة التي يرنى بها نفسه وهو البيت الواحد والخمسون .

وعطّل قلوبى في الركاب فانها ستبرد اكبادا وتبكي بواكيا
بلطف « ستبرد » مع أنه ذكره في القصيدة « ستلق » .

والبكرى (٥) يختلف في البيت العشرين عن كل الروايات السابقة فيقول « وإن بأطراف الشبيكة نسوة » مع أنها في الروايات السابقة ، ولكن باكتاف السمينية نسوة » .

وإذا كان علماء مثل القالى وابن قتيبة والبكرى والأصفهاني والبشداوى والقرشى غير علماء آخرين يختلفون في قصيدة واحدة ، مع أنهم يصفونها بأنها مشهورة ، ومع أن عصر شاعرهما كان خيرا مما سبقه من العصور من حيث كثرة الرواية وضبطها وكثرة العلماء القائمين على نقلها وحمايتها من العبث بها والانحراف فيها ، نقول إذا كان الأمر كذلك نعلم إلى أى مدى يكون الاختلاف فيما دون هذه القصيدة وصاحبها من الشهرة ، وما قبل هذا العصر مما لم تكن

(١) القرشى ص ١٤٣ .

(٢) في الروايات الأخرى هو البيت الأخير .

(٣) الشعر والشعراء ١/٣١٢ .

(٤) انظر الألفاظ ١٣/٤٨ .

(٥) معجم ما استعجم ٣/٧٨١ .

فيه الرواية قد وصلت الى صورتها تلك ، ولم يكن التفرغ لجمع الشعر وتدوينه قد وصل الى مرتبته حينذاك ، ولذلك يجد الدارس أن الاختلاف بين الروايات في الشعر الجاهلي أشد منه في الشعر الاسلامي ، وكتاب التنبيه على أوهام القالي للبكري يعتبر من حيث هو مثالا لبعض ما وقع من خطأ الرواية ، حيث أن الكتاب كله تصحيح لأخطاء الأماي التي صدرت عن أبي علي القالي .

ثانيا : الاختلاف في نسبة الشعر :

والنوع الثاني من الخلاف في شعر الصعاليك ، هو اختلاف الروايات حول نسبة بعض الشعر لأحدهم أو لغيره ، والمتتبع لهذا النحو ، يجد أن هذا الخلاف قد مس معظم شعراء الصعاليك ، فمثلا كما رأينا الأصفهاني يروي أن أحد أبيات مرثية مالك بن الربيع قد تنوزع حول نسبته إلى مالك أو جعفر بن علبة (١) .

وعن عروة بن الورد يروي القالي (٢) « قال عروة بن الورد » :

لا تشتمني يا بن ورد فانه تعود على مالي الحقوق الموائد
ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به خصاصة جسم وهو طيان ماجد
واني امرؤ عافى انائي شركة وانت امرؤ عافى انائك واحد
اقسم جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء ولله بارد

ويرد البكري على رواية القالي بقوله « هذا من أوهام أبي علي - القالي - رحمه الله وغفلته ، فكيف ينشد لابن الورد « لا تشتمني يا بن ورد » وإنما البيت الأول من الأبيات التي أنشد لقيس بن زهير بن جذيمة صاحب حرب داحس ، يرد على عروة وكان بينهما تنافس وكان قيس أكرلا مبطانا فكان عروة يعرض له بذلك في أشعاره ، فمن ذلك قوله :

واني امرؤ عافى انائي شركة وانت امرؤ عافى انائك واحد
فقال قيس بجيبه :

لا تشتمني يا بن ورد فاني تعود على مالي الحقوق الموائد

وقال محمد بن يزيد - رحمه الله - أن قوله « ومن يؤثر الحق النؤوب » ليس لعروة وإنما هو لهذا العباسي الذي رد عليه (٣) « وهكذا يقسو البكري على القالي في غفلته مصححا خطأ ، مع أنه هو نفسه يشير الى عدم تأكده

(١) انظر الأماي ٤٨/١٣ .

(٢) الأماي ٢٠٠/٢ .

(٣) التنبيه على أوهام القالي ص ١١٢ .

من هذا التصحيح ، بدليل انه أدخل في الحديث رواية ابن يزيد ، ومع تحامل
البكرى على القائل نجد أن البكرى نفسه لم يكن دقيقا في هذا التنبيه ، فان
سياق المفاخرة بين عروة وقيس يدل على أن البيت الثاني الذي نسبته البكرى
الى قيس وهو « أتها متى ٠٠٠ » ليس لقيس الا على تأول في معناه بحمله على
غير النحول ، فالسياق يرجح أنه لعروة وليس لقيس ، وقد نسبته الأصفهاني
فعلا لعروة (١) وقد تحاشى ابن السكيت هذا البيت فيما جمعه من ديوان عروة ،
فذكر بعض الأبيات السابقة ولم يذكر هذا البيت (٢) ، وكما التبس على القائل
فنسب الأبيات كلها الى عروة ، فكذلك التبس الأمر على المبرد فنسبها كلها
لقيس بقوله « وقال رجل من بني عيس » ، قال أبو الحسن يقوله لعروة بن
الورد (٣) ثم ذكر الأبيات الأربعة وأكثر ما وقع الاختلاف في شعر الصعاليك
كان في شعر تأبط شرا ، ومن ذلك القصيدة التي أولها :

ان بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

وهي قصيدة رثاء ، وقد نسبها أبو تمام الى تأبط شرا (٤) ولكن روايات
أخرى تنسبها لابن اخت تأبط شرا يرثيه (٥) وبعض الروايات ترى أن ابن اخته
هذا هو الشنفرى ، والتبريزي يرى أن القصيدة مولدة من شعر خلف الأحمر
ويستنصر بالنمير وأبي الندى ، وليس لهم من دليل الا النقد الموضوعي
للقصيدة ، قائلين ان من عباراتها « جل حتى دق فيه الأجل » أى عظم الخطب
حتى صغر عنده كل عظيم ، ويرون أن الاعرابي « لا يكاد يتغفل الى مثل هذا »
وأن القصيدة تحدد موضع قتله بسلع من ضواحي المدينة مع أنه قتل في بلاد
هذيل وألقى في غار يسمى رخمان (٦) ، والواقع أنه وإن كانت هذه الأدلة مجرد
ترجيح الا أننا حين نتأمل القصيدة في جملتها وأوزانها وحتى في قافيتها نجدها
غريبة على شعر تأبط شرا وعلى شعر الصعاليك بصفة عامة ، ومن ثم نجد لنقد
التبريزي وصاحبيه وجهته ، ومما اختلف فيه أيضا أربعة أبيات رواها بعضهم
في قصيدة امرئ القيس المشهورة « قفا نيك » وهي :

وقرية اقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعت به الدثب يعوى كالخليع المعيل

(١) الأغاني ٣/١٤ .

(٢) انظر ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكيت ص ٨٠ ، ٨٧ .

(٣) الكامل ٣٦/١ والغدير لم يقوله يمود على الشعر أى أن المجنى يخاطب عروة بهذه

الشعر .

(٤) ديوان الحماسة ٣٤٢/١ .

(٥) النقد الفريد ١٢٧/٣ .

(٦) شرح التبريزي للحماسة ٣٤١/١ ، ٣٤٣ والأمال ٢٧٨/٢ .

فقلت له لما عوى ان شاننا قليل الفنى ان كنت لا تهمل
كلانا اذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترق حرثي وحرثك يهزل

ويرويها بعضهم لتأبط شرا (١) وبعضهم يلجأ الى التقيد الموضوعى كالنقد السابق فيقول ان هذا أشبه بكلام الصعلوك لا كلام طالب الملك (٢) ، يعنى تصعلك تأبط شرا ، وطلب امرى القيس للملك ، وهذا واضح فى حديث الأبيات عن تفاصيل خاصة بحياة الصعاليك وفقدهم وعدوهم ، والجاحظ يكرر الشك فى نسبة بعض الشعر لتأبط شرا أو غيره ، فمرة يقول : وقال تأبط شرا أو أبو محرز خلف (٣) ومرة يقول : وقال تأبط شرا ان كان قالها (٤) وأخرى يقول : ومن هذا الباب قول تأبط شرا أو قول قائل فيه (٥) ، وبعض الباحثين يستنتج ان الجاحظ يغلب عليه الاعتماد على ذاكرته فى الاملاء والكتابة دون الرجوع الى المصادر للتثبت من مصدر الرواية (٦) ومثل هذه التعميرات من الجاحظ فى تشككه تجعل للرأى المشار اليه قيمة .

ومن أمثلة الخلاف فى نسبة الشعر ما نسبته أبو تمام الى أبي الطمحان بقوله « وقال أبو الطمحان القينى الأسدى وحلقه صاحب شرطة يوسف بن عمر (٧) » والتبريزى يقول انما الأبيات لطخيم أبو الطخماء الأسدى وكان بالحيرة فأخذه العباس بن معبد المرى وكان على شرطة يوسف بن عمر فحلق رأسه فقال هذه الأبيات (٨) ، والواقع يؤيد التبريزى ، فان أبا الطمحان مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، فلم يدرك ذلك العصر ، على أن الحادثة حتى لو كانت فى أول الاسلام فلا تناسب أبا الطمحان ، لانه أسلم وهو شيخ أشيب ، فلم يكن فى لته من الجمال ما يصفه هذا الشعر بقوله :

لقد حلقوا منها غدافا كأنه عناقيد كرم أينعت فاسبكرت
فظل العذارى يوم تحلق لمتى على عجل يلقطنها حيث خمرت

ومال العذارى وشيب أبى الطمحان ؟

ومن أمثلة الخلاف أيضا عن شعر أبى خراش الهذلى ، حديث البغدادي عن البيت التالى :

(١) شرح القصائد السبع لابن الأثير ومعنى الشعر الأخير أن من يمشى فى مثل عيشى وعيشك يهلك من الهزال .

(٢) خزائن الأدب للبغدادي ٩٣/١ .

(٣) الحيوان ١٨٢/١ .

(٤) الحيوان ٦٨/٣ .

(٥) الحيوان ٢٥٥/٦ .

(٦) هو الدكتور ناصر الدين الأسد ، أنظر مصادر الشعر الجاهلى له .

(٧) ديوان الحماسة ٤١٢/٢ .

(٨) شرح التبريزى للحماسة ٤١٢/٢ .

اننى اذا ما حدث لك اقول يا اللهم يا اللهما

حيث يقول نقلا عن أبى زيد وهذا البيت من الأبيات المتداولة فى كتب
العريية ، ولا يعرف قائله ولا بقيته وزعم العيني أنه لأبى خراش الهذلى
قال وقيله :

ان تغفر اللهم تغفر جمعا وائى عبد لك لا اله

وهذا خطأ - يعنى من أبى زيد الذى نقل عنه ما سبق - فان هذا البيت
الذى زعم أنه قبته بيت ، مفرد لا قرين له ، وليس هو لأبى خراش وانما هو
لامية بن أبى الصلت قاله عند موته وقد أخذه أبو خراش وضمه الى بيت آخر ،
وكان يقولها وعو يسمى بين الصفا والمروة وهما :

لا هم هذا خلص ان تما اتمه الله وقد اتمما
ان تغفر اللهم تغفر جمعا الخ

وقد تمتثل به النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

ومن الحق أن نقول : انه اذا كان الاختلاف فى الالفاظ قد أصاب كثيرا من
شعر الصعاليك ، فان الاختلاف فى نسبته لم يصب منه الا القليل .

وهناك صورة أخرى من الاختلاف ، لا تخلو من غرابة ، هى أننا نجد بعض
شعر الصعاليك متبثا فى شعر غيرهم ، ومنسوباً الى غيرهم ، كالببيت الذى قال
الأصفهاني عنه أنفا انه مذكور فى قصيدة جعفر بن علبه مع أنه بنصه ، فى
قصيدة مالك بن الربيع السابقة ، وكأبيات تأبط شرا الأربعة ، التى أدخلت فى
قصيدة امرئ القيس .

ومع ذلك فتعليل هذا ميسور ، بحمله على الالتباس فى نفس الراوى ،
حين يروى قصيدتين لشاعرين من وزن واحد وقافية واحدة ، فقد يخطئ بوضع
بيت أو أكثر من احدى القصيدتين فى الأخرى :

ولكن الذى يصعب تعليله أن نجد مقطوعات كاملة أو شبه كاملة من شعر
الصعاليك مذكورة ضمن قصيدة أخرى غير متفقة فى الوزن والقافية ، أو فى
أحدهما مع قصيدة شاعر من غير الصعاليك ، مثال ذلك أبيات عروة بن الورد ،
اننى اتفقت الروايات على أنها له وهى :

لما الله صعلوكا اذا جن ليله	مصافى المشاش ألفا كل مجزور
يعد الغنى من نفسه كل ليلة	أصاب قراها من صديق ميسر
ينام ثقلا ثم يصبح قاعدا	يحث الحصى عن جنبه المتعطر

يعين نساء الحي ما يستعنه
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه
مطلا على أعدائه يزجرونه
وان بعثوا لا يامنون اقترابه
فذلك ان يلق المنية يلقها
فيضحي طليحا كالبعير المحسر
كضوء سراج القابس التنوير
بساحتهم زجر المنيع المشهر
تشوف اهل القائب المتنظر
حميدا وان يستغن يوما فاجدر (١)

وهذه الأبيات لم يختلف أحد في نسبتها الى عروة ، وهي من قصيدة طويلة
أوردها ابن السكيت في شرحه لديوان عروة .

وهذه الأبيات نفسها بمعانيها ، وتكاد تكون بالفاظها نجدها في قصيدة
ميمية لحاتم الطائي حيث نجد في آخر هذه القصيدة بنصه وترتيبه ما يأتي :

لما الله صعلوكا مناه وهمه
ينام الضحى حتى اذا نومه استوى
مقيما مع المثرين ليس بباح
ولله صعلوك يساور همه
فتي طلبات لا يرى الحمص ترحة
يرى الحمص تعذيبا ولم يلق شبة
اذا ما رأى يوما مكارم اعرضت
ويغشى اذا ما كان يوم كربة
يرى رمحه ونبله ومجنه
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه
من العيش ان يلقى لبوسا ومغنا
تنبه مثلوج لفؤاد مورما
اذا نال جدوى من طعام ومجثما
ويهمي على الأحداث والدهر مقدما
ولا شبة ان نالها عد مغنا
يبيت قلبه من قلة الهم مبهما
تيمم كبراهن ثمت صمما
صنور العوالي فهو مختضب دما
عتاد فتى هيجبا وطرفا مسوما
وان عاش لم يقعد ضعيفا ملما (٢)

فهذا التوافق الذي يكاد يكون كاملا في المعاني وان اختلف ترتيبها ، وفي
كثير من الألفاظ أيضا ، يدعو الى النظر ، ويصعب تعليله ، لأن القصيدتين ليستا
متفقتين في الروى حتى نقول باحتمال أنه حدث تداخل بينهما في رواية الأبيات ،
ومع ذلك فلسنا نرى هذا التوافق الظاهر بينهما يدخل فيما أجازته النقاد للشعراء
كتوارد المعاني أو توليدها أو تجديد صياغتها ، ولا فيما لم يجيزوه كالسرقة
والسطو ، لأن ذلك كله يحدث عادة في البيت أو البيتين ، والمعنى أو المعنيين بين
قصيدتين ، أما أن يحدث في جملة أبيات تصلح أن تكون قصيدة فهذا ما يدعو
الى النظر .

على أننا حين نعرض هاتين المجموعتين على النقد ، نجد أمامنا زاويتين
متعارضتين مما يزيد الموضوع لبسا وغرابة ، فمن الناحية الفنية يمكن أن نقول
أن هذا الشعر يصور نفسية الصعاليك ومذهبهم في الحياة ، وهو يتفق مع

(١) الكامل للمبرد ٧٨/١ وديوان حساسة أبي تمام ١٥٩/١ ، ١٦٠ والقصيدة كاملة في

ديوان عروة ص ٩٢ .

(٢) خزانة البغدادي ٢٩١/٢ .

الاتجاه العام لشعرهم ، وما يتردد كثيرا من معانيهم ، ومن هذه الناحية يمكن أن يقال أن عروة هو السابق في هذا الشعر ، وإن حاتما أحد عنه معاويه كلها . ولكننا من الناحية التاريخية نجد أنه وإن لم تتحدد الروايات بدء حياة كل من عروة وحاتم وولادته إلا أنها تشير إلى أن حاتما سابق على عروة رغم قرب زمنيهما ، فإن حاتما لم يدرك الاسلام ، وإنما أدركه ابنه على وبنته سفيان ، ولقيما النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وعروة أدرك الاسلام وإن لم يسلم ، ويدل على ذلك ما ورد في أخباره أن أمراته كانت فيمن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وإن كان هذا ترجيحاً ومن هذا لا نرى أمامنا إلا أن نرجح أن حاتما الطائي هو السابق بأبياته ، وإن حديثه عن الصعلكة ليس بغريب . بل ليس بغريب أن يكون قد زاول الصعلكة في فترات من حياته ، كما رأينا فيما سبق سادة مثله وأعلى منه سيادة زاولوها ، في مجتمع كان طابعه الغزو والسلب والنهب (٢) ، لا فرق في مزاوله أساليب الصعلكة فيه بين السادة والصعاليك إلا أن الصعاليك كانوا يتخذون من الصعلكة حرفة دائمة ، وغيرهم كان يزاولها في ظروف خاصة ، وحاتم الطائي مرت به بعض الظروف التي يمكن أن تدفعه إلى الصعلكة حينذاك ، ومنها الفقر في بعض فترات حياته ، كما ورد في أخباره (٤) وما يحدثنا به هو في شعره من مثل قوله :

غنيما زمانا بالتصعلك والفنى فكلما سقناه بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة غنا ولا أزرى باحساننا الفقر (٤)

ونرجح أيضا أن عروة بن الورد بلفته أبيات حاتم ، وتأثر بها في شعره هذا ونستبعد أن يكون هذا من توارد الخواطر ، ونستبعد أيضا أن يكون من خطأ الرواية ، أو تداخل الأبيات بين القصيدتين .

على أننا مهما نجد من اختلاف أو اضطراب حول شعر الصعاليك ، فإن في شعرهم ميزة تحميه من الذوبان في غيره ، أو الالتباس بشعر آخر كما يحدث لغيره ، هذه الميزة هي أن شعر الصعاليك - كما سيأتي في الحديث عن منهجه وخصائصه - يتميز دائما بطابع خاص ، يميزه عن غيره من عدة زوايا ، بحيث يمكن للناقد ذي الذوق الأدبي الدارس لشعر الصعاليك ، أن يميزه عن غيره في غير جهد أو عناء شديدين ، وقد اعتمد البغدادى فعلا على هذا النقد الموضوعي في شعرهم عن غيره ، كما سبق في قوله عن أبيات تأبط شرا التي رويت في قصيدة امرئ القيس أن هذا الكلام أشبه بكلام الصعلوك واللص ، لا بكلام

(١) خزاعة البغدادى ٢/ ٢٩١ .

(٢) أنظر تفسير قوله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » الآية ٦٧ المتكبروت - تفسير الكشاف ، وأنظر ما سبق .

(٣) أنظر خزاعة البغدادى ٢/ ٢٩٢ .

(٤) أنظر لسان العرب مادة (صعلك) .

الملوك (١) ولذلك اضطر الذين رأوا نسبة هذه الأبيات الى امرئ القيس ان يتلمسوا أخبار حياته ، ليجدوا فيها ما يثبت أنه تصعلك فترة من حياته ، أو أنه كان يتتبع الصعاليك وذلك فى فترات حروبه وصراعه من أجل استعادة ملك أبيه (٢) .

لامية العرب :

من حق اللامية لأهميتها ولما دار حولها من حديث أن تحظى بحديث خاص لا يغمره سياق حديث آخر .

والواقع أنه لم تحظ قصيدة عريضة بمثل ما حظيت به لامية العرب من اهتمام سواء فى القديم والحديث ، فقد تداولها الرواة ، ثم تناقلها كثير من العلماء والمؤلفين ، ثم توالى عليها عدد كبير من الشراح فى شروح خاصة بها (٣) وأشهرها أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري ، ثم جاء المستشرقون فأولعوا بها ولما بينا ، واكبوا على دراستها وترجمتها الى كل اللغات الأوروبية تقريباً ، مظهرين إعجابهم فى تقديم كل دراسة أو ترجمة عنها وصاحب تاريخ الأدب العربى (٤) يسرد كثيراً من دراسات المستشرقين وترجماتهم لها ، ويصف اللامية بأنها تمثل مذهباً شعرياً مستقلاً عن الشعر العربى القديم كله حيث يقول « أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعري مستقل ، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب فى تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها غرضاً مقصوداً لذاته ، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله » (٥) ثم يصفها عقب ذلك بأنها « قصيدة لامعة بين قصائد الشعر الجاهلى » ، والواقع أن حديث اللامية يحتاج الى بحث خاص ، ولكننا لا نستطيع الاضافة فى حديثها لأنها وإن كانت من صلب الموضوع كجزء من شعر الصعاليك ، بل غرة فى شعرهم إلا أن الحديث عنها ليس مقصوداً لذاته ، ومع ذلك يمكن أن نوجز ما يتعلق بها فى النقاط الآتية :

١ - صاحب اللامية وهو الشنفرى أزدى يمتنى الأصل ، ولكنه سبى وهو صبى ، وعاش أسيراً فى بنى شيبابة بن فهم من نجد ، ثم انتقل الى بنى سلامان

(١) انظر خزائن الأدب ٩٣/١ .

(٢) انظر الشعراء الصعاليك د. يوسف خليل قلا عن الاصمعى فصل (الاسلوب القصصى) .

(٣) انظر فهارس الفروع بدار الكتب المصرية وبها أكثر من خمسة عشر شرحاً مطبوعاً ومخطوطاً للامية العرب كما عدد بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى كثيراً من الفروع ١٠٥/١ ترجمة النجار .

(٤) كارول بروكلمان ١٠٤/١ وما بعدها ترجمة النجار .

(٥) المصدر السابق .

ابن مفرج بنجد أيضا ، في حادث مبادلة أسرى بين بنى سلامان وبينى فهم ، ومن خلال الروايات عن شخصية الشنفرى وظروفه ، نرى فيه شخصية فذة في عدة نواح ، في قوة الإرادة الى درجة غير مألوفة ، ومن أمثلة ذلك تصميمه على قتل مائه رجل من بنى سلامان وإنفاذ عزمه ، وفي قوة تركيبه الجسمي ، ومن أمثلة ذلك أنه كان يسبق الحيل في عدوه ، وفي قوة عقليته وعمق تفكيره ، ومن أمثلة ذلك أنه كما يصفونه كان يضرب به المثل في الخلق (١) والبهائم وما وصل اليها من شعره حتى غير اللامية يدل على ذلك ، وقد شاعت الظروف لهذه المواهب أن تعيش في أسوأ ظروف اجتماعية ، أبرزها أنه مجرد أسير ذليل لا يملك حتى حريته ، بل ازدادت الظروف قسوة عليه حين تعرض لحوادث اضطهاد واذلال من بنى سلامان حين تطلعت نفسه الى الارتباط بأحد فتياتهم ، فاتجه الى الصعلكة حتى كان من أبرز الصعاليك وأشهرهم على الإطلاق صابا سخطه وتقمته على كل الناس مثلين في بنى سلامان ، وموجز وصفه أنه شخصية فذة لامعة ، قسمت عليها الظروف حتى بفضت اليها الحياة .

وخلال وحدته وتشرده في الصعلكة قال هذه اللامية ، وهي ثمانية وستون بيتا ، فجاءت القصيدة مطابقة كل المطابقة لشخصيته بما فيها من مقومات ، وعقليته بما فيها من عمق ونضوج وظروفه بما فيها من قسوة وجفاف ، حتى كان القصيدة مرآة صقيلة نرى فيها الشنفرى وحياته بوضوح وكما وصف الشنفرى بأنه شخصية فذة لامعة ، كذلك وصفت اللامية بأنها قصيدة فذة لامعة كما يقول كارل أنها فذة في مذهبها لامعة في وضعها بين القصائد ، وهذا التطابق من أقوى الأدلة على أن اللامية من إنتاجه .

٢ - ظلت اللامية منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر مشهورة بأنها للشنفرى ، وقد تناولها كثير من أجلة الأدباء والنقاد بالشرح ، ولم يبدوا أي شك أو إشارة الى أنها نسبت لأحد من الشعراء غير الشنفرى ، ولم تؤثر في ذلك بذرة الشك التي وضعت في زمن خلف الأحمر . بأن اللامية من وضع خلف وليست للشنفرى فإن مثل هذه الآراء الضعيفة أو الفمزات الأدبية الطائفية شائعة في الأدب العربي حول كثير من الشعر ولكنها لم تؤثر في الاتجاه العام للنقاد والأدباء بمعنى أن كثيرا من القصائد غير اللامية نسبت في رأى ضعيف أو في إشارة عابرة الى غير شاعرها ، ولكن شهرة القصيدة في نسبتها لقائلها ومعرفة عامة العلماء لمصدرها ورواتها ، لم يجعل لمثل هذه الآراء الضعيفة قيمة ولا تأثيرا في الاتجاه العام ، بل لم تكن هذه الآراء تحظى حتى بمجرد التخليق أو التعقيب في معظم الأحيان ، كالرأى الذي أثير في حياة القائل بأن اللامية من وضع خلف الأحمر ، فإن القائل نفسه وهو راوى هذا لم يعقب عليه ، ولم يحد فيما يبدو أنه يستحق المناقشة .

(١) أنظر ترجمته ومراجعها بهذا البحث فصل (الشعراء الصعاليك : الجاهليون) .

وظل الأمر كذلك فى شهرة اللامية بأنها للشنفرى ، وعدم التفات النقاد والعلماء الى ذلك الراى المشكك حتى جاء المستشرقون فى العصر الحديث ، ومع ما أبدوه من اعجاب شديد باللامية ، واهتمام بالغ بدراستها ونقلها الى لغاتهم ، الا أن بعضهم مثل كرتكو (١) أثار الشك فى نسبتها الى الشنفرى ، وجعل من هذا الشك موضوع دراسة واهتمام ، ويذكر أنه تتبع آراء قدامى اللغويين فى شكهم هذا ، فى حين أننا لا نعلم أن أحدا فى تاريخ الأدب العربى منذ الجاهلية نفى اللامية عن الشنفرى الا ابن دريد فى رواية القالى من أن ابن دريد حدثه ان هذه اللامية لخلف الأحمر (٢) ، ولكن بعض المستشرقين لا يوافقون بعضهم الآخر على نفى اللامية عن الشنفرى ، وينفون بشدة أنها لخلف الأحمر مؤيدين بشدة أيضا أنها للشنفرى كما فعل صاحب تاريخ الأدب العربى (٣) فيما قرره .

٣ - اختلف بعض الباحثين (٤) أثر المشككين من المستشرقين ، مشيراً الى تأثيره بهم ، وانتهى من حديثه عن اللامية بأنها ليست للشنفرى ، وإنما هى لخلف الأحمر ، مع انه اعترف بأن النقاد والعلماء والشرح العرب فى كل العصور نسبوها الى الشنفرى دون شك أو اشارة الى أنهم يشكون فى نسبتها الى أحد غير الشنفرى ، وأنه لم تشذ عن هذا الاجماع الا رواية ابن دريد ، وحصر أدلته على أن اللامية ليست للشنفرى فيما يأتى : -

(أ) ابن دريد كان قريب عهد بخلف فهو أكثر صلة بالروايات حينذاك ، ونقل هذا عن كرتكو الذى أشرنا الى أنه تزعم الحملة ضد نسبة اللامية الى الشنفرى فيما رآه .

(ب) الأصفهاني فى أغانيه ، ولسان العرب ، على كثرة حديثهما فى شعر الصعاليك أغفلا ذكر اللامية فلم يرد لها ذكر فى أحدهما ، ولم يستشهدا بشئ منها .

(ج) اللامية تبلغ ثمانية وستين بيتا (٥) وهى فى طولها هذا لا تتفق مع شعر الصعاليك من حيث أنه يعتبر فى مجموعته شعر مقطوعات مع أنه اعترف بأن للشنفرى قصيدة أخرى تبلغ خمسة وثلاثين بيتا (٦) وأنها أطول ما ورد من شعر الصعاليك ، وأضاف الى ذلك قلة الاضطرابات فى ألفاظها .

(١) دائرة المعارف الإسلامية الألمانية ٣٣٥/٤ كما ذكر كارل فى تاريخ الأدب العربى ترجمة النجار ١٠٥/١ .

(٢) أمالى القالى ١٥٥/١ وصاحب تاج العروس مادة (آم) ينسبها الى تابط شرا وواضح منه أنه ليس غير مقصود به الرواية .

(٣) كارل بروكلمان ١٥٥/١ .

(٤) أعنى به الدكتور يوسف خليف فى الشعراء الصعاليك ص ١٧٧ - ١٧٩ .

(٥) هى فى رواية القالى فى الأمالى ٦٧ بيتا فقط .

(٦) هى قصيدة تائية بالفضليات من ١٥٨ وهى ٢٦ بيتا وليس العدد كما ذكر من أنه ٣٥ .

وترتيب أبياتها بين الروايات بخلاف شعر الصعاليك ، وأضاف أيضا ما لاحظته كرتكو من قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها ، وهي بذلك تخالف الشعر كله .

(د) ختم حديثه هذا بأن اللامية خلف الأحمر ، وأن خلفا صور فيها حياة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا حتى يصح أن نطلق عليه لامية الصعاليك أو دنيا الصعاليك . هذه الأربعة مستندات هذا الرأي ، وحين نأتى الى مناقشتها نقول : أما الدليل الأول عن ابن دريد وقرب عهده من خلف وسلسلة تلاميذه ، فيرد عليه بعدة نوح ، منها أن القالى نفسه وهو الذى روى هذه الرواية عن ابن دريد ، معاصر لابن دريد حيث يقول « حدثني أبو بكر بن دريد أن القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التى أولها .

اقيموا بنى أمى ضدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميل

له - يعنى لحلف الأحمر - وهي من المقدمات فى الحسن والفصاحة » (١) وهذا فى سياق حديثه عن خلف حيث يقول قبل هذه الرواية مباشرة : قال أبو على : كان أبو محرز أعلم الناس بالشعر واللفه ، وأشعر الناس على مذاهب العرب ، ثم ساق روايته عن ابن دريد .

ومن نص رواية القالى فستنتج أكثر من ناحية ، منها أن نسبة اللامية للشنفرى كانت معروفة للقالى حيث يقول « القصيدة المنسوبة الى الشنفرى ، ومنها أن رأى ابن دريد كان أول شك أثير حول نسبة اللامية الى الشنفرى حيث لم يتحدث القالى عن شك آخر ولا عن رأى آخر يظهر رأى ابن دريد فى شكه ، ومعنى ذلك انه حتى حياة لقالى وابن دريد كان العرب مجتمعين ورواة وعلماء متفقين على أن اللامية للشنفرى دون أى شك فى ذلك ، ومنها أن الرواية نفسها تحمل طابع الضعف وتوحى بعدم الصحة ، لأن الرواية بدون سند فلم يحدثنا القالى أنه ابن دريد روى هذه الرواية عن أحد ، مع أن القالى من أدق العلماء فى التزام سلسلة الرواة فهو يلتزم دائما عدا حديثه المشافه مع معاصريه أن يذكر سلسلة الرواية كاملة ، ففى الرواية السابقة لهذه الرواية مباشرة مثلاً يقول « حدثني أبو بكر بن الانبارى قال حدثنا أبو عبد الله ابن أحمد البصرى القديم قال حدثنا الرياشى قال حدثنا محمد بن عبد الوهاب الشنقى قال : دخلنا على خلف الأحمر فعوده فى مرضه الذى مات فيه ٠٠ الخ ، ففى هذه الرواية عن خلف يجعل بينه وبين خلف أربعة رواة ، بينما اقتصرت روايته عن اللامية على قوله « حدثني أبو بكر ابن دريد ، ولم يذكر المصدر الذى استقى منه ابن دريد روايته .

وقد يسأل سائل : فما نقول فى هذه الرواية إذن ؟

والجواب أننا لا نفترض كذب القالى فانه من العلماء الثقات ، ولا ابن دريد

كذلك ، وإنما الأمر بالنسبة للقالي أنه ينبغي أن نرجع الى سياق الرواية ، فانه أوردهما في سياق حديثه عن أبي محرز خلف الأحمر ومقدرته الشعرية ، فكان من الطبيعي أن يذكر كل ما يعلمه عنه ، وكل ما ينسب اليه حقاً أو غير حق ، وعلى غير المحق أن يتحمل تبعه جوره ، وكان مما يعلمه ما سمعه من ابن دريد ، فلا بأس عليه أن يذكره ، وعلى ابن دريد أن يتحمل تبعته ، وقد يقال انه كان على القالي أن يبين رايه في هذه الرواية ، فنقول : انه وإن لم يصرح برأيه الا أنه عرض به بأكثر من طريق ، منها انه ترك راي ابن دريد خلوا من تأييد أو تدعيم مما يوحى بضعفه . ومنها انه صرح خلال الرواية نفسها بأن القصيدة منسوبة الى الشنفرى ، ومنها وهو الأهم انه بيننا ذكر هذه الرواية في الجزء الأول من أماليه ، عاد في الجزء الثالث فنسبها للشنفرى دون أى اعتبار لهذه الرواية أو اشارة اليها ثم ساق القصيدة كاملة (١) ومعنى هذا انه مقتنع بأن اللامية للشنفرى دون شك منه ، وانه انما ذكر رواية ابن دريد عن نسبتها لخلف لمجرد الأمانة العلمية في ذكر كل ما يعلمه عن شخص وإن لم يكن مؤمناً به ، ولست أدري لماذا لم يذكر أحد من الباحثين أن القالي ساق اللامية في الجزء الثالث منسوبة للشنفرى دون أن يشير الى أى شك في هذه النسبة .

وأما عن ابن دريد ، فأننا لا نفترض اختلاقه للرواية ، مع أن في أخباره على شهرته بالعلم الواسع ما ينزل به ولو قليلا عن ثقة العلماء من حيث الصلاحية لدقة الرواية ، فمن ذلك ما يروى البغدادى أنه « كان مواظباً على شرب الخمر » وكان يلقي الناس وهو سكران (٢) ، ومع ذلك لا نفترض كذبه ، وإنما ينبغي أن ننظر الى التيارات الأدبية والعنصرية المعاصرة له ، فابن دريد عاش في صدر العصر العباسى ، وعاصر الخليفة المقتدر ، وحينذاك كانت العصبية الطائفية بين العرب والفرس قد بلغت أوجها ، هذه العصبية التى برزت الى الوجود منذ الفتوحات الاسلامية ، وإن كان بعض الباحثين يرجعها الى الجاهلية (٣) وتمثلت هذه العصبية في عدة نواح منها المجال الأدبى ، الذى بدأت العنصرية الفارسية ضد العرب تتضح فيه على يدى بشار ثم اكتمل تضجها في عصر أبى نواس وزملائه ، حين فتح العباسيون أبوابهم وقلوبهم على مصاريعها للفرس ، فتكتلت القوى الفارسية ضد العرب ملتفة حول البارزين منهم كالبرامكة ، وفي حياة ابن دريد الذى ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ومات سنة احدى وعشرين وثلاثمائة كانت هذه العنصرية في قمته ، وكان يهيم الفرس أن يحشدوا أكبر عدد من شعرائهم يناقسون بهم الشعراء العرب ، وإن لم يستطيعوا ذلك فلا أقل

(١) الامال ٢٠٥/٣ ولم يشر أحد من الباحثين الى ذلك .

(٢) أنظر خزائن البغدادى ٢٧٨/٢ ، ٧٨٩ .

(٣) أنظر الصراع الأدبى بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب - المكتبة الثقافية ٩٢

من أن يحاولوا نسبة أكبر قدر من الشعر الموروث وخاصة جيده الى أحد شعرائهم ، وإذا لاحظنا أن خلفا الأحمر كان من الموالى (٤) أى من غير العرب ، فلا نستبعد أن أحد المتعصبين من الفرس فى زمن ابن دريد نفس على العرب أن يكون فى شعرهم قصيدة لامعة فذة كاللامية فزعم لابن دريد أنها لخلف الأحمر لينفيها عن العرب ، ويثبتها لشاعر فارسى الأصل هو خلف ، وأخذ ابن دريد الكلمة بحسن نية ولم يسأل صاحبها عمن روى عنه ذلك ، لشهرة خلف حينذاك بالوضع ، أو لعل ابن دريد من باب أمانة النقل كما فعل القالى قال لتلاميذه فى أثناء الدرس - ومنهم القالى (٢) - كل ما سمعه عن خلف ومقدرته فى الوضع ، ومن ذلك هذا الخبر عن اللامية ، على أننا لا ينبغي أن نظلم ابن دريد ، فعلى فرض أنه قال ذلك لتلميذه القالى نقول : انه لو كان لهذا الخبر اعتبار فى نفس ابن دريد لساقه فى مؤلفاته التى عدد البغدادى تسعة منها ، ولنقل تلميذه القالى عنها ذلك ، لأن القالى عاش بعد أستاذه ابن دريد نحو خمس وثلاثين سنة ، حيث توفي ابن دريد سنة ٣٢١ هـ والقالى سنة ٣٥٦ هـ . وبحكم كونه أولى الناس بمعرفة مؤلفات أستاذه ، والاطلاع عليها ، على أننا لا نجد فيما وصل إلينا من كتب ابن دريد كالاكتشاف والجمهرة أثر لهذه الرواية ، ولم ينقل صاحب البحث الذى ناقشه شيئا من ذلك ، وكذلك المستشرق الذى تأثر الباحث به .

واذن فكل ما يمكن أن نتصوره فى هذه الرواية أنها مجرد محاولة للتشكيك ، لا نجد ما يدل على أن ابن دريد نفسه أو القالى تأثر بها أو أقاما لها وزنا ونرجح أن مصدر هذه المحاولة كما قلنا نزعة التعصب العنصرية من جانب بعض الفرس ، ليسلبوا من الأدب العربى درة من أبرز درره ، وينسبوها الى بعض طائفتهم ، وقد يدعونا هذا الى التريث فى قبول كل ما نسب الى خلف الأحمر ، أو اتهم بوضعه ، لرده الى المكان الصحيح ، ومما يدل على أن بين هذا التشكيك فى اللامية وعصبية الفرس صلة ، أننا نجد الطغرائى الذى جاء بعد ابن دريد بأقل من قرنين ، حيث توفي الطغرائى سنة ٥١٥ هجرية ، أظهر وهو فارسى غير الفرس من لامية العرب فوضع قصيدته المشهورة ، وسماها لامية العجم (٣) ، ردا على لامية العرب ومنافسة لها ، أو منافسة للعرب فى لاميتهم ، ويبدو أن الطغرائى حين وجد أن التشكيك فى لامية العرب لم ينجح عمد الى محاربتها بطريق المنافسة والمعارضة ، وفى تسميته قصيدته بلامية العجم ما يحمل هذا المعنى ، وفيه اعتراف ضمني بأن لامية العرب للشنفري ، لأنها لو كانت لخلف لكانت لامية عجم أيضا ، ثم ظهرت أيضا لامية الروم لابن الحكيم الحلبي (٤) .

هذا عن الدليل الأول من أدلة البحث الذى تناقشه ، وأما الدليل الثانى

(١) هو مولى الاشعريين . انظر هامش البيان والتبيين ١/٢٩٣ .

(٢) خزاعة البغدادى ٢/٢٨٨ .

(٣) انظر الفيت المسجم فى شرح لامية العجم للصفدى .

(٤) انظر فهرس الكتب بدار الكتب المصرية حتى آخر مايو سنة ١٩٢٦ من ٣١٤

وهو أن الأصفهاني وصاحب لسان العرب على كثرة ما ذكرا من شعر الصعاليك لم يتعرضا للامية ، ومعنى ذلك أنها ليست للصعاليك .
وللرد على ذلك نقول : أما عن الأصفهاني ، فإنه في أغانيه سيطرت عليه نزعتان ، أحدهما جعلها عنوانا للكتاب ، وتحدث عنها في مقدمته ، وهى الحديث عن أصوات الغناء ، وما يتغنى به من الشعر ، حيث جعل ذلك هدفا ، وما سواه فتيح واستطرد ، والآخرى ولوعه بغريب الأحاديث ، وطريف الأخبار والاحداث ، ولم تكن اللامية من هذا ولا ذاك فلم يجد ما يدعو الى الحديث عنها ، فضلا عن أنه لم يلتزم قط حين يتحدث عن شاعر أن يورد كل شعره ، أو حتى أن يعدد قصائده ، فلم يكن عليه بأس حين تحدث عن الشنفرى أن يذكر بعض شعره دون البعض الآخر ، فليس فى ذلك دليل ولا ترجيح ، والشبهة الوحيدة التى كان يمكن أن تثار حول اغفال الأصفهاني للامية ، هى أن اللامية لم تكن موجودة حتى زمن الأصفهاني ، وإنما اخترعت بعده ، ونسبت الى خلف الأحمر ، لغرض من الأغراض ، كالعنصرية التى أشرنا اليها ، ولكن هذه الشبهة لا محل لها ، لأن السابقين للأصفهاني تحدثوا عن اللامية ، والمعاصرين له تحدثوا عنها ، ومنهم القالى الذى أورد نصها فى أماليه ، والقالى معاصر للأصفهاني ، بل تصادف أن توفيا فى عام واحد ، هو سنة ٣٥٦ هـ (١) والقالى يذكر أنها منسوبة للشنفرى أى من قبل ذلك على أننا يمكن أن نتجاوز ذلك الى القول بأنه لو فرض أن الأصفهاني نفى اللامية صراحة عن الشنفرى ، أو نسبها صراحة الى خلف أو غيره ، لم يكن ذلك بالحجة التى نطمئن اليها ، لأن الأصفهاني لم يكن موضع الثقة بين العلماء فى أخباره ورواياته (٢) ولوعه برواية كثير من الخرافات فى أغانيه يؤيد ذلك .

وأما عن اغفال لسان العرب الاستشهاد باللامية فنقول : أولا لم يقل صاحب البحث الذى نناقشه انه استقصى لسان العرب كله ، وعلى فرض أن اللسان خلا من الاستشهاد باللامية فليس فى ذلك دليل ولا ترجيح ، لأن صاحب اللسان لم يقل انه قصر استشهاده على شعر الصعاليك ، حتى نحاسبه على خلوه شواهد من أبيات اللامية ، وحتى لو قال ذلك ، فليس فى اغفاله للامية دليل أيضا ، لأننا حينئذ سنقول أيضا : هل قال اننى ذكرت كل شعر الصعاليك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لو فرضنا أن اللامية خلف الأحمر ، فلم اغفلها ولم يستشهد بأبياتها ؟

ومن هذا نرى أن هذا الدليل من الوهن بحيث لا يفيد تدليلا ولا ترجيحا أيضا . على أننا أيضا لو فرضنا أن صاحب اللسان نفى اللامية عن الشنفرى أو

(١) أنظر ترجمة كل منهما فى صدر كتابه .

(٢) أنظر آراء كثير من العلماء فى تجريحه بترجمة المؤلف فى صدر كتاب الأغاني .

نسبها الى غيره لم يكن ذلك حجة ولا دليلا . فهدفه وهدف غيره من أصحاب المعاجم شرح الالفاظ ، ونقل آراء العلماء فيها ، وهم في هذا ليس موضع تجريح ، ولكن بالنسبة للروايات يختلف الوضع ، حيث لا يلتزم كثير منهم افة ، فمثلا حينما يتعرض أحدهم لشرح لفظ ، نجد ذهنه منصبا على هذا الشرح ، فاذا خطر في ذاكرته بيت شعر استعمل هذا اللفظ ، ساقه شارحا استعمال هذا اللفظ ، غير مهتم كثيرا بقائل هذا البيت ، لأن ذهنه منصوب على شرح اللفظ ، ومنهم صاحب اللسان والقاموس ، كما عدا تأبط شرا والشنفرى من الأغربة الاسلاميين (١) ، مع أنه لا خلاف في أنهما جاهليان ، وكنا نسب صاحب تاج العروس اللامية الى تأبط شرا ، مع أن ذلك لم يقل به أحد قط (٢) ، على أن هناك كتباً أخرى من أمهات المراجع استشهدت بأبيات اللامية ، ولم تبد شكاً في نسبتها للشنفرى ، ومنها نهاية الأرب للزويرى (٣) .

وأما الدليل الثالث من أدلة البحث الذى نناقشه ، فللرد على النقطة الأولى منه ، وهى أن طول اللامية غير مألوف فى شعر الصعاليك وأن أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً وهى ثائية الشنفرى (٤) ، وما عداها من شعر الصعاليك يعتبر فى مجموعه شعر مقطوعات . للرد على ذلك نقول : أن الدليل نفسه يتضمن الرد عليه . ففيه اعتراف بأن الشنفرى صاحب أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، ومعنى ذلك أنه أطولهم نفساً فى الشعر ، وأقدرهم على إنتاج المطولات ، فكيف نستبعد أن ينتج قصيدة تبلغ ثمانية وستين بيتاً مع اعترافنا بأنه أطولهم قصيداً ؟ والذى ينتج قصيدة تبلغ ستة وثلاثين بيتاً ، كيف لا يستطيع أن ينتج الثمانية والستين ونضيف الى ذلك أن الثمانية والستين بيتاً لا تعتبر فى عرف رواة العرب وتقادهم طويلة ، ولا يصفون مثلها بأنها من المطولات ، أما التى يصفونها بأنها طويلة فمثل قصيدة النابغة الجعدي التى تبلغ مائتى بيت (٥) ، وقصيدة ابن دريد التى تسمى المقصورة وتبلغ مائتين وتسعة وثلاثين بيتاً (٦) ، أو ما كان قريباً من ذلك ، أو على الأقل أطول من اللامية بكثير ، كالقصائد السبع الجاهليات (٧) ، أما الثمانية والستون بيتاً كلامية العرب ، فلا تعتبر فى عرفهم من المطولات ، إلا بالاعتبار النسبى ، أعنى بالنسبة الى القصص ، وإن لم يكن هناك ما يمنع من وصفها بالطول .

على أننا لا نسلم باطلاق حكم المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين الذين

(١) مادة (غرب) .

(٢) مادة (آم .) .

(٣) أنظر ٢٢٧/٦ (أصوات القوس) .

(٤) هذه الثائية بالفضليات ص ١٠٨ وهى ٣٦ بيتاً .

(٥) خزنة البقداى ٣١٩/٢ .

(٦) المصدر السابق ٢٨٧/٢ .

(٧) أنظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأبارى .

هم موضوع البحث المذكور فقد وردت لهم قصائد كثيرة يمكن ان تسميها بعرفنا طويلة ، فمن ذلك عينية مالك بن حريم ، وتبلغ أربعين بيتا (١) وراثيه عروة بن الورد ، وتبلغ نحو أربعين بيتا (٢) وعينية قيس بن متقد وهي أربعة وأربعون بيتا وكلهم (٣) صعلوك جاهلي ، وقصيدة عبدة بن الطبيب تبلغ واحدا وثمانين بيتا (٤) مع انه مختصرم قضى معظم حياته في الجاهلية يتلصص في الرباب .

فلامية العرب اذن ، لا هي بالطويلة طولا غير عادي ، ولا هي الوحيدة التي تجاوزت حجم المقطوعات بين شعراء الصعاليك ، ولا هي الوحيدة الطويلة بين شعراء صاحبها .

وأما غلبة شعر المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين ، فذلك لضعف الرواية واضطرابها في هذا العصر ، وكثير من الشعر الذي وصل إلينا يبدو أنه مبتور من قصائد ، ضاع معظمها ولم تصل إلينا منها الا هذه الأبيات المتترة ، وخصوصا ما ورد من الشعر الذي عاش أصحابه في زمن قريب من الاسلام اما الذين عاشوا في زمن أبعد من ذلك ، فاذا رجعنا الى الروايات وآراء العلماء لا نجد غربة في هذه المقطوعات ، فهم يروون أن الشعر الجاهلي بدأ بالمقطوعات ، وأن أول من قال قصائد كاملة هو مهلهل بن ربيعة ، وأنه لم يقل شاعر قبله عشرة أبيات كاملة ، وأنه سمي مهلهلا لأنه هلهل الشعر أي رققه (٥) ويروون ان عنترة لم يكن يقول الا البيتين والثلاثة ، حتى خاصمه رجل وسابه ، فقال قصيدة ، ثم درج على انشاء القصائد (٦) .

فالنقاد اذن يرون أن الشعر الجاهلي بدأ بالمقطوعات ، ومن الطبيعي أيضا أن يبدأ كل شاعر حياته الشعرية بالمقطوعات ، وخاصة في الجاهلية التي لم يكن الشعر فيها يرتبط بغرض معين يدفع الشاعر الى الشعر ، الا غرض واحد ، هو التعبير عن انفعاله هو ازاء مشاعره الشخصية ، وانفعاله بأمر من الأمور ، واذا أضفنا هذا الى ما هو معروف من أن التاريخ والرواية وجمع الشعر لم ينضجن الا مع الاسلام ، أو قبله بقليل ، لم يكن غريبا أن نجد المقطوعات شائعة في الشعر الجاهلي كله ، وخاصة شعر الصعاليك الذي كان أصحابه يحكم حياتهم أو حرفتهم أقل اختلاطا بالمجتمعات والرواة .

ولكن ذلك لا يؤثر قط في حديث اللامية من حيث ما يريدونه ، فقد قيلت

(١) الاصمغيات ص ٥٦ .

(٢) أنظر ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكيت ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) هو قيس بن الحدادية أنظر الأغاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

(٤) الفضليات للفضي ص ١٣٤ .

(٥) أنظر خزائن البغدادي ٢٣/٢ وأعجب العجب شرح البيت ٢٩ .

(٦) المصدر السابق ٨٨/١ .

قصائد أطول منها ، وأسبق منها زمنا ، ولم تكن اللامية القصيدة الوحيدة الطويلة بين شعر المتنفرى ، ولم يكن هو الصعلوك الوحيد الذى قال قصائد طويلة فى الجاهلية كما قلنا .

وأما عن النقطة الثانية من هذا الدليل . وهى قلة الاضطراب فى ألفاظها وترتيب أبياتها مما يخالف شعر الصعاليك ، فنقول : ان الواقع غير ذلك ، وحين نرجع الى المقارنة بين روايات شراحها وناقليها نجد بينهم اختلافا كثيرا ، ان لم يزد عن مستوى الاختلاف فى الشعر الآخر للصعاليك فلن يقل عنه ، ويكفى للمثال أن نختار عالين من أدق العلماء فى الرواية ، هما أبو على القالى ، والزمخشري ، ومع دقتهما المشهورة نجد اختلافا بين روايتيهما للامية فى الأملى (١) وأعجب العجب فى شرح لامية العرب (٢) سواء من حيث الألفاظ أو من حيث الأبيات ، ففي الألفاظ نجد بينهما اختلافا فى أكثر من ثمانية وعشرين موضعا مع التجاوز عما يظن أنه من أخطاء المطابع ، وهى على وجه التحديد - حسب الترتيب الآتى عن رواية الأملى - فى الأبيات الأولى والثانى والسادس والثانى عشر والثالث عشر والثامن عشر والثانى والعشرين ، والبيتين اللذين بعدهم والتاسع والعشرين والثانى والثلاثين ، والرابع والثلاثين والذى بعده والثامن والثلاثين والثالث والأربعين والخامس والأربعين والثامن والأربعين والواحد والخمسين والذى بعده والرابع والخمسين والسادس والخمسين والثلاثة اللائى بعده والخامس والستين والذى بعده .

هذا عن الاختلاف فى الألفاظ ، وأما عن الأبيات ، فان القالى رواها سبعة وستين بيتا ، بينما رواها الزمخشري ثمانية وستين .

وهذا الاختلاف يدل على أن الزمخشري نقل عن رواية أخرى غير الأملى ، لأن الزمخشري جاء بعد نحو قرنين من القالى ، فالقالى ولد سنة ٢٨٨ هـ وتوفى سنة ٣٥٦ هـ بينما ولد الزمخشري سنة ٤٦٧ هـ وتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

فالقول اذن بأن اللامية لم يصحبها ما أصاب شعر الصعاليك من الاختلاف ، لا يتفق مع الواقع ، ولا يصلح دليلا .

وأما النقطة الثالثة من هذا الدليل ، والتي نسبت الى كرنكو ، وهى قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها مما خالفت به المؤلف فى شعر الصعاليك ، فنقول عنها : ان فى هذا القول بعدا عن النقد الموضوعى ، فليست أسماء الأماكن والأشخاص ملحا لا بد أن يضاف الى كل طعام ، وأن تحشا به كل قصيدة ، وإنما ينبغى أن نسأل : هل كانت اللامية تقتضى ذكر الأماكن والأشخاص فخلت

(١) أمال القالى ٢٠٥/٣ - ٢٠٨ .

(٢) للزمخشري .

منها ؟ بل ، هل كانت تقبل استعراض أسماء الأماكن والأشخاص . والواقع يجيب بلا ، فسياق اللامية وموضوعها ينحصر في تصوير نفسه إنسان ساحط ، هجر حياة المجتمعات ليحيا حياة يرسمها هو لنفسه كما يريد ، وقد رسمها في صورتين ، أو صورة وإطار حول هذه الصورة ، فأما الصورة فهي الصعلكة ، بما تتطلبه حياتها من أسلحة ، ومن صفات معينة في مزاولها ، وأما الإطار فهو المعقل ، أو الصحراء التي يزاول منها صعلكته بما تحويه الصحراء حوله من مناظر وطبيعة وحيوان ، فهذه العناصر الثلاثة ، السخط ، وحياة الصعلوك والبيئة المحيطة به ، هي كل ما تشتمل عليه اللامية ، وقد وفيت اللامية بأغراضها الثلاثة كأكمل ما يكون الوفاء وأدقه وأبلغه ، بل وفيت بغرضها في درجة لا يتصور أن تربو عليها شاعرية أخرى أن بلغت ، وفوق هذا فهي لم تنطرق إلى أي غرض فرعي بل التزمت الوحدة بكل ما تعرفها بها مذاهبها ، من وحدة نفسية أو عضوية أو موضوعية أو فنية (١) .

وبعد ذلك نسأل : ما الحاجة إلى أسماء الأشخاص والأماكن لدى شخص سخط على الناس فهجرهم متعمدا أن يعيش بين الوحوش ، كما فعل الشنفرى ؟ فهو إن كان في حاجة إلى أسماء الوحوش التي يعيش بينها لا إلى أسماء الناس الذين هجرهم إلى غير رجعة ، وقد ذكر فعلا من أسمائها كل ما يمكن أن يزداد الإنسان في الصحراء .

وإذن فهذه النقطة لا تتفق مع النقد الموضوعي للقصيدة بل توحى بنوع من تلمس الاتهام في شيء من تحامل النقد وأما الدليل الرابع من أدلة صاحب البحث الذي ناقشه ، والذي جعله في صورة نتيجة لادته السابقة عليه ، وهو أن خلفا الأحمر صور في هذه اللامية حياة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا عن طريق تمثيل حياة الصعاليك وشعرهم ، فنقول عنه : أنه من الغريب أنه كان ينبغي أن يصل به هذا المعنى إلى الحكم أو الترجيح بأن اللامية للشنفرى ، ولكنه وصل به إلى عكس ذلك فحكم في بساطة بأن اللامية لخلف الأحمر ، وذلك أن التصوير الرائع الممتاز لحياة الصعاليك بالذات ، لا يتصور أن يصدر من شخص غير صعلوك ، بل غير أصيل في الصعلكة فليست حياة الصعاليك قصرا مزخرفا يمكن لأي شاعر أن يتجول فيه أو يتمثله فيصفه ، كما وصف البحترى أيوان كسرى في سينته الشهيرة ، أن حياة الصعاليك الحقبة بكل جوانبها ، من حيث ما يتعرضون له من أخطار الناس والوحوش ودواب الأرض ، وما تقع عليه أعينهم في مجاهلهم من مناظر قد لا يتاح لغيرهم أن يراها ، وما يسلكونه أو يتعرضون له من مواقف رهيبية في تصعلكهم وأثر ذلك كله في نفوسهم ، كل ذلك لا يتصور أن يصفه وصفا « رائعا ممتازا » شخص يعيش في أحد الأمصار بين مجتمع وادع

(١) أنظر النقد الأدبي الحديث للدكتور عنيى هلال ٤٠١ - ٤١٤ وآراء واتجاهات للدكتور

مطلبن ، من مجرد تمثله حياة الصعاليك واشعارهم ان ما صورته اللامية من أثر الطبيعة في بردها الذى يدفع الصعلوك الى ان يحطم قوسه ليوقدها ويستنقذ بها ، وحرها الذى يذيب اللواب وتتملح منه افاعي الصحراء ، ومطرها الذى يوحل الرمال فيجعلها غطشا وبغشا كما تقول أبياتها ، وما صورته من حياة حيوان الصحراء ومناظرها لا يتصور قط أن يصدر الا عن شخص عاش في هذه البيئة عيشا طويلا ، وانفعل بهذا العيش انفعالا شديدا ، والذى يلفت النظر في صور اللامية أنها مثلا حينما تتحدث عن حيوانات الصحراء ووحوشها لا تعد الى مجرد وصفها كالمألوف في الشعر ، وانما تلجأ الى تصوير معيشة هذه الحيوانات وحياتها مع علاقة ذلك بالصعلوك الذى يعيش في بيئتها ، وكان اللامية لا تكتفي وصف هذه الحيوانات ، ولا وصف مناظر الطبيعة ، وانما تتحدث عن الصعلوك وحياته ، فتربط به بطريقة غير مباشرة كل ما يحيط به من برد وحر ومطر وعيون مياه ، وعوالم من الحيوانات لكل منها معيشته وأسلوبه في الحياة ، فخرم النحل - رئيس جماعة النحل - ورعيته من النحل ، لهن حياة ودقاع عن نتاجهن من العسل عجيب ، والأزل من الذئب حين يجوع فيجمع عصايته من ذئب شيب الوجوه كأنها قدامح ، والقطا في سياقتها الى الماء وتهافتها عليه ثم انصرافها مسرعة كأنها ركب مجفل من أحاطه ، وصورة الصعلوك في مكانه وهو يراقب الطريق بعينين كعيني الأنكى ، ويضحى في صورته كابتة الرمل (١) المترقبة المتوثبة ، وغير ذلك من التصوير الذى نعود فنقول أننا لا نتصور شاعرية تربو عليه ان بلغته ، والشئ الذى انفردت به اللامية فوق جودتها البالغة والذى أشار اليه كارل بروكلمان في سياق إعجابه باللامية هو أنها لا تلجأ الى الطيف عما تعرض له أو تصوره لذاته وانما تركز على النظرة الى هذا الشئ من خلال نفسية صاحبها وإرتباط هذا الشئ الذى تتخذه موضوعا بصاحبها وحياته . وكل ذلك غير مستطاع الا لشخص يجتمع فيه أمران ، أحدهما التكيف مع حياة الصعلوك الى أبعد حدود التكيف ، والآخر القدرة على تصوير هذا التكيف الى أقصى حدود القدرة ، وهذان الأمران لم يكن خلف الأحمر منهما في شئ ، وكان الشنفرى منهما كل شئ فتكيفه مع حياة الصعلوك ظاهر وقدرته على تصوير هذا التكيف لا يبدو في اللامية وحدها وانما نجده في شعره كله ، فحين ندرس ما وصل اليه من شعره نعلم ان شاعريته لم تكن عظيمة في اللامية وحدها ، وانما كانت عظيمة في مواضع كثيرة من شعره ، وميزة اللامية عن شعره أنها جمعت متفرقات عظيمة أو متناثراتها في لوحة كاملة ، فاللامية قريبة من شعر الشنفرى ومنهج تفكيره قريبا واضحا ، في حين أنها بعيدة عن شعر خلف ومتويع تفكيره على تلونه بعيدا واضحا أيضا كما يؤيد ذلك صاحب تاريخ الأدب العربى (٢) ، ومن هذا نرى أن الحديث كان ينبغى أن يصل الى أن اللامية

(١) الحية .

(٢) كارل بروكلمان ١٠٥/١ .

للسنفرى كما يقتضى منطق النقد ، لا خلف لما ذهب صاحب البحث الذى
تناقشه .

ولسنا نريد من هذا الرد انكارا على باحث أن يبدى وجهة نظره أصاب
أو أخطأ ، فالاجتهاد فى حال صوابه وخطئه غير ممقوت ، غاية الأمر أن الاجتهاد
لا يتيقن أن يترك الطريق النيرة المستقيمة الى الدروب الملتوية المظلمة .

ولكن الذى بلغت النظر أن يكون متعصبو الفرس فيما نرجح ، أول من
يحاول سلب اللامية عن المنزع العربى فى القديم ، وأن يكون متعصبو المستشرقين
أول من يحاول احياء هذا التشكيك فى الحديث ، والأشد غرابة أن هذا التشكيك
سواء قديمه وحديثه لا يستند الى أى سند تاريخى أو فنى ، لأنه من حيث التاريخ
لم يستند على أية رواية الا كلمة ابن دريد ، وكلمة ابن دريد لا تعتبر من الوجهة
العلمية رواية ، لأنه لم يذكر سنداً لها ، ولا تعتبر رأياً لابن دريد ، لأنه لم
يسجلها فيما بلغنا من مؤلفاته وكثير من موضوعاتها حول الشعر ونقده ، ومن
حيث الوجهة الفنية لا نجد شبهاً أو تقارباً قط بين شعر خلف الأحمر واللامية ،
بينما تجد الناحيتين التاريخية والفنية تؤكدان أنها للسنفرى ، فقد اتفق العلماء
فى كل العصور وفى مقدمتهم القالى الذى روى كلمة ابن دريد على أن اللامية
للسنفرى ، ويكفيها بالاضافة الى شراحها الكثيرين الذين لا يبدون شكاً قط فى
نسبتها للسنفرى ، يكفيها بالاضافة اليهم أن يجمع ثلاثة من صفوة العلماء والنقاد
على أنها للسنفرى ، وهم القالى (١) والزمخشري (٢) والنويرى (٣) .

ومن الناحية الفنية يكفيها دليلاً على نسبتها الى السنفرى اعتراف المشككين
أنفسهم بما بلغت من مقدرتها على تصوير حياة الصعاليك ، واعتراف البحث الذى
تناقشه بأنها صورت هذه الحياة تصويراً « رائعاً ممتازاً » .

وأظننا بعد هذا الحديث عن اللامية فى حاجة الى ايرادها ، ولكننا مع ذلك
نقول ان تذوق اللامية لا تكفى له القراءة العجلى ، وانما يحتاج الى تأن ودراسة ،
وأيسرها ينبغى الحرص عليه للاستمتاع باللامية وتذوقها أن نحاول فهم الفاظها ،
فتكاد تكون هى الحائل الوحيد بين القارئ العادى وبين ظهوره على جوهر
اللامية ، لغرابة كثير من هذه الألفاظ ، وهذا نص اللامية كما رواها أبو على
القالى وأشير الى أهم ما بينه وبين الزمخشري من خلاف فى الرواية مستعينا
بشرح الزمخشري .

(١) الأمالى ٢٠٥/٣ .

(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب .

(٣) نهاية الأرب ٢٢٧/٦ .

فانى الى اهل سواكم لامل (١)
 وشلت لطيانى مطايا وارحل (٢)
 وفيها لمن حاف الفل متعزل (٣)
 سرى راغبا او راهبا وهو يعقل (٤)
 وارقط زهلول وعرفاء جبال (٥)
 لديهم ولا الجاني بما جر يعتدل (٦)
 اذا عرضت اؤلى الطرائد ايسل (٧)
 بأعجلهم اذ أجشع القوم اعجل
 عليهم وكان الافضل المتفضل
 بحسنى ولا فى قربه متعلل
 وايض اصليت وصفراء عيقل (٨)
 رصائع قد نيطت عليها ومحمل (٩)
 مرزاة تكلى ترن وتعمل (١٠)
 مجلدة سقبانها وهى بهل (١١)
 يطالعا فى شأنه كيف يفعل (١٢)
 يظل به المكاء يعلو ويسفل (١٣)

القيموا بنى امى صبور مطيكم
 فقد حمت الضجات والليل معمر
 وفى الارض منى للكريم عن الاذى
 لعمرك ما بالارض ضيق على امرى
 ولى دونكم اهلون سيد عملس
 هم الرهط لا مستودع السر شائع
 وكسل ابى باسل غير اننى
 وان مدت الايدى الى الزاد لم اكن
 وما ذاك الا بسطة عن تفضل
 وانى كفانى فقد من ليس جازيا
 ثلاثة اصحاب فؤاد مشيع
 هتوف من الملس الحسان يزينها
 اذا ذل عنها السهم حنت كانهما
 ولست بمهياف يعشى سواه
 ولا جبا اكهى مرب بعرسه
 وهما زاد الزمخشري بيتا لم يذكره القالى وهو :
 ولا خرق هيقي كان فؤاده

- (١) فى رواية الزمخشري الى قوم سواكم ، والتفضيل فى امل على غير بابيه اى مائل .
 (٢) حمت : تهيأت ، ومقر : مضى ، والطينة : الحاجة ، وأرحل جمع رحل ، ورواية
 الزمخشري لطيات
 (٣) المتعزل : مكان العزلة .
 (٤) رواية الزمخشري ما فى الارض .
 (٥) السيد الذئب وقد يسمى به الأسد . والمجلس الذئب القوى السريع ، والارقط النمر
 والزهلول الاملس والجبال الضبع وعرفاء : طويلة .
 (٦) عند الزمخشري هم الامل لا مستودع السر ذائع .
 (٧) يعنى مع قوة هذه الوحوش ويسالتها فانما ايسل منها واسرع الى الصيد ، والزمخشري
 يرى المواد بالطرائد القربان المتسابقون للصيد ، وهو انسب لما بعده .
 (٨) مشيع : كان له شيمة تناصره ، واييض اصليت : سيف صقيل ، وصفراء عيقل :
 قوس طويلة المنق .
 (٩) الهتف الصوت والملاسة التعمية وييطت علقت والحمل علاقة السيف . وعند
 الزمخشري الملس المتون (جمع متن وهو الصلب) وتيطت اليها .
 (١٠) للزمخشري مرزاة عجل وتعمل من العويل .
 (١١) الهياف السريع العطش والمجدعة المقطوعة الاذان والسقب ولد الناقة والباهل الناقة
 غير معروضة ، يريد انه لمسيره على العطش يدخل سوائه الراعى البعيدة .
 (١٢) الجبا الجبان والاكهى الابخر والسء الخلق او البليد ، ولرب الملازم لامراته والشرط
 الثانى معناه لا يحرس على اشتشارتها .
 (١٣) الخرق الدمشق والهيقي الظليم والمكاء طائر يعنى لست حلوة كالنعام ولا مطربة
 كالطائر .

يروح ويغدو داهنا يتكحل (١)
 ألف إذا ما رعته اهتاج اعزل (٢)
 هنى الهوجل العسيف يهماء هوجل (٣)
 تطاير منه قاذح ومفلل (٤)
 واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (٥)
 على من الطول امرؤ متطول (٦)
 يعاش به الا لئى وماكل (٧)
 على الضيم الا ريثما اتحول (٨)
 خيوطه ماري تبار وتفتل (٩)
 ازل تهاده التناثف اطحل (١٠)
 يخوت باذئاب الشعاب ويعسل (١١)
 دعا فاجابته نظائر نحل (١٢)
 قذاح بكفى ياسر تتقلقل (١٣)
 محايض رداهن سام معسل (١٤)

ولا خالف دأويه متفزل
 ولست يعمل شره دون خيره
 ولست بمحيار الظلام اذا انتحت
 اذا الامعز الصوان لاقى مناسمي
 اديم مطال الجوع حتى أميته
 واستف ترب الأرض كي لا يرى له
 ولولا اجتناب الدأم لم يبق مشرب
 ولكن نفسا حرة لا تقيم بي
 وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت
 واغدو على القوت الزهيد كما غدا
 غدا طاويا يعارض الريح هافيا
 فلما لواه القوت من حيث أمه
 مهلهة شيب الوجوه كأنها
 أو الخشرم البعوث حثت دبره

(١) الخالف الذى لا يخير فيه والدارى اللزوم لداره يعنى لست تاتاه منقطعا للفزل والدمن

والكحل •

(٢) المل : القراد والمراد الرجل ألسن الضئيل الجسم كالقراد والألف العاجز •

واهتاج أسرع بحق •

(٣) المحيار المتخير وعند الزمخشري اذا انتحت أى قصدت واعترضت والهوجل الرجل الطويل الأحق والعسيف الجاهل واليهماء المتاعه من الصحراء والهوجل آخر الغلاة لا أعلام بها •

(٤) الا معن لكان الصلب كثير الحصى والصوان الحجارة اللبس والمنسم فى الأصل خف البعير يريد رجليه والقاذح الشرر والمفلل المكسر •

(٥) المطال من الماطلة وأذهل أنسى •

(٦) الطول المن •

(٧) عند الزمخشري لم يلف •

(٨) عند الزمخشري نفسا مرة وعلى الدأم

(٩) الخمص الجوع الشديد والحوايا الأمعاء والخيوطه السلوك ومارى رجل وعند

الزمخشري تخاط وتفتل •

(١٠) الأزل الذئب الخفيف الوركين والتنوفة المغارة والاطحل الأغبر اللون •

(١١) الطاوى الجائع والهافى الجائع أو السريع ويخوت ينقض ويمسل يمشى الخبيب

(١٢) لواه مطلقه ودفعه وأمه قصده والنظائر الاشياء والنحل المهازبل •

(١٣) مهلهة رقيقة اللحم والقذح السهم قبل أن يراش والياسر المقامر •

(١٤) الخشرم رئيس النحل أو بيت الزناير والمبعوث مسرع السير وحثت حض والدبر جماعة

النحل والمحايض العيدان التى يجمع بها العسل ورداهن انزلهن والمسل جامع العسل وسام مرتفع وعند الزمخشري أرداهن • وهو تصوير لقصة جماعة نحل وجدت غلاياها مهنده •

- مهرة فوه كان شقوقها
فضج وضجت بالبراح تأنها
واغضى واغضت واتسى واتست به
شكا وشكت ثم ادعوى بعد وادعوت
وفاء وفات بادرات وكلها
وتشرب أسارى القطا الكدر بعدما
هممت وهمت وابتدرنا واسدلت
قوليت عنها وهي تكبو لعقره
كان وغاما حجرته وحوله
توافين من شتى اليه فضمها
فهب غشاشا ثم مرت كأنها
وآلف وجه الأرض عند اقتراشها
وأعدل منحوصا كان فصومه
فلن تبتسى بالثنفرى أم قصطل
- (١) شقوق العصى كالحات وبسل (٢)
واياه نوح فوق عليها، فكل (٣)
أرامل عزاه وعرته أرمل (٤)
وللمبر أن لم ينفع الشكو أجمل
على نكط مما يكاتم مجمل (٥)
سرت قريبا أحشاؤها تتصلصل
وشمر منى فارط متمهل (٦)
يباشره منها ذقون وحوصل (٧)
أضاميم من سفلى القبائل نزل (٨)
كما ضم أذواد الأصاريه منهل (٩)
مع الصبح ركب من أحاطة مجطل (١٠)
بأهلا تنبيه سمناش فحل (١١)
كعاب دحاه لاعب فهي مثل (١٢)
لما اغتبطت بالثنفرى قبل أطول (١٣)

- (١) مهرة واسعة الاشدق وفوه مفتوحة الأنواء والشدق جانب الفم والكلوح التفسير
وانبوس وبسل كربة الوجوه .
- (٢) البراح الأرض الغضاء والنوح جمع نائحة وكل جمع فكل وعلياء بقعة مرتفعة يعنى
رئيس النحل وجماعته .
- (٣) يعنى أن رئيس النحل وجماعته جميعهن الحزن الشديد على العسل كأنهن فى ماتم
وحين يتسن من جدوى النواح أطرقن وتبادلن العزاء ، وأرامل جمع أرملة معروفة وعند الزمخشري
« مرامل عزاه وعرته مرمل » والمرمل الذى نلد زاده ومرامل جمعه .
- (٤) فاء رجم وبادرات مسرعات ومجمل صانع الجميل وعند الزمخشري نكط بالطاء ولعله
خطا مطبوع فى الأمانى والنكط المجلة أو الجوع .
- (٥) السؤر بقية الثراب والقرب المسير الى الماء على بعد ليلة وتتصلصل تصبوت وعند
الزمخشري أحناؤها تتصلصل والاحناء الجوانب .
- (٦) أسدلت أرخت اجتمعها والفارط المتقدم والمتهمل المتشد فى أمره ، يعنى مسابقة بينه
وبين الظاهر الى الماء .
- (٧) يعنى شرب قبلها فلم يترك للقطا الا سؤرا فى عقر الحوض تكبو فيه لقلة الماء .
- (٨) وغاما أصواتها حجرته جوانبه والأضاميم جمع أضمامة الجماعة منطسمين وعند
الزمخشري سفر القبائل أى مسافريهم .
- (٩) توافين اجتمعن والذود ما بين الثلاثة والمشرة من الابل والأصاريه مجموعة الابل نحو
الثلاثين والمنهل مورد الماء .
- (١٠) الملب شرب الماء من غير مص ولغشاشا مستعجلة وأحاطة لبيبة من اليمن والأولى أنه
مكان والركب قطع وحشى .
- (١١) الأهدأ شديدة الثبات يعنى جسمه وتنبه ترقمه والسفا سن حروف فقاد الظهر وقمل
جافة .
- (١٢) أعدل أتوسد ذراعا وللنحوى اليابس والفصوص المائل ودحاهما بسطها .
- (١٣) تبتسى تحزن وعند الزمخشري أم قصطل بالسين وهو القيار كناية عن الحرب ،
وللعنى أن حرمت الحرب لفارقت لها الآن . فطالما سورتها قبل ذلك .

- طريد جنايات تياسرن حمه
تبيت اذا ما نام يقطي عيونها
والف هموم ماتزال تعود
اذا وردت أصدرتها ثم انها
فاما تريني كابنة الرمل صاحبا
فاني لمولى الصبر اجتاب بزه
واعلم احبانا واغنى وانما
فلا جزع خلة متكشف
ولا تزدهى الاجهال حلمي ولا ارى
وليلة نحس يصطلي القوس ربها
دعست على بغش وغطش وصحبتى
فايمت نسوانا وايمت اللة
فاصبح عنى بالقميصاء جالسا
فقالوا لقد هرت بليلى كلابنا
فلم يك الا نبأه ثم هومت
- (١) عبقيرته لايهاجم اول
حنا الى مكروهه تتغفل
عيادا كحصى الربع او هي اثقل
تثوب فتاتي من تحيت ومن عل
على رقبة احفى ولا اتنعل
على مثل قلب السمع والحزم افعل
ينال الغنى ذو البعلة المتبذل
ولا مرج تحت الغنى اتخيل
سؤلا باعقاب الاحاديث انمل
واقطعه اللاني بها يتنبل
سعار وادزير ووجر واكمل
وعلت كفا ابدات والليل اليل
فريقان مسئول وآخر يسأل
فقلت اذتب عس ام عس فرعل
فقلنا قطاة ريع ام ريع اجدل

(١) تياسرن لحنه اقتسموه ، والعقيرة اللحم ايضا ، والمعنى كثرت جناياته فلا يدري
بايها يؤخذ .

(٢) عند الزمخشري تمام يعنى الجنايات وحنايا يعنى متعجلين .
(٣) عياد مصدر عاد والربع من الحمى ان تأخذ الحمى يوما وتدع يومين ثم تجيء . وكذلك
مبومة .

(٤) وردت حضرت . وأصدرتها رددتها وتثوب ترجع وتحيت تصغير تحت وعل من العلو .
(٥) ابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقبة يريد مكان الترقب وعند الزمخشري رقة أى
رقة حال .

(٦) مولى الصبر صاحبه والسمع ولد الذئب من الضبع والحزم مفعول مقدم .
(٧) اعلم افتقر والبعلة البعد والتبذل المجازف يعنى ينال الغنى من يتنقل مبعدا مجازفا .
(٨) الخلة الفقر وعند الزمخشري من خلة والتخيل من الخيلاء يعنى لا اظهر شعورى بالفقر
ولا بالغنى .

(٩) تزدهى تستخف والاجهال جمع جهل وعند الزمخشري باعقاب الاقاويل ورجل نمل أى
تمام .

(١٠) النحس البرد واصطلي استدفأ بالنار وربها صاحبها والاقطع تصال السهام يعنى -
يستدفئ بقوسه وفضاله من البرد .

(١١) الدعس الوطء والبغش المطر الخفيف والغطش الظلمة وعند الزمخشري على غطش
وبغش والعمار شدة الجوع والادزير البرد والوجر الخوف والافكل الرعدة .

(١٢) الايم من النساء والرجال من لازوج له وايمت اليتيم والدة اولاد وآليل مظلم .
(١٣) عند الزمخشري وامصيص القميصاء موضع يتجدد يعنى امصيص أهل الحى الذى غزوته
فريقين مسئول وسائل .

(١٤) هربت الكلب صوته وعند الزمخشري فقلنا اذتب والعس الطواف بالليل والفرعل ولد
الضبع .

(١٥) النبأ صوت وهومت نامت وريع أفزع للمجهول والاجدل الصقر وعند الزمخشري فلم
يك بالتاء .

وان يك انسأما كما الانس تفعل
 أفاعيه في رمضائه تتململ (١)
 ولا ستر الا الاتحى المرعبل (٢)
 لبأند عن أعطافه ما ترجل (٣)
 له عيس عاف من الفسل محول (٤)
 بعاملتين ظهره ليس يعمل (٥)
 على قنة أقي مرارا وأمثل (٥)
 عذارى عليهن الملاء المذيل (٧)
 من العصم أدفى ينتجى الكيج أعقل (٨)

فان يك من جن لأبرح طارقا
 ويسوم من الشمرى يلوب لوابه
 نصبت له وجهى ولاكن دونه
 وضات اذا هبت له الريح طيرت
 بعيد بمس الدهن والفلى عهد
 وخرق كظهر الترس قفر قطعتيه
 فالتحت أولاه بأخراه موفيا
 ترود الأراوى الصحم دونى كأنها
 ويركدن بالأصال حولى كأننى

منهج شعرهم وموضوعاته

باستثناء الشذوذ الذى لا تخلو منه قاعدة أو حكم ، يمكن أن يقال ان شعر الصعاليك ليست له موضوعات معينة يتجه اليها اتجاهها مقصودا ، ومع ذلك نجده يكاد يطرق كل الموضوعات المألوفة فى الشعر العربى القديم على تفاوت فى تعرضه لهذه الموضوعات .

وقد يبدو فى هذا شيء من التناقض أو الغرابة ، ولكنها الحقيقة التى ينتهى اليها الدارس الناقد لشعر الصعاليك .

فشعر الصعاليك ، قصائده ومقطوعاته ، يغلب عليه نوعان ، نوع يحتوى على معان كثيرة رغم تقاربها ، وأغلب ما يكون ذلك فى القصائد ، كلامية الشنفرى ولامية عبدة بن الطيب ونوع يطرق معنى واحدا أو يدور حول معنى واحد ، ويغلب ذلك فى المقطوعات ، وهى أكثر ما وصل إلينا من شعر الصعاليك .

(١) للراد بالشمرى شدة الحر واللواب ما ينتشر فى الجو مثل المنكبوت من الحر والمرض شدة وقع الشمس على الأرض .

(٢) نصبت أقمته والكن الستر والأتحى ضرب من البرود والمرعبل المرقق .

(٣) ضاف سابغ والللبأند خصال الشعر بين الكتفين والأعطاف الجوانب وترجل تمشط أى لا يستر . وجهى الا ثوب مزق وشعر غير مرجل .

(٤) الحيس ما يتعلق بأذنان الأبل من أبوالها وأبمارها فيجف عليها معنى أن شعره لا ينال الدهن والتقلية فيتراكم عليه الوسخ والميس .

(٥) الحرق الأرض الواسعة كظهر الترس فى الاستواء والعاملتان وجلاه والغصير فى ظهره للخرق أى مكان غير مطروق .

(٦) الغصير فى أولاه للخرق وموفيا مشرفا والقنة أعلى الجبل والاقماء جلسة خاصة وأمثل انتصب قائما .

(٧) ترود تذهب وتجهى والأراوى انشئ الوعل والصحم السود الى صفرة والملاء ضرب من الثياب يريد الأراوى تالفتى وعند الزمخشري حولى كأنها .

(٨) يركدن يشبتن والأصال جمع أصيل والأعصم ، الوعل فى ذراعه بياض والادفى ما طال قرنه ويستحى يعتمد ويقصد والكيج عرض الجبل وسنده والأعقل الممتنع .

ولكن الذى يلفت النظر أننا لا فى هذا ولا ذاك نجد القصد الى الغرض أو الموضوع واضحا ، بمعنى أننا حين نتأمل شعرهم فى جملته نجد أنهم لا يقصدون قصدا واضحا الى الحديث فى غرض معين أو التركيز فى موضوع خاص ، وحتى المقطوعات التى تدور حول معنى واحد ، مع أنها فى ظاهرها مقصورة على غرض وموضوع معين ، الا أننا بعد قراءة المقطوعة وتأملها نجد فى نفوسنا احساسا بأن موضوع القطعة ليس غرضا مقصودا لذاته ، وحين نحاول البحث عن الغرض المقصود نجد أنه دائما ينتهى الى شيء واحد ، هو شخصية الصعلوك نفسها وحياته ، فقد يتحدث الصعلوك مثلا عن الفقر ، وقد يتحدث عن السلاح ، وقد يتحدث عن الوحوش ، وقد يتحدث عن الناس ، ولكننا نحس أنه لا يتحدث عن شيء من ذلك لذاته ، فلا يتحدث عن الفقر من حيث وصف آثاره وملابساته لذاتها ، وانما يتحدث عنه من زاويته هو ، وعن موقفه منه وتأثره به ، ويتحدث عن البيئة مثلا ، فيصف ليلة شديدة البرد ، أو يوما شديد الحر أو وحوشا ترود من حوله أو أعداء يرصدونه متربصين به ، ولكنه لا يتحدث عن شيء من ذلك حديث الواصف فحسب ، كما يتخذ بعض الشعراء من مثل هذه الأشياء لوحات فنية مقصودة لذاتها ، فيصفون ما فيها قاصدين الوصف لذاته ، وانما يتحدث عن مثل هذه الاشياء من زاويته هو ، ومن حيث ارتباطه بها فى مزاولة الصعلكة وتأثره بها ، ومثال ذلك وصف عمرو بن براقه لظلام الليل وسكونه فى الصحراء فقد رسم لوحة فنية لاحدى ليالى الصحراء ، حين يوغل الليل ، فيخيم الظلام حتى لا يبدو فيه الا تالق النجوم ويسيطر النوم والسكون على البدو المقيمين بالصحراء ويخيم الهدوء والسكون فلا تسمع فيه الا أصوات البوم منعا من ثنايا الجبال ولكننا نجد أن هذا الوصف ليس مقصودا لذاته لهدفه . وانما يسوقه عرضا فى خلال حديثه عن غاراته وصعلكته قائلا انه ينتهز مثل هذا الوقت من الليل ليغير على أعدائه . فهو أضمن وقت لنجاح الغارة ، حيث يأخذ أعداءه على غرة ، أو ينسل من ما لهم بما يرد دون أن يشعروا به فيقول :

إذا الليل أدجى واسجهرت نجومه وصاح من الافراط يوم جوائم (١)
ومال بأصحاب الكرى غالباته فانى على أمر الغواية حازم (٢)

وكذلك يرى النسفرى يرسم لوحة فنية لاحدى ليالى الشتاء فى الصحراء ، نرى السماء فى هذه اللوحة يتساقط منها المطر ، ونرى الأرض قد ابتلت رمالها فأصبحت مرحلة . ونرى فيما بين السماء والأرض بردا قارسا بالغ القسوة . ونرى بى عمده اللوحة صعلوكا حائرا بين مطر السماء ووحل الأرض وبرد ما بينهما ، وحاصرته هذه العوازل ، فاستبد به الجوع حتى بلغ أقصاه ، واستبد به الخوف

(١) ادجى أظلم واسجهرت لمعت والافراط مجبوعة جبال .
(٢) أمال النال ١١٦/٢ واسجهرت نجومه . رواية الأعمش . أما روايه التال في .

حتى بلغ اقصاه ، واستبد به البرد حتى ظل جسمه كله يرتعد وحتى دفعه هذا البرد الى تحطيم قوسه الذي يزود بها عن حياته الوحوش والمخاطر فيوقدها هي وصالها ليستثنى بهن ، ويدفع عن جسمه بعض هذا البرد الشنيع .

هذه لوحة بديعة رائعة يمكن أن تستوعب قصيدة كاملة في غرض مقصود لذاته ، ولكننا نجد الشنفرى لا يسوق هذا الوصف كموضوع أو غرض مقصود ، وانما يسوقه عرضا في خلال حديثه عن المتاعب والمخاطر الجسيمة التي تغلب عليها بقوة عزمه وارادته فيجتازها حتى يبلغ هدفه من غاراته على أعدائه ، فليس هذا الوصف هو المقصود ، وانما المقصود أنه لا يرده عن عزمه شيء فيقول من لاميته الشهيرة :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأقطع اللاتي بها يتنبسل (١)
دعست على غطش وبفش وصحبتى سعار وادزير ووجر وأفكل (٢)
فايمت نسوانا وأيتمت اللة وعدت كما أبدأت والليل اليل

وهكذا نجد هذا الاتجاه غالبا على شعرهم كله كما سنرى خلال الموضوعات الكثيرة التي طرقها شعرهم ، ومن هذا نعلم أنه لا تعارض بين القول بأن شعرهم لا يتجه اتجاها مقصودا الى اتخاذ الموضوعات والقول بأنه طرق تقريبا كل الموضوعات المألوفة في الشعر القديم ، فالفاصل بين الاثنين هو القصد والاتجاه ، بمعنى أن الموضوعات نفسها موجودة ولكنها كما قلنا ليست مقصودة لذاتها ، وانما المقصود هو شخصية الشاعر الصعلوك نفسه وحياتها ، ولعل هذا مانعنا المستشرقون خلال حديثهم عن لامية العرب وتقدهم اياها من قولهم انها تمثل مذهبا شعريا مستقلا عن الشعر القديم ، كما يقول صاحب تاريخ الأدب العربي « أما في لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعري مستقل كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب في تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلي وصف الطبيعة من الجبال والفياني وغيرها غرضا مقصودا لذاته يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى يهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله ، (٣) ولكن هذا الاتجاه أو المذهب ليس قاصرا على اللامية وحدها ، وانما هو طابع شعر الصعاليك كله في جملته وهذا الطابع من العوامل الأساسية في امتياز اللامية وبروزها بين الشعر العربي كله ، فحين نقول أن لامية الشنفرى طراز شعري فذ ، فليس معنى ذلك أن ميزتها جاءت من قبل شاعريتها ، وانما جاءت قبل ذلك من قبل أنها تحمل هذا

(١) النحس البرد واصطلي استدفأ وربها صاحبها والاقطع فصال السهام .

(٢) الدعس الوطء والغطش الظلمة والبفش للطر الخفيف والسمار شدة الجوع والادزير البرد والوجر الخوف والافكل الرعدة .

(٣) كارل بروكلمان ١٠٦/١ وما بعده ترجمة النجار .

الطابع المميز لشعر الصعاليك ، وأنها بلغت في هذا الطابع حد الكمال الشعري، وهذا الكمال هو كل ما تفوق به عن شعر الصعاليك ، فحين ندرس شعر الصعاليك نجد أن معاني لامية السنفرى بل وكثيرا من طابع أسلوبها وخصائصها شائعا فيه ، واللامية جمعت أهم هذه المزايا ، وصاغت بها بما يلائمها من الأسلوب ، وصورتها فيما يبرز جمالها من الصور . ومعنى ذلك أن شعر الصعاليك ينهج منهجا متميزا عن غيره ، ويحمل طابعا يميزه عن سواه .

وإذا أردنا أن نلخص هذا الطابع في تقريره إلى الذهن نقول : أن شعر الصعاليك أشبه ما يكون بالذكرات الشخصية التي يدون الشخص فيها أفكاره ومشاعره وما يحسه حوله في موقف من المواقف . وموقف الصعاليك هو الصعلكة بما يلازمها من أسباب تدفع إليها كالفقر والحاجة . ومخاطر يتعرضون لها في مزاوله الصعلكة من أعداء ووحوش ومتاعب ، وآثار تتمخض عنها الصعلكة من جنائيات يطالب أصحابها بالثأر لها . وموتورين يتربصون بالصعلوك الانتقام ، وهذه المواقف وما يتعلق بها هي التي تثير مشاعرهم إلى الشعر . من ناحية احساسهم وتأثرهم بها ، فيسجلون بشعرهم هذا الاحساس ، ولهذا لم يبد في شعرهم تشتت أو تفكك رغم أنه لا يركز الحديث حول أغراض ثابتة أو موضوعات محددة فقد كان المتوقع وحال شعر الصعاليك كذلك من عدم تحديده موضوعات له أن يبدو مفككا متناثرا ، ولكنه لم يكن كذلك بل كان على العكس ، بادى الوحدة والترابط وعدم التناثر بين معانيه ، وذلك لأن لجوءه إلى أسلوب المذكرات الشخصية جعل فيه قاعدة ثابتة تشد إليها كل المعاني ، هذه القاعدة هي شخصية الصعلوك ، فمهما كانت المعاني التي تطرقها القصيدة أو المقطوعة متباعدة في ذاتها فإن ارتباطها بشخصية الشاعر في صورة المذكرات يجعلها شديدة الترابط لأنها تتجمع كلها حول هذه الشخصية ، والمعاني أو الأحداث لا بأس بتغايرها مادام هناك الرابط الذي يجمعها ، ومثال ذلك المذكرات الشخصية التي مثلنا بها ، فقد يكون هناك شخص في رحلة ، أو معركة ، أو موقف مثير ، فيسجل انفعالاته ومشاعره ، ويسجل مشاهدته ، وقد تكون هذه المشاعر مختلفة، وقد تكون المشاهد ، متغايرة ، ولكنها ما دامت مرتبطة بصاحبها فهي جميعا أجزاء في وحدة مترابطة ، كما لو تخيلنا مثلا مسافرا ضل الطريق في إحدى المجاهل فبات ليلة مخيفة عصبية ، فحدثنا عن مشاعره في هذه الليلة ، فقد يحدثنا عن خوفه بما يشاء أن يصور في هذا الخوف ، وقد يحدثنا عن جوعه بما يشاء من تصوير ، وقد يحدثنا عن مفاجآت مرت به ، وقد تجمع هذه المفاجآت بين ما يشبه المتناقضات ، فيرى هذا التائه شيئا يتخيل فيه منقذا فيفرح أشد الفرح ، وإذا الشبح وحش مفترس فيفزع أشد الفزع ، أو يبلغ منه العطش فيرى ماء فيفرح فإذا هو سراب، وفي خلال ذلك قد يحدثنا هذا التائه عما

يشاء من مناظر مهما كانت مختلفة ، بشرط واحد مهم ، هو أن تكون هذه المناظر مرتبطة بالموقف الذى هو فيه، فله أن يحدثنا عن مطر أصابه فى هذه الليلة ويصور آثاره كما يشاء وله أن يحدثنا عن وحوش رآها من مكنه فأخافته وعن أى شيء يحسه أو يراه مهما كانت الأحاسيس . أو المناظر مختلفة بشرط واحد كما قلنا هو أن ترتبط هذه الأمور بالموقف فإذا لم ترتبط كانت شتاتا مبعثرا ، لأن الموقف هو الحيط الذى يربط هذه المعانى على اختلافها فتبدو شيئا واحدا ، فإذا انفصلت عن هذا الحيط كانت بددا مبعثرا .

ومثال ذلك أيضا القصة نجدها تنتقل من الأحداث الأصلية والفرعية والمواقف المختلفة ولكن ارتباطها بشخصية بطل القصة ، وتتابعها فى خط يسير مع هذه الشخصية يجعل من أحداثها ومواقفها مهما اختلفت شيئا واحدا متتابعاً لأنها مرتبطة بقاعدة ثابتة هى شخصية البطل ، ولو تصورنا هذه الأحداث والمواقف التى تحتوى عليها القصة فى غير سياق القصة ، بأن أخرجنا منها شخصية البطل وارتباط الأحداث به ، ثم سردنا المواقف والأحداث المتعلقة بالشخصيات الأخرى لكانت صورة أحداث أى قصة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن صورتها فى القصة ومن أمثلة هذا المنهج فى الشعر المعاصر قصيدة « ليلة التنفيذ » (١) التى نالت تقديرا كبيرا من النقاد ، والتى تصور شخصا محكوما عليه بالاعدام يصور مشاعره فى ليلة تنفيذ الإعدام ، وهى مشاعر عديدة مختلفة ، عن والديه ، وعن حياته وما مر فيها ، وعن نفسه حينئذ ، وشعوره نحو ما حوله ، وخاصة السجن وخطواته ، ونحو الغد وما وراءه ، ومشاعر أخرى ، وهذه المعانى على اختلافها بدت فى القصيدة مترابطة أشد الترابط ، لأنها مرتبطة بالقاعدة الثابتة ، التى تتمثل فى ليلة التنفيذ ، بالنسبة للمحكوم عليه .

وأوضح مثال لمنهج الصعاليك فى شعرهم لامية الشنفرى التى تصور فى جملتها شخصا ضاق بمقامه بين الناس ، حين ضاق بأخلاقهم وموقفهم منه ، وبلغ منه الضيق أن أبغض النوع البشرى كله ، فهجره الى حياة الصحراء بما فيها من وحدة ووحوش ، مسجلا ذلك كله فى قصيدة شعرية هى اللامية ، كما يسجل انسان مشاعره وبعض أحداث حياته فى مذكرات ومن هذا نصل الى نقطة أخرى مكملة للنقطة السابقة ، وهى أنه ما دام شعر الصعاليك يصور أحداث حياتهم ومشاعرهم نحوها فهل يحمل طابع حياتهم ؟ وهل استطاع أن يعكس خصائص حياتهم ؟ بمعنى أن الصعاليك كانوا كما هو معروف يحيون حياة متميزة عن حياة غيرهم باعتمادها على العدوان والسلب والنهب ، ومعاناة مشقات كثيرة فهل استطاع شعرهم أن يحمل هذا الطابع المتميز ، بحيث يمكن تمييزه عن غيره من الشعر ، كما تميزت حياة أصحابه عن حياة غيرهم ؟ وحتى يصدق عليه أنه ينهج منهج المذكرات الشخصية وللإجابة عن ذلك نقول :

(١) للشاعر هاشم الرفاعى .

نريد قبل ذلك أن نحدد الناحية التي تميزت بها حياة الصعاليك ، لنرى بعد ذلك هل انعكست هذه الناحية بموضوعاتها في شعرهم أم لا ؟ والناحية التي تميزت بها حياة الصعاليك متشعبة التفاصيل ، ولكن يجمعها جميعا أنها حياة صراع .

صراع مع كل شيء ، مع الأسباب التي دفعتهم الى الصعلة ، كالفقر والشعور بالمهانة والضياع ، وصراع مع الصعلة نفسها في مزاولتها ، وما يتعرضون له خلال ذلك من مخاطر ومشتقات ، وصراع مع آثار الصعلة ، من الأعداء المجنى عليهم ، ونواحي أخرى تتمخص عنها الصعلة ، فحياتهم يمكن تلخيصها في أنها « حياة الصراع » وقد كان صراعا شاقا مضنيا قاسيا ، لا تقوى على دوام احتماله الا نفوس أوتيت مقومات خاصة من القوة والجلد وثبات العزيمة ، ولو لم يؤث الصعاليك من ذلك كله حظا كبيرا لما استطاعوا ان يكونوا صعاليك .

وقد انعكس هذا الصراع في شعرهم ، كما سنرى في الموضوعات الآتية ، فقل أن نجد مقطوعة منه ، بل قل أن نجد بيتين متجاورين يخلوان من التعبير عن هذا الصراع الذي شمل حياتهم كلها ، بل تعدى أحداث الحياة وأسلوب المعيشة الى دخيلة نفوسهم ، فتراهم يصارعون في نفوسهم معاني قلمسا يعرض لها غيرهم ، كالهجوم والخوف والتشاؤم من الحياة والاستخفاف بها ، حتى يمكن أيضا أن نسميه « شعر الصراع » وقبل أن ندخل في تفصيل موضوعات شعرهم نحب أن نقول : انه يمكن اجمال موضوعات الصراع التي طرقتها شعرهم في ثلاثة موضوعات رئيسة كما أشرنا آنفا ، اولها الأسباب التي من شأنها أن تدفعهم الى الصعلة كالفقر وآثاره ، والشعور بالهوان في المجتمع والضياع فيه ، وثانيها حياة الصعلة نفسها وبيئتها وأساليبهم في مزاولتها ، وما يتعرضون له خلال ذلك ، وما يعدونه من أسلحة لها وما الى ذلك ، وثالثها الآثار التي تجرهما عليهم الصعلة ، كالأعداء ، والسلطان في الاسلام بما يحتوى عليه هذان المجالان من نواح .

وهناك أمران نحب أن نزيدهما وضوحا ، أحدهما أن الأحكام وخاصة في الأدب لا ينتظر فيها أن تكون قاطعة جافة ، كالأحكام الرياضية مثلا ، بل فيها مجال للرأى واختلاف الوجهات ، وقد تختلف وجهتان في الأدب ، ولا نستطيع أن نحكم على أحدهما بالخطأ ، لأن كل منهما تنظر من زاوية ، والشأن في نواحي الأدب ، وفي صوره بالذات أن يكون لها أكثر من زاوية كزاوية الأسلوب ، وزاوية المعنى ، وزاوية التصوير ، بل كل من هذه قد تكون له أكثر من زاوية أيضا فلا ينتظر من أحكام الأدب أن تكون قاطعة جافة ولا ينتظر منها وهو ما يعني أن تكون شاملة مستقصية ، بمعنى أننا حين نحكم على شعر الصعاليك حكما أو نصفه بوصف ، فليس معنى ذلك أن نجد هذا الوصف في كل شعر لهم ، وإنما يكفي أن يكون طابعا بارزا في معظم شعرهم .

والأمر الثاني أننا لا نتوقع أن تكون حياة الصعاليك ولا حياة أي إنسان في عزلة كاملة عن الناس والمجتمع ، فهم وإن كانوا قد فرغوا حياتهم أو معظمها للصعلكة ، إلا أنه كانت تتخلل حياتهم فترات كثيرة يشهدون فيها مجتمعاتهم فيها حياتهم وأحداثهم ومشاعرهم ، وفترات أخرى يكونون فيها عن الصعلكة أما للشيخوخة كأخريات عبدة بن الطبيب ، وأما للاستغناء بمصاحبة الأمراء كمالك بن الربيع وبكر بن النطاح ، وأما للتوبة كالأحيمر السعدي وعبيد بن أيوب في أخريات أيامهما .

ففي هذه الفترات كانت حياة المجتمع تدعوهم إلى التجاوب معها ، فينتجون شعرا يمثل حياتهم الاجتماعية ، بما فيها من غزل ومدح وثناء وحكمة ونحو ذلك ، ولكننا حتى في شعرهم الاجتماعي ، لا نعلم ما ينم عن أشخاص وطريقة تفكيرهم وأخلاقهم ، ويمكن أن نسمي هذا النوع « الشعر الاجتماعي » .

وإذا شعر الصعاليك يشتمل على موضوعين أساسيين ، أحدهما « شعر الصراع » ويشمل الموضوعات المشار إليها بفروعها ، والآخر « الشعر الاجتماعي » ويشمل حياتهم وصلاتهم الاجتماعية .

ولنتحدث أولا عن الصراع بأنواعه المختلفة في شعرهم .

صراع الضياع

في هذا الحديث نرى شعرهم يصور صراعاتهم مع الإحساس بالضياع والهوان في المجتمع ، ومن خلال شعرهم نراهم متفقين على اختلاف أماكنهم وعصورهم على نظرة واحدة ينظرون بها إلى وضع الفرد في المجتمع ، هذه النظرة هي أن الفرد ينبغي أن يكون ذا شأن في مجتمعه أي كان هذا الشأن فإذا لم يتح له وضعه الاجتماعي أن يكون في المكان المرموق من السيادة أو الفروسية أو حصانة الجانب ، فليسلك أي طريق يجعله في مكان مرموق ، ولو كانت هذه الطريق مضادة عدوانية كما يقول القائل :

إذا أنت لم تنفع فقر ، فانمنا يرحى الفتى كيما يضر وينفعنا

وينظر الصعاليك إلى أوضاع مجتمعهم فإذا أمامهم عقبتان من أشد العقبات صلبة ووقوفا في طريقهم ، أحدهما الفقر الذي يعتبر صفة مشتركة بينهم ، والذي لم تستطع حتى جهودهم في الصعلكة على قوتها وعنفها أن تخلصهم منه ، ولذلك أصر معظم علماء اللغة على تفسير الصعلكة بأنها الفقر ، مع اعترافهم بالمدلول العدواني لها ، وينظر الصعاليك فإذا الفقر

بالإضافة الى كونه تهديدا لحياتهم نفسها هو أول عوامل هلم الكيان الاجتماعي للمرأة ، فالفقير شخص مهين في المجتمع طالما كان فقيرا ، واني له الخروج من هذا الفقر ، في مجتمع يزداد فيه الفقراء كل يوم فقرا ، ويزداد فيه الأغنياء كل يوم غنى ويتبع ذلك أن يزداد الأغنياء تسلطا ومجدا وعلا ، بينما يزداد الفقراء هوانا ومذلة ودنوا ، وليس من حق الفقراء أن ينتقصوا من سلطان الأغنياء ، بينما من حق الأغنياء أن يزدادوا الفقراء ضعة وهوانا .

والعقبة الثانية احتكار المجد والسيادة في المجتمع القبلي ، فالسيادة فيه دائما محتكرة في بيوت معينة تتوارث السيادة ومهما تنقلت السيادة بين الأفراد فلا ينبغي أن تتجاوز البيت الذي توارثها ، وقد كانت شيمة هذه السيادة خاصة في الجاهلية عتوا وتجبرا واذلالا للأفراد وفي مقدمتهم الصعاليك لأنهم فضلا عن وقوعهم في نطاق السيادة فهم فقراء وينظر الصعاليك فإذا في أشخاصهم من القوة والعزة ، ومن الحمية والألفة ما يصطدم بالعقبين معا اصطداما عنيفا ، فلا تسبخ نفوسهم حال الفقراء وتعرضهم للموت جوعا ، والذل هوانا ، ولا تهضم عزتهم أن يعيشوا بين القطيع تدفعهم عصا السادة وتحركهم كبرياء المتسلطين . ولكنهم في مجتمع كهذا لا يجدون أمامهم سوى طريقين اثنين ، طريق الاستسلام للهوان حتى الموت ، بكل ما يفرضه الاستسلام أو طريق التمرد ، وليس أمامه الا الصعلكة ، بما تكبدهم هذه الطريق من مشقة وعناء .

وسنرى كيف صور شعرهم موقفهم من العقبين ، عقبة « الفقر وآثاره » وعقبة « الهوان في المجتمع »

الفقر وآثاره

١ - الفقر :

لا شك أن أول ما نحسه في حياة الصعاليك هو الفقر الشديد الذي لازمهم منذ نشأتهم والذي كان من أبرز الأسباب التي دفعتهم الى الصعلكة ، ولذلك نجد الروايات تقرر غاراتهم وغزواتهم بالفقر ، بل بالمجاعة في أكثر الأحيان على انها سبب مباشر ، كما تردد كثيرا في اخبار عروة بن الورد من مثل « كان عروة اذا أصابت قومه سنة شديدة .. وكان عروة اذا أجذب الناس ..

خرج للغزو « (١) . وبلغ من فقره انه اضطر الى رهن امراته على الشراب فبنى النضير ، لانه لم يكن يملك غيرها ، على الرغم من انه كان عائداً من إحدى غزواته (٢) ومن مثل روايتهم عن السليك انه « صابته خصاصة شديدة فخرج على رجله » (٣) . وحين مر الوالي سعيد بن عثمان بمالك بن الريب وهو يقطع الطريق قال له - ويحك يا مالك ، ما الذي يدعوك الى ما يبلغني عنك من العداوة وقطع الطريق ؟ قال : أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان ، قال : فان انا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعني ؟ قال : نعم ، أكف كاحسن ما كف أحد « (٤) ، وهكذا في أخبار كثيرة تفيض بها الروايات عن فقرهم الشديد .

وقد صوروا في شعرهم حالهم مع الفقر ، وشعورهم نحوه ، وصراخهم لمقارمته ، فهذا تأبط شرا يصف نفسه بأنه لا يملك من الزاد الا تعلقة تحول بينه وبين الموت ، حتى برزت أضلاعه من النحول ، والتصقت أمعاؤه من الجوع فيقول :

قليل ادخار الزاد الا تعلقة فقد نشر الشرسوف والتصق المعاء (٥)

ويقول في محادثة بينه وبين الذئب ، اننى مثلك لا أملك شيئا ، وانما اعتمد في معيشتي كما تعتمد أنت على الفريسة كلما أحسست الجوع :

وقربة اقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرهل
وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالحليح المعيل
فقلت له لا عوى ان شائنا قليل الغنى ان كنت لا تمول (٦)

بل نراه في قوله « ان كنت لا تمول » يشك في أن الذئب بلغ من الفقر ما بلغه هو ، ويصف تأبط شرا تمزق نعله ، فيقول ان الجبال التي يتسلق صخورها لبصل الى مكمنه الذي يزاول منه صعلكته ، هذه الصخور في حاجة الى نعل متبنة تقى قدميه وأصابهما من تمزيق الصخور ، ولكنه لا يملك الا نعلا بالغة الرثالة والتمزق فيقول :

(١) أنظر ديوان عروة ص ٨٢ والأغاني ٨١/٣ .

(٢) أنظر أغاني الاسفهاني ٣٨/٣ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٤/١ .

(٤) أمالي القائل ١٣٦ .

(٥) حساسة أبي تمام ١٩٠/١ والتعلقة ما يتعلق به ونشر برز والشر سوف مقاطع الاضلاع ولما الأماء .

(٦) خزائن البغدادى ٩٣/١ ونسبت هذه الأبيات في رواية لامرئ القيس .

لا شيء في ريدها الا نعماتها منها هزيم ومنها قائم باق (١)
بشرقة خلق يوقى البنان بها شددت فيها سريحا بعد اطراق (٢)

وأبو خراش الهذلي يشبه تمزق نعله بهيكل عظمي لطائر بعد أن يؤكل لحمه ، ففي نعله من الخروق والتمزق مثل ما بين الأضلاع والعظام والأجنحة ويقول انه حين يضطر الى السير بنعله هذه في الندى والمطر والوحل فقد يفضل نبذها والسير على قدميه .

ونعل كاشلاء السمانى نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أوهم (٣)
وعن النعل أيضا نرى الشنفرى يقول مرة انه أحيانا يضطر الى الحفاء لا يجد نعلا :

فاما ترينى كابنة الرمل ضاحيا على رقة أحلى ولا أتنعسل (٤)
ومرة يصف تمزق نعله ، فيقول اننى أسعى لا أملك شيئا الا نعلين تمزق صدرهما لم أستطع حتى خصفهما ، وملحفة بالية ، وملاء خلقة قصيرة ، اذا شددتها على جسمى من جانب تعرى الجانب الآخر فيقول :

قليل جهازى غير نعلين أسحقت صدورهما مخصورة لا تخفف وملحفة دوس وجرد ملاءة اذا أنجمت من جانب لا تكلف ويقول عروة بن الورد عن فقره الذى يدفعه الى مجابهة المخاطر :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا يغرد وي طرح نفسه كل مطرح (٥)
ويقول لامراته انه مصمم على الغزو ليكفيها مذلة السؤال ، فان قتل فموته أرحم لها من عيش الذل ، وان غنم أغناها وأولادها عن القبوع خلف البيوت انتظارا لحسنات المحسنين فيقول :

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٦)
فان فاز سهم للمنية لم آكن جزوعا ، وهل عن ذاك من متأخر وان فاز سهمى كفكم عن مقاعد لكم خلف ادبار البيوت ومنظر

(١) المفضليات ص ٣٠ والريد أعلى الجبل والتامة خشبات يجعلها الصلوك كميننا كالظلة للربينة فى أعلى الجبل وهزيم متكسر يعنى بعض الخشبات قائم وبعضها متكسر .

(٢) الشرقة الخلق يعنى النعل المزقة والبنان أطراف الأصابع والسريح السيور تشد بها النعل والاطراق أن يربط تحت النعل نعلا أخرى لتمزق العليا .

(٣) ديوان الهذليين ١٣١/٢ والسمانى طائر وخلاف عقب والرمح المطر الخفيف .

(٤) من اللامية ، وابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقة يعنى رقة الحال من الفقر ، أنظر أعجب العجب فى شرح لامية العرب .

(٥) أمالى القالى ٢٣١/٢ ويغرد يؤخذ على غرة .

(٦) الاصمعيات ٣٦ ، ٣٧ وأخليك يعنى تكوين حرة بموتى ويعنى بسوء المحضر موقف

ويتحدث مالك بن الربيع عن فقره وجرمانه من متع الحياة فيقول :

انى اتحت لشبابك انيابه مستانس بدجى الظلام منازل
لم يلد ما غرف القصود وفيوها طيبا ونخل سوادها المتمايل

ويقول الأعمى الهذلي في وصف ما يعانيه بينته وأولاده من فقر يضطرهم
الى التطلع الى ما في أيدي الأقارب :

وذكرت أهلي بالعرا - وحاجة الشعث التوالب
المصرين من التسلا د اللامحين الى الأقارب (١)

وصخر النفي يتحدث عن فقره وضيق ذات يده فيقول :

انى بلهماء قل ما أجند عاودنى من حبابها زؤد (٢)
ويقول عن ثوبه :

ادى الأيام لا تبقى كريما ولا العصم الأوابد والنعما
اتيح لها أقيدر ذو حشيف اذا سامت على الملقات ساما (٣)

ويقول عمرو بن بركة ان سيفه معظم ماله :

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم (٤)
أما عروة بن الورد فيقول ان سلاحه كل ما يملك :

ومال مال غدير درع ومغفر - وأبيض من ماء الحديد صقيل (٥)
ويصف عبيد بن أيوب صبره على تمزق ثيابه وشعته وشحوبه وجذبه
بقوله :

وان خلق الأكراس اشعث شاجبا على الجلب بساما كريم الشمائل
تعبود من آبائه فتكاتهم واطعامهم في كل غبراء شامل (٦)

هذا عن حالهم مع الفقر .

السائل في ذلك .

(١) ديوان الهذليين ٨١/٢ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٨ م الغاني .

(٣) ديوان الهذليين ٦٣/٢ والشعر في لها يمد على الأوابد (الروحش) والنعما والأقيدر
قصير المنق يعني نفسه . والحشيف الثوب الخلق المزق والملقات جمع ملقة المكان الأملس
من الجبل .

(٤) أمال القائل ١١٩/٢ .

(٥) المسند لابن رشيقي ٣٥/٢ .

(٦) العيون للجاحظ ١٦٥/٦ .

وأما عن احساسهم بالفقر ، وبمكانة الفقير فى المجتمع ، وكيف ينزل الفقر بصاحبه الى درجة من الهوان على الناس ، بل وعلى الأقارب والزوجات ، فقد أكثروا من تصويره فى شعرهم ، فهذا أبو النشاش يفضل الموت على الفقر حيث يقول :

فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليل اخفق طالبه
فحش معسما أو مت كريما فأنى أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه (١)
ومالك بن حريم يرى أن المال يرفع الحسة ويجعل الذميمة حميدا وأن
الفقر مذلة لصاحبه بين الناس فيقول :

أنبت والأيام ذات تجارب وتبدي لك الأيام ما لست تعلم
بان ثراء المال ينفع ربه ويثنى عليه الحمد وهو مذموم
وان قليل المال للمرء مفسد يعز كما حيز القطيع المحرم
يرى درجات المجد لا يستطيعها ويقعد وسط القوم لا يتكلم (٢)

ويقول السليك عن احساسه بين الناس بعجزه عن نفع قريباته :

أشباب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرحال
يشق على أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالى (٣)

ويقول عروة بين الورد مقارنا بين منزلة الغنى ومنزلة الفقير بين الناس :

دعيني للغنى أسعى فأنى رأيت الناس شرهم للفقير
واهونهم واحقرهم لديهم وان أمسى له كرم وخير
ويقضى فى النلى وتزدره حيلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد جاجبه يطير
قليلا ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفور (٤)

ويقول أيضا :

قالت تماضر إذ رأت مالى خوى وجفا الأقارب فالفؤاد قريح
مالى رأيتك فى النلى منكسا وصبا كأنك فى النلى نطيع
المال فيه مهابة وتجلة والفقر فيه مذلة وفضوح (٥)

ويقول الأحيمر السعدى :

(١) حماسة أبى تمام ١١٦/١ .

(٢) حماسة أبى تمام ٣١/٢ ، ٣٢ .

(٣) الكامل للمبرد ١٤٠/٢ ، ١٤١ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢٣٤/١ .

(٥) ديوان عروة ٨٩ ورويت الأبيات للنمر بن تولب .

تعزنى الاعدام والبسو معرض وسيفى باموال التجار زعيم (١)

وأبو خراش الهذلى يشتد به الفقر فيجد من زوجه تنكرا وازورارا
ويجد منها نعييرا واحتقارا ، فينشئ قصيدة يخاطبها بها ، محاولا ردها الى
الرؤية والحكمة ، مبينا لها فضله على فقره ، ومنها :

وات رجلا قد لوحته مخامص وطافت برنان المعدن ذى شحم (٢)
تقول فلولا أنت أنكحت سبيدا أوف اليه أو حملت على قرم (٣)
أظلم انى أسبق الحنف مقبلا وأترك قرنى في المزاحف يستلمى (٤)

ويقول عروة بن الورد لزوجه أيضا :

دعنى أطوف فى البلاد لعلنى أفيد غنى فيه لذى الحق محمل (٥)

٢ - آثار الفقر :

ولابد للفقر من آثار تترتب عليه ، وقد عانى الصعاليك منها أشد
العناء ، وصارعوها أشد الصراع ، وأبرز هذه الآثار الجوع ثم تحول الأجسام
والهزال .

وفى شعر الصعاليك صور مؤلمة لما كانوا يعانونه من الجوع القاسى الذى
يتعرضون له كثيرا ، والذى بلغ من تعودهم عليه واستعدادهم لاستقباله دائما
أن راضوا أنفسهم على طرق معينة يقاومونه بها

وكذلك الهزال ونحول الأجسام نجده شائعا فيهم ، يشكوونه فى الم
ويصورونه فى صور مختلفة مؤثرة . وحين نستعرض حديث شعرهم عن كل
منهما نقول :

(أ) الجوع :

يصور تأبط شرا أثر قلة زاده وما تترتب عليه من ضعف جسمه وبروز
عظامه ، والتصاق أمعائه من الجوع فيقول :

(١) أمال القال ٤٨/١ .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٨/٢ . والمخامص جمع مخمصة من الجوع ، والمدان الجنبان يعنى
أنها رانه ناعلا من الجوع فتطلعت الى شاب مكتنز اللحم حتى لو ضرب جنباه لكان لهما رنين من
اكتناز اللحم والشحم .

(٣) القرم الجبل القوى لم يستعمل ، يعنى لولاك لتزوجت سبيدا موسرا .

(٤) أسبق الحنف يعنى ينجو من الميت بسرعة عدوه والمزاحف مواضع القتال .

(٥) حساسة أبى تمام ٣٠/٢ .

قليل ادخار الزاد الا تعسلة فقد نشز الشرسوف والتصق المعال (١)

ويعصف الشنفرى حياته فى رفقة من الصعاليك ، وقد وكلوا أمر زادهم الى تأبط شرا ، وقد وجد تأبط شرا ان الزاد قليل ، فأخذ يقرر عليهم ولا يمنحهم الا القليل الذى لا يرد عنهم الجوع ، ولكنه بذلك يدنح عنهم جوعا أشد . فيقول :

وام عيسال قد شهدت تقوتهم اذا اطعمتهم أو تحت واقلت (٢)
تخاف علينا العيل ان هي أكثرث ونحن جياع أى آل تألت (٣)
وما ان بها فنن بما فى وعائها لكنها من خيفة الجوع أبقت (٤)

والسليك بن السلكة حصل فى احدى غزواته على غنيمة صغيرة ، هى عدد من الابل ، فقرت بها عينه ، ورأى فيها على صغرها غاية كان يهفو اليها فلم يبلغها الا بعد أن عرض نفسه لمخاطر كثيرة رأى فى بعضها الموت قريبا منه وحين ننظر فعلا الى غارته هذه نرى فيها مدى الجهد والمخاطرة ، فالسليك موطنه ديار بنى تميم فى اليمامة والرباب فى الشمال من الحجاز ، وغارته هذه كانت فى جوف مراد باليمن ، فبعد هذا السفر الطويل وما يكتنفه من مخاطر الصحراء والجبال والمهاالك ، يجد السعادة وقرة العين فى عدد من الابل ، ولكننا حين نرى ما يحدثنا به من صور الجوع التى كان يعانيتها نعدده ان هو ساعد بما دون ذلك ، فمن هذه الصور ما يحكيه فى هذا الشعر ، من انه كان يعانى الجوع الشديد فى الوقت الذى يخضب فيه الناس وهو الصيف ، فضلا عما يجدبون فيه من أوقات ، وان هذا الجوع لتكرره وتواليه كان يبلغ به حالة من الضعف تجعله يشعر بالدوار وظلام البصر حين يقف كما يقول :

وما نلتها حتى تم ملكت حقبلة وكنت لأسباب النية اعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرئى اذا قمت تغشاني ظلال فاسدنى (٥)

وأبو خراش الهذلى يتحدث عن ابنه خراش الذى كان قد خرج فى غزوة من غزوات الصعاليك هو وعمه عروة ، فيقتل عروة وينجو خراش حين أشفق عليه أحد الأعداء فالقى عليه رداءه ليخفيه ، وشغل القوم عنه بقتل عروة ، فأخذ خراش يعدو عدوا يشبه الطائر كما يصفه أبوه حتى نجا ، فيقول أبو خراش مدافعا عن فرار خراش ، مبينا أن سبب غارته لم يكن عداوة بينه وبين أحد

(١) حماسة أبى تمام ١٩٠/١ والشرسوف مقاطع الطعام .
(٢) أراد بام عيسال تأبط شرا لأنهم جملوه كالام تعولهم وأدحت أعطت قليلا واقلت مثل

أوتحت .

(٣) العيل والعميلة الفقر أى آل تألت تعجب معناه أى سياسة ساست يعنى سياسة حكيمة .

(٤) الضن البخل يعنى أن ابقاها الطعام وتقتيرها كان لخشية الجوع بنقاد الزاد منهم .

(٥) مجمع الأمثال للميداني ١١/٢ واسدنى دخل فى السدقة وهى الظلام .

وانما الرغبة فى دفع غوائل من الجوع أضرت به ، فلما لم تتح له الغنيمة أثر
النجاء :

ولم يك مثلج الفؤاد مهيجا أضاع الشباب فى الريلة والخفض (١)
ولكنه قد نازعته مخاض على أنه ذو مرة صادق النهض (٢)
كانهم يشبثون بطائر خفيف المشاش عظمه غير ذى نهض (٣)

ولما كان هذا الجوع المضمي ليس شيئا عارضا فى حياتهم ، وانما هو حالة
ان لم تكن دائمة فهي متوقعة لديهم دائما ، فقد راضوا أنفسهم عليه ، وهدتهم
التجارب الى طرق يعالجونه بها ، وأيا كانت هذه الطرق فمصدرها بالطبع قوة
الارادة ، والصبر الشديد : فمن ذلك ما يحدثنا به الشنفرى فى معالجته الجوع
من انه يصبر عليه ، ويجاهد فى تجاهله وتناسيه حتى ينجح فى التغلب على
الشعور بوطائه ، مبينا انه يفضل هذا كله ، بل يفضل أن يستف تراب الأرض
إذا لم يقو على احتمال الجوع على أن يمن عليه انسان باطامة ، وانه لولا عزة
نفسه والارتفاع بها عما يشيئها لما عز عليه طعام ولا شراب فيقول من لآميته :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فاذهل
وأستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الدام لم يبق مشرب يعاش به الا لدى وماكل (٤)

وهذه الطريقة التى هدت الضرورة اليها الشنفرى ، امتدى اليها أبو خراش
أيضا ، فيقول انه فى صراعه مع الجوع يتذرع بالصبر الشديد ، حتى يمل الجوع
هذا الصبر فيذهب ، وكما قال الشنفرى انه يفضل استغاف التراب على الذل
كذلك قال أبو خراش انه يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل فيقول :

وانى لألوى الجسوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى (٥)
واغثيق الماء القراح فأنتهى إذا الزاد أمسى للمزج ذا طعم (٦)

(١) ديوان الهذليين ١٥٨/٢ ، ١٥٩ ، وأولها : حملت الهى بمد عروة اذنيها .. خراش وبطن
الشر أمون من بطن ومثلج شفيف بارد ومهيج وخو مشقل والرييلة كثرة اللحم والخفض الدعة
والتنعم .

(٢) مخاض يعنى الجوع وصادق النهض قوى الزيمة ورواية أمال القائل ٢٦٧/١ لوحته
مخاض .

(٣) المشاش العظم والنهض ، يعنى الذين يعدون خلف خراش وجدوه كطائر خفيف العظم
واللحم فى سرعة علوه .

(٤) وفى اللامية أبيات أخرى عن الجوع منها : وأطرى على الخصر الحوايا .. الخ واغثو
هل القوت .. الخ .

(٥) ألوى الجوع أطيل جسده والجرم الجسد .

(٦) اغثيق يعنى أشرب والمزج الضميف وانتهى أكف أو اكفى .

أرد شجاع البطن قد تعلمته وأوثر غيرى من عيالك بالطعم (١)
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويروون فى سبب هذه الايات ان أبا خراش أقفر من الزاد أياما ،
ثم مر بامرأة من هذيل موسرة . فأمرت له بشاة فشويت ، فلما وجد أبو خراش
ريح الطعام قرقر بطنه فضرب بيده على بطنه وقال : انك لتقرقر لرائحة
الطعام . والله لا طعمت منه شيئا . ثم قال : يا ربة البيت . هل عندك من
صبر أو شيء مر ؟ فأتته به . فأكله . ثم أهوى الى بعيره فركبه وانصرف
فظننت المرأة أنه أنكر من ضيافتها شيئا . فأخذت بتأديته : هل رأيت بأسا
أو أنكرت شيئا ؟ قال : لا ، ثم أنشأ يقول هذه الايات (٣) .

(ب) نحول الجسم :

ومن آثار الفقر التى شكها الصعاليك بصورة ظاهرة نحول الأجسام
وما يعتريها من هزال ونحافة شديدة ، فالشغرى يصف جسمه حين ينام
بأنه لا يبلغ الأرض ، لأن عظامه وفقر ظهره البارزة تحول بينه وبين الأرض
وانه حين يتوسد ذراعه انما يتوسد عظاما جافة كأنها قطع حديد لا أثر فيها
للحم فيقول :

والف وجه الأرض عند افتراشها بأهدا تنبيه سناسن قحل (٤)
وأعدل منحوضا كان فصوصه كعاب دحاما لأعب فهم مثل (٥)

وعروة بن الورد يتحدث عن نحول جسمه ، ويقول ان هذا التحول سببه
الجوع ، وأنه كان يمكن لجسمه أن يكون ضخما لو أثر نفسه برزقه ، ولكنه
يؤثر أن يقسم هذه الضخامة فى أجسام كثيرة من الذين يجود عليهم ويشركهم
معه فى رزقه من الناس فيقول :

ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به خصاصة جسم وهو طيان ماجد
اقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٦)

(١) شجاع البطن يريد شدة الجوع والطعم الطعام التى يخاطبها زوجها .

(٢) الرغم الهوان والذل . والايات من قصيدة بدويان الهذليين ١٢٧/٢ . ١٢٨ .

(٣) أنظر الأغاني ٦٠/٢١ . وبما ان هذه الايات ضمن قصيدة يحاور بها زوجها فيحمل على

أنه قال القصيدة قبل هذه القصة ثم تمثل بهذه الايات منها فى المناسبة المذكورة مع الهذلية .

(٤) من اللامعة : والأهدا شديد الثبات يعنى جسمه والسناسن رءوس فقر الظهر والقحل

الجافة .

(٥) اعدل أتوسد والنحوض ذراعه اليابس والفصوص المقاصل ودحاما بسطها .

(٦) كامل المبرد ٣٦/١ وحماسة أبى تمام ٣٠١/٢ والامالى للقالى ٢٠٠/٢ والتنبيه للبكرى

١١٣ مع اختلاف فى محاوراة بين عروة ورجل من قومه .

وابو خراش يصف نحول زميل له فى الصعلكة بأن كل ما يرى منه جاف
يايس ، فجسمه عظم لا لحم فيه ، كفه يابسة تبرز فى ظهرها أعصابها ، وساقاه
يابستان لا يرى فيهما الا العظم فيقول عنه :

سمع من القوم عريان أشاجعه خف النواشر منه والظنايب (١)

كما وصف أبو خراش ابنه خراشا - وهو صعلوك - بضالة جسمه
ونحوله ، فعظامه رقيقة ضئيلة لا لحم عليها فى قوله « خفيف المشاش عظمه غير
فى نحض » (٢) وكما وصف نفسه بالنحول وضالة الجسم ولا يؤثر فى
السياق أنه جعل سبب هذا النحول حزنه على صديق له ، فقد تحدث فى
موضوع أخرى كثيرة عن السبب الحقيقى لهذا: النحول وهو الجوع الشديد المضمنى
الذى كان يتعرض له دائما كما سبق فيقول :

وما بعد أن قد هدنى الدهر همة تضال لها جسمى ورق لها عظمى (٣)
وما قد أصاب العظم منى مخامر من النداء داء مستكن على كلم

وتأبط شرا يصف جسمه بأنه ليس فيه إلا هيكل من العظم الضخم فى
صدره ، ولكنه عظم لا يحمل لحما ولذلك كانت بعية جسمه فى نحول وضالة
فيقول حين حاصره أعداؤه من بنى لحيان الهذليين فاحتال للنجاة منهم بصبه
عسلا على الصخور وانزلاقه عليها بعيدا عنهم :

وأخرى أصادى النفس عنها وانها كمورد حزم ان فعلت ومصمدر (٤)
فرشت لها صدى فزل عن الصفا به جوجو عبل ومتن مخمر (٥)

ويصف جسمه أيضا ببروز أضلاعه من الجوع فيقول :

قليل بدخار الزاد ألا تعلة فقد نشر الشر سوف والتصق المعال (٦)

ويتحدث تأبط شرا أيضا عن هزال جسمه فى حديث له الى أحد الذئاب
فيقول :

(١) عريان أشاجعه يعنى معرى عن اللحم والنواشر عصب ظهر الكف والظنايب حروف
الساق يعنى يابسه .

(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ وفى بيت قبله « لوحته مخامص » أمالى القائل ٢٦٧/١ تأكيد
للنحول بسبب الجوع .

(٣) ديوان الهذليين ١٥١/٢ فى رثائه خالد بن زهير الهذلى وتضال مخفف تضامل .

(٤) وأخرى يعنى الحيلة التى تجاها وأصادى النفس عنها يعنى أتدبرها والشطر الثانى
مستله وجئت هذه الحيلة هى كل الحزم .

(٥) فرشت بسطت والصفا نوع من الحبارة وجوجو عبل صدر ضخم ومتن ظهر ومخمر
دقيق ضئيل انظر الحامدة ١٨/١ .

(٦) حماسة أبى تمام ١٩٠/١ والنشور الظهور والبروز والشر سوف الاضلاع حول البطن .

كلانا اذ ما نال شيئا افاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (١)

ومالك بن الريب يتحدث عن تحول جسمه ، مشيرا الى صراعه مع أعدائه وأثر ذلك في نحوله ، ولكن في حديثه عن فقره في مواضع أخرى ما هو أوضح سببا فيقول :

وقد تقول وما تخفى لجارتها أنى أرى مالك بن الريب قد نحلا
من يشهد الحرب يصلها ويسعرها تراه مما كسته شاحبا وجسلا (٢)

وعبيد بن أيوب العنبري يتحدث أيضا في تشرده في القفار عن ضالة شخصه وضمور جسمه فيقول :

كأنى وآجال الظباء بقفرة لنا نسب نرعاه أصبح دانيا
وإن ضئيل الشخص يظهر مرة ويخفى مرارا ضامر الجسم عاريا (٣)

ويسلك في تصوير نحوله أسلوب المبالغة فيقول أن تشرده في الصحارى وطول تنقله في الفياض جعل من جسمه شيئا لو حملته حمامة لطارت به كما قال :

حملت عليها ما لو أن حمامة تحمله طارت به في الخفاف
رحيلا وأنساما وأعظم وامق أضر به طول السرى في المخاوف (٤)

على أنه ينبغي أن نلاحظ في مقارنتنا بين صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام في حديثهم عن الفقر وآثاره أنه وإن كان الجاهليون والاسلاميون قد اشتركوا في معاناة الفقر والشكوى منه على السواء ، إلا أننا نجد صعاليك الاسلام لم يتحدثوا قط عن هذا الجوع الشديد المضني الذي عاناه الجاهليون متألمين منه أشد الألم ، وكذلك نجد صعاليك الاسلام وإن كانوا تحدثوا عن تحول أجسامهم إلا أنهم لم يربطوا بين هذا التحول وبين الجوع والحرمان كما ربط الجاهليون .

ومعنى ذلك أن صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام وإن كانوا قد اشتركوا في الفقر إلا أن درجة هذا الفقر كانت مختلفة ، فبينما نجد فقر الصعلوك الجاهلي يبلغ منه حد الجوع المهلك بحيث لا يرى أمامه إلا أن يستف التراب كما يقول الشنفرى أو يقتبق الماء القراح كما يقول أبو خراش ، ولذلك يقترب صعاليك

(١) خزانة البغدادي ٩٣/١ ويعني بالسطر الأول سرعة العدو وبالتالي أن من يتعرض

لمثل معيشتي ومعيشتك يهزل جسمه .

(٢) انظر مهذب الأغاني ١٠/٥ - ١٩ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦٠ .

(٤) الشعر لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجي والضمير في عليها للناقة .

الجاهلية كثيرا مثل قولهم « أصابته خصاصة شديدة ففزا » (١) بينما نجد صعاليك الجاهلية كذلك ، نجد فقر صعاليك الاسلام لا يبلغ بهم هذه الدرجة ولذلك لم يتحدثوا فيما بلغنا من شعرهم عن الجوع ، وتحدثوا عن نحول الأجسام ولكن لم يقرنوه بالجوع والمخامص ، وكذلك نجد ان ما يدفع صعاليك الاسلام الى الصعلكة ليس هذا الجوع كما كان لدى الجاهليين ، وانما مجرد الشعور بان فقرهم يجعلهم دون الناس منزلة ويحرمهم من رغد العيش ونعمائه التي يورون غيرهم فيها ، فمالك بن الرب مثلا لا يشكو الجوع ، وانما يشكو حرمانه من غرف القصور وفيئها ونعيمها كما يقول عن نفسه :

لم يند ما غرف القصور وفيؤها طيبا ونخل سوادها المتمايل (٢)
وحينما سأله الوالي عن سبب قطعه الطريق ، لم يقل الجوع والحرمان وانما قال « المعجز عن مكافاة الاخوان » يعنى مجرد شعوره بأن الفقر جعله في منزلة يراها غير مناسبة له .

وهذا الفارق بين الاسلاميين والجاهليين يتضح من المقارنة بين الحالة الاقتصادية في الجاهلية والاسلام ، ومن النظرة الى اثر الفتوحات الاسلامية وما افاضته من رخاء في المجتمع العربي .

ولكن هذا الفارق كان ذا اثر كبير في حياة كل من الجاهليين والاسلاميين بالنسبة للآخر ، وسترى فيما يأتى ان انفراد الجاهليين بهذا الجوع الشديد كان له تأثير كبير في حياتهم وبالتالي في شعرهم ، بل ترتبت عليه موضوعات كاد الجاهليون ينفردون بها عن الاسلاميين ، كشعر المراقب وشعر العسود ومعظم شعر الطبيعة ، فان شدة الجوع جعلت الجاهليين يرتادون اماكن لا يضطر اليها الاسلاميون .

صراع الهوان في المجتمع

ولئن كان شعر الصعاليك قد صور صراعهم الشاق مع العقبة الأولى وهي الفقر وآثاره كما رأينا ، فانه أيضا صور صراعهم مع العقبة الثانية مما كان يحول بينهم وبين اخذ مكانهم الصحيح في المجتمع ، أو على الأقل المكان الذي

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٤/١ والخصاصة الجوع .

(٢) انظر مهذب الاغانى ١٠/٥ .

تطعن اليه نفوسهم ، ولا يؤذى كرامتهم ويثبت كيانهم ، فائبات الكيان هو غايتهم ولذلك يمكن تسمية هذا الفصل « اثبات الكيان » وهذه العقبة الثانية هي « احتكار السيادة » بمعنى ان تكون سيادة القبائل في بيوت معروفة تتوارث السيادة ولو مداولة بين أفرادها ، وليس هذا ما ضاق به الصعاليك لذاته فانه لم يبد من شعرهم الاتجاه الى السيادة أو الحوص عليها ، ولكن الذي ضاقوا به هو ان هذا الاحتكار قد تولدت عنه طبقة منكورة في القبائل ، وتكاد هذه الطبقة وخاصة في الجاهلية تحصر الأفراد في ثلاث طبقات ، طبقة السادة وهم أفراد البيوت التي تتوارث السيادة ، وأفراد هذه الطبقة جميعا سواء أكانوا سادة أم غير سادة من حقهم أن يشمخوا بأنوفهم كما يريدون ، وأن يتجبروا كما يشاءون وأن يسلبوا أموال الناس وحقوقهم وكرامتهم وأعراضهم طالما كان في سيوفهم قدرة على حماية بغيهم في هذا كله ، ولم يكن بغيهم هذا مقصورا على القبائل المعادية ، أو المجاورة ، وإنما كان يشمل أيضا البيوت والأحياء الأخرى من قبيلتهم نفسها ، وخاصة البيوت التي لا تظهر خضوعا وانقيادا ظاهرا لسيادتهم كبعض ما رأينا في الحديث عن الجاهلية ، فهذه الطبقة في قمة الوضع الاجتماعي . وهناك طبقة ثانية في أسفل الوضع الاجتماعي وهي طبقة لبيد وسائر الأفراد الفقراء في القبيلة من غير بيت السيادة فهؤلاء الفقراء كانوا هم والعبيد شيئا واحدا لأنهم وإن اختلفوا من حيث الحرية والرق ، إلا أن هذا الاختلاف من حيث التطبيق العملي في المعيشة لا قيمة له فكلهما كان أمام طريق واحدة هي أن يقدم كل جهده في خدمة السادة لقاء لقمة تحفظ عليه الحياة ، ولن تكون له حياة بدون هذه اللقمة ، ولن يحصل على هذه اللقمة إلا بالخدمة لدى السادة والأغنياء ، لأن البيئة لا مجال فيها لوسائل أخرى من العيش ، وأهم وسيلة كان يستخدم فيها العبيد والفقراء الرعى ، وهناك في الرعى يمحي الفارق بين الفقير الحر ، والراعي العبد فكلهما راع ، وكلهما لا يملك من الحياة غير ذلك .

هاتان الطبقتان كانتا طرفي المجتمع ، أولاهما في القمة ، وكل أفرادها يلقون التجلة الاحترام ، وآخرهما في الحضيض ، وكل أفرادها يلقون المهانة والهوان ، بينهما طبقة ثالثة ، تتكون من الأفراد البارزين بين أفراد القبيلة من غير بيت السيادة ، وبروز الأفراد كان أمامه مجالان ، الغنى والفروسية ، الأغنياء والفرسان كانوا يكونون طبقة وسطا بين الطبقتين الآخرين وكانت منزلة أفراد هذه الطبقة تحددها المزايا التي يستطيع كل فرد الوصول إليها فالغنى بمقدار غناه ، والفارس بمقدار شجاعته واسهامه في الزود عن القبيلة أو الرفع من شأنها ، وكان هناك مجال ثالث يستطيع الأفراد أن يجعلوا لهم مكانة أدبية منه إذا هبى لهم وهو الشعر ، فالشاعر في المجتمع العربي سواء في الجاهلية والإسلام كان يحظى بقدر كبير من التقدير والاهتمام ، حتى انه من تقاليدهم انه كان إذا ظهر شاعر في قبيلة أضلت وفود القبائل تهتفا به

ولكن الشعر وخاصة فى الجاهلية حيث لم يشعج التكسب بالشعر فيها (١) لم يكن وسيلة مجدية للمعيشة ، فلم يكن الشاعر يستطيع الاعتماد على شعره فى معيشته ، حتى ان النابغة الذبياني على شهرته الشعرية اضطر الى مزاوله حياة الصعاليك (٢) ، اما الوصيلتان الأخريان فيمكن الاعتماد عليهما فى المعيشة لأن الغنى له من ماله ما يعوله ، والفارس أن لم يكن له مال ففي سيفه ما يمكنه من جلب المال ، ولو بالتزو والغارة ، كما كان شائعا فى الجاهلية ووضع الصعاليك من هذه الطبقات ظاهر فهم لم يكونوا من بيوت السيادة ، وكانوا مع ذلك فقراء ، بل غاية فى الفقر وبذلك اجتمعت فيهما الصفتان اللتان وضعتاهم فى الطبقة السفلى من المجتمع ، وكان بعضهم شعراء ، ولكن شعرهم لم ينفعهم ، فالشعر لم يكن فى الجاهلية مصدرا للعيش ، وحين أصبح الشعر فى الاسلام وسيلة للعيش أبت نفوسهم دون غيرهم من الشعراء أن يتخذوه وسيلة للعيش والتكسب ، فلم يتكسبوا به قط الا من شئ منهم مثل بكر ابن النطاح ، على ان الروايات تفيد انه لم يتكسب بشعره الا بعد ان أقصر عن الصلابة (٣) وكون الصعاليك يابون عامدين مترفين أن يتكسبوا بالشعر حقيقة مشرفة لهم ، كما سيأتى فى موضعه .

واخذ فقد كان الصعاليك ومعهم شعراؤهم فى الطبقة الدنيا من المجتمع ولكن نفوس بعضهم أبت بما تحمل من عزة وقوة وإباء أن تستكين لوضعها فى هذه الطبقة ولم يكن كما قلنا أمام المتحفزين من هذه الطبقة ليرتفعوا الى الطبقة الوسطى الا طريقان طريق الثراء ، وطريق الفروسية ، فأما الثراء فهو موصد أمامهم بإحكام ، لأنهم لا يملكون منه شيئا ، وأما الطريق الآخر وهو الفروسية والشجاعة فهو مفتوح أمامهم ، لأنهم يملكون وسائله وأسلحته بل يملكون منها قدرا من القوة والجرأة والمضاء والبسالة قلما يتباح لغيرهم ولكنهم بالطبع لم يكونوا فى درجة واحدة أو حالة واحدة ، فالذين كانوا فى نسب خالص وفروسية بارزة ، أصبحوا من الفرسان الذين تعزز بهم قبائلهم كعروة بن الورد العبسى ، ومالك بن حزم الهمداني ، وقيس بن منقذ السلولي قبل أن يخلع ، ومنهم من حال وضع أمه دون ذلك كالسليك بن عمير السعدي الذى كانت أمه السلابة أمة رقيقة أو وضعه هو كالشنفري الذى كان أسيرا فى بنى سلامان .

وليست هذه التفاصيل مما يعنينا فى هذا الموضع ، ولكن الذى يعنينا ان الصعاليك وجدوا أنفسهم فى الموضع المهيمن من المجتمع ، ولم تقبل نفوسهم بحكم

(١) أنظر المصنف لابن رشيقي ٨٠/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٦١/٢ .

(٣) أنظر مذهب الأتاني ٨٤/٨ وشرح حساسة أبى تمام ٩٣/٢ وكان فى العصر العباسي مدبرا لنرشيد .

طبيعتها وتكوينها هذا الموضع ، ولم يكن أمامهم لتفادى هذا الهوان الا الاعتماد على أشخاصهم فى قوتها وعنفها ، أيا كان مظهر القوة ، وأيا كان أسلوب هذا العنف .

وقد عبر شعرهم عن هذه المعانى كلها تعبيرا واضحا عميقا ، ينم عن عمق احساسهم بهذه المعانى ، وتأثيرهم بها ، واستماتتهم فى الخروج من نطاق الذل والهوان الذى يريد المجتمع أن يفرضه عليهم .

فالشنفرى يعبر عن نفوره من اذلال نفسه باستجداء حسنات الناس مفضلا استغاف التراب على ذلك فيقول من اللامية :

واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطسول
ولولا اجتناب الدام لم يبق مشرب يعاش به الا لدى وماكل
ولكن نفسا حرة لا تقيم بى على الضيم الا ريثما اتحول (١)
وابو خراش يقول مثل ذلك :

وانى لأتوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يندس ثيابى ولا جرمى (٢)
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم
والسليك يقارن بين الحال التى يريد بها لهم المجتمع ، والحال التى ارادوها لانفسهم فيقول :

فلا تصلى بصلوك نؤوم اذا أمسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوب ضروب بنصل السيف هامات الرجال (٣)

ومثل هذه المقارنة يقارنها ابو النشاش النشلى ، ولكنه لا يرى ضرب هامات الرجال كما رأى السليك وانما يرى أن يسرح سواما من أبل الناس ويروح بها ، راكبا الى ذلك كل صعب ، متنقلا بين أرجاء واسعة من البسداء فيقول :

اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه اقاربه (٤)
للموت خير للفتى من قعوده عديما ومن مول تدب عقارب
ونائية الارعاء طامسة الصوى خدت بابى النشاش فيها ركائبه
ليكسب مجدا أو ليدرك مغنما جزيلا وهذا الدهر جم عجائبه

(١) انظر اعجب العجب فى شرح لامية العرب للمزخشرى والطول المن والدام الدم .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، ١٢٨ وأنوى الجوع أطيل حبسه حتى يذهب والجرم الجسم

يقول يذهب الجوع ويبقى عرضى وجسمى نطيقان .

(٣) كامل المبرد ٣١٠/١ ويعنى بالعيال الذين يعولهم غيرهم .

(٤) حساسة أبى تمام ١١٥/١ ويجوز ارادة سوائم الشخص نفسه مقارنة بين الفتى والفقر .

ويقارن بين الحالتين أيضا عروة بن الورد ، راسما صورتين متقابلتين ، احدهما تسخر سخريّة موجهة من الصعلوك المستكين للهوان ، الذى يرضى لنفسه أن يكون كل أمله أكلة يجود عليه بها أحد الموسرين ، وأن يكون كل ما فى حياته حلقة مفرغة ، من النوم والكسل وخدمة المحسنين اليه ، والصورة الأخرى عن الصعلوك المستشيط حماسا وحيوية وحركة ، حتى كان الحيوية جذوة نار تكسو وجهه ، هو فى صراع دائم مع العيش والحياة والأعداء ، ويبلغ من خطره أن أعداءه مهما يحاولوا البعد عنه أتقاء لشره ، فانهم يتوقعون دائما مفاجاته اياهم كما يتوقع الأهل حضور غائب منتظر الاياب فيقول :

لما الله صعلوكا اذا جن ليله	مصافى الشاش ألفا كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة	أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعسا	يحث الحصان عن جنبه المتغفر
يعين نساء الحى ما يستعنه	ويمسى طليحا كالبعير المحسر
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه	كضوء شهاب القابس المتسور
مطلا على أعدائه يزجرونه	بساحتهم زجر النيح المشهور
اذا بعدوا لا يأمنون اقترابه	تشوف أهل الغائب المتظفر
فذلك ان يلق النية يلقها	حميدا وان يستغن يوما فاجدر (١)

وفى شيء من هزم المقارنة أيضا يقول الاحيمر السعدى :

وقالت أرى ربع القوام وشاقها	طويل القناة بالضحاء نؤوم
فان أك قصدا فى الرجال فأننى	اذا حل أمر ساحتى لجسيم (٢)

وشعر الصعاليك ينبئ عن نفورهم الشديد من الهوان . وصراهم العنيف فى سبيل اثبات كيانهم فى المجتمع فهم ينعون نعيًا شديدا على الحاملين منهم ، حاضين اياهم أشد الحظ على أن يتحركوا ويخاطروا بأنفسهم فى أى شيء ، ومهما كانت نتيجة المخاطرة فهى خير من خمولهم وهوانهم بين الناس كما يقول عروة ابن الورد :

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة	ان القعود مع العيال قبيح (٣)
وكما يقول أيضا :	

اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه	شكا الفقر أو لام الصديق فاكثرا
-------------------------------	--------------------------------

(١) حساسة أبى تمام ١٩٥٩/١ والشاش العظم اللين يكن اكله ومصافى من المصافاة والمجزر مكان الذبح .
(٢) أملى القالى ٤٨/١ وربع القوام متوسط الطول والبيت الثانى معناه ان لم اكن ضخم الجسم فأننى ضخم المزينة والقوة .
(٣) ديوان عروة ٨٩ .

وصار على الأدينين كلا وأوشكت صلات ذوى القربى له أن تنكرا (١)

وأما مالك بن الربيع فقد عبر عن نفوره من ذلك الهوان حين طلب إليه سعيد ابن عثمان الوالى أن يرعى إبله لقاء العطاء الشهير الذى يمنحه إياه بقوله :

وانى لاستحيى الفوارس ان أرى بأرض العدا بو المخاض الروائم

وانى لاستحيى اذا الحرب شممت أن أرتضى دون الحرب ثوب المسالم (٢)

والشنفري يؤكد فى اصرار نفوره من كل ما يجعله ضعيفا أو خاملا أو كسولا أو مهينا أو مغلوبا على أمره أو أى شئ مما يريد المجتمع للصعاليك أن يكونوا فيه فيقول :

ولست بمهيف يعشى سوامه مجدة سقبانها وهى بهل (٣)

ولا جبا أكهى مرب بعرسه يطالها فى شأنه كيف يفعل (٤)

ولا خرق هيق كان فؤاده يظل به المكاء يعلو ويسفل (٥)

ولا خالف دراية لتفزل يروح ويفغو داهنا يتكحل (٦)

ولست بعمل شره دون خيره ألف اذا مارعته اهتاج أعزل (٧)

ولست بمحيار القلام اذا نحت هدى الهوجل العسيف يهما هوجل (٨)

بل انهم ليفضلون الموت على تلك الحياة الحاملة المهينة كبعض ما مر فى هذا الشعر ، وكما يقول عروة بن الورد :

وما طالب الحاجات من كل وجهة من الناس الا من أجد وشمرا

فسر فى بلاد الله والتمس الفنى تعش ذا يسار أو تموت فتطرا (٩)

(١) ديوانه ٩٩ .

(٢) أنظر مذهب الأغاني ١٠/٥ .

(٣) المهيف السريع العطش ومجده مقلوبة الآذان والسقب ولد الناقة والباصل الناقة

غير مصرورة .

(٤) الجبا الجبان والأكهى الأبخر والبليد والمرب الملازم لامراته والشرط الثانى معناه

بحرص على استشارة زوجه .

(٥) الحرق الدهش والهيح الظليم والمكاء طائر يعنى لست ملوعا كالنعام ولا مضطربا كالطائر

(٦) الخالف الذى لا خير فيه ، والدارى الملازم لداره يعنى لست تأفها متقلما للفرل والدهن

والكحل

(٧) المل القراد والمراد الرجل المسن الضئيل كالقرد والالف العاجز واهتاج أسرع بحق

(٨) المحيار المتخير والهوجل الرجل الطويل الأحق والعسيف الجاهل واليهما المتأمة من

الصحراء والهوجل آخر القلاة .

(٩) ديوان عروة ٩٩ .

ويقول عروة :

قلت لركب في الكنيف تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح
تناولوا الفنى أو تبلغوا بنفوسكم الى مستراح من غناء مبرح (١)

ويقول أيضا :

فقلت له ألا احيى وانت حسر ستشبع في حياك أو تموت (٢)

ومما لا شك فيه أن هذه المعاني الكثيرة التي كرروها في شعرهم ، وأكدوا شعورهم بها من هوان الفقير في مجتمعهم ، ومن ايثارهم الموت على ما يلقاه الفقير من هوان ومذلة ومعان أخرى تدل على أن اتجاههم الى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش أو الوصول الى الغنى ، وانما كان مع ذلك يحمل الرغبة في اثبات كيان لهم في المجتمع ويحمل النفور الشديد الظاهر من أن يكونوا مجرد افراد في القطيع الذى يسوقه السادة الأغنياء ، ويحمل الاصرار الشديد على أن يظهرُوا لأنفسهم كيانا يشعر به الناس على الأقل ويحسبوا حسابه ، ان لم يرهبوه ويفرقوا منه .

ومما لا شك فيه أيضا أنهم قد استطاعوا أن يخرجوا أنفسهم من زحمة القطيع وأن يجعل كل منهم لنفسه كيانا منفردا متميزا من القطيع ، ولكن هذا الكيان لم يكن ثابت الحجم والأهمية وانما كان مذبذبا قابلا للضخامة والتقلص ، بمعنى أن كلا منهم قد استطاع بعزة نفسه ، ورفضه أن يمتن مرؤته وكرامته بصور الهوان والذل ، من استجداء الناس وخدمتهم ، بعد التسكع والحمول والضياح ، قد استطاع كل منهم بذلك أن يخرج نفسه من الطبقة السفلى في مجتمعه وأن يلفت الانظار اليه ، على أنه رجل أبى ينفر مما يعيش عليه مثله ، ثم ان كيانه بعد ذلك وأهميته أو خطورته في مجتمعه ، تتحدد بمقدار ما لديه من مقومات ، وما يستطيعه من قدرة على الصراع ، صراع كل الظروف المحيطة به والمقيدة لنمو كيانه ، وبمقدار ما يتهيا له من ظروف وقد كان الصعاليك بالطبع متفاوتين في مقوماتهم وفى قدرتهم على الصراع ، ولذلك اختلف شأن بعضهم عن بعض ، كما أن الظروف لم تكن تسير على وتيرة واحدة لهم ، فقد تنكص الظروف عن بعضهم حيناً ، ثم تتهيا ، كما عاش الشنفرى دهرا من عمره أسيرا ، ثم تهبأ له الخروج على وضعه ذاك ، وقد تتهيا الظروف ثم تنكص ، كما كان قيس ابن الحدادية، فارسا يكبره قومه ويستمن بهم على أعدائه وفى غزواته ، ثم خلعه قومه حين كثرت جنائياته وثقلت عليهم آثارها ، فأصبح خليعا منبوذا لا سند له

(١) أمال القالى ٢٣١/٢ وماوان مكان .

(٢) ديوان عروة ٨٦

ولا معين ، حتى أنه ليقول للذين أرادوا أسره : ویم ینفعکم أسرى ؟ انکم لو طلبتم
بى من قومى عنزا جرباء ما أعطیتموها ، وظل یقاتلهم حتى قتل (١) .

ويمكن حين تنتهى جولتنا مع صراعهم أن نسأل : هل حققوا كل ما يريدون
من صراعهم مع المجتمع ومع الظروف ؟ أما الآن فنحن نتبع مراحل حياتهم
ومشاعرهم ، أعنى مراحل صراعهم وقد بلغنا منها مرحلتين ، أولاها معاناة الفقر
وآثاره ، وثانيتهما أحساسهم بهوان طبقتهم ورغبتهم فى الخروج من هذا الهوان ،
ولكن هذا الخروج لم يكن سهلا ولا ميسورا ، وانما كان يقتضى منهم صراعا شاقا
عنيفا ، فلننظر هذا الصراع .

صراع المهنة

حياة رهيبة حقا هذه التى عاشها الصعاليك ، وشقوا طريقهم فيها .
والواقع أن حياة الصعاليك الحقيقية لا تبدو قط من أخبارهم وتراجهم ،
وانما تبدو من خلال شعرهم نفسه ، فمهما قرأ القارىء من أخبارهم ، ومهما
جمع الباحث من معلومات عنهم ، فانه لن يشعر بصراعهم ، وحياتهم الحقة كما
عاشوها وتأثروا بها وصارعوها ، وانما يشعر بها حقا حين يدرس شعرهم ،
ويرى ما فيه من انعكاس لرهبة حياتهم ، وقسوتها ، ويرى فيه عناءهم وصراعهم
ومشاعرهم ازاء هذه الحياة التى خاضوا أشواكها وجابهوا أخطارها ، وصارعوا
مرارتها وقسوتها .

ولامية الشنفرى نموذج كامل لحياة الصعاليك ، بكل ما فيها من قسوة ،
وكل ما فيها من مخاطر ، وكل ما فيها من صبر وقوة ارادة ، وكل ما فيها من
آلام الصعاليك وهمومهم ومشاعرهم نحو حياتهم .

ونحن مثلا حين نقرأ أخبار الشنفرى وما ساقته الروايات عنه : نحسب
أننا علمنا عنه وعن حياته شيئا كثيرا ، ولكننا حين ندرس لاميته نجد أن الأخبار
والروايات لم تظهرنا من أمره الا على أيسره وأهونه ، وأن شعره هو الذى
يظهرنا من أمره ونفسيته وصفاته حياته وبيئته على الشئ الكثير ، فالروايات
مثلا تكاد تكتفى فى الحديث عن حياته وحياته غيره من أمثاله بأنه « صعلوك »
تاركة ما تشير اليه هذه الكلمة للنفس تصويره كيف تشاء حسب تصورها
للصعلكة ، ومعلومها عنها ولكن كلمة (صعلوك) هذه نجدها فى شعرهم حياة

(١) انظر أغاني الأصمغاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

حافله يشتى وصنوف من الرهبة والمخاطر والقسوة والمشاعر وغير ذلك مما لا يمكن
لغير شعرهم أن يصفه أو يصوره .

فشعر الشنفرى يصف لنا حياته حيث يزاول صعلكته ، فيصور ليلة من
ليالى هذه الحياة ، ونهارا من أيامها ، واصفا موقفه وصراعه ومشاعره ازاءها ،
فيصف الليلة بأنها ليلة حافلة بالبرد والمطر والوحل ، وأن بردها لا كالبرد ،
حتى أن جسمه امتلأ رعدة وارتعاشا وحتى اضطر الى أن يوقد سلاحه الذى
تعتمد عليه حياته فى مثل هذه الصحراء ليستدفى به ، وأن هذه الليلة بمطرها
وبردها ووحلها ورهبة صحرائها ووحوشها قد ملأته خوفا وجوعا وارتعاشا ،
ولكن ذلك كله لم يرده عن عزمه ، فمضى فى هذه الاهوال الى غارته على أعدائه
فيقول :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها واقطعه اللاتى بها يتنبل (١)
دعست على غطش وبفش وصحبتى سعار وارزيز ووجر والفكل (٢)

ويصف النهار بأنه يبلغ من شدة حره أن الجو يمتلىء بما يشبه خيوط
العنكبوت ، وأن شدة وقع الشمس الملتهبة على الرمال تحولها الى جحيم لا تطيقه
حتى الأفاعى فى جحورها ، وأنه ازاء هذا كله لا يملك ما يتقى به برده ولا حرا
البرد منزق لا يكاد يستر جسده فيقول :

ويوم من الشعرى يلوب لوابه افاعيه فى مضائه تتململ (٣)
نصبت له وجهى ولاكن دونه ولا ستر الا الاتحمى المرعب (٤)

ويصف معيشته فى تلك الحياة البالغة القسوة ، بأنه تعود الجوع المضنى فهو
يديم مطاله حتى يميته (٥) ، وأنه يطوى على الخمص حشاياه وأمعاه كما تلقف
الحيوط ليطوى بعضها على بعض (٦) وحتى الماء غير ميسور له ، فهو يسعى آمادا
طويلة ليعثر على بقعة ماء خلفها المطر أو السيل يزاحم فى شربها طيور الصحراء
وقطائها (٧) وأن شأنه فى البحث عن القوت شأن ذئاب الصحراء ، تظل رائحة

(١) النحس البرد واصطل استدفأ بالنار والاقطع نصال السهام ويتنبل أى يستعملها
للتنبل : من اللامية .

(٢) الدعس الوطء والغطش الظلمة والبفش المطر الخفيف والارزيز البرد والوجر الخوف
والأنكل : الرعشة .

(٣) المراد بالشعرى شدة الحر واللوب ما ينتشر فى الجو مثل العنكبوت والرمش شدة
وقع الشمس على الأرض . البيت ٦٠ .

(٤) نصبت له امته والكن بكسر الكاف الستر والاتحمى نوع من البرود والمرعب المنزق .
البيت ٦١ .

(٥) البيت المشرون من اللامية وما بعده

(٦) البيت الرابع والمشرون ما بعده .

(٧) البيت الخامس والثلاثون وما بعده ٧

عادية مطوفة في الصحراء حتى يتيح لها الحظ ما تقتات به (١) ، وأنه آلف النوم على الأرض ليس بينه وبينها بحرًا وبردها حائل ، لا يشكو منها ، وإنما يشكو من جفاف جسمه وبروز عظامه التي تحول بينه وبين الاستقرار أو الراحة في النوم ، فإذا نام على ظهره وخزته فقار ظهره البارزة حين تلمس الأرض ، وإذا اعتدل على جنبه لم يجد وسادة يتوسدها إلا ذراعه ولكنها وسادة جافة خشننة ، لأن ذراعه ليس فيه إلا عظام جافة ، ومفاصل يابسة صلبة كأنها كموب القناة (٢) وأنه على هذا كله يمشى حافيا ولا يلبس إلا بردًا ممزقًا ، وأن شعره الذي لا يحلق مسترسل حول صدغيه وعنقه ، وأن هذا الشعر تليد في بعضه من عدم النظافة لأنه قد يمضى عليه الحول لا يغسل ولا يفلى ولا يحلق (٣) ، وفوق هذا كله الهموم المتدافعة نحوه ، والتي تأتيه لا يدري من أين ؟ ولكنها تهب عليه من فوقه وتنبعث إليه من تحته ، والتي مهما يحاول صرفها تأب أن تفارقه إلا ريثما تعود ، وكأنها حتى الربيع التي تظل تعود صاحبها ثم تفارقه ثم تعود في أوقات منتظمة محددة (٤) .

ولكنه ليس الشنفري وحده ، وليست اللامية وحدها هي التي صورت حياة الصعاليك وصراعهم مع هذه الحياة ، بل نجد شعر الصعاليك كله يصور حياتهم وصراعهم على النحو الذي صورته اللامية ، وإن اختلف التصوير أو درجة الصراع ، حسب الظروف التي تحيط بالشاعر من حيث درجة القسوة ، ومن حيث قدرته على تصويرها .

فعمر بن بركة يصف لنا الوقت الذي يختاره لمزاولة حياته في الصعلكة ، وفي هذا الوصف نرى ليلة من ليالي الصحراء ، لا يهيم فيها أن كانت باردة أو غير باردة ، ممطرة أو غير ممطرة ، وإنما يهيم شيء واحد يترقبه دائما ، وهو سيطرة النوم والظلام والسكون على كل شيء ، حتى إذا اطمان إلى أن الليل بلغ من اظلامه مداه حتى لا يرى فيه إلا تآلق النجوم ، وبلغ من سكونه مداه حتى لا يسمع فيه إلا صياح البوم الجوائم في جبال الأفراط ، وحتى إذا اطمان إلى أن النوم قد مال بكل الناس ، هنالك يقدم على ما يريد كما يقول :

إذا الليل ادجى واسجهرت نجومه وصاح من الأفراط بوم جوائم
وما بال صاحب الكرى غالباته فاني على أمر الفواية حازم (٥)

وفي حياة الصعاليك التي عاشوها في الصعلكة جوانب كثيرة من الصراع ، فمنها ما كانوا يتعرضون له دائما من مخاطر الإعداء والوحوش والمفاجآت ، ومن

(١) البيت الخامس والمشرون وما بعده .

(٢) البيت الواحد والأريمون وما بعده .

(٣) الأبيات ٤٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) البيت السادس والأريمون وما بعده وسبق ذكر نص اللامية كاملة .

(٥) أمالي القالي ١١٩/٢ واسجهرت نجومه رواية الأغاني أما رواية القالي فهي واكفهر ظلامه .

هذه الحاجات ما تعرض له مالك بن الريب ذات ليلة ، حيث احسن مالك سيفه وتلم ، واذا هو يصحو من نومه على ثقل يجثم فوقه ، فانتفض بكل ما أوتي من قوة وحرص على الحياة ، فاذا شبح لم يمكنه الظلام من تبيينه ، أو لم يجد من الوقت ما يسمح له بتأمله ، فاهوى عليه بسيفه فصرعه ، أوقده نصفين كما تقول الرواية ، ثم تبينه فاذا هو رجل أسود ، وقد صور مالك هذه القصة في قوله :

ما نمت الا قليلا نمت شئرا حتى وجدت على جثمانى الثقلا
دهية من دواهي الليل بيتتى مجاهدا يبتقى نفسى وماختلا
اهويت نكاحا له والليل ساترا الا توخيته والجرس فانخدلا (١)

ولملاحظ يبين لنا شخصية هذا الداهية من دواهي الليل كما قال مالك ، فيقول في مفاخر الحبش والزنج على العرب « قالوا - يعنى الحبش والزنج - ومنا أقبح الذى قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة ، قالوا : وانما قتله مالك بن الريب لأنه وطئه في جوف الليل وهو سكران خائر » (٢) ومن هذا نعلم أن ما تعرض له مالك بن الريب ليس شيئا عاديا ، وانما هو خطر حقيقى مثل فى رجل متوحش يقطع الطريق وحده على القوافل وليس على الأفراد فحسب ، عشرين سنة كاملة .

وما تعرض له مالك بن الريب ذئب عدا عليه فى بعض الليالى ، ولكنه استطاع أن يقتله ثم يقول :

لأذئب الغضا قد صرت للناس ضحكة تغادى بك الركبان شرقا الى غروب
الم ترنى يالأذئب اذ جئت طارقا تخالطنى أنى امرؤ وافر اللب (٣)

ويصف مالك بن الريب حاله وهو يزاول مهنته فى ظلام الليل ، وما يتوارد على نفسه من نوازع الخوف والحذر واليقظ لما يعرض من مخاطر ، وكأنه ذئب يتلمس طريقه فى غلس الظلام فيقول .

يعط الفؤاد اذا القلوب تانست جزعا وورثة كل ادوع باسل
حيث الدجى متطلعا لغفوله كالذئب فى غلس الظلام الخافل (٤)

وأبو خراش الهذلى يصف ليلة من ليالى صعلكته ، بما فيها من برد وغيوم وأمطار وأحوال ومع هذا الوحل الذى يصعب فيه مجرد السير ، ومع هذا الظلام الذى لا يتيح للسارى أن يتبين ما تطأ قدماه ، تضطره الظروف الى أن يعدو أحيانا بكل ما أوتي من قدرة على العدو حتى ان الاشجار الصغيرة التى تثبت فى الصحراء لتتحطم تحت قدميه من شدة عدوه ، ولا يبالى خلال ذلك ما قد يعترضه

(١) مهلب الأغاني ٩٢/١ والجرس الصوت .

(٢) رسائل الجاحظ ١٩٢/١ والخائر غير التشيط .

(٣) المصدر السابق ١٥/٥ .

(٤) انظر مهلب الأغاني ١٠/٥ .

من مخاطر الوحوش أو ما قد يطأه من حيات أو هوام ، بل انه ليجد أن نعله الممزقة
قد أثقلت فيضطر الى نبذها والقائها فيقول :

وليلة دجن من جمادى سريتها إذا ما استهلكت وهي ساجية تهمي (١)
وشوط فضاح قد شملت مشايحا لادرك ذحلا أو أشيف على غنم (٢)
إذا ابتلت الأقدام والتفت تحتها غشاء كاجواز المقرنة الدهم (٣)
ونعل كاشلاء السمانى نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورهم (٤)

وعبيد بن أيوب يلغى النهار من حياته . فلا يظهر فيه لشيء ، ولا يزال
فيه شيئا ، أما الليل ففيه كل حياته ، وفيه كل نشاطه حتى أصبح كأنه جنى
لا يرى بالنهار ، ولا يآلف مجامع الناس ، ومع ذلك فهو غير الجن فيما يصدر عنه
كما يقول :

فليس بجنى فيعرف نجله ولا هو أنسى تحتويه المجالس
يظل ولا يسو لشيء نهاره ولكنه ينباع والليل داسي (٥)

وقد سجل الصعاليك بشعرهم كثيرا من غاراتهم وأساليب صعلكتهم
واحداث حياتهم فى الصعلكة ولذلك اعتمد كثير من المؤلفين القدامى فى الحديث
عنهم واستنباط أخبارهم على شعرهم نفسه كما يتضح ذلك فى كتاب الاغانى
حيث نجد معظم حديثه عن الصعاليك وسرد أخبارهم لا يعتمد على روايات أو
أخبار ، وإنما يعتمد على الشعر نفسه بما ورد فيه من أحداث وأخبار ، وقد
لاحظ ذلك صاحب تاريخ الأدب العربى (٦) ، وقد ورد كثير من ذلك فى شعرهم ،
فمن ذلك هذه القصة التى سجلها السليك ، حيث تسلل الى بيت يزيد الشيبانى ،
وكن خلفه انتظارا لسنوح الفرصة ، وإذا ابن الرجل يروح بالابل ، فأنكر أبوه
استعجاله فى الرواح بها قائلا : هلا عشيتها ساعة من الليل ، ثم زجر الرجل
الابل وعاد بها الى مرعاها ، وجلس قريبا منها متدثرا بردائه من البرد ، وكان
السليك حينئذ يتبعه ، فأهوى السليك على الرجل بسيفه فقتله ، وساق الابل
حتى نجا بها ، ثم سجل هذه القصة بشعره حيث يقول :

(١) دجن يعنى الغيم اللظلم وجمادى يعنى البرد وتهمى تسيل بالماء .
(٢) شوط فضاح مدى واسع يقتضيه المسبوق والمشايخ الجاد والذحل الثار واشيف
أشرف .

(٣) أجواز أوساط والدهم الابل والمقرنة التى ترون ببعضها يعنى أنه حين يعدو يحطم
تحت قدميه أشجارا كأوساط الابل .
(٤) أشلاء السمانى يعنى عظام طائر نبذتها طرحتها والرمح المطر الخفيف . ديوان الهذليين

١٣٠/٢ ، ١٣١ .

(٥) الحيوان للجاحظ ٢٣٥/٦ .

(٦) كارل بروكلمان ١٠٤/١ وما يندما .

وعاشية رج بطن ذعرتها - بصوت قتيل وسطها يتسيف (١)

ويصف هذا القتل صاحب الابل بأن لون الدم المنساب في خطوط على جسده كان كأنه برد ملون مخطط ، وأن الصرخ من قومه حين ياتيه يجده كذلك فيقول :

كان عليه لون برد معبر إذا ما آتاه صارخ متلهف

ويتحدث عن أصحاب الابل بأن فناءهم سيبيت خاليا منها لانه نجا بها ، فهي ليلة شؤم عليهم لانهم فقدوا الابل وفقدوا صاحبها ، وكأنهم لم يزجروا الطير ليعرفوا ما تخبئهم لهم هذه الليلة فيقول :

فبات لها اهل خلا فئاؤهم وموت بهم طير فلم يتعيفوا

ومن أجزاء القصة أنه كان للسليك رفقة ينتظرونه عن كتب يقول عنهم :

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى إذا عاعلوا نشزا أهلوا وأوجفوا (٢)

والشغفرى كما يبدو من أخباره وشعره سيطرت عليه نزعة الانتقام من بنى سلامان أكثر من الرغبة في الغنائم لانه أحس الذل في معيشته بينهم أسيرا ، وقد زادوه ذلا بإيذائه في كرامته ونفسيته حين انكروا عليه التزوج منهم ، وفعلوا به ما كان سببا في اندفاعه الى التصعلك بأقوى ما يملك من ارادة وصلابة ، وفي اللامية يحدثنا عن أثر غارة من غاراته على أعدائه الذين يقلب أنهم بنو سلامان ، وواضح من شعره عن هذه الغارة أنه لم يستهدف الغنيمة ، وإنما استهدف القتل من أعدائه فيقول بعد حديثه عن ليلته السابقة ذات البرد والمطر والخوف والجوع والرعدة :

فايمت نسوانا وأيمت اللة وعدت كما أبدات والليل اليل

فهو قد قتل أناسا تأيمت بموتهم نساؤهم وييمت أولادهم ، ثم يصف حديث أعدائه حين أصبح عليهم الصباح واجتمعوا يتباحثون فيما حل بهم ، واعتراهم الدهش ، فأخذوا يتساءلون ويتجاوبون ويختلفون فيمن أو فيما فعل هذا الذي حل بهم ، فمنهم من يقول : لقد هرت كلابنا بالليل ، ومعنى ذلك أن طارقا غريبا طرق الحى ، ولكن ما الطارق ؟ انه لم يحدث صوتا ، فلعله ذئب عدا ، فافترس من افترس ، بل لعله ضبع صغيرة فعلت ما فعلت ، ومنهم من يقول انه لم يكن الا صوت حركة يسيرة أحسستها بالليل ثم هدأت ، فحسبتها قطاة ريعت أو صقرا أزعج ثم لم أجد بعد ذلك صوتا ولا حركة ، ومنهم من يقول : ولم لا يكون

(١) انظر القصة كاملة في مجمع الأمثال للميداني ٩/٢ - ١١ وبطان متلثة البطون ويتسيف يعنى مضروبا بالسيف . وعاشية رج بطن وصف للابل يعنى ابل مشاة متلثة سقتها تاركا قتيل مضروبا بالسيف كان وسط الابل .

(٢) باتوا يظنون يعنى أصحاب الابل وما بعده وصف لزملائه والنشز المرتفع وأوجفوا خافوا يعنى خوفهم عليه ويجوز ارادة الوجيف من السير يعنى أسرعوا بالابل .

هذا الطارق شيطاناً من الجن ؟ ان هذا الذى حدث لا يمكن أن يفعله انسى ، وقد كان مصدر خلافهم ودمشتهم أنه لم تحدث غارة عليهم كما تعودوا أن يروا الغارات ، فهل يعقل أن يفعل انسان بمفرده كل ما حدث دون أن يحس أحد أو يشعر ؟ هذا مصدر الحيرة فى نفوسهم ، والشتنقى يصور حيرتهم هذه فى قوله :

فاصبح عني بالغميصاء جالسا فريقان مسئول وآخر يسال
فقالوا لقد هرت بليس كلابنا فقلنا اذنب عس ام عس فرعل
فلم يك الا نبأة ثم هومت فقلنا قطاة ريع ام ريع اجدل
فان يك من جن لابرح طارقا وان يك انسا ماكها الانس تفعل (١)

ومالك بن الريب حدثنا عن مورد رزقه ، فيقول انه وان كان لا يرفض الرزق الطبيعى الذى يتاح له كما يتاح للناس ، الا أن اعتماده الحقيقى فى رزقه على فصل سيفه وفرسه ، فهذان هما اللذان ينفعانه فى كراته على التجار وقطعه الطريق عليهم كما يقول :

سيفينى المليك وفصل سيفى وكرات الكميت على التجار (٢)

والاحير السعدى يحدثنا أيضا عن أسلوب صعلكته ، ونهجه فى المعيشة ، وأن أموال التجار هى هدفه ، وأن سيفه هو الوسيلة اليها فيقول :

تعيرنى الاعدام والبلو معرض وسيفى بأموال التجار زعيم (٣)

ثم يفصل الاحير ما كان يتيح له السطو على زوامل التجار من أنواع البز والطرف والشياب ، وان كان شعره الآتى قد قاله بعد توبته ، هذه التوبة التى لم تقتل فى نفسه الحنين الى ماضيه فيقول :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما ألقى اذا مروا من الحزن (٤)
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن (٥)
فرب ثوب كريم كنت أخسده من القطار بلا نقد ولا ثمن (٦)

وصخر الغى الهذلى يحكى لنا صورة من صور صراع الصعاليك فى حياتهم الشاقة الرهيبة ، بل يحكى عن صراع جانب يبدو للناس حيناً يسيراً وهو الحصول

(١) من اللامية والغميصاء مكان وهرت صوتت والفرعل ولد الضبع والنبأة الصوت الضعيف والاجدل الصقر .

(٢) مهذب الأغاني ١٠/٥ .

(٣) أمالى القال ٤٨/١ .

(٤) أمالى القال ٤٩/١ والزوامل الابل للحملة .

(٥) البز الشياب والطرفة يعنى الشيء الثمين ويحتسبوا يتركوها حسبة لله .

(٦) القطار الابل المقطورة بعضها وراء بعض .

على الماء ، ومعه صاحب يرافقه في حياة الصعلكة ، فيقول انه حين نفذ الماء منه حمل قريبته وأخذ يبحث عن ماء ، حتى علم مكانا للماء ، فسعى اليه ، ولكنه سعى الخائف المتوجس الحذر ، لأن الامواه مطلب لسكان الصحراء دائما وملتقى لهم لقتلها ، وشدة حاجة الناس اليها ، وهو بسبب أعدائه وجنائياته في الصعلكة كثيرا لأعداء ، فانه لن يأمن أن يجد على الماء رسدا من أعدائه يوقعون به ، فأخذ يسمى وكأنه نمر مرور من شدة البرد كما يقول :

وماء وردت على ذورة كمشى السبنتى يراح الشفيفا (١)

وظل صخر في مشيته هذه المحاذرة البطيئة حتى بلغ الماء واطمان الى خلوه من الأعداء فأراد أن يملا قريبته في أقصى عجلة وتسرع ، خشية أن يفاجئه العدو من حيث لا يحتسب أو أن يكون مخدوعا في اطمئنائه الى خلو المكان من الأعداء ، فدلى قريبته في الماء ولكنه وجد أن القرية قد تراكم عليها كثير من التراب والوسخ والروث ، فأخذ يخضها في الماء خضا شديدا ليذهب عنها بعض ما تراكم عليها ، وكأنه والقرية في يده يخضها هذا الخض الشديد مقامر قد أثارت هزيمته في ليسر كل غيظه وغضبه ، فهو يخض القدح في يده خضا شديدا لعله يفوز في رميته القادمة كما يقول :

فخضضت صفنى في جمه خياض المداير قدحا عطوفا (٢)

ويتابع صخر قصة أمر يبدو يسيرا لغير الصعاليك وهو مجرد الحصول على الماء فيقول انه بعد أن ملا قريبته بالماء أراد أن يسرع بالعودة ، وكأنه انتفض على غنيمة يريد النجاء بها بأقصى ما يتاح له من سرعة ، ولكن خوفه ليس على الماء ، وإنما على نفسه من أعدائه الذين يتربصون به في كل مكان ، ولذلك أخذ يفكر في الطريق التي يسلكها في عودته ، ان الحذر علمه أن يتجنب العودة في طريقه التي جاء منها خشية أن يجد أعداءه قد أكمنوا له فيها فأخذ في عودته الطرق الملتوية ، والملتفة خلف الجبال حتى يمكنه أن يتخذ من هذه الجبال وتعاريجها وكهوفها حصنا إذا أحس الخطر يحرق به فيقول :

فلما جزمت به قريتي تيممت أطرقة أو خليف (٣)

(١) ديوان الهذليين ٧٤/٢ والزورة الازورار والخوف والسبنتى النمر والشفيف البرد ويراح يعنى يحس .

(٢) الخضضة يعنى التحريك الشديد للشيء الذى يحدث صوتا خفيفا كالجاف مثلا وانصغر قرية أكبر من العادية والجم الكثير يعنى الماء والمداير يعنى المغلوب فى لعب اليسر وخياض فى معنى المصدر من خضض وقدحا مقول له والمطوف القدح الذى يكرر رميه مرة بعد مرة .

(٣) جزمت ملأت وبه يعنى الماء وتيممت قصدت وأطرقة جمع طريق والخليف طريق وراء حل أو واد .

ويحدث عن رفيقه فيصفه بأنه رجل متمرس بالغزو معبود عليه لأنه
حرفته ولذلك فهو غير ضعيف ولا مذرى به في أعين الناس .

معي صاحب حاجن بالقزاة ولم يك في القوم وغلا ضعيفا (١)

وصخر من العدائين المشهورين بأنهم لا تسبقهم الخيل ، ولذلك فلا بد
لصاحبه أن يكون كذلك ، وهو يصف هذا الرفيق بأنه في عدوه كأنه حمار
وحش عنيف ، قد عركه الصراع والجري وتركت الجروح آثارها في جسمه
وكل جرح منها كأنه عضة فم .

ويعدو كعدو كدر توى بفائله ونسائه نسوا (٢)

والشنفري يصف لنا طريقة ترصده لضحاياه وهو يقطع الطريق ، فيقول
ان المكان المفضل لديه هو أن يختار كميناً في ذروة الجبل وأعلاه ، وان الوقت
الآثير عنده هو حين يشتد الظلام فيصعد الى كمينه في ذروة الجبل ، هذه الذروة
التي لا يستطيع بلوغها الا ذو القوة والصلابة وهناك يتكئ على ذراعين يشبهان
السيف لصلابتهما وخلوهما الا من العظم ، ويظل عاقدا ذراعيه متكئا ومحدبا
عليها ولكن بصره الحديد يجول في كل ناحية وكأنه أفعى متيقظ متحفز يدور
برأسه وبصره في كل وجه يرقب ضحاياه فيقول :

ومرقة عيطاء يقصر دونها أخو الضرورة الرجل الخفيف المشفف (٣)

نميت الى اعلى ذراها وقدنا من الليل ملتف الحديقة أسدف (٤)

فبت على حد الذراعين محدبا كما يتطوى الأرقش المتقصف (٥)

ولكنه على هذا العناء وهذا الجهد كله ، وعلى ما يسلك من وسائل مختلفة
في صعلكته لا يضمن الفوز بما يريد ، فقد يغتم وقد يخيب ، كما يقول :

وباضعة حمر القسي بعثتها ومن يغز يغتم مرة ويشمت (٦)

(١) داجن معبود ويريد بالقزاة الغزو والوغل النذل .

(٢) الكدر بضم الكاف والدال وتشديد الراء الغليظ ، وصف لحمار الوحش والائل عرق
غليظ يصل في باطن الفخذ الى الساق والنسوف آثار من عضى والاطهر أنه يريد أن احتكاك
باطن فخذه من شدة العدو قد ترك فيهما هذه الآثار .

(٣) مهذب الأغاني ٩٥/١ والمرقة مكان الترقب وعيطاء مرتفعة والمشاف الذي شفته عوامل
الضعف فاوهنته .

(٤) نميت صعدت والشطر الثاني معناه أصبح الظلام شديدا .

(٥) محدب مائل الأرقش الأفعى الملون الجلد والمتقصف المتلوى .

(٦) الباضعة القاطعة يعني جماعة غزاة وحمر القسي يعني أن القسي قد أحمرت من طول
استعمالها وتعرضها للشمس والمطر ، ويشمت تصيبه الشماتة لعدم فوزه بفنيمة والبيت من
قصيدة طويلة بالفضليات ص ١١٠ .

ولكنه على أى حال مستريح النفس ، فيكفيه أنه يبعث الروح والروح
فى قلوب أعدائه ، وهو ما يريد أن يحققه ، ولو ضحى فى سبيله بحياته
فيقول :

أمشى على الأرض التى لن تفرنى لانكى قوما أو اصادف حمى (١)
وتأبط شرا يصف رهبة اصحاب الابل منه ، وتوقعهم لفارته فى كل
حين ، وهم يعلمون انه قادر على الغزو ، سواء كان وحده ، أو كان له شيعة
فيقول :

ولكن أبواب المخاض يشفهم اذا افتقروا واحدا أو مشيعا (٢)
وكنا قال الشنفرى انه يفزو فأحيانا يغم وأحيانا يشمت ، ولكنه فى
الحالين يخرج بنتيجة تريخ نفسه ، كذلك يقول مالك بن الرب :

وانىابى سيخلفهن سيفى وشدات الكمى على التجار
فان أسطع أرح منه أناسى لضربة فأتك غير اعتلاد
وان يقلت فانى سوف أبغى بنيه بالمدينة أو صراد (٣)

ولئن كان كثير من الصعاليك يؤثرون الليل ، يتخذون منه ستارا لهم فى
مزاولة أعمالهم الرهيبة فان عبدة بن الطبيب لا يستغنى عن الظلام ، ولكنه يؤثر
أن يكون قريبا من طلوع الشمس ولئن كان كثير منهم يؤثر المراقب يكمن فيها ،
ويؤثر قدميه يعتمد على نحائه بهما تكمن المخاطر ، فان عبدة بن الطبيب
يؤثر الغزو على فرس ساهم الوجه كانه ذئب ، ومهما تختلف الأساليب ، فان
الصحراء ميدان الجميع ، يقول (٤) :

أفزعت منه وحوشا وهى ساكنة كانها نهم فى الصبح مشلول
بساهم الوجه كالسرحان منصلت طرف تكامل فيه الحسن والطول
وقد غلوت وقرون الشمس منفتق ودونه من سواد الليل تجليل

وأما عبيد الله بن الحر ، فهو رجل مواتر من نسب أمه التى كانت قينة
أصحبها السبى ، فهو يريد أن ينتقم لها بسيفه ، ويتنقم لما أصاب نسبه من
رذاذ حول أمه فيجعل من أهدافه الأساسية فى الصعلكة سبى الحرائر حتى
يشفى غليل صدره لسبى أمه فيقول :

-
- (١) المغضيات ١١٠ وتكاد أصاب منه والحة الملية
(٢) حسنة أبى تمام ١٩٠/١
(٣) مذهب الأغاني ١٠/٥/١٠ صراد موضع قرب المدينة
(٤) المغضيات ١٤٣ ومنه يعنى الكلا والنعم الابل ومشلول مطرود والسرحان الذئب والطرف
الكريم والمنصلت الضامر الماضى والتجليل فى البيت الأخير التغطية الخفيفة .

ان تك امى من نساء اصحابها سباء القنا والمرهفات الصنائع
فتبا لفضل الحر ان لم ائل به كرائم ابناء النساء الصرائع (١)
ويزيد العقيل يدرك مدى الأمن الذى احس به اصحاب الابل حين اقلع
عن الصعلكة ويمن عليهم بتوبته فيقول :

الا قل لأرباب المخائض اهلوا فقد تاب مما تعلمون يزيد (٢)

ولئن كان شعر الصعاليك قد تحدث عن جوانب كثيرة مختلفة من حياة
الصعلكة ، وصراع الصعاليك فى هذه الحياة ، فان منهم من جعل لنفسه شعارا
عاما يوجه حياته كلها ، وتخضع له كل وسائله فى المعيشة ، كما يقول الأحيمر
السعدى :

وانى لاستحيى لنفسى ان ارى امر بحبل ليس فيه بعير
وان اسأل العبد اللثيم بعيره وبعران ربه فى البلاد كثير (٣)
وكما يقول بكر بن النطاح فى هذا البيت الذى كان العرب يرون فيه
مثالا لعزة النفس وابائها وعفتها :

ومن يفتقر منا يعش بحسبهم ومن يفتقر من سائر الناس يسأل (٤)

أَسْلَحة الصَّعْلَكة

وحياة الصعاليك التى قلنا انه لا يمكن لحديث او روايات او اخبار مهما
تبلغ أن تصورها على حقيقتها بما فيها من رهبة وقسوة ومخاطر لا يدركها حق
ادراكها الا الذين عاشوا فيها وتأثروا بها وانفعلوا بما فيها وهم الصعاليك
انفسهم وكذلك لا يمكن لاي اخبار او روايات أن تصور مشاعر اصحاب هذه
الحياة كما يصورها الصعاليك انفسهم ، لأنهم اصحاب هذه الحياة الذين عاشوا
فيها ، وتأثروا بكل ما تنطوى عليه .

(١) أمال القالى ٢٢٠/٣ .

(٢) كامل المبرد ٦١/١ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخائجى .

(٤) مهذب الأغاني ٨٤/٨ .

وحياة من الرهبة والقسوة والخطورة بهذا المكان ليست سهلة ولا ميسورة وليست مستطاعة لكل راغب فيها ، بل ولا لكل مضطر اليها ، ولئن كان بعض الناس يفخرون بمخاطرة أقدامهم عليها ، أو موقف عصيب اجتازوه ، فإن حياة الصعاليك بكل يوم من أيامها وبكل خطوة من خطواتها سلسلة متصلة متلاحقة من المخاطر والمواقف العصبية فليست فى حياتهم ساعة تخلو من خطورة أو خوف أو توقع للمكروه ، وسنرى أن كل حياتهم كانت قلقا ورهبة وخوفا ، حتى نومهم كان قلقا مفزعا ، وليس أشد على نفس انسان من شعوره بأن كل ما حوله ومن حوله عدو مترصد به ، حريص كل الحرص على أن ينال منه أن لم يهلك ، ويتكى مثلا لذلك هذا الشعور الذى يحمله الشنفرى من أنه طريد جنائيات كثيرة جناها ، وأصحاب هذه الجنائيات حريصون على الثأر منه . يتنازعون لحمه ، ويتنافسون أيهم يكون أسبق الى صرعه وأن أعداءه الكثيرين لشدة غيظهم وحرصهم على الانتقام منه لا تنام عيونهم فكيف ينام هو حيث تبنت هذه العيون كلها يقضى حيثة الى مكروها ؟

طريد جنائيات تيامرن لحمه عقيرته لأيهما حم اول (١)
تبنت لما نام يقضى عيونها حثاا الى مكروها تتغلغل (٢)

ومع ذلك فهذا جانب واحد من جوانب الخطورة والرهبة فى حياة الصعاليك وهو جانب مطاردة الموتورين للصعاليك .

واذن فهذه الحياة الخطيرة الرهيبة تحتاج بالضرورة الى أسلحة كثيرة يتذرع بها لمجابهة ما فيها ، ولكن هذه الأسلحة لا يكفى فيها أن تكون مجرد أسلحة قتال ، فكتير من مخاطر هذه الحياة ليس قتالا ولا يحتاج الى أسلحة قتال وانما يحتاج الى صفات أساسية لازمة لكل من يخوض غمار تلك الحياة ، ولذلك يمكن أن ننظر الى الأسلحة التى يحتاج اليها الصعلوك على انها نوعان ، أسلحة « منظورة » وأسلحة « غير منظورة » ونعنى بالأسلحة المنظورة أو المحسوسة اللوازم المباشرة التى تحتاج اليها حياة العدوان التى يحيها الصعاليك ، فهم فى عدوالتهم الدائب على الناس ، وفى تعقب المعتدى عليهم للصعاليك ومطاربتهم أيهم ، لابد للصعاليك فى هجومهم وفى دفاعهم من أسلحة ووسائل للهجوم وللدفاع . وأهم أسلحة الهجوم أسلحة القتال المعروفة كالسيف والقبوس ، والمطايا من الأبل والحيل ، وأهم أسلحة الدفاع سلاح كاد الصعاليك ينفردون به وهو السرعة المدهشة فى العدو ، وأيضا الأماكن التى تتيح لمرتابها الاختفاء عن الأعين والهروب ، ولذلك نجدهم يحرسون دائما كما سنرى على مثل هذه الأماكن فى مزاولتهم للصعالة .

ونعنى بالأسلحة غير المنظورة أو غير المحسوسة الأسلحة غير المباشرة التى

(١) من اللامية : وتيامرن تقاسن والعقيرة اللحم أيضا .
(٢) تبنت يعنى الجنائيات يقصد أصحابا وحثاا يعنى متجملين .

تلزم لكل صعلوك حتى يستطيع أن يحتل هذه الحيسة بما فيها من مخاطر وقسوة .

وأهم هذه الأسلحة الصفات التي ينبغي أن تنهيا للصعلوك ، والتي يجب أن يكون متصفا بها حتى يستطيع أن يواجه المخاطر التي لابد أن يتعرض لها كل صعلوك ، والقسوة التي لا تخلو منها حياتهم ، وذلك كالجرأة وقوة الإرادة والصبر واليقظة .

وهذه الأسلحة غير المنظورة أهم ما يلزم للصعلوك ، بل هي أهم من الأسلحة المنظورة ، وهي المعيار الحقيقي للتفاوت بين الصعاليك ، ولدى خطورة الواحد منهم في الصعلكة ونجاحه فيها ، وبدون هذه الأسلحة لا يصلح شخص لحياة الصعاليك الحقيقية مهما أتيح له من أسلحة منظورة ، أما الذين يتمتعون بقدر وافر من هذه الصفات فانهم كانوا دائما ينجحون في تحقيق أغراضهم من الصعلكة ، ولذلك نجد في أخبار كثير منهم كما سبق انه كان يغزو وحده ، أو كان يغزو على رجليه ، ونجد الشنفرى مثلاً هذا الذي روع نجدا كلها وخاصة قبيلة بنى سلامان كان كما يؤكد شعره وأخباره يعتمد على نفسه ، وحتى في الأخبار القليلة التي تحدثنا عن صحبه ، لا نجد له إلا رفيقين في أكثر الأحيان هما تابط شرا وعمرو بن براق ، ومما يدل على عدم ملازمة هذين الرفيقين له ان الأخبار تصف تابط شرا بأنه كان يغزو وحده ، ومعنى ذلك ان هذه الصفات ألزم ما يحتاج اليه الصعلوك في حياته ، وانه يستطيع أن يستغنى بها عن كثير من الأدوات المنظورة أو المحسوسة .

وفيما يل نتحدث عن هذين النوعين من الأسلحة التي تدرع بها الصعاليك لحوض حياتهم هذه الرهيبة القاسية الخطيرة .

الأسلحة المنظورة

٢ - أسلحة القتال

إذا كان حمل السلاح شيمة العربي ، يرى سلاحه جزءاً منه ، لا يفارقه في سلم أو غيره ، فهو ملازم له في كل أوقاته ، فمن باب أولى الصعلوك الذي يعيش حياة عادية ومعدوا عليها كما يقول الصعاليك ، فلا يتصور أحد من الصعاليك بدون سلاح ، ونرى شعرهم يعتز بالأسلحة اعتزازاً شديداً ، ويتفنن في تصوير هذا الاعتزاز والتعبير عنه ، وقد تحدثوا عن أنواع كثيرة من الأسلحة نسوق أهمها فيما يأتي :

١ - السيف :

السيف هو السلاح الاول الذى كان يحرص كل عربى على حمله واستعماله ، والأسلحة الأخرى تعتبر اضافية بالنسبة اليه . أو مدخورة للظروف ، حيث ان الأسلحة الأخرى غير السيف كان مجالها القتال ، أما السيف فملائم للفرد دائما ، سواء فى الحرب والسلام وقد تحدث شعر الصعاليك عن السيف باضافة وتفنن ، ولا يكاد شاعر منهم لم يكرر حديثه عن السيف فى صور وأسماء وتشبيهات مختلفة .

وأكثر الحديث فى شعرهم عن السيف ، كان عن لونه ، وهو البياض ،
يقول الشنفرى :

إذا فزعوا طارت بياض صارم ورامت بما فى جفرها خم سلت (١)

ويقول أيضا عن بياض سيفه الذى يجذ أطراف السواعد :

وابيض من ماء الحديد مهند مجد لأطراف السواعد معطف (٢)

ويتحدث عروة بن الورد عن بياض سيفه المشهر الوقع فيقول :

نظعن عنها أول اليوم بالقنا وبيض خفاف وقعن مشهر (٣)

ويتحدث عروة أيضا عن بياض سيفه الذى لا يملك غيره وغير درعه ومنظره فيقول :

ومال مال غير دوع ومغر وبيض من ماء الحديد صقيل (٤)

ويتحدث مالك بن الربيع عن القرى الذى قدمه ، وقد كان هذا القرى سيفا أبيض كالعقيقة :

فقراك أبيض كالعقيقة صارم ذا روثق يثقى الضريبة فاصل (٥)

ولئن كان بياض سيف مالك فاصلا فى أعضاء خصمه كما قال ، فانه منجاة لصاحبه كما يقول :

فصرت لقي لما علاك ابن حرة بياض قطاع ينجى من الكرب (٦)

(١) المضليات ١١١ والجفر كنانة السهام والصارم القاطع يعنى السيف .

(٢) مهلب الأغانى ٩٥/١ .

(٣) الأسميات ٤٠ .

(٤) المنة لابن رثيق ٣٥/٢ .

(٥) مهلب الأغانى ١٠/٥ .

(٦) مهلب الأغانى ١٦/٥ .

وسيف مالك هذا يصفه راجز بأنه مسموم فيقول :

الله نجاك من القصيم ٠٠٠

ثم : ومالك وسيفه المسموم (١)

ولكن صخرا الغي يرى هذا البياض غير خالص في سيفه ، بل مشسوبا
ببعض الميل الى السواد في بعض متنه ، وليس ذلك عيبا فيه ، بل زيادة في
الجودة ، فهو سيف مستخلص ، انتقاء من سيوف أريحاء الكثيرة حتى انه لا يجد
شبيها له ، وحتى ان ضربته لا يصلب أمامها شيء فيقول :

وصارم اخلصت خشيبته ابيض فهو في متنه ربد (٢)
فليت عنه سيوف اريج حتى باء بكفى ولم أكد أجد (٣)
فهو حسام تتر ضربته سا ق المذكي فعظمها قصد (٤)

ويستغنى الشنفرى بسيفه الأبيض وقوسه عن عون الناس جميعا
وصداقاتهم وصلاتهم فيقول :

واني كفاني فقد من ليس جازيا بحسنى ولا في قربه متعل
ثلاثة اصحاب فؤاد مشيع وابيض اصليت وصفراء عيطل (٥)

وعمر بن بركة لا يرضى لسيفه الأبيض مكانا حين يضرب الا الجماجم
فيقول :

فلا صلح حتى تقلاع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٦)

وأما قيس بن الحدادية فيجعل سيوفهم البيض هي كل ما يقدمونه من
مهر ليستحلوا بها نساء أعدائهم ، وذلك حين يصبحن أسيرات بهذه السيوف
فيقول :

لقد علمت أفناء بكر بن عامر باننا نلود الكاشح المتزحرجا
وانا بلا مهر سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكحا (٧)

(١) معجم البكري ١٠٢٧/٣ .

(٢) صارم قاطع وأخلصت خشيبته أخلص طبعه وهو رقيق والريد جمع ريدة وهي البقع
المخالفة في اللون .

(٣) أريج هي أريحاء الشام بلدة وباء صار ولم أكد أجد يعني لم أجد له مثيلا .

(٤) تتر تقطع والمذكي المسن الصلب والتصد جمع قصدة وهي الكرة . ديوان الهذليين

٦٠/٢ .

(٥) مشيع يعني كان له شيعه تناصره وأصليت قاطع وصف للسيف وعيطل قوس طويلة

المنق . اللامية .

(٦) أمالي القلي ١١٩/٢ .

(٧) الأغاني للأصفهاني ١٤٤/١٤ .

وأما مالك بن حريم فيصف قومه وسيوفهم البيض تلمع حين يضربون بها فيقول :

والبيض تلمع بينهم تعصو بها الفرسان عصوا (١)

ومن الصعاليك من حاول تشبيهه بياض السيف بشيء ، ولكنهم لم يخرجوا عن تشبيهه بالملح (٢) ، ولعل الملح أشد ما يعرفونه بياضا ، فلا نعلم شيئا في حياتهم أكثر بياضا من الملح ، وحتى اللبن المعروف بالبياض لا يبلغ الملح في صفاء بياضه ، وخاصة لبن الأبل الشائع بينهم ، فبياضه غير خالص لما يشوبه من الدهن ، ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يشبهوا بياض سيوفهم بأشد ما يعرفونه بياضا وهو الملح ، فعمر بن برة يجعل في سيفه الذي يشبه لون الملح غنى له عن المال ، ولاعتزازه بالسيف يذكره في خمسة أبيات من قصيدة غير طويلة ، تكاد الخمسة تكون مخصصة للسيف فيقول عن نفسه ،

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح ابيض صارم
غموض اذا غص الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمن ملازم
ثم : كذبتم وبيت الله لا تاخلونها مراغمة ما دام للسيف قائم
ثم : متى تجمع القلب الذكي وصارما وانما حميا تجتنبك المظالم
ثم : فلا صلح حتى تقدع الحيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٣)

ويقول مالك بن حريم عن لون سيفه الذي يشبه الملح ، والذي قتل به سيد أعدائه :

بنى قمبر قتلت سيدكم فالיום لا فدية ولا جزع
جللته صارم الحديد كالملح وفيه سفاسق ملح (٤)

ويقول عروة بن الورد :

يكفى من المائور كالملح لونه حديث باخلاص الذكورة قاطع (٥)

والشنفرى يطلق لحياله العنان ، فلا يكتفى بذكر الملح في تشبيه لون سيفه ، وإنما يلجأ الى أسلوبه الغالب على شعره كله ، وهو التصوير البارع العميق من مرثيات بيئته فيقول : بعد ذكر اللون والصفات المألوفة انه يشبه « أقطاع الغدير » أو أحد « أذئاب الحسيل » :

(١) الحيوان للجاحظ ٤٧٤/٦ وتعصو تضرب والمصو الضرب .

(٢) شبهه مالك بن الريب بالحققة في البياض كما سبق أنفا ولكنه تشبيه لا يعتبر من البيئة .

(٣) أمالي القالي ١١٩/٢ وتقدع تكف والجماجم الرؤوس .

(٤) المصدر السابق ١٢٠/٢ وسفاسق طرائقه المسماة الفرند .

(٥) ديوان عروة ٩٦ .

حسام كلون الملح صاف حديد جراز كاقطاع الفدير المنعت (١)
تراها كاذناب الحسيل صوادرا وقد نهلت من الماء وعلت (٢)

وقد حظى متن السيف بأوصاف كثيرة فى شعر الصعاليك ، تنعته أحيانا بالحدة والشحذ ، وأحيانا بالركة التى تدل على المضاء والنفاذ ، وأحيانا بالصلابة والمنانة ، وأحيانا بالطول مع مصاحبة ذلك لأوصاف أخرى ، وتشبيهات له ، أو نسبة الى صانع أو بلد ، أو غير ذلك من الأوصاف .

على اننا نلاحظ ان مقبض السيف وحمائله لم تحظ باهتمام شعريهم ، ولم يجعلوها موضوعا بارزا للحديث عنها ، وهذا أمر متوقع من مثل الصعاليك فالمقبض والحمائل تعتبر زينة وكمالا ، أعنى ان العناية بهما انما تتوقع من فرسان المجتمعات والمدن ، الذين يختالون بأسلحتهم ويستعرضونها أمام الناس ، فيهمهم جمال مقبض السيف أو حمائله أو غمده ، ليكون فى هذا الجمال زيادة فى الهيبة والتمجيد ، أو جذبا لأنظار المفتونات ، أو حتى ارضاء للخيلاء ومباهاة بالتراء ، أما الصعاليك فلم يكن لهم فى شيء من ذلك أرب ، وما لهم والحلية والزينة ؟ انهم فضلا عن كونهم لا يستطيعونها لفقرهم ، ليسوا فى حاجة اليهم وحياتهم فى عزلة عن المجتمعات ، وسيوفهم قلما تستعمل فى ضوء النهار ، وانما مكانها الصحراء ، وزمانها جوف الظلام فحينما يتحدثون عن هذه الحلى يتحدثون عنها عرضا ، وفى سيوف غير سيوفهم ، كما يتحدث الأعمى الهذلى عن الضبايع السود التى تشبه جلودها ثياب الرهبان ، وعن نزع هذه الضبايع لجلد فريستها كما ينزع القين الحلية المذهبة عن جفن السيف ليضع غيرها مكانها فيقول :

سمود سحائل كما ن جلودهن ثياب واهب (٣)
آذانهن اذا احتضر ن فريسة مثل اللاناب (٤)
ينزعن جلد المرء نزع القين أخلاق المذهب (٥)
بل على العكس نجدهم يصرحون بخلو سيوفهم من الحلية ، وأن مواضع الحلية منه خلقة بالية فيقول تأبط شرا :

(١) المضليات ١١١ والجراز السيف القاطع والاقطاع يعنى الأمواج الرقيقة التى يضر بها الهواء فتلمع بياضا والمنعت الكثير النعوت .

(٢) الحسيل جمع حسيلة وهى أولاد البقر - يشبه السيوف بأذناب أولاد البقر حين ترى أمهاتها ونهلت وعلت يعنى أن السيوف رويت من الدماء فى مقابلة رى صفار البقر من لبن أمهاتها .

(٣) سحائل وصف للضبايع بالضخامة يعنى ضبايعا ضخمة سودا كأنها تليس ثياب رهبان لبوادها .

(٤) احتضرن أوقعن والمذهب جمع مذبة وهى المفردة التى يعرف بها .

(٥) القين الحداد والأخلاق جمع خلق للشيء القديم البالى والمذهب جمع مذهب أو مذهبة يعنى أن القين ينزع عن جفن السيف الشيء للمذهب الملصق به حين يبلى ليضع جديدا مكانه .

فطار بقحف ابنة الجن ذو سفاسق قد اخلق المحملا (١)
ويقول عبيد بن أيوب أن طول احتضانه السيف جعل جفنه وحمائله
كأنهن جزء منه :

وطال احتضاني السيف حتى كأنما يلاظ بكشحي جفنه وحمائله (٢)

فملازمة السيف لذاته هي التي تعنيهم ، ولا يعنيهم بعد ذلك شيء قط
الا جودة السيف ولذلك حرصوا كثيرا على الحديث عن جودة السيف كما قال
صخر القتي انه افترى سيفا من سيوف أريحاء حتى لم يكن لسيفه مثيل ، وعن
مضائه في النفاذ وتقطيع الأوصال وعن شحذ حده ، بالإضافة الى سرد أسماء
كثيرة للسيف مأخوذة أصلا من صفات له ثم غلبت عليه كالمهند والشطب .

فمن ذلك وصف سعد بن ناشب لسيفه حيث يقول عن نفسه :

إذا هم القتي بين عينيه عزمه وصنم تصميم السريجي ذي الأثر (٣)

وأبو خراش يرى غاية ما يطلب في السيف أن يكون حادا مضيقولا
فيقول :

ولولا نحن أزهقه صهيب حسام الحد ملروبا خشيبا (٤)

وأحيانا يسمى أبو خراش سيفه المهند كما يقول في وعييده لشخص
يدعي واقدا :

أوا قد لا آلوك الا مهندا وجلد أبي عجل وثيق القبائل (٥)

ومرة أخرى يضيف اليه صفة المهند القضاب فيقول :

فنشيت ريج المسوت من تلقائهم وكهرت كل مهند قضاب (٦)

وأحيانا يتحدث عن إباء السيف وصلابته مشبها شخصا بنصله فيقول :

اشم كنصل السيف يرتاح للننى بعيدا من الآفات والخلق الوخم (٧)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والقحف المقم فوق الدماغ والسفاسق طرائق
السيف المسماة الفرند وابنة الجن الفول .

(٢) الكامل للبرد ٢٠٠/١ ويلاظ يلازم ويلتصق .

(٣) حساسة أبي تمام ٢٧٢/١ والسريجي نسبة الى صانع أو بلد والأثر صلابة المتن وحدته .

(٤) ديوان الهذليين ١٣٥/٢ وأزهقه أغشاء بمعنى ضربه والحسام الحاد والمزروب العديد
والخشيب حديث العهد بالصقل .

(٥) ديوان الهذليين ١٣٩/٢ ولا آلوك يعني ليس لك الا السيف وأبي عجل يريد جلد
الثور صنعت منه قرص .

(٦) المصدر السابق ١٦٨/٢ ونشيت شملت والمهند المشحوذ والقضاب القطاع .

(٧) المصدر السابق ١٥٣/٢ في رثاء قريبه خالد بن زهير والأوصاف في البيت لخالد .

وأما صخر فيسمى سيفه الجراز متحدثاً عن حدة متنه ومضائه ، فيقول حين طولب بدية أحد قتلاه مخاطباً خصمه أبا المثلم :

- ليت مبلغا ياتى بقول لقاء أبى المثلم لا يريث (١)
فيخبره بأن العقل عندي جراز لا أفل ولا أئيث (٢)
به أقم الشجاع له حصاص من القطمين اذ فر اليوث (٣)

وأبو المثلم هذا الذى توعدده صخر الفى قائلا أن الدية التى تطلبها لن تجدهما عندي الا سيفاً له صفاته السابقة ، تجد أبا المثلم هذا يؤمن على ما ذكره صخر عن سيفه ، بل يزيد فى وصف سيف صخر عما وصفه صخر نفسه فيقول :

- يا صخر ان كنت ذا بز تجمععه فان حولك فتيانا لهم خلل (٤)
او كنت ذا صارم غضب مضاربه صافى الخديعة لا تكس ولا جبل (٥)
وسمعة من قسى النبع كاتمة مثل السبيكة لا ناب ولا عطل (٦)
يا صخر فالليث يستبقى عشيرته قنية ذى المال وهو الحازم البطل (٧)

وتأبط شرا يؤكد أنه لا تهمة للسيف حلية أو رونق ، وانما يهمة أن يكون سيفه حديدا ماضيا ، ولذلك فانه اذا وجد سيفه قد فل أو كل شحذه بحد الحجارة دون أن يحتاج الى صيقل يصقله فيقول :

- اذا كل أمهيته بالصفاء فحد وكم أده صيقل (٨)
أما عبد الله بن سبرة الحرشى فيهمه أن يجلى الصياقل عن سيفه ما يعلق بنصله فيقول :

-
- (١) المصدر السابق ٢٢٣/٢ ولقاء أى تلقاء وقبالة ويريث يبطء .
(٢) العقل الدبة والجراز القاطع والافل المفلول ولا أئيث يعنى حديده ذكر .
(٣) أقم الشجاع أرده وله حصاص أى جد ونشاط فى مره وقطمه والقطمين المنهجين من الفحولة .
(٤) البز السلاح والخلل جمع خله بطانة جلن السيف وأراد بها السلاح نفسه : ديوان الهذليين ٢٣٠/٢ .
(٥) النكس الضعيف والجبل بفتح الجيم وكسر الباء الكز الغليظ غير السهل والغضب القاطع .
(٦) وسمعة قوس سهلة الاستعمال وكاتمة ليس بها صدع والسبيكة الصفراء يعنى قوسا غير منكسة ولا عاطلة من الوتر .
(٧) القنية المال المكتنى يريد أن الحازم يستبقى أهله وعشيرته ويحرص عليهم فلا يعمل على قتلهم كما تفعل أئث .
(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وكل أى قل حده وأمهيته شحذته وحدته والصفاء نوع من الحجارة .

كل ينوء بهامى الحد ذى شطب جلى الصياقل عن ذريه الطبقا (١)

وجحدر بن معاوية حين أودع السجن أشفق أن يموت ، لا رهبة من الموت ولا حبا فى الحياة ، وإنما لأن لسيفه وسلاحه حقا وغاية لم يحققها بعد . فيقول :

ولم اك قد قضيت حقوق قومي ولا حق المهند والسنان (٢)

ومالك بن الربيع حين خلقت المنية فوق رأسه ، وأحس طعم الموت فى حلقه فى رحلته التى مات فيها مشردا غريبا ، حينذاك وجد نفسه وحيدا يصارع الموت والقرية ، ولكنه فى هذه اللحظات العصبية لم يتس سيفه ورمحه ولئن كان سيفه قد صاحبه حياته صحبة الرفيق والساعد والسند القوى المثين ، فانه فى لحظات موته أيضا كان النادب والراني والباكى ولا باكى غيره وغير رمحه وفرسه فيقول :

نذكرت من يبكى على فلم أجده سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبوبك يجز بجامسه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا (٣)

٢ - السهم :

ومن ألزم الأسلحة للصعاليك القوس والسهم ، لأنهم بحكم حياتهم يعتمدون اعتمادا أساسيا على أشخاصهم بمفردها ، وبحكم اعتماد الصعلوك على أسلوب الترسد ، والهجوم والدفاع الفردى ، يحتاج الى سلاح بعيد المدى فى الإصابة ، بحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر مع أعدائه أو ضحاياه ، والسهم خير ما يحقق له ذلك ، ولذلك نجد شعرهم يتحدث كثيرا عن السهم ويصور أهميته فى حياتهم وتحقيق أغراضهم ، فمن ذلك ما يصفه صخر البشى عن سهامه ، من أنها مع ترسه حصن منيع يحول بينه وبين أعدائه ، ويرد عنه مترعديه حيث يقول :

انى سينهى عنى وعيلىهم يبيض وهاب ومجنا أجده (٤)

والشغفرى يتحدث عن أهمية السهام للصعلوك حتى انه يحمل منها ما يستطيع حمله دائما ، لأنها الحاجز المنيع بينه وبين أعدائه ، والقبضة الطولى فى بلوغه إياهم ، فيصف رفيقه تأبط شره الذى يسميه « أم عيال » لأنه كان يدبر أمر قوتهم حين يفزون ، يصفه بأنه يحمل دائما جعبة فيها ثلاثون سهما مهيأة للإطلاق فور احساسهم بأول خطر فيقول :

(١) أمالى القائل ٤٧/١ والشطب طرائق السيف فى منته وذريه لمعانه والطبق الوسخ .

(٢) أمالى القائل ٢٧٨/١ .

(٣) مذهب الأغاني ١٧/٥ مرثيته للشهيرة .

(٤) ديوان النذليين ٥٩/٢ والبيض الزهاب السهام للرغبة المرققة والمجنا الترس وأجده

شده صلب .

لها وفضة فيها ثلاثون سيحقا إذا آنست أولى العدى اقشعرت (١)
ثم - اذا فزعوا طارت بأبيض صارم وراحت بما فى جفراها ثم سلت (٢)

ويصف أبو خراش سهمه الحاد العريض النصل ، وذلك خلال صورة دقيقة جنيلة يرسمها لقطيع من حمر الوحش تعرضن لصائد ، فبعد أن وصف القطيع بما فيه من أتن حوامل وذكور يحاولن النزول على الاتن رغم حملهن ، ثم ما يحدثه القطيع من تصايح وجلبة وتعارك يثور له حولهن وفوقهن غبار كأنه الثوب المنسوج ، ثم اشتداد وهج الشمس عليهن ، وسعيهن الى الماء وبعد أن شرب القطيع وعاد هنالك كان أبو خراش وسهامه راصدا للقطيع فيقول مكمل هذه الصورة •

منيبا وقد أمسى تقدم وردها أقيدر محموذ القطاع نذيل (٣)

يريد أن القطيع حين عاد وقد أمسى عليه المساء ، كان أبو خراش قد سبقه وترصد له فى طريقه وتابع القطيع سيره ، محاذرا بفريزته ، مرهفا سمعه خشية أن يكون فى طريقه صائد يكمن له كما كان أبو خراش كامنا حينئذ له وشئ واحد لم يستطع القطيع أن يخفيه ، هو وقع أرجله القوية فى طريق خشنة غليظة غير ممهدة ، وتزداد حدة وقع أرجله حينما يكون منحدرًا من هضبة مرتفعة ، ويعبر أبو خراش عن ذلك فيقول :

فلما دنت بعد استماع وهفته بنقب الحجاب وقعن رجيل (٤)

ويتابع أبو خراش صورته هذه الواقعية الجميلة ، فيقول أن الحمر الوحشية ظلت فى انحدارها القوى الوقع من المرتفع حتى نزلت بطن الوادى ، وفى مثل هذه الوديان المنخفضة من الصحراء تتجمع عادة مياه الأمطار والسيول ثم تجف أو يجف معظمها ، فتتبت منها طحالب وأنواع من نبات الصحراء قد يكون بعضها كثيفا أو مرتفعا ، ولذلك حينما نزلت حمر الوحش من مرتفعها لنجتاز هذه النباتات النابتة فى مياه آجنة أخذت الحمر تفتح ما بين رجليها

(١) المضليات ١١١ والوفضة جمعة السهام والسيحف السهم العريض النصل وآنست أحست وأنشئ يفتح العين وكسر الدال جماعة المدائن واقشعرت تهيأت للقتال وضمير التانيث يعود على أم عيال وهو تأبط شرا •

(٢) الصارم القاطع للسيف والجفر كثافة السهام يريد أنه يرمى سهامه فإذا نغدت سل السيف •

(٣) ديوان البديين ١٢٠/٢ منيبا راجعا والورد مكان الورد من الماء وأقيدر يُصير العنق يعنى نفسه ومحموذ شديد صلب والقطاع السهام ولذيل من الذئالة يريد أنه رث الثياب غير نظيف المظهر •
المظهر •

(٤) دلت يعنى حمر الوحش وبعد استماع وهفته أى بعد تسمع أرفهت فيه أذالهن والنقب الطريق الغليظ والحجاب الأرض المرتفعة كالهضبة الصغيرة ، والرجيل القوى يعنى وقع أرجلهن قوى عنيف •

الأماميتين فيما يشبه الوشب المضطرب لتجتاز هذا الماء الآجن بما فيه من طحالب ونباتات

يفحين بالأيدي على ظهر آجن له عرمص مستأسد ونجيل (١)

وبعد أن اجتاز القطيع هذا الماء الآجن بما فيه من نباتات مضى في طريقه صوب الجبل ، وهنا كان أبو خراش في تتبعه القطيع ببصره قد وجد الفرصة لاقتناص أحد هذه الحمر بسهمه وقد اختار أقربها إليه ، وفجأة أحس الحمار بأبى خراش وسهمه ، فاعتراه فزع شديد ، وحاول النجاء ، ولكنه وجد نفسه وليس أمامه إلا شق في الجبل أحسن أبو خراش اختياره لاصطياد صيده ، واندفع الحمار في الشق ، فأصبح كالصيد في الفخ ، وحينئذ كان سهم أبى خراش الضخم الحاد العريض النصل كما يصنفه يغور في فؤاد الحمار .

فلما رأى ألا نجاء وضمه الى الموت لصب حافظ وقيل (٢)
وكان هو الأدنى فخل فؤاده من النبل مفتوق الفرار بجيل (٣)

ومن هذه القصة نرى جانباً من جوانب حاجة الصعاليك الى السهم ، وهو جانب الصيد ، الذى تعتمد حياتهم عليه ، ان طعامهم بحكم حياتهم فى الصحراء وانقطاعهم عن المجتمعات اماً قد تطول الى الأشهر الطويلة أو ما هو أطول من ذلك ، فى رحلات الغزو البعيدة المدى ، وفى الفترات الطويلة التى يضطرون فيها الى التخفى من المطاردة ، فى كل ذلك لا وسيلة لهم الى العيش إلا الطرد والصيد لا يصلح له فى أسلحتهم إلا السهم ، وعمره ذو الكلب يجعل من سلاحه وسهامه خير رد على وعيد المتوعدين ، فسيفه الملازم له كالوشاح ، وترمنه الذى يتقى به سهام العدو فتفل سهام العدو على صلابه ترسه وسهمه الممد للانطلاق ، وكنائته التى تحوى سهاماً محددة كالشنوك ، كل ذلك يجعل وعيد أعدائه هراء ، فيقول :

تمثاني وأبيض مشرفياً أشاح الصدر اخلص بالصقال (٤)
واسمر مجنأ من جلد ثور اصلا مفلا ظبة النبال (٥)

(١) يفحين بالأيدي يفتحن ما بين أيديهن والآجن الماء الراكد وله عرمص يعنى به نباتات والعرمص الطحلب من النبات ومستأسد يعنى هو نبات صلب ونجيل نبات رخو يريد أن الحمر فتحت يديها لتجتاز ماء آجنا به نباتات بعضها صلب وبعضها رخو .

(٢) رأى يريد الحمار ولصب يكسر اللام وسكون الصاد الشق فى الجبل وحافظ لا منفذ فيه يمينا ولا شمالا وقيل جاف بايس .

(٣) الأدنى الأقرب يعنى أن الحمار الذى تخيره كان أقربها إليه ، وخل ثقب فؤاده بسهمه ومفتوق عريض يعنى السهم والفرار الحد وبجيل ضخم .

(٤) ديوان الهذليين ١١٦/٣ وأشاح الصدر ملازم كالوشاح للصدر .

(٥) مجنأ محدب يعنى الترس وأسم ليس فيه خال ولا منافذ ومفلا اسم فاعل أى بكسر النبال والظبة الحد .

وايفاقى بسهمى ثم ارمى والا فالاباءة فاشتمالى (١)
وفى قعر الكنانة مرهفات كان ظلماتها شوك السببال (٢)

والشفرى يبين وجهها من وجوه حاجة الصعاليك الى السهم ايضا ،
أو موقفا من مواقف النفع له ، فيقول ان ورود الماء على ما فيه من أخطار ، حيث
يكون الماء دائما فى الصجراء مطلبيا للناس ومنهم الأعداء ، ومطلبيا للوحوش وكلها
عدو ، لا يخفيه ما دام يحمل سيفه اليماني ، وسهامه المنتقاة من خير السهام
والتي تعرف طريقها دائما حين يرميها الى القلوب ، لأنه تابع يرى هذه السهام
حتى ان لها حين تنطلق لصوتا وذفيفا عجيبا فيقول عن سهامه هذه وعن
اصرات انطلاقها :

وانك لا تدري ان رب مشرب مخوف كداء البطن او هو اخوف (٣)
وردت بمائور يمان وضالة تخيرتها مما ارش وأرصف (٤)
اركبها فى كل احمر غائس وأنسج للولدان ما هو مقرف (٥)
وتابعت فيه البرى حتى تركته يزف اذا انفدته ويلذف (٦)

ويمكن القول بأن السهم وأداة رمية وهى القوس أهم ما يلزم للصعلوك
لاعتماده على شخصه كفرد ، ولاعتماد حياته على التردد والخفية كما قلنا ، فهو
فى حاجة الى سلاح بعيد المدى بحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر مع أعدائه.
بالاضافة الى حاجته الأساسية فى الصيد ونحو ذلك مما أشارت اليه صور
استعمالهم للسهم ، ولذلك نجد السهم مرتبطا فى حديثهم دائما بهذه الأغراض
بل هو مرتبط فى خيالهم بالدفاع عن النفس ضد أشد المخاطر التي يتخيلونها
أو بمعنى أصح بتخيلها بعضهم كخيالات عبيد بن أيوب عن الجن والغيلان ،
هذه الخيالات التي حاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فنجده يربط السهم بهذه
الخيالات فى صراعه معها فيقول :

ولقد لقيت منى السباع بلية وقد لاقت الغيلان منى الدواهيىا
أذقت المنايا بعضهم بأسهمى وقددن لحمى وامتشن ردائىا (٧)

(١) الايفاق أعداد السهم للرمى والاناباءة يعنى اذا انفدت السهام لحات الى السيف
وروى فاستلال وهو أوضح .

(٢) الكنانة جبة السهام ومرهفات حادة والظبة الحد والسبال شجر له شوك .

(٣) مذهب الأغاني ٩٥/١ والمشرى مكان الشرب .

(٤) المائور ذو الصلابة والحدة والضالة السهام والرصف فى القاموس رصف السهم شد
على رطله عقبة .

(٥) يعنى بالشطر الاول احمرار القى من الشمس والاستعمال والقرف شجر .

(٦) يذف ويلذف يعنى صوت السهم عند انطلاقه وفى القاموس سهم يذف سريع خفيف .

(٧) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .

ولئن كان ذكرهم للسيف أكثر ، فإن ذلك من قبيل التقليد العربي في ملازمة السيف لكل فرد ، واعتباره السلاح الأساسي في حياة كل منهم ، وأن كان بعضهم كالصعاليك أحوج في معظم أحيانه إلى غيره .

٣ - القوس :

والقوس مرتبطة بالسهم لأنها الأداة التي يرمى بها ، واهتمامهم بالسهم ينعكس على القوس أيضا ، ونجد الحديث عن السهم مرتبطا غالبا بالحديث عن القوس .

وفي حديثهم عن القوس نجد معنيين سيطرا على حديثهم عنها ، أحدهما اللون ، وفي هذا المعنى نجدهم غالبا يصفونها بصفرة اللون ، وهو اللون الأصيل فيها ، وفي أحيان قليلة يصفونها بالاحمرار ، لا على أنه لون أصلي وإنما على أن طول استعمالها وتعرضها للشمس والمطر قد أثر في صفاء صفرتها ، وحول هذا الصفاء إلى شيء من الحمرة ، والمعنى الآخر الصوت الذي تحدثه القوس حين ينطلق عنها السهم ، أو صوتها مع صوت السهم في انطلاقه واندفاعه الشديد في الفضاء ، وغالبا ما يجتمع حديثهم عن المعنيين . ونلاحظ أن الشنفري من أكثر شعراء الصعاليك حديثا عن القوس ، وأنه مفتون أيما فتنة بالصوت الذي ينبعث منها ومن السهم حين الرمي ، فنجد مرة بعد أن يذكر أنها « صفراء عبطل » (١) يقول عن صوتها وصفاتها :

هتوف من اللس الحسان يزينا رصائع قد نيطت اليها ومحمل (٢)
إذا ذل عنها السهم حنت كأنها مرزاة تكل ترن وتعمل (٣)

ومرة أخرى يذكر لونها، ويشبه صوتها بصوت الحزين ، ولكنه لا يكتفى بذلك ، وإنما يشبهه أيضا بصوت النحل حين يخطئ غاره وخطاه فتنتابه نوبة من الدوى القوي العميق فيقول في سياق أنه لا يملك غير سلاحه :

وصفراء من نبع أبى طهير ترن كارنان الشجى وتهتف (٤)
إذا طال عنها النزع تأتي بعجسها وترمى بمذريها بهن وتهتف (٥)

(١) عبطل طويلة العنق : اللامية في البيت الحادى عشر .

(٢) اللامية : والهتف الصوت والملاسة النعومة وفي رواية اللس المتون والمحمل ما تعلق به ولبطت شدت .

(٣) ذل انفصل وحنت من حنين الأبل إلى أولادها بالصوت المخصوص ومرزاة كثيرة الرزايا تصيبها والتكلى المفجوعة بفقد ولدها وترن من رنين الصوت ودويه وتعمل من الويل .

(٤) مهذب الأغاني ٩٥/١ والنبع شجر اللقى وللشهم ينبت في قلعة الجبل كما في القاموس مادة (نبع) .

(٥) العجس مقبض القوس ومذرا القوس الموضعان اللذان يقع عليهما الوتر واحدهما مذرى

كان حفيف النبل من فوق عجبها عواذب نحل أخطا الغار مطنف (١)

ويصف الشنفرى مبلغ اعتزازه بقوسه ، فيجعلها قوينة لحياته ، بحيث لا يفرط فيها الا عندما تهدد حياته ، كما ذكر فيما مر من ليلة النحس الشديد الذي هدد حياته باليزد فاضطر الى ايقاد قوسه ليستدق بها ، وقد تحدث عن احمرار لونها أحيانا كما سبق أنفا .

ويصف عبيد بن أيوب العنبرى قوسه بصفرتها ووترها ونصال سهامها فيقول

الم ترني صاحبت صفراء نبعة لها ربذى لم تفلل معابله (٢)

وأما صخر الغي فيرى لقوسه رنيناً خاصاً مغرداً فى بحة ودوى ، كأنه صوت العدائين حين يطلبون شيئاً فيتجاوب صدى تناديهم فيقول :

وسمحة من قسى زارة صفرا هنوف عدادها غرد
كان ارنانها اذا ردمت هزم بغاة فى اثر ما فقلوا (٣)

وأبو المثلم الهذلى خصم صخر الغي ، والذي كانت بينهما ملاحاة ومنافرات يؤيد صخر فى الاعجاب بقوسه ، فيقول له انك ان تكن ذا سلاح تجمععه :
وذا سيف قوى ، وقوس محكمة ، فان فينا فتباناً لا يقلون عنك فيقول
أبو المثلم فى خطابه هذا لصخر عن قوس صخر :

وسمحة من قسى النبع كاتمة مثل السبيكة لا ناب ولا عطل (٤)

وعمر و ذو الكلب يصف متانة قوسه وصلابة تركيبها ، وجودة الخشب الذى صنعت منه فيقول :

وصفراء البراية فرع نبع مسنمة على ورك حدال (٥)

ومما يرتبط بالسهم والقوس الكنانة ، وقد تحدثوا عنها ، كما مر خلال الشعر السابق « وفى قمر الكنانة مرهفات » (٦) ومثل « لها وفضة فيها ثلاثون

(١) الحفيف الصوت وعواذب مبعدة ضالة والطف الحيد من الجبل يريد كسوت الجبل حين يضل عن غار فى منحنيات الجبل .

(٢) كامل المبرد ٢٠٠/١ والربذى الوتر والمابل النصال العريضة الطويلة .

(٣) ديوان الهذليين ٦٠/٢ وزارة مكان مشهور بصناعتها والهتف الصوت والتفريد صوت مخصوص ، والردم هيئة مخصوصة فى استعمال القوس والهزم الصوت وبغاة طالبون .

(٤) ديوان الهذليين ٢٣٠/٢ وسمحة سهلة الاستعمال وكاتمة ليس فيها صدع والسبيكة الصلواء ولا ناب يعنى غير منكسة وليست عطلا من الوتر .

(٥) ديوان الهذليين ١١٨/٣ على ورك يعنى اصل الشجرة التى صنعت منها وحدال يعنى فيها طمانينة من أحد رأسها .

(٦) ديوان الهذليين ١١٦/٣ عمرو بن عجلان ذو الكلب .

سيحفا ، (١) ، ويمكن أن نقول أن السيف والسهم وأدواتهما ، هما الأسلحة الأساسية لحياة الصعلكة نفسها ، وإن ما سواهما من الأسلحة التي ذكرها الصعاليك ليست أسلحة صعلكة ، وإنما هي أسلحة حروب كالرمح والدرع ولكن حياة الصعاليك لم تكن صعلكة خالصة ، لأنهم مهما يكن من أمرهم فهم جزء من قبائلهم ، ولا يستطيعون التخلي من مشاركة أقوامهم ما يعرض لهم من حروب وصراع بينهم وبين غيرهم من الأعداء فهم في هذا جزء من المجتمع ، ورجال حروب في بعض المواقف ، ولا يستطيعون الاستغناء عن كل ما تضطر إليه الحرب من أسلحة وأدوات ، ولذلك نجدهم يتحدثون عن أسلحة الحروب ولكنه واضح من شعرهم أنه حديث جانبي وليس صلبا في أشعارهم وصرايحهم الحقيقي ، لأن الصعلكة وحياتها وصرايحها هي التي تملأ تفكيرهم ، وتوحى إلى مشاعرهم بما تتضمنه حياتها ، ولذلك لم يكن الحديث عن أسلحة الحروب يحمل طابع الاهتمام أو الكثرة التي حظيت بها أسلحة الصعلكة في شعرهم .

٤ - الرمح :

الرمح من الأسلحة التي يقلب استعمالها في الحروب ، ولذلك لم يكن حديثهم عنه مستفيضا ولا مطبوعا بالاهتمام ، ولكن الرمح ليس مقصورا على الحروب ، بل يستعمل في الصيد والصيد من الحاجات الضرورية لطعام الصعاليك ومعاشهم ، ولذلك نجد صخر الغي يصف الرمح في سياق صيد حمارى وحش فيقول :

نشامت في صلورهما رمحا من الخطى اشربت السما (٢)

ويرثي أبو خراش أخوته مشبها إياهم بالرمح الزرق الحداد الشداد فيقول:

حسان الوجوه طيب جزاتهم كريم نثاهم غير لف معازل (٣)
رمح من الخطى زرق نصالها حداد أعاليها شداد الأسافل (٤)

وعروة بن الورد يصف رمحه بأنه دائم الغلبة والنصر ، وأنه أسمر القناة فيقول :

ومالي مال غير درع ومففر وأبيض من ماء الحديد صقيل
واسمر خطى القناة مثقف وأجرد عريان السراة طويل (٥)

(١) المفضليات للضبي من ١١١ شعر الشنفرى .

(٢) ديوان الهذليين ٦٦/٢ والخطى نسبة إلى مكان صنمه والسما الثقوب .

(٣) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ والحجزة في الأصل مقعد الأزار يريد وصفهم بالمقعة ونثاهم ما يشيع عنهم يريد طيب حديث الناس عنهم والألف الثقيل والأعزل المجرد من السلاح .

(٤) الخطى نسبة إلى المكان الذي صنعت فيه الرماح وزرق تستعمل مرادا بها الأبيض ويريد بالنصال الأسنة .

(٥) العمدة لابن رشيق ٣٥/٢ والمثقف الغالب المنتصر .

ويصفه مرة أخرى بأنه لدن محدد فيقول :

بكل دقاق الشفرتين مهنسند ولدن من الخطي قد طر أسمرا (١)

وأما مالك بن الريب فيجد ربحه ثالث اثنين لا باكي عليه غيرهن حين
أشرف على الموت في غربته فيقول :

تذكرت من يبكى على فلم أجده سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوبك يجر لجامه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا (٢)

ويتحدث عمرو بن براقة عن قنوات رماحهم فيقول :

فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنسا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم
ويقول :

متى تطلب المال الممنع بالقنسا تعش مشريا أو تخترمك المخارم (٣)

ويقول قيس بن الحداية عن أثر قنواتهم في استباحة نساء أعدائهم ،
واستيلائهم عليهن سبيات :

وأنا بلا مهر سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكجا (٤)

ويقول عبيد الله بن الحر أيضا عن أثر القنا في سبي النساء اللاتي كانت
منهن أمه :

إن تك أُمي من نساء أصابها سباء القنا والمرهفات الصفائح (٥)

ويقول أبو خراش في وصف الخيل التي يحثها على العدو الشديد
فرسان يحملون القنا :

شواحي يمر بهن بالقوم والقنسا فروع السياط والاعنة والركل (٦)

ويقول جحدر بن معاوية عن خوفه من أن يموت ولما يقض حقوق سنان
رمحه :

ولم أكن قد قضيت حقوق قومي ولا حق المهند والسنان (٧)

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٩٧ والطبريز من السنان المحدد .

(٢) مهذب الأغاني ١٨/٥ من مراثيه .

(٣) أمالي القال ١١٩/٢ .

(٤) أغاني الأصفهاني ١٤٤/١٤ .

(٥) أمالي القال ٢٢٠/٣ .

(٦) ديوان الهدليين ١٦٥/٢ .

(٧) أمالي القال ٢٧٨/١ .

ويريد مالك بن الريب أن يحفر قبره بأطراف أسنة الرماح فيقول :
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى وردا على عيني فضل ردائيا (١)

هـ - الدروع والترس :

ومن أسلحة الحروب أو من وسائل الوقاية فى الحروب الدرع ، ولكون الصعاليك ، يهتمون بحياتهم الخاصة فى الصعلكة دون الحروب ، لم يهتموا بالدرع ، بل لم تكن بهم حاجة إليها ، بل ان فى حملها مثقلة لهم تفسد عليهم حياتهم فى الصعلكة التى تحتاج دائما الى خفة الحركة وسرعة العدو ، ولم يتحدث عن الدروع الا الذين عاشوا فترات مع اقوامهم على انهم من فرسانهم كقيس ابن الحدادية ، الذى كان يعتبر قبل خلعهم من فرسان قومه المعدودين كما يبدو ذلك واضحا فى شعره ، فيقول عن انتقاله من حياة الدعة والهدوء الى صراع الحروب :

واصبحت بعد الأتس لابس جبة اساقى الكماة الدارعين العواليا (٢)
وبكر بن النمطاح وان كانت قد غلبت على حياته فترات من الركون الى ابواب الامراء والسادة والعيش فى رحاب نعمتهم منصرفا عن معاونة حياة الصعلكة وقسوتها ، وقد شذ فى ذلك عن الصعاليك ولم يشاركه هذا الشذوذ الا فضالة بن شريك ، ومالك بن الريب فى فترات قليلة من حياتهما ، وكان بكر بن النمطاح اكثر الصعاليك امعانا فى هذا الشذوذ كما يبدو من اخباره وشعره ، تقول مع هذا كان فيما بينه وبين نفسه مهيا للصعلكة والعودة الى نشاطها فى أى وقت ، وكأنه فى حالة استعداد و « طوارئ » كما حدث فعلا حين استناره ابودلف الأمير بقوله اذك تكثر من وصف نفسك بالشجاعة دون أن ارى من شجاعتك شيئا ، فقال له : أيها الأمير واى غناء يكون عند الحاسر الأعزل ، ثم اخذ سيفا وفرسا ودرعا ورمحا فخرج حتى اغار على مال لابی دلف نفسه فاخذه (٣) ، ولذلك يتحدث فى شعره عن انه وان كان اليوم فى ترف فانه يستطيع فى أى وقت أن يكون مقاتلا وصعلوكا :

إذا شئت غننتى ببعناد قينة وان شئت غنننى الحمام المطوق
لباس الحسام أو ازار مصفر ودرع حديد أو قميص مخلوق (٤)

(١) مذهب الأغاني ١٨/٥ .

(٢) أغاني الأصفهاني ١٥٤/١٤ ولا يس جبة يعنى درعا سابقة كالجبة والغلب الظن أن أصلها لابس جبة بالنون ثم حُرِفَت فى الروايات والدارعون لابسو الدروع والعوالي الرماح .

(٣) انظر مذهب الأغاني ٨٤/٨ - ٩٠ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١٩٦/٣ يريد بالحمام المطوق حياة الصحراء والصعلكة يعنى ان الحياتين استطاعتان له وقميص مخلوق مطيب بالخلوق .

وهناك أيضا الترس الذى كانوا يصنعونه من جلد قوى ، كانوا يؤثرون له جلد الثور ، وهو نوع من وسائل الدفاع كالدروع ، وعن هذا الترس يقول صفر الفى :

انى سئىنى عني وعيىلهم بيض وهاب ومجنا أجد (١)
والترس أخف حملا من الدرع ، ولذلك فهو أنسب للصعاليك حتى لا يشغل حركتهم ولا يعوقهم عن العدو فان لم يكن بد من اتخاذ أحدهم شيئا يتقى به وقع النبال ، فالترس أنسب لهم من غيره ومن أجل هذا نجد حديثهم عنه أكثر وأحظى بالاهتمام من الدرع ، وهذا عمرو بن العجلان المعروف بلدى الكلب ، ينحلت عن ترسه ، وعن أهميته فى صد النبال عنه ، مصرحا بالمادة التى صنع منها فيقول :

تمنائى وابيض مشرفيا أشاح الصدر أخلص بالصقال
واسمر مجنا من جلد ثور أصم مفلا غبة النبال (٢)

وأما أبو خراش فيسترسل فى وصف الثور الذى صنع من جلده الترس بأنه ثور قوى ضخم ، قد شبع غداء من وديان جيدة الماء والنبات ، وأنه ليبلغ من قوته أنه لا يعبأ بالثيران حين تعرض له لتصدده عن طريقه ، فان فعلت عادت الثيران مصدعة محطمة عنه بعد أن يكون قد أدمى جنوبها بقرنيه ، وأنه ليبلغ من الضخامة أنك حين تراه قائما على مرتفع بارز ، تحسبه لضخامته بيتا من جلد ، وتحسب قوائمه أوتادا أرسى بها هذا البيت ، يقول أبو خراش عن هذا المنظر مخاطبا عدوه واقدا :

أوافد لا آلوك الا مهندا وجلد أبى عجل وثيق القبائل (٣)
غداه من السرين أو بطن حلية فروع الآباء فى عميم السوائل (٤)
يشب اذا الثيران صلت طريقه تصدعن عنه داميات الشواكل (٥)
يظل على البرز اليفاع كانه ضراف وست أوتاده عند نازل (٦)

(١) ديوان الهذليين ٥٩/٢ والبيض يريد السهام ومجنا الترس واللفظ مأخوذ من معنى محذب لأن الترس كذلك واجد صلب .

(٢) ديوان الهذليين ١١٦/٣ البيت الأول سبق ذكره فى السيف واسمر ترس ومجنا أحذب وأصم ليس فيه خلل ومفلا يكسر حد النبال .

(٣) ديوان الهذليين ١٣٩/٢ « آلوك » أى ليس لك عندى وأبو عجل يعنى الثور وجلده يعنى به الترس .

(٤) السرين بلد ووطن حلية واد والآباء النصب والعميم النبات المزدهر كان له عماله والسوائل أماكن سيل الماء .

(٥) المشب الممن فى قوة وصدت طريقه يعنى صدته عن الطريق ومحمد عن تفرق والشواكل ما يلى الورك من الجنب .

(٦) البرز ما برز من الأرض واليفاع ما ارتفع من الأرض والطراف بيت من جلد ورسى فعل ماض بمعنى ثبتت .

ومن أهم الأسلحة الذاتية التي اعتمد عليها الصعاليك في حياة الصعلكة ، العدو العجيب ، الذي يصفونه دائما بأنه لا تلحقه أو لا تسبقه الخيل ، وقد اتصف بهذه الصفة كثير جدا من الصعاليك كما مر في تراجعهم وخاصة الجاهليين ، كالشغرى وتابط شرا وعمرو بن براق ، وأشهر القبائل بكثرة عدائها هذيل ، حيث نشعر من أخبارهم أن العدو كاد يكون شيئا مألوفاً في حياتهم ، ويعتل السكرى هذه الظاهرة بأن هذيل قوم رجالة ليسوا بأصحاب دواب (١) ، وهذا التعليل وإن لم يكن كاملاً ، بحيث يشمل تعليل هذه الظاهرة من نواحيها المختلفة ، إلا أنه يلقي ضوءاً على جانب مهم من التعليل وهو أثر البيئة ، وأسلوب المعيشة الذي يشكل حياة المجتمعات ، ويضطرها إلى صوغ حياتها لتتلاءم معه وتحقق كيائها وتواجه ظروفها على ضوءه .

ومهما تعددت أسباب هذه الظاهرة يمكن فيما نعتقد أرجاعها إلى ثلاثة أسباب ، أحدها التكوين الشخصي ، الذي يتيح لصاحبه أن يبرز في ميدان تلك الظاهرة ، والذي أشار أبو خراش الهذلي إلى شيء منه في وصف ابنه خراش ، وتعليل سرعته الفائقة ، وعدم استطاعة مطارديه أن يلحقوا به ، حيث يقول عن ابنه هذا حين نجا بعدوه من مطارديه :

كانهم يشبثون بطائر خفيف المشاش عظمه غير ذي نحض (٢)

والثاني الوراثية . ولعل في هذا تفسيراً لشيوع هذه الظاهرة في هذيل مع أن كثيراً من القبائل تشاركها في ظروف البيئة والمعيشة ، ومن ذلك أن أبا خراش كما سبق في ترجمته كان أحد عشرة أخوة كلهم عداً لا تسبقه الخيل ، والثالث البيئة وأسلوب المعيشة ، حيث يضطر كل مجتمع إلى صوغ حياته على ضوء ما تتيحه له بيئته ومعيشته وما تسمحان به كما يقرر ابن خلدون ذلك باستفاضة وتأكيد (٣) .

ويبدو بوضوح في أخبار الصعاليك وأشعارهم أن العدو كان من أهم الأسلحة التي يعتمدون عليها ، والتي كانت تدفع معظمهم إلى الاعتماد على نفسه في الغزو أو الترصّد ، بمفرده أو مع رفيق على الأكثر في معظم الأحيان ثقة في الاعتماد على هذه السرعة غير العادية في العدو ، فيطمئن إلى أن يغزو

(١) أنظر ديوان الهذليين ٧٦/٢ .

(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ والمشاش العظم اللين وهو من عظام الذبائح ما يمكن مضغه من رويس العظام ومعناه مرونة المفاصل في العدو ، والنحض اللحم يعنى أنه خفيف اللحم .

(٣) أنظر مقدمة ابن خلدون وخاصة الفصل الأول من الباب الأول بمقدمته من ص ٤٦

أو يترصد ، ولا يزعجه فيهما أن يكون وحده أو مع رفقة معدودة ، فإن ثقتيه في ساقيه تجعل معه حصنا متنقلا يلوذ به فيحميه في أحرج اللحظات فالمدو عند الصعاليك ملاذ أخير يلجأون إليه حينما تفل في يديهم أسلحة الهجوم أو المقاومة كما عبر عن ذلك أبو خراش حيث يقول :

فإن تزعمى أنى جينت فأننى أفر وأرمى مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك (١)

وقد تفنن العداءون من الصعاليك في تصوير عدوهم وتشبيبه والاعتزاز به ، فنرى تأبط شرا الذى كان أحد ثلاثة لم تلحقهم الخيل قط وثانيهم الشنفري وثالثهم عمرو بن براق ، نجد تأبط شرا يعتمد على ساقيه هو وزفيقاه حينما حصرتهم بجيلة ، وكادت تفتك بهم لولا سيقانهم وحسن تخلصهم ، وبعد نجاة تأبط شرا صور قصة نجائه هذه واصفا شدة عدوه ومطاردة أعدائه إياه فيقول :

نجوت منها نجائى من بجيلة اذ القيت ليلة خبت الرهط أوراقى (٢)
ليلة صاحوا واغروا بى سراهم بالعيكتين لدى معدى ابن براق (٣)
كانما حثحثوا حصا قوادمه أو أم خشف بلدى شت وطباق (٤)

وبعد أن شبه سرعة عدوه بالنعام والظبية ، لم يرق له هذا التشبيه لأنه لا يعبر عن الحقيقة فهو أسرع من النعام ومن الظباء حقيقة فيما يعرفه من نفسه ، واذن فهذا التشبيه لم يؤد الغرض منه ، فبم يشبه عدوه اذن ؟ أغلب الظن انه لم يجد شيئا يشبه به عدوه فلجأ الى أسلوب الحقيقة ، ولئن كان الأدباء والبلغاء لا يكادون يختلفون في أن أسلوب المجاز بأنواعه أبلغ من الحقيقة ، فأنى لا أعتقد أن مجازا مهما يكن أبلغ من أسلوب الحقيقة الذى لجأ إليه تأبط شرا فى هذا السياق حيث يقول بعد الأبيات السابقة :

لا شيء أسرع منى ، ليس ذا عذر وذا جناح بجنب الريد خفاق (٥)

(١) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ .

(٢) المضطليات ص ٢٨ وبجيلة القبيلة التى أسرته هو وصديقيه والقيت أوراقى استفرغت

مجهودى فى العدو .

(٣) العيكتان موضع ومعدى للمكان أو مصدر ميمى . ابن براق عمرو وهو والشنفري

صديقاه اللذان أسرا معه .

(٤) حثحثوا حركوا وحصر أحص ما تناثر ريشه والقوادم ما ولى الرأس من الريش يريد الظليم وهو ذكر النعام والخشف ولد الظبية والثت والطباق ثبأتان طيبا المرعى يشبه نفسه بالنعام والظبية فى العدو .

(٥) العذر جمع عذرة . ما تدل من ناصية الفرس على وجهها يريد الفرس وذا الجناح الطائر والريد أعلى الجبل ، وبعضهم يرى أن ليس أداة استثناء بمعنى إلا الفرس والطائر والسياق يرجح أن ليس معناها لا استثنى من الحكم السابق وهو لا شيء أسرع منى لا استثنى فرسا ولا طائرا لأن الفرس ليس أسرع من النعام الذى أضرب عن تشبيهه عدوه به قبل ذلك .

ف قوله « لاشئ أسرع منى » فى سياق اضرابه عن التشبيهين السابقين
يجعل له مع كونه أسلوب حقيقة عادى جمالا ووقعا بالغى التعبير والايقاع .

وفى قصيدة أخرى يؤكد تأبط شرا انه يفوت الخيل الجياد بجريه فيقول :

لها الويل ما وجبت ثابتا ألف اليمين ولا زملا (١)
ولا رعش الساق عند الجراء اذا بادد الحملة الهيفلا (٢)
يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هواديها القسطلا (٣)

ويعقد تأبط شرا مقارنة بينه وبين الذئب فى معيشتها وأسلوب
حياتها وشدة عدوها ، بل وفى هيكل جسميها فيقول :

وواد كجوف العير كفر قطعه به الذئب يعوى كالحليح المليل
فقلت له لما عوى أن شأنا قليل الفنى أن كنت لما تمول
كلانا اذا ما نال شيئا افاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (٤)

ويصف تأبط شرا أيضا تنقله بين الصحراوات والقفار المتباعدة بما فيها
من مهالك ، فى سرعة عجيبة لا تتاح الا للرياح ، فيقول عن نفسه :

يقل بمواعة ويمسى بقفرة جحشا ويعروى ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنخرق من شمس المتدارك (٥)
وأكثر من أظهر اعتزازه بعدوه وتفنى فى تصويره أبو خراش الهذلي ، فهو
مرة يلفت نظر زوجه التى أظهرت ازورارا عنه الى هذه الموهبة الرائعة فى
العدو فيقول :

الاطم انى اسبق الخنف مقبلا وأترك قرنى فى المزاحف يستلهمى (٦)
ويشرح أبو خراش هذه الموهبة ، واصفا صورة من صورها العجيبة
فيقسم انه ما رأى نعاما ولا حمار وحش ولا تيسا من الظباء أجود منه عدوا
حين يحلق به الخطر ، ويختار واحدا من الثلاثة ، وهو تيس الظباء أشهرها
بالعدو فيقارن بينه وبين نفسه يقول :

(١) الشعر والشراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وثابت اسمه والآل والزمل الضميف الجبان .
(٢) الجراء الجرى والمهيل الجيش الكثير يعنى أن الجرى لا يتعبه ، ولا تدمشه كثرة
الأعداء .

(٣) التقريب سرعة تقل القدمين فى العدو والقسطل الخبار والهرادى الاعتناق .

(٤) خزاعة البغدادى ٩٣/١ والسطر الأول من البيت الأخير لسرعة العدو والثانى يعنى
الهزال لضيق المعيشة .

(٥) الحيوان للجاحظ ٢٥٥/٦ ونسب هذا الشعر للسليك .

(٦) ديوان الهذليين ١٣٠/٢ والمزاحف أماكن الزحف والقتال ويريد بالسطر الأول انه
يسبق الذين يريدون قتله فينجو بعدوه والخنف الهلاك ويستلهمى يريد تسميل دماؤه .

فوالله ما وبلد أو عالج عسانة أقبونا أن تيس . ربل مصمم (١)

ويتابع حديثه عن هذا التيس من الأطباء فيقول انه مهما تصورنا من المفزعات التي تنفر الطبي وتزعجه ، ومن المعروف ان الطبي يكون في أسرع حالات عدوه حين يخاف الخطر ومهما تصورنا من سيطرة الخوف والفزع على هذا التيس في عدوه فلن يكون أسرع مني ، ومن الحالات التي يحيط الخطر فيها بالطبي حين يصطلم بفخ فينجو منه كقوله :

وبثت حبسال في مراد يروده فأخطاه منها كفاف مخزم (٢)

وحالة أخرى من حالات اهاجة الطبي ودفعه الى العدو الشديد ، وهي تهافت الذباب اللاسع عليه ، حين ينوشه هذا الذباب بلسعه فينتطلق مذعورا لا نلوى على شيء كأنه السهم فيقول أبو خراش عن ذلك :

يطيح اذا الشعراء صاغت بجنبه كما طاح قذح المستفيض الموشم (٣)

وعن حالات ازعاج الطبي وعدوه الشديد ، احساسه بالصائد وكلايه وسهامه ، فينتطلق عاديا وقد سد أذنيه كأنه أصلم لا يسمع شيئا ولا يصغى لشيء :

كان الملاء المحض خلف ذراعه صراجه والآخى المتحم (٤)

تراه وقد فات الرماة كأنه أمام الكلاب مصفى اتحد أصلم (٥)

يقول أبو خراش ان الطبي حتى في هذه الحالات التي يكون فيها في أقصى حالات نفوره وسرعة عدوه ليس بأسرع مني .

باجود منى يوم كلفت عاديا وأخطاني خلف الثنية أسهم (٦)

(١) ديوان الهذليين ١٤٥/٢ والريداء التمامة الغبراء اللون وعلج حمار غليظ والمالة القطيع من سمر الودش والأقب ضامر البطن والتيس يعنى ذكر الطباء والربل ثبات وروى رمل ومصمم من التصميم والاندفاع .

(٢) مراد يروده مسارج يسرح فيها والحبال حبال الفخ الذى ينصب للطبي ويقطى بالرمال والكفاف يعنى حبال الفخ ومخزم منظم يعنى أن الصائد بث الحبال والفخ ولكنها أخطات القبض على يد الطبي .

(٣) يطيح يعنى يسرع في عدوه والشعراء ذباب يلسع وصاغت صاغت صوتت في جلبة والقذح السهم المستفيض الذى يقبض بالسهم يضرب بها والموشم ذو الملامات كالوشم .

(٤) يصف لون الطبي بأن خلف ذراعه بياض خالص وجسمه ملون كالبرد ذو الألوان والمحض الخالص البياض والصراحي كذلك والآخى نوع من الثياب والمتحم من الآخى نوع من البرود البياض المخططة .

(٥) مصفى حال مبتلى للمجهول والأصلم مستأصل الاذن يعنى في شدة الدفاعة كأنه أصلم لا يصغى لما حوله .

(٦) الكلفت الالتباس والسرة وفيه معنى العود يعنى أسرع عالدا ناجيا من مطاردى والثنية جزء من الجبل .

أوائل بالشهد الدليق وحشنى لكى المتن مشبوح الدراعين خاجم (١)

ومما ينبغي ملاحظته أنهم يعتمدون على الصور الواقعية فى البيئة ، من المشاهد التى يرونها ويعانونها ويصارعونها ، أو يشاركونها صراع الحياة وحتى حينما يلجأون الى المبالغة ، فإن مبالغتهم مستمدة من البيئة وحياتها كما رأينا فى تشبيهه تأبط شرا عدوه بوفد الريح ، فانه وإن كان فى هذا التشبيه شيء من المبالغة ، إلا انها مبالغة مستقاة من البيئة ومشاهدتها ، فإن الريح وآثارها من المشاهد البارزة ذات التأثير فى حياتهم ، بل حتى الخيال حين يلجأون اليه كما سيأتى فى خيالات الوهم ، نجد هذا الخيال نابعا من مخاوف البيئة الرهيبة ومجاهلها .

ومن هذه البيئة يوالى أبو خراش وصف العدو وتصويره ، فيصف عدو ابنه خراش مشبها إياه بطائر خفيف اللحم من العظام كما أسلفنا (٢) ويحكى أبو خراش قصة نجاته من بنى نفاثة حين طاردوه بأجود ما لديهم من خيل ، وكيف أنه حين اشتد رائحة الموت ، وعلم انه لا نفع لسيفه فى هذا الموقف ، رفع ساقا يثق فيها كل الثقة ، وانطلق متخففا من كل شيء حتى ثيابه ، فكانه حمار وحش ضامر البطن يقرب أرجاء الأرض بقوائمه تقريبا ومن هذا كله يعلم لاثمونه انه لم يترك صاحبه عن طيب نفس ، وتعلم لاثمته انها لو رأت هذا المشهد وما فيه من روع وفزع لبالت على نفسها خوفا ورعبا فيقول :

لما رايت بنى نفاثة اقبلوا	يشلون كل مقلص خناب (٣)
فنشيت ديج الموت من تلقائهم	وكرهت كل مهند قضاب (٤)
ورفعت ساقا لا يخاف عثارها	وطرحت عنى بالعداء ثيابى (٥)
اقبلت لا يشتد شئى واحده	علج اقب مسير الأقارب (٦)
الله يعلم ما تركت منبها	عن طيب نفس فاسالوا اصحابى (٧)
لا مت وكو شهدت لكان تكبرها	ماء يبل مشافر الققباب (٨)

- (١) أوائل الطلب النجاة بالشهد وحشنى يعنى رجلا يعدو خلاله ومشبوح الدراعين عريضهما والخلج الطويل والمتن يعنى ظهره .
(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ .
(٣) ديوان للهذليين ١٦٨/٢ ويشلون يدعون والمقلص الفرس الطويل القوائم الضامر البطن والخناب الطويل .

- (٤) نشيت شجعت والمهند السيف والقضاب القاطع يعنى لم يعد السيف مجديا .
(٥) الرء الصحراء يعنى اطلقت عاديا وأثناء ذلك طرحت ثيابى حتى لا تثقلنى .
(٦) الملح حمار الوحش والأقب الضامر ومسير الأقارب يعنى فى خاصرته خطوط .
(٧) منبه يبدو أنه وليفق اضطر الى تركه لدى الأعداء .
(٨) مشافر الققباب يعنى صوت البول فى الفرج .

وحين أحس أبو خراش الموت على أثر لدغ الحية له ، استطاع أن يغالط حب الحياة ، واستطاع أن يعزى الناس عن موته بأن المنايا متربصات بكل إنسان ، تطلع له من حيث لا يحتسب ، ولكن شيئا واحدا لم يستطع العزاء أن يخفف من شعور الأسى في نفسه لفقده ، هذا الشيء هو ساقه التي سيفقدونها رفاقه من الصعاليك فيقول :

لعمرك والمنايا غالبسات على الإنسان تطلع كل نجد (١)
لقد أهلكت حية بطن أنف على الأصحاب ساقا بعد فقد (٢)

ونجد معاني الصعاليك وتشبيهاتهم تتفق مع معلومات العرب وخبرات مجتمعهم عن البيئة ، فحمار الوحش الذي تردد تشبيه الصعاليك سرعة العدو به ، نجد العرب يضربون به المثل في السرعة ، فيقولون « أسرع من العير » (٣) وكذلك يضرب العرب المثل بالجراد في السرعة (٤) ونجد الصعاليك يشبهون العدو بالجراد فيقول أبو خراش :

وعادية تلقى الثياب وزعتها كرجل الجراد ينتحي شرف الخزم (٥)

وكذلك شبه الصعاليك سرعة العدو بالعقاب ، فهذا أبو خراش يشبه سرعته بعقاب منقضة على فريستها ، ولكنه في هذه المرة مندفع لقتال أعدائه وليس هاربا منهم كما صور في بعض ما سبق ويقول :

كأنى اذ عدوا ضمنت بسوى من العقبان خاتمة طلوبا (٦)
جريمة ناهض في رأس نيق ترى لعظام ما جمعت صليبا (٥)
وات قنصا على فوت فضمت الى حيزومها ريشا وطيبا (٨)

وأما الشنفري فيرى في عدوه غناء له عن كل شيء ، حتى عن الرفقة والخلان ، فإن في عدوه غناء وشفاء لنفسه من كل شيء فيقول :

(١) ديوان الهذليين ١٧١/٢ وتطلع كل نجد يعني لا يعجزها صعود مرتفع مهما علا .
(٢) بطن أنف هو المكان الذي لدغته فيه الحية وبعد فقد أصله بعد فقدى يعني بعد موته سيفقدون ساقه المداة .

(٣) مجمع الأمثال ٣٥٠/١ .

(٤) انظر مجمع الأمثال للميداني ٣٥٤/١

(٥) ديوان الهذليين ١٣٢/٢ وتلقى الثياب يعني تتخفف من لبسها لسرعة العدو وينتحي يقصد والشرف والعزم المكان الفليظ .

(٦) المصدر السابق ١٣٢/٢ والبز السلاح وخاتمة منقضة وطلوبا طالبة صيد يعني كنت في سلاحى كالعقاب .

(٧) جريمة ناهض كاسية فراخ وصف للعقاب والنيق رأس الجبل والصليب يريد بقايا اللحم على العظم يعني عقابا كثيرة الصيد للرائسها .

(٨) القنص الصيد وعلى فوت يعني سابقا لها يكاد يفوتها والحيزوم الصدر يعني تهيات للطيران والانتقاض .

الا لا تمدني ان تشكيت خلتي شفاني باعلى ذى البريقين عدوتي (١)
ويصف الشنفرى هذا العدو الذى يشفى نفسه من كل شيء بأنه حين
يعلى لا يعوق قلبه شيء ، بل ان الحجارة التى تعترض رجليه تتطاير فيقذف
منها الشرر ويقطل حدها كما يقول :

اذا الامر الصوان لاقى مناسمي تطاير منه قاذح ومفلل (٢)

ويصف الشنفرى صورة من صور هذا العدو ، وجهها من وجوه اعتماد
حياته عليه . فيصف مسابقة بينه وبين القطا ، فى الوصول الى بقعة ماء .
مما تخلفه الأمطار والسيول فى الصحراء ، كأنها الحوض ، فيقول ان سرب
القطا الذى جاء من سفر بعيد ليشرب من هذا الحوض الطبيعى وصل بعد أن
شربت فلم أترك له الا سؤرا قليلا ، ظل يتزاحم عليه ، ويكبو الى قعره بحواصله
وذقونه لضالة ما فيه من ماء فيقول :

وتشرب أسارى القطا الكدر بعدما سرت قريبا أحنأوها تتصلصل (٣)
ههمت وهمت وابتدونا وأسدلت وشمر منى فارط متمهل (٤)
فوليت عنها وهى تكبو لعقره يباشره منها ذقون وحوصل (٥)

وقد تبدو مثل هذه الصورة غريبة على غير الصعاليك ، بل قد نراها
مسرقة فى المبالغة والبعد عن الواقع ، ولكننا لو أحسننا تصور حياة صعولك
يتجول فى أماكن ومجاهل متباعدة فى الصحراء ، وتصورنا مدى حاجة رجل
هذه حالة الى الماء ، لأمكننا ان نتصور انه وان كان فى وصفه سرعة العدو
بعض المبالغة - مع جواز ألا تكون هناك مبالغة - الا أن فى ربط حاجته الى
الماء بالقطا غاية الواقعية التى لا يبلغها الا من يعانىها معاناة حقيقية فى حياته
كالصعاليك ، فالصعولك المتنقل بين الصحراوات لا يعرف مكانا للماء ، ولا يجد
وسيلة لهذه المعرفة الا الاستدلال بالمخلوقات الطبيعية فى الصحراء ، فهو
يعرف من تجربته ان سرب القطا يبحث عن الماء ، فيجب أن يتبعه بأقصى
ما يمكنه من سرعة حتى لا يغيب عن بصره ، ولو تأملنا الصورة لعلمنا ان
المسابقة بينه وبين القطا انما بدأت حينما أرخى القطا أجنحته أثناء الطيران (٦)

(١) الفضليات للضيبي ١١٢ والخلة الصداقة وذو البريقين موضع والمدة المرة من العدو
(٢) اللامية - والأمز الكاذب - الصلب والصوان حجارة والمنسم أصلا خف العير يعنى
لحميه والقاذح الشرر والمفلل المكسر حده .
(٣) من اللامية - والسؤر بقية الشراب والقرب السير الى الماء على بعد ليلة والاحناء جمع
حنو الجانب .
(٤) أسدلت أرخت جناحيها والفارط المتقدم والمتمهل المتأني يعنى سبقها ولم يجهد نفسه
فى العدو .

(٥) تكبو تميل والمقر يعنى شربت قبلها فلم أترك لها الا سؤرا تكبو اليه لقلته .
(٦) عند قوله « وأسدلت » يعنى وأرخت أجنحتها .

وهذه علامة تحديد هدفه وعثوره على الماء فالصورة في تفصيلها كما توحيه
الفاظها ان الشنفرى بينما كان يبحث عن الماء نظر فوجد سرب قطا يبدو
انه قادم من بعيد باحثا عن الماء ، ونظر فوجده أرخى أجنحته مما يدل على انه
راى ماء فى مكان قريب ، ويتبع ارخاء الأجنحة انه قلل من سرعته ، لانه حدد
هدفه وسيساعد للنزول ، هنالك ينطلق الشنفرى الذى لم تلحقه خيل قط
مباريا القطا ومن هذا نعلم انه لا مبالغة ولا خيال فى الصورة فيما يتعلق
بالعدو ، ولكنه التصوير الذى لا يحسنه الا الصعاليك عن حياتهم ، والشنفرى
يحدثنا عن ان المسافات بين الأماكن تكاد تمحى ، وان الأماكن مهما تباعدت
يكاد يختلط بعضها ببعض حينما يحرك ساقيه فيقول :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ظهره ليس يعمل (١)
فالخفت اولاه باخراه موفيا على قنة ألقى مرارا وأمثل (٢)

وحبيب الأعلام الهذلى وقع فى مأزق اضطره الى الفرار بأقصى ما لديه من
سرعة ، حيث تعرض لمطاردة عنيفة تزعمها عداء يدعى جذيمة العبدى ، ويصف
الأعلام لللائمة عدوه ، مشبها اياه بالنعامة ، معتذرا بأن الأعداء جعلوه يتصور
ان حروف الجبل وهو يعدو سيوف مسلولة عليه ومن هذا الشعر قوله :

كرهت جذيمة العبدى لما رأيت المرء يجهد غير آلى (٣)
فلا وايك لا يتجو نجائى غداة لقيتهم بعض الرجال (٤)
كان ملأته على هزف يعن مع العيشة للرجال (٥)
على حت البراية زمخرى السواعد ظل فى شرى طوال (٦)
كان جناحه خفقان ريح يمانية بربط غير بالى (٧)
بدلت لهم بدى شوطان شدى وكم أبذل غداتك قتالى (٨)

-
- (١) من اللامية البيت الرابع والستون والخرق الأرض الواسعة كظهر الترس فى الاستوا •
والعاملتان رجلاه وظهره ليس يعمل يعنى انه مكان خشن غير مطروق ، ولا يتسنى لغيره السير فيه
(٢) الضمير فى أولاه للخرق يعنى قطعه مسرعا مشرنا والقنة أعلى الجبل مكان الترسد
كالمراقبة والإقامة جلسة خاصة وأمثل يعنى ينتصب قائما •
(٣) ديوان الهذليين ٨٣/٢ وجذيمة هو الذى طارد الأعلام والشنتر الثانى يعنى أن عدوه
لم يدخر جهدا فى مطاردته •
(٤) يخاطب المرأة اللائمة يعنى ليس فى أعدائه من يعدو عدوه •
(٥) ملأته ثنية ملأه يعنى جالبنى ردائه والهدف ذكر النعام يريد أن ثوبه أصبح حوله
كجناحي الظليم ويعن يعترض والرجال فرأخ النعام •
(٦) حت البراية ضئيل الجسم يعنى هو سريع على شأله وزمخرى أجوف عظام السواعد
إشارة الى زعم العرب أن عظام النعام جوفاء لا مخ فيها والشرى نوع من الشجر يريد أن النعام
الزعه منظر طول الشجر فعدا •
(٧) الریط مما يلبس وغير بالى يعنى هو جديد •
(٨) شدى عدوى يعنى بدى لى عدوى ولم أبذل غداتك قتالى •

واحسب عرطف الزوراء ويودى على بوشك رجع واستلال (١)

وصخر الفى يشبه سرعة العدو بحيار وحش ذى قوة وصراع فيقول :

ويعدو كعدو كدو ترى بفائله ونسياه نسوفا (٢)

والأعلم الهذلى له قصيدة كاملة فى قصة مطاردة أعدائه السابقة ، مشبها العدو بسرعة حمر الوحش وعدو النعام ، وتعتبر القصيدة من أدق الشعر وأعمقه فى وصف الطبيعة وحيوانها ، وما يكتنف هذه الحيوانات وحياتها ومعيشتها من جوانب لا يحسها إلا الصعاليك ، لأنهم يعيشون معها ، ويشاركونها ظروف البيئة وجفافها وقسوتها ، فى أوثق ما تكون المشاركة ، وأقرب ما يكون الجوار وأولها :

لما رايت القوم بالعلـ يا دون قدى المناصب (٣)

وحاجز الازدى يتعرض أيضا لمازق لا ينجيه منه إلا العدو . حين أحرق به بنو عامر فعدا عدوه الذى لا يبارى ، وقد شبه عدوه بعدو ظبى طارده صقر يريد أن ينقض عليه ، وبهذا العدو استطاع أن ينجو من قوم حرصوا على الإيقاع به فيقول :

عشية كادت عامر يقتلوننى لدى طرف السلماء راغبة البكر
فما الظبى أخطت خلفه الصقر وجلها وقد كاد يلقي الموت فى حلقة الصقر
بمئلى غداة القوم بين مقنع وآخر كالسكران مرتكز يفرى (٤)

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى أنجاه عدوه فيها ، ولم تكن أيضا المرة الوحيدة التى وصفها وتحدث عنها بشعره ، ففي مرة أخرى كادت خنعم تفتك به لولا أن أنقذته ساقاه ، وقد تبعه بعض فرسان خنعم فلم يلحقوه ، ثم قال حاجز عن هذه الحادثة مشبها عدوه هذه المرة بثلاثة حيوانات مشهورة بالعدو :

وكانما تبع الفوارس ارنبا او ظبى راية خلفا اشعبا
وكانما طردوا بلدى نمراته صلعا من الأروى أحن مكلبا
أعجزت منهم والأكف تنالنى ومضت حياضهم وآبوا خيبا (٥)

ومن هذا كله نعلم مدى أهمية العدو فى حياة الصعاليك ، ومدى حاجتهم اليه كسلاح أساسى يعتمدون عليه ، بل كاهم سلاح يطمنون الى الاعتماد عليه

(١) عرطف الزوراء مكان ويودى على يعنى على معنى ظن المكان سيوفا مسلولة عليه .

(٢) ديوان الهذليين ٧٦/٢ والكدر الغليظ والفائل عرق فى باطن الفخذ الى الساق والنسوف

آثار من عض .

(٣) أنظر ديوان الهذليين ٧٧/٢ - ٨٢ .

(٤) مهذب الأغاني ٩٣/١ .

فى كل الظروف ، وخاصة فى الظروف التى لا تجدى فيها أسلحة القتال
ولا سواعد المقاتلين .

ومن هذا نعلم أيضا ان حاجتهم الى العدو لم تكن لمجرد النجاة من الأعداء
بل لنواحي أخرى فى معاشهم وشرابهم أيضا .

ولكن الذى يلفت النظر ان ظاهرة العدو كانت فى الصعاليك الجاهليين
دون الاسلاميين ومع افاضة الروايات والأخبار فى أحاديث العدائين فى الجاهلية
من الصعاليك ، نجد الروايات تسكت عن حديث العدو بالنسبة للصعاليك
الاسلام ، ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة لو كانت موجودة كظاهرة لدى
الاسلاميين لتحدثت عنها الروايات .

ويمكن تعليل ذلك بأن حياة صعاليك الجاهلية تختلف وخاصة من حيث
الرخاء والفقير الشديد عن الاسلاميين ، فالحاجة الشديدة فى الجاهلية جعلت
الصعاليك يقضون حياتهم كلها أو معظمها فى الصناعات مستغلين كل
امكانياتهم الجسمية ومنها العدو فى سبيل دفع الجوع والمخاض ، والانسان
ابن عوائده كما يقول ابن خلدون ، أما صعلوك الاسلام فانه وإن كان فقيرا
الا انه لم يبلغ حد الجوع الذى تحدث عنه الجاهليون كما قلنا حينذاك ، ومن ثم
فلم يضطر الى مثل الجهد المضنى الذى كان يبذله الجاهليون للحصول على
مجرد لقمة العيش ، ومن ثم أيضا لم يضطر الى استغلال امكانياته الجسمية التى
قد تكون لديه اذا حاول استغلالها ، فالفارق بينهما الاضطراب وعدمه ، ومن
الواضح كما رأينا ان صعاليك الجاهلية لم يتخذوا العدو ترفا ولا فخرا
وانما اقترن دائما بالاضطرار وأخرج اللحظات فى حياتهم .

٧ - الأماكن

والصعلكة فى طابعها العدائى نوع من الحرب ، وصورة من صورها
ولذلك نجد الصعاليك يهتمون باختيار الموقع الذى يزاوون منه عدوانهم
بحيث يتيح لهم نجاح الهجوم والدفاع معا كما يختار القائد موقعه فى الحرب .

وأهم المواقع التى يتحدث عنها شعرهم ، والتى يبدو من وصفها حرصهم
العامد على الدقة فى اختيارها « المراقب » التى تشبه الكمين ، فالمراقبة مكان
حصين يجتهد الصعلوك فى حسن اختياره ، بحيث يحقق له غرضين ، أحدهما
مراقبة الطريق والمكان المحيط به فيكتشف السائرين فى الطريق أو الطرق
المحيطة به ، والآخر حصانة المكان ، بحيث يتيح له التخفى عن الأعين ، ويتيح
له الدفاع عن نفسه ان أحس الخطر ففى مثل هذا المكان يرقب صيده من

الناس والحيوان وينقص عليه حينما يرى الفرصة سانحة ، وفى مثلة أيضا يخفى . ثم يختار الوقت الملائم لغزواته الخاطفة ، وغاراته المفاجئة ، ثم يعود الى حصنه ، أو يتخذ حصنا مشابها .

ونظرا لأن الهدف من اختيار المراقبة واحد ، لذلك نرى وصفهم لها متقاربا ويحمل الصفات الأساسية التى يطلبونها فى اختيارها ، فعمر بن عجلان يصف مرقبة بأنها مرتفعة شماء حتى ان الطرف يحار فى ارتفاعها ، ونفهم من اختيار هذا المرتفع الشاهق أنه يرى كل الأماكن المحيطة ، وأنه يضمن عدم استطاعة الأعداء أن يصلوا اليه ، ومن يجازف منهم بالصعود فان سهام الصعلوك تصرعه قبل أن يبلغه بأمد طويل ، ويصفها عمرو أيضا بأنها فى موضع بارز مشرف من الجبل ، فهى رغم انها تتيح لمن فيها الاختفاء الا أن موقعها يمكن المختفى من المراقبة الكاملة لبروزها ، ويقول انه يقيم فيها وقتا طويلا أمنا متمكنا من استقراره كأنه قبال النعل بين الاصبعين ، ثم ينطلق فى أوقاته المختارة الى الأماكن التى يريد بها فيقول :

ومراقبة يحار الطرف فيها الى سماء مشرفة القذال (١)
أقيمت بريدها يوما طويلا ولم أشرف بها مثل الخيال (٢)
ومقعد كربة قد كنت فيها مكان الاصبعين من القبال (٣)
فلست لحاصن ان لم ترونى بطن صريخة ذات النجال (٤)
وأمر قينة ان لم ترونى بعوروش تحت عرعرها الطوال (٥)

والشنفري يصف مرقبته هذا الوصف أيضا ، فيقول انها عالية فى الندوة ، لا يستطيع أن يبلغها الا القوى الصلب ، وأنه قضى فيها الليل عاقدا ذراعيه أمامه منحنيا عليهما متلفتا حوله كأنه الأنفى فيقول :

ومراقبة عطاء يقصر دونها أخو الضروة الرجل الخفيف المشقف
نميت الى أعلا ذراها وقسودنا من الليل ملتف الحديقة أسدف
فبت على حد اللواعين محبدا كما ينطوى الأرقش المتقصف (٦)

وأبو خراش الهذلي يصف مرقبته أيضا بأنها مرتفعة تتيح له الاشراف وانها فى حرف ناتئ من الجبل كأنه حد الفأس ، وفى هذا الموضع صنع مظلة من خشب ولكنها أصبحت شبه منهدة ، حيث سقط أحد جانبيها وبقي الآخر

(١) ديوان الهذليين ١١٩/٣ وشماء عالية والقذال الرأس .

(٢) الريد الحرف البارز من الجبل والشرط الثانى يعنى أقيمت منكبا غير ظاهر .

(٣) معناه توسطتها كما يتوسط قبال النعل الأصميين .

(٤) الحاصن المرأة الليفة وصريخة موضع والنجال النر .

(٥) قينة أمة وعوروش موضع .

(٦) مهذب الأغاني ٩٥/١ والمشفف الضعيف وأسدف من السدلة وهى الظلام محبدا منحنيه

قائما ، ولكن أباخرانش يشير خلال وصفه إشارة مهمة الى هدفه من اختيار
مركبته في هذا المكان . وهو أن تكون مشرفة على طريق غمام يتصل مرور
الناس فيه ، وهذا الطريق العام لا يخلو من صيد لأبى خراش في تجارة
أو طعمينة أو قافلة ، فيقول .

لست لمرة أن لم أوف مركبة يبدو لي الحرف منها والمقاضي (١)
في ذات ريد كذلك الفاس مشرفة طريقها سرب بالناس دعوب (٢)
لم يبق من عرشها الا دعامتها جدلان منهم منها ومنسوب (٣)

والأعلم الهدى يصف تنقله بين قم الجبال حين يفشاه الليل فيقول :

دجى اذا ما الليل جن على المقرنة الجاحب (٤)

وكما وصف أبو خراش مركبته ، كذلك نجد مثل هذا الوصف في مركبة
تأبط شرا ، فهو يصفها بأنها بارزة فائقة ، ويشبه حدها بسنان الرمح
ويصفها بالارتفاع الشاهق ، وأنها شديدة الحرارة في الصيف ، لأن ظلها
لم تعد صالحة للتظلل ، فبعضها تهدم ، وبعضها باق ولكنه غير مغن ، وأنه
وصحبه يتخذون منها مرقبا وحصنا ، وإن كان هو أسرعهم في الصعود إليها
فيقول :

وقلة كسنان الرمح بارزة ضحانة في شهور الصيف محراق (٥)
بادرت قنتها صجي وما كسلوا حتى نمت إليها بعد اشراق (٦)
لا شيء في ريدها الا نعماتها منها هزيم ومنها قائم باق (٧)

ويروى القالى قائلا : قال تأبط شرا يصف قلة جبل :

نهضت إليها من جثوم كانها عجوز عليها همل ذات خيعل (٨)

(١) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ ومرة أبوه لم أول لم أشرف والمقاضي مواضع علف الدواب.
ورويت الأبيات لعروة أخيه .

(٢) الريد الحرف الثاني من الجبل وذلك حد وسرب شائع كثير السير فيه ودعوب
موطر مطروق .

(٣) العرش المظلة وجدلان عودان أحدهما منهدم والآخر لم يتهدم بل قائم منصوب . وانظر
الحيوان ٤٥١/٤ .

(٤) ديوان الهذليين ٨٢/٢ والمقرنة التي دنا بعضها من بطن من الجبال والجاحب
الصغار منها .

(٥) المضليات ٢٩ والقلة أعلى الجبل وضحية بارزة للشمس ومحراق تحرق من فيها لشدة
حرها .

(٦) القلة والقلة واحدة ، ولميت صمعت يعنى صميت صجي .

(٧) الريد أعلى الجبل والنعامة المظلة من خشب وهزيم متكرر يعنى بعضها تهدم وبعضها باق .

(٨) الأماي ٣٨/١ والهمل الثوب الخلق .

ومما سبق لرى انهم يكادون يتفوقون على اوصاف معينة للمراقب التى يختارونها، ويوحى حديثهم عنها بمدى الجهد الذى يماثونه فى الصعود والنزول الى هذه المرتفعات الشاهقة ، وما فى حياتها من صعوبة وقسوة لا يتاح التغلب عليها الا لمن وهب قدرة ونشاطا غير عاديين ، ومن الحق ان نقول ان الذين تحدثوا عن المراقب هم العدائون ، وهذا يفسر القدرة على الصعود والنزول الدائمين فى هذا العلو الشديد ، وقد لا يتصور غير الصعاليك ايضا مدى ما فى هذا الجهد العنيف ، فالشخص الذى يتاح له أن يصعد جبلا مرة فى حياته بعد حدثا فى حياته لا ينسى ، فكيف بشخص حياته صعود ونزول فى شواحق القمم من الجبال ، وهذا بالتالى يفسر ما ينبغى أن نثبتته من ان الذين تحدثوا عن المراقب هم صعاليك الجاهلية ، أما صعاليك الاسلام فانهم وان تحدثوا كثيرا عن التنقل والصحراوات والايغال فى الاماكن الا انهم لم يتحدثوا عن المراقب ، ويمكن تعليل ذلك بان المراقب فى صورتها تلك لا يقوى على ارتيادها الا الذين اوتوا نشاطا جسميا غير عادى كالعدائين ، وصعاليك الاسلام كما لاحظنا فى الفصل السابق لم يكن العدو صفة من صفاتهم ، ويمكن ربط هذا كله بما لاحظناه ايضا عند الحديث عن آثار الفقر والجوع ، من ان صعاليك الاسلام وان كانوا فقراء ، الا أن فقرهم لم يبلغ بهم حد الجوع الذى عاناه الجاهليون ، والذي ترتبت عليه أشياء كثيرة فى حياتهم ، منها ملازمة الصحراء والمخاطر ، وهذه الملازمة اثمرت فى حياتهم الاعتماد على العدو ، وهذا العدو ونشاطه يسر لهم ارتياد قمم الجبال واتخاذ المراقب .

ومهمة المراقب فى حياتهم كما قلنا الترمسد والتخفى ، وكذلك حين ينزلون منها يحرسون على هذا المعنى ، فيتخيرون مسالكهم فى دقة وعناية بالغة ، ولذلك نجدهم يؤثرون الطرق الملتوية والتي تدنو من اماكن تتيح لهم النجاة اذا احقق بهم خطر ، كما وصف صخر الفى طريق عودته من الماء بعد ملء قربته بأنه أثر طرقا ملتوية خلف الجبل حيث يقول « تيممت أطرقة أو خليفاً » (١) . وأما تأبط شرا فانه يرسم صورة للطريق الذى يسلكه وهو أن يكون متعرجا أو ملتويا كأنه خياطة الثوب ، ويصفه أيضا بأنه لا يخلو من منحنيات وصخور ، وانه لطول تجربته أصبح يهتدى الى مثل هذه الطرق التى تحقق له ما يريد ، وهو الأمن فى وصوله الى الماء فيقول :

وشعب كشل الثوب شكس قطعته مجامع صوحيه نطاف مخاصر (٢)
به من سيول الصيف بيض أقرها جبار لصم الصخر فيه قراقر (٣)

(١) سبق فى فصل العدو .

(٢) الاصمعيات ١٣٥ والشعب الطريق فى الجبل والشل الخياطة وشكس صمب وصوحاه جانباه ونطاف مخاصر بقع ماء بارد .

(٣) بيض يعنى لون الفدران وجبار يريد سيلاً مهلكاً وقراقر يعنى صوت تحدر السيل على الصخور الصماء .

تبطلته بالقوم لم يهدنى له دليل ولم يثبت لى النعت خابر (١)
به سمات من مياه قديمة مورها ما ان لهن مصدر (٢)

ويصف الشنفري طرقة التي يسلكها بأنها فى وديان نائية ملتوية ، وانها
كثيرة الأشجار مما يتيح له أن يتخذ منها كمينا يختفى فيه أو يترقب منه
فيقول :

وواد بعيد العمق خسنك جماعه بواطنه للجن والأسد مالف
تعسفت منه بعد ما سقط النسي غما ليل يخشى غيلها المتعسف (٣)

ومن المعالم البارزة بصفة عامة فى شعر الصعاليك كثرة الحديث عن
الأماكن ووصفها والتنقل بينها ، ولذلك كان شعرهم من المصادر الأساسية
التي اعتمدت عليها معاجم الأماكن (٤) ، ومن هذه الزاوية يعتبر شعر الصعاليك
من أكثر الشعر حديثا عن الطبيعة فى مختلف مشاهدتها ، ومن حديث
الصعاليك عن الأماكن نشعر أنه تكاد تنعدم الفواصل بين الأماكن عندهم
وانهم يشعرون كأن الأرض كلها ملك لهم ، وأنه لا يعجزهم عن التنقل بين
أماكنها مهما تباعدت شيء ، فالشنفري يصف لنا جولة من جولاته فى الصعلكة
فيعدد خمسة أماكن فى بيتين اثنين ، بعضها جبال وبعضها صحراوات
فيقول :

امشى باطراف الحماط وقارة تنفض رجلى أسبطا فعصورا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك يلقي القاصي المتفورا (٥)

على أننا ينبغي أن نلاحظ أن هذه الأماكن على كثرتها لا يسوقها على أنها
مقام أو مستقر له ، وإنما معبر يجتازه الى غيره من الأماكن حيث عبر بقوله
« امشى بتشديد الشين » وقوله « تنفض رجلى » (٦) ومثل ذلك يقوله عبدة بن
الطيب عن أماكن كثيرة يعرفها ، وله فيها ذكريات :

قلنا نيك من ذكرى حبيب واطلال بلدى الرضم فالرمانتين فاعمال
الى حيث سال القنع من كل ووضه هن العتك حواء اللذائب محلال (٧)

(١) تبطلته دخلت بطنه والنمت الوصف وخابر مختبر .

(٢) سمات بقايا .

(٣) مهلب الاغانى ٩٥/١ والقصول الوادى الضيق كثير الشجر وعسف عن الطريق مال

وعدل .

(٤) انظر للمثال معجم ما استعجم للبكرى فى التعريف بالأماكن والمواضع .

(٥) معجم البكرى ٩٤٦/٣ والحماط وأسبطا وعصورا وذات الرس وبطن منجل مواضع

(٦) بتشديد الشين فى أمشى وتشديد اللاء فى تنفض ، وتنفض الرجل معناه أنه سائر

ماشيا .

(٧) معجم البكرى ٦٥٥/٢ والرضم والرمانتان وأعمال والقعن والعتك أماكن .

وكذلك يقول توبة بز الحميز :

عفت نوبة من اهلها فستورها فدت الصفيح المنتضى فحصرها (١)

على ان الصعاليك يرون في الاماكن نفسها من حيث بسطتها وتباعدها
مهريا ومتجاة لهم من كل ما يخافونه ، ومن كل ما يضييقون به كما يقول مالك
ابن الريب :

فانى سوف يكفينيك عزمى ونص الفير بالبلد القفار (٢)

ويقول مالك أيضا حينما ضاق بتعقب الحجاج الثقفى له ان الأرض واسعة
امامه ، وانه لمشوق الى الصحراء ، بل ان ناقتة لعطشى الى ريح الفسلوات
فما مقامه فى أرض لا يجد فيها حريته ، وانه لقادر على أن يجعل من كل البلاد
بلدا له ؟ فيقول :

ان تنصفونا يال مروان نقترّب اليكسّم والا فاذنوا ببعاد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صواى
ففى الأرض عن دار اللذة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلادى (٣)

ومثل هذا المعنى نجده فى لامية الشنفرى (٤) ، وتابط شرا أيضا يهددهم
بتركهم الى آفاق رحبة فسيحة ، ثم لا يستطيعون العثور عليه بعد ذلك أبدا
فيقول :

انى زعيم لئن لم تتركوا على ان يسال الحى عنى اهل آفاق
ان يسال القوم عنى اهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاقى (٥)

ومهما تكن الاماكن التى يتحدثون عنها فانها اماكن مقفرة مخوفة
لا يستطيع أن يجوبها غيرهم ، ففى مثلها يجدون أمنهم كما يقول عروة
ابن الورد :

وغبراء مخش ردها مخوفة اخوها باسباب المنايا مفر
قطعت بها شك الخلاج ولم اقل حجابة هيابة كيف تامر (٦)

(١) المصدر السابق ٤٥٣/٢ ونوبة وستور والصفيح وحصر اماكن .

(٢) مذهب الأغاني ١٠/٥ والميس الايل .

(٣) الكامل للمبرد ٣٠٢/١ وصواى عطاش .

(٤) الأبيات الثالث والرابع والخامس .

(٥) المضليات ٣٠ وثابت اسمه ولاقى من اللقاء يعنى مهما سألوا فلن يجدوا من يقول
لهم لئيتة .

(٦) ديوان عروة بن الورد ٩٦ والثاء فى حجابة وهيابة للمبالغة واصلها غياب وهيا
او ضعيف .

ويقول عبيد بن أيوب عن نفسه :

أخو فلوات صاحب الجن وانتحي عن الأنس حتى قد تقضت وسائله (١)

وظروف الصعاليك وخيساتهم وآمالهم تهيب لهم التنقل الدائم ، فهم لا يملكون شيئا ثابتا يجرسون عليه فيبقون في ملازمته ، بل لا يملكون في أغلب الأحيان شيئا ، واضطراهم الى أن يحصلوا على معاشهم ، وعدم وجود مورد رزق لهم في أماكنهم ، كل ذلك يجعل الرحلة والتنقل شيئا ميسورا لهم وهذا مالك بن الريب يدع موطنه في الحجاز ويرحل مع أحد الولاة الى خراسان بمجرد أن يحصل هناك على معاش ، وقد ترك في سبيل ذلك موطنه وأهله ولم يرده حتى يكاء ابنته وهي تودعه (٢) ، بل يشعروا كثير من شعورهم أن التنقل هو الهدف الذي يملأ نفوسهم ، وأن الإقامة شيء عابر في حياتهم كما يقول الشنفرى :

كان قد فلا يفررك منى تمكثى سلكت طريقا بين يربغ فالسرد (٣)
والسليك بن السالكة يخشى في مرارة وألم أن يدركه الموت دون أن يروى
ظما إلى غارات كبيرة يبعد بها في أماكن نائية حتى يبلغ أعماق اليمن من مأرب
وبلاد الأزد فيقول :

امعتنقى ريب المنون ولم اوع عصافير واد بين جاش ومارب
واذعر كلابا يقود كلابه ومرجة لما التمسها بمقنب (٤)

ومثل هذه الأمنية يحمل الشنفرى حيث يقول :

الا تزرني حفتي أو تلاقني امشى بدهر أو غدا فنورا (٥)
وأما عروة بن الورد فقد كانت خيله في الصعلكة تجوب أرجاء نجد والحجاز
كليهما كما يقول :

ويوما على غارات نجد وأهله ويوما بارض ذات شت وعور
يناقلن بالشمط الكرام أولى النهى نقاب الحجاز في السريح المسير (٦)
وكذلك يقول أبو النشاش ، أنه يرى في مجاهل الصحراء خير ميدان
لرثائه فيقول :

(١) كامل المبرد ٢٠٠/١ .

(٢) انظر مهلب الأمانى ١٠/٥ .

(٣) معجم البكرى ١٣٦٢/٤ .

(٤) انظر معجم البكرى ١١٧٠/٤ وجاش ومارب بلدان باليمن وكذلك . سرجة والمقنب

جسامة الخيل .

(٥) معجم البكرى ٥٥٩/٢ ودهر وغدا ونور مواضع من ديار بني سلامان أعداله .

(٦) الاسمييات ٤٠ وشت وعور شجر والشمط الخيل والكرام اللرسان .

ونانية الأرجاء طامسة الصوى خنت بابى النشماش فيها ركائبة(١)

ومن ذلك كله نعلم مدى اعتماد الصعاليك على طبيعة البيئته من حيث المكان ومدى تسليحهم بها فى صراعمهم مع الحياة ، سواء فى الهجوم والدفاع ، وكذلك صراعمهم مع طبيعة هذه البيئته فى مجاهلتها ، ومسالكتها وقسوتها ومشقة السير فيها ، وما تفرضه على مرتادها من ذلك كله .

٨ - المطايا

ومهما اعتمد الصعاليك على أجسامهم وخصائصها ، ومهما اعتمد بعضهم على ساقيه وشدة عدوها ، فإن المطية من لوازم البدوى بصفة عامة ، لأن معاشه غير مستقر ، ومورد رزقه غير ثابت كما يألف أهل المدن ، أو أصحاب المهن والزراعة ، وإنما هو شخص متنقل دائم السعى وراء رزقه فى أى مكان يتاح له ، وأكثر ما يكون رزقه ارتباطا بالكلأ الذى تعيش عليه ماشيته ، فضلا عن أن الاقتصاد العربى وخاصة فى البادية كان أهم مجال له الماشية ، ومنها الأبل والحيل وهما أهم المطايا .

ولذلك لم يكن الشخص الذى يملك ناقة أو فرسا غنيا ، أو خارجا عن نطاق الفقراء والمحتاجين لأن الناقة الواحدة أو الفرس ليست ثروة بالمعنى المفهوم ، وإنما هى أداة تنقل وسمى للرزق وكانت جزءا من حياته فى المجتمع العربى القديم .

والصعاليك كانوا أكثر الناس رحلة وتنقلا وراء الغارات التى يقومون بها والتى يدرسون أهدافها بعناية ودقة قبل أن ينفذوها ، فهم لا يغيرون جزافا وإنما يدرسون فى أغلب الأحيان الموضع الذى يغيرون عليه من عدة نواح كقوة الدفاع لدى المغار عليهم ، والوقت الملائم للغارة ، وقبل ذلك الغنينة التى يمكن الحصول عليها من هذه الغارة ، ومتى توافرت لديهم فى هذه الدراسة المعلومات التى ترجح نجاح الغارة وفوزها بالغنينة انقضوا بغارتهم ، وكانوا يسلكون وسائل عدة فى جمع معلوماتهم عن مكان الغارة وموضع الغنينة وطرق النجاة ، ومن هذه الوسائل ارتياد المدن والمجامع العامة التى يلتقى فيها جموع من القبائل المختلفة كموسم الحج فى مكة ، والأسواق التى كانت تقام فى مواسم معينة كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز كان الصعاليك يرتادون أحيانا هذه الأماكن ويختلطون بالوافدين من القبائل يستطلعون أخبار قبائلهم ، وخلال ذلك ، وعلى ضوء ما يصلون إليه من معلومات يضعون خطط

(١) حسنة أبى تمام ١١٥/١ والصوى الأعلام يعنى مطبوعة المعالم واسمة الأرجاء .

لغاراتهم ، كما كان عروة بن الورد يرتاد يثرب (١) ، وكما كان الهذليون يرتادون مكة (٢) وكما كان السليك يرتاد الأسواق (٣) ، وقد كانت هذه الغارات أحيانا تبعد الى أماكن نائية ، كما سبق آنفا من شعر عروة بن الورد عن عاراته في نجد والحجاز ، وكفارات السليك على جوف مراد باليمن (٤) مع ان ديار بني تميم قبيلته قرب يثرب .

وهذا الابعاد في الغارات والغزو ليس من المعقول أن يعتمد فيه الصعلوك على قدميه ، فقد يمكن أن يستغنى قطاع الطرق منهم أو بعضهم عن المطايا أو على الأقل في بعض الأحيان أما المغيرون والغزاة منهم فكان اعتمادهم الأساسي والضروري على المطايا في أغلب الأحيان ، ولا يستثنى من ذلك إلا بعض العدائين الذين كانوا يشقون في عدوهم أكثر من ثقتهم في المطايا بما فيها الخيل ، فانهم لم يهتموا كثيرا بالمطية كالشنفوي وتأبط شرا وإلى خراش ، كما يبدو ذلك من شعرهم

على ان بعض الصعاليك كما قلنا كانوا في بعض حياتهم يعتبرون من شجعان أقوامهم وفرسانهم في الحروب التي تدور بينهم وبين القبائل والأحياء الأخرى ، كجحدر بن ضبيعة وعروة بن الورد ومالك بن حريم وقيس بن الحداية قبل حمله ، فهؤلاء كانت عدتهم حينذاك الخيل .

وقد كان بعضهم من أصحاب الخيل التي نالت شهرة في العرب ، كالسليك فان له فرسا تسمى النحام ، من الخيل المشهورة المعدودة (٥) ، وكذلك حاجز ابن عوف الأزدي ، كانت له فرس تسمى ذببة (٦) .

ويبدو من شعرهم ان الخيل والابل كانت من الوسائل الأساسية التي تقوم عليها صعلكتهم وانها أيضا من الأسلحة التي لا تستغنى عنها الصعلكة في حملتها ، سواء في الغارات والغزوات والوصول الى أماكنها ، وفي التنقل من مكان الى مكان وفي الصراع مع الأعداء ، وفي النجاء بها في بعض الأحيان .

ولئن كان الشعر العربي القديم ، جاهليه واسلامه ، حفل بالحديث عن الخيل والابل ووصفها أكثر مما حفل به شعر الصعاليك ، فذلك لأن المطايا كما قلنا قدر مشترك في أهميتها بين كل عربي والآخر ، ولكن نظرة الصعاليك وغيرهم اليهما تختلفان اختلافا واضحا ، فغير الصعاليك ينظرون الى الخيل والابل

-
- (١) انظر الأغاني للأصفهاني ٣٧/٣ وكان يبعث الميرون على بعض الأغنياء . كقصته مع بخيل كنانة انظر شرح ابن السكيت لديوانه .
(٢) انظر معجم البكري ٥٣٠/٢ .
(٣) انظر أغاني الأصفهاني ١٣٥/١٨ .
(٤) انظر معجم الأمثال للميداني ٩/٢ .
(٥) انظر أمال القاي ١٨٦/٣ والقاموس المحيط مادة (لحم) .
(٦) القاموس المحيط مادة (ذاب) .

من خلال زاويتين ، ملكيتهم لها ، واعجابهم بها في أداء ما يناط بها ، ولذلك نجد وصف الخيل والابل لذاتها شائعا في شعرهم ، أما الصعاليك فينظرون اليها من خلال ارتباطها بحياتهم ، ومدى حاجتهم اليها في الصعلكة ، ولذلك نجد حديثهم عنها يغلب عليه الارتباط بهذه الحياة ، كالنجاة على فرس ، أو الانتقال على الناقة من واد الى آخر ، أو الانقضاء بالفرس على قوافل التجار كناقاة مالك بن الربيع المتنقلة بن القفار (١) وشدات كميته على التجار (٢) .

فالشاعر من غير الصعاليك يرى فرسه أو ناقته فيتحدث عنها ويصفها لذاتها ، أما الصعلوك فيتحدث عنها غالبا خلال حديثه عن حياته ، وان وصفها فانما للمرضى عن أداها لدور مهم في حياته .

٩ - الخيل

لم يكن الصعاليك يعنون بالخيال على أنها ثروة ، ولا على أنها زينة ، وانما عناهم منها مدى ارتباطها بحياتهم في الصعلكة ، ولذلك نجد حديثهم عنها يحمل هذا الطابع ، وينحو هذا المنحى ، فالسليك السعدي مثالا يتحدث عن فرسه النحام ، وهو من الأفراس المعدودة المشهورة في العرب كما قلنا ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بجودة وصفات تميزه عن الكثير من غيره وكان يمكن للسليك وهو الشاعر القدير أن يستغل خياله في الحديث عن شهرته ووصفه ، ولكننا نراه حين يتحدث عنه لا يعنيه من ذلك الا ما حققه من نفع في صعلكته في حين كان يمكن أن يصوغ كغيره قصيدة كاملة أو قصائد في التغنى به ، ولكنه اقتصر على وصف قوائمه القوية لأنها أهم ما يعنيه منه ، وعلى غرته المقتربة باليمن في نجاح ما يناط به ، ثم ذكر له ثلاثة أغراض تشمل حياة الصعاليك هي الصيد ، والمطاردة ، سواء كان الذين يطاردونهم أعداء أو غنما ، والنجاء به من مطارديه فيقول :

كان قوائم النحام لما تحمل صحتي اصلا محار (٣)
على قرماه عالية شواه كان يياض غرته خمار (٤)
وما يدريك ما فقري اليه اذا ما القوم ولوا أو اغاروا (٥)

(١) أنظر شعرة في ذلك . مهذب الأغاني ١٠/٥ .

(٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢ .

(٣) الكامل للمبرد ٥٧/٢ والاصل جمع أصيل المشى يشبه لون القوائم بالأصيل والمحار الصدف يعنى قوائم صلبة ملصقا .

(٤) القرماه للموضع وشواه قوائمه .

(٥) ولوا أو اغاروا مناء اذا هربوا أو طلبوا .

ويحضر فوق جهد الحضر نص يصيدك قافلا والمخ رار (١)

وواضح من شعره أن فرسه هذا كان ذكرا .

ومالك بن حريم يقول انه آثر فرسه وافتلاها لغرضين ، أحدهما الغنم بها ، والآخر مجابهة المخاطر ، وتبلغ هذه الفرس من جودتها أنها حين تعثر إحدى قوائمها لا تكبو ، وانما تعاونها الثلاث الأخرى* من قوائمها فيستقيم سيرها . يقول :

إذا وقعت احلى يديها بشرة تجاوب اثناء الثلاث يدعدعا (٢)
ثم - مقربة أدنيتها وافتليتها لتشهد غنما أو لتدفع مدفعا (٣)

ويصف الجهد الذى تعانيه فرسه فى الفوز والغارات والصراع فيقول :

ترى المهرة الروعاء تنفض رأسها كلالا وأينا والكميت المقدعا (٤)

وأما مالك بن الريب فيتحدث عن كميته ، فلا يرى حاجة لوصفه ، وما حاجته الى الوصف ؟ ان حاجته أن يكون الكميت أداته لتحقيق ماره فيقول :

سيغنيني المليك ونصل سيفي وكرات الكميت على التجار (٥)

أو يقول :

وانيابى سيخلفهن سيفي وشادات الكمى على التجار (٦)

ولم يخطر لمالك أن يصف جواده الا حينما أشرف هو على الموت ، ولم يعد فى حاجة الى جواد ، ولم يكن وصفه لأعجاب ، وانما كان وصف الاشفاق فيقول من مريته التى قالها عند موته :

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر مجبوك يجز جمامه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا

وأبوخراش لم يتحدث عن خيل يستعملها ، ولم يبد فى شعره أنه يعتمد على الخيل ، لأنه كان من أشهر الغدائين ، حتى انه تراهن مع الوليد بن المغيرة

(١) الحضر ارتفاع الفرس فى عدوه ويصيدك يصيد لك والمخ رار يعنى تشبيهه بالنعام

فى خلو عظامه من المخ فى زعمهم .

(٢) الاصمعيات ٦٦ والشيرة الهرة والثلاث قوائمها الأخرى ودع دع صوت زجر الفرس

أى كان الثلاث تلهفها بهذا الصوت .

(٣) افتليتها اتخذتها أو تتجتها والمقربة الأثرة لديه والمدفع مصدر ميمى من الدفع .

(٤) الاصمعيات ٦٠ والروعاء كأنها لزعمة من دوام نشاطها وحركتها والكلال والأين الجهد

والتمب والمدفع النشيط .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ .

(٦) أنظر مهذب الأغاني ١٠/٥ .

على فرسين كان الوليد يعدهما للسباق ، فراهن أبا خراش على أنه ان سبقهما
فهما له ، فسبقهما أبو خراش وفاز بهما كما مر ، فلم تكن بمثل عدوه
حاجة الى الخيل لانه أسرع منها ، ولكنه مع ذلك يصف خيلا مغيرة
وصفا قلما يحتاج لشاعر ، وذلك فى قصة رجل من قومه قتل جارا له من بنى تميم
فانكر أبو خراش ذلك انكارا شديدا ، ونعى على قريبه نكسه فى الجوار ، وهجاء
بشعره ، وما قال فى هذا الشعر ان الغلام التميمى حين أحس الغدر والموت
دعا قومه ، ولكن بينه وبين قومه وديانا وأنهارا ، ولو سمعوا دعاه لأقبلوا اليه
على خيلهم فى أقصى عجلة وسرعة متصورة ، يلهبون خيلهم ضربا بالسياط
والأعنة والركل بالأقدام ، وفى هذا السياق يصف أبو خراش الخيل وصفا
عجيبا فى انطلاقها كالسهام تحت هذا الحث العنيف من فرسانها ، وقد وصف
هذه الخيل بوصفين بصوران أقصى ما يحتاج لشاعر أن يصوره من خيل
فى مثل تلك الحالة ، وهما أن الناظر الى الخيل حينئذ يراها فاغرة أفواها ،
ويرى أحداق أعينها فى وضع غير عادى كأنه الحول ، والصورة فى جملتها ، من
الخيال فى هيئتها هذه ، الى الفرسان فى استعجالهم وتحفزهم ، وحنهم للخيال
بكل وسيلة ، تعتبر من أجمل اللوحات الشعرية ، يقول :

دعا قومه لما استحل حرامه ومن دونهم عرض الأعقة فالرمل (١)
ولو سمعوا منهم دعا يروعهم اذا لآتته الخيل أعينها قبل (٢)
شواحي يمر يهن بالقوم والقنا فروع السياط والأعنة والركل (٣)

ولكن الذى يعنينا فى الواقع من هذه الصورة التى تعتبر اتجاها بارعا
فى وصف أثر السرعة والحث الشديد فى الخيل هو أن نتساءل : ولماذا كان
أبو خراش هو الذى يمثل هذا الاتجاه دون غيره ؟ وأغلب الظن ان هناك
ارتباطا بين العدو وهذه الاجادة فى وصف سرعة الخيل بالأسلوب الواقعى
الذى لا يحمل شيئا من تكلف أو مبالغة أو خيال ، فأبو خراش عداء فذ
وهو بهذا كثير السباق مع الخيل والتعرض لمطارقتها ، ومن ثم فانه كثير المشاهدة
لأثر السرعة والاجهاد على الخيل ، ولذلك كان تعبيره واقعا صادقا لا أثر
فيه للمبالغة أو الخيال .

والأعلم الهذلى يصف فرسه ، فلا تعنيه منه الا سرعته التى تشبه ظليم النعام (٤)

- (١) ديوان الهدليين ١٦٥/٢ واستحل حرامه يعنى استحل جواره والأعقة جمع عقيق وهو
الواحد الواسع والرمل موضع له منازل بنى مازن من تميم يقول عنه مالك بن الربيع
وبالرمل منا نسوة ٠٠ الخ ، فى مربيته .
(٢) الرواية (منهم) ولعل صحتها (منه) وقبل بضم القاف وسكون الباء اقبال احدى
الحدقتين على الأخرى كالحول .
(٣) شواحي فاتحات أفواها ويمر يهن يستخرج لشاطهن تحريك السياط والركل ، يعنى
الخيال .

(٤) انظر شعره فى الحيوان للجاحظ ٣٢٦/٤ .

والذين كانوا يزاولون الحروب مع اقوامهم من الصعاليك كانوا أكثر حديثا عن الخيل ، وقد سلك بعضهم مسلك غيرهم من غير الصعاليك في المبالغة في وصف الخيل ، والعناية بحسنها وأوصافها الجسمية ، ولذلك عد بعضهم من أحسن الوصافين للخيل ، وقد قال عبد الملك بن مروان مرة : أشرف المناديل مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول :

ثمت قمنا الى جرد مسومه أعرافهن لا يديننا مناديل (١)

وهذا البيت من قصيدة طويلة لعبدة طرق فيها عدة عناصر منها الخيل ، ويبدو حسن البيت السابق في موقعه من القصيدة ، فهو في سياق أن عبدة وفرسانا معه جهدوا حتى صادوا ثورا ضخما ، وتحاولوا حتى طبخوه ثم أكلوا ثم قاموا الى خيلهم فامتطوها ، واتخذوا من أعرافها مناديل يمسحون بها عن أيديهم أثر اللحم ، ولكن شعر الصعاليك لا يخلو من طابعهم ، فتجد عبدة في هذا الوصف يهتم بأن يصف جهد فرسه وعنايته في التنقل وكثرة السير فيقول :

بساهم الوجه كالسرحان منصلت طرف تكامل فيه الحسن والطول (٢)
خاظم الطريقة عريان قوائمه قد شفه من ركوب البرد تذييل (٣)

وقيس بن الحدادية يصف خيلهم التي يصارعون بها أعداءهم فيقول :

نحن جلبنا الخيل قبا بطونها تراها الى الداعي المثوب جنحا (٤)
ويقول عن خيلهم الكمت :

رميناهم بالحو والكمت والقنسا وببيض خفاف يختلين السواعدا (٥)
ومالك بن حريم يقول :

يا عمرو لو أبصرتني لرفوتني في الخيل رفوا
والبيض تلمع بينهم تعصو بها الفرسان عصوا
للقيت منى عربدا يقطو أمام الخيل قطبوا
ثم - وسمعت زجر الخيل في جوف الظلام هبى وهبوا (٦)

(١) البيت من قصيدة طويلة . انظر المفضليات ١٣٤ - ١٤٥ .

(٢) ساهم الوجه قليل اللحم فيه والسرحان الذئب والمنصلت المنجرد الماشي والمثوب المثوب الكريم الطرني .

(٣) الخاظم كثير لحم الجسم والطريقة طريقة ظهريه وشفه أضمره وأهزله وركوب البرد يعنى أنه دائم ركوبه في البردين الغداة والمشي والتذييل من الذبول وهو الضمور .

(٤) أغانى الأصفهاني ١٤/١٤٤ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) الحيوان للجاحظ ٤٧٤/٦ والرفو التسكين والصو الغرب بالسيف وقطا يقطو تقارب

مفقيه وهبى وهبوا صوت زجر الفرس .

وكذلك نجد وصف عمرو بن بركة (١) ووصف تأبط شرا لأدهمه (٢)
وأما عروة بن الورد فإنه يجعل أجوده جزءا من سلاحه الذي لا يملك غيره فيقول:
ومالى مال غير درع ومقفر وأبيض من ماء الحديد صقيل
واسمر خطى القنأة مشقف وأجرد عريان السراة طويل (٣)

ولا شك أن الخيل أكثر الموضوعات التي لقيت اهتماما كبيرا في الشعر
العربي ، فلا يكاد شاعر من القدماء لم يتعرض لوصف الخيل والحديث عنها ،
كثير حديثه أو قل ، وإن كان في أغلب أحيانه كثيرا ، لأن الخيل كانت تحقق في
حياتهم أكثر من غرض ، فضلا عن أنها تنفرد بمواقف لا يصلح فيها غيرها
كالجروب التي كانت جزءا أساسيا في حياتهم ، وقد دعم الإسلام اعتزاز العرب
بالخيل كما في الحديث الشريف « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة »
وكما يقول عمر بن الخطاب « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل »
وفي رواية « ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » والصعاليك وإن كانوا في
اعتزازهم بالخيل جزءا من العرب ، إلا أننا نجد في حديثهم طابعهم الخاص بحياتهم
وشعرهم ، حيث يركزون اهتمام حديثهم عن الخيل بمدى ارتباطها بصراعهم
مع ظروفهم وأعدائهم .

١٠ - الأبل

والأبل هي الأداة الطبيعية للسير في الصحراء بما هيأها الله لذلك ،
ولكن الصعاليك ليسوا مجرد سائرين ، انهم متنقلون دائما بين أماكن متباعدة
وصحراوات مترامية ، ولذلك نجد حديثهم عن التنقل مقرونا بالأبل .

فتوبة بن الحمير مثلا يصف أجواز القفار المخوقة التي تجتازها به ناقته
القوية الصلبة هذه القفار المهلكة التي يصبح الضعيف فيها ذليلا مشرفا على
الهلاك كأنه بقايا حيوانات ضعيفة انحسر عنها الغدير فيقول :

وأدما من سر المهادى كأنها مهاة صوار غير ما مس كورها (٤)
قطعت بها أجواز كل تنوفة مخوف رداها كلما استن مورها (٥)

(١) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وأمال القال ١٨٦/٣ .

(٢) المصدا لابن رشيقي ٣٥/٢ .

(٣) أنظر العقد الفريد باب الخيل .

(٤) أغاني الأصفياني ٢٨٠/٣ والأدما من الأبل مافى لونهياياض مع سواد المقلتين ،
والسر المحض والمهاة البقرة الوحشية والصوار قطيع البقر .

(٥) الأجواز جمع جزر وسط الشيء واستن حاج والمود الفبار .

ترى ضعفاء القوم فيها كأنهم دعا ميص ماء نثس عنها غدورها (١)

وعبيد بن أيوب المشهور بملازمته للفقار ، وبعده عن الأماكن المأهولة بعد أن كثرت جنياته وأباح السلطان دمه ، يحد من ناقته صبرها على حياته القاسية ، ومشاركته كل ما يعاينه ومن ذلك كثرة ما يتعرضان له من عطش فيقول :

ظلمت وناقتي نفسوى فلاة كفسرخ الضب لا يبغي ورودا (٢)

ومالك بن حريم يصف أبعادهم في التنقل والأسفار ، حتى أنهم يتركون أولاد أبلهم حيث تولد ويرحلون عنها ، حتى لا تعوق سيرهم فيقول :

فمن يائنا أو يعترض بسبيلنا يجد أثرا دعسا وسخلا موضعا (٣)

وقد رأينا أن مالك بن الريب هدد بنى مروان ، أورد على مضايقة عمالهم له ، بأن ناقته عطشى إلى ريح الفلاة ، يعنى أن الرحلة والتنقل ميسوران له بقوله :

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس إلى ريح الفلاة صوادى

وحين بلغه أن الحارث بن حاطب الوالى يتوعده ، رد عليه بقوله :

فانى سوف يكفينيك عزمى ونص العيس بالبلد الفقار
وعنس ذات معجمة أمون عنداة موثقة الفقار
تزيف اذا تواهقت المطايا كما زاف المشرف للخطار (٤)

ويقول فى القصيدة نفسها أنه يستطيع بناقته هذه القوة الصبور أن يطأ أرضا لم يبلعها قبله أحد :

ولا جزع من الحدثن يوما ولكنى أروء لكم وبار (٥)
بهزمار تراد العيس فيها اذا أشفقن من قلق الصغار
وهن يحشن بالأعناق حوشا كان عظامهن قداح بار

(١) الدعاميص نوع من حيوانات الماء أسود صغير كالنود يعيش فى الغدران ونثر

الحسر وجف .

(٢) الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ والشرط الثانى اشارة الى زعم العرب أن الضب يصبر على

المطر مدة طويلة .

(٣) الاصمعيات ٥٩ والدعس يعنى أثر الشئ وسخلا يريد ولد الناقة .

(٤) مهذب الأغاني ١٠/٥ والنس الناقة ومعجمة ضخمة وأمون مأونة السير والمنداة

الثرية وتزيف تسرع والمواهة المواطبة .

(٥) الحدثن الليل والنهار يعنى ما يخبطانه من بلاء ووبار أرض تزع العرب أنه لم يطأها

أحد .

وهذه الناقة التي صاحبت حياته الشاقة العنيفة القاسية ، وشاركته كل ما عاناه ، نظر إليها مالك حين أشرف على الموت ، فتألم لفراقها ، وأحس أنها ستألم أيضا لفراقه ، وأنها ستحزن وتحزن إليه حينئذ يفلق الأكباد فيقول :

وعطل قلوبى فى الركاب فانها ستفلق أكبادا وتبكي بواكيا
وجحدر بن معاوية حين وضعه الحجاج فى السجن ، حن الى ناقته طيمة الزمام ،
التي كان يرحل بها الى أماكن حبيبة الى نفسه فيقول :

نظرت وناقضى على تعاد مطاوعة الأزيمة ترخلان
الى ناريهما وهما بعيد تشوقان المحب وتوقدان (١)

وعبد بن الطبيب يهيم بناقته هيأما جعله يخصها بنحو عشرين بيتا من قصيدته اللامية الطويلة (٢) وهى من أجمل ما وصفت به الابل ، وفيها يقول ان طرف خفها يترك فى الأرض أثرا كأنه الأزميل يقطع الجلد ، وأنها مع سرعتها تجدد لها قلعما وترجيما كأنه الدلال ، وأن طرف منسمها من طول المتابعة ومصادمة الحصى فلل ، وأن الحصى يتطاير حول خفيها كأنهما غربالان ينفيان الوغل الردى فيقول :

عيهمة ينتحى فى الأرض منسمها كما انتحى فى اديم الصرف أزميل (٣)
تخذى به قلعما طورا وترجمه فحده من ولاف القبض مفلول (٤)
ترى الحصى مشفرا عن مناسمها كما تجلجل بالوغل الغرابيل (٥)

ولم ينس مالك بن حريم الكرم العربى فى نحر الابل ، فهو يقول انهم يعطلون البعير اذا عجز عن السير ويطعمونه الناس ان سمن .

اذا ما بعير قام علق وحله وان هو أنقى الحموه مقطعا (٦)

(١) أمالى القائل ١٣٥/٣ المرتبة .

(٢) الفضليات للخبى ١٣٤ وعدتها واحد وثمانون بيتا .

(٣) عيهمة شديدة ينتحى يعتمد والمنسم طرف الخف والصرف الجلد والازميل يعنى كقطع الجلد بالشفرة .

(٤) تخذى تسرع وبه يعنى المنسم والولاف المتابعة فى المشى والقبض النزو ومفلول تنلم حده .

(٥) مشفتر متفروق وتجلجل تحرك الوغل الردى يعنى مناسمها تميزا لحصى الكبير من الصغير فى تفريقه كما تقلل الغرابيل بالحصى .

(٦) الاصمعيات ٥٩ وقام عجز عن السير وأنقى سمن ورواية الاصمعي ابقى .

الأسلحة غير المنظورة

وليس ما تقدم من الأسلحة والوسائل كافيا لأن يجعل شخصا ما صعلوكا من الصعاليك ، ولا أن يجعل الصعلوك ناجحا في ميدان الصعلكة ، فالأسلحة والوسائل السابقة ميسورة لكل الناس ، فمن اليسير على أى شخص أن يملك سيفا وقوسا ومطية ثم يتوجه الى أى مكان من الصحراء أو الجبل ، ولكن هل هذا يكفى لأن يكون صعلوكا بالمعنى المقهور ؟

ومما لا شك فيه أن ذلك لا يكفى مطلقا لأن يكون الوسيلة الوحيدة الى الصعلكة ، لأن هذه الوسائل كما قلنا يكاد يشترك فيها أفراد العرب جميعا ، فالسيف والمطية من لوازم كل عربى ، والبيئة ملك مشاع للجميع ، أعنى البيئة التى كان يتخيراها الصعاليك ليتخذوا منها مواقع لمزاولة عدوانهم أو الاحتماء من آثار هذا العدوان كالمراقب والمجاهل والمغارات ، ومع شيوع هذه الوسائل بين أفراد العرب ، فلم يكونوا جميعا صعاليك وإنما كان الصعاليك قلة بارزة فى حياتهم ، ونعود فنتساءل : لما اذن تهيأ لهذه القلة أن تتحكم فى هذا الميدان ؟ مع أنه كان ميدانا مرموقا وخاصة فى الجاهلية ، وكان كثير منهم يمتنى لو نجح فيه كما ينجح الصعاليك ، أو على الأقل لا يرى غضاضة فى أن يكون من هؤلاء الصعاليك الذين تتردد أسماؤهم فى أرجاء الجزيرة مقرونة بالرهبة دائما ، وبشيء من الاعجاب فى كثير من الأحيان ، ولكن هؤلاء الكثيرين لم ينجحوا فى الصعلكة ، وإنما نجح فيها قلة بارزة .

ولا نعتقد ان الاجابة عن ذلك عميقة أو ملتوية ، فالواقع أن الأسلحة الاولى والاساسية للصعلكة ليست السيف والمطية والمكان ، وإنما الأسلحة الاولى والاساسية هى المقومات الذاتية والصفات الشخصية التى ينبغى أن تتوفر أولا فى الشخص ، ثم تدعمها تلك الأسلحة والوسائل وفى الذى سبق من الوسائل وسيلة واحدة تعتبر من الأسلحة الاولى وهى سرعة العدو ، لأنها أيضا من المقومات الذاتية فى الشخص ، ولتوضيح ذلك قليلا نقول ان ما فى حياة الصعاليك من متاعب وقسوة ، لا يمكن النظر اليه من زاوية واحدة ، وبالتالي لا يصلح له سلاح واحد ، ومثال ذلك أن فى حياتهم كثيرا من الزوايا والمواقف لا يصلح فيها السيف ولا غيره ، ولا ينقذ منها مخبا أو غيره كالعطش الذى يتعرضون له كثيرا بحكم حياتهم فى الصحراوات ، وتثقلهم بين المجاهل والقفار ، وكذلك الجوع ، وكذلك الشعور بالخوف والوحدة ، وكذلك الودوع فى مازق كمحاصرة الأعداء للصعلوك ، ونواحى أخرى كثيرة ، هذه النواحى لا تصلح لها الا مقومات ذاتية فى الشخص .

ومن هذه المقومات العدو ، وكان يمكن أن يكون حديثه هنا ، ولكننا آثرنا الحديث عنه مع الوسائل السابقة ، التزاما للتفريق بين الوسائل المنظورة وغير المنظورة .

فالأسلحة أو الوسائل غير المنظورة تعنى بها المقومات الشخصية ، والصفات الخاصة التى يتبغى أن يتصف بها شخص ما اذا أراد أن يكون صعلوكا ، والتى من أجل فقدانها لم يتهياً النجاح - من زاويتهم هم - فى الصعلكة الا لأفراد فى كل قبيلة أو حى .

ومن أهم هذه المقومات الذاتية قوة الإرادة التى تمكنه من مواجهة المواقف الكثيرة الصعبة التى يتعرض لها ، والتى تجعل منه شخصا غير متردد فى المواقف التى يفسدها التردد وضعف العزيمة ، وكذلك الصبر وقوة الاحتمال ، مما يتيح للصعلوك احتمال قسوة الحياة التى يعيشها ، والحرمان الذى يعانيه ، والجوع والعطش اللذان ما أكثر ما يعرضان فى حياة الصعلوك كما رأينا فى شعرهم ، وكذلك الاستهانة بالموت ، فالموت مترصد لكل صعلوك فى كل وجه من وجوهه ، ان لم يكن من الأعداء فمن الوحوش وهوام الأرض ، ومن الضلال فى المجهل وفقدان ضروريات الحياة كالماء والطعام ، فالجزوع من الموت لا يصلح قط بين الصعاليك ، وكذلك الجرأة ، فالصعلكة تقوم على العدوان ، والمفروض فى الصعلوك أنه البادى دائما بالسوط والعدوان ، فلا بد له اذن من أن يكون جريئا مقداما ، وكذلك الحذر واليقظة ، فالصعلوك محاط دائما بالأعداء من الناس وغير الناس ، وكما أنه متربص بالناس فالناس متربصون به ، فاذا لم يكن حذرا يقطا فانه سيكون ضحية لأول رصد يلقاه ، وكذلك الحيلة وحسن التخلص فالصعلوك الدائم التنقل والتجول فى أماكن مخفوفة بالمخاطر والكماثر لابد أن يتوقع المآزق وبالتالي لابد أن يكون مهيا للتصرف السريع ، وحسن التخلص من المآزق .

وقد كان يمكن أن تعد هذه الوسائل أو الأسلحة صفات للصعاليك دون أن تسلك فى عداد الأسلحة ، ولكن الواقع أنها وإن كانت بالنسبة لغيرالصعاليك مجرد صفات ، الا أنها بالنسبة لهم ليست مجرد صفات ، وانما هى وسائل كالأسلحة الحقيقية اعتمدوا عليها اعتمادا أساسيا - كما سنرى فى صعلكتهم ، وفى صراعهم مع الظروف والأعداء ، فاستغلوا كل صفة منها بأقصى ما يمكن الاستغلال حتى جعلوها أسلحة واضحة فى حياتهم .

ومن الواضح أننا لا نعى أن تكون هذه الوسائل كاملة جميعا فى كل صعلوك ، ولا أن الصعاليك جميعا فى درجة واحدة من هذه الوسائل والصفات ولكن الذى لا شك فيه أن الصعاليك جميعا كما يبدو من شعرهم وأخبارهم ، وكما يفرض تصورنا لحياتهم وظروفهم لابد لكل منهم أن يتصف بقدر واف من هذه الوسائل كلها ، واذا فقد جانبا منها فلا بد أن يكون فيه من الجانب الآخر قوة مضاعفة تعوض هذا الفقدان ، والا فيستقدار بعده عن هذا المستوى بمقدار ما يكون فاشلا بين الصعاليك .

١ - قوة الإرادة

حين نستعرض شعر الصعاليك نرى فيه بوضوح أنه ينبع من أشخاص يعتزون بمقامات كثيرة ، تدور كلها حول قوة الشخصية واعتزازها بكيانها ، وعدم خضوعها أو خضوع سلوكها إلا لما تمليه إرادة الشخص نفسه ، وما يرضيه لها هو من اتجاه ، ولست أريد أن أذكرى الصعاليك قبل أن أستعرض ما يمكن أن يكون فيه تزكية لهم ، ولكننا بصفة عامة نستطيع أن نقول أن السوء ليس كله فى الصعاليك ، وإنما فى الظروف التى أحاطت بهم ، ثم انعكس بعض هذا السوء عليهم ، ومهما نعتقد فى الصعاليك من سوء ، فلا شك أن فيهم من الصفات ما يحملنا على تقديرها . وعلى الاعتقاد بأن هذه الصفات لو وجدت ظروفًا خيرا من الظروف التى أحاطت بالصعاليك لكان يرجى أن يكون شرهم خيرا لهم وللناس ، ولأن يرجى خير كثير لهم وللمجتمع من هذه الصفات التى تحلوا بها ، والتى لا شك أنها لذاتها فضائل ، ولكنهم لم يجدوا مجالا يستفيد من هذه الصفات ، فحولوها الى أسلحة تدمير وعدوان من باب قولهم .

إذا أنت لم تنفع فضر قائمنا يرجى القى كيما يضر وينفعنا

ومن أبرز ما يطالعنا من هذه الصفات الواضحة فى شعرهم ، والتى ينبع منها كثير من الصفات الأخرى قوة الإرادة والحزم ، بحيث يمثل لنا شعرهم الصعلوك ماضيا دائما فى غير تردد ولا وجل ، يجعل من عزمه وإرادته ورأيه الهادى الوحيد له والدافع الوحيد لسلوكه كما يحدثنا سعد بن ناشب بأنه إذا هم بشئ ، فليس هناك شئ قط يستطيع أن يثنيه عن همه ، ولا أن يخيفه من مضيه ، لأنه يضع عزمه كله ، وعزمه وحده ، بين عينيه ثم يمضى بعزمه هو ، وعلى ضوء رأيه هو ، وبصحبة سيفه هو ، ولا شئ غير ذلك فيقول :

**إذا هم لم تردع عزيمة همه ولم يات ما يأتى من الأمر هائبا
إذا هم القى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض الا قائم السيف صاحبها (١)**

ويقول أيضا عن نفسه مرددا هذا الشعور الذى يملأ عليه نفسه :

إذا هم القى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجي ذى الأثر (٢)

وهذا صعلوك آخر يردد هذا المعنى أيضا ، قائلا أنه لا يقيم لراى الناس وعذلهم ميزانا لأنه لا يتأثر برأى الناس إلا العاجزون ، أما الجازم فانه ماض وراء حزمه ، مشيح عن تثبيط المثبطين فيقول :

(١) حساسة أبى تمام ١٦/١ .

(٢) حساسة أبى تمام ٢٧٢/١ والمريجي السيف والأثر الصلابة والمضاء .

بغلام اذا ما هم بالفتك لم يبسل الا مت قليلا ام كثيرا عواذله
وما العجز الا ان تشاور عاجزا وما الخزم الا ان تهم فتفعلا (١)
ويبين عروة بن الورد سبب اعراضه عن رأى الناس ومشورتهم ، بأنه
يرام لا يعجبهم حال ، فان زاول الصعلكة لاموه ، وان كف عنها افتقر فعيروه
بفقره كما يقول :

وقد عيروني المال حين جمعته وقد عيروني الفقر اذ انا مقتر (٢)
ولذلك صمم على أن يعتمد على حزمه ، وان يجعل أمره دائما مزما ،
لا يستشير فيه أحدا ، ولا يصد عنه شيء ، فيقول :

ساغنيك عن رجع الملام بمزجم من الأمر لا يعيشو عليه المطاوع (٣)
ويشير عروة الى اعتماده على رأيه وحده ، والى أنه لا يتقاد قط الا لما تمليه
عليه ارادته يشير الى ذلك فى قصة اليهود من بنى النضير ، حين نزل بهم عروة
ومعه سلمى زوجه التي كان أمرها من مزينة ثم تزوجها ، فراقت المرأة فى
جمالها لليهود ، فاحتالوا على عروة وغرروا به ، وظلوا ينادمونه ويسقونه
الخمر ، حتى سكر ، وظل يطلب شرابا ، فطلبوا منه أن يرهن زوجه ثمنا لما
يشرب ، وظل يشرب مستزيذا فى رهنها حتى غلق الرهن ، وأصبحت المرأة
ملكا لهم ، وحين صحا عروة من سكره أنكر ما صنع ، وعجب كيف يفعل شيئا
لم تمله عليه ارادته وضميره ، وكأنه ألف من نفسه أنه حتى السكر لا يحول
بين سلوكه وارادته وضميره فيقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب ووذور
فيا للناس كيف غلبت امرى على شيء ويكرهه ضميرى (٤)
وأما تأبط شرا فانه يقول : أنه اذا هم بشيء ولو لم يتحدث به فلا بد
من نفاذه ، فكيف به اذا هم وقال ؟

وكنيت اذا هممت اعتزمت وأحر اذا قلت أن افعل (٥)
والأعلم الهدى يدمى وجه زوجه اذا حاولت أن تثنيه عن عزمه مهما تعللت
بالأسباب فيقول :

يلمى وجهه حنته اذا ما تقول تلفتن الى العيال (٦)

(١) الكامل للمبرد ١٢١/١ .

(٢) ديوان عروة بن الورد ٩٦ .

(٣) ديوان عروة بن الورد ١٠٠ .

(٤) أنظر الأغاني للأسفلهاني ٢٨٠/٣ .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ .

(٦) ديوان الهذليين ٨٣/٢ وحنته زوجه يعنى يضربها حتى يدمى وجهها اذا ارادت منع
من مخاطر الصعلكة بحجة حاجة العيال اليه .

ومالك بن الريب يحدثنا بأنه حين يهيم بالأمر لا يكتفى بمجرد انفاذه ، وإنما يصمم على أن يكون انفاذه عاجلاً غير متأن ، وأنه لم يكن قط مشقت العزم متردد الهمة ، مهما تفاقت أمامه الخطوب ، ومهما اشرأت له المخاطر فيقول :

وما أنا بالنائي الخفيظة في الوعى ولا الملتقى في السلم جر الجرائم
ولا المتأنى في العواقب للذى أهم به من فاتكات العزائم
ولكننى مستوحده العزم مقسم على غمرات الحوادث المتفاقم
قليل اختلافى الراى في الحرب باسل جميع الفؤاد عند حل العظام (١)

وحين نبحث فى شعر مالك بن الريب لنرى ما يجعله يتشبث بهذا العزم ، ولا يحدد عن هذا الصراع ، نجده مرتبطاً بشيئين ، أحدهما خشية أن يجد نفسه مضيقاً تأفها فى مجتمعه ، والآخر رغبته فى أن يثبت وجوده وكيانه فى المجتمع ، وهو ما يعبر عنه هو وبعض الصعاليك بالمعالي والمجد فيقول عن الأمر الأول الذى يخشاه :

وما أنا كالعير المقيم لأهله على القيد فى بجوحة الضيم يرتع (٢)
ويقول عن الأمر الثانى الذى يتطلع إليه ، ويحرص على أن يكونه :

ليس شيء يشاؤه ذو المعالى بعزىز عليه فادعى المجيبا (٣)
على أنه لا ينبغي أن نفعل أن صفة الإرادة والعزم لا يستدل عليها بالنسبة للصعاليك يمثل هذه المعانى التى يصرحون بها فى شعرهم عنها ، ولكن الواقع أن هذه الصفة تبدو واضحة وراء شعرهم كله ، ففى كل موضع يتحدثون عنه. تحس بأن المتحدث ليس شخصاً عادياً ، وأن هذه المعانى ليست من مجرد شاعر يصوغ المعانى وينتقى الألفاظ ، وإنما وراء ذلك كله شخصية ذات كيان ، وذات إرادة محسوسة ، ومثال ذلك حديثهم عن الجوع ، وعن حياة المراقب ، فأنسا نحس من خلال صراعهم فيهما أننا أمام عزائم صلبة ، وإرادات متميزة .

وكذلك أخبارهم ، فيما يتعلق بتحملهم للمشاق ، ومواجهتهم للمخاطر وشعرهم فى ذلك وأن كانت ستأتى له أحاديث تخصه ، إلا أن فيه ولا ريب جانباً من قوة الإرادة كبيراً ، ومثال ذلك قصة أبى خراش الذى أصابه الجوع أياماً ، ثم رزق على هذه المخمصة الشديدة ذبيحة شهية ، وحين شم شواء اللحم قرقر بطنه ، وإذا هو يطلب من المرأة التى ذبحت له الذبيحة شيئاً مرا ، فيأكله أو يشربه ، نكايه فى بطنه الذى أراد الخروج على إرادته ، ثم يصمم على أن لا يذوق الطعام ، ويمضى فى طريقه بجوعه هذا الشديد (٤) .

(١) مهذب الأغانى ١٥/٥ .

(٢) المصدر السابق ١٣/٥ .

(٣) المصدر السابق ١٥/٥ .

(٤) النظر الأغانى للأصفهاني ٦٠/٢١ م بولاق .

٢ - الصبر

وهناك صفتان تعتبران اثرا من قوة الارادة ، هما الصبر والجرأة ، وقد تبدوا الجرأة لكونها صفة ايجابية أقرب الى قوة الارادة من الصبر ، ولكن الواقع العكس ، فالصبر المرتبط بالارادة ، اعنى الصبر الذى يتحكم فيه صاحبه وليس الذى يكون نوعا من الضعف وخور العزيمة - ذلك الصبر هو الدليل الحقيقى على قوة الارادة والتحكم فى النفس ، ولذلك نجد أقوى الناس هم أقدرهم على ضبط أنفسهم فى المواقف العصيبة التى توصف بأنها ثبات ، أو بأنها حلم ، أو غير ذلك من المواقف المختلفة ، أما الجرأة فيمكن أن ينظر إليها من زاويتين ، احدهما جرأة مرتبطة بالارادة ، وقد تسمى شجاعة ، وهى المرتبطة أيضا بالارادة ، بمعنى أن يكون صاحبها يتحكم فى ارادته ، ضابطا لتوجيه هذه الجرأة ، فتنعكس قوة ارادته على جرأته وتوجهها بقيادة هذه القوة ، وأثناءية الأخرى من الجرأة ، جرأة لا تملئها الارادة ، وإنما تملئها انفعالات عابرة ، غير ثابتة ولا مستقرة ، كالغضب والمفاجأة ، وهذا النوع الذى لا تملئها الارادة الثابتة لا يعتبر من قوة الارادة ، وإنما هو فى أغلب حالاته نوع من ضعف الارادة ، وفقدان السيطرة على النفس ومشاعرها ، وقد نجد تفسيراً للتفريق بين هذه الأنواع فى الحديث الشريف «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم حين رجعوا من بعض الغزوات «رجعنا من الجهاد الأسغر الى الجهاد الأكبر» ، يعنى جهاد النفس .

والواقع أن نصيب الصعاليك فى جملتهم من الصفتين كان موفورا ، وإن كلا من الصفتين الصبر والجرأة ، كان مرتبطا بقوة الارادة فيهم الى درجة كبيرة .

فأما الصبر ، فإننا حين نستعرض حياة الصعاليك من أخبارهم ، ومن تصوير شعرهم نجد أن حياتهم كلها كانت تقوم على الصبر الشديد الذى لا يقوى عليه غيرهم ، ولا تطيقه نفوس غير نفوس الصعاليك .

فحين ننظر الى الشنفوى مثلا وهو يقاوم الجوع الشديد المضى ، فيظل يحتمس ، ويقاوم ، ويتجاهل ، حتى يكاد ينعدم لديه الشعور بالجوع ، حيث يقول :

أديم مظل الجوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (١)

ولذلك يرى نفسه ليس صبورا فحسب ، وإنما هو مولى للصبر متحكم فيه ، ولتعوده الصبر أصبح ثابت المشاعر ، لا يشتكى الجوع كما قال ، ولا يجزع من الفقر ، ولا يفرح بالفنى ، ولا تثيرة حماقات الجاهلين فيقول :

(١) من اللامية : سبق ذكر نصها مشروحا .

وانى لمولى الصبر اجتاب بزه على مثل قلب السمع والخزم الفعل
واعدم احيانا واغنى وانما ينال الفنى ذو البعدة المتبدل
فلا جزع من خلة متكشف ولا مرح تحت الفنى اتخيل
ولا تزدهى الاجهال حلمى ولا ارى سثولا باعقاب الاحاديث انمل (١)

ولئن كان الشنفرى صبورا على الجوع ، فان عبيد بن ايوب صبور على
العطش ، فهو يحدثنا عن أنه هو وناقته يصبران على العطش امدًا طويلا كصبر
الضب على العطش فيما تزعم العرب فيقول :

ظلمت وناقتي نضوى فلاة كفرخ الضب لا يبغى ورودا (٢)

وصورة أخرى من صور الصبر ، يحدثنا عنها عمرو ذو الكلب ، وهي
صبره اليوم الطويل على الإقامة فى مرقبة موحشة ، مختبأ كأنه الخيال لا يراه
انسان فيقول :

اقمت بريدها يوما طويلا ولم اشرف بها مثل الخيال (٣)

وكذلك صبر الشنفرى على أن يبيت الليل كله فى مرقبة محدبا منحنيا
على حد زراعيه حيث يقول : « فبت على حد الذراعين محدبا » (٤)

وعروة بن الورد يحدثنا أيضا عن صورة من صور صبره فيقول :
صبور على رزء الموالى وحافظا لعرضى حتى يؤكل الثبت اخضرا (٥)
ويقول ان صبره أقوى من كل حدث ، فلا شيء قط يدفعه الى شكوى
او جزع :

فلا انا مما جرت الحرب مشتك ولا انا مما احدث الدهر جازع (٦)

وكل ما فى حياة الصعلكة لا يقوى عليه الا الرجل الصبور ، فحياة الصعلكة
من حيث هى نموذج للصبر الشديد على حياة قاسية مجهدة محفوفة بالمخاطر
من كل جوانبها ، وفى كل خطواتها ، وقد صبر الصعاليك على حياتهم ، ولكنهم
يواجهون ألاما خارج حياة الصعلكة ، فيصبرون أيضا ، كما يحدثنا أبوخراس
عن صبره على موت أخوته فيقول :

فقدت بنى لبنى فلما فقدتهم صبرت ولم أقطع عليهم اباجل (٧)

(١) من اللامية .

(٢) انظر الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ .

(٣) ديوان الهذليين ١١٩/٣ .

(٤) مهذب الاغانى ٩٥/١ .

(٥) ديوان عروة ٩١ .

(٦) ديوان عروة ٩٩ .

(٧) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ .

وهو يحدثنا عن أن مظهره لا يدل دائما على دخيلته ، لأنه يصبر على أمور لا يبيديها فيقول :

وقد امنوني واطمأنت نفوسهم ولم يعلموا كل الذي هو داخل (١)

٣ - الجرأة

وكون الصعاليك شجعانا أمر لا ينازع فيه . فان طبيعة حياتهم التي تعتمد على العدوان والصراع الدائم مع الناس لا يصلح لها الا رجل شجاع ، ولكننا نريد أن نبرز الجانب الذي يميز شجاعتهم عن غيرهم من شجعان العرب ، وهذا الجانب يتمثل في الجرأة ، بمعنى أن صفة الشجاعة فيهم لا تحتاج الى تدليل وتوضيح ، وإنما الذي يحتاج الى توضيح مظهر شجاعتهم ، أو طريقتهم في استخدام هذه الشجاعة وإظهارها ، وطريقتهم أو طابع شجاعتهم هو الجرأة ، وتمثل جرأتهم في المخاطرة والمحاورة التي تشبه من يسمون في التعبير الحديث الفدائيين ، ولعله أقرب الأوصاف الى طابع شجاعة الصعاليك ، فالصعلوك أشبه ما يكون بالفدائي ، غير هيب للموت ، لأنه غير حريص على الحياة (وسنرى افاضة شعر الصعاليك في الاستهانة بالموت) وهو دائما البادئ بالعدوان أو الصراع ، ولا يلقي كبير بال لما تتمخض عنه الأحداث والأيام من نتائج ، ومهما يبلغ من سوء النتائج في توقعها فان ذلك لا يفزعه ولا يثنيه ، حيث أنه وضع في مقدمة احتمالاته دائما الموت ، وهو شر ما يتوقع ، فكل ما هو دون الموت حين يسير بالنسبة اليه .

ولذلك كانت مواقف الصعاليك وحياتهم تتسم دائما بالجرأة ، وعدم المبالاة بالنتائج ، ولو كان من بينها الموت ، حتى أنه ليس من المبالغة أن يقال أنهم يسعون الى الموت أكثر مما يسعى هو اليهم .

وهذا سعد بن ناشب يبلغه أن الوالي هدم داره مطاردا إياه ، فيقول متحدئا عن جرأته ، ومظهرا استعداداه لمواجهة الموت ، بل ساعيا اليه في مقدمة الساعين :

فان تهلموا بالفرد داري فانهما	تراث كريم لايبالي العواقب
أخي غمرات لا يريد على الذي	يهم به من المظنح الأمر صاحبا
فيا لردام وشحوا بي مقنمها	الى الموت خوفا الى الكتائب
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه	وتكب عن ذكر العواقب جانبا (٢)

(١) ديوان الهذليين ١٢٤/٢ .

(٢) حسنة أبي تمام ١٥/١ ، ١٦ .

وتأبط شرا يقول أنه وقف حياته على طلب الثار ومقارعة صناديد الفرسان
الذين تؤازرهم أقوامهم في حين أنه هو لا يعتمد على أحد ، ويضيف معنى نبيلاً
قلماً نجده في شعر الشجبان ومفاخرهم ، وهو يقول أنه في قتاله واستبساله
لا يهدف إلى أن يوصف بالشجاعة

قليل غرار النوم أكبر همه دم الثار أو يلقي كمها مسفعا (١)
يماصعه كل يشجع قومه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وجحدر بن ضبيعة يابى أن يجز شعر ملته كما فعل قومه من بكر ، حين
تعاقدا على خلق رؤوسهم في إحدى مواقعهم مع تغلب لتكون علامة يعرف بها
بعضهم بعضاً ، ولكن جحدرا صعلوكهم الشاعر الفارس يقول لهم : دعوا لمتي
لأول فارس يطلع غدا من الثنية ، يعني أنه سيكون أسبق قومه إلى القتال
في الموقعة ، وأنه سيجالد أول فارس يطل عليهم من أعدائهم ، فلم لا يتركوا
ناصيته لهذا الفارس يجزها أن لم يستطع هو أن يقتله ؟ ثم يقول لهم شاعرا ،
ردوا على الخيل في الحرب فانا فارسها ، فان لم أفعل فلمتى حل لكم ، وقد علمتم
بأسى وشجاعتى ، بل ان أمتي لتعلم شجاعتى منذ كنت وليدا في لفافاتي فيقول :

ودوا على الخيل ان الملت ان لم انا جزها فجزوا لمتي
قد علمت والدته ما ضمت ما لففت في خرق وشمت (٣)

والذى يعنينا أكثر من غيره في هذه القصة ، هو أنه لا يلتفت نظرنا مجرد
شجاعة جحدر ، فقد يكون قومه أو فرسانهم جميعا أو بعضا شجباناً ، ولكن
الذى يلتفت النظر تحفز جحدر لأن يكون أول مقاتل وساع إلى القتال ، وهو
من معنى الجرأة الذى تعنيه ، وعروة بن الورد سريع الاستجابة لداعى الوغى
فيقول :

إذا قيل يا ابن الورد اقدم الى الوغى أجبت فلاقاني كمى مقارع (٤)

ويبين عروة سبب اقدامه وجرأته ، فيقول أنه عدم الحرص على الحياة ،
وعدم الجزع من الموت :

فان فاز سهم للمنية لم أكن جزوعا وهل عن ذاك من متأخر (٥)

(١) حماسة أبى تمام ١٨٩/١ والكمى الشجاع والمسفع المتغير لون الوجه من الحمى والغضب

(٢) يماصعه يجالده ويقاتله ويشجع قومه معنى يشجعه قومه والشطر الثانى معنى أن

تأبط شرا لا يفعل ذلك ليوصف بالشجاعة .

(٣) حماسة أبى تمام ١٩٥/١ والمثت نزلت والبيت الثانى معنى أن أمه تعلم شجاعته
منذ كان في لفافاته رضيماً . ويسمى هذا اليوم يوم التحالف لحلق بكر رهوسها فيه وقد انتصروا
على تغلب .

(٤) ديوانه ص ١٠٠ .

(٥) الاصمعيات ص ٣٧ .

وصخر الفى يتحدث أيضا عن سرعة استجابته للقتال فيقول :

وكننت اذا سمعت دعاء داع أجبت فلا ألف ولا مكيت (١)

ويصف لنا نفسه حين يجيب داعى القتال بأنه « ذو مبادهة » يعنى بذلك انه صاحب البدء والمفاجأة بالقتال ، وانه ماض على الهول ، وانه مقدم الوغى ، وانه بطل فيقول :

ابا المثلم انى ذو مبادهة ماض على الهول مقدم الوغى بطل (٢)

ولم يكن وصف صخر لنفسه خيال شاعر ، فان الغريب أن خصمه ابا المثلم الهذلى ، الذى يخاطبه صخر بهذا الشعر ، لم ينكر على صخر ما وصف به نفسه من هذه الصفات وغيرها وقد اعترف بذلك فى منافراته الشعرية الكثيرة بينه وبين صخر (٣) وأبو خراش يقبول أنه يتقدم المغيرين ليهديهم فى دجى الليل ، وليكون أسبقهم الى القتال :

وانى لاهدى القوم فى ليلة الدجى وارمى اذا قيل هل من فتى يرمى (٤)

وأما سعد بن ناشب فانه يلتزم تجاه أعدائه طابعا من الشراسة والفظاظة الدائمة ، حتى يحتفظ على نفسه كيائها وهيبتها ، أنه فى الشدائد التى تثقل على الفرسان وأبناء الحروب يكون هو من أبر أبناء الحرب بها فيقول :

فانا اذا ما الحرب ألقت قناعها بها حين يجفوها بنوها لأبرار (٥)

ويقول عن تلك الشراسة وسبب تمسكه بطابعها ، وميدان توجيهها :

تفندنى فيما ترى من شراستى	وشدة نفسى وما تسوى
فقلت لها ان الكريم وان حلا	ليلقى على حال امر من الصبر
وفى اللين ضعف والشراسة هيبة	ومن لم يهب يحمل على مركب وعر
وما بى على من لان لى من فظاظة	ولكننى فظ أبى على القسر
أقيم ضفادى الميسل حتى اردته	وأخطمه حتى يعود الى القدر (٦)

ومالك بن الريب يحكى صورة من قتاله عدوه فيقول :

(١) ديوان الهذليين ٢٢٤/٢ والألف ، الضعيف والمكيت من المكث وهو التقاعد .

(٢) ديوان الهذليين ٢٢٩/٢ وللمبادهة المفاجأة .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٢٢٣/٢ - ٢٤١

(٤) المصدر السابق ١٢١/٢ .

(٥) المصدر السابق ٢٧٣/١ .

(٦) المصدر السابق ٢٧٠/١ ، ٢٧١ والصفاء العرج والخطم من امساك نظام الدابة ، والقدر

الاعتدال .

خسدها واني لضراب اذا اختلفت اينى الرجال بضرب يختل البصلا(١)

وحين تسلل ذئب ليفترسه صرعه مالك بسيفه ثم قال يخاطبه :

فانت وان كنت الجبرىء جناه منيت بضرعام من الأسد الغلب
فلست ترى الا كميا مجدلا يداه جميعا تثبتان من التوب (٢)

واما عبيد بن أيوب فيشبه نفسه بالصقر المتحفز دائما للانقضاض فيقول:

لما لصقر جل بعدما صاد فتية تديرا ومشويا عيطا خرادله (٣)

٤ - الاستهانة بالموت

لو كان بالصعاليك حرص على الحياة كما يحرص سائر الناس ، ولو كان بهم نفور من الموت كما ينفر سائر الناس لما تسنى لهم أن يكونوا صعاليك ، ولكن الصعاليك لا يحرصون على الحياة ولا يرهبون الموت كما يرهبه سائر الناس ، ولذلك تسنى لهم أن يعيشوا حياة تقوم على المخاطرة والمبادأة كما يقول صخر الغي (٤) ، وعلى ترقب الموت ، ليس من الأعداء والناس فحسب ، وانما من كل وجه من وجوه حياتهم بوحوشها وحياتها ومجاهلتها وغير ذلك

ولئن كان بعض الناس من غير الصعاليك يتحدثون عن الاستهانة بالموت ، فاننا فى سبيل محاولتنا دائما أن نبرز خصائصهم التى تميزهم عن غيرهم ، نقول أن الذين يتحدثون عن الاستهانة بالموت من غير الصعاليك يربطون ذلك بمواقف معينة يرون فيها أن الموت خير من الحياة ، وأن الذى دعاهم الى الاستهانة بالموت فى هذا الموقف انما هو مقارنة بين الموت وموقف أو نتيجة أسوأ منه ، كالمقارنة بين الفرار فى الحرب والموت ، حين يرى المقاتل أن الموت خير من عار الفرار أحيانا ، وكالمقارنة بين الموت وعار التخلي عن الذود عن العرض ، حين يرى الذائد حينئذ أن الموت خير له من ذلك العار ، وهكذا ، فى مواقف معينة

(١) مذهب الأغاني ١٣/٥ وخدما يعنى القرية واختلاف الأيدى أن يضرب كل منها ضربة مما والبصل بيضة الحديد يضمها المقاتل على رأسه .

(٢) مذهب الأغاني ١٦/٥ .

(٣) كامل الجرد ٢٠٠/١ وجل نظر مستشرفا للانقضاض وقديرا مطبوخا فى قدر والمبيط اللحم الطرى والخرادل يعنى القطع يريد أنه بعد هجره حياة الناس أصبح كالصقر يعيش على الفرائس والبيت الذى قبله : فاني وتركى الانس من بعد حبهم وصبرى عن كنت ما أن أزايله .

(٤) ديوان الهذليين ٢٢٩/٢ .

محددة ، ولكن نظرة الصعاليك فى جملتهم الى الموت غير ذلك ، انهم يستهينون بالموت لذاته ولو بغير مقارنة بينه وبين موقف آخر ، وكأن شعور الاستهانة بالموت صفة أصيلة دائمة فيهم لا يثيرها موقف معين ، ولا يتوقف ظهورها على ظرف من الظروف كما يلاحظ ان ذلك بالنسبة لغيرهم من المستهينين بالموت هذا فضلا عن أن المستهينين بالموت من غيرهم أفراد قلّة فى مجتمعاتهم ، مما يضفى على مواقفهم طابع الشذوذ والتميز الذى يدعوهم الى الفخر بها ، ويدعو الناس الى الاعجاب بهذه المواقف لأنها غير مألوفة ، أما بالنسبة للصعاليك ، فهذا الشعور يبدو من شعرهم وأخبارهم ليس فى أفراد أو قلة منهم ، وإنما هو شعور عام يغلب عليهم جميعا فى جملتهم ، حتى أننا نجده الأمر فى مقارنتهم بغيرهم معكوسا ، فبينما يعتبر المستهين بالموت من غير الصعاليك منفردا متميزا بهذا الشعور عن الكثيرين من مجتمعه ، يعتبر الهيباب للموت من الصعاليك منفردا متميزا بهذا الشعور بين الصعاليك ، وليس هذا بالغريب ، فالمألوف فى الناس من غير الصعاليك الحرص على الحياة والرهبة من الموت ، والذى يشذ عن هذا الشعور ، يعتبر منفردا متميزا بينهم ، وأما الصعاليك فشعورهم العام عدم الحرص الشديد على الحياة ، فالذى يحرص عليها هيبا للموت يعتبر ، شاذا منفردا بينهم ، ولذلك يجد الدارس لحياة الصعاليك وأشعارهم نشزا بارزا أمامه حينما يجد حديثا أو شعرا عن فرار أحدهم فى موقف وان كان عصبيا ، كبعض أخبار حاجز الأزدي (١) وأبى خراش الهذلي (٢) ، على أننا نلاحظ أن هؤلاء كانوا من أشهر عدائى العرب الذين لا تلحقهم الخيل ، فكانوا اذا أحاط بهم الأعداء فى موقف يوقنون فيه بالموت يجدون معهم سلاحا خطيرا ، هو العدو ، فكان من الحكمة أن يتخذوا من موهبة العدو سبيلا للنجاة ، ثم يعودون للانتقام من أعدائهم ، فذلك أقرب الى الحكمة من استسلامهم للموت ، ولكن بعض الرواة بالمقياس الذى أشرنا اليه ، وهو شذوذ الهيبة من الموت بين الصعاليك كانوا يرون فى فرارهم هذا شيئا من الغرابة لا لذاته ، وإنما لمقارنته بالمألوف والمتوقع من الصعاليك ، ومن المرجح أن هؤلاء الذين فروا بالعدو ، أو لم تكن لديهم وسيلة العدو لآثروا الموت على الاستسلام لأعدائهم ، كما فعل قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية حين حاصره جمع من مزينة كانوا مغيرين للغنيمة ممن يجدون منه غرة ، على أسلوب الصعاليك ، فطلبوا من قيس أن يستأسر ليتخذوه غنيمة ، فأبى قائلا : نفسى أكرم على من الأسر ، ولم يكن قيس من العدائين حتى يحاول النجاة بعدوه ، ولذلك أثر أن يقاتلهم حتى قتل وهو يرتجز مستهينا بالموت :

أنا اذا الموت ينال غاليه مختلط أسفله بعاليه

(١) انظر مذهب الاغانى ٩٣/١ .

(٢) انظر ديوان الهذليين ١٤٢/٢ - ١٤٤ .

قد يعلم الفتيان أنى صاليه إذا الحديد رفعت عواليه (١)

وكما قدر تأبط شرا فى نفسه حيث وقع فى مازق من هذه المآزق ، حين حاصره بنو لحيان الهذليون ، وطلبوا منه أن يستأسر ، فأبى الأسر ، وقدر فى نفسه مقارنة بين الأسر وما يتبعه من رق أو فداء أو منة ، وإيا كان فهو أسر ، وبين الموت ، فلم يتردد فى إثارة الموت إذا لم ينجه احتمال ثالث وهو عدوه المشهور بسبق الخيل فيقول :

هما خطئا ، أما اسار ومنة وأما دم ، والقفل بالحسر أجبر (٢)
وأخرى أصادى النفس عنها وانها لمورد حزم أن فعلت ومصدر (٣)

ولكن حظ تأبط شرا كان حسنا ، إذ نجح احتماله الثالث ، وهو أعمال الحيلة ، ثم النجاة عاديا على ساقيه (٤) والذي يعنينا هو أن تأبط شرا فى تقديره للموقف ، جعل الموت نصب عينيه ، مؤثرا إياه على الأسر حتى مع احتمال أن يمن عليه أسروه ، وهو فى هذا لا يمثل خلقه وحده ، وإنما يمثل خلق الصعاليك ، جميعا ، وهذا البعض الذى تحدثوا عنه بالفرار من أفراد الصعاليك ، إنما كان موقفهم كموقف تأبط شرا هذا ، لأن الذين تحدثوا عنهم بالفرار كانوا من أشهر العدائين كما قلنا ، وقد فضل صخر الغي موته على الأسر (٥) ، وحديث الاستهانة بالموت من أبرز المعانى التى طرقها شعر الصعاليك ، حتى أنه لا يكاد شاعر منهم يخلو شعوره من هذا المعنى ، بل أننا نراه مكررا فى صور مختلفة لدى معظم شعرائهم ، فتأبط شرا يستهين بالموت ، لأنه يعلم أن حياة مثله من الصعاليك الذين يغرون دائما بالأعداء معرضة لمواجهة الموت فى كل حين ، ولذلك فهو مهيب نفسه لاستقباله ، ويزيد تأبط شرا على ذلك أنه يعلم أن الناس يعرفون فيه هذه الصفة ، فينصحون من يعينهم شأنها ألا تتزوجه لأن هامته مهياة لأول سهم يلقاها فيقول :

وقالوا لا تنكحيه فإنه لأول فصل أن يلاقى مجمعا (٦)
ثم ومن يغفر بالأعداء لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

(١) انظر أغاني الأصفهاني ١٤٤/١٤ وما بعدها .

(٢) حماسة أبى تمام ١٧/١ ، ١٨ وخطئا يعنى هما احتمالان أما الأسر وأما القتل ، يقول انه يفضل أن يقتل على أن يأسره حتى ولو منوا عليه بعد ذلك بإطلاقه بدون فداء .

(٣) وأخرى يعنى هناك طريقة أو حيلة أخرى يعنى محاولة النجاة وأصاى أشارو الشطر الثانى يعنى أن محاولة النجاة فيها كل الحزم .

(٤) انظر القصة فى شرح حماسة أبى تمام عن التبريزي ١٦/١ ، ١٧ .

(٥) انظر قصة مقتله بشرح ديوان الهذليين للسكري .

(٦) حماسة أبى تمام ١٨١/١ ومجمع جماعة يعنى إذا لاقى جمعا سيقتل بأول فصل منهم والأبيات متفرقة فى القصيدة ولكنها مرتبطة للمعنى وستان الموت فى البيت الآتى يعنى الموت نفسه مشددا إياه بالسلاح .

ثم - واني وان عمرت اعلم اننى سألنى سنان الموت يبرق اصمعا

ويحكى تابط شرا صورة من صور عدم مبالاته بالموت حين يمشى حافيا
فى اماكن يعلم أن فيها هلاكه شاعرا بما فى سراه من مخاطرة فيقول :

يسرى على الاين والحيات محتفيا نفسى فداؤك من سار على ساق (١)
ولذلك كله فهو ينصح نفسه ، وينصح غيره ، بأن يستقل ما يملك فى
زكاء نفسه وكسب حمد لها ، لأن الموت متوقع فى كل حين فيقول :

سدد خلاك من مال تجمعه حتى تلاقى الذى كل امرئ لاقى (٢)

والشنفري يبلغ أقصى الاستهانة والاستخفاف بالموت حين يوصيهم
ألا يدفنوه ، بل يتركوه للضباع توسعة عليها ، لأن الضباع خير من أعدائه
الذين يحرصون على أن يحملوا رأسه يشفون بها صدورهم وصدور أهليهم .
ثم يتركوا جسده فى المكان الذى لافوه فيه يقول :

لا تقبرونى ان قبرى محرم عليكم ولكن أبشرى أم عامر (٣)
إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى ثم سائرى

ويؤكد الشنفري أن الموت ليس رهيبا ولا مخوفا لديه ، لأنه مستعد
لاستقباله دائما ، ومما يزيد فى اطمئنانه الى الموت أنه لن يكون هناك عمت
ولا خالات بواكى عليه ، لأنه يعيش فى فلواته بعيدا عن الناس ، فضلا عن أن
قومه من أزد اليمين قد انقطعت بينه وبينهم الصلة ، منذ اختطف صغيرا من
بينهم ، وهو الآن فى صحراوات نجد وجبالها ، فيقول عن المعنى الأول :

إذا ما أتتني ميتتى لم أبالها ولم تذر عمتي الدموع وخالتي
ولو لم أرم فى أهل بيتى قاعدا اذن جاءني بين العمودين حمتي (٤)

وأما عروة بن الورد ، فما أكثر ما تحدث عن استهائته بالموت ، واستعداده
للقائه فى كل حين ، فنراه مرة يزجر امرأته التى تنهاه عن المخاطر خوفا من

(١) المفضليات ٢٧ والسرى السيرنى الليل والأين التعب أو نوع من الحيات ومحتفيا حاليا .

(٢) المفضليات ٣٠ وسدد من سداد الراى وخلاك يعنى خصالك يريد اكتسب حمدا بمالك
ولا تدخر فانك ملاق الموت .

(٣) حساسة أبى تمام ١٨٨/١ وأم عامر كنية الضبع يريد أن تقبرونى ولن يكون لى قبر ،
لأنى واثق أن أعدائى الكثيرين سيظفر بعضهم بى فيحملون رأسى ويتركون جسدى للضباع وهذا
المعنى لا يتعارض مع التقديم للبيتين .

(٤) المفضليات ١١٢ ولم أرم لم أبرح والعمودين يريد عمودى الخيمة والحمة الموت بمعنى
حتى لو ظللت مقيما فى أهل بيتى لجاءنى الموت فى خيمتى .

الموت ، يقول لها أنه يريد أن يستقبل الموت وهو يصارع الحياة وصولا الى هدف ، لا أن يستقبله فعيد البيت فيقول :

أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
لعل الذى خوفتنا من أماننا يصادفه فى أهله التخوف (١)
ويقول لها أيضا :

ذرينى ونفسى أم حسان اننى بها قبل ألا املك البيع مشترى
فان فاز سهمهم للمنية لم أكن جزوعا ، وهل عن ذاك من متاخر (٢)
ويقول أيضا :

أليس ورائى أن أدب على العصا فيشمت أعدائى ويسامنى أهل (٣)
رهينة قعر البيت كل عشية يطيف بى الولدان أهدج كالرأى
أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم فكل منايا النفس خير من الهزل
ويقول أيضا أن المنايا متربصة فى كل ثنية يواجهها المرء ، ولا مفر له منها ، فليس من الحكمة أن يتهرب من أمر لا بد واقع فيقول :

وان المنايا ثغر كل ثنية فهل عن ذاك من متاخر (٤)
ويؤكد هذا المعنى أيضا فى قوله :

محالف قاع كان عنه بمعزل ولكن حين المرء لا بد واقع (٥)
ولذلك فهو ينصح المرء ألا يترك خوف الموت يذيقه ذلا أو فقرا فيقول :
فقلت له ألا احى وأنت حر ستشيع فى حياتك أو تموت (٦)
وينصح الصعلوك بأن يبذل أقصى جهده فى صراع الظروف وال فقر ، فان حقق أهدافه طابت نفسه ، وان مات فى سبيل تحقيقها مات محمودا فيقول :
ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء القابس المتنور (٧)

(١) حماسة أبى تمام ٢٣٨/٢ .

(٢) الاصمعيات ٣٦ .

(٣) مذهب الأغاني ٢٣/٢ وما بعدها والحيوان للجاحظ ٣٥٦/٤ والرأى فى البيت التالى

ولد النعام .

(٤) ديوان عروة ٩٦ .

(٥) ديوانه ٩٩ والحين الموت .

(٦) ديوانه ٨٦ .

(٧) حماسة أبى تمام ١٦٠/١٦١ وصفيحة وجهه عرضه والقابس طالب النار من القيس

وكذلك المتنور يريد ظهور الجد والحركة فى وجهه فى مقابلة لعيه على الكسل والخمول قبل ذلك .

مظلا على أعدائه يزجرونه ساحتهم زجر النبح المشهر
فلنك ان يلقى المنية يلقها حميدا وان يستغن يوما فاجدر

وأبو خراش يؤثر الموت على حياة ذليلة مهما كانت صورة الذل ، فيقول
في سياق سبب احتماله الجوع الشديد :

مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (١)

وأما قيس بن متفد فهو متأهب للموت ولو في غير اختيار بينه وبين موقف
آخر فيقول :

فلن تأتني الدنيا بيومي فجاءه تجلني وقد قضيت منها مآربي (٢)

ويزيد العقيلي يجعل من استهائته بالموت ما يشبه الحكمة فيقول :

إذا ما التايا أخطائك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعود (٣)

وسعد بن ناشب يرفض أن يقيموا على هوان مخافة الموت فيقول :

ولسنا بمحتلين دار هضيمة مخافة موت أن بنا نبت الدار (٤)

وأما أبو النشاش النهمشي فانه وإن كان يقارن بين الموت وحياة الحاجة
والعلم ، إلا أننا نحس أنه يركز على استخفافه بالموت لذاته ، ويتناول تهوينه
من جوانب مختلفة فيقول :

فللموت خير للتي من قصوده عديما ومن مولى تد عقاربه
فض منعدا أو مت كريما فأننى أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه
ولو كان حي ناجيسا من منية لكان أثرا حين جدت ركانبه (٥)

وأبو الطمخان القينى يتمثل موته وما يعقب هذا الموت من تركه وحيدا
في لحد ضيق ، وكأنه مترقب لهذا الموت فيقول :

ألا علاني قبل نوح النوائج وقبل ارتقاء النفس فوق الجوائج
وقبل غد يالهم نفسي على غد إذا راح أصعابي ولست برائج
إذا راح أصعابي تفيض دموعهم وغودرت في لحد على صفائح

(١) ديوان الهذلي ١٢٧/٢ .

(٢) مهذب الألفاني ٩٣/١ .

(٣) كامل للبرد ٦١/١ .

(٤) حسنة أبي تمام ٢٧٣/١ .

(٥) حسنة أبي تمام ١١٥/١ والامسيات ١٢٥ وأثير يبدو أنه شخص كان يفرح به المثل
يعنى لو كان لأحد أن ينجو من الموت لنجا هذا الشخص .

يقولون هل أصلحتم لأخيكم وما اللحد في الأرض الفضاء بصالح (١)

ومالك بن الريب يرى أن مروءته تمنعه من الفرار من الموت ، ولولا كرم نفسه وعزتها لكان له عن الموت منصرف فيقول :

أرى الموت لا انحاش عنه تكهما ولوشئت لم أركب على المركب الصعب (٢)

وأما توبة بن الحمير فيتحدث عن ليل الأخيالية حبيبته ، قائلا أنه يخاطر ما يخاطر في صعلكته لأجلدى غايتين ، فاما أن يسعدها بغنى وميسره ، واما أن يلقي حتفه ، فيفسح لها الطريق ويفك هو من أسر حبها فيقول :

أظن بها خيرا وأعلم أنها ستنعم يوما أو يفك أسيرها (٣)

وشعرهم في هذا المعنى يطابق أخبارهم ، حيث نجد أن معظم من بلغتنا تفاصيل من أخبارهم ماتوا قتل بسيف الأعداء وسلاحهم ، ومن هؤلاء الشنفرى وتابط شرا والسليك بن السليكة ، وقيس بن الحداذية وعمرو ذو الكلب وصخر الغي وتوبة بن الحمير ، ولم تحدثنا الأخبار أن أحدا منهم قبل طائعا أن يكون أسير ، بل حققوا ما شاع في شعرهم من استهانتهم بالموت (٤) .

٥ - الحذر واليقظة

ومن الواضح أنه لا تعارض بين الاستهانة بالموت والحذر ، فالمحارب في ميدان القتال مهما بلغ من البسالة والاقدام والحرص على مواجهة الموت لا يغنيه ذلك عن أن يتخذ لنفسه كل حيلة وحذر ، ولا يخل هذا بوصفه بالبسالة والاقدام بل ان الحيلة والحذر جزء من كل ما يوصف به من بسالة واقدام وشجاعة .

ولم تكن حياة الصعاليك مجرد ميدان قتال ، ولسم تكن المخاطر التي تتربص بهم مجرد أعداء محاربين أو متربصين ، أن حياة الصعاليك معركة مستمرة متصلة بين الحياة والموت ، لا فرق فيها بين ليل ونهار ، ولا بين صبح ومساء ، ولا بين حركة واستقرار كل ذلك أجزاء ومراحل وصور من المعركة المتصلة بينهم وبين الموت الذي يرقبونه في كل شيء ، في الضحايا الذين يتربصون أو يسطون

(١) حماسة أبي تمام ٢٧٣/١ وقد اظهر الخليفة المأمون إعجابا بهذه الايات لما فيها من موعظة والصفات الحجارة .

(٢) مذهب الأغنى ١٦/٥ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخالجي وأظن بها خيرا يريد اعتقد فيها الوفاء وستنعم يعنى بفناه أسيرها يعنى موته .

(٤) أنظر مراجع أخبارهم في تراجمهم باب (الشعراء الصعاليك) .

أو يفرون هم عليهم ، وفي الأعداء الكثيرين الذين خلقتهم غاراتهم وجنایاتهم والذين يترصدونهم بدورهم بالصعاليك ، وفي الوحوش الضارية الكثيرة المنبشة من حولهم والتي لا يأمنون غرتها في كل حين ، وفي هوام الأرض وحياتها التي تنساب في كل وجه دون حس أو ديب ، وفي ظروف أخرى كثيرة تكتنف حياتهم في كل وجه من وجوهها .

ولذلك كان لزاما على الصعاليك أن يجعلوا من صلب اسلحتهم في حياتهم هذه اليقظة والحذر الشديدين ، وكان من الصفات الأساسية في كل صعلوك أن يكون حذرا متيقظا شديد الحيلة والاحساس بالمخاطر ، وقد جعلت هذه اليقظة فيهم ما يشبه الغريزة في الاحساس بالخطر والتهیؤ له ، وعدم المفاجأة في وقوعه .

وقد ساعدتهم هذه اليقظة في الخلاص من مأزق كان مصيرهم فيها شرا لولا هذه اليقظة ، ومن ذلك قصة السليك مع الرجل الذي عدا على السليك وهو نائم لياسره أو يقتله ان أبى الأمر ، ولكن يقظة السليك من حيث توقعه للمخاطر دائما ، وعدم ارتبأكه بالمفاجأة هیا له النصر على خصمه هذا (١) وقصة مالك ابن الريب مع أفلح الصعلوك الذي ظل عشرين سنة يقطع طريق خراسان وحده على القوافل ، حين جنم أفلح بضخامته على مالك وهو نائم (٢) ، ولكن مالكا مع ذلك لم تدهشه المفاجأة ، بل هب وكأنه لم يكن نائما فأهوى على أفلح بسيفه فصرعه (٣) ، وفي ليلة أخرى سطا ذئب على مالك أيضا ، ولكن مالكا كان أشد منه حذرا ويقظة ، فاستطاع أن يصرعه بسيفه (٤) ولذلك نرى حديث الصعاليك عن اليقظة والحذر بارزا في شعرهم ، ويبدو منه ضيقهم بالنوم ، لأنه يفسد عليهم التزامهم الحذر واليقظة ، ولكن مع ذلك لم يتركوا للنوم أن يفسد عليهم حياتهم فنرى في شعرهم أن نومهم يكاد يكون صوريا ، وأنه أقرب الى اليقظة منه الى النوم الحقيقي ، وأخبارهم الكثيرة تؤيد ذلك كما مثلنا ، وهذه الأمثلة لا تدل على أحداث فردية فقط ، وانما تدل على صفة عامة في الصعاليك ، هي اليقظة الشديدة التي جعلت حتى نومهم متيقظا ، ولو تصورنا نائما عاديا فوجيء بخطر كبعض ما مثلنا لما تسنى له أن يكون في شيء من هذه اليقظة العجيبة التي تحل بها الصعاليك ، والتي لم يفسدها عليهم حتى نومهم .

وتأبط شرا يصور لنا يقظته هذه ، تصويرا عجيبا حقا ، فيقول ان بين عينه وقلبه صلة في الاحساس بالخطر ، فبينما قلبه يراوده الاحساس بالخطر ، اذا عيناه تنظران فتجدان سلاحا مصوبا نحوه ، ويعمل ذلك بأن الحذر أصبح

(١) أنظر مجمع الأمثال ١١/٢ .

(٢) أنظر رسائل الجاحظ ١٩٣/١ .

(٣) وانظر مذهب الأغاني ١٣/٥ .

(٤) أنظر مذهب الأغاني ١٥/٥ .

سجبة فيه حتى انه اذا نلم ظل قلبه حارسا يقظا محاذرا ، ينتبه الى أى خطر يحيط به يقول :

اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالىء من قلب شيعان فاتك (١)
ويجعل عينيه ربيثة قلبه الى سلة من حد اخضر باتك

ويصف نومه القريب من اليقظة أيضا قائلا انه ينام ، ولكن قلما تصيبه من نومه غرة أو استغراق ، بل هو يقظ النوم لأنه بين خطرين ، فهو دائما طالب ومطلوب معا ، وأخشى ما يخشاه الغرة من أعدائه ، كما أن أحرص ما يحرص عليه أن يجد منهم غرة ، ويحدث بذلك المرأة التى أبت الزواج منه لأنه معرض دائما للموت من أول نصل يلاقية فيقول :

فلم تر من رأى فتىلا وحاذوت تأيمها من لابس الليل اروعا (٢)
قليل غرار النوم اكبر همه دم النار أو يلقي كميما مسفعا (٣)
على غمرة أو نهزة من مكانس أطل نزال القوم حتى تسعسعا (٤)

ويصرح تأبط شرا بأنه يغالب النوم دائما ، لأن النوم عدوه الحقيقي ، وأنه يسلك كل وسيلة ليزود النوم عن عينه ، ومن ذلك أنه يوقد أحيانا النار فى بعض سراه ، لا لشيء الا ليصرف النوم عن عينه ، ويريح راحلته قليلا من جهد السرى الطويل ، ثم يواصل سراه بالليل بعد اطمئنانه الى ذهاب النوم عنه .

ونار قد حضات بعيد ومن بدار ما أردت بها مقاما (٥)
سوى تحليل راحلة وغير أكالته مخافة أن يناما (٦)

ويصف لنا الشنفري صورة يقظته الدائمة ، فيقول انه يبيت الليل فى مرقبته يقظا ، وقد وضع ذراعيه أمامه وانكفا محدبا عليهما ، ولكنه لا يفعل ذلك بغية الراحة ، وانما لبتاح له أن يفحص ببصره الحديد الأماكن والسبل أمامه وليدور برأسه كالأفعى الملتوى مراقبا ما حوله فيقول بعد وصفه المراقبة والظلام من حوله :

-
- (١) انظر الحيوان للجاحظ ٢٥٥/٦ (هامش) والكالىء الحارس وشيعان حذر عبور والربيثة الراصد الذى يستطلع للقوم طريقهم والسلة المرة من سل سيفه .
(٢) حماسة أبى تمام ١٨٩/١ والفيل مثل للتفاحة يعنى كان رأيها تالفا والتايم فقد الزوج ولابس الليل كناية عن الحذر .
(٣) المسقع المتغير لون الوجه .
(٤) الغرة القفلة والمكانس الملازم للكناس ماوى الطيى وتسمع قارب النهاية .
(٥) مجمع الأمثال للميداني ٣٥٠/١ فى المثل (أسرع من العير) وحضا النار أوقدها وأشعلها والوهن الكلال والتعب .
(٦) تحليل راحلة يعنى ارسلتها والعير انسان العين وأكالته أراقبه وأحرسه يعنى انسان عينه .

فبت على حد الدراعين محدبا كما يتطوى الأرقش المتقصف (١)

وبين الشفرى سبب هذه اليقظة الشديدة ، فهو بالإضافة الى أنه طالب صيد ، هو أيضا طريد جنايات كثيرة جناها ، جعلت له أعداء كثيرين يتربصون غرته ، ان تام هو فعيونهم هم يقظى متعجلة الظفر به ، فيقول :

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لايتها حم أول (٢)
تنام اذا ما نام يقظى عيونها حثاا الى مكروهه تتعجل (٣)

ويقول مالك بن حريم ان طلبه للشار نقص عليه النوم :

لم اك فيها لا بليت بها نؤوم ليل يغرنى الطمع (٦)
وليست حادثة معينة تدعو مالكا الى اليقظة ، ولكنه يقول انه جعل الحذر صفة فيه ، حتى لا يفاجأ بغارة ، فهو متيقظ لأدنى حركة من سوائه حيه ، هنالك يحس بأنها غارة الأعداء ، فلا يؤخذ حينذاك على غرة فيقول :

فواحلة الا أبيت بغرة اذا ما سوام الحى حولى تضوعا (٥)

ويصفون مالك بن الريب أنه من حذره ويقظته كان ينام دائما محتضنا سيفه ، وهو يقول ذلك للذئب الذى عدا عليه فى القصة السابقة .

فانت وان كنت الجرى جناه متيت بضرغام من الأسد الغلب
بمن لا ينام الليل الا وسيفه وهينة أقوام سراع الى الشغب (٦)

وأبو خراش يصور يقظته فى مرقبته مع صاحبه ، فيقول عن صاحبه انه لا يؤتى قط عن غرة ، وانه يبعثه ربيثة ومستطلعا فى أوقات من الليل ينام فيها طلاب النوم والدفع ، أما هما فليسا من طلاب النوم ولا الدفع فيقول :

لست لمة ان لم أوف مرقبة يبنو لى الحرف منها والمقاضي
بصاحب لا تنال النهر غرته اذا افلى الهدف القن المعازيب
بعثته بسواد الليل يرقبنى اذا أثر النوم والدفع المناجيب (٧)

(١) مهلب الأعاني ٩٥/١ ومحدبا منحيا والأرقش الحية الرقطاء .

(٢) من اللامية - وتياسرن تياسمن وعقيرته لحمه أيضا وحى معنى اذا مات يريد ان أصحاب الجنايات يتسابقون فى تقسيم لحمه والسبق فى الظفر به .

(٣) تنام معنى الجنايات يريد أصحابها ، اذا تام هو ناموا هم ولكن عيونهم يقظة اليه

(٤) أمالى القالى ١٢٠/٢ من قصيدة فى قصة ثاره لآخيه .

(٥) الاصميات ٥٨ وواحدة معنى احدى صفاته والقرة الفللة والسوام السوام وتضوع فزع

(٦) مهذب الأغاني ١٦/٥ يغالب الذئب والضرغام الأسد والشغب اثاره الشر

(٧) ديون الهذليين ١٦٠/٢ والدمر طرف والقتل احتجز والهدف الثقيل الرخم من الرجال

والقن العبد الخالص الرق والمعازيب الاماء فاعل افلى معنى اذا احتجز الاماء ضعيفا فلا يزال عملا سادا . والمناجيب الضميمة .

ومن صور الحذر التي يراعيها الصعاليك حسن اختيار الطريق الذي يسلكونه ، كما يصف صخر الغي ذهابه الى الماء ليلاً قريبته محاذرا ، فلما أراد العودة أثر أن يرجع من طريق غير الذي ذهب فيه ، خشية أن يكون أعداؤه راوه وهو ذاهب فتربصوا عودته ، وراعى في طريق عودته أن يكون الطريق خلف جبل أو مكان طبيعته تسمح له بالنجاة اذا هوجم فيقول :

فلهما جزمتم به قسرتي تيممت اطرفة او خليفنا (١)

وأما عمرو بن براقة فينفى عن نفسه نوم الليل ، ولكنه يعرف أنها ليست صفته وحده ، وإنما هي صفة الصعاليك جميعا ، ويعرف كذلك أن الناس جميعا يعلمون أن هذه صفة الصعاليك ، لأنه إنما ينام الليل خلى الببال والمسالم ، أما الصعاليك فلاهم خليو الببال ، ولاهم مسالمون ، فلا عجب أن يكون نومهم قليلا غرارا ، فيقول :

**تقول سليمي لا تعرض لتلفة وليك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح ابيض صارم
الم تعلمي ان الصعاليك نومهم قليل اذا نام الحبل المسالم (٢)**

٦ - الحيلة

ولكن الحياة المعتمدة دائما على المخاطرة لا تخلو من مآزق يتعرض لها صاحبها مهما بالغ في حيطته وحذره ، وقد بذل الصعاليك جهدهم في الحذر واليقظة حتى حرموا على أنفسهم لذة الاستغراق في النوم ، والتمتع به مهما يبلغ بهم الكلال ، كما رأينا من تابط شرا الذي كان في تجوله وسراه بالليل ، يشعر بالكلال الشديد ، والارهاق المضنى هو وراحلته ، ويحس الرغبة الملحة في النوم ولو لحظات يريح فيها جسده المنهك ، ولكنه يأبى الراحة الا لراحلته ، أما هو فلا يزيده على أن يوقد النار بما يبذله من جهد في سبيل اشعالها ليصرف عنه النوم ، ثم يواصل السرى والصخو واليقظة ، خشية أن تكون في نومه غرة يؤتى منها .

ولكن هذه اليقظة الشديدة لم تحل بينهم وبين المآزق يقعون فيها ، وخطر هذه المآزق على الصعاليك حصار الأعداء ، حينما يكون هؤلاء الأعداء كثرة لا قبل المصعلوك بها ، ثم يأخذون عليه الطريق فلا يجد مفرا ولا مهربا ، وقد قلنا ان

(١) ديوان الهذليين ٧٦/٢ وجزمتم ملات وبه يعنى الماء وتيممت قصدت واطرفة جمع طريق وخليف خلف جبل أوواد والجمع في اطرفة يشير الى التواء الطريق وتمدد مسالكه .
(٢) أماني القائل ١١٩/٢ وتعرض أصله تتعرض، وتلفة المرة من التلف وجل منظم .

الصعاليك ليس من خلقهم الفرار من الموت ، بل على العكس ، خلقهم الاستهانة بالموت والاستعداد لمواجهة في كل حين ، وقلنا أن الصعاليك كانوا ازاء موقف كهذا الموقف نوعين ، العدائين وغير العدائين ، أما غير العدائين فلم يكن أمامهم الا طريقان ، الاستسلام للاعداء ، أو الموت فكانوا لا يترددون في اختيار الموت ، كما فعل قيس بن منقذ مع أنهم عرضوا عليه الأسر ، فأبى وأصر على أن يقاتل مع يأسه من النتيجة ، لأنه كان وحيدا وسط جمع كبير ، وظل يقاتل حتى قتل (١) ، ولذلك لا نعلم أن أحدا من الصعاليك أسر أو قبل الأسر ، مع كثرة ما تعرضوا له من مواقف يسوغ لكل امرئ فيها أن يقبله ، وأما العداءون من الصعاليك فكان أمامهم احتمال ثالث غير الأسر والموت في مثل هذا الموقف ، وهو النجاة عدوا على أقدامهم ، فحينما يجدون أنفسهم في الموقف الذي يحاصره فيه أعداؤهم ، يجدون مع ضيق الموقف وشدته احتمالا في النجاة بعدوهم الذي لا تلحقه الحيل ، ولكن هنالك عقبة يجب أن يجتازوها حتى يستطيعوا استعمال أقدامهم ، هذه العقبة هي الخروج من الحصار ، فإذا استطاعوا النفاذ أو التسلل من الحصار كان الأمل في نجاحهم قويا مهما طاردهم الأعداء ، وهذا النفاذ أو التسلل لا يفنى فيه بالطبع القتال أو استخدام القوة ، لأنه موقف فوق طاقة الصعلوك ، وإنما يفنى فيه شيء واحد ، هو اللجوء الى الحيلة وحسن التخلص :

وأخبار الصعاليك وأشعارهم تحدثنا عن كثير من هذه المواقف التي استعمل عداو الصعاليك حيلتهم وسيقاتلهم فيها حتى نجوا ، ومن ذلك قصة تأبط شرا مع بنى لحيان من هذيل حيث استطاعوا أن يرصدوه حتى سعد مرتفعا من جبل ليحني عسلا يقتات به ، ولم يكن له طريق غير الذي سعد منه ، فحاصره بنو لحيان ، وطلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا فأبى ، وأصبح يواجه الموقفين ، الموت ، والأسر الذي أباه بشدة ، ولكنه عمل ذكاء لايجاد مخرج ثالث ، فالتقبة الكداء الآن أمامه الحصار ، ولو استطاع النفاذ منه لكان له في ساقه شأن ، وإذا ذكاؤه يهديه المخرج ، وإذا هو يلجأ الى الجانب الآخر من المرتفع الذي يقف عليه ، فيصب العسل الذي جمعه على صخور ذلك الجانب الآخر بعيدا عن بنى لحيان ، وقد كان صبه العسل ليستطيع الانزلاق عليه فوق الصخور بسلاسة ويسر ، دون أن تجرحه أو تسلخه الصخور التي تشبه ازلاقها حد الفأس كما يقول أبو خراش ، وبهذه الحيلة استطاع تأبط شرا النجاة من موقفه الخطير ، ثم يقول عن موقفه هذا :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو هدبر (٢)

(١) مهذب الأغاني ٢٢٥/١ ، وكذلك صخر الفى في قصة مقتله . انظر شرح السكرى لديوان الهذليين .

(٢) حساسة أبى تمام ١٧/١ ، ١٨ ولم يحتل من الحيلة ، والشطر الثاني يعنى اللشل . وادبار الهزيمة .

ولكن اخو الحزم الذي ليس نازلا
فذلك قريع الدهر ما عاش حول
القول للحيان وقد صمرت لهم
هما خطتا اما اسار ومنه
واخرى اصادى النفس عنها وانها
فرشت لها صدرى فزل عن الصفا
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا
فابت الى فهم ولم اك آيسا

به الخطب الا وهو للتصديق مبصر (١)
اذا سد منه منخر جاش منخر (٢)
وطايب ويومى ضيق الجحر معور (٣)
واما دم والقتل بالحر اجدر (٤)
لمود حزم ان فعلت ومصدر (٥)
به جؤ جؤ عبل ومتن مخصر (٦)
به كدحة والموت خزيان ينظر (٧)
وكم مثلها فارقتها وهى تصفر (٨)

ولم تكن المرة الوحيدة التى نجا فيها من هذيل وتركهم آسفين على نجاته
كما يقول « وكم مثلها فارقتها وهى تصفر » ولم تكن هذيل وحدها التى نجا منها
تأبط شرا وتركها آسفة مدهوشة ، بل نجا بحيلته وعدوه كثيرا من أعداء كثيرين
ومن ذلك هذه القصة التى ترويها أخباره ، فى نجاته من بجيلة وهى بروايتها
« خرج الشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براق (٩) فأغاروا على بجيلة ، فوجدوا
لهم رسدا على الماء ، فلما مالوا له فى جوف الليل قال لهما تأبط شرا : ان بالماء
رسدا ، وانى لأسمع وجيب قلوب القوم ، فقالا ما نسمع شيئا وما هو الا
قلبك يجب ، فوضع أيديهما على قلبه وقال : والله ما يجب وما كان وجابا ،
قالوا : فلا بد لنا من ورود الماء ، فخرج الشنفرى ، فلما رآه الرصد عرفوه
فتركوه حتى شرب من الماء ورجع إلى أصحابه ، فقال : والله ما بالماء أحد ، ولقد
شربت من الحوض ، فقال تأبط شرا للشنفرى : بلى ، ولكن القوم لا يريدونك ،
وانما يريدوننى ثم ذهب ابن براق فشرب ورجع ولم يعرفوا له ، فقال تأبط شرا
للشنفرى : اذا أنا كرعت فى الحوض فان القوم سيسندون على فيأسرونى ، فذهب
كانك تهرب ، ثم كن فى أصل ذلك القرن فاذا سمعتنى أقول : خذوا خذوا فتعال
فاطلقنى ، وقال لابن براق : انى سأمرك أن تستأسر للقوم ، فلا تنأ عنهم ولا
تمكنهم من نفسك ، ثم مر تأبط شرا حتى ورد الماء فحين كرع فى الحوض شدوا

- (١) الخطب المكروه والتصديق حسن التصرف .
(٢) قريع الدهر المجرب وحول بصير والشرط الثانى يعنى اذا سد امامه باب نفذ من
باب آخر .
(٣) لحيان محاصروه وصمرت خلعت والوطاب يعنى اثناء العسل ويومى ضيق الجحر يعنى
هو يوم لا مثله فيه ومعور متكشف المعور يريد يوما قاسيا .
(٤) خطتا يريد خطتان أى حالان اما الأسر أو القتل .
(٥) اصادى استشير واخرى يريد الحيلة يلفك فيها .
(٦) الصفا الحجارة وجؤجؤ عبل صدر ضخم ومتن ظهر ومخصر نحيل .
(٧) يكدح يؤثر يريد لم يؤثر فيه الصفا ولم يخدشه حتى وصل الأرض ناجيا من موت مائل
(٨) أب رجع ولم اك آيسا لم يكن ينتظر رجوعى ومثلها يعنى هذيل وتصفر آسفة يريد
لجوت منها كثيرا .
(٩) الصحيح براق لانه اسم أمه .

عليه فأخذوه وكتفوه بوتر ، وطار الشنفرى ، فأتى حيث أمره ، وانحاز ابن براق حيث يروونه ، فقال تأبط شرا : يامعشر بجيلة ، هل لكم فى خير أن تياسرونا فى الفداء ويستأسر لكم ابن براق ؟ قالوا نعم ، فقال : ويلك يا ابن براق ، أما الشنفرى فقد طار ، وهو يصطلي نار بنى فلان ، وقد علمت ما بيننا وبين اهلك ، فهل لك أن تستأسر ويأسرونا فى الفداء ؟ قال : لا والله حتى أروى نفسى شوطا أو شوطين فجعل يستن نحو الجبل ويرجع ، حتى اذا راوا أنه قد أعيأ طمعوا فيه فاتبعوه ، ونادى تأبط شرا : خذوا خذوا ، فخالف الشنفرى الى تأبط شرا فقطع وثاقه ، فلما رآه ابن براق وقد خرج من وثاقه مال الى عنده ، فناداهم تأبط شرا : يامعشر بجيلة : أعجبكم عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا ينسيكم عبوه ، ثم أحضروا (١) ثلاثهم فنجوا ، وفى ذلك يقول تأبط شرا :

ليلة صاحوا واغروا بى سراهم بالعبيتين لدى معلى ابن براق
كانما حشحوها حصا قواده أو أم خشف بدى شث وطباق
لا شئ أسرع منى غير عسدر أو ذى جناح بجنب الريد خفاق

فكل هؤلاء الثلاثة كانوا عدائين (٢) وقد ساق الضب القصيدة التى اقتطف منها الميدانى الأبيات السابقة كاملة فى المفضليات (٣) ، وفيها يصرح بنسب أعدائه فيقول :

نجوت منها نجائى من بجيلة اذ القيت ليلة خبت الرهط أوراقي

وقصص الحيل التى نجا بها العداءون من الصعاليك وأشعارهم فيها كثيرة ، ومنها قصة أبى خراش الهذلى فى نجاته من خزاعة بجيلة بارعة وهى كما رواها صاحب ديوان الهذليين فى شرحه « وكان من حديث أبى خراش أنه خرج بزوجة أبيه مرة - وكان مرة خلف بعد لبني أم أبى خراش واخوته السبعة عليها - وأن أبا خراش أتى بها مكة وأمرها أن تقضى ما أرادت من نسك أو غيره ، وقعد لها بالأخشب (٤) وقال لها : احذرى أن يعرفك أحد ، فإن بهذا البلد قوما قد وترتهم من بنى كعب بن خزاعة ، فلقبها فائد فعرفها ، وقال لها : كم معك من بنيك ؟ فأتى رجل من عشيرتك أحد بنى سهم ، فإن بهذه القرية قوما قد وترهم أبو خراش ، فاقعدى وأخبرينى بحوائجك ، فأقعدتها واشترى لها حوائجها ، وقال لها : أى بنيك معك ؟ (٥) قالت : أبو خراش ، قال : فامضى ولا تخبرى أحدا سوى خبرى ، قال : وتقدم فائد

(١) أحضروا عدوا مسرعين .

(٢) مجيب الأمثال ٤٦/٢ ، ٤٧ والقصة أيضا فى خزاعة البغدادى .

(٣) المفضليات ٢٧ - ٣١ وعدتها ستة وعشرون بيتا .

(٤) الأخشب جبل وهو أحد الأخشين المشهورين .

(٥) يعنى أى بنى زوجك لأنها زوجة أبى أبى خراش وليست أمه ، وأبو خراش اسمه

خوبلد بن مرة وخراش ابنه .

لابى خراش حتى قعد له بالطريق ، ورجعت المرأة الى ابي خراش ، فقال لها : من لقيك . ومن رأيت ؟ قالت : رأيت رجلا من بنى سهم ، وكان احرص على ان اخفى امرى منك ، فنعته لها أبو خراش ، فقالت : نعم انه لهو ، قال : ذلك فائد ، وقد قتلتنى ، قالت : فارجح الى قريش ، فخذ منها جوارا ، فابى عليها أبو خراش وذهب بها ، وقال لها : القوم بالمفمس فامضى اليهم ، وحملها على جمل لمة نجيب ، وقال لها ، اذا خلفت القوم فاجهدى بعيرك فانى شاغلهم عنك ، ولن يتعرضوا لك حتى يئسوا منى ، فمضت ، وجاء أبو خراش يبطل في المشى ويصلح نعله حتى خلفتهم المرأة ، ثم جهدت بعيرها حتى كان خمازها في اطراف الشجر نسج العنكبوت ، واتاهم أبو خراش حتى سلم عليهم يطعمهم في نفسه لتذهب المرأة فقالوا : مرحبا يا خويلد ، وأقبلوا اليه غير سراع وهم يميلون نحوه ، ولا يريدون ذعره ، وقد قدموا فائدا بذنب الثنية ، ثم عدوا عليه ، وشهد أبو خراش يؤم ذنب الثنية أسفل من قائد ، وقالوا : اليك يا فائد ، اضرب يا فائد ، ارم يا فائد ، وزعموا ان قوس ابي خراش انقطعت حمالتها وانفلت أبو خراش ، وجاءت امرأة مرة اليه (١) ، فقال لها : ويلك ما فعل أبو خراش ؟ قالت : قتل ، قتله فائد واصحابه ، قال : ويلك ، قتل وانت تتظنين ؟ قالت نعم ، قال : كيف انفلت انت ؟ قالت : انه لم يقتل حتى خلفت القوم ، قال : فأخبريني كيف كان قتله ؟ قالت : عهدى به وقد التف عليه القوم ، فقال : هل سمعت من شيء ؟ قالت : : سمعت « يا فائد اضرب ، يا فائد ارم » فقال : ان اخطأت سهام القوم اجابنى ، وصرخ مرة ، فاستجاب له أبو خراش ، ففى ذلك يقول أبو خراش :

رقونى وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وانكرت الوجوه هم هم (٢)
الى آخر القصيدة ، (٣) والقصيدة وصف دقيق لاحداث القصة ومطابقة أعدائه له ، وسرعة عدوه .

والسليك بن السلكه له قصص في حيله ، وقد سجل بعضها في شعره ، ومنها قصه غارته مع صاحبيه على جوف مراد باليمن ، حيث طلب من صاحبيه أن ينتظراه في مكان قريب ، على أن يذهب هو الى ابل رأوها ، ليدرس خطة سلبها والنجاة بها ، وقال لصاحبيه : سأعلم من الرعيان مكان الحى ، فان كانوا قريبا رجعت اليكما ، وان كانوا بعيدا لحنت لكما بقول فاغرا ، وذهب فعلم من الرعاء أن الحى بعيد ، وأنهم ان طلبوه بعد سلبه الابل فلن يدركوه فقال للرعاء : ألا اثنيتكم ؟ قالوا : بلى ، فقال بأعلى صوته مخاطبا رفيقيه اللذين ينتظرانه في مكان قريب :

(١) يعنى جاءت الى زوجها مرة بعد أن تركت اباخراش يراوغ خرازة .

(٢) الرقون التسكين يعنى حاولوا خداعه بأنهم لا يريدون به شرا وخويلد اسم ابي خراش

(٣) ديوان الهذليين ١٤٤/٢ - ١٤٨ والقصيدة أربعة عشر بيتا .

يا صاحبي الا لحي بالوادي الا عيسد وآم بين اذواد (١)
انتظران قليلا ريث غفلتهم ام تمنوان فان الريح للعادي (٢)

صراع النعاج

ومع ان ما سبق يبدو صراعا في حياة الصعاليك ، فانه في جملة ما يعتبر مجرد اسلحة يتذرع بها الصعاليك للصراع الحقيقي العنيف الذي جابهوه في الصعلة ، والذي تمخض عنه دخولهم هذا الميدان .

والصراع العنيف الذي جابهه الصعاليك منذ اختار كل منهم الصعلة طريقا له ، يمكن حصره في ثلاث جبهات محيطة بالصعاليك ، وتكاد تتكافأ في خطورتها وقسوتها على الصعاليك ، وهي :

١ - الصراع النفسي : واقساه وأشدّه شعور الصعاليك بالمطاردة ، فانه يبدو في شعورهم شعورهم بأنهم مطاردون ، ويبدو أيضا أن هذا الشعور كان ثقيل الوطأة على نفوسهم وهم وأن تفاوتوا في مقاومتها ، وأن اختلفت قوة كل منهم في احتماله ومحاولة التغلب عليه الا اننا نحس بصفة عامة أنه كان شعورا مؤرقا لمصاحبه جميعا ، وباعثا فيها قلقا وتوجسا شديدين ، وبلغ هذا الشعور من بعضهم حد الخوف الدائم من كل شيء ، بل بلغ من بعضهم حد الوهم ، وتصور أعداء لا وجود لهم ، ومخلوقات لم تخلق قط الا في خياله وخیال الأساطير كالقول .

٢ - صراع الأعداء : وما أكثر أعداء الصعاليك ، بل لا يبالغ من يقول ان الناس جميعا أعداءهم ، لأنهم بسلوكهم أعلنوا الحرب على جميع الناس ، ليس كل انسان معرضا لسطوهم ؟ اما على شخصه ، واما على ماله ، واما على شيء يعز عليه كالقبيلة والحرمان ، فالناس بالنسبة للصعاليك نوعان ، نوع معتنى عليه ، فهو موقر يريد أن ينتقم من وأثره الصعلوك ، ونوع مترقب لمعاونهم عليه ، ان سنحت لهم الفرصة ، وكلا النوعين عدو للصعاليك .

٣ - صراع البيئة : فان البيئة التي كانت مهياة بطبيعة تكوينها لأن تكون مجالا صالحا للصعلة ، كانت من جانب آخر تحمل في ثناياها أخطارا بالغة عليهم ، في نواحي عديدة ، أيسرها وأخطرها معا صعوبة الحصول على الماء ، ثم الوحوش والهوام والحيات ، ثم المجاهل نفسها ، تلك التي تعرض رائدها للضلال والهلاك كما حدث لعمر بن عبد الجان (٣) .

(١) مجمع الأمثال للميداني ١١/٢ وآم جمع أمة والأذواد جماعات الأبل .

(٢) الريح القوة والغلبة .

(٣) انظر مذهب الأغاني ١٨٨/٢ وفي موته خلافا انظر أيضا ديوان الهذليين ١٢٠/٣ .

٤ - هناك جبهة رابعة قوية ، لم يعان منها صعاليك الجاهلية ، لانهم لم يدركوها ، وهى السلطة بنوعها التشريعى والتنفيذى ، قد عانى منها المخضرمون والمسلمون ، لأنها كانت أقوى سلاح يهدد سلوكهم العدوانى . ولنتحدث عن هذه الأنواع من الصراع فى شعرهم .

الشعور بالطاردة

ليس من الغريب أن يسيطر على الصعاليك شعور نفسى عام بأنهم مطاردون ، بل الغريب ألا يكون لديهم هذا الشعور ، فطائفة أعلنت الحرب على الناس جميعا ، وأصبح المجتمع بالنسبة لهم بين طالب ومطلوب ، وأصبح شعاعرهم هم أيضا نحو المجتمع كله أن يكونوا طالبين أو مطلوبين ، ولا وسط بين المرحلتين ، طائفة كذلك من الطبيعى أن تواجه بالعداء ، ومن الطبيعى أن يكون فى نفوسها من الشعور نحو المجتمع بقدر ما تحمل هذه النفوس للمجتمع ، ومن نوع ما تحمله نفوسهم ، ونفوسهم لا تحمل للمجتمع الا عدوانا وتربصا أو « لادرك ذحلا أو أشيف على غنم » كما يقول قائلهم (١) .

وبده هذا الشعور كان عدم تكيفهم مع المجتمع ، ونفورهم منه ، وهجرتهم عنه للعوامل التى أدت بهم الى الصعلكة ، فنرى الصعاليك بصفة عامة يحملون طابعا بارزا من النفور من المجتمع ، وقد عبروا عن هذا الشعور بصراحة ، كما يقول الشنفرى انه مصمم على هجرة الناس جميعا الى أى مكان لا أجاور فيه أناسا ، ولا أتعامل مع بشر ، وقد كان المكان الأثير لديه بعد تصميمه هذا هو الصحراء الموحشة المقفرة من البشر ، وكان أهله ومجتمعه الذى استبدله بمجتمع البشر ، هو مجتمع الوحوش ، فيعبر عن نفوره من الناس وهجرته عنهم بقوله من اللامية :

اقيموا بنى أمى صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل
وفى الأرض مناسى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القل متعزل

ويعبر عن مدى سخطه على الناس جميعا ، وإيثاره كل أنواع الوحوش على البشر فى جوارهم وخلقهم بقوله :

ولى دونكم أهلون ، سيد عملس وارقط زهلول وعرفاء وجيال (٢)

(١) هو أبو خراش من قصيدة ميمية بديوان الهذليين والاسل النار وأشيف أشرف .

(٢) السيد الدائب والارقط النمر وجيال الفصيح والمعلس القوى والزهلول الاملس

وعرفاء طويلة .

هم الرهط لا مستودع السر ذاتع لديهم ولا الجاني بما جر يتدل.

وفى المعنى والهدف نفسهما يقول عروة بن الورد كما سبق « اقيموا بنى
لبنى صدور مطيكم » .

وهو معنى شائع فى شعرهم ولو منظويا فى معنى آخر ، فهذا أبو النشاش
النهشل يجعل الصعلوك شيئا مستقلا عن الناس ، بعيدا عنهم كأنه فى غيب ،
وحتى ان دنا فليس من حقهم أن يدخلوا عالمه ويطلعوا على دخيلته ، وهذا المعنى
يعبر عن هجرة نفسية عن المجتمع حيث يعتبر الصعاليك أن الأسباب قد أثبتت
بينهم وبين الناس فيقول قائلهم :

وسائلة بالغيب عنى وسائل . ومن يسأل الصعلوك أين مذهبى ؟ (١)

وهذا يعنى أن الصعاليك فى عزلة نفسية عن المجتمع بالإضافة الى عزلتهم
الواقعية فى حياتهم .

وهذه العزلة حملت معها الى الصعاليك شعورا ثقيلا الوطأة بأنهم أصبحوا
مطاردين من أعدتهم ومن الناس جميعا ، فى صور كثيرة مختلفة يعبر بها شعرهم
عن هذا الشعور .

فالشعور يرسم صورة دقيقة لهذا الشعور ، بأنه أصبح طريدا ، وطريد
لجنايات كثيرة جناها ، فهو لذلك لا يستطيع أن ينام مطمئنا ، لأنه ان اطمئن
فى نومه ، فهناك عيون كثيرة غير مطمئنة فى نومها ، بل هى يقظى شديدة اليقظة
فى نربصها به ، وتعجلها أن توقع به فى أقصى سرعة ممكنة فيقول :

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيهما حم اول (٢)
تببت اذا ما نام يقظى عيونها حثاا الى مكروهه تتعجل

وتأبط شرا موقن بأنه مطاردا من أعدائه الكثيرين ، ولكنه يضيف أنه موقن
أيضا بأن أعداءه ، سيتألمونه يوما ما ، ومعنى ذلك أن الشعور بالمطاردة قد بلغ
منه حدا بالغا فيقول عن نفسه :

ومن يفر بالأعداء لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا (٣)

بل يبلغ هذا الشعور من نفس الأعلام الهذلى حدا رهيبا ، حيث يتصور أن
كل ما حوله من شجر يخيل اليه أنه أعداء ، وأن فروعه سهام وسيوف مسلولة
موجهة نحوه لتودى به فيقول :

(١) حساسة أبى تمام ١١٦/١ .

(٢) من اللامية وتياسرن تقاسمن وعقيرته لحمه وهم يريد اذا نزل به الموت من حم القضاء.

(٣) حساسة أبى تمام ١٩٠/١ .

واحسب عرفط الزوراء يودى على بوشك رجع واستلال (١)

وهناك ارتباط بين طابع الحذر واليقظة الذى تحدثنا عنه بالنسبة للصعاليك وهذا الشعور الذى يعانونه ، وهو الشعور بالمطاردة ، فكثير من صور الحذر واتجاهاتهم فيه مرتبط بشعور المطاردة ، ويصلح أن يكون مثالا له .

وما من شاعر من الصعاليك الا ونجد فى شعره هذا الشعور بالمطاردة ، ان تصرىحا وان تضمينا ، على تفاوت بالطبع فى الاحساس والتأثر به .

فمالك بن الربيع يصور لنا حياته فى مهمة مقفر لا يرى فيه أحدا ، ثم يخيم عليه الظلام فى هذه الوحدة الموحشة ، فيتضاعف شعوره بالرغبة والخوف غير المحدود ، لأنه خوف من كل شيء ، بل وخوف من لا شيء ، لأن هذه الوحدة نفسها وما يكتنفها من ظلام ووحشة هى فى ذاتها مصدر رهبة ، بالإضافة الى ما يتوقع صاحبها من أحداث فيها ، ولذلك يصور مالك رهبته حينئذ فى قوله :

أدجت فى مهمه ما أن أرى أحدا حتى اذا حان تعريس لمن نزلا
وضعت جنبى وقلت الله يكلؤنى مهما تم عنك من ليل فما غفلا
والسيف بيتى وبين الثوب مشعره أخشى الحوادث انى لم أكن وكلا (٢)

ولئن كان السبب الأساس فى هذه الرهبة الشعور بالمطاردة ، الا أنه يصرح بأثر الوحشة ورهبة المكان المقفر حيث يقول :

أما ترى الدار قفرا لا أنيس بها الا الوحوش وأمسى أهلها احتملا

والأعلم الهذلى يحكى صورة من صور خوفه ، وهذه الصورة وإن كانت مرتبطة بحادثة معينة ، هى فراره ونجاته من أعدائه بالعدو ، لأنه كان من العدائين المشهورين الا أننا نجد معانى الخوف التى راودته ترتبط بشعوره بالمطاردة أكثر من ارتباطها بالموقف نفسه ، فأننا نراه لا يخشى أعداءه فقط ولا يخشى مجرد وقوعه فى أيدي مطاردين وإنما يخشى حسابه على جنايات جناها ، وجزاؤها السيف وأن يصير جسده صيدا للضباع والطيور والذئاب والثعالب وهذا هو أثر الشعور بالمطاردة فيقول :

لا رأيت القوم بالعلياء دون قلى المناصب (٣)

(١) ديوان الهذليين ٨٥/٢ والعرفط نوع من الشجر والزوراء موضع ويودى يهلك والوشك المعجلة والسرعة ، والاستلال من سل السيف ومن شرح السكرى له « يقول كلما ظلمت عرفطة أحسبها انسانا يمين على من الفرق » والفرق الخوف الشديد ومنه أيضا « كلما مرت بشجرة ظلمتها تعين على » .

(٢) مهذب الاغانى ١٣/٥ والتعريس فى البيت الأول نزول السفر آخر الليل .

(٣) ديوان الهذليين ٧٧/٢ - ٧٩ وقلى بمعنى قيد من قولهم قيد رمح والمناصب بلد .

وفريت من فزع فلا أومن ولا ودعت صاحب (١)
ثم يقول :

وخشيت وقع ضربة قد جريت كل التجارب (٢)
فأكون صيدهم بها وأصير للضبع السواغب (٣)
جئزرا وللطير المربة والدئساب وللثعالب (٤)

ولكن الشنفرى كان معتدلا فى أثر شعور المطاردة فى نفسه ، وقد تمثل هذا الشعور الذى صورته فى أنه أصبح طريد جنائيات وأنه أصبح نومه غرارا ، تمثل فى خوف عادى لا يبلغ حد الدهش الذى عرا الأعلام ، وإنما هو شعور بين مشاعر أخرى كثيرة ، منها الإحساس بالجوع والإحساس بالبرد والرعدة فيقول عن ليلة باردة ممطرة :

دعست على غطش وبغش وصحبتى سعاد وارزىز ووجر وأفكل (٥)

وأما عبيد بن أيوب الذى ألجأته مطاردة المجتمع والسلطان الى الفلوات ليعيش فيها وحيدا خائفا قلقا مترقبا كل شر ، فى كل وجه من وجوه حياته ووجوه الصحراء ، فقد سيطر عليه الشعور بالمطاردة حتى أصبح يتلهف على أن يذوق طعم الأمن ولو لحظة ، لأن فؤاده قد خلعه الخوف والترقب فيقول :

أذقنى طعم الأمن أو سل حقيقة على وان قامت ففصل بنانيا
خلعت فؤادى فاستطير فاصبحت ترامى به اليد القفار تراميا (٦)

ويصرح عبيد مشيرا الى سبب خوفه ، بأنه يشعر بأن كل شيء من حوله عدو مطارده متعقب له ، حتى طيران الحمامة يظنه عدوا ، وحتى أصبح لا يصدق الا حديث الخوف ولا يثق فى أحد .

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشم
وخفت خليل ذا الصفاء ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٧)

(١) فريت تحيرت ودهشت يعنى عجزت عن الرمي لاضطرابى ولم أستطع توديع صاحبه الذى قررت عنه وتركته .

(٢) الضريبة السيف وجريت يعنى سيفا معودا على الضرب به يريد تجوت بعدوى من أعدائى خوف ضربى بالسيف والأحوال الآتية التى سيدكرها .

(٣) الضبع جمع ضبع والسواغب الجياع .

(٤) المربة المقيمة بالمكان اللازمة له .

(٥) من اللامية سبق نصها والدعس الوطاء والغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف والسعاد

الجوع والارزىز البرد والوجر الخوف والأفكل الرعدة .

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م اخانجى .

(٧) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ .

بل العجيب أنه وصل به هذا الشعور لدرجة أنه يطلب من طباء الوحش
أن تخفيه فيقول :

الا يا طباء الوحش لا تحذرينى وأخفينى اذ كنت فيكن خافيا

صراع الأعداء

ولئن كان يمكن اعتبار • المجتمع كله عدوا للصعاليك ، مما كان له اثر فى طابع العزلة النفسية والواقعية التى فرضها الصعاليك على أنفسهم ، ولئن كانت هذه العزلة نوعا من الصراع والحرب بين الصعاليك والمجتمع ، وجبهة من الجبهات التى يصارعون فيها ، الا ان الجبهة البارزة المحسوسة كانت الصراع المباشر مع الأعداء المباشرين • وأغلب هؤلاء الأعداء المباشرين للصعاليك كان يتمثل فى نوعين ، نوع نتج عن حياتهم فى الصعلكة وجنایاتهم فيها وهو الأكثر والاضهر فى صراعهم مع الأعداء ، ونوع كان نتيجة ارتباط بعضهم بأقوامهم فى الحروب والتطاحن مع الأحياء والقبائل الأخرى ، فكان هذا البعض من الصعاليك يزاول هذا الجانب من الصراع بالاضافة الى حياته فى الصعلكة وصراعه فى جوانبها المختلفة ، ولكن هذا التعاون الذى يبذله الصعلوك مع قومه فى حروبهم بصفته فردا منهم كان يتحول الى عدااء شخصى بينه وبين هؤلاء الأعداء ، ويصبح صراعه معهم جزءا من حياته وصراعه فى الصعلكة كما كان الوضع بالنسبة لمالك بن حريم وعمر بن بركة وصعاليك هذيل ، والذى يعيننا من هذا الجانب هو أثره فى حياة الصعاليك ، ومدى دلالة على وضعهم بين أقوامهم ، ودلالته أيضا على صفتهم كمقاتلين فى الحروب ، كما سنرى ذلك فى شعرهم ، والواقع أن الصعاليك يختلفون اختلافا بينا فى صورة صراعهم مع الأعداء فى كلا النوعين ، فالعداؤون بالذات كان يغلب عليهم طابع معين ، هو عدم الاشتراك فى الحروب القبلية أو حتى الجماعية ، وانما كانوا يؤثرون الرفقة المحدودة التى لا تتعدى غالبا الشخص الواحد كما نرى فى شعر الأعلام (١) وشعر أبى خراش (٢) الهذليين ، أو الشخصين كما نرى فى رفقة السليك (٣) ، ورفقة الشنفرى (٤) ثم يغيرون بهذه الرفقة المحدودة مترقبين الغرة ، معتمدين فى سلاحهم على السهام التى تنال عن بعد ، دون السيوف التى تحتاج الى المجابهة مع الأعداء ، والمجابهة فى حاجة الى عدد كبير لا يملكوته ، ولذلك نرى وصف القوس والسهام شائعا بادى الاهتمام

(١) أنظر ديوان الهذليين ٧٨/٢ - ٨٥ •

(٢) المصدر السابق ١٣٤/٢ وما بعده •

(٣) أنظر مجمع الأمثال ١١/٢ •

(٤) المصدر السابق ٤٦/٢ •

فى شعر العدائين أكثر من غيرهم وأكثر من حديثهم عن الأسلحة الأخرى ، فاذا ضاقت عليهم السبل أطلقوا لسيقاتهم العنان .

وكان بعض هؤلاء العدائين يبلغ من ثقته بنفسه وسرعة عدوه أن يغير وحده كما كان يفعل تابط شرا (١) وكما كان يفعل الشنفرى فى كثير من الأحيان (٢) .

ونجد شعر العدائين صورة واضحة مفصلة لا عن صراعاتهم وحياتهم فقط ، وإنما عن كل ما يحيط بالحوادث وتفاصيلها ، فشعر العدائين أدق شعر الصعاليك من حيث دلالة على حياتهم وعلى البيئة من حولهم ، وعلى نفسياتهم وتقلبهم مع الأحداث ، وشعر الهذليين من أوضح الأمثلة لذلك ، فمثلا نرى صخرا الغى فى قصيدة واحدة ليست بالطويلة (٣) يصف حياته كلها فى الصحراء ، واصفا الصحراء نفسها ، وما يراه حوله من أحوال الطبيعة ، مركزا على منظر السحاب الذى تشبه قطعه الضخمة السائرة سفنا ضخمة محملة بمخبر عباب البحر ، والبرق يلعب بينها كأنه قدح البشير ، ثم يصفه حين أمطر و « أسال من الليل أشجانه » وكيف أن الوديان الشاسعة تحولت الى أحواض كبيرة من الماء ، حتى أن ما بين وادى القصور الى يللمم أصبح حوض ماء ، وكيف أنه حين جفت الأرض وأصبحت صالحة للمشى أراد أن يستفيد من ذلك المطر ، وكل فائدته بالنسبة إليه أن يملأ قريته من أحد هذه الأحواض قبل أن تجف متحدثا خلال ذلك عن أن هذه الأحوال كلها لا تمنع أعداءه أن يتربصوا به ، ولذلك فهو يحاذر حذرا شديدا فى كل خطوة ، ويتخير الطرق التى يأمل فيها النجاة من تربص أعدائه .

والأعلم الهذلى فى قصيدة أخرى يقص قصة دقيقة مفصلة لحادثة نجاته من أعداء كانوا مترصدين له ، وفى هذه القصيدة نجد القصة كاملة ، بل نجدها أدق وأكثر تفصيلا وتوضيحا للمشاعر مما ترويه الروايات (٤) وفيها يصف أنه فوجئ بأن أعداءه قيد رمية منه فانتابه فزع شديد أذهله عن كل شيء إلا انطلاقه الشديد فى العدو ، مصورا مطاردة عدائين آخرين لهما وكيف أن الأعداء يفرون عدايهم باللاحق بالأعلم وصاحبه ويحثونهم بأقصى قوة ، والأعلم أيضا يبحث صاحبه بأقصى قوة على العدو ، والطريف أن الأعلم خلال عدوه ظل يتصور صورا مفزعة من حاله لو تمكن منه أعداؤه ، متصورا سيفا صارما يهوى عليه (٥) ومتصورا نفسه جثة تهوى عليها الطير ، وتتسابق إليها الضباع والذئاب

(١) انظر الشعر والصحراء لابن قتيبة ٢٧١/١ .

(٢) انظر اللامية وخاصة البيت الرابع والخمسين .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٦٨/٢ - ٧٦ وهى نحو اثنين وعشرين بيتا .

(٤) المصدر السابق ٧٧/٢ - ٨٣ وهى نحو اثنين وعشرين بيتا وأولها :

لما رأيت القوم بالعلاء دون قدى المناصب .

(٥) انظر البيت التاسع من القصيدة .

والثعالب مصورا تصويرا جميلا هذه الضباع التي يخشاها في سواد جلودها الذي يشبه ثياب الرهبان ، ونزع الضباع جلد الفريسة كما ينزع الحداد غشاء عن جفن السيف ، وآذان هذه الضباع التي تشبه مغارف الطعام الكبيرة ، ويصف كيف أنه ظل يعدو كذلك حتى اقتصف النهار عدوا داثبا جامدا ، وصور الخوف من وقوعه في أيدي أعدائه وما يفعلونه به وما يترتب على ذلك ، فمن هذه الصور أولاده وأهله البؤساء لو هلك لاضطرتهم الحاجة الى سؤال الأقارب وهكذا .

وفي قصيدة تلى هذه القصيدة يصف جوانب أخرى من الحادثة السابقة في مطاردة جذيمة العبدى (١) وفي قصيدة بعدها يصف الأعلام صراعه مع عدو آخر ، وإعداداته سلاحه لهذا الصراع .

وأبو خراش يصف أيضا في شعره صورا من صراعه مع أعداء كثيرين ، في حوادث كثيرة ، منها قصته مع ابني شعوب واصفا عدوه ، واعتزازه بقوته وقوة قومه (٢) وقصته مع واقد (٣) ، وقصة نحاته من خزاعة بعد أن كادوا يفتكون به (٤) وقصة صراعه مع بنى بكر (٤) .

وأما غير العدائين فنجد التعبير بالحرب والقتال شائعين في شعرهم ، لأنهم يعتمدون في صراعاتهم المباشر مع الأعداء على القتال بالسيف وأدوات الحرب العادية المألوفة لديهم . وصور الصراع مع الأعداء في شعر الصعاليك عامة كثيرة مختلفة ، ولكنها جميعا توحى بصراع دائم أو مترقب دائما ، كما يقول عبيد ابن أيوب :

فما زلت منذ كنت ابن عشرين حجة أخا الحرب مجنيا على وجانيا (٥)

ويعبر عمرو بن براقة عن استمرار صراعه مع أعدائه فيقول :

فلا صلح حتى تعثر الخيسل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٦)

ويصف حاجز بن عوف راحة نفسه وشفاء صدره حين رأى صورة من صور نصره على أعدائه فيقول :

ولقد شفاني أن رأيت نساءكم تبكين مردفة على الأكفال (٧)

(١) ديوان الهذليين ٨٣/٢ - ٨٥ وأولها

أعبد الله ينذر يا لسمه دمي ان كان يصدق ما يقول

(٢) المصدر السابق ١٣٢/٢ - ١٣٦ وأولها « هدونا عدوة لا شك فيها » .

(٣) المصدر السابق ١٣٨/٢ - ١٤٠ وأولها « واقد لم أغرك في امر » .

(٤) المصدر السابق ١٤٤/٢ - ١٤٨ وأولها « رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع » .

(٥) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .

(٦) أمال القالي ١١٩/٢ .

(٧) مهنذ الأغاني ٩٣/١ .

ويصف عمرو بن عجلان تصميمه على مواصلة صراعه مع أعدائه حتى يرى
نساءهم يضربن صدورهن بالنعال كعادتهن في البكاء على القتيل فيقول :

وابرح في طوال الدهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعال (١)

ويصف مالك بن الربب صورة من قتاله مع منازلته فيقول :

خذها واني لضراب اذا اختلفت ايدى الرجال بضرب يختل البصلا (٢)

ويصف مالك بن حريم صراعه مع أعدائهم ، وشفاء نفوسهم بدماء العدو ،
وبسالة فرسانهم في طلب النار والدفاع فيقول :

نريد بنى الحيفان أن دماءهم شفاء وما والى زبيد وجمعا
يقود بأرسان الجياد سراتنا لينقمن وترا أو ليدفنن مدفعا (٣)

وجند بن ضبيعة الذي كان معدودا من فرسان قومه بنى بكر ، بالإضافة
الى صفته كصعلوك ، يتحدث عن وضعه في الحرب فيقول :

اذا الكمة بالكمة التفت أمخدج في الحرب أم آتمت (٤)

وأما سعد بن ناشب فلا يقبل من عدو أن يصع له خدا ، وإنما يخطمه
بشراسة وقظاظه حتى يقيم معوجه فيقول :

أقيم صفا ذى الميل حتى أرده وأخطمه حتى يعود الى القدر (٥)

ولكن عروة بن الورد يرسم نموذجا عاما للصعلوك ، كما ينبغي أن يكون
عليه صراع كل صعلوك مع أعدائه ، أو هو الوصف لصراع الصعلوك الحقيقي
كما يراه فيقول :

ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور (٦)
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيع المشهور (٧)

(١) ديوان الهذليين ١١٥/٣ .

(٢) مهذب الأغاني ١٣/٥ وخذها بمعنى الضربة ويختل يريد يغللق والبصل الخوذة من
الحديد على الرأس .

(٣) الاصمعيات ٦٠ ويلاحظ أنه قال هذه القصيدة في آخريات عمره كما يدل مطلعها فهي
لا تمثل الا ذكرياته كصعلوك .

(٤) حساسة أبي تمام ١٩٦/١ والمخدج الناقص يعنى حينئذ يعلم الناس هل ولدتنى أمى
تاما أم ناقصا .

(٥) المصدر السابق ٢٧١/١ والصفا الميل والقدر الاعتدال .

(٦) الاصمعيات ٣٥ وحساسة أبي تمام ١٦٠/١ والقابس والمتنور حامل النار يعنى متوقدا
حركا وحيوية .

(٧) المنيع المشهور نوع من قداح الميسر السيئة الحظ يعنى ينفرون منه نفور اللاعبين من
القدح التمس .

إذا بعدوا لا يامنون اقترا به تشوف أهل الغلب المنتظر (١)

صراع الهموم

قد يبدو غريباً أن تقرر هموم الصعاليك بحديث خاص ، ولكننا حين نستعرض شعرهم نرى أن حديث الهموم فيه غير خفى ولا غابر ، بل نحس أن الهموم كانت جانباً من الجوانب القاسية في حياتهم ، والتي عانوا منها وظلوا في صراع غير يسير معها .

ولكن الذى يلفت النظر هو التساؤل عما يمكن أن يكون مصدراً للهموم في حياة الصعاليك ، مع بساطتها وعدم تعقيدها ووضوح أهدافها ، ومع قوتهم البالغة في مواجهة الصعاب وتخطي العقبات ان لم يكن تحطيمها ؟

والواقع أن ذلك لا ينفي وجود الهموم ، ولا يتعارض مع كون الهموم جانباً بارزاً في حياة الصعاليك بل يمكن اعتبار بعضه من الأسباب المهمة في سيطرة الهموم على نفوس الصعاليك ، فهذه القوة التي وهبوا إياها في نفوسهم عامل من عوامل الهم والانتقباض ومن المعروف أن أقرب النفوس إلى القلق والهموم والانتقباض هي النفوس القوية ، سواء كانت قوية في تفكيرها أو آمالها أو مقوماتها الأخرى ، لأن هذه القوة تفتح أمام صاحبها أبواباً كثيرة من الإدراك ، وأبواباً كثيرة من الآمال والأهداف ، وأبواباً أخرى من الإحساس بأشياء قد لا يحس بها غيرهم ، ومن التفكير في وسائل وسبل لبلوغ الأهداف أو تحقيق أغراض قد لا يحتاج غيرهم إلى التفكير فيها ، وكل هذه الأبواب والأحاسيس منافذ وثقوب وشقوق في نفس صاحبها من شأنها أن تخلق في نفسه صراعا ودوامات ، يحس بها هو ، لأنه يديرها في نفسه ويتأثر بها ، ولا يحس منها غيره إلا وصف هذا الشخص بأنه يعاني هما أو قلقاً .

وقد تكون أبعد النفوس عن القلق والهموم النفوس الضعيفة ، الضعيفة في إدراكها وتفكيرها والضعيفة في آمالها وأغراضها ، والضعيفة في إحساسها بما حولها وبحقيقة الطريق الذي تسلكه في حياتها وما يكمن في هذا الطريق لهم ولغيرهم . ولكن نفوس شعرائنا الصعاليك كانت قوية في كل شيء ، قوية في إرادتها ومقوماتها كما رأينا في أخبارهم وشعرهم ، وقوية في إدراكها وتفكيرها ، وليست في حاجة إلى التذليل على ذلك ، لأن شعرهم نفسه هو الدليل .

فهذه القوة في نفوس الصعاليك اذن أول منابع الهموم في نفوس الصعاليك وهناك منابع أخرى تخص الصعاليك بعضها عام وبعضها خاص ، فمن العام مثلاً

(١) المنتظر المنتظر الرجوع يعنى يتربصون سطوه عليهم تربص أهل الغائب المرتقب الرجوع .

شعور الصعلوك ولو شعورا خفيا بأنه يملك من المقومات ما لا يملكه كثير من الناس ، يملك شجاعة وبأسا شديدا تهفو كثير من النفوس الى أدناه فلا يتاح لها ، ويملك عقلية فذة وتفكيراً عميقاً يصوغه شعرا ، ويملك أشياء أخرى قد لا يملكها كثير من الذين يتمتعون بالسيادة والغنى والجاه فى الناس ، ومع ذلك فهو لا يملك حتى لقمة العيش ، ويقضى حياته يصارع صخور الجبال ورمال الصحراء ووحوش القفار وأعداء كثيرين لا لشيء الا لمجرد أن يعيش ، يشعر بصفة عامة أنه فى غير المكان الذى يليق به ، وأنه لم يتصف بهذا القسط القاسى المظلم الذى أعطيه من الحياة ، ظلمه الناس حيث أنكروا أن يكون له فى مكانهم مكانا ، وأن يكون له فى عيشهم عيشا ، ليس ذلك شيئا يبعث الهم والانقباض فى كل نفس حساسة كنفس الشاعر ، قوية كنفس الصعلوك ، فكيف اذا اجتمعت الشاعرية والصعلكة كشعرائنا الصعاليك ؟

وهذا كله يعتبر من الأسباب العامة التى يمكن أن تكون سببا مباشرا أو غير مباشر للهموم ، ولكن حياة الصعاليك لا تتركهم للأسباب العامة وحدها ، وانما تهيل عليهم كل يوم أسبابا خاصة بكل منهم من شأنها أن تملأ النفس هما وحزنا وانقباضا ، فهذا مثلا واحد منهم له رفيق يعانين معا مخاطر الحياة ومشقاتها ينظر فاذا رفيقه قد اغتاله سهم من سهام الأعداء ، وهذا شخص يضطره العيش الى أن يترك صبية أشوق ما يكون الى التمتع بحياته معهم ليشخص فى رحلة نائية مسرفة فى النأى ، مبتعدا عنهم غير آمن أن يعود اليهم مرة أخرى ، وهكذا من ظروف كثيرة تنبت فى حياة كل منهم كما سنرى بعض ذلك خلال هذا الحديث ، والذى يبدو واضحا من حديث الصعاليك عن الهموم أنهم لا يتخذونها موضوعا مستقلا كشأنهم فى أغلب ما يعرض له شعرهم ، وانما يتحدثون عن الهموم حديثا عارضا ، والفارق بين الاثنين أن الموضوع المخصص يدعوا الشاعر الى الخوض فى معانيه محاولا بما توحى شاعريته أن يبرزه فى ثوب من الخيال أو المبالغة أو التزيد حتى يصبح موضوعا متكاملا ، أما عرض الصعاليك لهمومهم وأغلب ما يعرض له شعرهم فهو حديث النفس المجرد من الخيالات فى انشاء المعانى أو المبالغة التى تخلق معانى غير واقعية ، أو التزيد الذى يقال على المعنى ليخرجه موضوعا متكاملا ، حديث النفس كمجرد انعكاس لما تعانیه وتصارعه ، فى صورة الخبر الموجز ، بل الذى يصاغ فى أقصى ما يمكن من إيجاز فى كثير من الأحيان ، ولذلك نجد عمق الصعاليك وكثرة ما يحمله شعرهم من معان ليس فى كثرة الألفاظ أو تعداد المعانى وانما فى الإيحاءات التى يوحىها الصدق والتجربة بأكمل ما يعنيه - لا أقول هذان الاصطلاحان على أنهما من اصطلاحات النقد الأدبى - وانما أقول بأكمل ما يعنيه هذان اللفظان ، لأن صدق الصعاليك ليس مجرد صدق فنى - وانما هو صدق حقيقى ، وتجربتهم ليست تجربة نفسية شعورية فحسب ، وانما هى التجربة الحقيقية الواقعية فى كل ما يعرض فى حياتهم ويعانونه ، بل يصارعونه ، ثم يعكسونه بصورته

فى نفوسهم ليكون شعرا مطابقا كل المطابقة لصورته فى نفوسهم ، ولصورته
فى صراهم معه فى واقع الحياة .

والشنفرى يصف لنا همومه وثقلها على نفسه ، وأن هجومها أقوى من أى
محاولة لردّها ومهما حاول صدها فإنها تأبى إلا أن تعود ، حتى أصبح يعرف
ويترقب مواعيد زيارتها كما يترقب صاحب الحمى المتقطعة زيارة حماء ،
فيقول :

والف هموم ما تزال تعود عيادا كحمى الربيع أو هى أثقل (١)
إذا وردت أصدرتها ثم أنها تشوب فتاتى من تحيت ومن عل (٢)

ومع دقة هذه الصورة عن هموم الشنفرى ، أعنى تصويره لاحتساسه
بالمهم ، مع ذلك نجد أدق ما فيها إحياءات اللفاظ البالغة الإيجاء ، فمثلا لفظ
« ألف » يوحى بأنه أصبح أليفا للهموم معتادا عليها وكذلك « ما تزال » يوحى
باستمرار توارد الهموم عليه وكذلك توعده يوحى بثقل الهموم عليه كأنه مريض
منها ، وكذلك « إذا وردت أصدرتها » يوحى بالصراع العنيف الذى يعانى مريض فى
مد الهموم وجزرها فى نفسه وكذلك « من تحيت ومن عل » تعبير يوحى بأن
الهموم قد لفته وأغرقتة ، وأنها تأتي من مصادر عدة وأسباب مختلفة ، وكذلك
لفظ « تحيت » وحده يوحى بقربها والتصاقها المؤلم به ، وكونها كالغراش ولكن
لا مهرب منه ، بالإضافة الى إحياءات أخرى مثل التأكيد الذى يوحى « تعود
عيادا ، والتفضيل فى « أثقل » والاطلاق فى « عل » بما يوحى من فضاء واسع
قد يكون كله هموما متلاحقة نازلة عليه ، والصورة كلها مع ذلك لها فى جملتها
إحياء خاص فوق إحياء الألفاظ والتراكيب ، وقد يكون ذلك من نواح كالتمثيل
فى هموم الذى يوحى بكثرة الهموم وتنوعها ولكن الذى يستوقفنا بأعجاب أمام
صورة الشنفرى هذه أن يكون علم النفس الحديث مؤيدا للشنفرى فى تشبيهه
عيادة الهموم بعيادة الحمى المتقطعة ، فإن من أحدث ما وصلت اليه بحوث علم
النفس منذ بضع سنوات فقط ، أن الشخص الذى تنتابه الهموم والانقباض
تنتابه فى فترات تردد دورى ، بحيث يستطيع أن يسجل ترددها . وبالتالي
يستطيع أن يعرف مواعيد ترددها (٣) .

ومعنى هذا أن الشنفرى لم يكن متخيلا ولا متكلفا فى صورته هذه عن
الهموم ، وإنما كان معبرا عن واقع يحسه ويعانى منه ، وهذا هو السبب فى أنه

(١) من اللامية وحمى الربيع بكسر الراء المشددة من الحمى التى تأخذ يوما وتدع يومين
ثم تحي يوما ثم تنصرف يومين وهكذا .

(٢) أصدرتها صدوتها وتشوب ترجع وتحيت تصغير تحت .

(٣) أنظر صحيفة الأخبار ، أعداد شهرى إبريل ومايو سنة ١٩٦٣ باب « أخبار العلم »

نظرا عن مجلة أجنبية .

استطاع أن يسبق بمعنى واقعى يبدو فى صورته التى صورها الشنفرى وكأنه خيال شاعر .

ويؤيد هذا أن الشنفرى وإن كان سابقا بهذا المعنى وتصويره ، إلا أنه لم يكن الوحيد الذى صورته من الصعاليك ، فهذا جحدر بن معاوية (١) يعبر عن هذا المعنى بالصورة التى صورها الشنفرى ، وبالمعنى الذى توصل إليه علم النفس الحديث ، حيث يقول وهو فى سجن الحجاج :

تأوينى قبت لها كنعيا هموم ما تفارقنى حوانى (٢)
هى العواد لا عواد قسومى أظن عيادتى فى ذا المكان
إذا ما قلت قد أجلين عنى ثنى ريعانهن على ثنائى
وكان مقر منزلهن قلبى فقد أنفهنه والههم آئى (٣)

ومهما تكن من أسباب عامة لهوم جحدر ، فهناك سبب خاص واضح من أسباب هذه الهوم ، وهو كونه فى السجن حبسا يترقب نهاية رهيبة كما يقول بعد ذلك فى القصيدة .

وتأبط شرا يتحدث أيضا عن الهوم التى تنتابه ، وعن الأرق الذى يعتاده ، وهو وإن لم يوضح هذا المعنى كما وضحه الشنفرى وجحدر ، إلا أنه يصرح به فى قوله « يا عيد » من التعود وفى قوله « ايراق » من الأرق ، مبينا سبب هذا الهم المؤرق ، وهو أنه يعيش حياته طيفا يسرى فى ظلام الليل طراقا للأهوال ، ساريا فوق المخوفات من الحيات وغيرها ، حافى القدمين على هذا السرى الطويل ، وفوق ما يطؤه من مخاوف فيقول :

يا عيد مالك من شوق وايراق ومر طيف على الأهوال طراق (٤)
يسرى على الأين والحيات محتفيا ، نفسى فلأؤك من سار على ساق (٥)
ويشير قيس بن الحداية الى تعود الهوم وتردها عليه ، حيث بدلت حياته بالوداعة والأنس صراعا رهيبا مع الأعداء فيقول :

وبدلت من جلواك يا أم مالك طوارق هم يحتضرن وساديا
وأصبحت بعد الأنس لابس جبة أساقى الكماة الدارعين العواليا (٦)

(١) انظر أمالى القائل ٢٧٧/١ وفيه (لجحدر وكان لصا ميرا فأخذه الحجاج فحبسه .. الخ) وفى الصعاليك جحدران . ابن ضبيعة وهو جاهل ، وابن معاوية وهو معاصر للحجاج فتعين أن يكون المقصود جحدر بن معاوية .

(٢) المصدر السابق ، والكثير المنقبض .

(٣) أنفهنه أعينه وهذا البيت يعتبر سابقا لقول المتنبي فى قصيدة الحمى المشهورة (بذلت لها المطارف والحشايا .. فعافتها وباتت فى عظمى) يعنى الحمى .

(٤) العيد ما يعتاد الانسان والايراق من الارق وطيف يعنى نفسه فى الظلام .

(٥) الأين الكلال والجهد والشطرنج الثانى يعنى لاراحلة له ، المفضليات ٢٧ .

(٦) أعانى الأصفهاني ١٥٤/١٤ وجبة يعنى الدرع ولعل أصلها جنة بالنون والكماة الشجيمان و الدارعون لابسو الدروع والعوالى الرماح ومن الجميل فيه للفظ « أساقى » .

ومالك بن الربيع يعرض بعض الأحداث التي أثارت في نفسه الهم والألم ، ومن ذلك اضطرابه لترك ديار قومه ، وترك ابنته ليسافر الى خراسان مع الوالي (١) طلباً للعيش الذي ضاق في موطنه ، ويصف مالك وداعه لابنته ، وبكاء ابنته في توديعه ، وأثر ذلك في نفسه وصفا مؤثرا بالغ التأثير فيقول لابنته حين رآها تبكي بكاء مرا وهي تودعه :

اسكتي قد حزنت بالدمع قلبي طالما حزن دمعك القلوبسا
فحسبني الله أن يدافع عني ريب ما تحذرين حتى أووبا (٢)
ودعي أن يقطع الآن قلبي أو تريني في رحلتى تعذيبا

وحتى حينما أدركه الموت في رحلته هذه لم ينس الم هذا لوداع المحزن فيقول من مرثيته :

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتى سفارك هذا تاركى لا أباليا
ومرثيته هذه التي قالها عندما أحس الموت في غربته ، تعتبر كلها
أنة حزينة عميقة الحزن ، نفت فيها مالك بن الربيع هموم حياته كلها ، ومشاعر
حاضره كله ، وصاغ ذلك كله في أبيات تحدثت من فمه كما تتحدث دموع حرى
من مآقيها (٣)

وأبو خراش انبعثت له في حياته أحداث كثيرة أثارت الهموم والأحزان
في نفسه ، وملأت قلبه كآبة وانقباضا ، ومن ذلك فقد فقه لبعض أخوته الذين
يقول عن فقدهم :

فقدت بنى لبنى فلما فقدتهم صبرت ولم أقطع عليهم أباجلى (٤)
وأشد ما ملأ نفسه حزنا وهما فقد أخيه عروة ، الذى كان ساعدا له في
حياته ، والذى كان يرجيه لعظائم أموره ، حتى أنه كان يتصور أن مما يهون
عليه الموت شعوره بأن وراءه سندا هو عروة حيث يقول لعروة قبل مقتله •
لعلك نافعى يا عرو يوما إذا جاورت من تحت القبور (٥)
إذا راحوا سواى وأسلمونى تحشاء الحجارة كالبعير
ولكن الأمر انعكس ، فعروة هو الذى مات قتيلاً قبل أبى خراش فحزن
عليه أبو خراش حزنا عميقا متصلا ، فمرة يقول عنه •

(١) سعيد بن عثمان بن عفان •

(٢) ما تحذرين يعنى الموت وأزوب أرجع والأبيات في مذهب الأغاني ١٥/٥ •

(٣) القصيدة سبق ذكرها عند الاختلاف في شعرهم •

(٤) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ والأبجل أحد المروق •

(٥) ديوان الهذليين ١٣٦/٢ ومن بمعنى الذين وتحشاء الحجارة يعنى الحفرة والبعير تشبيه

للغير بالجميل البارك •

فوالله لا أنسى قتيلا وزنته بجانب قوسي مامشيت على الأرض (١)
ويصور أبو خراش تجدد حزنه وهمه على فقد عروة كلما تذكر مبيتها
أو مقيلا جمعهما ، ويصور الهموم التي تعاوده كلما طلع عليه صباح ، فيقول
مخاطبا امرأة عروة :

ولا تحسبي أنني تناسيت عهدك ولكن صبري يا أميم جميل
ألم تعلمي أن قد تفرق قبلتسا خيلا صفاء مالك وعقيل (٢)
أبي الصبر أنني لا يزال يهيجني مبيت لنا - فيما خلا - ومقيل
وأنى إذا ما الصبح آنست ضوؤه يعاودني قطع على ثقيل (٣)

وقد تجمعت هموم أبي خراش كلها ، وحزنه كله في صورة رثائه لقريبه
خالد بن زهير ، ومن الواضح أنه ليس حزنه على زهير وحده مصدر هذه الهموم
الطاحنة التي يعانيتها ، وإنما هي إحدى المناسبات التي يبيع لنفسه أن يتحدث
فيها إلى الناس بهوموه وأحزانه الكثيرة ، قديمها وحديثها ، مقنعا إياها
بقناع المناسبة التي يتحدث فيها فيقول من شعره في هذه المناسبة ، وكما
قال آنفا « يعاودني » معبرا عن اعتياد الهموم وتردها ، فكذلك يكرر هذا
المعنى في قوله :

فباتت تراعي النجم عين مريضة لما عاليا واعتادها الحزن بالسقم (٤)
وما بعد أن قد هدنتي الدهر همة تضال لها جسمي ورق لها عظمي (٥)
وما قد أصاب العظم مني مخامر من الداء داء مستكن على كلم (٦)
وأن قد بلغ مني لما قد أصابني من الحزن أنني ساهم الوجه ذوهم
شديد الأسى بادي الشحوب كأنني أخو جنة يعتاده الحبل في الجسم (٧)

ومالك بن حريم الهمداني يستعرض همومه وأحزانه على قتل أخيه أيضا ،
ويقارن همه وحزنه بحزن الناس فلا يرى له مثيلا مهما كانت دواعي الحزن
المألوفة لديهم ، حتى أصبح « ينظر في وجه الرجال فلا يعرف شيئا » وحتى
أصبح الفراش غريبا عليه ، لأنه لم يمد ياله مضجعا فيقول :

لا أسمع اللهو في الحديث ولا ينفعني في الفراش مضطجع
لا وجد لكلي كما وجدت ولا وجد عجول أضلها ربيع
أو وجد شيخ أضل ناقته يوم رواح الحجيج إذا دفعوا

(١) المصدر السابق ١٥٨/٢ وقوسي موفح .

(٢) شصان يضرب بهما الثل من غابر الأم .

(٣) ديوان الهذليين ١١٦/٢ ، ١١٧ .

(٤) ديوان الهذليين ١٥١/٢ ، ١٥٢ ومالها أثقلها وبلغ منها .

(٥) تضال تضال ورق عظمي نحل جسمي .

(٦) مخامر داء مستكن ملازم والكلم الجرح .

(٧) الأسى الحزن والجنة من الجنون والحبل بسكوه الباب فساد العقل والجسم ، وفيه

إشارة واضحة في الاتفاق مع الشيلري وجعده في تصويرها السابق للهموم .

ينظر في وجه الرجال فلا يعرف شيئاً فالوجه ملتحم (١)

وكذلك عبيد الله بن الحر يتحدث عن فلق الهم قلبه فيقول :

فلو فلق التلهف قلب حتى لهم اليوم قلبي بانفلاق (٢)

وهذا سجين من الصعاليك يصف ما يورده عليه السجن من هموم مختلفة ، وما يذكره به من ذكريات مؤلمة فيقول :

أقيد وحبس واغتراب وفرقة وهجر حبيب ان ذا لعظيم (٣)

وهكذا نجد الهموم كثيرة متلاحقة في نفوس الصعاليك ، وهي وإن اختلفت أسبابها وتنوعت مثيراتها إلا أنها في نهايتها هموم تتوالى عليهم ، وتمثل جانبا مهما من جوانب صراعهم في الجوانب المختلفة من حياتهم ، ومع ذلك فحين تتأمل همومهم وأسبابها المباشرة ، قلما نجد ثقل الهموم التي يعانونها مناسبة للسبب المباشر الذي يذكرونه ومن هذه الأسباب القليلة المناسبة لما يذكرونه من هموم قول أبي الطمحان :

أرقت وآبتي الهموم الطوارق ولم يلق مالاقيت قبلي عاشق (٤)

فمثل هذا النوع المألوف ، والذي يتناسب مع السبب المقرون به قليل جدا في شعرهم ، أما الغالب فهو هموم ثقيلة الوطأة ، مضنية للنفس ، طاحنة في القلب ، ككتير مما مثلنا ، ومثل هذا النوع من الهموم لا نستطيع أن نفتتح بأن مصدره سبب معين مباشر ، وإنما المعقول أنها هموم دفيئة كثيرة ، متعددة الأسباب والدوافع في نفوسهم ، وأن الأسباب المباشرة التي يذكرونها إنما هي مفتاح تفتح به مخازن ضخمة لهموم كثيرة دفيئة .

الوحوش

ومن الواضح أن بين الصعاليك بحكم اعتماد حياتهم على التنقل في الصحراوات والتخفي بها وبين الوحوش احتكاكا مباشرا . ولذلك نجد الحديث عن الوحوش شائعا بارزا في شعرهم ، بل لا يكاد شاعر يخلو شعره من حديث عن الوحوش ، بل أكثر من هذا أننا لا نكاد نجد قصيدة كاملة تخلو من الحديث عن الوحوش ، إذا صرفنا النظر عن المقطوعات التي بلفتنا لأنها قبلت مقطوعات

(١) أمال القائل ١٢٠/٢ وربع في البيت الثاني يعنى ضالة في مكان مفضل ومن معاني

الربع المنزل والمكان .

(٢) خزائن البغدادى ١٨/٢ في رداء الحسين بن علي .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ .

(٤) مهذب الأغاني ٣٦/١ .

أو لأنه لم يصلنا منها الا هذا القدر من الآيات، وليس من ريب في أن الوحش من أعداء الانسان ، ان لم يكن من أخطر أعدائه .

ولكن الذى يلفت نظرنا فى حديث الصعاليك عن الوحوش على كثرته أنه مسوق فى غير الصورة التى نتوقعها ، فالواقع أن الصعاليك لا يبدون خوفا من الوحوش ولا يظهر من شعرهم أنهم يعتبرون الوحوش خطرا فى حياتهم او مصدر قلق لهم كما يتبادر الى أذهاننا ، بل نجد حديثهم عن الوحوش يأخذ طابعين ، الطابع الأغلب ، وهو عكس ما نتوقع تماما ، حيث نراهم فيه يأنسون الى الوحوش ويمتدحونها وكثير منهم يعتز بجوارها وخلقها ويبدو فى حديثه وكأنه يتغزل فيها ، والطابع الثانى وهو الأقل ، نجد فيه حديثهم عن الوحوش عاديا ، يصفونها ويصفون حياتها وبعض خلقها ، وأحيانا قليلة خطورتها ، ولكنهم أيضا لا يتحدثون عنها على أنها مصدر خطر عليهم ، أو على أنها عدو يشغل بالهم كما تحدثوا عن مجالات كثيرة للصراع والعداء وسواء كان هذا أو ذاك فانه مما لا شك فيه ان شعرهم لا ينبىء عن أنهم يعتبرون الوحوش خطرا عليهم ، أو أنهم يضيقون بجوارها أو توقع لقاءها أو ترقب هجومها أو غير ذلك ، بل على العكس الذى يظهره شعرهم أنهم يأنسون اليها ، أو يرون جوارها شيئا عاديا على أقل تقدير ، هذا لا مجال للشك فيه كما يبدو واضحا من شعرهم ، ولكن هل يمكن أن نعتبر هذا أمرا عاديا لا يحتاج الى تفكير أو تحليل ؟ ومن حق المجيب عن هذا أن يجيب بأن هذا الحديث من الصعاليك عن الوحوش لا يمثل حقيقة احساسهم ، وأنهم يحاولون تغطية شعورهم الحقيقى وهو الخوف من الوحوش متعنين اياه بقناع من أحاديث الشجاعة والجرأة وعدم الخوف من الوحوش ، ومن حق معترض أن يعترض على هذا المجيب ، بأن الصعاليك لم يظهرها فى حديثهم عن الوحوش شجاعة أو بأسا ، ولم يتخذوا من هذا المجال ميدان فخر لهم حتى تنتهمهم بأنهم ينسجون لأنفسهم أثواب بطولة غير حقيقية يغطون بها خوفهم من الوحوش ، فلم يكن حديثهم عن الوحوش أنهم قاهرون لهذه الوحوش ، وانما يريدون أن يقولوا : الوحوش أهلنا وأصدقائنا وجوارهم خير لنا من جوار البشر . ومن حق مجيب آخر عن السؤال أن يجيب بأن الانسان ابن بيئته كما يقول علماء الاجتماع ، والناس ينفرون من الوحوش ويرون فيها نكرا منكرا لأنها بيئة غير بيئتهم ، أما الصعاليك فالامر بالنسبة لهم عكس ذلك ، لقد هجروا من جملتهم بيئة الناس ، ليس بأجسامهم ومعيشتهم فقط ، وانما بنفوسهم وعواطفهم أيضا ، بمعنى أنهم أصبحوا أعداء كارهين للناس ومجتمعاتهم ، وأصبحت بيئتهم التى يعيشون فيها بأجسامهم ونفوسهم وأمالهم هى بيئة الوحوش فليس غريبا أن يحاولوا التكيف مع الوحوش ، فيروا فيها من الفضائل ما لا يراه غيرهم ، ويروا فيها مخلوقات تشاركهم آلام البيئة وأمالها ، بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من حقيقة لا تجوز فيها ، بل ليس غريبا أن يتابع بعضهم هذا المنطق فيرى فى الوحوش بيئته التى يألفها كل الالف ،

ويرى فى الناس بيئة غريبة عليه ينكرها كل الانكار ، كما نكر نحن الوحوش ،
لانها بيئة غريبة علينا . ومن هذا البعض الأحيى السعدى الذى يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت اطمير (١)

وقد يجيب عن السؤال السابق مجيب ساخط على الناس ، بأن الوحوش
ليست من النكر بالدرجة التى تصورها أو نتصورها ، وان فى الحيوان من
الفضائل ما يخلج أخلاق البشر ، أليس فى الحيوان ما يضرب به المثل فى
الوفاء ، فى حين يغدر الناس بعضهم ببعض لأتفه المطامع ؟ وأليس الحيوان
أعف من بنى آدم فرجا ، حيث لا يتناكحن الا لبقاء النوع بالحمل ، فى حين يملأ
بنو آدم أرضهم تننا بفضائح الاعراض والفروج ؟ وأليس الحيوان أملاً نفساً بالقناعة
والرضا ، حيث لا يطلب رزقا الا حينما يجوع ، فاذا شبع كان عفيفاً زاهداً
مهما أغرت المغريات ، فى حين لا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ، وفى حين يسعى
الشبعان المتخمخة خزائنه منهم ، ليفتصب لقمة الجائع الهزيل ؟ ، وقد يضيف
هذا المجيب بأنه اذا كان الناس يعلمون ذلك وغيره من فضائل الحيوان ويضربون
ببعضه الأمثال فان هناك فضائل أخرى للحيوان قد تكون أكرم وأسمى ، ولكنهم
لا يحسونها لأنها فى بيئة غريبة عليهم ، فلم لا يكون الصعاليك يعيشهم
فى تلك البيئة وتكيفهم معها قد أحسوا تلك الفضائل فأنسوا إليها وآثروها ،
حتى زادتهم رغبة فى جوارها والقرب منها ، ورغبة فى البعد عن مجتمعات
البشر ، وآية ذلك هذا الألف والود الذى يبدو واضحاً بينهم وبين الوحوش ، فى
حديثهم عنها ؟

وقد يجيب مجيب آخر بغير ذلك ، ولكنى أقول لهذا وذاك ، فلننظر
بعض شعرهم ، فقد يهديننا الى جواب آخر ، وقد نجد فيه هو الجواب ، فيكفيها
جهدهم الخلاق ، وحين نذهب الى شعر الصعاليك ، نقول أولاً أنهم تحدثوا عن
كثير من الحيوان الذى يعيش فى الصحراء وحشياً ، سواء أكان مفترساً
أم غير مفترس ، بل لا نعلم أن حيواناً من حيوانات بيتهم لم يتحدثوا عنه ،
وفى كتاب الحيوان للجاحظ مجموعة من شعرهم عن حيوانات مختلفة ،
يتفق كثير من حديثهم عن هذه الحيوانات مع معلومات بيتهم عنها ومع الأمثال
المضروبة بهذه الحيوانات (٢) ولكن معظم حديثهم عن الحيوانات غير المفترسة
كان حديثاً عارضاً غير مقصود لذاته ، يسوقه فى سياق مثل أو تشبيه ، كما
يقول عبيد بن أيوب مشيراً الى زعم العرب أن الضب يصبر على العطش أمداً
طويلاً ، والى أسطورة عن فرخ الضب والصفدع يرويها الجاحظ :

ظلت وناقتي نضوى فلاة كفرخ الضب لا يبغى وروداً (٣)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٣ .

(٢) أنظر مجمع الأمثال للميداني وخاصة ما جاء على أفعال من الأبواب المختلفة .

(٣) أنظر الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ .

وفى الهجاء تشبيها بالضرب (١) ، وكذلك القنفذ (٢) والغراب فى ضرب
المثل بحدّة بصره (٣) والقارة تشبيها بها فى الهجاء (٤) والأرنب (٥) والظبي
فى الصيد (٦) .

ولكن حديث الحيوانات المفترسة كان أحظى وأكثر اهتماماً ، فهم حتى وإن
ساقوه خلال غرض آخر إلا أنهم عندما يتحدثون عن هذه الوحوش يتوقفون وقفة
متأنية لتتال من حديثهم قدراً غير يسير ، فالشنفرى مثلاً فى سياق حديثه
عن سخطه العارم على الناس ، وتصميمه على أن يهجرهم الى مجتمع آخر ، ننظر
فاذا المجتمع الآخر هو مجتمع الوحوش ، وإذا هو يتحدث عنها لا حديث الخائف
الوجل ، ولا النافر المتوجس ، وإنما حديث الألف والود والاعجاب فيقول
مخاطباً الناس جميعاً فى لاميته :

ولى دونكم أهلون سيد علسى وأرقت زهلول وعرفاء جبال (٧)
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
وكل أبى باسل غير أننى اذا عرضت أولى الطرائد أبسل (٨)

فهو إذن يهجر الناس الى بيئة الوحوش ، ثم يرى فى الوحوش أهلاً
كراماً لا يذعن سرا ، ولا يخذلن جانياً ، ثم يبدأ فى التكيف النفسى معهن ،
جامعاً بينه وبينهن فى معيشة مشتركة وسباق مشترك فى المعيشة ، وهذه
الشركة فى الحياة والآمال أقوى روابط التكيف الاجتماعى ومن هذه الزاوية
لا يكون حديث الصعاليك عن الفهم مع الوحوش خيالا أو مجازاً أو أى شئ غير
الحقيقة وإن لم تكن حقيقة كاملة ، ويوضح الشنفرى بعد ذلك فى القصيدة
نفسها هذه المشاركة مشبها حياته وسعيه لطلب العيش فى الصحراء ، بحياة
الذئب وطلبه للعيش فيقول :

واغلو على القوت الزهيد كما غدا أزل تهاده التناثف اطحل (٩)
وتزايد هذه المشاركة والآلفة بينه وبين الوحوش حتى تنتهى الى التوافق
بينهما ، وكأنه واحد منها كما يقول فى آخر القصيدة إن أثار الوحوش
الفتة كأنه ذكرها :

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٦٧/٦ ، ١١٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ١٦٦/٤ ، ١٦٧ .

(٣) المصدر السابق ٤٢١/٣ .

(٤) المصدر السابق ٢٦٣/٥ .

(٥) انظر مذهب الأغاني ٩٣/١ .

(٦) مذهب الأغاني ٩٣/١ .

(٧) السيد العلسى الذئب القوي وأرقت زهلول نمر ألس وعرفاء جبال ضبع طويلة .

(٨) يقارن بينه وبين الوحوش قائلاً مع بسالتها فانا أسرع منها الى الصيد .

(٩) الأزل الذئب الخفيف الوركين والتنولة المفازة والاطحل الأغبر اللون وبعده آيات مكملة

للمعنى .

ترود الأراوى الصبح حولي كأنها . عذارى عليهن الملاء المذيل (١)
ويركن بالأصاال حولي كأنني من العصم أدنى ينتحي الكيخ اعقل (٢)

وعبيد بن أيوب يصف أيضا مراحل الفتة مع الوحوش ، قائلا انه من أنكره أول الأمر ، فلما تعودن عليه ألفنه ، وازداد هذا الألف توتقحين شاركن جفاف الحياة وصعوبة العيش فيقول :

فاجفلن نفرا ثم قلن ابن بللة قليل الأذى امسى لكن مصافيسا
أكلت عروق الشرى معكن والتوى بحلقى نور القفر حتى ورائيسا (٣)

ويؤكد عبيد حلفه للوحوش ، ولكن هذا الحلف لا يعنى تخلى كل منهما عن طبعه ، فإذا بدر الطبع من أحدهما فالآخر متيقظ له فيقول :

وحالفت الوحوش وحالفتنى بقرب عهدهن وبالبعد
وامسى الذئب يرصدنى مخشا لخفة ضربتى ولضعف أدى (٤)

ويتحدث الاحيمر السعدى عن حياته مع الوحوش فى القفار حين خلعه قومه وطارده السلطان فيقول :

« كنت أرى النوى فع رجيع الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى لأنها لم تر أحدا قبلى ٠٠ » (٥) ويؤكد هذا بقوله :
عوى الذئب فاستانست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكنت أظير (٦)

وتأبط شرا أيضا يتحدث عن ألف الوحوش له ، وأطوار هذا الألف ، فيقول ان الوحوش تعودت رؤيته ليل نهار ، بل تعودت أن يبيت بمرأى منها ، فالفته لتعودها رؤيته ، ولكونها لم تجد منه أذى أو تعرضا لها فى معيشتها ، تحول الألف بينها وبينه الى ما يشبه الود ، حتى انها لتوشك أن تسلم عليه لو كانت تحسن السلام فيقول :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا (٧)
ثم رأين فتى لا صيد وحش يهمه فلو صافحت أنسا لصافحته معا (٨)

(١) ترود تذهب وتجرى والأراوى أننى الرعل والصبح السود الى صفرة والملاء نوع من الثياب .

(٢) الأصاال جمع أصيل والأعصم الرعل فى ذراعه بياض والأدنى طويل القرن وينتحي يقصد والكيخ عرض الجبل وسننه والاعقل الممتنع .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١٥٩/٦ .

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣/٢٩٠ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الغانجى مع اختلاف يسير فى الألفاظ .

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الغانجى .

(٧) حساسة أبى تمام ١٩٠/١ والمغنى مكان النزول والسطر الثانى يعنى لا يمنحها من مرتع لها .

(٨) السطر الأول يعنى رأينه منصرفا من صيدهن الى شىء آخر .

فهذا الفريق من الصعاليك الذي مثلنا له بما سبق لا يرى فى الوحوش عدوا ، بل يرى فيه أهلا أو شريك حياة أو جارا غير لئيم على أدنى الفروض ، ولا يرى فى صلتها بها عدا ولا صراعا ، وإنما يرى ألفا وودا أو سـلاما على أقل الفروض .

وهناك فريق آخر من الصعاليك ، لا يرى فى جوار الوحوش ألفا ولا ودا ، ولكنه أيضا لا يرى فيه عدا ولا صراعا صريحا ، وإنما نحس أن فيه مجرد الرمية والتوجس ، أو لحذر على أبعد الفروض ، فما لك بن الريب يتحدث عن البيئة التى اضطرت الصعلكة الى ملازمتها والعيش فيها فيقول :

لما ترى الدار قفرا لا أنيس بها الا الوحوش وأمسى أهلها احتملا (١)

وحتى حينما عدا ذئب عليه ليغتاله فقتله بسيفه ، اعتبر مالك هذا الحادث فرديا ، فلم تشعر أنه غير رايه أو أظهر رأيا أو مشاعر نحو الوحوش كلها ، وإنما قصر حديثه على الذئب الذى عدا عليه وحده ، بل أكثر من هذا لم يندم الذئب بأكثر من قوله « أذئب الفضا قد صرت للناس ضحكة » (٢) ، بل مدحه فى مقابلة مدح نفسه بقوله :

فانت وإن كنت الجرى جنانه منيت بضرغام من الأسد الغلب (٣)

ولكن المهم أن هذه الحادثة لم ينعكس أثرها فى نفسه على نوع الوحوش كله وأكثر ما بلغنا من شعر الصعاليك عن الوحوش وعن البيئة بصفة عامة فى ثوب الصلق والواقعية الحقة كان من شعر صعاليك هذيل وشعر الشنفرى ، وقد مثلنا من شعر الشنفرى واتجاهه نحو الوحوش .

وأما صعاليك هذيل فنجد فى شعرهم طابع المعاناة الحقيقية لحياة الوحوش والفها ومراقبتها عن كثب ، وفى شعرهم صور رائعة عن بعض الوحوش ، تمثل لوحات فنية فى أدق صورها وقد أشرنا الى شىء من ذلك فيما سبق .

وصخر الفى يرسم لوحة من هذه اللوحات ، تمثل حمارى وحش ، ويبدأ منظرهما فى روضة من أعشاب الصحراء يرعيان فيها ، وبعد أن شبعوا تهيأ لطلب الماء يشربان ، وقربا من الماء ، ولكنهما أحسا صائدا يرصدهما ، فدارا والتفسا حتى بعدا عن الماء ، ثم صعدا مرتفعا غليظا من الأرض ، ثم انحدرتا بقوة ، وهما ما يزالان فى بحثهما عن ماء آمن ، وظلا طول الليل هكذا ، وحينما أطل عليهما الصباح ، ظنا أن أزمتهما قد فرجت ، ولكنها كانت فى الواقع أزمة جديدة فيها الردى لهما ، إذ فوجئتا بخيل الصائدين تشيم الرماح فى صدورهما فيقول :

ولا علبان يتسابان روضا نفسيرا نبتة عما تؤامسا (٤)

(١) انظر مذهب الأغاني ١٠/٥ .

(٢) انظر مذهب الأغاني ١٦/٥ البيت الأول من القصيدة .

(٣) المصدر السابق « البيت الثانى من القصيدة »

(٤) ديوان الهذليين ٦٣/٢ - ٦٦ والملج حمار الوحش والمم بضم الميم تام النبات وتوام مزدوج .

كلا العليين أصغر صيعرى تغال نسيل متنيه اشغاما (١)

الى آخر هذه الصورة ، والذي يعيننا منها أنه ساقها مسباق المرنيات التي يشاهدها ويتتبع أحوالها ، ثم ترى علاقته بها ، انها علاقة لا يتحدث فيها عن صراع ولا عداء الا فى حالة واحدة ، هي حالة الصيد ، حينما يحتاج الى أن يصيد ، وهو يصف نفسه صائدا فيقول :

أتيح لها أقيدر ذو خشيف إذا سامت على الملقات ساما (٢)
خفى الشخص مقتدر عليها يشن على ثمالها السما (٣)
فيبدرها شرائعها فيرمى مقاتلها فيسقيها الزواما (٤)

فهذه صورة صراع مع نوع من الوحوش ، ولكنه صراع الخائف أو المدافع عن النفس ، وانما صراع الصائد المهاجم ، الذى يسقى صيده الموت الزوام كما قال :

والأعلم الهدى يخشى الضبع ، ولكنه لا يخشاها وهو حى قوى ، وانما يخشى سطوها على جثمانه لو صرعه أعداؤه ثم تركوه جزرا للوحوش من ضبع وذئب وتعلب وكذلك الطير ، ولكن ذهنه تركز على الضبع لشهرتها بتتبع الجيف ، فتصور نفسه جثة ملقاة ، تتجمع حولها ضباع سود كأن جلودهن ثياب رهبان فى سوادها ، ذات آذان طويلة كأنها مغارف الطعام ، يعملن فى نزع جلده كما يعمل القن فى غمد السيف ، ولا يكتفين بأن يأكلن منه ، وانما يجررن جثته الى جرائهن الصغار اللاتي تركهن وراءهن كما يقول :

فاكون صيدهم بها وأصير للضبع السواغب (٥)
جزرا وللطير المربة والذئاب وللشعالب
وتجر مجرية لها لحمى الى أجر حواشب (٦)
سود سحاحيل كان جلودهن ثياب راهب (٧)
آذانهن اذا احتضر نقريسة مثل الماذنب (٨)

- (١) أصغر صيعرى لاوى العنق والنسيل ما تطاير من شعره والنعام نبات جاف .
(٢) المصدر السابق ٣٦٢/٢ وأقيدر قصير العنق والحشيف الثوب الخلق والملقات جمع ملقة المكان الأملس .
(٣) خفى مختبئ لصيدها ومقتدر قادر ويشن يصبب والثمال مواضع الطعام يصيبها منها والسمام روى السهام .
(٤) الزوام الموت العاجل . والوحوش التى يعينها فى الأليات الوعول والنعام كما ذكر فى بيت سابق .

- (٥) ديوان الهدلين ٧٩/٢ ، ٨٠ والسواغب الجياح .
(٦) مجرية ذات جراء هي صغارها وحواشب متفخات البطون .
(٧) سحاحيل يريد ضخمة .
(٨) الماذنب مغارف الطعام .

ينزع عن جلد المرء نزع . ع القين أخلاق المذاهب (١)

ومثل هذا المعنى يرأود الشنفرى فى تصويره ان أعداءه سيقتلونه ، ويحملون رأسه ، ثم يتركون جسده للضباع (٢) .

ونخرج من هذا الحديث بان نقول انه لا يبدو من شعر الصعاليك انهم كانوا يعتبرون الوحوش على خطورتها مشكلا أساسيا فى حياتهم ، أو عقبة فى سبيل صعلكتهم ، حتى أننا نرى مشاكل أخرى قد تبدو أيسر من الوحوش كالحصول على الطعام والماء كانت تشغل حياتهم وتؤرقهم أكثر مما تشغلهم الوحوش ، وقد يكون لمعيشتهم فى بيئة الوحوش والفهم لها ، وشعورهم النفسى بأنها البيئة التى لا مفر لهم منها أثر فى وجود شيء من التقارب بينهم وبين الوحوش من حيث الالف ، وذوبان شيء من النفور الطبعى بين مجتمع الناس والوحوش ، ولكن ذلك كله لا ينفى خطورة الوحوش ، ولا احساسهم بالتوجس منها ، والمحاذرة من طبعها ، أعنى لا يعنى جهلهم أو تجاهلهم طبيعة الوحوش .

الوهم

فى المجتمعات البدائية تشيع الخرافات والأساطير ، يلقتها الطفل مع نظامه ، وتظل عالقة بذاكرته مهما أنست الأيام أياها ، فإذا أحاط به ظرف يساعد على ظهورها برزت فى ذاكرته وخياله الى الوجود ، بل الى التأثير فى نفسيته وسلوكه وإدراكه أو احساسه .

ومن هذه الخرافات فى المجتمعات البدائية وخاصة البادية ، الغيلان والسعالى ، والصور المختلفة للجن .

وحين نتحدث عن هذه الخرافات بالنسبة للصعاليك لا نستطيع التعميم ، فالواقع أننا حين نستعرض شعرهم نجد قلة قليلة هى التى تحدثت عن هذه الخرافات كشيء فى حياتها ، بل لعلنا لا نعدو الواقع اذا قلنا أن اللذين تحدثا عن الخرافات بهذه الصورة هما عبيد بن أيوب العنبرى وتابط شرا على وجه التحديد .

فأما عبيد بن أيوب فقد تحدث كثيرا فى شعره عن خرافات كثيرة كالغول والسعلاة ، والجن لا على أنها أشياء موجودة فحسب ، فلو كان الأمر كذلك لاختلف الحديث عنه ، ولكنه تحدث كثيرا عن أنه حالف هذه المخلوقات وعاشرها وجاورها ، أو صارعها وقتلها ، فى صور لا شك قط نى أنها أبعد ما تكون عن الحقيقة وعن أدنى مراحل العقل فى تصديقها .

(١) القين الحداد والخلق البالى والمذاهب الحل المذمبة على جن السيف .

(٢) انظر حساسة أبى تمام ١٨٨/١ .

فهو يتحدث عن الغول مثلا بأنه رافقها بعد أن أوقدت حوله نارا وظلت
ترن بألحان مختلفة فيقول :

ولله در الغول انى رفيقها لصاحب قفر خائف يتستتر
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تبوخ وتزهر (١)

بل يزيد الأمر تفصيلا فيصف أنه لقي غولين ذكرا وأنثى فيقول :

وحالفت الوحوش وحالفتنى - بقرب عهدهن وبالبعاد
ثم - وغولا قفرة ذكر وأنثى كان عليهما قطع البجاد (٢)

وفى مرة أخرى لم يأنس الى الغول ، وإنما لقيت منه الدواهى كما
يقول :

ولقد لقيت منى السباع بلية وقد لاقت الفيلان منى الدواهى (٣)

ومرة يتحدث عن السعلاة والغول فيقول :

وساخرة منى ولو أن عينها رات ما الأقيه من الهول جنت
أزل وسعلاة وغولا قفرة اذا الليل وارى الجن فيه أرنت (٤)

ويتحدث عن صفاته مع الغول بعد عدائهما فيقول :

وصار خليل الغول بعد عداوة صفيا وربته القفار البسابس (٥)

ثم يتحدث عن حلقه مع الجن بعد هجره الأنس ، وعن أن هذا الحلف
كان ناجحا قويا لأنه هو شبيه بالجن فى شكله وشمائله فيقول :

أخو قفرات حالف الجن وائتلى من الانس حتى قد تقضت وسائله
له نسب الانسى يعرف نجله وللجن منه خلقه وشمائله (٦)

وينكر على أعدائه أن يغيروا عليه وهو الذى « يثير الجن وهى هجود »
كما يقول :

أقل بنو الانسان حتى اغرتم على من يثير الجن وهى هجود ؟ (٧)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجي وفى الحيوان للجاحظ ٤٨٢/٤ برواية

خائف متقفر ، وقفر • مكان متقفر •

(٢) الحيوان للجاحظ ١٥٩/٦ •

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ •

(٤) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ •

(٥) المصدر السابق •

(٦) المصدر السابق •

(٧) المصدر السابق ١٦٦/٦ وأكل استلهم بمعنى حل لال •

ويزعم أنه أصبح معروفا بأنه خليل الغول فيقول :

تقول وقد الممت بالانس لمسة مغضبة الاطراف خرس الخلاخل
اهذا خليل الغول والذئب والذي يهيم بربات الحبال الكواهل ؟ (١)

واما تأبط شرا فلم يبلغ ما بلغه عبيد بن أيوب من الوهم والاسراف في الخيال ، وانما هي حادثة واحدة ، تحدث عنها تأبط شرا في شعره بأنه قتل فيها الغول ، ولكونها حادثة واحدة قلنا فيما سبق انه من الناحية النظرية ، اذا نظرنا الى خبر كهذا فليس من الحتم أن نكذب دعواه ، لجواز أن يكون قد قتل حيوانا غريبا في الصحراء ، تمثل من شكله أنه الغول كما ارتسمت في خياله ولكننا من الناحية التطبيقية حين نرى حديثه عن هذا الحادث لا نجد مقرا من عمله على الوهم ومجانبة الواقع والحقيقة ، ومن الحديث العادي الذي يمكن معه محاولة الدفاع عن تأبط شرا قوله :

الا من مبلغ فتیان فهم بما لا قيت يوم وحى بطنان
باني قد لقيت الغول تهوى بقفر كالمصيفة صحصحان (٢)

ومن الحديث المسرف الذي لا يترك مجالا للدفاع عن تأبط شرا ، قوله انه جاور الغول وتامل خلقتها ، بل وطالبها بضعها حيث يقول :

فاصبحت والغول لي جارة فيا جارتا انت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت بوجه تهول فاستنولا (٣)

واذن فهذا النوع لا يمثل واقعا ولا حقيقة ، بل ولا استنادا الى شيء من الحقيقة ، وانما يمثل مجرد أوهام وخیالات بحتة .

ومع أن هذا النوع من الوهم لا يمثل ظاهرة عامة في الصعاليك ، وانما هو من قبيل الحالات الفردية التي يمكن أن تكون الى الشذوذ في محيط الصعاليك أقرب منها الى الظاهرة العامة بينهم ، نقول مع ذلك فهو في حاجة الى التعليل ، وفي محاولة تعليل هذا الوهم نعود فنقول ان بذوره من غرس الأساطير والخرافات التي تشيع في المجتمعات البدائية ، وخاصة البوادي ، حيث يلقتها الصغار مع أقاصيص الطقولة ، ثم تظل متداولة بين السذج والبسطاء ، وحين ينمو الطفل وتنضج شخصيته يحاول أن يتناسى هذه الخرافات والأساطير التي علقت بذاكرته طفلا ، ولكن هناك ظروفنا يمكن أن تستخرج صور هذه الأساطير من الذاكرة وتميدها ماثلة أمام الأعين ، وأكمل هذه الظروف وأصلحها لبروز الخرافات والأساطير حياة الصعاليك ، التي يعيشها معظمهم وحيدا أو شبيها

(١) المصدر السابق .

(٢) مجم ما استجيم للبكري ٢٥٧/١ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والجمع الفرج .

بالوحيد ، فى صحراء مقفرة فيها كل عوامل الوحشة والخوف والرغبة الى ابعاد حدودها ، هذه الحياة التى يرسم الاحيمر السعدى صورة منها ، كما يروى ابن قتيبة فيقول ، « وكان لصا كثير الجنائيات ، وخلعه قومه فخاف السلطان وهرب ، وخرج الى الفلوات ، وقفار الأرض . وقال : انى ظننت انى قد جرت نخل وبار (١) أو قد قربت منها وذلك انى كنت أرى فى رجيع الذئب النوى ، وصرت الى مواضع لم يصل اليها احد قط ، وكذت أغشى الظباء وغيرها من بهائم الوحش فلا تنفر منى لأنها لم تر غيرى قط ، وكنت آخذ منها لطعامي ما شئت الا النعام فانى لم أره قط الا شاردا نادا » (٢) ومهما يكن فى هذا من المبالغة أو شئ من الوهم الذى نتحدث عنه ، فانه يدل على حياة الوحشة والوحشة والرغبة التى يعيشها بعض الصعاليك وهذه الحياة هى التى نعى أنها أهم الظروف التى تساعد على تجسيد الخرافات والأوهام .

ومن هذا نقول ان حياة الصعاليك وبيئتهم تساعد على ظهور الخرافات والأوهام ، وأنها لو كانت شائعة بينهم لما كان ذلك غريبا ، بل يكون هو النتيجة الطبيعية المنتظرة ، خاصة وأنه صاحب وحشة البيئة ومخاوفها ووحدتهم فيها شعور عام بينهم بأنهم مطاردون ، مطاردة مطلقة مرتقبة من كل الوجوه ، من الأعداء وغير الأعداء كما سبق ، وهو شعور نفسى ثقيل الوطأة ، خطير الأثر ، وقد صور القرآن الكريم أثر هذا الشعور فى المنافقين بأنه يبلغ منهم أن يتصوروا أن كل صيحة انما هى خطر متجه اليهم ، حيث يقول تبارك وتعالى « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » (٣) وهو تحليل نفسى بالغ العمق والتعبير ، وقد كان هذا المعنى مورد للشعراء ينسجون على منواله ، وقد عدد المفسرون كثيرا من الشعراء الذين أخذوا من هذا المعنى (٤) وهذه الآية يمكن أن تكون تفسيراً للوهم الذى نتحدث عنه ، من حيث ان الشعور بالمطاردة - وهو أعمق وأوسع من مجرد الخوف - حينما يتمكن من النفس يفقد لها اتزان الادراك وسلامة الشعور فيتولد فيها الوهم مختلطا بالحقيقة ، كما توهم المنافقون تحت وطأة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم .

ومن حق معترض أن يعترض هنا بأنه اذا كان الأمر كذلك فقد كان ينبغي أن يكون الوهم شائعا فى شعر الصعاليك وأحاديثهم ، حيث أنهم بصفة عامة - كما تقرر سابقا - قد عانوا من الشعور بالمطاردة ، فقد كان ينبغي أن يكون لهذا الشعور العام بالمطاردة نتيجة عامة أيضا هى شيوع الوهم لديهم ممثلا فى الخرافات والأساطير ، ولكن قلة قليلة منهم قد لا تمتدح عبيد بن أيوب

(١) مكان تزعم العرب انه لم تظاه قلم انسان .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجي وانظر المقد الفريد ٢٩٠/٣ أيضا .

(٣) الآية ٤ من سورة المنافقون .

(٤) انظر للمثال تفسير الكشاف للزمخشري فى هذه الآية .

وتأبط شرا ، والأحيمر السعدي ، ان اعتبرنا في بعض حديث عبيد السابق
شيئا من وهم ، هذه القلة فقط هي التي نجد الوهم في كلامها ، فلماذا لم
يهم (١) الباكون ؟

ونجيب عن ذلك بأن الباقيين كانت لديهم أسلحة مضادة للشعور بالمطاردة
والخوف ، وهي القوة التي تميز بها الصعاليك ، والتي كانت ولا شك قوة
غير عادية ، بل لا ينازع في أنهم في جملتهم كانوا من القوة في قمة عالية ، وأبرز
مظاهر هذه القوة التي قاوموا بها الشعور بالمطاردة والخوف هو الاستهانة بالموت
كما سبق ، فهذه القوة التي تبلغ في بعض جوانبها حد الاستهانة العامة بينهم
بالموت كانت سلاحا مكافئا للشعور بالمطاردة ، فلم يثمر شعور المطاردة ثمرته
المنطقية المنتظرة ، وهي الوهم .

هذا عن أكثرية الصعاليك ، الذين حمتهم قوتهم واستهانتهم بالموت من
سيطرة الشعور بالمطاردة الى حد الوهم ، أما الأقلية التي لم يكن نصيبها من القوة
كبيرا فقد تمكن في نفوسهم شعور المطاردة ، وسيطر عليها الخوف حتى بلغ
بها درجة الوهم وفقدان الاحساس السليم بما حولهم من أشياء ، وليس هذا
التفريق بين الصعاليك في هذا المعنى نظريا ، انما هو واقع ملموس في شعرهم ،
فالواقع ان المستعرض لشعر الصعاليك يجد حديث الخرافات والوهم تشرأ فيه ،
فمع كثرة حديث الصعاليك عن الوحشة والفقر والوحدة والوحوش ، مع كثرة
ذلك كله في شعرهم لا نجد اتجاها الى حديث الخرافات والأوهام الا لدى هذه
القلة ، وقد قلنا ان أهم سبب من أسباب هذه الخرافات والأوهام سيطرة
الشعور بالمطاردة والخوف الى درجة تتغلب على قوة صاحبها ، بمعنى أن تكون
قوته أضعف من مقاومة هذا الشعور . وهذا الفارق بينهم في قوة المقاومة
وضعفا نجده واضحا في شعرهم فأغلبية الصعاليك نجدهم مع حديثهم عن
الشعور بالمطاردة أو حتى الخوف ان عرضوا به يتحدثون أيضا عن قوتهم
وصلابتهم واستهانتهم بكل شيء حتى الموت ، أما القلة التي غلبها الشعور
بالمطاردة والخوف وغلب قوتها ، فإنا نجد ضعف المقاومة بارزا في
شعرهم .

فعبيد بن أيوب الذي تمثل الوهم المشار اليه في شعره . حيث كان أكثرهم
حديثا عن الخرافات والأوهام بصورة ظاهرة ، عبيد هذا نجد حديثه عن الخوف
البالغ المتكمن من نفسه ظاهرا متميزا في شعره ، وكأنه هو نفسه يسوق لنا
سبب الأوهام التي شاعت في شعره وهو الخوف الشديد غاية الشدة حيث
يصور معنى الآية الكريمة السابقة تصويرا يكاد يكون حرفيا في قوله :

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت علو أو طليعة معشر (٢)

(١) يهم مضارع وهم وما .

(٢) العيران للجاحظ ٢٤١/٥ .

ويصور مبلغ شعوره بفقدان الثقة في عليا درجاتها فيقول :
فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشم
وخفت خليل ذا الصفاء ورأيتي وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (١)
ويبلغ قمة الشعور بالمطاردة حينما يطلب من وحشى الصحراء أن يخفيه
عن مطارديه فيقول :

الا يا ظباء الوحش لا تحسرينني وأخفينني اذ كنت فيكن خافيا
بل انه ليثير الاشفاق عليه حينما يبلغ منه ذلك كله أن يتمنى مستعظما
لحظة يذوق فيها قلبه المخلوع طعم الأمن فيقول :

أدقنى طعم الأمن أوصل حقيقة على وان قامت ففصل بنائيا
خلعت فؤادى فاستطير فاصبحت ترامى به اليد القفار تراميا

وعبيد بن أيوب بهذا يريخ المستنتجين وملتمسى الأسباب ، حيث يصرح
لهم بأن الخوف والشعور بالمطاردة قد بلغا منه هذا المبلغ ، فيقطع نصف الطريق
نحو النتيجة بذكره المقدمة المنطقية لها ، بل يمكن أن يقال انه صرح بالمقدمة
المنطقية ، وصرح أيضا بنتيجتها ، غاية الأمر أنه ذكرهما منفصلتين ، فلا ينقصهما
الا الترتيب المنطقي .

والجاحظ يسوق في تعليل هذا الوهم سببين أحدهما قوله « اذا استوحش
الانسان تمثل له الشيء الصغير كبيرا ، وارتاب وتفرق ذهنه ، فرأى ما لا يرى ،
وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير الحقير انه عظيم جليل » (٢) وهو بهذا
يشير الى بيئة الصعاليك التي قلنا أنها من العوامل المساعدة على إبراز مكنونات
الذاكرة من الخرافات والأوهام وتجسيدها بقوله « اذا استوحش الانسان » .

والسبب الآخر يعرضه الجاحظ في قوله « وما زادهم في هذا الباب
وأغراهم به أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار الا أعرابيا مثلهم ، والا عاميا لم
ياخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك » (٣) ،
وبهذا يشير الى ما ألحنا اليه من أثر البدائية في تقبل الخرافات والأساطير
ونشرها في المجتمعات البدائية ، وهذا يتضمن أن بعض الناس يحاول أن
يستغل سذاجه مجتمعه لابساً ثوب البطولة بهذه الخرافات التي تجد من
مذاجتهم مرتعا خصيبا .

ولئن كان السببان كلاهما ينطبق على عبيد بن أيوب ، فأننا نرى أن
السبب الثاني وحده هو الذي يمكن أن ينسب الى تأبط شرا في حديثه المحدود
عن بعض الخرافات ، لأن تأبط شرا في جملة صفاته وأخباره وشعره ، لم يكن

(١) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٥٠/٦ .

(٣) المصدر السابق ٢٥١/٦ .

من الذين يققدم الخوف أو الوحشة سلامة حسهم وادراكهم لما حولهم ، خاصة وأن في هذا الميدان كان عن حادثة واحدة هي حادثة قتله الغول فيما زعم ، وأنه لولا التفاصيل التي ساقها في هذه الحادثة لكان يمكن ان تلمس له فيها وجهها من وجوه الصدق .

صراع السلطة

وقد انفرد صعاليك الاسلام بصراع عنيف جديد ، هو صراع السلطة ممثلة في السلطتين التشريعية والتنفيذية .

وقد نظر صعاليك الاسلام فاذا شيء جديد يأخذ عليهم حياتهم من جميع أقطارها ، ويترصدهم مسالكهم ، بل يلاحقهم حتى في كهوفهم وخلواتهم ، بل وينفذ الى خبايا نفوسهم ، في كل وجه يجدون أمامهم هذا الشيء ، وفي كل خلوة ينفذ اليهم هذا الشيء ، لا يترك لهم ظلمة يتحصنون بها ، ولا منعرجا يأمنون فيه . وكأنه ضوء النهار يكتسح كل ظلام ، ويكشف كل مخبأ وكان هذا الشيء الذي فوجئوا به هو الاسلام .

ولا شك أن الاسلام كان أخطر عدو واجهه الصعاليك ، كما كان أكبر ضربة منيت بها الصعلكة وقد كانت هزيمة الصعلكة والصعاليك أمام الاسلام أيضا أكبر هزيمة منوا بها ، ان لم تكن الهزيمة الوحيدة التي وضعت حدا فاصلا مميزا بين صعلكة الجاهلية وصعلكة الاسلام ، سواء في الأساليب والمشاعر .

ولا نعتى بانتصار الاسلام على الصعلكة أنه قضى على الصعاليك أو حتى قلل من عددهم ، وإنما نعتى أن انتصاره كان في تغيير النظرة الى الصعلكة تغييرا كاملا ، فبعد أن كانت الصعلكة ميدانا للبطولة والتنافس ، ومحظا للاعجاب والتطلع ، أصبحت جريمة منكرة بغيضة ، لا تلقى من الاسلام الا انكارا شديدا ، وعقابا صارما ، ولا تلقى من المسلمين الا نبذا وبغضا ومطاردة .

وقد كان أثر الاسلام في قصم ظهر الصعلكة واضحا كل الوضوح في نقطة هامة جدا في شعر الصعاليك ، تعتبر محورا فيه ، هذه النقطة هي الذاتية في شعر الصعاليك ، فمن السمات البارزة في شعر الصعاليك كله الذاتية ، حيث يجعل الواحد منهم ذاته محورا لكل شيء ومنطلقا لكل معنى ، ومشرفا على كل ما يعرض له في شعره مصاحبا له ، ولكن هذه الذاتية تختلف اختلافا أساسيا في شعر الصعاليك الاسلاميين عنها في شعر الجاهليين ، فبينما نجد ذاتية صعاليك الجاهلية تتسم بالعزة البالغة ، والاعتداد الشديد بالنفس ، والاستهانة المطلقة بكل شيء ، نجد ذاتية صعاليك الاسلام عكس ذلك ، تتسم بالشعور بالضيعة ، وبالاتين ، والرغبة في التخفي ، والظروف المحيطة بكل

منهما لا تجعل فى شىء من هذا غرابة ، فبينما يشعر الجاهل أن سلوكه محط الإعجاب والرهبة والتقدير من المجتمع مما يدعو إلى الاعتزاز والفخر به ، يشعر صعلوك الإسلام أن سلوكه محط الإنكار والبغض والمطاردة ، مما يدعو إلى عكس ما يشعر به صعلوك الجاهلية .

وقد تمثلت سلطة الإسلام التي واجهها الصعاليك فى ناحيتين ، السلطة التشريعية ، وهى الإسلام من حيث أنه دين ، والسلطة التنفيذية ، وهى سلطة القائم على تنفيذ أحكام الإسلام من الخلفاء والولاة .

(١) السلطة التشريعية :

وليس من المستطاع أن نطلع على صراع الصعاليك مع الدين من حيث هو دين ، فالمفروض أنه صراع نفسى لا يحس به إلا صاحبه ، وإنما عبرنا بلفظ « صراع » لأننا نعتقد أن الصعاليك لم يكونوا من الذين استجابوا للإسلام بسهولة ويسر ، وذلك لأكثر من سبب ، وأهم هذه الأسباب أنه إذا كان غير الصعاليك ليس بينه وبين الإسلام فى غالب الأمر إلا العقيدة ، بمعنى أنه حين يعتنق الإسلام فلن يتغير فى حياته شىء إلا العقيدة ، أما الصعلوك فحين يعتنق الإسلام ينقلب كل شىء فى حياته رأساً على عقب ، وأهم هذه الأشياء جميعاً أن الصعلكة مورد رزقه ، والمصدر الوحيد لعيشه ، ومعنى ذلك أنه حين يعتنق الإسلام يفقد مصدر رزقه الذى لا يملك سواه ، وهناك سبب آخر ، وهو أن الصعلكة أصبحت فى حياتهم كالحرفة التى تملك على صاحبها كل مشاعره واحساسه ، وكل هواه فى كثير من الأحيان ، وهذه الحرفة التى تشبعت بها نفوسهم ، والفهم الطويل لها ، قد تجد نفوسهم شيئاً من أحجام فى التخلي عنها ، ولو من باب فراق شىء أليف ، وقد يالف الإنسان شيئاً ولو غير حبيب إلى نفسه فلا يرحب بفراقه ، كما يقول المتنبى :

خلقت اليفسا لو رددت إلى الصبا لفارقت شيبى هوجع القلب باكياً

وهناك سبب آخر قد يزيدون به عن المترددين فى الإسراع إلى الإسلام ، وهو ما أشرنا إليه فى أسباب الصعلكة من أنه قد يكون من دوافع الصعلكة وأسبابها الاستعداد الشخصى فى التكوين ، والتهيؤ النفسى لدى بعض الأفراد بطبيعة تكوينهم للصعلكة ، مما يجعلهم أكثر من غيرهم تردداً فى الإسراع إلى الإسلام ومع ذلك نود أن نقول أنه مهما اختلفت الأسباب وتنوعت العلل ، فإن شعورهم نفسه يشير بوضوح إلى أنه حتى الذين تابوا عن الصعلكة بإسلامهم أو خلال عصور الإسلام ، يبدو من شعور أكثرهم أن التوبة لم تبلغ من نفوسهم مبلغ الاطمئنان الكامل ، ولم تحل بين نفوسهم والحنين ولو فى خفية إلى حياتهم فى

الصعلكة ، ولم تفض جفونهم عن أن ترنو الى ماض يسدو أنه حبيب الى نفوسهم .

ومن الطريف في ذلك تعبير أبي خراش الهذلي عن تقييد الاسلام لسلوكه ، وحيلولته بينه وبين ثارات كان يمني نفسه بالانتقام لها من أعدائه ، وعن أن الاسلام يرد طيش الشباب فيجعل منه اترانا كاتزان الشيوخ فيقول :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن احاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهمل ليس بقائل سوى الحق شيئا فاستراح العواذل (١)

والأحيمر السعدي مع توبته لم يستطيع أن يغالب شوقا الى أيام غابرة كان يجد فيها متعته بالسطو على مثل هذه الزوامل فيقول :

أشكو الى الله صبري عن زواملهم وما الأقي اذا مروا من الحزن
قل للصومس بني اللغناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن
فرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن (٢)

ولئن كان الصراع في الآيات السابقة واضحا في نفس الأحيمر بين شعوره بالتوبة ورغبته في التمسك بها ، وبين حنينه الى الصعلكة ، فان الصراع في شعر يزيد العقيلي أخفى من ذلك حيث يقول بعد توبته :

الا قل لأرباب المخاض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
وان أمرا ينجو من النار بعد ما تزود من أعمالها لسعيد (٣)

فالبيت الثاني وإن كان يظهر سعادة بالتوبة واطمئنانا اليها ، الا أن البيت الأول لا يخلو من الماح ولو يسير الى الحنين الى المخاض .

ولكن هذا الحنين لا يقلل من أثر الاسلام في الصعلكة ، فان التوبة نفسها أثر من آثار الاسلام ، والذي يعنى التشريع من الناحية الاجتماعية هو الكف عن السلوك المنوع بصرف النظر عن نفسية صاحبه ، على أن بعض توبتهم توحى بالصدق الخالص ، واستهجان الماضى كقول عبيد بن أيوب :

يارب عفوك عن ذى توبة وجل كأنه من حذار الناس مجنون
قد كان قدم أعمالا مقاربة أيام ليس له عقل ولا دين (٤)

(١) الكامل للسرد ٢٦٧/١ .

(٢) أمال التال ٩٦/٢ والزوامل الأبل المحملة والقطار الأبل المتطورة بعضها لى أثر بعض والبيت الثاني نصح للصومس بالتوبة والآيات في جملتها تصور صراعا بين التوبة والحنين الى الصعلكة .

(٣) الكامل للسرد ٦١/١ والمخاض الأبل في سن معينة ، وأهملوا يعنى اطمئنوا ويعنى بقوله تعلمون ما يعرفونه عنه من أساليب الصعلكة .

(٤) البيان والتبيين للجاسط ٦٢/٤ .

ب - السلطة التنفيذية :

ومع أن الروايات لم تحدد من الناحية الزمنية مراحل حياة الصعاليك ، بحيث نعلم مثلا متى تاب التائبون منهم ؟ بالإضافة الى نواحي غموض أخرى ، الا أننا مع ذلك نحس بصفة عامة أن التوبة غلبت على الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى المخضرمين ، ومعنى ذلك أن صراع السلطة التشريعية كان في الذين عاشوا اول الاسلام أوضح منه في المتأخرين ويتضح هذا من شعر السابقين منهم ، كابى خراش الذى مات في خلافة عمر ، وكان من المخضرمين ، حيث نجد هذا المعنى في شعره ، كما رأينا آنفا في تعبيره عن احاطة الاسلام برقاب الصعاليك كما تحيط السلاسل .

ويبدو رغم عدم وضوح الروايات أن الفترة منذ سيطرة الاسلام على شبه الجزيرة الى خلافة على ابن أبى طالب كرم الله وجهه قد خفت فيها صوت الصعاليك ، وشلت فيها حركتهم ، بتأثر أغلبهم بالاسلام وتوابعهم الى الله ، كما تاب أبو خراش ، والحارث بن بدر التميمي (١) أو يتعرض بعضهم للعقاب كجعفر ابن علبة الحارثي (٢) .

ويبدو أيضا أن شيوع الفتن والحلقات والحروب في الدولة منذ بدء خلافة على بن أبى طالب وخصومته مع معاوية ، فقد أتاحت للصعاليك أن يعاودوا نشاطهم مرة أخرى ، ولذلك نجد عددا من شعراء الصعاليك معاصرين لبدء هذه الفترة ، كعبيد الله بن الحر ، الذى تحدثت أخباره باتصالات وخلافات مع كل من معاوية وعلى ، ومثل شبيب بن عمرو الذى طارده جنود على بن أبى طالب . ثم أخذ الصعاليك ينتشرون مع انتشار الفتن .

والذى نريد أن نقوله ، هو أننا بعد هذه الفترة لا نحس أن صراع الصعاليك كان مع السلطة الروحية الممثلة في الدين ، بمعنى أنهم شعروا أن الوازع الديني بدأ سلطانه يخف عنهم ، ولذلك قل التائبون منهم بعد ذلك ، في حين بدأوا يزدادون عددا ، وأصبح صراعهم ليس مع السلطة الروحية ، ولا مع السلطة التشريعية لذاتها ، وإنما أصبح صراعهم مع السلطة التنفيذية الموكول اليها تنفيذ التشريع ، وقد عانى الصعاليك من صراعهم مع الولاة والخلفاء عناء شديدا ، كما كان الحال مع عبيد الله بن الحر ، الذى تحدثى معظم ولآة عصره (٣) وظل في صراع معهم أمدا طويلا ، وهذا شبيب بن عمرو الذى كان يقطع الطريق ، يصور مطاردة على بن أبى طالب له ، وخوفه من الوقوع في قبضته ، ورهبته من مخيس فيقول :

(١) انظر الكشف للزمخشري تفسير الآية ٣٤ من سورة المائدة .

(٢) انظر خزائن الادب للبغدادي ٤٦/٢ ، ٤٧ ، ومواضع أخرى .

(٣) المصدر السابق ١٨/٢ - ٢٢ -

فلا أن رايت ابني شميظ
تجللت العصا وعلمت أني
ولو أني لبشت لهم قليلا
شديد مجامع الكتفين باق
بسكة طيء والباب دوني (١)
وهين مخيس أن أدركوني (٢)
لجروني إلى شيخ بطون
على الحدائق مختلف الشئون (٣)

وسعد بن ناشب يحتدم الصراع بينه وبين بلال بن أبي بردة عامل بني مروان على البصرة (٤) وقد هدم الوالي داره تنكيلا به ، ولكن هذه المطاردة بما فيها هدم داره لم تفت في عضده وإنما تلقاها بالصمود الشديد ، والتحدى العنيف ، فيقول مستهينا بهدم داره :

وأذهل عن داري وأجعل هدمها
ويصغر في عيني ثلاثي إذا انشئت
فإن تهتموا بالغدر داري فانها
ثم يخاطب بلالا بقوله :

لا توعدا يا بلال فاننا
وإن لنا أما خسيناك مذهبنا
فلا تحملنا بعد سمع وطاعة
فانا إذا ما الحرب ألفت قناعها
ولسنا بمحتلين دار هضمية
وإن نحن لم نشقق عصا الدين أحرار
إلى حيث لا نخشاك والدهر أطوار
على غاية فيها الشقاق أو العار
بها حين يجفوها بنوها لأبرار
مخافة موت أن بنا نبت الدار (٦)

ويتحدث عبد الله بن سيرة الحرشي عن الأمير ، فيقول أنه لا يقيد نفسه بسلطانه ، وأنه قادر على مخالفته ، لأنه يستوحى سلوكه من سلطان نفسه لاسلطان الأمير فيقول :

وإني إذا ضمن الأمير بأذنه
على الأذن من نفسي إذا شئت قادر (٧)
ومالك بن الريب تعرض لمطاردة أكثر من وال من ولاية بني أمية ، فقد طارده الحارث بن حاطب وتوعده ، ولكن مالكا يرد عليه ساخرا من وعيده ومن أيمائه التي حلفها متوعدا فيقول :

(١) حساسة أبي تمام ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ وابنا شميظ اللذان وجهما الخليفة لمطاردته والسكة السطر من الشعر .

(٢) الحما فرسه ومخيس بتشديد الياء المكسورة سجن بالكوفة بناء الامام علي .

(٣) البيتان الأخيران وصف لعل رضى الله عنه .

(٤) قيل هو الحجاج أنظر شرح الحماصة عن التبريزي ١٥/١ .

(٥) حساسة أبي تمام ١٥/١ والبيت الأول يعنى أجعل مال فداء لعرضي والثاني يعنى يصغر مال مادمت مثلذا عزمي .

(٦) المصدر السابق ٢٧٢/١ . ويرى أن بلالا الذي يخاطبه خارجي ولكن موضوع الشعر وسوادره مع بلال بن أبي بردة ترجع أنه بلال الوالي ابن أبي بردة .

(٧) حساسة أبي تمام ١٨٦/١ .

تألى حلفة فى غير جرم أميرى حارث شبه الضرار
على لأجلدن فى غير جرم ولا أدنى فينفغنى اعتسداوى
وقلت وقد ضمنت الى جاشى تحلل لا قال على حار (١)

ثم يفسر فى شعر آخر سر تحديه للولاء وقدرته على الاستهانة بمطاردتهم ،
وهو أنه قادر على التنقل والرحلة الى أى مكان فيقول :

أحقا على السلطان أما الذى له فيعطى أما ما يراد فيمنع
إذا ما جعلت الرمل بينى وبينه وأعرض سهب بين ييرين بلقع
فشانكم يا آل مروان فاطلبوا سقاطى فما فيه لباغيه مطمع (٢)

وحين طارده الحجاج الثقفى عامل بنى مروان لم يخضع ولم يهن أمام سيطرة
الحجاج وبطشه الشديد ، بل تحداه وتحدى بنى مروان معه ، بسلاحه الذى
يتحصن به الصعاليك من كل شىء ، وهو الرحلة ، والتحكم فى الأماكن المقفرة
التي لا يجرؤ غير الصعاليك على ارتيادها فيقول لبنى مروان :

ان تتصفونا يا آل مروان نقترّب اليكم والا فاذنوا ببعساد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى وبع الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلادى (٣)

وهذا السلاح ، سلاح الرحلة يروزه للحجاج ، هاجيا إياه هجاء موجعا .
ساخرا منه سخرية قلما استطاع أحد فى عصره أن يهديها الى الحجاج فيقول
معرضا بالرحلة ، مشيرا الى تعليم الحجاج للصبيان فى كتابه قبل أن يصبح
أميرا .

فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد اياد
زمان هو المقر بذلة يراوح صبيان القرى ويغادى (٤)

السجن

وكانت حصيلة صراعهم مع السلطة ، ومطاردة السلطة لهم أن أنتهى بعضهم
الى السجن ولئن كانت الروايات أيضا غير واضحة كل الوضوح فى أسباب دخولهم
السجن ، ثم مصيرهم بعد السجن ، أو على الأقل لم تكن واضحة كل الوضوح

(١) مهذب الأغانى ١٠/٥ وتحلل يعنى من اليمين ولا قال لا تحلف وعاد مرشم حارث .

(٢) المصدر السابق ١٢/٥ .

(٣) الكامل للمبرد ٣٠١/١ .

(٤) الكامل للمبرد ٣٠٢/١ .

بالنسبة لبعضهم ، الا انه من المفهوم أن الصعلكة كانت طريقهم الى السجن ،
مهما اختلف أسلوب الصعلكة ، من قطع طريق أو سرقة أو قتل ، أو غير ذلك .

وقد انتهى السجن ببعضهم الى القتل ، كجعفر بن علبة الذي حبس في
سجن المدينة ، ثم قتل لدم أراقه (١) ومنهم من قدر له أن يخرج من السجن ،
كمالك بن الريب الذي حبس بمكة لاتهامه بالسرقة (٢) . ومنهم من لا نعلم عن
سجنه ونهايته الا آهاته التي انبعثت منه في سجنه ، كجحدير بن معاوية (٣)
والجرفنس (٤) ومهما يكن من شيء فقد كان السجن والخوف منه من العقوبات التي
أرقت مضاجع صعاليك الاسلام ، وكذلك من العقوبات التي أثرت في سلوكهم
وحياتهم نفسها ، فان كثيرا من الذين هجروا حياة الناس الى القفار كالأحيمر
السعدى وعبيد بن أيوب كان السجن هو السيف المصلت الذي أذهب بريقه
نفوسهم فضلا عما يتوقعون بعد هذا السجن .

وهذا شبيب بن عمرو حين فر من مطاردة جنود علي بن أبي طالب يركز
خوفه ورهيته من مخيس وهو السجن الذي بناه علي رضي الله عنه بالكوفة
فيقول :

تجللت العصا وعلمت أني دهن مخيس ان ادركوني (٥)

ولذلك قال علي حين بلغه هذا الشعر « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ،
لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعني لوضعت في مخيس .

ومالك بن الريب يبدي حزنه على حبسه في سجنه بمكة ، متذكرا رفاقه
وصحبه في الريب من أرض بني مازن فيقول :

اتلحق بالريب الرفاق ومالك بمكة في سجن يعنيه راقبه (٧)

والجرفنس يبعث الى قومه برسالة يصف لهم فيها حياته ، وما يعانيه
نهاره من القيد والسلاسل وما يعانيه ليله من ضيق السجن ووحشته فيقول :

**ابلغ بني ثعل غنى مغلغلة فقد أنى لك من نى وانضاج
أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في جوف منحوت من الساج (٨)**

(١) خزائن البغدادى ٤٦/٢ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ .

(٣) آمال القائل ٢٧٧/١ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ .

(٥) حساسة أبي تمام ٣٥٣/١ .

(٦) شرح حساسة أبي تمام عن التبريزي ٢٥٣/١ .

(٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ والريب موضع لقومه تحدث عنه في مراثيه .

ويجوز أن يكون المراد به آباءه .

(٨) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ .

وهذا لص آخر من الصعاليك يهوله ما هو فيه من قيد وجبس ، وما يعانيه من وحشة وشعور بالغربة وهجر الأجابة فيقول :

أقيد وجبس واغتراب وفرقة وهجر جيب ان ذا لعظيم (١)

ولكن رسالة جحدر بن معاوية الى قومه من سجن الكوفة ، كانت أشد المأ ، فهو لا يعاني مرارة السجن فحسب ، وإنما يحاذر أيضا وقع سيف الحجاج ، وهو لا ينكر أن الحجاج وإن كان قاسيا ، إلا أنه لن يظلمه إذا قتله ، لأنه جنى ما يستحق به صولة الحجاج فيقول :

**إذا جاوزتما سعفات حجر واودية اليمامة فانيما
وقولا جحدر أمسي رهينا يحاذر وقع مصقول يما
يحاذر صولة الحجاج ظلما وما الحجاج ظلام لجاني (٢)**

وقد كان يمكن أن تكون لهجة يائس مترقب للموت كجحدر أكثر حزنا وشعورا بالرعية والفرق الشديد ، ولكنه تماسك الصعاليك ، وصلاتهم ، وتهيؤ انفسهم دائما للموت ، ولكنه مع ذلك صب حزنه ويأسه في ثنايا القصيدة كلها ، حين تحدث عن الهموم التي تكنته وأفعمت قلبه في أبيات منها •

تاوبتي فبت لها كنيغا هموم ما تفارقني حواني

وحين تحدث عن شوقه الشديد الى موطنه ، بل الى كل ما يمكن أن يتصل بموطنه ، حتى البرق ، فيقول من القصيدة :

اليس الله يعلم أن قلبي يحبك ايها البرق اليماني ؟

ولكنه يصب سخطه كله ، ونقمته كلها ، ويأسه كله ، على السجن الذي صوره بأنه قطعة معجلة من سقر ، حيث يقول في شعر غير الشعر السابق •

يارب أبفض بيت أنت خالقه بيت بكوفان منه استعجلت سقر (٣)

الشعر الاجتماعي

وبحكم أن الانساني اجتماعي بطبعه ، فليس من المعقول أن يكون الصعاليك بمنأى كامل عن المجتمع ، ولا أن يكونوا خلقا آخر في نفسياتهم وعواطفهم الاجتماعية فكل منهم لابد أن تربطه بالمجتمع أى رابطة ، ولو كانت هذه الرابطة عداء وخصومة من باب اعتبارهم الضدية نوعا من الروابط ، ولكن الصعاليك لم تكن

(١) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ •

(٢) أسال الفال ٢٧٨/١ •

(٣) سجن ١٠ اسنجم للبكري ١١٤١/٤ وكوفان معنى الكوفة •

الضدية ، أو الضدية وحدها هي الرابطة بينهم وبين المجتمع ، بل كانت تتخلل حياتهم فترات كثيرة يرتبطون فيها بمجتمعاتهم كأحاد منهم ، فضلا عن أزواجهم وأولادهم ، وفضلا عن أن كثيرا منهم كما قلنا كان معدودا من فرسان قومه وشجعانهم ، وشارك قومه حروبهم وبأساءهم ، واصطلي بآثار هذه الحروب فوق ما اصطلاه في حياة الصعلكة ، لذلك نرى هذا الجانب الاجتماعي من حياتهم منعكسا في شعرهم بجوانبه المختلفة ، وهم في هذا مختلفون ، ولئن كان الشعر السابق في الموضوعات المختلفة ينطبق عليهم بصفة عامة ، فانه في الشعر الاجتماعي لا ينطبق كل موضوع أو كل معنى عليهم جميعا . لأن الشعر السابق يمثل حياتهم في الصعلكة وصراهم في هذه الحياة ، وهم في الصعلكة سواء ، لذلك كانت الموضوعات والمعاني السابقة شاملة لهم في جملتهم الا حين يشار الى استثناء واحد أو بعض يعينه ، أما في الشعر الاجتماعي فانهم مختلفون ، فبعض الموضوعات تنطبق على بعضهم ، لأن هذا البعض زاول هذا الجانب من الحياة الاجتماعية ، ولا ينطبق على البعض الآخر لأنه لم يزاوله أو لم يتعرض له ولو كانت هذه التفاصيل تعيننا لذاتها لا يمكن بسطة الحديث فيها ، ولكننا انما يعيننا اتجاه شعرهم وخصائصه ، ومبلغ تميزه عن شعر غيرهم ، ولذلك نجدنا مضطرين الى سرد الجوانب البارزة في شعرهم الاجتماعي مكتفين بالإشارة الى منهجهم وطابعهم فيها . ويمكن تقسيم شعرهم الاجتماعي الى نوعين :

١ - النوع التقليدي في أغراضه كالمدح والهجاء والرثاء والغزل .

٢ - النوع الذي يمثل خلق الصعاليك الاجتماعي ، وطابعهم في هذا الحلق .

ولكننا نقول بصفة عامة ، ان الناحية الاجتماعية قد تكون بارزة في شعر بعض الأفراد من الصعاليك ، ولكنها غير بارزة في شعرهم ككل ، وحتى اذا برزت في بعض النواحي فاننا نجدنا وقد اكتست ثوب الصعاليك ، وشعارهم الذي يكسو شعرهم كله ، ف شعر الصعاليك في جملته لا يبرز فيه الا طابع الصعلكة ، مهما تعددت أغراضه وموضوعاته وكأنه الخاتم التي يختتم به كل شعر لهم .

الأغراض التقليدية

وتعني بالأغراض التقليدية الموضوعات الشائعة في الشعر العربي القديم ، كالغفر والاعتزاز بالقبيلة والمدح والهجاء والرثاء والغزل ، وحين تستعرض شعر الصعاليك عن هذه الأغراض فليس فيه ما يأتي :

١ - الفخر :

الفخر صفة مشتركة بين الشعراء جميعا قديمهم وحديثهم ، فلا يتصور شاعر قط لم يفخر بنفسه وإن لم يكن يستحق من الفخر شيئا ، بل كثير من الشعراء على مر العصور يعلم ويعترف بأنه لا يحمل مما يستحق أن يفخر به شيئا ، ومع ذلك لا يستطيع ألا يفخر ، وكأنه يشعر بأنه يتميز بنوع من اللوحة غير المتاحة لكل الناس ، وهى الشعر ، ومن ثم يجد فى نفسه احساسا خفيا بأنه يستحق أن يفخر بنفسه ، فإن لم يفخر بشاعريته نفسها ، فخر بنفسه فى أى صورة من صورها ، ومعنى ذلك أنه يمكن القول بأن الشاعرية نفسها هى المصدر الأول للشعور بالفخر عند الشعراء ، بالإضافة الى ما يدعمها فى شخصية الشاعر من صفات تستحق الفخر .

وإذن فمن الطبعي أن يفخر شعراء الصعاليك بأنفسهم ، وقد فخروا ، ولكننا نلاحظ أنهم لم يجعلوا الفخر موضوعا ولا حتى غرضا مقصودا لذاته ، وإنما يأتي فى معظم الأحيان عرضا ، واستنتاجا من أحداث ومعاني سابقة ، وكأنه تعليق أو تعقيب على حديث ، على أن فخرهم لا يخلو فى معظم الأحيان أضحا من كونه فى محيط الصعلكة ، اشادة بجانب أو صفة من صفاتهم السابقة التى جعلوها أسلحة لهم فى الصعلكة ، كقوة الإرادة والحزم والجرأة والاستهانة بالموت وبقيّة ما سبق من ذلك ، وحتى فى بعض المعاني التى تخرج من محيط الصعلكة نجدها مقرونة بصفات الصعلكة ، كقول الشنفرى بعد حديثه عن صبره وقوة ارادته .

ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى

وكقول مالك بن حريم مشيرا

وأخذ للمسوى إذا ضيم حق

وقد فخر مالك هذا بنفسه ، ثم

وإن كان عندها فى شعره أربعة ، اثن

واحدة ، وواحدة فى العفة التى سيأتى

عصر الصعاليك ، والثالثة وهى أول

تمثل الحذر واليقظة حيث يقول :

فواحدة ألا آييت بفسرة

إذا ما سولم اجى حوى تصوم (١)

(١) من اللامية .

(٢) الاصمعيات ٥٨ والاعيط الأبي .

(٣) انظر الاصمعيات ٥٦ - ٦٣ .

(٤) الاصمعيات ٥٨ .

وعروة بن الورد يفخر باكرامه الضيف ، واكرام الضيف والفخر به شائع
فى شعر العرب ، ولكن غير الشائع ما قرنه به عروة ، من أنه يجعل من اكرامه
الضيف محادثته حيث يقول :

فراشى فراش الضيف والبيت يئته ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحده أن الحديث من القسرى وتعلم نفسى انه سوف يهجع (١)

وتأبط شرا يفخر بأنه يضرب هام العدا ، وضرب هام العدا أيضا شائع
فى الفخر ، ولكن غير الشائع أن يقول انه لا يهدف من ذلك الى فخر أو ذكر
بين الناس فيقول :

يماصعه كل يشجع قومه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وهكذا حين نتتبع فخر الصعاليك نجد أنه ليس فخرا عاديا كالمألوف
فى فخر غيرهم ، وإنما نجد لهم دائما طابعهم المعين ، أو اتجاهها خاصا يميزون
به أنفسهم ، ويميزون به شعرهم .

٢ - الاعتزاز بالقبيلة :

والاعتزاز بالقبيلة من أكثر الموضوعات والأغراض شيوعا فى الشعر
العربى القديم ، نتيجة لوضعهم القبلى الاجتماعى ، وما يترتب على ذلك مما
هو معروف فى علم الاجتماع ، من تأثير الفرد بالقبيلة ، وترايط أفرادها
وطفيان شخصية القبيلة من حيث هى على شخصية الأفراد فى جملتهم .

ولكن الصعاليك شذوا فى جملتهم ، حيث كان الواحد منهم يعتبر نفسه
قوة مستقلة ، وكيانا مستقلا ، ولذلك انفردوا بأن الواحد منهم كثيرا ما يتصدى
لقبيلة أو حى بأكمله ، ويهدده ويتوعده بمفرده ، وكأنه قوة مماثلة لقوة
قبيلة أو حى ، كما فعل الشنفرى مع بنى سلامان وكما فعل تأبط شرا مع
بنى لحيان من هذيل ، ولكن بعض الصعاليك كانوا من العمد التى تقوم
عليها قوة قبيلتهم ، كجحدر بن ضبيعة البكرى ، ومالك بن حريم الهمداني ،
وعروة بن الورد العبسى ، وقيس بن مقيذ السلولى قبل خلعه ، وهذا النوع
من الصعاليك شارك قبيلته فى كل ظروفها ، من حيث صراعها مع القبائل
الأخرى ، وانعكست مشاركته فى شعره ، وكان من أثر هذه المشاركة
والارتباط بمصير القبيلة وظروفها احساس الفرد بأنه مستمد لجانب من قوته
من قوة القبيلة نفسها ، وهذا هو المصدر الأساسى للفخر بالقبيلة والاعتزاز

(١) ديوانه ١٠٠ .

(٢) حسنة أبى تمام ١٩٠/١ ويماصعه يجالده ويقائله ، وليشجعا يبنى لا يقال انه

الوجه لاعل يشجع يريد كل يشجعه قومه .

بها ، وهذا المعنى نجده في شعر أفراد من الصعاليك ، منهم مالك بن حريم (١) وأبو الطمجان القينى (٢) وعروة بن الورد (٣) وقيس بن منقذ (٤) .

وهناك صورة من صور هذا المجال ، تتمثل في المنافرات الشعرية التي كانت بين بعض الصعاليك وأفراد من القبائل أو الأحياء الأخرى ، ومصدر هذه الخصومات في معظم الأحيان خصومة القبيلتين أو الحيين يمثلها شاعر من إحدى القوتين في منافرات مع شاعر من القوة الأخرى ، ولم يكن هذا الجانب واضحا في شعر الصعاليك ، باستثناء منافرات صخر الغي مع أبي المثلم الهذلي (٥) ومنافرات قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدواني (٦) ، ولكن الذى نلاحظه على المنافرات التي اشترك فيها الصعاليك أنها كانت منافرات كريمة ، لم يشبها قط هجاء مقذع ، أو سباب قبيح ، بل لم تشبها روح الحق والغل ، وإنما كان طابعها كرم الخصومة وتقدير الخصم ، وأوضح ما يكون ذلك في منافرات صخر الغي مع أبي المثلم فانها تموزج للخصومة السامية الكريمة التي لا يتحامل الخصم فيها على خصمه ، ولا ينكر عليه فضائله ، بل كثيرا ما يعترف لخصمه بفضائل لم يزعمها لنفسه (٧) ، وكذلك مفاخرة قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدواني اثر حروب كانت بين قوميهم ، فان أقسى ما بلغه قيس من ابن الأحب قول قيس :

غداة توليتم وأدبر جمعكم وإبنا بأسراكم كانا ضراغم (٨)
والذى نريد أن نلفت النظر اليه أنه كان بعضهم قد تحدث كثيرا في مجال الاعتزاز بالقبيلة ، الا أن هذا الاعتزاز لم يطف على شخصياتهم كما طغى في شعر كثير من غير الصعاليك ، وإنما تحس أن شخصية الصعلوك هي البارزة ، وهي التي يجعلها الصعلوك محورا لكل شيء ، وكان قوة قبيلته أوجيه سلاح من أسلحة قوته هو كسائر الأسلحة التي يدعم بها صراعه وقوته .

٣ - المدح :

لم يكن الشعرى الجاهلي الأولى كما هو معروف وسيلة للكسب ، ثم عرف الشعراء طريقهم الى الكسب بالشعر على يد نفر منهم في مقدمتهم النابغة

(١) انظر الاصمعيات ٥٦ - ٦٣ .

(٢) انظر الكامل للمبرد ٣٠/١ ، ٣١ .

(٣) انظر ديوانه ٩٧ .

(٤) انظر أغاني الاصمعيات ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

(٥) انظر ديوان الهذليين ٢٢٣/٢ - ٢٤٠ .

(٦) انظر أغاني الاصمعيات ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

(٧) انظر للمثال ديوان الهذليين ٢٣٠/٢ من شعر أبي المثلم « يا صخر ان كنت ذابن

تجمه .. » ردا على شعر صخر ٢٢٨/٢ « ماذا تريد بأقوال أبلغها .. »

(٨) مهذب الأغاني ١٠٤/١ .

شعر الصعاليك - ٣٢١

الذبياني ، ثم الأعشى وبعض من عاصرها ، وما جاء الإسلام حتى كان التكسب بالشعر قد وضع ، وأصبح مشهورا غير خفي ، ومعروفا غير منكر عليه ، فمنذ بدء الإسلام كانت رحلة الأعشى الى النبي صلى الله عليه وسلم متكسبا بقصيدته التي يقول فيها عن ناقته ورحلته الى النبي :

فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفي حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواضله نسدي

فانه وإن كانت رحلته لم تتم بسبب منع قريش اياه ، الا أنه كان معروفا أنه متكسب بقصيدته ، وأن النبي كان سيمنحه عطاء سمحا كهده الناس بسماحته دائما ، وكما أعطى شعراء آخرين وحين جاءت خلافة عمر كان الأمر أكثر شهرة وأوضح عرفا ، حتى ان عمر يقول مقرا للشعراء على تكسبهم بالشعر ، نعم ما تعلمته العرب ، أبيات من الشعر يقدمها المرء بين يدي حاجته ، .

واذن فقد كان التكسب بالشعر سبيلا غير خفية ولا منكرا عليها ، سواء في الجاهلية والإسلام ، بل كثيرا ما رفع التكسب بالشعر بعض الشعراء في مكانتهم ومعيشتهم الى مستوى السادة والأمراء ، كما كان النابغة في أيامه مع آل المنذر ، وكما كان شعراء كثيرون في الإسلام ، وقد يسأل سائل هنا : فلماذا لم يرح شعراء الصعاليك أنفسهم من هذا العذاب الأليم الذي عانوه في الصعلكة ليتكسبوا بشعرهم ، خاصة وأن التكسب بالشعر لم تكن فيه غضاظة على شاعر ؟

والجواب أنها عزة النفس ، والحرص على حريتها في غير حدود لهذه الحرية ، هذه العزة وهذه الحرية التي لا تحد ، هي التي منعتهم من التكسب بالشعر ، وحيث ان لكل قاعدة شذوذا ، فان قلة قليلة جدا من الصعاليك ، تكاد تنحصر في بكر بن النطاح ، وأبي الطمحان القيني ، هما اللذان اتخذا شعريهما وسيلة للكسب في فترات من حياتهما ، وأما من عداهما من شعراء الصعاليك ، فقد أبى أن يبيع حريته وعزة نفسه لسيّد أو أمير لقاء أى شيء ، وأصرروا على التزام هذا المبدأ أشد الاصرار ، مفضلين مخاطر الصعلكة وشقاءها على التفريط في شيء من هذه العزة ، وقد صور الشنفرى وأبو خراش هذا الاصرار تصويرا واضحا ، حيث يقول الشنفرى :

وأستف تروى الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول (١)

بل يوضح اشارته الى التعفف عن أى أسلوب كاسلوب التكسب بالشعر
أو غيره فيقول :

ولولا اجتناب الدام لم يلف مشرب يعاش به الا لدى وماكل (١)

وأبو خراش يعبر عن هذا كله بقوله :

وانى لأثوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جردى
واغتبق الماء القراح فأنتهى اذا الزاد أسمى للمزج ذا طعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويعبر بكر بن النطاح عن شعار الصعاليك فى هذا المعنى قبل أن يتخلى
هو عن هذا الشعار فيقول :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل (٣)

فقد كانوا اذن يعرفون ان هناك وسائل سهلة وادعة للتكسب منها
التكسب بالشعر ، وكانوا يعرفون أنه يمكنهم أن يعيشوا من ورائها فى لين
ورغد ، ولكنهم فضلوا على هذا الرغد أن « يستقوا الترب » وأن « يثووا لجوع »
الى أبعد مداه ، لا لشيء الا « مخافة أن أحيا برغم وذلة » كما يقول أبو خراش ،
أو أن يرى أحد له عليهم « طولا » كما يقول الشنفرى .

وقد يثور سؤال آخر وهو : كان التكسب بالشعر يتمثل فى المدح ، فهل
معنى ذلك أن شعر الصعاليك خلا من المدح ؟ والجواب أنه ورد لنا فى شعر
الصعاليك مدح وإن لم يكن كثيرا ، ولكننا باستثناء الشذوذ كبير بكر بن النطاح
الذى انقطع فترة من حياته الى مدح نفر من السادة والأمراء كخربان بن عيسى
وأبى دلف متكسبا بذلك (٤) باستثناء هذا الشذوذ نلاحظ أن مدحهم
على قلة طابعا خاصا يتميز به ، وهذا الطابع يتضح فى ناحيتين ، أحدهما
أنهم فى أغلب الأحيان لا يقصدون المدح لذاته ، وإنما يكون مدحهم مرتبطا
بحياتهم فى الصعلكة ، أو شكرا على موقف نبيل كان فيه نفع لهم أو لم يكن ،

والناحية الأخرى أن مدحهم باستثناء الشذوذ أيضا الذى يكاد ينحصر
فى بكر بن النطاح وأبى الطمجان القينى . من أعف أساليب المدح ، وأبعده
عن التمجيد والمبالغة ، حيث يكتفى بسرد بعض الفضائل فى بساطة وحرص
على الحقيقة ، ومجافاة للغلو والتصوير والافراط اللائى يشعن فى مدائح غيرهم

(١) من اللامية أيضا والذام النم .

(٢) ديوان الهذليين ١٣٧/٢ ، ١٢٨ وأثوى يعنى أحبس والجرم الجسم والمزج النخيل

أو الضعيف والرغم الهوان والدل .

(٣) مهذب الأغاني ٨٤/٨ .

(٤) أنظر آمال القائل ٢٣٦/١ وكامل المبرد ٨٧/٢ ومهذب الأغاني ٨٤/٨ .

من الشعراء ، بل نلاحظ أن كثيرا من مدحهم لا يبرز في الممدوح إلا الصفات التي عرف بها الصعاليك أو اختصوا بها .

ومن هذا النوع الأخير مدح تأبط شرا لقريب له ، يصفه بالصبر ، والتنفل بين المخاطر والمهالك ، وسرعه العدو ، والحذر واليقظة ، والجرأة والاقدام ، ويصفه بإيثار الوحشة والعزلة على الأنس ، وبهذا يكون قد جمع فيه أهم ما يميز الصعاليك في صفاتهم فيقول :

به لابن عم الصديق شمس بن مالك كما هز عظمي بالهجان الاوارك (١) كثير الهوى شتى النوى والمسالك جحيشا ويعرورى ظهور المهالك (٢) بمنخرق من شدة المتدارك (٣) له كالي من قلب شيجان فاتك (٤) الى سلة من حد اخلق صائك (٥) نواجد افواه المنايا الضواحك بجيت اهدت أم النجوم الشوابك (٦)	اني لمهد من تنائي فقاصد اهز به في ندوة الحى عطفه قليل التشكى للمهم يصيبه يظل بمومة ويهسى بغيرها ويسبق وقد الريح من حيث ينتحي اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ويجعل عينيه ريثة قلبه اذا هزه في عظم قرن تهللت يوى الوحشة الانس الانيس ويهتدى
---	---

وأبو خراش له شعر في المدح ، ولكننا نجد مدحه اما لشخص يعتبر عضدا له في الصلعة وعونا على أعدائه كخالد بن زهير ، أو ذامنة ومكرمة ، كالشخص الذي أنقذ ابنه خراشا من القتل حين كان خراش مع عمه عروة في رحلة صلعة ، فقتل عروة ، ونجا خراش بفضل شخص ألقى عليه رداءه فحجبه عن القوم حتى عدا ونجا بنفسه ، فمدح أبو خراش هذا الرجل دون أن يعرفه (٧) وقيل في هذا أنه لا يعرف شاعر مدح من لا يعرفه قبل أبي خراش (٨) وفضالة بن شريك يمدح يزيد بن معاوية ، ولكن لا متكسبا ولا متوددا ، وإنما شاكرا له حمايته من أمير المدينة الذي طارد فضاله لهجائه عاصم بن عمر (٩) ، وقيس بن مشقة يمدح أسد بن كرز شاكرا له أنه تحمل عنه ما جناه ، ويمدح عدى بن عمر حين آواه بعد أن خلعه قومه وتبرأوا منه ، ويمدح عدى بن نوفل بسبب فك أساره هو وجماعة من قومه (١٠)

- (١) حماسة أبي تمام ٢٢/١ ، ٢٣ والهجان الايل الكريمة والادراك راعية شجر الادراك .
- (٢) المومة المفازة لا ماء فيها والجحيش المنفرد ويعرورى يركب .
- (٣) وقد الريح أولها وينتحي يقصد والمنخرق السريع والمتدارك المتلاحق .
- (٤) حاص خاط والكرى النوم الخفيف والكال الحافظ والشيجان اللاتك الحازم .
- (٥) الريشة بمعنى الرقيب والسلة المرة من سل السيف والاخلق الأملس والصائك القاطع .
- (٦) أم النجوم معنى الشمس أو اللجرة يريد أنه يستأنس بالوحدة ولا يفضل في سراه بالليل .
- (٧) انظر ديوان الهذليين ١٥٧/٢ وحماسة أبي تمام ٣٢٦/١ .
- (٨) انظر شرح حماسة أبي تمام عن التبريزي ٣٢٦/١ عن الأصمعي وأبي عبيدة .
- (٩) انظر مهذب الأغاني ٣١٠/٢ .
- (١٠) انظر الأغاني الإصطهالي ١٤/١٤٤ - ١٦١ .

وكذلك مدح قليل من مالك بن أريب لسعيد الوالى على اجرائه عليه رزقا (١)
ولكنه كما تفيد القصة والشعر لا يعتبر تكسبا .

٤ - الهجاء

ولئن كان مدح الصعاليك لغيرهم لم يجر على عزة نفوسهم ، ولم ينزل الى التهاافت والمغالاة فان هجاءهم كان أدل على خلقهم ، وأقرب الى أن يكون ممثلا لطابعهم الذاتى فى صفاتهم الشخصية ، والاجتماعى فى خلقهم العام . على أن بعضهم تعفف عن الهجاء قاطبة كعبدة بن الطيب الذى ترفع عن الهجاء (٢) وحين ننظر الى هجاء الصعاليك لغيرهم نجد أول ما يباهنا منه عفة بالغة فى الألفاظ والمعانى ، فلا نعلم صعلوكا قط جنح الى الاسفاف والاقذاع فى هجائه لأحد مهما يبلغ بينهما من عدا ، ثم نرى بعد ذلك أنهم يعفون عن أن يجعلوا سبب هجائهم لأحد سببا من الأسباب الشائعة لدى الشعراء . كحرمان من عطاء ، أو تكوص عن قرى وضيافة ، لأنهم لا يطلبون عطاء ، ولا يلمسون قرى وضيافة ، باستثناء الشذوذ فى هذا المعنى كهجاء فضالة بن شريك لعاصم بن عمر لعدم استضافة عاصم إياه (٣) ، وانما يغلب على هجائهم أن هجوا أن يكون سببه العداوة (٤) ، أو موقف خصومة أو إيذاء صدر من المهجو ، بل أحيانا يكون سببا انسانيا نبيلًا لا نعلم أن أحدا تأثر به من الشعراء غير الصعاليك ، كقصّة أبى خراش مع غاسل السعدى الذى قتل جارا له ، مع أن غاسلا كان من قبيلته ، ولكن أبى خراش لأمه بشعره لومًا عنيفًا على هذه الفعلة التى يابها الخلق الكريم ، وتكرها تقاليد العروبة ، وكان القتل غلاما تميميا من بنى حنظل ، ومن لوم أبى خراش لغاسل على قتله .

أبات على مقرأك ثم قتلتني على غير ذنب ذاك جد بك الشكل
فهل هو الا قوبه وسلاحه وما بكم عرى اليه ولا عززل (٥)

وقد تهاجى صخر الغى مع أبى المثلج فى منافراتهما ، ولكننا نجده هجاء بالغ العفة ، حتى ليحسبه الحاسب عتابا بين صديقين ، على ما بين صخر

(١) أنظر مذهب الأغاني ١٠/٥ .

(٢) أنظر شرح حماسة أبى تمام عن التبريزي ٣٢٨/١ .

(٣) المصدر السابق ٣١٠/٢ .

(٤) أنظر ديوان الهذليين ٢٢٣/٢ - ٢٤٠ بين صخر الغى وأبى المثلج .

(٥) أنظر ديوان الهذليين ١٢٤/٢ - ١٦٦ والمقري القصة يقرى فيها الضيف وجد بك الشكل دعاء على القاتل ومعنى الشطر الأخير لستم عريا ولا عزلا من السلاح حتى تقتلوه من أجل ثوبه وسلاحه .

وابى المثلم من عداء (١) والأعلم الهذلي وإن كان أيضاً قليل الهجاء ، إلا أن هجاءه على قلته يمتاز دائماً بطابع معين ، وهو كونه صدى لحياته في الصعلكة ، وهو ما لم يؤلف في الهجاء ، فأحياناً يشبه مهجوه ببعض مرثياته في حياة الصعلكة فيشبهه بالضبع في عدم عفة نفسها وتخنثها (٢) وأحياناً يصفه بقصور الهمة عن مراتب السيادة ، ثم يبين له مراتب السيادة فإذا بعضها من صفات الصعاليك (٣) .

ولعل أكثر من بلغنا في شعرهم هجاء فضالة بن شريك ، وهو وإن كان هجاؤه يعتبر من الشذوذ في شعر الصعاليك ، حيث أنه هجا لمنع العطاء وكف القرى عنه ، إلا أن هجاءه يتسم مع نبيله من المهجو بعدم الفحش والاقذاع فقد هجا عاصم بن عمر لأنه لم يقره فكان مما قاله :

ألا أيها الباغي القرى لست واجداً قراك إذا ما بت في دار عاصم
ثم تذكر أباه عمر فخفف من غلواء هجائه قائلاً :

ولولا يد الفاروق قلدت عاصماً مطوقه يخزى بها في المواسم (٤)

وكذلك هجا عبد الله بن الزبير لتجاهل ابن الزبير عطاءه (٥) ، حين قدم على ابن الزبير قائلاً : إن ناقتي تعبت ودبرت ، فقال له ابن الزبير : ارقعها واخضعها ، قال فضالة : إنما جئتكم مستحملاً لا مستشيراً ، فلعن الله ناقته حملتني إليك ، قال ابن الزبير : إن وراكبها (٦) ، ثم قال فضالة من هجائه :
شكوت إليه أن تعبت قلوصي فرد جواب مشدود الصفاد
يضمن بناقة ويروم ملكاً محال ذلكم غير السداد (٧)

ويبدو أن فضالة كان نزاعاً إلى الهجاء مع عفة الفاظه ، فقد قلنا أنه يعتبر شاذاً بين الصعاليك في هجائه من ناحيتين ، أحدهما أنه أكثر من بلغنا هجاءه في شعره منهم ، والأخرى أنه الوحيد من بينهم الذي بلغنا أنه هجا لعدم القرى والعطاء ، وكان مظهر مقدرته في الهجاء أننا نجد لهجائه وقفاً بليغاً عميقاً يهز كيان المهجو مع عدم الفحش في الهجاء ، والمتأمل في هجائه يجد أنه بارع براعة

(١) انظر الهذليين/ ١٢٣ - ١٤٠ .

(٢) انظر المصدر السابق ٨٦/٢ ، ٨٧ .

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢٧٥/١ بيتان أولهما (وإن سيادة الأقسام) والذي بعده

(٤) انظر مهذب الأغاني ٢١٠/٢ .

(٥) قيل أن ابن فضالة هو صاحب القصة المذكورة وليس فضالة نفسه .

(٦) انظر مهذب الأغاني ٢١٠/٢ وإن بمعنى نعم وراكبها أي لعنها الله ولئن وراكبها .

(٧) المصدر السابق ومشدود الصفاد كناية عن البخل من قوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة

إلى عنقك .

بينه في إصابة المواضع القاتلة من مهجوه ، ففي هجائه السابق لعاصم بن عمر بن الخطاب ، يصيب نقطة خطيرة من عاصم تكفي لهدم مركزه في مجتمعه ، فمن أهم مفاخر قريش في العرب منذ القديم الانتماء الى قريش نفسها ، ولكن فضالة يريد أن يستل عاصمًا من مجد قريش فيقول في أسلوب البساطة :

فتى من قريش لا يجود بنائل ويحسب أن البخل ضربة لازم

وفي قوله « فتى من قريش لا يجود بنائل » شيء من التعجب الخفي ، وكذلك مع ابن الزبير ، كان أهم ما يطمح اليه ابن الزبير ويقا تل من أجله بلوغه الخلافة ، ولكن فضالة يضع بينه وبين الخلافة عقبة صلبة ، ويعتمد أن يحاربه في أهم آماله حيث يقول : « يضمن بناقة ويروم ملكا ؟ » ولو كان ابن الزبير يدرك ما لهذه العبارة من أثر في الدعاية ضده لمأله الوادى نوقا وكذلك فعل فضالة بن شريك مع ابن مطيع الوالى الذى كان يدعو لعبد الله ابن الزبير بالكوفة مبايعا له ، ثم استحوذ على الأمر المختار بن عبيد (١) فقال فضالة يهجو عبد الله بن مطيع هجاء بالغا ، مع أنه لم يكده يهجو منه غير كفه ، ولم يهج كفه ببخل أو شيء ، غير شكلها وملمسها ، فيقول (٢) .

دعا ابن مطيع للبياع فجئته الى بيعة قلبي بها غير عارف
فقرّب لي خشناء لما لمستها بكفى كم تشبه أكف الخلاف
معوذة حمل الهراوى لقومها فرورا اذا ما كان يوم التسايف
من الشنات الكزم أنكرت لمسها وليست من البيض السباط اللطائف (٣)

٥ - الرثاء :

وأما رثاء الصعاليك لغيرهم فقد كان أضيق نطاقا ، حيث لا نجد في شعرهم رثاء الا لدى نفر محدود منهم ، ويتسم رثاؤهم بالطابع الشخصى . بمعنى أنه لا يبدو أن الرثاء غرض مقصود لذاته لديهم ، وإنما كان تنقيسا عن عواطف حقيقية أحسوا بها ، وذلك لأننا نجد الذين رثاهم الصعاليك ذوى صلة شخصية وثيقة بهم ، كان يكون المرثى ابنا أو أخا أو زميلا فى الصعلكة ، أو معينا فى وجه من وجوه حياتهم .

فمثلا نجد أبا خراش ورد فى شعره رثاء كثير ، ولكنه جميعا لأشخاص تنطبق عليهم الصلات السابقة ، فقد رثى أخاه عروة الذى كان فضلا عن اخوته

(١) انظر هامش البيان والتبيين ١٥/٣ وانظر مهذب الأغاني ٢١٢/٢ .
(٢) ذكر الجاحظ الشعر الآتى فى البيان والتبيين ١٥/٣ غير منسوب لأحد ولكن الأصقهانى ساقه للفضالة فى ترجمته وحديثه عنه انظر مهذب الأغاني ٢١٢/٢ نقلا عن الأغاني .
(٣) انظر مهذب الأغاني ٢١٢/٢ وفى البيان والتبيين للجاحظ ١٥/٣ خلاف فى الترتيب وبعض الألفاظ .

زميلا في الصعلكة (١) ورثا نفرا من اخوته الأشقاء بنى لبني (٢) ورثي زهير بن العجوة الذي قتله المسلمون في عزوة حنين (٣) ورثي دبيعة السلمى سادن العزى الذي قتله خالد بن الوليد (٤) ويبدو من حديثه أنه كان صديقا له ، ورثي زهير أخاه حين قتله بنو لحيان (٥) ، ورثي خالد بن زهير صديقه وزميله (٦) .

وصخر ألقى رثى أخاه عبد الله (٧) ، وكذلك يرثى ابنه (٨) ، وله قصيدة أخرى في رثاء ابنه فيها حزن عميق ، حيث يشبه صخر نفسه بحال حمامة مفجوعة في مخاطبة مع هذه الحمامة ، هو يشكو إليها فجيرة فقد ابنه تليد ، وهي تشكو إليه فقد فرخها الذي سماه « ساق حر » ، ومن هذا الشعر يقول :

وما أن صوت نائحة بليل بسبل لا تنام مع الهجود
تجهنا غادين فساءلتنى بواحدنا وأسأل عن تليد
فقلت لها فاما ساق حر فبان مع الأوائل من تمود
وقالت لن ترى أبدا تليدا بعينك آخر العمر الجديد
كلانا رد صاحبه يياس وتانيب ووجدان بعيد (٩)

ومن أشهر رثاء الصعاليك ، رثاء عبدة بن الطبيب لقيس بن عاصم المنقري ، الذي نأفسه فيه بمض الشعراء فلم يلحقوه (١٠) ، وهو

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمها
تحية من غادوته غرض الردى اذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما (١١)

وقد أشار الى صلته به ، وسبب رثائه بقوله « من غادوته غرض الردى »
يعنى نفسه .

(١) انظر ديوان الهذليين ٣٦/٢ - ١٣٨ .

(٢) المصدر السابق ١٢٣/٢ .

(٣) المخدر السابق ١٤٨/٢ - ١٥٠ ، ١٥٧/٢ .

(٤) المصدر السابق ١٥٥/٢ . ١٥٦ .

(٥) انظر معجم ما استعجم للبكري ٥٣٠/٢ .

(٦) انظر ديوان الهذليين ١٥١/٢ - ١٥٤ .

(٧) المصدر السابق ٥١/٢ ، ٥٢ .

(٨) المصدر السابق ٦٢/٢ .

(٩) ديوان الهذليين ٦٧/٢ .

(١٠) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١٢٢/١ .

(١١) حساسة أبي تمام ٣٢٨/١ والشحط البمد .

٦ - الغزل :

ومهما تكن عزلة الصعاليك ، ونأيهم عن المجتمع ، وإيثارهم للعزلة ، فهم بشر ، فيهم ما فى الناس من عواطف وغرائز ، ولذلك لم يكن غريباً أن يكون فى شعرهم غزل ، بل الغريب ألا يكون

وليس يعنينا كثيراً غزلهم لذاته ، وإنما يعنينا طابعهم فى الغزل ، ومنهجهم فى حديثهم عنه . وأول ما يطالعنا من طابع الصعاليك فى الغزل العفة فى أكرم صورها ، سواء فى حديثهم عن عواطفهم وأشواقهم ، أو عن صفات حبيباتهم وخلقهن ، وستأتى لهذا الحديث بسطة ، ثم أمر آخر يبدو واضحاً فى غزل الصعاليك ، وهو الواقعية الحقيقية ، والصدق فى تصوير صلاتهم العاطفية ، مما يتبين منه أنهم يتحدثون عن حقائق عاشوها وتأثروا بها ، خاصة وأن بعضهم كان من مشهورى العشاق فى العرب ، كتوبة بن الحمير صاحب الحب المشهور مع ليل الأخيلىة (١) وعمرو بن عجلان الذى ضرب به المثل فى الحب (٢) ، فليس فى غزلهم شطحات الخيال ، ولا أوهام الأمانى الكاذبة ، وهناك أمر آخر يتميز به غزل الصعاليك ، وهو شبيوع الغزل بالزوجات (٣) وهو ما لم يؤلف فى غزل الشعراء ، حتى أن النقاد عدوا رثاء جرير لزوجه الذى يقول فيه :

لولا الحياء لها جنى استعباد ولزوت قبرك والحبيب يزاد

عدوه غريباً فى الشعر العربى ، وبين الرثاء والغزل رابطة ، كما أن بين الرثاء والمدح رابطة أيضاً ، ومعنى ذلك أن الغزل بالزوجات غير مألوف ولا شائع فى الأدب العربى ، وهو حقيقة ، ولكن الصعاليك يشيع فى غزلهم الغزل بالزوجات بل لا تقل حرارة عواطفهم فى أكثر الأحيان حين يتحدثون عن أزواجهم عنها حينما يتحدثون عن حبيباتهم ، ويمكن تحليل ذلك نظرياً بكثرة أسفار الصعاليك وتنقلهم بين أماكن متباعدة تضطرهم إلى الاغتراب والبعد المتواصل ، فيجدون فى هذا البعد من الحنين إلى أزواجهم ما يجده العاشق المحروم من حنين إلى من يعشق ، ومن المعروف أن الحرمان روح الحب وأنه كلما فقد الحب شيئاً من الحرمان فقد جانباً من حدته ، وفى أسفار الصعاليك وبعدهم عن أزواجهم ما يحقق كثيراً من هذا الحرمان .

وثمة أمر رابع يبدو فى غزل الصعاليك ، وهو ابتكار معان كثيرة لا نعلم أنهم سبقوا إليها ونعتقد أن الصدق والتجربة الحقيقية كانت أهم الدوافع فى ابتكار هذه المعانى .

(١) انظر الشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخالجي وحسانة ابن تمام ١٠٨/٢

(٢) انظر أمالي القالى ٢١٦/٢ .

(٣) انظر مثلاً الأصمعيات ٥٧ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م خالجي

وحين تسوق بعض الأمثلة للميزات السابقة ، نقول : من أمثلة السمة الأولى في غزلهم وهي العفة ، قول الشنفرى يصف امرأة :

فيا جارتى وانت غير مليمة اذا ذكرت ولا بذات تقلت (١)
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها اذا ما مشيت ولا بذات تلفت
تيبت بعيد النوم تهلى غبوقها لجارتها اذا الهدية قلت (٢)
تخل بمنجاة من اللوم بيتها اذا ما بيوت بالمذمة حلت (٣)
كان لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها ، وإن تكلمك تبلى (٤)
أمية لا يغزى نثاها حليلها اذا ذكر النسوان عفت وجلت (٥)
اذا هو أمسى أب قرة عينه مآب السعيد لم يسئل أين ظلت (٦)

وأما عن السمة الثانية وهي الواقعية ، فنقول ان واقعية غزل الصعاليك ليس معناها انها فى طابع أو معان واقعية ، وانما معناها انهم عانوا ما تحدثوا عنه من غزل حقيقة ، ومعانيهم فى واقعيتهما وقربهما من الحقيقة تزيد ذلك بل هناك معان تبدو متسمة بالخيال المبعد كقول جحدر بن معاوية :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تلماني
نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علانى (٧)

فمثل هذا المعنى يبدو لذاته مسرفا فى التخيل ، مبعدا عن الواقع ، من حيث أنه يقنع بأن الليل يجمعها ، وانهما يريان الهلال معا ويعلوها النهار معا ، وأنه يعد ذلك تدائيا بينهما ، ولكننا حين نلم بظروف الشاعر نعلم انه لا خيال ولا تكلف ، فان جحدرا قال هذه القصيدة وهو مودع فى سجن الحجاج يترقب قتله جزاء جنایات جناها فليس فى مستطاعه حين قال ذلك ، بل وليس فى أمله من لقاء بينهما الا فى هذه المشاركة الطبيعية ، والعزاء النفسى كذلك من الواقعية البينة الصديق لهجة قيس بن الحداذية فى غزله بنعم بنت ذؤيب على كثرة غرله بها ، ومن أمثلة ذلك عى عزله بها انه لم يجنح الى الخيال أو المثالية الانسانية التى يعزى اليائسون بها أحيانا أنفسهم ، وانما كان واقعيا فى أمله فيها ، وواقعيا فى خوفه من أن يبعد البعد قلبها عنه ليدنيه من شخص آخر ، وكان واقعيا فى ثورته على هذه الصورة ، معرضا بالدعاء

(١) المفضليات ١٠٨ ، ١٠٩ ومليمة أى غير ملومة ولا بذات تقلت أى لا يقال فيها انها ذات تقلت وتقلت من القتل وهو البلى .

(٢) القبول شراب الليل يعنى تؤثر جارتها بشرابها .

(٣) روى البيت باختلاف فى اللفظ .

(٤) النسي المنسى والام يفتح الهزة القصد وتبلى توجز .

(٥) التماسية القالب وحليلها زوجها .

(٦) أب رجع وقرة عينه يعنى قرير العين والجملة الأخيرة يعنى ملازمة بيتها .

(٧) أمال القائل ٢٧٨/١ .

عليها وعلى من تختاره ، ألا يذوقا لذة عيش ، ولا يحرما من فجيعة ، جزاء
نكرانها وتحولها عنه ، فيقول من ذلك :

فان كانت ا لايام يا ام مالك تسليمك عني وترضى الاعاديا
فلا يامنن بعلى امرؤ فجع لذة من العيش أو فجع الخطوب العوافيا (١)
ويقول عن صلتها به ، ومبلغ عفتها في هذه الصلة :

قد اقتربت لو ان فى قسرب دارها نوالا ولكن كل من ضمن مانع
وقد جاورتنا فى شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع (٣)

واما غرلهم بالزوجات فقد شاع فى شعر نفر منهم ، على رأسهم عروة
ابن الورد ، ومالك بن حريم ، وعبد بن الطبيب (٣) .

وأما المعانى التى لا نعلم ان أحدا سبقهم اليها ، والتى كانت موردا
للشعراء من بعدهم ، والتى نعتقد ان المعاناة الحقيقية ، والصدق ، هو الذى هيا
لهم هذا السبق بها ، بالاضافة طبعا الى قوة شاعرية السابقين منهم بهذه
المعانى .

ومن هذه المعانى قول الشنفرى فى الوصف بالعفة والحياء :

كان لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها ، وان تكلمك تبلى (٤)

وإذا كان قول النابغة الذبياني فى وصف المتجردة زوج النعمان :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظرت السقيم الى وجوه العود

أدل على جمال العينين وأكثر احياء بالانوثة ، فان وصف الشنفرى أدل
على العفة والحياء بالاضافة الى احياء أخرى يوحىها بيت شعره ، على أن بيت
الشنفرى أكثر ملاءمة لحلقه ، وأدل على ما يريد التعبير عنه ، فان اتجاهه فى
شعره كله فيما يتعلق بالغزل هو العفة البالغة ، سواء من ناحيته هو ، ومن
ناحية من ارتضاها حبسية له ، فى حين يعتبر بيت النابغة غير مستوف
لما يقتضيه الحال مما ينزل بدرجة فى ميزان البلاغة التى تعتمد على مراعاة
مقتضى الحال ، ومقتضى الحال لشاعر كالنابغة يصف امرأة ملك محسن اليه
كالنعمان أن يفضل وصفها بالعفة على ما يوحى بأنه غزل بها ، ولو قال النابغة
مثل بيت الشنفرى مكان بيته لكان أبلغ وأنسب لما يقتضيه المقام .

(١) أغاني الأصمهاني ١٥٤/١٤ .

(٢) أنظر مهذب الأغاني ١٠٢/١ .

(٣) أنظر للمثال ديوان عروة بن الورد ، والمفضليات ٣٥ . ١٣٦ ومصادر مالك بن حريم

فى ترجمته .

(٤) المفضليات ١٠٩ والنسي المنسى وقصصه تفتى الزه والام بفتح الهزة القصد وتبلى توجز

ومن هذه المعاني التي تفوق بها الصعاليك ، وكانت موزدا للشعراء من بعدهم ، قول بكر بن النطاح الحنفي :

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو وحف اسحم (١)
فكانها فيه نهار سساطع وكأنه ليل عليها مظلم (٢)

فالبیتان وخاصة الثاني منهما كان معناهما موزدا لشعراء كثيرين بعد بكر بن النطاح ، حتى عصرنا الحاضر .

ومن هذه المعاني أيضا ما سبق من قول جحدر بن معاوية :

ليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني (٣)

ويزيد جحدر عن أخذوا هذا المعنى انه أقربهم الى الحقيقة والاقناع لانه قال ذلك وهو يائس في سجنه .

ومن الحق أن نضيف الى ما سبق من سمات غزل الصعاليك سميتين أخريين ، قد تكونان أكثر تمييزا لغزلها من السمات الأخرى ، لوضوحهما وكونهما حسييتين لا تحتلان التأويل واختلاف الرأي .

واحدى السمتين أننا كثيرا ما نجد غزل الصعاليك يأتي في حشو القصيدة (٤) ، لا مطلقا لها كما هو مألوف لدى الشعراء ، ونحن نحاول أن نلتمس أوضح تعليل لذلك نقول انه الصديق للصعاليك يتحدثون دائما عن واقع حياتهم ، وشعرهم دائما يمثل مشاغلهم ومشاكلهم وما يعانونه في الحياة فحين ينشئ الواحد مثلا قصيدة يغلب أن تكون تعبيراً عن شواغل نفسه وما يعانيه في حياته ، فينحدث عن هذه الشواغل ، وقد يكون من بينها حب يعاينه ، فلا يعنيه أن يكون أول القصيدة أو آخرها ، إنما يعنيه تعبيره عن احساسه به كما يعبر عن احساسه بأي شئ من الأغراض التي احتوتها القصيدة ، أما الشعراء الآخرون ، فهم بالنسبة للغزل بين حالتين ، أما أن تكون القصيدة مقصورة على الغزل ، ومن الطبيعي في هذا أن تكون مبدوءة بالغزل

(١) أمال القائل ٢٢٤/١ حساسة أبي حاتم ٩٤/٢ والفرع يعني الشعر والوحف الكثير الاسود والمحم لون .

(٢) عل متواله نسج شعراء كثيرون منهم عل محمود له في قوله ودخلت في ليلين شعرك والجبى ولثمت كالصبح المنور فاك .

(٣) أمال القائل ٣٧٨/١ .

(٤) انظر للمبال ديوان الهذليين ٧٣/٢ وأمالي القائل ٢٧٨/١ ومهذب الأملاني ١١/٥ الأول من غزل صخر الغي والثاني لجحدر بن معاوية والثالث لمالك بن الربيع والنظر الاصمعيات ٥٧ لمالك بن حريم .

واما أن يكون هدف القصيدة غرضاً يستدعى بدهما بالتشويق كالمسح وطلب
العطاء فيبدؤها بالغزل .

والسمة الأخرى أنه باستثناء الأفراد الذين اشتهروا بحب امرأة معينة
كتوبة بن الحمير صاحب ليلي الاخيلى (١) ، وقيس بن الخداديّة صاحب نغم بنت
ذؤيب (٢) نجد الغزل ليس من الموضوعات الأساسية ، أو الأغراض البارزة
في شعر الصعاليك ، حيث نجده في أغلب الأحيان غرضاً عادياً يتحدثون عنه
كما يتحدثون عن سائر مشاغل حياتهم وآلامها وهمومها ، ولعل هذا من أسباب
كون غزلهم يأتي كثيراً حشواً في القصيدة لا مطلقاً لها .

الخلق الاجتماعي للصعاليك

ولسنا نريد الحديث عن خلق الصعاليك بصفة عامة ، فإن كثيراً مما سبق
يمثل خلقهم ، كالصبر والجرأة وقوة الإرادة والحزم ، والحذر واليقظة ونحوهم
فهذه ولاشك صفات لهم ، وتعتبر خلقاً لهم ، ولكنها صفات ذاتية شخصية
كان تأثيرها في ميدان صعلكتهم حتى أنهم تسلموا بها لنجاحهم في حياة
الصعلكة ، ولم يكن يتسنى لهم أن يكونوا صعاليك بدونها .

ولكننا هنا نريد أن نتحدث قليلاً عن الجانب الاجتماعي في خلق الصعاليك
والصلات والروابط الاجتماعية كثيرة متشعبة ، ولكننا كهدف البحث كله
نقتصر منها على الجوانب التي كان للصعاليك فيها طابع معين ، ومنهج متميز
عن غيرهم ، وفي هذا النحو كان للصعاليك ثلاثة جوانب ، لهم في كل منها
طابع خاص ، ومسلك معين يمتازون به في جملتهم عن غيرهم ، ويمكن حصر
هذه الجوانب فيما يأتي :

١ - الصلة الشخصية :

فقد كان كما يبدو من شعرهم لهم اتجاه معين في صلاتهم وصدقاتهم
الشخصية من حيث الصفات التي يرونها لازمة فيمن تروق لهم الصلة به ،
ومن حيث سلوكهم هم نحو من تربطهم به صلة شخصية .

(١) أنظر مصادره في ترجمته وللشاعر الشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الغاني وحسامه

أبي تمام ١٠٨/٢ .

(٢) أنظر مصادر ترجمته فيما سبق وللشاعر الغاني الأصفهاني ١٥٤/١٤ وما بعدها حيث

ساق له غزلاً كثيراً .

٢ - العنفة :

حيث يبدو واضحا من شعرهم ان نفوسهم كانت تتميز بطابع خلقي ممتاز بنبيله وسموه ، في عفتها عما من شأنه أن يكون حطة خلقية ، أو سبة اجتماعية وخاصة فيما يتعلق بالأعراض .

٣ - الاشتراكية :

وقد كان للصعاليك طابع اشتراكي من حقه أن ينوه به ، حيث لمع هذا الخلق الأصيل فيهم منذ الجاهلية الأولى بين ظلمات ظلم اجتماعي حالك ، وفي مجتمع كان من هذه الزاوية بالذات كالسماك يأكل كبيره صغيره ، حتى أن الذي يشذ بمظهر فردى من مظاهر التعاون والتعاطف الاجتماعي كان ينظر اليه بعين الاكبار والاعجاب لغرابة سلوكه بالقياس الى الوضع العام في المجتمع ، ولكن الصعاليك كانوا في هذا الميدان يمثلون غرة في مجتمعاتهم ، ولكن هذه الغرة لم يقدر لها اللعان والبروز لظروف أحاطت بالصعاليك كما سيأتى .
وهذه الجوانب على انحصارها تبرز الأطار العام لوضعهم في المجتمع ، وتشمل أهم النواحي التي تربط فردا أو طائفة بمجتمعه .

١ - الصلة الشخصية

بطالعنا في الصلات الشخصية للصعاليك طابع معين يغلب عليهم جميعا هو بعد صلاتهم عن التفاف الاجتماعي ، مما يسميه الناس إدارة أو سجاملة أو مصانعة ، فهم لا يقرون هذه المصانعات ، ولا يعترفون بالمداورة والمواربة وإنما يؤثرون دائما الصراحة الواضحة في صلاتهم ، بحيث نشعر بأنه ليست هناك مرحلة وسط عندهم بين الصداقة والعداوة فاما صداقة خالصة نقية ، وأما عداوة صريحة بيينة ، أما ما بينهما من مصانعات ومداورات والتواءات وسائر الأصابع التي تغطي الوجوه غير المحبوبة فلا يعترفون بها ولا بقرونها ويمكن تعليل ذلك بأن اشتراك المصالح والمنافع ، والاحتكاك الدائم بين الناس في صلاتهم بعضهم ببعض ، يضطرهم الى المصانعة والمداورة والتجاهل ، لأنه لا تستقيم حياتهم الاجتماعية الا بذلك ، ولو كشف كل منهم ما في نفسه للآخرين من مطامع وعواطف بأنواعها وتضاربها لتحولت حياة الناس الى حرب دائمة لا هوادة فيها ، فهم مضطرون الى تجاهل ما في نفوس الآخرين نحوهم ، وتعطية ما في نفوسهم نحو الآخرين ، حتى تستقيم لهم الحياة

أو تكون أدنى الى الاستقامة ، أما الصعاليك فبحكم أشياء كثيرة منها عزلتهم التي تتيح لهم الاستغناء عن حياة الناس بما فيها ، ومنها فقرهم الذي لم يبق لهم شيئاً يصنعون الناس من أجله ، ومنها طبيعة نفوسهم المقطورة على القوة التي لا يحتاجون معها الى منافقة أو مداورة تحميمهم من غيرهم ، بحكم أشياء كثيرة منها هذه الأشياء لم تكن بالصعاليك حاجة الى أن يضعوا في صلاتهم مرحلة وسطا بين الالف والرغبة أو الصداقة ، وبين العداوة ، فاما أن يكون المرء بالنسبة اليهم مرغوبا فيه بأى مرتبة من مراتب الرغبة ، واما أن يكون مرغوبا عنه بأى مرتبة من مراتب النفور ، ولكن في كلا الحالتين لا يخفون ما في نفوسهم عنه ، ولا يضللونه ، كما أنهم لا يحاولون تضليل أنفسهم .

هذا شعار عام للصعاليك في جملتهم ، نحسه من خلال شعرهم ، حيث نراهم ينبذون من لا يجدون لنفوسهم رغبة فيه على النحو الذي أشرنا اليه ، وأما الذين يجدون في نفوسهم رغبة فيه ، فنشعر من خلال شعرهم أنهم يؤثرون فيه صفات معينة ، معظمها صفاتهم كصعاليك وكأصحاب خلق معين وهم بهذا يسلكون الطريق الطبيعي في الصداقة ، فمن المعروف ان أوثق الصداقات ما قامت على تشابه وتقارب بين الصديقين .

وهذا تابط شرا يبين لنا مذهبه في الصداقة ، فيقول ان الصداقة الواهية التي لا يرجي منها بذل ولا تضحية في الشدائد ينبذها غير مشتاق اليها . ولا مشفق من نبذها فيقول :

انى اذا ما خللة ضنت بنائلها واسكت بضعيف الوصل احذاق (١)
نجوت منها نجائي من بجيلة اذ القيت ليلة خبت الرهط اوراقى (٢)
ثم - ولا أقول اذا ما خللة صرمت يا ويح نفسى من شوق واشفاق (٣)

ويبين الصفات التي يلتصقها ليكون صاحبها صديقا محببا اليه ، وهي صفات كثيرة ، ولكن تبرز من بينها صفات للصعاليك وخاصة في البيت الثالث مما يأتى :

لكنما عولى ان كنت ذا عول على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد فى عشيرته مرجع الصوت هنا بين اوراقى (٤)
عارى الظنابيب مهتد نواشيره مدلاج ادهم واهى الماء غساقى (٥)

-
- (١) المفضليات ٢٨ والخللة الصداقة والوصل يعنى حبل الصداقة والاحذاق المتقطع .
(٢) بجيلة قبيلة أسرته ثم نجا منها والخبت اللين من الارض والرهط موضع وأوراقى يعنى بذلت جهدى عدوا .
(٣) صرمت قطعت .
(٤) مرجع الصوت تأمر وتنهى وهذا رائعا صوته يعنى رئيس جماعته أو عصابته .
(٥) الظنابيب حروف عظم الساق والنواشر عروق ظاهر الذراع يعنى مزاله .مدلاج كثير سفر الليل والادهم الليل . وواهى الماء صفة الليل يعنى شديد المظلم .

جمال الآية شاهد اندية قول محكمة جواب آفاق (١)

فمن أهم الصفات التي يطلبها اذن في صديقه أن يكون نحيلا ، كثير الحركة والعمل في الليل جوابا للآفاق ، وكأنه يشترط أن يكون صديقه صعلوكا وهو فعلا ما يريد أن يقوله وبعد هذه الأبيات أبيات أخرى تؤكد هذا المعنى .
والشغفري يصوغ هذا المعنى في صورة أخرى ، فهو أن أحس في الصداقة شكاً أو شيئاً يشكوه أعرض عنها لاجئاً الى قوته ، مبيناً انه بين حالين لا ثالث لهما ، فهو حلو لمن طلب خلواته ومر اذا توجس أو انكرو من أحد شيئاً ، وليس ينتظر منه بين الحالين حال أخرى فيقول :

الا لا تمدني أن تشكيت خلتي شغاني بأعلى ذي البريقين عدوتي (٢)
واني خلو أن أدركت خلوتي ومر اذا نفس الغزوف استمرت (٣)
أبي لا أبي سريع مباءتي الى كل نفس تنتحي في مسرتي (٤)

ويعبر الشغفري مرة أخرى عو هذا المعنى في صورة أخرى أيضا فيقول :

واني كفاني فقد من ليس جازيا بحصني ولا في قريبه متعل
ثلاثة اصحاب فؤاد مشيع وابيض اصليت وصفراء عيطل (٥)

وسعد بن ناشب يعبر عن هذا أيضا ، فيجعل نفسه في طرفين متباعدين فهو اما حلو كريم ، واما شرس عنيف ، ولكنه حين يعنف فلا حدود لشراسته وعنفه فيقول :

تفندني فيما ترى من شراستي وشدة نفسي أم سعد وما تدرى (٦)
قللت لها أن الكريم وأن حلا ليلفي على حال أمر من الصبر
وفي اللين ضعف والشراسة هيبه ومن لم يهب يحمل على مركب وعز (٧)
وما بي على من لأن لي من فظاظة ولكنني فظ أبي على القسر (٨)

ويتحدث مالك بن حريم عن أصدقائه وأخوان صفائه ، بأنهم حين راوا شبيهه أعرضوا عنه الى من راوه أكثر نفعا لهم ، وأجدي عليهم عونا ، وكأنه يؤيد

- (١) المحكمة الكلمة الفاصلة وجواب آفاق صاحب أسفار وغارات .
- (٢) المضليات ١١٢ ولا تمدني تنير عن السخط والخلة الصداقة وذو البريقين موضع والمدوة المرة من العدو .
- (٣) استمرت أرادت المرأة .
- (٤) المباءة الرجوع تنتحي تصعد .
- (٥) من اللامية ومتعلل يعني النفع ومشيع قوى كان له شية والابيض السيف والصفراء اللوس .
- (٦) حساسة أبي تمام ٢٧٠/١ ، ٢٧١ وتفندني تلومني وتجهلني .
- (٧) يعني من لم تكن له هيبه يستخف .
- (٨) الفظاظة الغلظة والقسر يعني الظلم .

مذهب الصعاليك في صداقاتهم حيث لا يبقون منها ما يتوجسون فيه ريبة وما لا يثقون ثقة كاملة في صدقه وثقائه ، فيقول عن اخوان صفائه ، بعد حديثه عن شبيب رأسه :

واقبل اخوان الصفاء فوضعوا الى كل احدى في المقامة افرا (١)

وليس معنى ذلك ان الصعاليك انفردوا بهذا الاتجاه في الصداقة ، وانما نعننى منه اننا قد نجد بعض هذا في شعر غيرهم ، ولكن بصورة فردية ، وغالبا ما يصحبه في شعر غيرهم خلق وسط ، يعبر عنه بالمسلم ، او التغاضى او التسامح او نحو ذلك ، ولكن هذا الاتجاه في شعر الصعاليك ليس فرديا وانما هو عام يقلب على شعرهم في جملة ، دون أن تصحبه مرحلة وسط في صلاتهم الفردية ، وحتى ان وردت عبارات توحى بالتوسط ، فاننا نجد كالمشاهدة هنا لا تمثل خلقا ، ولا يدعمها السياق ، كقول الشنفرى :

ولا تزدهى الاجهال حلمى ولا اذى سئولا بأعقاب الاقاول ائمل (٢)

٢ - العفة

قد يبدو الحديث عن عفتهم متعارضا مع مسلكتهم ، حيث يعتمد سلوك الصعاليك على العدوان على اموال الناس ، وحيث يعتمد رزق الصعاليك على سلب ممتلكات غيرهم ، ولكن الواقع ان هذا السلوك مذهب اجتماعى آمنت به نفوسهم ، وارتضوه لحياتهم ، لا يرون فيه غضاظة ولا خزيا ولا شيئا يسيء الى مرؤتهم ، وانما يرون فيه عكس ذلك ، كرامة لهم ، وارتفاعا بانفسهم عن ذل السؤال ، وهوان المن بالاحسان والتفضل عليهم كما رأينا ، وكما عبر عن ذلك بكر بن النطاح بقوله :

ومن يفتقر منا نعيش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وكما يقول الاحير السعدى :

وانى لاستحيى لنفسى ان ارى أجور حبل ليس فيه بعير

واما عفة الصعاليك في خلقهم الاجتماعى كما يبدو واضحا من شعرهم فقد سميت الى درجة من الببل ، لا نظن ان شعرا صور خلقا أو نبلا اسمى منها

(١) الاسمييات ٥٧ واوغموا أسرعوا والاخرى اسود الشعر والمقامة المجلس والالرع التام

الشعر ، يعنى تركوه الى مجالس القباب .

(٢) من اللاهية : سبق نصها مشروحا .

وليس شعرهم وحده هو الذى يصور هذه المثالية الرفيعة فى أخلاقهم فأخبارهم أيضا لا تعارض هذا ولا تنفيه ، بل تؤيده وتؤكد ، فهذه زوج عروة ابن الورد ، تصفه قائلة : « انى لا أعلم امرأة ألفت سترا على خير منك ، أغفل عينا ، وأقل فحشا ، وأحمى لحقيقة » (١) ، ولم تقل ذلك وهى فى كنفه وإنما قالت حين هجرته هجرة لا أمل فى رجوعها عنها ، مختارة عليه قومها ، فى قصة نخيرها بين زوجها عروة وقومها (٢) .

وعفة الصعاليك فى ترفهم عن كل ما يسىء الى المروءة ، وكل ما يخلش الكرامة والخلق النبيل عفة مطلقة ، غير محدودة بنوع أو مجال معين ، ففي كل مجال من مجالات السلوك الاجتماعى يتميزون بهذه العفة والخلق الكريم وقد عرف هذا عنهم حتى ان واحدا منهم شذ عن هذا الخلق ، كان شذوذه بينا متميزا ، وكان موضع غرابة وانكار من رواة الأخبار وكأنهم يقولون ان هذا ليس خلق الصعاليك ، وهو أبو الطمحان القينى فى بعض أفعال تسمى الى الخلق ، كسطوه على مال امرأة وعرضها بعد أن أحسنت اليه (٣) .

وأوضح ما تكون عفة الصعاليك فيما يتعلق بالمرأة ، ومن نواحى هذه العفة انفرادهم بالغزل فى الزوجة ، مما يوحى بالاتجاه الخلقى المشروع فى عواطفهم .

وأما عن الغزل بصفة عامة عند الصعاليك ، فالواقع انه من الهضم لخلق الصعاليك أن يوصف غزل قط بأنه أعف من غزل الصعاليك ، ولئن كان غزل بنى عذرة قد اشتهر بالعفة ، فان غزل الصعاليك كان أسبق وأعف .

وبينما نجد الشعراء يفرغون معظم جهدهم الشعرى فى الهيام بالمرأة مركزين معظم هذا الجهد فى تتبع مواضع الانوثة والعفة ، مما يشف عن شهوة جامحة الى كل شىء فى المرأة ، بل ان كثيرا من شعرهم يتتبع أعضاء المرأة عضوا عضوا ، وجزء جزءا من أعلاها الى أدناها ، مما تفيض به كتب الأدب والشعر (٤) بينما نجد الشعراء كذلك ، نجد غزل الصعاليك يسمو عن ذلك كله ، فلا يعرض قط لعووة ، ولا يشير قط الى موضع انوثة أو عفة ، ولا يشف قط عن تهافت أو جموح ، بل على العكس نلمس فيه تعمد الحديث عن العفة سواء فى خلق المرأة المتغزل بها ، أو فى خلق الشاعر نفسه ، بل نجد شخصا كالسليك يضع لنفسه هذا الشاعر الذى ينبىء عن العفة المترفة باحتقاره لغير النوار وهى المرأة النفور من الريبة فيقول :

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٩ ، ١٦٠ م الخانى .

(٢) أنظر المصدر السابق وديوان عروة .

(٣) انظر الأغاني للأصفهاني ٧/١٣ .

(٤) انظر للمثال نهاية الادب للتويرى ١٨/٢ - ٦٥ عما قاله الشعراء فى تتبع أعضاء

المرأة وكذلك ١٣٤/٢ - ٢٧٧ عما قالوه فى أحوال العشق .

يعاف وصال ذات البذل قلبى ويتبع المنعة النوايا (١)

ويصف المرأة التى يتحدث عنها بقوله :

من الخفريات لم تفصح اباهما ولم ترفع لاختوتها شئارا (٢)

ويصف الشنفرى من يتفزل بها بقوله :

فيا جارتى وانت غير مليمة اذا ذكرت ، ولا بذات ثقلت (٣)
لقد اعجبتنى لا سقوطا قناعها اذا ما مشيت ولا بذات ثقلت
تبئت بعيد النوم تهلى غبوقها لجارتها اذا الهدية قلت (٤)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها اذا ما بيوت باللمة حلت
كان لها فى الارض نسيا تقصه على امها ، وأن تكلمك تبئت (٥)
اميمة لا يخزى نشاها حليلها اذا ذكر النسوان علت وجلت (٦)

وهذا توبة بن الحبير مع عشقه المشهور ليل الاخيلية ، هذا العشق الذى يبيع له فى عرف العشاق أن يطمع وأن يؤمل ، ولكنه لا يطمع ولا يؤمل وانما يكتفى منها بما لا يكفى سواء فيقول :

ولو ان ليل الاخيلية سلمت على ودونى جندل وصـفـفـانـح
سلمت تسليم البشاشة اوزقا اليها صدى من جانب القبر صائح
واغبط من ليل بها لا اناله الا كل ما قرت به العين صالح (٧)

وليل الاخيلية هذه تعترف لتوبة بمغته وحيائه فتقول عنه بعد موته :

فتى كان احبى من فتاة حبية واشجع من ليث بخلان خادر (٨)

وقيس بن الحدايدة مع هيامة الشديد بحبيبتة نعم بنت ذؤيب ، يصف عفتها مع مبادلتها اياه الحب فى شعر كثير يقول منه :

قد اقتربت لو ان فى قربها نوالا ، ولكن كل من ضمن مانع
وقد جاورتنا فى شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع
كان فؤادى بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع (٩)

(١) مهذب الاغانى ١٧٠/٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المفضليات ١٠٩ وتقلت من القل البنفس .

(٤) النبوق شراب الليل .

(٥) الام القصد وتبئت توجز الكلام .

(٦) نشاها سيرتها .

(٧) حساسة ابى تمام ١٠٨/٢ والصفايح الحجازة وزقا صاح .

(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجى .

(٩) اغانى الاصفهاني ١٥٤/١٤ .

وبكر بن النطاح يصف عفة حبيبته ، ويأسه من الطمع فيها ، مع ما تفعله هذه العفة في نفسه من تردده بين نوازع مختلفة ، ولكنه مع ذلك قانع راض عفيف فيقول :

فلا كبدى تبلى ولا لك وحملة ولا عنك اقصار ، ولا فيك مطمع
فلا تساليني في هواك زيادة فإيسره يجرى وادناه مقنع (١)
ومالك بن حريم يحدثنا عن حبه ، وعفة هذا الحب فيقول :

أهيم بها لم أقض منها لبانة وكنت بها في سالف الدهر مؤزعا (٢)
ويقول أيضا عن عفته عن التطلع الى جارته أو ايدائها في عرضها ويجعل ذلك احدى صفات أربع عدها في نفسه :

وثالثة ألا تقلع جساوتي اذا كان جار القوم فيهم مقدعا (٣)
وأبو خراش الهذلي يصف أخاه ورفيق صعلكته زهيراً حين قتل فيقول :

قتلتهم فتى لا يفجر الله عامدا ولا يحتويه جاره عام يمحى (٤)
ولئن كانت العفة في صلة المرأة بارزة في شعر الصعاليك ، فليست من الجانب الوحيد في عفتهم ، ولا هى أبرز الجوانب ، وانما نحس ان العفة خلق أصيل في الصعاليك تبدو في كل ما يمكن أن يوصف بالعفة كما يقول مالك ابن حريم :

وأكرم نفسى عن أمور كثيرة حفاظا وأنهى شحها ان تطلعا (٥)
والسنقرى يتحدث عن نحو ذلك من العفة فيقول :

ولولا اجتناب الدام لم يلف مشرب يعاش به الا لدى وماكل (٦)
بل يبلغ بالعفة الى مراعاتها حتى في أدب الطعام فيقول :

وان مدت الأيسى الى الزاد لم أكن باعجلهم اذ أجشع القوم اعجل (٧)
ومن صور العفة عند الصعاليك عفة اللسان ، حتى في الشتم وإلهاء كما يقول مالك بن الريب :

(١) مهلب الأغانى ٨٤/٨ .

(٢) الأصمعيات ٥٨ .

(٣) الأصمعيات ٥٨ والقلع الفحش .

(٤) معجم ما استمع للبحر ٣٠/٢ .

(٥) الأصمعيات ٥٨ .

(٦) من اللامية والدام اللامة .

(٧) من اللامية .

وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى وعن شتمى ابن العم والجار وانيا (١)

وشعر الصعاليك كله شاهد على عفة السنتهم ، فلم يبلقنا شعر كان فى جبلته أغف لفظا وأكرم معنى من شعر الصعاليك ، فغزلهم كريم عفيف كما قلنا وهجاؤهم أيضا كله كرم وعفة لسان اذا قيس بغيره من الهجاء فى أى عصر من العصور ، فبينما تجسد هجاء الشعراء يفيض تجريحا وسبا للمهجوين ونيلًا من أعراضهم ومزقاتهم ، نجد شعر الصعاليك - كما أشرنا - يلتزم حدود العفة الكريمة ، فلا يفحش ولا يقذع ، بل سما كثير منه الى النماذج المثالية فى الخصومة ، كما فى خصومة صخر الغى وأبى المثلج الهذلى (٢) .

وقد يبدو غريبا ظهور العفة فى طابع متقارب بين طائفة لم يجمع أفرادها مكان واحد ولا زمان واحد أيضا ، بل عاشوا فى أماكن وأزمنة متفرقة ، ولكننا يمكن أن نحاول تحليل ذلك بأنهم وإن اختلفوا فى المكان والزمان ، إلا أنهم اتفقوا أو تقاربوا فى صفاتهم الذاتية ، من حيث الصفات والأخلاق التى سبق الحديث عنها بالنسبة لهم ، ومحورها القوة ، وقد تكون هذه القوة فيهم بجوانبها مصدر عفتهم ، لأن عدم العفة نوع من الضعف لا يلائم قوتهم المتعددة الجوانب ، كما أنهم وإن اختلفوا فى الأماكن ، إلا أنهم جميعا تجمعهم بيئة الصلابة ، وأماكنها المفضلة من الصحراوات والقفار كما سبق .

٣ - الاشتراكية

ولقد كان من العجيب أن يبرز فى الصعاليك خلق اجتماعى كريم ، هو الاشتراكية فى خير صورة يدعو إليها تشريع ، أو تهتدى إليها حضارة .

ومصدر العجب أن الظروف الشخصية والاجتماعية التى أحاطت بالصعاليك لم تكن لتساعد على خلق كهذا ، فاما الظروف الشخصية فلأنهم كانوا فقراء ، وظلوا طوال صعلكتهم فقراء كما قلنا ، ومع فقرهم هذا فقد كانت الاشتراكية طبعا أصيلا فى حياتهم ، وأما الظروف الاجتماعية ، فنحنى بها ظروف المجتمع الجاهل ، حيث كان مجتمعا طبقيًا ، لا يبرق فيه أى وميض من معانى التعاون أو التكافل الاجتماعى إلا ما يتفضل به بعض المحسنين من الأغنياء على الفقراء ، بصورة فردية لا يبدو فيها التعاون الاجتماعى ، أو حتى الخلق ، بمقدار ما تبدو فيها الانانية والرغبة فى الغنى والتعالى .

ومع هذه الظروف الشخصية القاسية للصعاليك ، ومع هذا الظلام

(١) انظر مراثيته : سبق نصها .

(٢) انظر ديوان الهذليين ١٢٣/٢ - ١٤٠ .

التعاون الحالك فى المجتمع فقد رفع الصعاليك لواء مشرقا من اشتراكية كريمة كانت محط اعجاب المجتمع ، ومضرب أمثاله •

ونحب قبل أن نتحدث عن اشتراكية الصعاليك ، أن نلقى نظرة على اثر الاشتراكية فى مجتمعهم حتى نستطيع أن نحكم على اشتراكيتهم ، وهل استطاعت أن تتقدم من اشتراكية مجتمعهم أم لم تستطع ؟

والواقع أن هناك صفات لا يناعز فى وجودها فى المجتمع العربى ، كإكرام الضيف ، والسخاء والجود ، وإعانة المنكوب ، ولكنها ليست فى درجة واحدة من وضعها فى المجتمع أو التزام الأفراد حيالها • فإكرام الضيف وحده هو الذى يمكن أن نعتبره صفة عامة فى المجتمع العربى بحيث يلتزم الأفراد إياها بصفة عامة ، وهذه الصفة وإن كانت فى صورة التعاون الاجتماعى إلا أنها على أهميتها ، وعلى ما أدته من فوائد حيوية لا تعتبر فى أصلها أو فى الدافع إليها ، تعاوناً اجتماعياً وإنما تعتبر ضرورة اجتماعية ، والفارق بين المعنيين كبير ، رغم اتفاقهما فى النتيجة ، لأن التعاون نزعة اختيارية ، وعمل يقوم على الاختيار مهما دعت الظروف إليه ، أما الضرورة فأمر لا مفر منه من الناحية الاجتماعية ، وتطبيق ذلك بالنسبة لإكرام الضيف ، أن طبيعة البيئة والحياة حينذاك كانت تحتم التزام المجتمع رعاية الضيف ، لأن الضيف عندهم رجل مسافر ، فى بيئة قاحلة قد لا يجد فيها طعاماً ولا شرباً ، ومهما حمل من زاد ، فطول السفر ، وتباعد أماكن البيئة ، يعرضه لنفاد زاده ، وليست هناك أماكن لبيع الطعام ، أو لتقديمه ، فضلاً عن أنه فى معظم الأحيان ، حتى لو فرضنا وجود أماكن عامة للطعام - وهو فرض غير واقعى فى بيئتهم - فإن هذا المسافر قد لا يجد ما يشتري به ، والأهم من هذا أن السفر والتنقل ليس فى حالات فردية فى مجتمعهم ، وإنما هو طابع البيئة كلها فالقبائل دائمة التنقل وراء الرعى والأفراد دائمو التنقل وراء رزقهم ، وحتى أصحاب المدن ، دائمو التنقل والأسفار فى تجارتهم ورحلاتهم ، ومراعيهم أيضاً • واذن فكل فرد معرض لأن يكون مسافراً ، ومعرض لأن يكون ضيفاً نازلاً لدى أى إنسان ، فى أى مكان ، فهو ملزم بأن يأوى أى إنسان يمر بهذا الظرف ، ظرف الضيافة لأنه هو أيضاً معرض دائماً لهذا الظرف أيضاً ، فالضيافة فى العرف العربى حينذاك ، غير الضيافة التى يعنىها عرفنا اليوم من أنها استضافة شخص معروف ذى صلة فى ظروف تختلف كل الاختلاف عن تلك الظروف • لأن الظروف المحيطة بالضيافة كما قلنا هى التى جعلت رعاية الضيف عندهم ضرورة اجتماعية ، ولذلك تجد الضيافة والاهتمام بها تتأثر دائماً من مجتمع إلى آخر حسب هذه الظروف ، كما نلمس فى الفارق بين نظرة القرية الريفية إلى الضيافة من حيث الاهتمام بها • وبين نظرة المدينة من حيث عدم الاهتمام بها ، لأن ظررف الضيف فى المدينة غيرها فى الريف ، حيث يستطيع أن يجد فى المدينة من حاجته فى المطاعم والفنادق ما لا يجده فى القرية ، وإحساس

مجتمع المدينة ، ومجتمع القرية بطروف الضيف في كل منهما هو الذى يحدد السلوك نحو الضيافة .

واذن فالضيافة العربية القديمة على اهميتها فى حياة المجتمع ، وحلها لمشكلة كبرى فى حياة الافراد كانت ضرورة اجتماعية أكثر منها مظهرا من مظاهر التعاون الاشتراكى وأما المظاهر الأخرى التى كانت تأخذ جانبا من طابع الاشتراكية فى مظهرها ، كالجود واغاثة المنكوب ، فقد كانت أقرب أيضا الى النزعة الفردية والرغبة فى الفخر والتعالى منها الى التعاون الخلقى الاشتراكى كما يبدو ذلك واضحا فى أشعار الكرماء والمحسنين من العرب ، حيث نجدهم دائما يتخذون من مواقف الجود والاحسان موردا فياضا للفخر والتعالى ، وليسوا هم وحدهم الذين يفخرون ، انما يفخر أيضا أولادهم وأقرباؤهم بهذه المواقف بل يتوارثون هذا الفخر جيلا بعد جيل ، وهذا التهاافت الواضح فى الفخر بمواقف الجود والاحسان يدل على أن هذه المواقف مهما سمت فهى أقرب الى الأنانية منها الى الخلق الاشتراكى النابع من الايمان به لذاته .

ولسنا بهذا نريد أن نقلل من قيمة الفضائل العربية ، فالواقع ان هذه الفضائل كانت سناء مشرعا فى ظلام الطبقية الجاهلية ، التى يتصارع فيها الافراد على الثروة فى أفانية لا تبالى أن تحطم فى طريقها أى شىء ، وإى انسان ، فى سبيل الوصول الى غايتها .

ولكن الذى نريد أن نقوله ان هذه الفضائل على اهميتها فى حياتهم ، وحلها لكثير من مشاكل بعض الافراد ، لا تعتبر خلقا تعاونيا بالمعنى الصحيح ويكفى فى بعدها عن الاشتراكية الصحيحة انها مطبوعة دائما بطابع المن والتفضل والتعالى ، وقد يكون هذا الطابع على دقة مدلوله ، من الفسواق الأساسية بين الاشتراكية الصحيحة ، وبين صورة من صور الاحسان والتفضل الفردى أو الجماعى ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الفارق فى وضوح مبينا الفرق بين الصورتين فى قوله تعالى : « والذين فى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (١) فكلمة (حق) هى الفاصل بين المعنيين ، وهى صلب الاشتراكية الصحيحة ، ولذلك نجد التشريع الاسلامى يهدف دائما الى تقرير هذا المعنى وتوضيحه ، مبعدا بكل شدة وأصرار ، الشعور بالتفضل والمن عن نفوس المتصدقين والمزكين ، كما يقول تبارك وتعالى « يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والاذى ، كالى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهتدى القوم الكافرين » ، (٢) ، واضحا المزكين والمتصدقين بين شعورين اثنين ، لا ينبغى أن يتعدوها الى ثالث ، وهما

(١) الأيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة النعاى .

(٢) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .

ان ما يخرجونه من أموالهم حق واجب عليهم ، وان جزاء ما يخرجونه عند الله وحده ، وليس عند الناس ، ولا عند أحد من الذين يتالون هذا المال ، وعندئذ لا يجد المتصدقون والمزكون فرصة قط للشعور بالتفضل والمن ، ولا لانتظار المدح أو التأثير باحسانهم لدى أحد من الناس .

والواقع ان هذا الحديث يحتاج الى بسطة واسعة لا يقتضيها الموضوع ولذلك نعود الى الصعاليك ، فنقول ان اشتراكيتهم كانت أقرب ما تكون الى الاشتراكية الأصلية في أوضح صورها حتى التي عرفت الشرائع والمضارات .

وأخبار الصعاليك تؤكد اشتراكيتهم قبل شعرهم ، فمن أخبار عروة بن الورد انه « كان اذا أصابت الناس سنة شديدة (١) تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون عشيرته ، ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قوى منهم اما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه ، فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا ، حتى اذا أخصب الناس والبثوا ، وذابت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى » (٢) ومن أخباره أيضا « أجذب ناس من بنى عيس في سنة أصابتهم ، فاهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس فاتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك (٣) أغثنا فرق لهم ، وخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا » (٤) ومن أخباره في اشتراكيته مع رفاقه انه « خرج هو وأصحابه حتى أتى ما وان (٥) فنزل أصحابه ، وكنف عليهم كنيفا من الشجر ، ثم مضى يبتغي لهم شيئا » (٦) وفي تكملة هذه القصة السابقة نجد صورة بالغة من صور الاشتراكية ، حيث انه يعد ان ترك هؤلاء الفقراء الذين كنف عليهم كنيفا من الشجر ومضى يبتغي لهم شيئا يعولهم به ، قدر له أن يصيب عددا كبيرا من الابل ، ويصيب معها امرأة ، ورجع بالابل والمرأة ، فقسم الابل بين هؤلاء الفقراء الذين لم يصنعوا شيئا غير انتظار احسانه ، وجعل لنفسه نصيبا مثل واحد منهم ، ولكنهم أبوا عليه أن يأخذ المرأة ، وقالوا كما تسوق الرواية « لا واللوات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا ، فمن شاء أخذها » ، فجعل بهم بأن يحمل عليهم

(١) يعنى المجاعة والقحط .

(٢) مذهب الأغاني ٢/٣٦ .

(٣) يمتنون بالصعاليك هنا المعنى اللغوي وهو الفقراء ، وكان عروة يسمى عروة الصعاليك

أي عروة الفقراء ، انظر القاموس المحيط مادة صعلك .

(٤) أغاني الأصفهاني ٨١/٣ .

(٥) موضع .

(٦) أغاني الأصفهاني ٨٥/٣ .

فينتلمهم وينتزع الإبل منهم ، ثم يذكر انهم صنيعته ، وانه ان فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فافكر طويلا ثم أجابهم الى أن يرد عليهم الإبل الا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم ، فجعل له راحلة من نصيبه « (١) » ، وواضح من هذه الأخبار انها ليست مجرد جسد أو كرم ، وانما هي شعور بالرعاية الاجتماعية . والتكافل الاجتماعي ، وهما جوهر الاشتراكية ، بل انهم بلغوا في الشعور بالاشتراكية حدا أبعد من هذا حد استباحة أموال الأغنياء ليردوها الى الفقراء ، وهم في هذا لا يختلفون عن جوهر التشريعات السماوية والوضعية ، ولا ينقص سلوكهم هذا الا الحماية التشريعية ليكون سلوكا مشروعا ، ومن أخبارهم في هذا ان عروة بن الورد سمع أن رجلا من كنانة بحيل ، فبعث عليه عيوثا ، فأقوه بخبره ، فشد على إبله فاستاقها ، ثم قسمها في قومه « (٢) » ومما قاله في ذلك :

واذا افتقرت فلن ارى متخشعا لآخي غنى معروفه مكثود (٣)

ليس هذا السلوك من عروة يتفق مع قول النبي صلى الله عليه وسلم لعامله على الصدقة : خذها من أغنيائهم ، فاجعلها في فقرائهم ؟ (٤) غير أن مسلك عروة ينقصه حماية التشريع ، والصفة الشرعية ، فأصبح صعلكة ، وليس سلوك تشريع .

وكذلك مالك بن الربيع ، حينما سأله سعيد بن عثمان الوالى قائلا « ويحك يا مالك ، ما الذى يبلغنى عنك من العداوة وقطع الطريق ؟ » أجابه مالك بأن سببا واحدا يدعو الى العداوة وقطع الطريق ، ولم يكن هذا السبب طلبا لنفع شخصي ، وانما كان مظهرا من مظاهر الاشتراكية ، حيث أجابه قائلا « أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان » (٥) .

وهكذا نجد أخبار اشتراكياتهم كثيرة متعددة الجوانب ، وقد عرف المجتمع فيهم هذه الصفة ، حتى أصبحوا مضرب المثل ، ففي أمثالهم « كل صعلوك جواد » (٦) ، وقد نال عروة بن الورد بسبب شهرته الاشتراكية هذه منزلة رفيعة في المجتمع ، وظلت هذه المنزلة مقرونة بسيرته عدة أجيال ، حتى قال معاوية بن أبي سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم (٧)

(١) انظر مهذب الأغاني ٢٧/٢ .

(٢) شرح ديوان عروة بن الورد لابن السكيت ٨٧ .

(٣) ديوان عروة بن الورد ٨٧ .

(٤) انظر صحيح البخارى والرواية بالمعنى .

(٥) انظر خزائن الأدب للبغدادي ٥١/٢ وأمال النال ١٣٦/٣ .

(٦) انظر مجمع الأمثال للميداني ١٥٩/٢ المثل ٣١٣٤ .

(٧) ديوان عروة بن الورد ٨٠ .

وحتى قال عبد الملك بن مروان : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدنى كان ولدنى الا عروة بن الورد لقوله :

وانى امرؤ عافى انائى شركة وانت امرؤ عافى اناذك واحد (١)

وقال عبد الملك ايضا : من زعم ان حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد (٢) ، والذي نريد أن يكون واضحا فى حديثنا عن هذه الصفة فى الصعاليك ، انها لم تكن مجرد كرم أو رغبة فى الجود ، وانما كانت صفة أصيلة فى نفوسهم ، توحى بإيمانهم بأن ما فى أيديهم ينبغى أن يكون شركة بينهم وبين غيرهم ، وبأنه لا ينبغى أن يترك محروم أو بائس دون عون ورعاية وهذان المعنيان بالذات ، هما اللذان نريد أن نصل اليهما فى حديثنا عن اشتراكية الصعاليك ، لأنهما المعنيان اللذان امتازوا بهما عن مجتمعهم ، وسبقوا بهما كل اتجاه الى الاشتراكية من حيث التطبيق والتنفيذ والالتزام وأهم هذا السبق الذى حازوه فى هذا المجال ، ان إيمانهم هذا ، وسلوكهم الاشتراكى لم يكن نابعا من دعوة خارجية ، أو اقتداء ، أو من أى مؤثر خارج نفوسهم ذاتها .

وحين نذهب الى شعرهم نجده يفيض بأخبار اشتراكيتهم هذه ، ومهما صورها شعرهم فى صورة الكرم أو البذل أو العون ، فاننا نحس ان وراء هذه الصور جميعا صفة أصيلة غير متكلفة ، وصفة انسانية لا يراد بها فخر أو استعلاء ، وقد يقال ان كثرة الحديث عن هذه الصفة فى شعرهم ، توحى بالرغبة فى الفخر ، مما يتنافى مع ما قررناه آنفا ، والجواب عن ذلك ، ان حديثهم كله فى جملته عن صفة الجود الأصيل فيهم تلك التى سسميناها اشتراكية ، لا يبدو منه نزوع الى الفخر ، بل ولا مجرد الحبر فى معظم الأحيان وانما نجد حديثهم هذا فى أكثر الأحيان دفاعا عن أنفسهم ضد لائمهم على الاسراف وتبديد المال ، ومعظم اللائمين كن أزواجهم ، وفى الأحيان القليلة الأخرى كان حديثهم أخبارا عن حادث من حوادث اشتراكيتهم ، أو دعوة اليها أما نزعة الفخر التى نراها فى شعر غيرهم فلا تبرز قط فى شعرهم بروز الفخر والتعالى وطلب الذكر . وكما كان عروة بن الورد أكثر الصعاليك حرصا على الاشتراكية ودعوة اليها ، كان شعره أيضا أكثر شعرهم حديثا عنها ودعوة اليها ، وكثير من شعره هذا اقترن بحوادثه الاشتراكية ، ففي قصة أصحاب الكنيف السابقة يصور نفسه بالنسبة لهم كالأم الحنون التى لا تبخل على وليدها بأعز ما تملك ، فيقول من شعره فى هذه القصة عن أصحاب الكنيف :

(١) ديوان عروة ٨٠ .

(٢) المصدر السابق .

وانى واياهم كلنى الام اوهنت له ماء عينها تفسى وتحمل (١)

وامراته نصده عن المخاطرة بنفسه فى غارات الصعلكة ، فيقول لها : انه يطلب الغنى ، ولكن ليس لنفسه ، وانما لاغاثة المنكوبين الذين تفجؤهم المغارم والديان ، وفى هذا يستعظم عروة أن يرى أحدا منكوبا ويجد نفسه عاجزا عن عونته ويرى الموت خيرا له من هذا العجز فيقول :

دعنى اطوف فى البسلاذ لعلنى أفيد غنى فيه لدى الحق محمل (٢)
اليس عظيما ان تلم مله وليس علينا فى الحقوق معول (٣)
بان نحن لم نملك دفاعا بحادث تلم به الأيام فالموت أجمل

ولنا أن نسأل : هل يبدو فى الأبيات السابقة أثر قط لفخر أو ما يشبه الفخر ؟ وهل هناك سماحة أو اشتراكية أبلغ من اشتراكية شخص يدفع بنفسه الى مخاطر فى مقدمتها الموت ، لا لشيء الا ليتحمل عن المنكوبين تكباتهم ؟ لا أظن فى الجواب خفاء ، ويتحدث عروة أيضا عن معنى نبيل آخر هو انه قد يكسب مالا ، ويخيل اليه حينئذ انه سيصبح غنيا ، واذا هو يرى صورة من الفقر والحاجة تدفعه الى نبذ ماله ، ليعود فقيرا ، ومن هذه الصور ، فقير ذو عيال ، يشكو هزال جسمه وحاجة أولاده ، وهو مع ذلك كريم ، ولكن الأيام والحوادث أصابت كرمه ومكانته ، فيقول مخاطبا امرأته التى تصر على صده عن المخاطرة بنفسه فى حياة الصعلكة :

ارى أم حسان الفسادة تلومنى تخوفنى الاعلاء والنفس أخوف (٤)
لعل الذى خوفتنا من أماننا يصادفه فى أهله المتخلف (٥)
اذا قلت قد جاء الغنى حال دونه أبو صبية يشكو المفاقر اعجب (٦)
له خلة لا يدخل الحق دونها كريم أصابته حوادث تجرف (٧)

وتواصل امرأته كفه عن المخاطرة ، ولكن إيمانه بأن فى الناس من هم فى حاجة الى عونته يزيده اصرارا على معارضتها ، وتنفيذ ما يؤمن به ، فيقول لها ان فى قرابتي نساء قد أرهقن كدح العيش ، ورجالا ينتظرون عونى ، ولا أستطيع أن أخيب أمل أولئك ولا هؤلاء ، فيقول :

(١) أغاني الأصفهاني ٨٥/٣ وانظر ديوانه .

(٢) حساسة أبى تمام ٣٠/٢ ، ٣١ وذو الحق يعنى شخصا لزمته ديانات ومغارم ومحمل

بمعنى حمل أى عون .

(٣) يستعظم أن يرى تكبة تلم بأحد ولا يستطيع عونته والحقوق يعنى الديات لانها كانت أبرز مشاكل الاحتياج للمعون والمساعدة حينذاك .

(٤) حساسة أبى تمام ٣٣٨/٢ والنفس أخوف يعنى الموت المادى أقرب من القتل .

(٥) يعنى قد أموت فى بيتي اذا لم أتمرض للاعداء فى غاراتى .

(٦) للمفاقر الحاجات والأعجب الهزيل .

(٧) الخلة الحاجة والحق يعنى الترابية وتجرف لاصحاب بللال .

ذوئني ونفسي أم حسان انني
أبي الخفض من يقشاك من ذي قرابة
ومستهنى ، زيد أبوه فلا أرى
بها قبل أن لا أملك البيع مشتري (١)
ومن كل سوداء المعاصم تعترى (٢)
له مدفعا ، فاقني حياءك واصبري (٣)

ويقول عروة لامرأته أيضا :

سل الطارق المعتز يا أم مالك
أيسفر وجهي أنه أول القسرى
إذا ما اتاني بين قدري ومجزري
وأبدل معروفى له دون منكرى ؟ (٤)

والشغفرى يرسم لنا صورة من صور الاشتراكية في حياة الصعاليك ،
حيث جعلوا زادهم وكل ما يكسبونه من قوت الى واحد منهم ، هو تأبط شرا
وكان يعملهم كما تعمل الأم أولادها ، ويتحكم في الاتفاق عليهم كما يشاء
بما تقتضيه ظروف الرحلة ، فلا ينكرون ولا يناقشون ، مع أنهم شركاء له
فيقول :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم
تغاف علينا العيسل أن هي أكثر
وما أن بها ضن بما في وعائها
إذا أطعمتهم أو تحت وأقلت (٥)
ونحن جياع أي آل تالت (٦)
ولكنها من خيفة الجوع أبقت (٧)

ويقول أبو خراش في رثاء أخيه ورفيقه زهير بن مرة ، متحدثا عن اعتماد
جاره عليه حين تصيبه الفاقة :

قتلتهم فتى لا يفجر الله عامدا ولا يجتويه جاره عامم يحمل (٨)

وأما تأبط شرا فإنه لا يبقى على مال ، ويجد لوما عنيفا من اللاتمين
واللائمات ، ولكن هذا اللوم لا يثنيه عن خلقه في البذل والعون ، ويبلغ به
نمسه بخلق الاشتراكي ، أن يهددهم بهجرهم الى الأبد ، بحيث لا يعلمون
عنه بعد ذلك خبرا ، ولا يجدون له أثرا فيقول :

(١) الاصمعيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ وقبل أن لا أملك البيع يعني قبل الموت ، ومشتري يعني
طالباً مجداً وخيراً .

(٢) الخفض اللين والشطر الثاني كناية عن كثرة العمل باليدين .

(٣) مستهنى طالب عطاء وزيد أبوه يعني يجمعني وإياه زيد في القرابة .

(٤) حساسة أبي تمام ٢٥٨/٢ والمعتز يعني الفقير الذي لا يسأل والمجزر موضح الدبيع
ويسفر يتهلل .

(٥) الفضليات ١٠٨ وأم عيال يعني تأبط شرا وأو تحت أعطت قليلا وكذلك أقلت خوف.
نقاد الزاد .

(٦) العيسل الفقر والحاجة وإي آل تالت ؟ تعجب يعني أي سياسة سامت فجيأ من حسن
سياستها .

(٧) أبقت أذخرت يعني أن تقتير تأبط شرا عنيهم ليس بخلا ولكن خوف نقاد الزاد خلال السفر

(٨) مجب ما استعجم للبكري ٥٣٠/٢ .

بل من لعدالة خذالة اشب
 يقول اهلك ما لا لو قنعت به
 عادلتي ان بعض اللوم معنفة
 انى زعيم لئن لم تتركوا على
 ان يسال القوم عنى اهل معرفة
 سدد خلالك من مال تجمععه
 حرق باللوم جلدى اى تحراق (١)
 من ثوب صلق ومن بز واعلاق
 وهل متاع وان ابقىته باق ؟
 ان يسال الحى عنى اهل آفاق
 فلا يخبرهم عن ثابت لاقى
 حتى تلاقى الذى كل امرئ لاقى

وهكذا نجد تأبط شرا بعد انفاقه ماله ، لا يحس شعورا بالفخر ، ولا رغبة
 فى المباهاة ، وانما يجد حربا مع لائمه وعداله من أهله ، ولكن هذه الحرب
 لا تزعزع ايمانه بمسلكه ، بل تزيده اصرارا عليه .

وسعد بن ناشب يرد على عاذلته أيضا ، بأنه قد يفتقر ، وقد يغنى ، ولكنه
 حين يفتقر يمسك نفسه عن التعرض لعون الناس واحسانهم ، فلا يظهر على
 حاجته أحدا ، أما حين يغنى ، فغناه شركة بينه وبين الناس ، فيقول :

ان تعذليني تعذلى بى مرءا كيم نثا الاعسار مشترك اليسر (١)
 ويعبر عروة بن الورد عن كراهته للبخل ، وانه لا يقبل قط أن يتصف
 به ، بل ولا يلم به مهما تكن حاله حتى انه ليعتبر هو والبخل ضدان
 فيقول :

وقد علمت سليمى ان راى ورأى البخل مختلف شتيت
 وانى لا يرينى البخل رايا سواء ان عطشت وان رويت (٣)

ومالك بن حريم ، يعدد صفات أربعة له ، أحداها انه لا يحجب قدره
 وطعامه حين يشتد احتياج الناس فى الشتاء الى الطعام ، ولا يرى من الخلق
 أن يشعروا هم والناس جياع ، فيقول :

ورابعة الا أحجل قدرنا على حمها حين الشتاء لنشبع (٤)

واذن فهذه النزعة لم تكن فردية أو شاذة فى محيط الصعاليك ، وانما
 كانت عامة فيهم ، وقد عبر المثل العربى القديم « كل صعلوك جواد » عن هذا
 العموم ، ولم تكن أيضا فى حوادث فردية عرضت فى حياة الصعاليك ،
 وانما كانت نزعة أصيلة عميقة فى نفوسهم وأخلاقهم وأوضح دليل على
 تأصلها تكلفهم المخاطر والمشقات من أجلها ، كما رأينا فى حوادث عروة بن

(١) اللغويات ٣٠ والتاء فى عدالة وخذالة للمبالغة فى عدال وخذال والأشعب المحترق

وثابت اسمه

(٢) حساسة أبى تمام ٢٧١/١ والمرأ كثير الرزايا تصبىه والنثا الخمر واليسر الفنى .

(٣) ديوان عروة بن الورد ٨٦ .

(٤) الاصميات ٥٩ .

الورد ، وفى جواب مالك بن الربيع لسعيد الوالى ، وحيث كانت عامة فيهم ، وأصيلة فى نفوسهم ، فهى اذن صفة من صفاتهم ، وخلق من اخلاقهم ، وكما رأينا فى مصلحتهم ازاء هذه النزعة ، لا نرى انه يكفى التعبير عنها بالجلود أو الكرم أو السخاء ، وإنما من حق ما تميزوا به فى هذا الخلق أن يعبر عنه للفظ يبرر هذا التميز كالاشتراكية .

الطبيعة

احتلت الطبيعة مكانا بارزا فى شعر الصعاليك ، والواقع أن الحديث عن الطبيعة ومناظرها أمر متوقع من طائفة كالصعاليك ، يعيشون مع الطبيعة وجهًا لوجه بحيث تحجبهم عنها حجاب من الحياة الصناعية بمبانيها وزروعها ومظاهرها المختلفة ، كما يعيش معظم الناس فى بيئات من صنعهم هم ، أما الصعاليك فبيئتهم الحقيقية التى تناسب مصلحتهم . البيئة الطبيعية يجيالها وصحراواتها وسحبها وأمطارها ، ورمالها ، وكهوفها ، وما يلازم حياة هذه الوحوش والحيوانات من صور حياتها ومعيشتها ، وتآلف بعضها ، وتنافر البعض الآخر .

هذه البيئة الطبيعية التى عاش فيها الصعاليك ليزاولوا تصلكتهم وقد تشبعت نفوسهم بها ، وانفعلت مشاعرهم بأدق تفاصيلها ، ولذلك نجد حديثهم عنها يختلف عن حديث غيرهم من الشعراء ، فهم لا يتحدثون عن هذه البيئة ومشاهداتها حديث التخيل ، أو حديث المشاهد العابر ، كما يتحدث الشعراء ، وإنما يتحدثون حديث المتفعل المتأثر ، وحديث الخبير المجرب عن تفاصيل لا يتسنى للمشاهد العابر أن يحيط بها .

وبيان ذلك أن أى شاعر من غير الصعاليك لا نتصور منه ازاء هذه الطبيعة إلا إحدى حالتين ، أما أن يكون متخيلا ، مجرد خيال فى حديثه عن هذه البيئة ومشاهداتها ، وأما أن يكون صادقا ، ولكن صدقه يتمثل فى مشاهدة أو رؤية عابرة ، كان يكون فى سفر مثلا يرى بعض الصور الطبيعية فى أرضها أو سمائها أو يرى بعض وحوشها وحيواناتها ، فيصف ما رآه من هذه المناظر ، وصف المشاهد لمناظر متحركة عابرة أمام عينيه ، أما الصعلوك ، فمناظر هذه البيئة غير متحركة ولا عابرة بالنسبة له ، وإنما هى ثابتة ملازمة للبيئة ، وملازمة له هو بحكم معيشته فى هذه البيئة ، وقضائه معظم وقته وحياته فيها ، ولذلك حينما يصفها ، يصف تفاصيل دقيقة لا يتاح للمتخيل ولا للمشاهد العابر أن يتأملها ، ومثال ذلك وصف الشنفرى لحياة وحوش الصحراء وحيواناتها ومعيشتها ، فقد وصف مثلا فى اللامية ثلاث صور ، عن حياة الذئب ، وعن حياة النحل ، وعن حياة القطا ، ولو كان شاعرا من غير الصعاليك لما أتيح له إلا

منظر هذه الحيوانات ، فيصفها كما رآها بما تتيح له شاعريته في تصويرها ولكن الشنفرى لا يتحدث عن منظرها أو لونها ، أو شكلها ، أو ناحية من نواحي الرؤية العابرة ، وإنما يرسم صورة كاملة لجانب من حياة هذه الحيوانات ، ويتتبع جوانب هذه الصورة بتفاصيلها التي لا يتاح الاطلاع عليها الا للشخص مقيم في هذه البيئة ، خبير بطبائع مخلوقاتنا وأساليب هذه المخلوقات في حياتها ومعيشتها ، وكل ما يتعلق بها .

وامر آخر يمتاز به شعر الصعاليك عن غيرهم فيما يتعلق بالبيئة ، وهو انهم لا يتحدثون عن مشاهد البيئة ومخلوقاتنا لذاتها ، كما يشيع في وصف الشعراء لهذه النواحي ، مما يشعر دائما بأنه وصف مقصود لذاته ، فقد يصف انشاعر مثلا السحاب والمطر وأثرهما ، فيجعلهما موضوعا وغرضا مقصودا لذاته ، وقد يستوعب ذلك قصيدة كاملة ، أو ما يمكن أن يكون قصيدة مستقلة ثم لا نشعر بأثر للشاعر نفسه في هذا الوصف ، لأنه كالمشاهد المنفرج ، الذي يصف ما يعرض أمامه ، أو ما يمر في خياله ، دون أن يكون له هو دخل في الموضوع الا مجرد الوصف ، ونقل الصورة الى غيره ، أما منهج الصعاليك فغير ذلك ، انهم دائما جزء أساسي من الصورة نفسها ، بحيث تقرأ وصف الصعلوك لهذه المشاهد ، فتراه هو جزءا من الموضوع ، وفي مكان بارز من الصورة . لأنه لم يكن في موضع المشاهد المتفرج كغيره من الشعراء ، وإنما كان هو نفسه جزءا من البيئة ، ومنظرا من مناظرها الثابتة اللازمة ، أو كالثابتة اللازمة . فهو يصف المنظر على أساس أنه هو جزء منه ، وعلى أساس مراعاة مدى ارتباط الأجزاء الأخرى به هو ، فالشنفرى مثلا حينما يتحدث عن الذئاب في اللامية لا يصفها لذاتها ، وإنما لأنه هو وهي شريكان وشبيهان في حياتهما في الصحراء وفي بحثهما عن الطعام ، وفي نواحي أخرى ، وحينما يتحدث عن سرب القطا . لا يتحدث عنه لذاته ، وإنما يتحدث عنه لأنه يستدل به على وجود الماء الذي هو في حاجة اليه ولأنه شريك وشبيه به في السعي الى الماء ، بل ومتنافس له في الحصول على بقع الماء اليسير الذي تخلفه السيول والأمطار في الصحراء .

وحينما يتحدث الأعلام الهدلي عن الضباع مثلا ، فيصف ضخامة أجسامها وضخامة آذانها التي تشبه معارف الطعام ، وسواد جلودها الذي يشبه ثياب الرهبان ، لا يتحدث عنها كمنظر طريف أو غريب رآه ، وإنما يتحدث عنها على أساس أنها إحدى جيرانه وشركائه في البيئة ، ولكنها جار رهيب ، ولذلك يركز حديثه عنها على أنه يتوقع أن تسطو على جثمانه يوما فتنتزع جلده عنه . كما ينزع الحداد الغشاء عن غمد السيف . ليلبسه غشاء آخر ، فهو لا يعنيه حديث الضباع لذاتها . وإنما يعنيه احتكاكه بها ، وتأثره بحياتها في جواره (١) .

(١) انظر ديوان الهدلين ٢٩/٢ - ٨١ وأول الابيات « فاكون صيدهم بها .. الخ »

وعمر بن براقة مثلاً حينما يصف فترة معينة من ليل الصحراء ، بأن الظلام قد خيم على كل شيء فلم يبد فيه الا تالق النجوم ، وبأن السكون قد عم كل شيء فلم يقطعه الا صياح بومات من الجبال القريبة ، وبأن النوم قد اغرق كل ساكني هذه البقعة ، هذا المنظر لا يصفه عمرو بن براقة لذاته ، ولا لأنه فترة شاعرية ، ولا لشيء الا أنه الوقت المفضل لديه للانقضاض على أعدائه وضحاياه (١) .

والشنفرى حين يصف فى اللامية ليلة نحس شديدة البرد ، ذات مطر ووحل ، لا يصفها لذاتها ، ولا وصف المشاهد المتفرج . وانما يصفها لأنها أثرت فيه حتى أرعشت جسده ، وحتى اضطرت شدة بردها الى تحطيم قوسه ليوقدها ويستدفئ بها . وحتى اضطره جوعه مع بردها ومطرها ووحلها الى مواصلة المشى والسرى طلباً للطعام والانتقام من أعدائه . وكذلك حين وصف الحر الشديد فى الصحراء ، هذا الحر الذى ملأ الفضاء خيوطاً تشبه خيوط العنكبوت ، والذى بلغ من قسوته أن الأفاعي ضاقت بها حجورها ، وهذه الصورة لم يتحدث عنها الشنفرى لذاتها ، وانما لأنه عانى من هذا الحر ما عانته الأناعي التى واجهت حرارة الجو ، ونار الرمال بجلودها ، فواجه هو أيضاً كل هذا وليس على جسده الا ثوب ممزق لا يحميه من لدغ هذا الحر ، ونعل ممزقة أيضاً لا تحمى قدميه من الرمضاء (٢) .

وكذلك حين يصف ابو خراش ليلة دجن شبيهة بليلة النحس فى لامية الشنفرى ، لا يصفها لذاتها ، وانما لأنه جزء من صورتها ، وقد عانى عواملها وتأثيرها ، حيث اضطرت الى السرى فيها (٣) .

وصخر الفى حين يصف الوعل وسيره فى الرمال ، وتباهيه بقرون كاشراف الرواجب ، ثم ايثاره مبيت العزلة والانفراد ، ثم روعه ورهبته من صوت الغراب ، وحياته فى بيئته ، معنياً من ذلك كله بما يتعلق به هو ، وبترصده لصيد هذا الوعل (٤) .

وتأبط شراً يصف طريقاً ملتوياً فى الجبل ، يشبه فى تلويهِ خياطة الثوب ويصف ما يحيط بجانبه من بقع الماء الصغيرة ، والفدران الكبيرة ، حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها ، ودرجة انخفاض الحفر ، بما تحمل من مياه خلفتها سبول جارفة ، لخريزها من المرتفعات ، واصطدام مياهها بالصخور فى قرقرة ذات صوت رتيب ، ولكن تأبط شراً لا يعنيه هذا المنظر الطبيعى لذاته ، وانما يعنيه وضعه وتأثره هو بهذا المنظر ، من حيث قدرته على اجتياز وعورة هذا الشعب .

(١) انظر أمال القال ١١٩/٢ اذا الليل أدبى ٥٥ وما بعده .

(٢) انظر اللامية (سبق لها مقروناً) وكذلك الصور السابقة عن اللاتاب والحل والظا

(٣) انظر ديوان الهذليين ٣٠/٢ ١٠

(٤) المصدر السابق ٥١/٢ - ٥٢ .

ومعرفته لثناياه والتواءاته معرفة دقيقة لا يحتاج معها الى دليل ، ولا الى خابر
يثبت له نعته (١) .

وعبد بن الطبيب يصف منظر طلوع الشمس ، في انفتاح قونها ، وما يزال
يخالط الفضاء رداء من سواد الليل ، تتردد أصوات الديكة تبشر بالصباح ،
ولكن عبدة أيضا لا يعنى بمنظر طلوع الشمس وما يحيط به لذاتها ، وإنما
لأنه وقت حركته ، وسعيه الى بغيته من التجار (٢) .

وليس معنى ربط صور الطبيعة بأشخاصهم ضعف التركيز في وصفها أو
إبراز جوانبها بل على العكس ، كان لأحتكاكهم الدائم والمباشر بصور الطبيعة
ومناظرها وملازمتهم أياها قوة في الوصف والتصوير واستكمال دقائق الصورة
التي أشرنا إليها ، والتي سبق ذكر الشعر الخاص ببعضها وخاصة في حديث
الأمكن والوحوش ، تبلغ درجة من الروعة في التصوير بالغة ، حتى ليخيل
للدارس المتأمل لها ، أنه أمام لوحة فنية رائعة التجسيد ، ومن روائع هذه
اللوحات الفنية للطبيعة إحدى قصائد صخر الغي الهذلي (٣) عن البرق
والسحاب والمطر ، وما يحيط بهذه العوامل ، حيث يشبه تراكم قطع السحاب
الضخمة بالسفن الكبيرة المليئة بسلع بيعت جزافا بغير كيل لكثرتها ، ويشبه
السير البطيء لهذه الكتل الضخمة من السحاب بتهادى السفن بعضها في أثر
بعض ، وبمشى المقيد القدمين الذي يرسف في سلاسله ، وبأن هذه السحب حين
أشرفت على بعض المواضع ، كأنها أحست شجنا فسالت منها دموع فياضة في
صورة مطر ، وظل هذا المطر يهطل بفزارة ، فلو نظرت الى جبل ذى السطاع بعد
هذا المطر الذى غسل صخوره السمراء لحسبته جملا قد تنفخ الجرب فلم يبق
في جلده شعره ، فظلاه صاحبه بالقطران ، ويشبه سير السحاب بتشبيهاً
أخرى ، ثم يصف أثر الأمطار الغزيرة ، بأن ما بين وادي القصور ويللم أصبح
كأنه حوض ماء ، ويتابع صخر تصوير هذا المنظر بما فيه من برق ورعد ، حتى
يبلغ منه ما يريد ، ولكننا نجد أنه هو ليس بمنأى عن هذا المشهد ولا معزل .
ولا يكتفى بأن يكون في موضع المشاهد المتفرج وحسب ، وإنما يبين ارتباطه
بهذه العوامل من الطبيعة ، وموضع من المشهد مبينا أن مثل هذا المشهد الرهيب
هو بيئة التي يدير منها الحرب والقارة على أعدائه ، بالإضافة الى آثار أخرى من هذا
المشهد في حياته ، منها أن هذه المياه كلها تصبح فاذا هي بقع وغدران تغدو من

(١) أنظر الإسماعيات ١٣٥ وأول الأبيات « وشعب كشل الثوب .. الخ » .

(٢) أنظر المضليات ١٤٣ وأولها « وقد غدوت وقرن الشمس .. الخ » .

(٣) يعتبر شعر صماليك هذيل وخاصة المدائين منهم وهم أبو خراش وصخر الغي والأعلم
يعتبر شعرهم كله في جملته نموذجاً رائعاً لا جمل ما وصلت به الطبيعة من شعر ، ويكاد شعرهم
يستقصى كل مشاهد البيئة ومخلوقاتنا في تصويره . أنظر ديوان الهذليين .

حولها الأوايد التي يترصدها صائدا لها ، أو يسعى الى هذه الغدران ليملا
قربته منها (١) .

وكذلك يصور أبو خراش حياة حمر الوحش ، فى صورة رائعة فى تفاصيل
هذه الحياة وحركاتها ، واللوان الحمر ، راسما خلال ذلك صورة جميلة ، ليوم
شديد الحر ، ومنظرا لغروب الشمس وشعاعها الذى يشبه قطيفة ذات خمائل ،
ولكننا نجد أبا خراش نفسه صلب الصورة وأوضح جزء فيها ، لأنه يصور
المشهد فى سياق تربصه بحمر الوحش ليصيد واحدا منها ، واصفا ما حدث
خلال ذلك من منظرها ، وفزعها حين أحست به الى آخر صورته (٢) .

واذن فالظاهرة المميزة دائما لشعر الصعاليك فى الطبيعة عن شعر غيرهم
هى أن الصعاليك يجعلون أشخاصهم دائما جزءا أساسيا فى المشهد ، بل
كثيرا ما يكون شخص الصعلوك أهم جزء من المشهد ، بخلاف شعر غير
الصعاليك ، حيث نجد الشاعر مجرد مشاهد أو ملاحظ من خارج المشهد ،
ولعل هذه الميزة فى شعر الصعاليك هى التى أشار إليها كارل بروكلمان فى
سياق حديثه عن لامية الشنفرى ، ونفيه نسبتها الى خلف الأحمر (٣) حيث
يقول « أما أبو على القالى فقد صرح فى الأمالى بأن اللامية من صنع خلف
الأحمر ، ولكن القصائد التى وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائما بعمود الشعر
القديم وطابعه ، أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل ، كما
أكد ذلك بحق جورج ياكوب فن تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى
وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها غرضا مقصودا لذاته ، يتخذ شاعر
اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى يهيئ لتصوير الانسان نفسه
وأعماله (٤) ، ولكن هذا المذهب الشعرى الذى أشار اليه كارل ليس مذهب
الشنفرى وحده ، ولا اللامية وحدها ، وإنما هو مذهب الصعاليك الجاهليين
جميعا كما مثلنا لمعظمهم فى مشاهد مختلفة عن طلوع الشمس وعن غروبها ،
وعن الليل ، وعن الحر ، وعن البرد ، وعن الجبال وطرقها وعن الأرض ،
وطبيعتها ، وعن السحاب والأمطار ، وعن الوحوش والحيوانات وحياتها ، وغير
ذلك .

والواقع أن هذا المذهب ليس للجاهليين من الصعاليك وحدهم ، ولا هو
فى شعر الطبيعة وحده ، وإنما هو مذهب الصعاليك جميعا ، وفى شعرهم
جميعه أيضا ، وإن كان الجاهليون فى بعض موضوعاته كشعر الطبيعة أوضح

(١) أنظر ديوان الهذليين ٦٨/٢ - ٧٧ وأولها « لشباء بعد شتات النوى .. الخ » .

(٢) المصدر السابق ١١٧/٢ - ١٢٣ وأولها « أرى الدهر لا يبقى .. الخ » .

(٣) ناقشنا هذا الموضوع فى موضع خاص باللامية خلال الحديث عن الاختلاف فى شعر

الصعاليك .

(٤) أنظر تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ترجمة أنجار ١٠٥/١ .

فى هذا المذهب من صعاليك الاسلام ، بسبب عاملين ، غلبا على صعاليك الجاهلية . هما سرعة العدو ، وشدة الفقر الى درجة الجوع المضنى كما اشرنا الى ذلك سابقا ، هذان العاملان جعللا صعاليك الجاهلية ألزم للصحراء ، وأكثر اقامة وتوغلا فيها ، فأتى لهم الاحتكاك المباشر الطويل بكل مشاهد البيئة ومخلوقاتها ، بل أصبحوا كما قلنا كأنهم جزء ثابت من البيئة ، وكأنهم نوع ملازم من أنواع مخلوقات هذه البيئة ، مما جعلهم يتفوقون على صعاليك الاسلام فى بعض موضوعات شعرهم وفى مقدمتها شعر الطبيعة .

ولكن هذا التفوق لا يقصر هذا المذهب عليهم ، وإنما هو مجرد تفضيل أو زيادة بنسبة ما يعنيه لفظ التفوق ، وفى بعض الموضوعات فقط كما اشرنا فيما سبق ، وأهمها ما يتعلق بالأمكن والبيئة بصفة عامة .

ومع ذلك فشر الصعاليك كله جاهليه واسلاميه ، يتسم بهذا المذهب ، ويعتبر هذا النهج من المميزات الأساسية التى تميزه عن غيره من الشعر ، بحيث نجد شعرهم دائما مرتبطا بأشخاصهم ، لا يتحدثون عن موضوع ؛ ولا يعرضون لمعنى الا وأشخاصهم جزء أساسى من الموضوع ، ان لم تكن محورا له ، وهذا ما سميناه فيما سبق من الموضوعات بالصراع ، حيث رأينا كيف أنهم تناولوا كل ما تناولوه من الموضوعات السابقة - باستثناء بعض الشعر الاجتماعى - لا من زاوية المشاهدة والملاحظة كما يغلب على شعر غيرهم ، بل من زاوية الاحتكاك والصراع ، وحتى الشعر الاجتماعى ، تناولوا معظمه من هذه الزاوية أيضا ، والاحتكاك والصراع جوهر هذا المذهب كما هو واضح . ونعود الى حديث شعرهم عن الطبيعة ممثلة فى البيئة ومشاهدها ومخلوقاتها ، فنقول : أنهم لم يكادوا يتركون شيئا من ذلك كله الا وتحدثوا عنه ، فبالإضافة الى الصور السابقة يحدثنا مثلا شعر الشنفرى عن ارياحين (١) وعبد بن الطيب عن المطر ، وعن الأوابد (٢) ومالك بن حريم عن البقر الوحشى وعن القطا ، وعن أماكن الماء فى الجبال (٣) ومالك بن الربيع عن القطا وعن الرياح ، وعن الذئب وعن الأطباء ، وعن النجوم ، وعن البيئة وبقرها الوحشى (٤) وصخر الغى عن الطيور الجوارح وقلوب الطير من ضحاياها حول أوكارها ، وعن الأوابد ، وعن النعام وحياتها وخصائصها ، وعن حمر الوحش وصراعه معها فى صيدها ، وعن الحمامة وحواره معها (٥) ، والأعلم للهدلى عن اسحاب وحمر الوحش ، وعن النعامة ، وعن الضباع والذئاب والثعالب ، مكررا حديثه عن الضباع .

(١) انظر المفضليات ١١٠ .

(٢) انظر المفضليات ١٤٢ .

(٣) انظر الاصمعيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) انظر مرثيته وانظر مذهب الأغاني ١٠/٥ - ١٩ .

(٥) انظر ديوان الهدليين ٥٢/٢ - ٧٦ .

وعن حمير الوحش بصفة خاصة (١) ، وأبو خراش الهذلي عن حمير الوحش وصيدها ، وعن الضفر وحياته ، وعن غروب الشمس ، وعن الجراد ، وعن العقاب ، وعن النعامة ، وعن الحمام (٢) وتوبة بن الحمير عن الحمامة وتشبيهه حاله بها (٣) وتأبط شرا عن الليل وتداخل الضبح فيه وتمزيق جلباب الليل (٤) وعمرو بن براقة عن الليل وسكونه (٥) وجعدر بن معاوية عن البرق وعن حمامتين يشبه نواحيهما نواحي (٦) وهكذا عن كل ما تحوى البيئة من مشاهد ومخلوقات ، وليس شعرهم بالطبع فى هذا درجة واحدة من الجودة أو دقة التصوير ، ولا أيضا من الاهتمام بتصوير ما يتعرض له من هذه المشاهد والمخلوقات .

وتبدو روعة شعر الصعاليك عن البيئة ومشاهدها حينما يصور المنظر كاملا ، وحينما لا يكون حديثه عارضا ، كما يقطى السياق بذلك أحيانا ، فحين يصور المنظر كاملا يتجلى طابع الصعاليك الذى أشرنا إليه آنفا ، والذي يتمثل فى أمرين ، أحدهما دقة الملاحظة الى حد بعيد ، بحيث يصف أحدهم مشاهد لا يمن لأحد أن تكون موضع ملاحظة أو حديث ، كما يصف الشنفرى جماعة من النحل ، عادت الى خلاياها فوجدت أن أحد جامعى العسل قد عدا على الخلايا فحطمها ليجمع عسلها « فاعترى النحل دهش شديد جعلها تفتح أفواهها كأن هذه الأفواه شقوق العصي ، وبدا على النحل الوجوم والكآبة الشديدان ، ثم صببن حزنهن ووجوههن فى ماتم صاخب أقمنه على خلاياهن المهدمة ، يقودهن فى هذا الماتم الحشرم (٧) فأصبح الحشرم وجماعته من النحل فى ماتمن كأنهن نساء نوح تكل ، وظللن فى ضجيجهن وماتمن ، ثم بدأن يحسسن بأن هذا الماتم لن يجدى عليهن شيئا وأنه لا مفر لهن من التعزى ومعاودة الحياة والبناء من جديد ، فيقول :

أو الحشرم المبعوث حثث دبره	محا يفيض رداهن سام معسل
مهرة فهو كان شقوقها	شقوق العصي كالحات وبسل
فضج وضجت بالبراح كأنها	واياه نوح فوق علياء تكل
والغفى والغضت واتسى واتست به	أرامل عزاه وعزته مرمسل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وأرعوت	وللصبر أن لم ينفع الشكو أجمل
وفاء وفاءت بإدرات وكلها	على نكظ مما يكاتم مجمل (٨)

(١) أنظر ديوان الهذليين ٧٨/٢ - ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ١١٧/٢ - ١٤٥ .

(٣) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ .

(٤) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخالجي .

(٥) أما القالى ١١٩/٢ .

(٦) أنظر أمال القالى ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ .

(٧) الحشرم ملك النحل ورئيس جماعته وهو المعروف الآن بملكة النحل .

(٨) من اللامية : سبق نصها مشروحة . ونوح وتكل جمع لائمة وتكل .

فدقة الملاحظة التي تبلغ درجة مراقبة حركات النحل ، ووصف أفواهاها وما يعتريها من آثار وانفعالات ، ثم متابعة موقف كامل من ظروف النحل وحياته حتى يبلغ الشاعر بمراقبته وملاحظته نهايته ، هذه الدقة لا تتاح للمشاهد العابر ، وإنما تتاح لشخص ملازم للبيئة ، خبير بها وبحياة مخلوقاتها فيها كالصعاليك .

ومن ذلك هذه الدقة البالغة في الملاحظة التي يرسمها أبو خراش لصورة من صور حياة حمر الوحش ، تتمثل هذه الصورة في قطيع من حمر الوحش اشتد به العطش في يوم شديد الحر ، فيصفه أبو خراش في أبيات طويلة (١) متتبعاً حركاته منذ خروجه باحثاً عن الماء ثم وقوفه على مرتفع متطلماً باحثاً عن الماء ، ثم سعى القطيع إلى الماء ، فيصف أبو خراش غريزة الحذر في القطيع ، وكيف أنه يسعى مرهناً أذانه لما يبدو حوله من حركات حذر أن يكون في طريقه صائد ، ويصف طريقة مشيه ، وصلابة أرجله ، وشدة وقمها على الأرض الغليظة . ثم يصف كيف يفتح الحمار رجليه الأماميتين ، لينتاز فيما يشبه القفز نباتاً كثيفاً في أرض موحلة بها بقية ماء آجن فيقول من وصفه :

فلما دنت بعد استماع دهله بنقب الحجاب وقمهن وجيل (٢)
يفجين بالأيدى على ظهر آجن له عرصى مستاسد ونجيل (٣)

وهذه الدقة في ملاحظة طبيعة حمر الوحش وحذرها ، وتسمعها الشديد لما يحسنه حولهن من حركات ، ثم طريقة مشيهن في اجتياز هذا النبات الصلب في الأرض الموحلة اللبلة ، هذه الحركات لا يتاح وصفها للمشاهد العابر ، وإنما للملازم للبيئة الخبير بها وبطبيعة مخلوقاتنا وحياة هذه المخلوقات ، ولا تتاح هذه الملازمة إلا لمثل الصعلوك .

ودقة الملاحظة ، هذه التي أتاحتها لهم ملازمة البيئة ، والخبرة المباشرة بخصائصها ، وخصائص مخلوقاتنا ، هي إحدى جانبي الطابع المميز لشعر الصعاليك نحو البيئة ، والجانب الثاني هو ما قلنا من أن شعر الصعاليك يتميز دائماً ببروز شخصياتهم في صوره ومشاهده ، وهو ما سميناه بالصراع ، لأنهم كما بينا في أكثر من موضع ، لا يبدو أنهم يقولون الشعر لذاته كما يبدو في شعر الشعراء ، وإنما يقولونه كالتعبير عن صراعهم في كل وجه من وجوه حياتهم من حيث احساسهم بهذا الصراع ، وتأثرهم به ، وهو فارق أساسي

(١) نحو اثني عشر بيتاً ، انظر ديوان الهذليين ١١٧/٢ - ١٢١ وأولها « أرى الدهر لا يبقى .. » وفيها ترصده هو وزميل له للصيد من هذا القطيع .

(٢) بعد استماع دهله يعني بعد استماع أذهل فيه آذانه والنقب الطريق والحجاب المرتفع ووقمهن أي وقع أرجلهن ورجيل قوى شديد .

(٣) يفجين يفتحن أيديهن والآجن الماء الراكد والعرصى نبات صلب ومستاسد قوى والنجيل نوع من الحشائش يمتلئ يفتحن ما بين أيديهن لاجتياز هذا النبات الصلب في الأرض الموحلة .

بين شعرهم عامة وشعر غيرهم ، وان كانت بعض الموضوعات أكثر إبرازا لهذا الفارق كشعر الطبيعة .

ولذلك نجد كما قلنا اشخاصهم دائما فى الصورة ، فحين يقول الشنفرى مثلا واصفا ليلة شديدة البرودة :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها واقطعه اللأى بها يتنبل

نجده هو بارز الموضع فى الصورة فيقول عقب ذلك :

دعست على غطش ويفش وصحبتى سعار وارزيز ووجر وافكل (١)

وحين يقول واصفا الحر الشديد :

ويوم من الشعرى يلوب لوابه افاعيه فى رمضائه تتمل

نجده هو بارز الموضع فى الصورة أيضا فيقول عقبه :

نصبت له وجهى ولاكن دونه ولا ستر الا الاتحمى المربعبل (٢)

وحين يقول أبو خراش واصفا أيضا ليلة باردة مظلمة ممطرة :

وليلة دجن من جمادى سريتها اذا ما استهلته وهى ساجية تهمى (٣)

يبرز موضعه من الصورة بقوله « سريتها »

وحين يصف أبو خراش حمر الوحش السابقة ، يبرز موضعه من صورتها أيضا بأنه كان مترصدا لها بغية الصيد منها بقوله عن موضعه من هذه الحمر :

منيبا وقد امسى تقلم وردها اقيدر محمود القطاع نذيل (٤)

وحين يصف تابط شرا واديا واسعا ضخما يشبه فى نواحى منه جوف العير ، ويتردد فيه عواء الذئاب ، يبين موضعه من الصورة أيضا فيقول :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل

فقوله « قطعته » هو موضعه البارز من الصورة .

وهكذا حين نتتبع شعر الصعاليك عامة ، وكثيرا من أغراضه خاصة كشعر الطبيعة ، نجد أنه لا بد أن يكون للصعلوك فيه أثر يدل على شخصه ، وموضعه من الصورة فقول الشنفرى « دعست » وقوله « نصبت له وجهى »

(١) البيتان من اللامية : سبق نصها مشروحا .

(٢) البيتان من اللامية أيضا .

(٣) أنظر ديوان الهذليين ١٣٠/٢ .

(٤) ديوان الهذليين ١٢٠/٢ ومنيبا راجعا والورد مكان ورود الماء والاقيدر قصير المنق والمحموز شديد الفؤاد والقطاع السهام يريد حاد السهام والنذيل الرث الهيئة المتكشف .

وقول أبي خراش « سريتها » وقوله « تقدم وردها أقيدر » وقول تابط شرا « قطعت » في الأبيات السابقة أمثلة للأثر الذي يدل دائما على اشخاص الصعاليك في شعرهم ، ويجعلهم دائما جزءا مما يعرضون للحديث عنه ، وليسوا مجرد مشاهدين أو متفرجين من خارج الصورة ، كما يقلب على شعر غيرهم .

الخصائص العامة

ونعني بعموم الخصائص ، تلك السمات التي يتفق فيها شعر الصعاليك ، سواء كان من شعر الجاهليين منهم ، أو المخضمين ، أو الاسلاميين ، لأننا سنتحدث بعد ذلك عن بعض سمات ينفرد بها شعر الصعاليك الجاهليين ، وأخرى ينفرد بها شعر الاسلاميين منهم ، وحيث أنك تؤثر عدم افراد شعر المخضمين بقسم خاص في خصائصه لسبيين ، أحدهما أننا نحس أن شعر المخضمين الذي قالوه في الاسلام كان يحمل روحهم الخاصة بهم ، أعنى روح الصعاليك ، نتيجة لانطباع نفوسهم بحباتها ومشاعرهم الخاصة ، وأوضح دليل على ذلك أنه حتى الشعر الذي قالوه في التوبة عن الصعلكة لم يخل من هذه الروح (١) ، فكان الأنسب الحاق هذا الشعر ، بالشعر الجاهلي لهم ، الا ما كان اثرا مباشرا من آثار الاسلام كصراع الولاة والسجن ، فقد الحقناه بالشعر الاسلامي لهم ، والسبب الثاني عدم وضوح الروايات ، بكونها لم تحدد الشعر الذي قالوه في الاسلام ، من الذي قالوه في الجاهلية ، ولذلك كان جل الاعتماد في هذه النقطة على موضوع الشعر نفسه وملابساته .

ونعني بالخصائص السمات العامة التي يتسم بها شعر الصعاليك في جملته ، والتي يتميز بها عن غيره من الشعر ، ومن الواضح في هذا أن المقارنة ليست بين شاعرين ، أو قصيدتين ، حتى نتوقع شمول المقارنة واستقصاها لكل المواضيع والنواحي ، ولكننا نقارن بين شعر طائفة مهما اتفقت في البيئة والنزعة والظروف ، فلا تخلو من بعض ما يقتضيه اختلاف العصور والظروف المعينة بكل شاعر ، ولكن هذا الاختلاف ، أو مخالفة الحكم العام الذي نطلقه على شعرهم ، لا يؤثر على الحكم ، ما دام في نطاق الندرة أو القلة أو الشذوذ ، بمعنى أننا حين نطلق حكما على شعر الصعاليك ، ثم نجد مقطوعة أو قصيدة أو شعر شاعر منهم يخالف هذا الحكم ، فلن نعد هذا غريبا أو نقضا للحكم ، فمن المعروف أنه لكل قاعدة شذوذها الذي لا يؤثر في سلامتها .

فلنتحدث عن أهم ما نراه مميذا لشعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم

(١) انظر فيما سبق فصل مراعاة السلطة التشريعية .

١ - تمييز روح الشعر

ان أيسر ما يجده الباحث في شعر الصعاليك ، وأبرزه أيضا ، أن شعرهم عامة متميز عن غيره من الشعر تميزا واضحا ، لا يحتاج الى عناء كبير في تمييزه ، ولا الى عمق نقد في الاحساس به .

وهذا التمييز الذي يتسم به شعر الصعاليك لا ينحصر في موضوعات ، ولا في أغراض ، ولا يتمثل في أساليب ومعان ، ولا في منهج واتجاه ، فحسب ، تتمثل أحيانا في ناحية من تلك النواحي ، تتمثل أحيانا في اختياره أغراضا تتمثل أحيانا في ناحية من تلك النواحي ، تتمثل أحيانا في اختياره أغراضا لا يطررها غيره ، أولا تشيع في غيره ، وتتمثل أحيانا في منهج واتجاه لا يظهر في غيره من الشعر ، وتتمثل أحيانا في نواح أخرى يتميز بها ، ولكن ذلك كله يكون تميزه . في أغلب الأحيان نابعا من تمييز الروح التي تسرى فيه ، ولكننا لا نستطيع ان نحدد هذه الروح لأننا لا نستطيع أن نحس بها ، وان كنا ندركها ونشعر بها .

وعلاقة الشعر بالروح ليست غريبة ، بل يمكن اعتبار الشعر أوثق الانتاج البشرى صلة بالروح ، أو بهذا الشيء الخفى الذي اتفقت العصور على ربط الشعر به ، فقد أحس الناس بصلة خفية بين الشعر ، وبين شيء خفى في الشاعر أو في النفس ، وكان هذا الاحساس منذ القديم ، بل منذ قالوا الشعر وعرفوه ، ثم اختلفوا في تصويره ، وفي التعبير عنه ، فسموه أحيانا الهاما ، ثم اختلفوا أيضا في مصدر هذا الالهام ، فعزاه بعضهم الى الآلهة ، كما فعل نقاد اليونان الأقدمين ، وعلى رأسهم افلاطون وتلاميذه (١) ، وجعل بعضهم مصدره العبقريّة والموهبة ، كبعض كتاب الرومانتيكية ومن تابعهم من كتاب عصر النهضة (٢) وجعل البعض الآخر مصدره الروح ومجاهل خفية مستسرة في النفوس البشرية (٣) ، وسمى بعضهم هذا الشيء الخفى ، أو الصلة بين الشعر وهذا الشيء الخفى بالشیطان ، كما فعل شعراء العرب الأقدمين ، حيث صور كل منهم لنفسه شيطانا يوحى اليه الشعر كما يقول حسان بن ثابت :

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطورا اقسول وطورا هو (٤)

(١) أنظر النقد الأدبي الحديث الدكتور محمد غنيمي حلال ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٣٧٥ .

(٣) أنظر المصدر السابق وأيضا كتاب في الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ١٠٥ - ١١٦ .

(٤) الحيوان للجاحظ ٢٣١/٦ .

ومهما اختلف تصويرهم أو تعبيرهم عن هذا الشيء الخفي ، أو عن الصلة بين الشعر وهذا الشيء ، فإن هناك اتفاقاً بين كل المصور والام على أن هناك رابطة ما بين الشعر والنفس أو الروح أو هذا الشيء الخفي ، وعلى أن هذه الرابطة ليست كرابطة الانتاج العلي البحت ، وقد يختلفون أيضاً في تصوير هذه الرابطة والتعبير عنها ، ولكنهم لا يختلفون على مبدئها وجوهرها وقد عبر نقاد العرب القدامى عن جانب من ذلك بقولهم « وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره » (١) .

واذن فالشعر يرتبط ارتباطاً مباشراً بروح الشاعر ومشاعره ، وبالتالي تنعكس هذه الروح ، وتلك المشاعر في شعره ، ومما سبق كله علمنا أنه كانت للصعاليك روح خاصة في مقوماتها الذاتية ، ومشاعر خاصة نحو أنفسهم ونحو الناس ، ونحو الحياة نفسها ، كما كانت لهم حياتهم ومعيشتهم وأساليبهم الخاصة التي أثرت في نفوسهم ومشاعرهم ، ومن البدني في الاستنتاج أنه ما دام الشعر مرتبطاً بالروح والمشاعر ارتباطاً الانعكاس والتأثير ، وما دامت للصعاليك روحهم ومشاعرهم الخاصة ، فينبغي أن يكون شعرهم ذا طابع خاص نتيجة لذلك .

وكما قلنا لا نعني من هذا الحديث الآن أن نفرق بين شعر الصعاليك وغيره من حيث الموضوعات والأغراض ، أو من حيث النواحي المحسوسة في الشعر ، وإنما نعني الروح التي تسري في الشعر فيصطبغ بها ، ومن الواضح أنه يمكن التفريق بين شعر وآخر بمجرد اختلاف صبغة هذه الروح ، كما يمكن التفريق مثلاً بين روح شعر الرثاء وروح شعر الفخر أو المدح ، وإن كان التفريق أو النقد لمجرد الروح ، دون تمثل هذه الروح في مواضع محسوسة ، من الدقة يمكن في أغلب الأحيان .

وقد أحس نقاد العرب بهذا الفارق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، فنراه قد اعتمدوا في بعض المواضع في التفريق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، لمجرد احساسهم بروح الصعلكة في الشعر ، سواء تمثلت هذه الروح في موضع محسوس من الموضوعات التي طرقها الصعاليك وغلبت عليهم دون غيرهم ، أم لم تمثل ، فنجد البغدادي مثلاً يخرج أربعة أبيات من معلقة امرئ القيس اللامية وهي :

وقربة اقوام جعلت عصامها على كاهل مني ذلول مسرحل
وواد كجوف العير قفر قطعته به الدلب يعوى كاتخيل المعيل
فقلت له لا عوى ان شائنا قليل الغنى ان كنت لما تمول

(١) العمدة لابن رشيق ١١٦/١ وخزاعة البغدادي ١٨٤/١ (الشاهد ٣٨) ولغز الخزاعة

« .. لأنه يشعر لما لا يشعر له غيره » .

كلانا اذا ما نال شيئا افاقه ومن يخرث حرثي وحرثك يهزل (١)

وقد ايد البغدادى نفى هذه الأبيات عن امرئ القيس ونسبتها الى نابط شرا ، مكثفيا فى تعقيبه على نسبتها لتأبط شرا بقوله « وهذا الشعر أشبه بكلام اللص والصلوك ، لا بكلام الملوك (٢) » فحكم بنسبتها الى تأبط شرا لمجرد احساسه بأن دلالتها وروحها توحي بأنها شعر صعلوك .

ومما يجعل هذا التمييز بين شعر الصعاليك وغيره واضحا ، أن شعر الصعاليك فى جلته لا يعدو تصوير حياة الصعاليك ونفسياتهم ، وحياة الصعاليك بطبيعتها متميزة كل التميز عن الحياة العادية للناس ، وكذلك نفسياتهم متميزة أيضا نتيجة لتكوينها الخاص ، ولانعكاس حياتهم عليها ، وقد رأينا فيما سبق أن موضوعات شعرهم لا تكاد تخرج عن هذين الحدين ، تصوير حياتهم ونفسياتهم ، وأن شعرهم كان وسيلتهم الى تصوير هذين الجانبين .

وبعد هذا الحديث عن الطابع العام الذى يتسم به شعر الصعاليك ، والذى يمكن اعتباره لدى الناقد الدقيق المحس من أهم الفواصل التى تميز شعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم ، بعد ذلك نستعرض أهم الخصائص الموضوعية والفنية التى تراها بعد دراستنا لشعرهم مميزة له عن غيره .

ومن الواضح أن الخصائص والمزايا التى يحملها أى شعر ، ليست حواجز حسية غير قابلة للرأى والاختلاف ، كما أن الحديث عن كل من هذه الخصائص والمزايا لا يعنى الاستقصاء الكايل ، ولا يعنى أن الخصيصة والمزية موجودة فى كل شعر ، ولدى كل شاعر ممن يعينهم الحديث ، وإنما يكتفى فى ذلك كله بالأكثرية والغلبة ، كشأن الأحكام العامة ، وعلى هذا الأساس نتحدث عن أهم خصائص شعر الصعاليك ومزاياه .

٢ - الخصائص السلبية

ونعنى بالسلبية أن فى الشعر العربى عامة موضوعات تشيع فيه ، ولكننا لا نجد هذه الموضوعات فى شعر الصعاليك ، فخلو شعرهم من هذه الموضوعات هو ما نعنيه بالسلبية .

والموضوعات والأغراض التى خلا منها شعر الصعاليك مع شيوعها فى غيره من الشعر غير قليلة ، ويمكن أن نقول عنها بصفة عامة ، أن الفارق بينهم وبين غيرهم من الشعراء فى اختيار الموضوعات والأغراض ، بمقدار الفارق بين رجل

(١) الشطر الأول يعنى به سرعة عدو كل منهما ، والشطر الثانى يعنى أن معيشة كل منهما تجعل جسمه هزيلا نحيل .

(٢) خزائن الأدب للبغدادى ٩٣/١ (الشاهد ١٥) .

مجاف للمجتمع ، يعاني مرارة الفقر ، ويصارع أشد الصراع ليحصل على عيش
يقيم أوده في كرامة وعزة ، وليثبت لنفسه مكانا وموضعا في مجتمعه ، وبين
رجل وادع هادئ الحياة ، ميسور الحال ، شديد الحظوة بالمجتمع وبما فيه من
ألوان الحياة والمعيشة .

وحين لا نرى بدا من تحديد هذا الحكم غير المحدود ، نقول أن أبرز ما خلا
منه شعر الصعاليك مع شيوعه في غيره ما يأتي :

١ - شعر الترف :

والترف بالطبع أمر نسبي يختلف باختلاف المجتمعات من حيث أسلوب
حياتها ، ومن حيث مستوى معيشتها ، ومن حيث نواح أخرى كثيرة ، ففلاح
القرية مثلا يرى ترفا شديدا في أشياء يعدها ساكن المدينة من أبسط ضروريات
الحياة ، وهكذا فالترف الذي نتحدث عنه هو الترف في عرف البيئة التي عاش
فيها الصعاليك .

وأهم مجال لترف الحياة في البيئة حينذاك كان يتمثل في ناحيتين أحدهما
مجالس اللهو ومتعتها الحمر . والأخرى التهافت على المرأة والتمتع بها ، وإذا
كان لنا أن نعتبر أن في الالفنفس ترفا ، فإن هناك ترفا ثالثا في بيئتهم ،
هو الشعور بالزهو والخيلاء .

هذه المجالات الثلاثة للترف نجدها في ثلاثة موضوعات رئيسية في
الشعر العربي ، تفيض بها دواوين الشعراء ، وروايات الرواة ، هي أشعار
الخمر ، وما يحيط بها من وصف مجالس الشراب ، وما فيها من قياس في
الجاهلية والإسلام ، ثم الغلمان في بعض عصور الإسلام ، وأشعار الغزل وما
أفاض فيه الشعراء من هيام بالمرأة ، ولهفة جامحة إليها ، وإسراف أحيانا في
فحش الغزل وتتبع العوزات فيه ، وأشعار الفخر ، وما أفاض فيه الشعراء ،
وخاصة فرسانهم من زهو وخيلاء شديدين ولكننا حين نذهب إلى شعر
الصعاليك نجده يختلف عن غيره اختلافا واضحا في هذه النواحي جميعا .

فأما الخمر ، فلا نكاد نجد لحديثها أثرا في شعر الصعاليك ، جاهليهم
ومسلميهم ، فلم يتخذها شاعر منهم قط موضوعا مستقلا أو غرضا بارزا في
شعره ، أو حتى عنصرا في قصيدة ، ومن باب أولى ما يحيط بها من مجالس
الشراب وما فيها ، ففي المرات المعدودة التي عرض فيها ذكر الخمر في شعر
الصعاليك ، لم يتخذوها حينئذ موضوعا ولا غرضا ، وإنما ذكروا عابرا حينما
ونفورا منها أحيانا ، وفي كلا الحالين لم يبد قط أنهم اتخذوها متعة من متع
حياتهم ، أو حتى شيئا مألوفا ، وأبرز حديث على ندرته في شعرهم عن الخمر ،
حديث عبدة بن الطبيب ، حيث يتحدث عن الخمر واصفا مجلس شربها فيقول :

وقد غلوت وقرن الشمس منفتق
الى التجار فاعلاني بلذته
خرق يجد اذا ما الامر جد به
حتى اتكنا على فرش يزينا
فيها الدجاج وفيها الاسد مخدرة
الى ان يقول :

ثم اصطحبت كميتا قرقفا انفسا
سرفا مزاجا واحيانا يعللنا
عبيدة بن الطبيب بهذا يصف الخمر وساقيتها ومجلس شاربها وصف
الشارب ، المتلذذ ، ولكننا حين ننظر الى الظروف المحيطة بهذا الشعر نلاحظ
ما يأتى : -

١ - عبيدة بن الطبيب من المخضرمين ، وقد قال هذه القصيدة بعد وقعة
القادسية وكان حينئذ فى آخريات أيامه حيث يتحدث فى البيت الثامن من
القصيدة نفسها عن شبيهه ، ومعنى ذلك أنه كان حينئذ قد ترك الصلعة أما
لتوبته بدليل أنه شهد القادسية كما روى الطبرى (٧) ، وأما لأن شيخوخته قد
صرفت عن الصلعة ، وحيث أن القصيدة قد صدرت فى ظروف بعيدة عن حياة
الصلعة ، فقد كان من الممكن استبعادها من شعر الصعاليك بالمعنى الدقيق
لشعرهم لولا أنها تحمل بقية من روح الصعلوك ومشاعره وذكرياته فى
الصلعة .

٢ - القصيدة طويلة ، تبلغ واحدا وثمانين بيتا ، وأبيات الخمر هذه تعتبر
قلة فيها ، بالإضافة الى أنها مسوقة فى آخر القصيدة .

٣ - أخبار القصيدة ، وموضوع القصيدة نفسه ، كل ذلك يفهم منه أن
هذه الحادثة التى وصفها عبيدة لم تكن بموطنه ولا بارض العرب ، وإنما كانت فى
العراق ، حيث شهد عبيدة مع المسلمين وقعة القادسية ، وإن كان سبب سفره
الى هناك أنه تبع حليمة له هاجرت الى هذا الموطن ، وأبت أن تعود معه ، وهناك
فى احدى بلاد العجم عرض له هذا المجلس بخمره ، أو هذه الخمر بمجلسها .
ووصفه للمستأثر والبسط ، والمبائى ، والرسوم والتماثيل يؤكد ذلك . حيث
لم تكن هذه المظاهر قد عرفت حينذاك فى موطن عبيدة من بلاد العرب ، ومعنى

(١) المفضليات ١٤٣ - ١٤٥ والتجار يعنى الخمارين وأعداني أعاننى

(٢) خرق بمعنى متفتن مختلف الشئون والفضيل المتصادى فى غيه .

(٣) يعنى الرسوم فى البسط والمستأثر .

(٤) من أنواع الرسوم فى البسط .

(٥) الكمية الخمر والقرقف التى ترعى شاربها والأنف يعنى البكر .

(٦) السمان وشى مقارب مأخوذ من سم الخياط .

(٧) تاريخه ٤/٢٣ .

ذلك أن حديثه هذا ، أو حادثته تلك ، لا تمثل أسلوب حياته ، ولا طابع معيشته وإنما تمثل فترة عارضة عابرة في حياته ، ولذلك لم تتكرر في شعره . واذن فلا تصلح هذه الحادثة التي وصفها عبدة مثالا لحياة الصعاليك ، ولا لحياته هو وبالتالي لا يعتبر الشعر المصور لها مثالا لشيء من ذلك .

وعروة بن الورد يتحدث مرة عن الخمر ، ولكن ليس حديث الود بينه وبينها ، وإنما حديث السخط عليها ، حيث ارتبط شربه أياها بموقف ألمه وبعث في قلبه ندما شديدا ، وذلك أنه كان قد أصاب في إحدى غاراته امرأة كنانية من مزينة ، فاتخذها زوجا ، ومر بها على بني النضير ، فراق لهم أن يسلبوها منه ، فدبروا حيلة خبيثة ، مؤداها أنهم أسكروه بشرب الخمر ، ثم استوهبوه زوجة ، فوهبها لهم وهو سكران كما يقول ابن السكيت (١) ، أو رهنها في سكره ثم ظلوا يسقونه مستزידين إياه في الرهن حتى غلق كما يقول الأصفهاني (٢) ، وأياها يكون فقد كان تصرفه بالهبة أو الرهن خلال سكره ، ثم أفاق على هذه الحقيقة المؤلة التي يابى العرف الرجوع فيها ، وقد عبر عروة بعد ذلك عن سخطه على الخمر وعلى اليهود بقوله :

سقوني الخمر ثم تكنفوني علة الله من كذب وزور
وقالوا لست بعد فداء سلمى بمغن مالدك ولا فقير
فلا والله لو ملكت امرى ومن لى بالتدبر فى الامور
اذا لعصيتهم فى حب سلمى على ما كان من حرك الصلور
فيا للناس كيف غلبت امرى على شئ ويكرهه ضميرى (٣)

وهكذا استطاع اليهود بخبتهم وخديعتهم أن يسلبوا عروة زوجة ، ثم كانت سلمى هذه معهم حين أجلهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة (٤) .

وهذه القصة توحى بأن عروة لم يكن مدمن خمر ، فلو كان كذلك لم يكن حديثه عن الخمر ، بهذا التعبير الذى يوحى بأنها شئ غريب على حياته ، وليست شيئا أليفا له ، وهو « سقوني الخمر » بدليل أننا لم نر له حديثا آخر عن الخمر ومن الواضح أن ذكره للخمر بهذه الصورة لا يعتبر من باب الحمريات ، من حيث وصفها ووصف مجالسها ، أو الولوع بها أو نحو ذلك .

(١) أنظر شرح ديوان عروة لابن السكيت ٨١ .

(٢) أنظر أغاني الأصفهاني ٧٥/٣ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء ١٥٩ لم يذكر قصة الخمر فى أخبار سلمى هذه .

(٣) أغاني الأصفهاني ٣٧/٣ وديوان عروة بن الورد ٨١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٩ - ١٦٠ مع اختلاف فى السياق حيث ذكر أن سبب فراق سلمى هذه لمرورة اختيارها قومها عليه ، مع اختلاف فى اللفظ الشعر أيضا .

(٤) أغاني الأصفهاني ٧٥/٣ .

على أننا يجب أن نعقب على هذه القصة التى سلب فيها عروة زوجه ، بأنها لا تسمى الى عروة ، لأنه لم يتعد فى شربه الخمر سلوكا يقره عرف مجتمعه .
وانما الاساءة كل الاساءة من اليهود ، ومن العرف الذى يجعل مثل خديعتهم هذه عملا مشروعا ، ومن العجيب أننا فى الوقت الذى نعتقد فيه أن مثل هذا السلوك وهذا العرف كان فى جاهلية متخلفة ، نجد هذه القصة ، وبصورتها تحدث فى أيامنا هذه ، كما طالعنا الصحف منذ بضعة أيام فقط ، بقصة كهذه القصة (١)
وحين يصدق القول بأن عروة بن الورد كان يعيش فى مجتمع جاهلى ، لا يصدق القول بأن المجتمع الذى حدثت فيه قصة اليوم جاهلى ، ولكنه مع وضوح حيث اليهود فى قصة عروة ، لا نستطيع اعفاء مجتمعى الفصتين من جريمة الاعتراف بمثل هذا المسلك الخادع فى غير شرف ، واعتباره عملا مشروعا ، وهذا المعنى بالذات ، هو الذى يلفت نظرنا فى قصة اليوم ، فهى لا تعيننا من حيث انها حادث ، فالشذوذ الفردى لا يخلو منه مجتمع وانما تعيننا من حيث اعتراف المجتمع بهذا الشذوذ ، وحمايته له ، واعتباره عملا مشروعا .

ولسنا نمتطى الشطط حين نقول ان مجتمع قصة اليوم ، لم يرتفع كثيرا عن جاهلية مجتمع عروة من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، ان لم يكن قد نزل عنه درجات باسم الحضارة والقوة والحرية .

فاذا كان مجتمع ايطاليا الذى يبيع عرفه وتشريعه لرجل قانون أن يشتري امرأة من زوجها جاعلا لمرأة كأي سلعة تباع وتشتري ، فليس هو المجتمع الوحيد فى الغرب الذى ينزل الى هذه الجاهلية الخلقية والاجتماعية ، ألسنا نرى هذه الأسابيع فى بريطانيا موجة من الاحياء والحماية لرذائل كانت تنفر منها أشد المجتمعات ايفالا فى الجاهلية والبداءة ؟ كما فعل مجلس عمومهم - وهو أعلى هيئة فى الدولة - حين وافق بما يشبه الاجماع على اباحة الشذوذ الجنسى واعتباره عملا مشروعا ، كما وافقوا بما يشبه الاجماع أيضا على اباحة الاجهاض (٢) الذى يعنى - فضلا عن قتله نفوسا بريئة - اباحة البغاء ، لأن الاجهاض فى معظم صورته تخلص من ثمرة خطيئة .

وألسنا نرى فى أمريكا اليوم صورا من التفرقة العنصرية لم يعرفها أشد

(١) ورد فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٦/٧/١٩٦٧ بعنوان « رجل يبيع زوجته بـ ١١ جنيتها و ١٠ شلنات » باع رجل زوجته بـ ١١ جنيتها و ١٠ شلنات فى مدينة ميلانو الإيطالية ، قال الرجل واسمه أنطوني دانديتا وهو فلاح عمره ٤٢ سنة فى بلاغه الى البوليس أنه كان يشرب الخمر فى بار ، واستمر فى الشرب حتى فقد وعيه الى حد أن صديق زوجته وهى شابة جملة يوقع على عقد يبيع فيه الزوجة ، قال الزوج السكران الشاكى أن صديق زوجته معام ، وقد استغل خبرته القانونية فى تحرير العقد ، وهو ينص على أن يبيع زوجته لقاء ٢٠ ألف ليرة ايطالية ، أى ما يقرب من ١١ جنيتها استرلينيا و ١٠ شلنات .

(٢) انظر صحف شهرى يوتيه ويولييه سنة ١٩٦٧ وخاصة صحيفة الأهرام لى ٢٩/٧/١٩٦٧

المجتمعات أبعدا فى الجاهلية ، حيث لا يستطيع الرجل من غير البيض أن يركب عربة أو يدخل مطعما أو ينتسب إلى مدرسة فيها البيض ؟

وإذا كانت هذه الصور تعنى على وجه اليقين التاريخى ، كما يؤيد التاريخ كله - أن هذا الانهيار الخلقي والاجتماعي يعنى إرهابا مباشرا ، يؤذن بأفول الدولة ، والانحدار السريع لمجدها وحضارتها ، فإن ذلك لا يمنع من القول كنوع من التعليل بأن مجتمع الغرب اليوم شديد الشبه بمجتمع عروة بن الورد فى وقوع كل منهما خارج أثره النور السماوى بهديه وخلقه وتشريع ، حيث كان مجتمع عروة سابقا لنور السماء ، وحيث يعيش مجتمع اليوم فى ظلامه الخلقي والاجتماعي منذ أطفأ البقية الباقية من نوره السماوى منذ نحو قرن من الزمان فيما سموه فى الغرب حينذاك بالإصلاح الدينى ، وبينما يمكن لمجتمع عروة أن يجد ما يدافع به ، لا نرى لمجتمع اليوم فى الغرب هذا الدفاع ، على أنه مما لا شك فيه أن مجتمع عروة ربأ بنفسه عن كثير من تلك الخطايا .

ولم نعن بهذا الحديث استطرادا ، وإنما هى تكملة صورة اقتضاها مقام المقارنة بين مجتمع من مجتمعات موضوع البحث ومجتمع يزعم لنفسه حضارة وخلقا ومبادئ ، وأهم من ذلك توضيح ملابسات أحاطت ببعض سلوك شاعريهم موضوع البحث وهو عروة بن الورد .

ونعود إلى عروة بن الورد ، فنقول أنه لم يكن شعره هذا واصف خمر ، وإنما كان شاكيا خبث قوم حمتهم جهالة المجتمع

بل من الغريب أنه حتى الذين اتصلت حياتهم بحياة المجتمعات ، ومجالس السادة والأمراء ، كبكر بن النطاح ، وأبى الطمحان القينى ، لم يرد فيما بلغنا من شعرهم حديث للخمر . فقد خلا اذن شعر الصعاليك من هذا النوع من الترف الذى كان أبرز مجال للترف والمتعة واللهو حينذاك ، كما كان من أبرز موضوعات شعرهم وأغراضه أيضا .

ولم يكن خلو شعرهم منه ، ومن الترف بصفة عامة غريبا ، فحياتهم جادة كادحة لا تحتل ترفا ولا دعة ولا لينا ، فضلا عن أنهم لم يكونوا يملكون ما يترفون به ، حتى أن الرواية التى ذكرت أن عروة رهن زوجه فى القصة السابقة ذكرت أن اليهود استغلوا فقر عروة ، حيث لم يكن لديه شيء يرهنه غير زوجه (١) وحتى أننا نرى صعلوكا كالأعلم الهذلى ، لا يرقى خياله فى الترف إلى أن يملك زقا من خمر ، وإنما يتصور أن أقصى ما يتخيله من ترف يجعله كالمملوك أن يملك قربة صغيرة يملؤها من طعام جيد فيقول عن نفسه :

(١) انظر الأغاني للأصمغاني ٣٨/٣ .

ويحسب نفسه ملكا اذا ما توسد ظبية الاقط الجلال (١)
ومالك بن الريب يحدثنا عن أنه لم يذق طعم الترف قط فيقول عن نفسه :

لم يدرك ما غرر القصور وفيوها طيبا ونخل سوادها التمايل (٢)

وحين نعود الى حياة الفقر والجوع والهزال التي عاشوها وعانوا منها ،
وانتى كانت في جملتها غالبية عليهم جميعا ، والتي لم تستطع جهودهم على
صلابتها في الصعلة أن تخرجهم منها أو تبعدهم عنها كثيرا ، حين نعود لنلقى
نظرة أخرى على هذه الحياة نعلم أنه لا غرابة في أن تخلو حياتهم وبالتالي شعرهم
من أي مظهر من مظاهر ترف المعيشة ، بل الغرابة أن يوجد فيها ذلك ، حينئذ
كان سيبدو التناقض أو التباعد الشديد بين بعض شعرهم كشعر الفقر وآثاره ،
والبعض الآخر كشعر الترف .

٢ - الفحش :

ومما خلا منه شعر الصعاليك بصورة واضحة أيضا الفحش ، فبينما نجد
الفحش في الألفاظ والمعاني شائعا في كثير من الشعر ، وخاصة في شعر الفزل ،
وشعر الهجاء ، نجد شعر الصعاليك كما أشرنا الى ذلك في هذين الموضعين أعف
الشعر لسانا ، وأبعده عن الفحش والبذاءة .

فمما يبعث على التقدير لشعر الصعاليك ، سواء جاهليه واسلاميه ، أن
نراه دائما متزما رداء من العفة والحياء ، ومكتسبا ثوبا ناصعا ، لا تدنسه بقعة
من فحش ، ولا يعيبه ثقب يكشف عن ستر .

ومما يدعو للعجب ، أننا نحاول أن نجد كلمة لهم نستثنىها من هذه
القاعدة ، أو شيئا فيه حتى شبهة فحش تستدعى شرحها أو بيان موقفهم منها ،
فلا نعتز من ذلك على شيء .

بل نجد شعرهم على العكس من ذلك ، لا يكتفى بمجرد خلوه من الفحش ،
وانما يفيض بالفاظ العفة ومعانيها ، واضعا نفسه موضع النموذج والقذوة
الكريمة في هذا المجال .

ومن الغريب أنه حتى من شذ منهم - على الندرة - في خلقه كابى الطمعان

(١) ديوان الهذليين ٨٣/٢ والظبية جراب صغير قبل أنه يتخذ من جلد الظبية . والأقط
طعام يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمتلئ .
(٢) مهذب الأغاني ١٤/٥ .

القيني الذي يصفه الأصفهاني بأنه « أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيث الدين فيهما » (١) والذي يصفه ابن قتيبة بأنه « كان فاسقا » (٢) والذي اتفقوا جميعا على مزاولته شيئا من سلوك ينافي الخلق ، وينافى ما عرف عن الصعاليك كما قلنا سابقا ، نقول أنه حتى مثل أبي الطمحان ، مع مزاولته لبعض الفحش في سلوكه ، إلا أننا لا نجد فيما بلغنا من شعره فحشا ، ولا ما هو قريب من الفحش .

وإذا أردنا أن نتبين مدى نصاعة شعر الصعاليك وطهره من الفحش ، فلنلق نظرة عليه ، ثم لنلق نظرة على ما ساقته كتب الأدب من فحش الشعراء ، وخاصة في الغزل وتتميع عورات النساء (٣) وكذلك أبواب الهجاء في دواوين الشعر وكتب الأدب . فأننا حين نرى ما تفيض به من فحش ، نرى في أى موضع من العفة والحياء كان الصعاليك وكان شعرهم سواء في الجاهلية والاسلام .

٣ - الزهو والخيلاء :

ومما خلا منه شعر الصعاليك أيضا ظهور الزهو والخيلاء ، وليس معنى ذلك أنه خلا من الفخر ، الذي ينطوى فيه الزهو ، فقد فخر الصعاليك كما فخر غيرهم ، ولكن فخرهم يختلف اختلافا بينا عن فخر غيرهم ، فأول ما يلاحظ على فخر الصعاليك أنه يبدو وكأنه غير مقصود لذاته ، بل كثيرا ما يبدو في ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده بعيدا عن الفخر ، بل قد يحمل شيئا مما يتعارض مع الفخر ، وأبواب كثيرة مما سبق يصلح شعرها كله مثالا لذلك ، فشعرهم في الصبر وقوة الإرادة ، والاستهانة بالموت ، قد يبدو كل ذلك في ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده لا يحمل إلا شعورا بجهد الحياة ، والصراع معها ومجالدتها .

ولذلك كان فخرهم قليلا محدودا ، ومع قلته فانه يختلف بصورة بينة عن غيره من أشعار الفخر ، فبينما نجد أشعار الفخر لدى غيرهم تفيض مباهاة وتحديا وزهوا وتهويلا في وصف القوة والاعتداد بالنفس وقضائها ، نجد فخر الصعاليك رزينا متواضعا كريما ، لا يلجأ قط الى تهويل أو مبالغة ، بل يكتفى في أقل الأحيان بتصوير موضع الفخر في بساطة وقرب شديد من

(١) الأغاني ٢/١٣ .

(٢) الشعر والشعراء ٣٤٨/١ .

(٣) انظر مبادئ التنصيص، للمعاشي وانظر نهاية الارب للنويري وخاصة المواضع الآتية

١١/٢ - ٦٥ ، ١٢٥/٢ - ١٣٢ ، ١٣٤/٢ - ٢٧٧ .

الحقيقة ، أما في أكثر الأحيان فانه يكاد يمحو الفخر محوا ، كأن يتحدث مثلا عن قوة الإرادة أو الصبر ، وقد يبدو هذا الحديث سياق فخر ، وإذا الشاعر يكسوه صبغة الصراع ، وكأنه يقول : لا تظنوا أنني أفخر ، وإنما أضرب لكم مثلا مما أعانيه ، وكان يتحدث مثلا عن كرمه وجوده ، وكان يمكن أن يتخذ منه مجالا رفيعا للفخر في مجتمع يمجّد الكرم ، وإذا الشاعر يحول أنظارنا عن الفخر الى معركة حول هذا الجود ، هو أحد طرفيها ، والطرف الآخر خليط من زوجه وعذاله وأهله والطامعين في الكرم ، وكان الشاعر يقول لنا أيضا انني لا أفخر بهذا الكرم ، وإنما أشكو الذين يريدون أن يحولوا بيني وبينه ، كما سبق عند الحديث عن اشتراكيتهم ، وقد يتحدث أحدهم أيضا عن القوة والبسالة والجرأة ، فيبدو وكأنه يفخر ، وإذا هو يحول الأنظار عن أن نفهم ذلك بأي معنى يبعد حديثه عن الفخر ، وكأنه يقول : انني لا أعني من حديثي فخرا ولا زهوا بقوتي ، وإنما أعني أنني قادر على انفاذ ما أريد ، وقادر على تحدى الأعداء ، ومستعين بالنتائج مهما تكن .

وهذه المعاني نجدها دائما محور شعر الصعاليك حين يتحدثون عما يوحي بأنه فخر ، ونجدهم دائما يحولون وجهة حديثهم عن طريق الفخر الى طريق الصراع ، أو طريق الرزاة والاعتدال ، وفي كلا الحالتين نشعر كأنهم يتعمدون عدم الفخر . هذا في الوقت الذي نجد فيه غيرهم من الشعراء يحاول على عكسهم أن يكبر الصغير في صفاته ، وأن يجعل من يسيرها شيئا عظيما بما يضيفه عليها من صور المبالغة والخيال ويمكن تحليل عدم نزوع الصعاليك الى الجموح والتطرف في الفخر ، بأنه تكملة لصفة الثبات والاعتدال فيهم ، تلك الصفة التي بدت في تحملهم للفقر وآثاره ، وللمشقة العنيفة التي يقاسونها في حياتهم ، دون ضجر أو تذمر ، فكما أن جهد الحياة ومشقتها وآلامها لم تزعزع ثباتهم ، ولم تخرجهم عن اعتدالهم وتحمل نفوسهم ، كذلك لم تستطع عوامل الفخر أن تخرجهم عن ثبات نفوسهم واعتدالها لتدفعهم كما دفعت غيرهم الى صورة من صور التطرف ومجاوزة الاعتدال كالزهو والخيلاء والغرور .

وهذا الثبات والاعتدال ليس اختياريا بالنسبة لصاحبه ، بمقدار ما هو صفة أو أثر لصفة فيه ، فيمكن أن نرد هذا الثبات والاعتدال في حالي الخير والشر ، في نفوس الصعاليك الى قوة نفوسهم ، حيث كانت نفوسهم أقوى من أن تجذبها عوامل الابتئاس الى أسفل بالضعف والانهيار ، أو أن تجذبها عوامل الفخر الى أعلى بالزهو والغرور ، وشعرهم نفسه يصرح بهذا المعنى ، حيث يتردد في شعرهم كثيرا أنهم لا الفقر يضعف نفوسهم أو يغيرها عن خلقها ، ولا الغنى يزدهيهم أو يخرجهم عن وقارهم كما يقول الشنفرى من اللامية :

وأعدم أحيانا وأغنى وانما ينال الغنى ذو البعدة المتبذل

فلا جزع من خلة مكتشف ولا مرج تحت الفنى أنخيل (١)
وكما يقول سعد بن ناشب عن هذا المعنى أيضا :

فان تعذلىنى تعذلى بى مرؤا كريم ثنا الاعصار مشترك اليسر (٢)

فكما كان الصعاليك مثلاً رائعا فى الصبر والقدرة على مشقات ومصاعب لا يقوى على احتمالها غيرهم ، كذلك كانوا مثلاً فى تجنبهم الزهو والخيلاء ، مع أنهم كانوا يملكون قدراً عظيماً من أهم صفتين يتفاخر بهما مجتمعهم ، وهما القوة التى لا ينازع فى أنهم بلغوا منها مكاناً رفيعاً ، والكرم الذى سبقوا باشتراكيتهم فيه مجتمعهم ، حتى ضرب بهم مجتمعهم المثل فيه ، حيث قالوا « كل صعلوك جواد » (٣) .

٣ - تمثيل الحياة الشخصية

نعنى بتمثيل الحياة الشخصية أن شعر الصعاليك يصور الحياة الشخصية لكل منهم ، ولئن كان شعرهم متفقاً أو متقارباً فى تصويره هذا ، فلان حياتهم نفسها متفقة أو متقاربة ، ومن البين الواضح فى شعر الصعاليك أننا حين نقرأ شعر أحدهم نستشف من خلاله حياة صاحبه ، وأسلوب معيشته ، ومذهبه فى الحياة ، وصلاته بغيره ، بل وأفكاره ومشاعره فى أغلب الأحيان ، ولذلك نلاحظ بوضوح أن المؤلفين يتخذون دائماً من شعرهم مصدراً أساسياً فى أخبارهم وتراجمهم ، وأن اعتمادهم فى هذا على شعرهم نفسه أكثر من اعتمادهم على الروايات والأخبار ، نظراً لأن الروايات عن أشخاص الصعاليك وظروفهم وأحداثهم ليست ، بالكثرة التى ترسم لكل منهم تاريخاً وترجمة كاملة ، لعدة أسباب منها تعثر الرواية فى العصر الجاهلى ، ومنها عزلة الصعاليك ، وصدور معظم أحداث حياتهم فى أماكن عزلتهم بالصحراوات ، مما لا يتيح للمجتمع أو الرواة الاطلاع بها المأماً واضحاً مفصلاً كأحداث غيرهم من سكان المجتمعات ، وقد يكون منها أيضاً شيء من حذر أحاط بالعلماء فى الاسلام فى تناولهم لأحداث الصعلكة وجرائمها التى ينكرها الاسلام ويحاربها ، ولذلك كان هم العلماء نحو من تناولوا ذكرهم من الصعاليك منصيباً على شعرهم نفسه ، لأن الاسلام من فضائله اقرار الشعر لذاته ، بصرف النظر عن صدوره من شخص مرضى عنه أو مسخوط عليه ، وبصرف النظر عن تناول الشعر نفسه لموضوع معروف أو منكر ، وبالإضافة الى ساحة أخرى فى الاسلام ، وهى عدم الانتكاز على راو فى رواية معروف أو منكر مما صورته

(١) اللامية : والخلة الفقر ومكتشف يعنى لا يكتشف فقرى لأحد وأنخيل من الخيلاء .

(٢) حساسة أبى تمام ٢٧٢/١ والنثا الخبر والاعصار الفقر واليسر الفنى .

(٣) مجمع الأمثال للميدانى ١٥٩/٢ .

العلماء فى قولهم « ناقل الكفر ليس بكافر » ولولا هذه السماحات فى الاسلام
لحسنا جوانب كبيرة ومهمة من الادب العربى وتاريخه .

ومهما تكن الأسباب ، فمن الواضح أن المؤلفين اعتمدوا فى جانب كبير من
أخبار الصعاليك على شعرهم ، حيث وجدوا هذه الاخبار واضحة فى شعرهم ،
وأوضح ما يكون ذلك فى حديث الأصفهاني عن الصعاليك ، بل الأغرب من ذلك
أننا نجد وصف أجسام معظمهم وأشكالهم فى شعرهم (١) وقد يكون شعر
الصعاليك بهذه الميزة منفردا عن غيره قاطبة من الشعر ، فقد نقرأ ديوانا لشاعر
من غير الصعاليك ، فنرى فيه موضوعات شتى ، وافكارا مختلفة ، وأحداثا
متنوعة ، ولكننا لا نكاد نعلم عن شاعر الديوان نفسه كثيرا ، ونجدنا بعد قراءة
ديوانه كله فى حاجة الى أن نعلم من هو ؟ وما معيشتة وعمله ؟ وما أخباره
وأحداث حياته ؟ لأن شعره ان يكن أظهرنا على أفكاره واتجاهاته ، وعلى أحداث
بارزة فى حياته أو حياة مجتمعه ، الا أنه لم يظهرنا على الحياة والظروف الشخصية
لهذا الشاعر ، ويمكن أن يقال هذا بالنسبة للشعراء جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ،
ومجيدهم وتافهم .

أما شعراء الصعاليك ، فحين نقرأ شعر أحدهم نجد فيه حياته وظروفه
الشخصية ، ان لم تكن مفصلة كل التفصيل ، فهى واضحة كل الوضوح ، بل
لسنا فى حاجة الى أن نستقصى شعر الشاعر منهم كله لنعلم حياته وظروفه ، وانما
يكفى أن نلم بقدر من شعره ، فنعلم عنه وعن حياته الكثير ، وأول هذه الدلالة
المهمة أن نعلم أنه صعلوك ، فنعلم عنه بذلك شيئا مهما ، ثم نجد تفاصيل حياته
وصورتها ماثلة فى شعره ، ونعود فنقول ان أبلغ دليل على هذه الظاهرة فى
شعرهم اعتماد المؤلفين عليه فى استنباط أخبارهم وأحداث حياتهم وظروفها ،
ولذلك نجد شعرهم دائما مقترنا بأحداث أو صور من حياتهم ، فمثلا نذهب الى
شعر عروة بن الورد فنعرف منه أنه فقير ، وأنه دائم الفارات والغزو ، وأنه يؤوى
المحتاجين دائما ، ويغزو ليعولهم ، ثم نجد فى شعره أخبار حوادث كثيرة تعرض
لها كقصة احتيال اليهود لسلبه زوجه سلمى منه ، وقصة أصحاب الكنيف الذين
أبوا عليه أن يمتاز عنهم فى نصيبه مع أنهم صنائعه ، وقصة سقوطه على منزل
رجل بارع الخبرة بالأرض ، دقيق الملاحظة لما حوله ، وهكذا نجد أحداث حياته
مسطرة بوضوح ، بل وبتفصيل فى شعره .

وكذلك شعر الشنفرى نعلم منه عن شخصيته ومعيشته وظروفه أكثر مما
نعلمه عنه من أخباره ، فأخباره فى الروايات محدودة ، لا تكاد تتعدى نسبه ،
ثم انتقاله أسيرا بين قبيلتين ، ثم نقمته على بنى سلامان ، وأحداثا معدودة خلال
ذلك فى صعلكته ، وفى رفقته مع تأبط شرا وعمرو بن براقة ، ولكن شعره
يطلعنا من شخصيته ومعيشته وظروفه على أكثر من ذلك بكثير ، فحين نقرأ ديوانه

(١) انظر للمثال ما ورد من شعر فى فصل الفخر وآثاره فيما سبق

على قلة شعره ، نجد فيه حياته كاملة بظروفها وأحداثها ومشاعرها ، بل حين نقرأ لاميته نجده هو أوضح فيها منه في الاخبار والروايات ، حتى ليخيل إلينا أننا نراه بأعيننا ، ونتابع حركاته وأعماله ، ومعيشته ، ونسمع نجوى نفسه ، ونرى مشاعره وأفكاره ، فترى مشاعره نحو الناس بهجرته عنهم ، ونرى أسلحته التي يحملها بألوانها وصفاتها ، ونحس البرد والحر الذي يعانيه ، ونرى الوديان والقفار التي يعيش وينتقل فيها ، ونرى في هذه البيئة مخلوقاتنا التي يشاطرها الشنفري حياتها ، بل ونرى وصفا دقيقا للشنفري نفسه ، فترى تحول جسمه ، وبروز عظامه وفقر ظهره ، ونرى ثوبه ونعله المزقبن ، ونرى شعره الإضافي الذي لم يقص ولم يغسل ولم يدهن ولم يقل منذ حول كما وصفه ونرى حدة بصره ، ثم نرى معيشته وطريقة حصوله على الطعام والماء ، وحاله ان فقدهما ، وهكذا في تفاصيل كثيرة دقيقة عنه ، في جسمه ، وفي نفسيته ومشاعره ، وفي بيئته ، ومخلوقاتنا ومشاهدنا وفي معيشته وفي أشياء أخرى نخرج منها جميعا ، ولسنا في حاجة الى السؤال عن شيء من أحواله ، فقد علمنا منها كل شيء عنه ، حتى اسمه ، وإشارة الى نسبه في أحاطة اليمنية كما يقول في اللامية عن ركب أحاطة المجفل ، وهكذا في شعر الصعاليك كله ، بل أننا لنرى البيت والبيت الواحد أحيانا يطلعنا على صورة من حياة الصعلوك ، ويشرف بنا على معيشته ، فبيت واحد لتأبط شرا كقوله مثلا يخاطب الذئب :

كلانا اذا مانال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (١)

نعلم من شطره الأول أنه عداء ، ومن شطره الثاني أنه يعيش حياة قاحلة تنتج الهزال ، بالإضافة الى ما يوحيه كل معنى منهما من تصور ، وحين نقرأ قول ابن بركة :

**اذا الليل أدجى واكفهر ظلامه وصاح من الأفراط بوم جواثم
ومال بأصحاب الكرى غالباته فاني على أمر الغواية حازم (٢)**

نعلم أنه صعلوك ، ونعلم أسلوبه في الصعلكة ، وكذلك قول مالك ابن الريب :

حيث الدجى متطلعا لقفوله كالدئب في غلس الظلام الخائل (٣)

وكذلك قول الأحيمر السعدي مبينا أسلوبه في حياته :

**وأني لأستحيى لنفسي أن أرى أمر بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره وبعران ربي في البلاد كثير (٤)**

(١) خزنة البغدادي ٩٣/١ •

(٢) أمالي القالي ١١٩/٢ والأفراط جبال والكرى النوم وأمر الغواية يعني أعمال الصعلكة •

(٣) مهذب الأغاني ١٤/٥ •

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ •

وكنقول الشنفرى واصفا المكان الذى اتخذه رسدا وكميناً ، والوقت الذى يختاره للترصد وحاله أثناء الترصد .

ومرقبة عطاء يقصر دونها أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف
نميت الى اعلى ذاهبا وقدنا من الليل ملتف الحديقة أسف
فبت على حذ الذراعين محمدا كما يتطوى الأرقش المتقصف (١)

وما لا نشك فيه أن شعر الصعاليك بهذه الميزة يتفرد عن غيره من الشعر قاطبة ، وإذا أردنا أن نقرب هذه الميزة الى الأذهان كما أشرنا فيما سبق نقول : أن شعر الصعاليك فى تسجيله لحياة الصعاليك ، وتتبع أحداث حياتهم ، وإبراز مشاعرهم نحو هذه الحياة وهذه الأحداث ، أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية ، التى يروق لبعض الناس أن يسجلوا فيها أحداث حياتهم ومشاعرهم نحو هذه الأحداث ، واحساسهم بما حولهم من الناس والأحداث وبالحياة نفسها ، وحين تلقى نظرة على مجرد عناوين الأغراض الكثيرة التى سبق عرضها ، والتى شملت حياتهم من فقر وجوع وهزال ، ومذهبيهم نحو هذه الحياة من حرص على العمل واستهانة بالموت ، ثم أسلحتهم الحسية والنفسية التى لازموها ، ثم صراعهم مع كل شيء ، وهكذا من موضوعات وأغراض شتى ، أن لم يكن اتخذها كل فرد منهم موضوعا وغرضا فقد اتخذوها فى جملتهم كطائفة أغراضا وموضوعات ، وساهم كل منهم بقدر كبير أو يسير فيها . حين تلقى نظرة على شعرهم فى هذه الأغراض جميعا ، نعلم أن شعرهم أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية ، ولو تتبعنا شعر كل شاعر منهم ، وجمعنا شعره فى كل غرض من هذه الأغراض والموضوعات ، لخرجنا بمذكرة شخصية نجده قد سجل فيها ما نريد أن نعلمه عنه ، وأحيانا فوق ما نتوقع أن نعلم عن شخصه وظروف حياته ، وعن نفسيته واتجاهه ، وحتى عن شكله وصفاته الجسمية فى كثير من الأحيان .

ويمكن تعليل ذلك بأمريين : الأمر الأول أنه لا يبدو من شعرهم كله أنهم يقولون الشعر لذات الشعر ، بما يتضمنه هذا المعنى من حوافز تغلب على الشعراء فى إنتاجهم الشعرى ، كرسبة الشاعر فى أن يبرز فى ميدان الشعر ، وأن يثبت لنفسه مكانة فى مجتمعه بهذا الشعر ، وما الى ذلك مما يدفعه الى اختيار أغراض وموضوعات يصوغ فيها الشعر وقد لا تكون هذه الموضوعات شاغلا له هو بالذات ، أو هو كأحد أفراد من مجتمعه فى تأثيره بهذه المشاهد أو الأغراض ، وما يدفعه أيضا الى الإجابة ، ومما يدفعه الى مراعاة اعتبارات أخرى ، حاشدا كل امكانياته لينجح كشاعر .

أما شعراء الصعاليك فلسنا نقول أنهم لا يراودهم شيء من هذا الشعور ، ولكننا نقول أنهم لم يتأثروا بهذا الشعور ، ولم يكن موجها لهم ، أو مؤثرا فى

شعرهم تأثير الوضع والجلالة ، كما يتضح ويتجلى فى شعر غيرهم ، وهذا المعنى المميز لهم له تأثير فى طابع شعرهم ، وفى خصائصه فى أكثر من موضع كما سنرى ، وقد كان تأثيره فيما نعينه الآن أن الشعراء الصعاليك لم يعنهم الشعر لذاته حين قالوا الشعر ، وإنما عناهم احساسهم بحياتهم وأحداثها ومشقاتها فسجلوا هذا الاحساس مثلاً فى الأحداث والصور ، ولذلك حين ننظر الى شعرهم ، لا نجد فى شعر الفرد منهم موضوعات وأغراضاً مقصودة لذاتها ، وإنما نجد حياته هو مصورة فى سلسلة أحداث ومشاعر وان بدت فى احيان قليلة ، فى صورة أغراض وموضوعات .

والأمر الثانى وان كان فى بعض جوانبه متداخلا مع الأمر الأول ، إلا ان مصدره متميز عنه ، وهو عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمع ، هذه العزلة بجانيها جعلت مشاعر الصعاليك وحواسهم مركزة على أنفسهم ، وعلى حياتهم الشخصية لكل منهم ، فنشعر من حديث شعرهم واتجاهه أنهم لا يعينهم المجتمع وما فيه ، ولا تنصب مشاعرهم الا على ذواتهم وحياتهم وما يعانونه ويشعرون به ، وحتى اذا نظروا الى المجتمع ، أو الى أى شىء خارج نطاق حياتهم ، فأنما ينظرون اليه من زاويتهم هم ، ومن خلال احساسهم بحياتهم هم ، كما رأينا فى منهج شعرهم الاجتماعى ، حيث نجد فيه دائماً نظرتهم الخاصة ، وانعكاس حياتهم فى الصعلكة ، فحتى الرثاء مثلاً نجدهم يركزون حديثهم فيه عن المرنى ، على صفات الصعلكة وطابعها ، وليس ذلك تعبيراً عن اعجابهم بحياتهم أو فتنهم بها ، وإنما هو تعبير عن أن شاغلهم الأول هو حياتهم الشخصية ، وعن أن تفرغهم لهذه الحياة وانقطاعهم لها قد ملأ عليهم مشاعرهم واحساسهم بها ، فانعكس ذلك كله فى شعرهم ، بحيث أصبح شعرهم كالمرآة الخاصة التى يسكنونها بأيديهم ، فأول ما يطالعنا فيها أشخاصهم وانفعالاتهم ، وحركاتهم ، وحتى ان بدا فيها شىء غيرهم ، فأنما يبدو وكأنه خلف ظهر الصعلوك ، أو نطاقاً مضروباً من حوله ، وبهذا أصبح شعرهم كالمذكرات الشخصية .

والشئ المشترك الذى قد يثور التساؤل به فى مواضع كثيرة ، منها هذا الموضع ، هو ، كيف تسنى اتفاق شعر الصعاليك ، ووحدته أو تقاربه فى منهجه وخصائصه ، مع اختلاف الصعاليك فى أشخاصهم ، وبيئاتهم ، وعصورهم ؟ ونقول عن ذلك أنهم جمعتهم المهنة الواحدة ، وهى الصعلكة ، والصعلكة متشابهة فى دوافعها وأساليبها ، حيث يجمعها جميعاً أنها سلوك عدوانى ، ومتشابهة فى البيئة التى تصلح لمزاوتها من الصحراوات والجبال والمراقب ، ومتشابهة أيضاً فى الأشخاص الذين يصلحون لمزاوتها فلا بد أن تكون فى الصعلوك صفات معينة مما سبق الحديث عنه حتى يصلح للصعلكة ويقوى على مزاوتها ، والصعاليك يتفقون أو يتقاربون فى هذه الصفات ، وبهذا نرى الصعاليك أشد الناس تشابهاً

أو تقارباً ، فى أشخاصهم وصفاتهم وبيئاتهم وأسلوب حياتهم ، مهما تباعدت
بينهم العصور ، أو نأت بينهم الأماكن .

ومن هذا أصبح شعرهم أشد الشعر تشابهاً ، فى تقارباً ، فى طابعه ،
وخصائصه ، وفى زوايا منهجه .



٤ - الذاتية :

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

ومن كل ما سبق نجد أن شعر الصعاليك ذاتى ، ولكنها ليست ذاتية اصطلاحية ، كالتى يعرفها نقاد الأدب الغربى فى الرومانتيكية التى تعتمد فى مصدرها على الروحيات وفى كيانها على مشاعر الفرد ومبجحاته نحو الطبيعة والخيالات (١) ، والتى ضل فى متاهاتها الروحية والوهمية كثير من الشعراء والأدباء ، والتى ابتذل الأدباء فيها أنفسهم وأدبهم حتى ذابت ذاتيتهم نفسها فى صور من ابتذال منكر ، وضياح فى أجواء خيالات مختلفة متناقضة .

ولكن ذاتية الصعاليك شىء آخر ، فهى ذاتية حية متحركة ، وذاتية واقعية معقولة فى آن واحد . وفى كلا الحالين ، فهى ذاتية متميزة محددة ، لا تلتبس بغيرها ولا تخضع لمذهب بعينه من مذاهب النقد ، لأن طابعها لا يشيع فى أدب آخر غير أدب الصعاليك ، حتى يتخذ من الجميع مذهب أدبى وكما كان الصعاليك فى أشخاصهم وأسلوب حياتهم طابعاً فريداً بين الناس ، فكذلك شعرهم ، لا يعدو الحقيقة كثيراً من يقول أنه فريد فى طابعه وصبغته . وليس فى هذا المعنى بالذات نقد أدبى له ، أو حكم على مستواه من الوجهة الأدبية ، وإنما هو حكم على طابعه من حيث التميز لذاته ، بصرف النظر عن تقويمه والحكم عليه ، ولكننا من جهة أخرى نجد أن التميز لذاته فضيلة أدبية ، فمن الواضح أن أوضح مراتب الجودة فى الأدب ، بل وفى الانتاج البشرى كله ، هو التميز ، وأنه لا يصبح الأديب أديباً حقاً إلا إذا كان له طابعه المميز ، الذى يبعده عن التقليد ، وعن الذوبان فى فصيلته التى ينتمى إليها ، بل يسرى هذا الحكم على كل الانتاج الفنى ، سواء كان أدباً أو رسماً أو تصويراً أو غيره ، حتى الصناعة التى تتسم بالطابع الفنى ، لا يعتبر الصانع فيها صانعاً حقاً إلا إذا كان أصناعته طابعها المميز لها ، فإن نزل عن هذه المرتبة كان عاملاً وليس صانعاً .

ولكننا لا نعنى هذا المعنى الآن فى حديثنا عن ذاتية شعر الصعاليك ، وإنما نعنى أن ذاتيتهم كانت طابعاً مختصاً بهم ، لم يستوحوه من نقد أو مذهب شعرى ، ولا من ثقافة البيئة واتجاهها الأدبى ، ولا من شىء آخر إلا حياتهم الشخصية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة .

(١) انظر كتاب فى الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ص ١١٠ - ١١٧ .

فالصعلوك يجعل نفسه فى شعره دائما صلب الحديث ، وكل ما يصفه أو يتحدث عنه ، مشدود الى شخصه بخيوط واضحة ، وعلاقته بكل ما يتحدث عنه بينه واضحة كل الوضوح ، فهو لا يتحدث عن شيء لذات هذا الشيء وإنما يتحدث عنه من حيث علاقته هو بهذا الشيء ، وقد أشرنا الى ذلك عند الحديث عن شعرهم فى الطبيعة ، حيث قلنا ان من أبرز ما يميز شعرهم عن غيره ، ان غيرهم من الشعراء يقلب عليه حين يصف شيئا أن يقف خارج هذا الشيء ، ثم يصفه وصف المشاهد المتفرج ، أما الصعلوك فلا بد ان يكون داخل هذا الشيء ، ولا بد أن تكون هناك علاقة بينه وبين هذا الشيء ، وأغلب ما تكون هذه العلاقة الصراع فى أى صورة من صورة بين الصعلوك وهذا الشيء . فحينما يصف الصعلوك مثلاً ليلة باردة مظلمة ، أو يوماً قانظاً شديد الحر أو مكاناً صعباً خشناً ، أو وحشاً من الوحوش ، لا يصفه لذاته ، وإنما يصفه من زاوية ما يعانیه فى علاقته بهذا الشيء ، وشعرهم فى الطبيعة كله يصلح مثلاً لذلك

وهكذا حين نتتبع موضوعات شعرهم وأغراضه ، نجد كل هذه الموضوعات والأغراض مشدودة الى أشخاصهم ومرتبطة بها ، فهم مثلاً حينما يتحدثون عن الفقر ، أو الجوع ، لا يتحدثون عنه من الزاوية العامة أو من وجهة الحكمة والفلسفة ، فيتحدثون مثلاً عن الفقر أو الجوع لذاته ، وأثره فى الناس وما ينتج عنه من شر أو أثر أو يدعون الى محاربته وعلاجه ، أو غير ذلك من الزوايا التى يتناول منها الشعراء ما يعرضون له من أمور ، وإنما يتناولونه من ناحيتهم هم ومن ناحية أثره فيهم ، وإحساسهم به ، ووسيلتهم لعلاج ومقاومته كما يقول الشنفرى :

أديم مطال الجوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (١)
والواقع ان التمثيل لا يبرز هذا الطابع فى شعر الصعاليك ، لان هذا الطابع ليس فى موضع بعينه من شعرهم ، ولا هو لدى شاعر مخصوص منهم وإنما هو طابع عام فى شعرهم ، نحسه بوضوح فى كل شعرهم ، ولدى جميع شعرائهم .

وأوضح ما فى هذا الطابع إحساسنا دائماً بشخصية الشاعر من الصعاليك فى كل شعره ، ووراء كل تعبير من تعبيراته .

وإذا أردنا التعليل لهذا الطابع ، نقول ان أهم ما يمكن أن يعلل به هو طابع المذكرات الشخصية الذى تحدثنا عنه آنفاً ، فمن الطمعى أن تكون مذكرات أى شخص عن نفسه ذاتية ، وأن نحس بشخصيته فى كل ما يتحدث عنه فى هذه المذكرات .

(١) من اللامية : البيت المشروح .

يعرف نقاد الأدب الواقعية على أنها عدم خروج الأديب بأدبه عن دائرة الواقع المؤلف الذي يآلفه الناس ، ويتفق مع معلوماتهم عن طبيعة الموضوع وتقابل الواقعية عندهم المثالية حيث يحلق الأديب فيها في أجواء مثالية يتخيلها وتهفو نفسه الى تحقيقها ، كما تخيل المفكرون والأدباء منذ القديم مدنا فاضلة تخلو من الشر والفساد ، وتتسم في جميع جوانبها بالخير الكامل الذي لا يعكره شر ولا فساد كمدينة أفلاطون الفاضلة كما تخيلها ، وكما تصور الأدباء في قصصهم وأشعارهم نماذج من شخصيات تمثل المثل العليا في الأخلاق التي يصفها الأديب ، من شجاعة أو عدل أو احسان أو غير ذلك من صفات الخير بحيث يكون تصور هذا النوع من الأدباء لهذه الصفات وحديثهم عنها في أدبهم لا يمثل الواقع ، وانما يمثل الأمانى التي يتمنون أن يروا هذه الصفات فيها وأحلامهم في أن يروا مجتمعهم وقد سادت فيه هذه الصفات بالصورة التي تخيلوها .

فهذا النوع من الأدباء يسمى المثاليين ، وهم مقابلون للواقعيين الذين لا يسبحون مع الخيال المبعد ، ولا يصورون في الناس ما ليس فيهم وانما يصفون الواقع كما هو (١) .

وقد اختلفت نظرة النقاد العرب الى الواقعية من حيث تصورهم لها في الصورة المثل التي توصف بالاعتدال والجودة ، ولم يضع نقاد العرب مصطلحات فنية للواقعية وما يقابلها من المثالية ، وان كانت قد غلبت على أحاديثهم الفاظ. جرت مجرى الاصطلاح ، حيث يعبرون دائما عن الواقعية بالصدق ، ويعبرون عما يقابله بالقلو والافراط ، ويقرنون بالصدق الكذب في الشعر ، ولكننا نحس انهم لا يجعلونه مقابلا للصدق دائما ، بل يختلفون ، فمنهم من يرى الكذب مقابلا للصدق ، وبهذا يكون الكذب رداء أدب عند هؤلاء ، ولكننا نرى بعضا آخر من النقاد العرب ، لا يجعل الكذب مقابلا للصدق بل نشعر بأنه يعنى بالكذب التصوير الشعري بما يشتمله من مبالغة وخيال ، فلا يكون الكذب بهذا مقابلا للصدق عند هؤلاء ، وانما هو صورة من صور الواقعية والصدق الفني ، وان كانت صورة مجاوزة للوضع السليم عند الآخرين ، وهو الصدق (٢) ، وشعار

(١) انظر أسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بدوي ٤٣٥ - ٤٤٥ وفي الأدب والنقد للدكتور مندور ١١٦ - ١٢٠ .

(٢) أنظر العمدة لابن رشيق ٢٢/١ - ٢٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٦/١ - ٣٩ ، أسس النقد السابق ٤٣٩ .

هؤلاء العبارة المأثورة « خير الشعر أكذبه » (١) ، وقد اختلفت وجهات نظر النقاد في القديم والحديث حول الواقعية ، وعلى الأخص حول الوضع الأمثل فيها ، فما الواقعية المثلى التى تعتبر مقياسا يقاس به الأدب ويوزن به شعر الشعراء ؟ وإلى أى مدى يباح للشاعر الخروج عن الواقعية المثلى إلى المبالغة أو الخيال ؟ وإلى أى مدى أيضا يباح للأديب والشاعر الدخول فى الواقعية إلى ما يسمونه « أدب الكاميرا » ؟ الذى يعنون به الامعان فى الواقعية حتى يصير الأدب صورة حرفية مباشرة للواقع .

والاجابة على هذه الأسئلة ظلت فى القديم والحديث موضع خلاف ، وستظل أيضا موضع الخلاف ، لأن الأدب ليس أقيسة منطقية محددة لا تقبل الخلاف ، ولا هو أمر حسى لا تختلف عليه الحواس ، وليس الأدباء أيضا مصنعا يخرج سلعا ذات أوصاف محددة يحاسب الصناعات على تجاوزها .

وإذا نظرنا إلى واقعية شعر الصعاليك نجدها تتمثل فيما يأتى :

١ - شعرهم كله لا يعدو تصوير الواقع الذى يعيشون فيه ، وتصوير احساسهم بهذا الواقع ، ويكفى توضيحا لذلك ما قرناه آنفا من أن شعرهم يعتبر كالمذكرات الشخصية ، التى دون كل منهم فيها خواطره الواقعية ، فى نطاق حياته ومعيشته ، وصلاته وصراعه مع ما حوله ومن حوله .

ولو رجعنا إلى كل الموضوعات والأغراض التى طرقها شعرهم ، لوجدناها جميعا تصويرا لواقعهم الذى يعيشون فيه ، ولوجدنا التصوير نفسه واقعيًا فالموضوع واقعى ، وتصويره أيضا واقعى ، فمثلا قول أبى خراش يصور صراعه مع أعدائه ، واستفادته بموهبة العدو ، فيقول :

فان تزعمى أنى جبنست فأننى أفر وأرمى مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا وانجو اذا ما خفت بعض المهالك (٢)

فقد علمنا من ذلك صفتين فى أبى خراش ، انه بحسن القتال ، وانه عداء وقد كان يمكن أن يتخذ من الصفتين سبيلا للتصوير والخيال ، مبعدا بذلك عن الواقع والحقيقة ، ولكنه أثر أن يصور واقعه تصويرا حقيقيا لا مبالغة فيه ولا خيال ، ولا مغالطة ، فوصف انه أحيانا يفر من أعدائه ، ولكنه فرار المقاتل لا فرار الجبان المذعور ، بدليل انه أثناء قراره يلتمس كل فرصة ليرمى فيها بسهامه ، ثم يقول انه يعتمد على الحكمة ، فحين يجد نفسه قادرا متمكنا ، يقاتل حتى يحطم القوة التى يقاتلها ، وحين يجد ان الموقف ليس لصالحه ، لا يعطل موهبة وهبها وهى العدو .

(١) انظر العمدة لابن رشيق ٢٢/٨ .

(٢) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ .

والاحيمر السعدى يصور لنا نفسيته تصويرا واقعيا صادقا ، فمع انه كان حيثنه قد تاب عن الصعلكة ، الا انه آثر الواقعية والصدق ، فى حديثه عن مشاعره كلما رأى قافلة من التجارة ، وكيف ان رؤيته للقوافل تبعث فى نفسه حيننا الى الصعلكة ، أو شيئا من حزن على فراقها حيث يقول من شعره فى ذلك :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقنى اذا مروا من الحزن
فرب ثوب كريم كنت آخذ من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)
وكذلك يصدق الأعلام الهدلى ، فى واقعية صريحة لم يكن هناك ما يدعو الى ابرازها لأنها فى خفايا نفسه ، ولكنها رغبة الصدق والواقعية ، حيث يصور كيف انه فى أثناء عدوه لينجو من الأعداء كان يخيل اليه ان الأعداء قد أخذوا عليه كل سنبل ، حتى ان الشجر الذى يمر به كان يحسبه أعداء يسلمون سيوفهم عليه فيقول :

واحسب عرفط الزوراء يودى على بوشك رجع واستلال (٢)

وكذلك أيضا يصف لنا عبيد بن أيوب نفسيته وصفا واقعيا دقيقا لا يمكن اتهامه معه بغير الصدق لأنه وصف لا يفخر به ، حيث يقول :

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشمرو
وخفت خليل ذا الصفا ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٣)

ويصف السليك بن السلعة حرمانه وبؤسه فى أشد أيام الناس خسبا وكيف انه حتى فى الصيف الذى يكثر فيه الخير عند الناس يبلغ به الجوع حد الهزال والضعف ، حتى انه اذا وقف اعتراه دوار فاطلمت عيناه ، فيقول :

وحتى رايت الجوع بالصيف ضرنى اذا قمت تغشانى ظلال فاسد (٤)

وهكذا نجد شعرهم دائما فى محيط الواقع من حيث الأغراض ، فلا يخلق موضوعات خيالية ، ولا موضوعات عامة لا تعنى أشخاصهم ، بل دائما نجد واقع كل منهم باعتبار شخصه هو وما يرتبط به ، سواء أكان يعنى غيره أم لم يكن من حيث اعتباره هو ، لأنه كما قلنا لا يظهر من شعر الصعاليك رغبتهم فى الشعر لذاته ، وإنما الذى يبدو واضحا رغبتهم فى التعبير عن حياتهم واحساسهم بها ، وهذا الفارق النفسى بينهم وبين غيرهم من الشعراء فارق يتعلق بجوهر الاتجاه ، وتترتب عليه آثار كثيرة مهمة فى كثير من الموضوعات

(١) أمال القال ٤٩/١ والزوامل الأبل عليها احمالها والقطار الأبل المقطورة .

(٢) ديوان الهدلين ٨٥/٢ والعرفط شجر والزوراء موضع والبوشك العجلة .

(٣) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ .

(٤) مجمع الأمثال ٩/٢ - ١١ وأسدف أدخل فى السدفة وهى الظلام .

والجوانب ، ومنها ما يعني الآن أن نقوله ، وهو أن من أسباب واقعتهم عدم احترافهم الشعر لذاته ، حيث اقتصروا منه على تصوير حياتهم ومشاعرهم نحوها ، ولو قد عناهم الشعر لذاته من حيث احترافه وانتفرغ له والمباهاة به لكان من المتوقع أن يحاولوا طرق موضوعات مختلفة ، منها الواقعي ، ومنها غير الواقعي ، وأن يطلقوا خيالهم الشعري العنان في كل اتجاه ، وقد يكون من هذه الاتجاهات كثير من صور الخيال ومجافة الواقع ، خصوصا وإن قدراتهم الشعاعية كما يبدو في شعر كثير منهم تهيم له القدرة على الخوض في أى مجال من مجالات الشعر ، وأى اتجاه من اتجاهاته ، ولو وقفنا وقفة تأمل مقارنين بين التزام الصعاليك الواقعية الكاملة والمثلى كما يراها نقاد العرب ، من حيث التزامهم الواقعية مجردة من المبالغة والغلو والافراط والخيال المبعد عن الحقيقة حيث يرى معظم النقاد العرب أن هذه الصور أهم ما يخل بالصدق والواقعية (١) لو نساءلنا لماذا التزم شعراء الصعاليك تحاشي هذه الاتجاهات المخلة بصدق الشعر وواقعيته ، ملتزمين بالمنهج الأمثل في الواقعية ، في الوقت الذي تكثر فيه صور الاخلاق بالواقعية المثلى في شعر شعراء معاصرين لهم ، من مبالغة وغلو وافراط وخيان غير واقعي النسج ؟

لو تساءلنا عن السبب في الفارق بين الاثنين لوجدنا أنه من الأسباب البارزة في هذا ، هو أن الصعاليك لم يحترفوا الشعر ، حتى يفرغوا كل جهدهم ويستفرغوا كل طاقتهم الشعرية في معان وأغراض يحاولون اكتشافها ، وإن لم تتح البيئة لهم استنفاد طاقتهم هذه ، خلقوا من خيالهم أغراضا يستفرغون فيها هذه الطاقة ، ولم يتفرغوا أيضا للشعر لينكبوا على تنميته واستقصاء تفرعات معنوية فلسفية فيه ، أو متابعة صوره حتى يبلغوا بها مراحل من الخيال والتصوير الشعري البحت ، كما تفرغ كثير من الشعراء لشعرهم وخاصة أصحاب الحوليات (٢) ، وكان من أوضح آثار عدم احترافهم الشعر لذاته وعدم تفرغهم له أو من أوضح أسباب هذا أيضا أنهم لم يتكسبوا بالشعر - سواء جاهلوههم ومسلموهم - إلا من شذ منهم كما قلنا .

٢ - والأمر الثاني الذي تتمثل فيه واقعية شعر الصعاليك ، أنهم بالإضافة إلى أن موضوعات شعرهم وأغراضه كانت واقعية بحتة ، كان تعبيرهم وتصويرهم لها واقعية بحتة أيضا ، ومن الواضح أن هناك فرقا بين الناحيتين فلا يلزم من كون الموضوع واقعية أن يكون تصوير الشاعر له وتناوله إياه واقعية ، فكثير من الشعراء قد يتناول موضوعا واقعية ، ولكنه يتخذ منه منطلقا

(١) انظر أسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بنوى ٢٣٥ - ٢٤٥ وانظر المصداق لابن رشيق أيضا ٢٢/١ إلى ٢٦/١ في بعض هذا .
(٢) من أشهر أصحاب الحوليات زهير بن أبي مسلم الذي كان يقضى في أعداد بعض قصائده سولا كاملا .

الى أجواء خيالية ، أو جوانب غير واقعية لا يربطها بالموضوع الا مجرد المقارنة أو نفسية الشاعر وعواطفه نحو كل منهما ، كما فى سينية شوقي التى قالها فى منفاه بالاندلس ، حيث جعل موضوعها الأساسى أطلال المجد العربى فى الاندلس ، ولكنه اتخذ من الموضوع مرتكزا للانطلاق الى مقارنات يستعرض فيها حاضر مصر ، ومجدها الفرعونى القديم بآثاره ، متحدنا عن خواطره فى رحلة البحر والسفينة ، وأغراض كثيرة يتعرض لها بجامع المقارنة ووحدة مشاعره نحوها

ولكن الصعاليك لا ينتهجون هذا المنهج فى واقعيتهن ، وانما يلتزمون أن يكون الموضوع من واقع حياتهم ، ثم يلتزمون أيضا حدود الموضوع ، لا يخرجون منه الى نطاق آخر ، ويلتزمون أيضا الواقع نفسه فى تصوير الموضوع والتعبير عنه ، فكثير من الشعراء يجنحون أيضا فى تصويرهم للموضوع الواقعى الى صور خيالية ، كما شبه ابن المعتز الهلال بزورق عليه حمولة من عنبر ، ولكن الصعاليك لا يتعدون فى تشبيهااتهم وحتى فى خيالهم الصور الواقعية البحتة بمعنى أنهم حينما يريدون تشبيه شئ واقعى لا يشبهونه بشئ خيالى ، وانما يشبهونه بشئ واقعى أيضا ، كما فعل أبو خراش فى تشبيهه للقبر ، حيث شبه القبر البارز فوق الأرض بالبعير البارك فى قوله :

لعلك نافعى يا عمرو يوما اذا جاودت من تحت القبور (١)
اذا راحوا سوى واسلمونى تحشناء الحجارة كالبعير (٢)

فالموضوع وهو القبر واقعى ، والمشبه به أيضا واقعى ، وهو الجمل البارك وحين نستقصى تشبيهات شعر الصعاليك وصوره الشعرية ، نجدنا من صميم البيئة ، وفى أقرب حالاتها من الواقع والحقيقة المحسوسة فى حياتهم بل تبلغ واقعية الصعاليك اننا نرى المشبه به فى شعرهم - على عكس غيرهم - أقرب الى الواقعية أحيانا من المشبه نفسه ، حيث نرى أغلب الشعراء يحاولون أن يضيفوا على صورة المشبه به ثوبا من الخيال والرواق ، لأن الشاعر يعتبر المشبه به صنيعته وخلق هو ، وهو الواقع لأن الشاعر يأتى بصورة المشبه به من خياله وتصويره ليعبر بها عن شعوره نحو شئ واقعى يتحدث عنه هو المشبه ، فحين يريد الشاعر مثلا أن يصف زهرة ، أو أن يصف معركة ، تكون الزهرة والمعركة شيئين واقعيين ليسا من صنع الشاعر ، وانما الذى من صنعه هو الوصف والتصوير اللذان يتمثلان أحيانا فى تشبيه الزهرة والمعركة بأشياء أو بصور أخرى ، وهذه الأشياء والصور الأخرى من صنعه ومنسوبة

(١) ديوان الهذليين ١٣٦/٢ وعروة أخوه ومن بمعنى الدين يعنى اذا اكامت .

(٢) أسلمونى يعنى تركونى يريد المشيعين لجنائزته وخشناء الحجارة يعنى حجارة القبر وأصله

لحجارة خشناء وكالبعير يعنى ظهر القبر كأنه يعبر بارك .

اليه ، وهى فى الوقت نفسه مقياس وحكم على شاعريته ، ولذلك يجتهد كثير من الشعراء أن يلبسوها ثوبا شاعريا مزخرفا بما يستطيعون ، وما يروق لهم من خيال وصور ، ومن هذه الزاوية نجد المشبه به فى أغلب الأحيان وأن كان أوضح من المشبه فى المعنى الذى يريده الشاعر ، الا انه أبعد عن الواقع بسبب ما اكتنفه من خيال وتصوير كما أشرنا اليه من تشبيه ابن المعتز للهلال بزورق عليه حمولة عنبر

ولكن شعر الصعاليك غالبا ما نجد المشبه به فيه أقرب الى البساطة والواقع والالف من المشبه ، كما رأينا فى تشبيه أبى خراش للقبر بالبعير المبارك ، وكما فى تشبيه الأعمى الهذلى لنزع الضباغ جلد الفريسة بنزع الحداد حلية جفن السيف ، فهم يالفون أن غمد السيف يوضع عليه غشاء موسى ليكون حلية له ، وحين يبلى هذا الغشاء ويخلق يذهبون به الى الحداد لينزع هذا الغشاء البالى ويضع مكانه غشاء جديدا محلى بالوشى ، فيشبه الأعمى نزع الضبع لجلد الفريسة بنزع الحداد لهذا الغشاء ، فيقول فى سياق حديثه عن الضباغ :

يتزعن جلد المرء نزع القين أخلاق المذاهب (١)

ومن جوانب الواقعية فى الصورة ، مراعاة ما هو معروف عن الضباغ من تتبعها للجثث والجيف ، مما يجعل صورة الأعمى عن نزع الجلد أعمق فى الواقعية والحقيقة ، فان نزع الجلد فى الحيوان وهو ميت أيسر منه وهو حي .

ويتأثر الشنفرى بالرنين الذى ينبعث من القوس حين ينطلق منها السهم فيشبه هذا الرنين الحزين بأبلغ صوت تعرفه البيئة فى الحزن ، وهو حنين الناقة على ولدها حين تفقده :

إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرؤاة ثكلى ترن وتصول (٢)

٦ - التجربة والصدق

التجربة والصدق اصطلاحان يترددان كثيرا فى النقد الأدبى .

ويعنى النقد بالتجربة الشعرية ، وضوح الصورة الشعرية فى نفس الشاعر ، وفهمه الكامل لجوانب موضوع شعره ، بمعنى أن يكون مدركا إدراك الاقتناع والفهم العميق لموضوع شعره ، ولا يقصدون بالتجربة ، التجربة

(١) ديوان الهذليين ٨٠/٢ والقين الحداد والأخلاق البالية والمذاهب المذهب .

(٢) من اللامية : والمرؤاة كثرة الرزايا تصيبها معنى فقدما ولدها وتصول من المويل .

الحسية التي يتصور معها أن يكون الشاعر قد عانى الموضوع معاناة حقيقية واقعية ، فقد يكون الموضوع خياليا ، وقد يكون واقعا ولكن الشاعر لم يعانها ولم يتصل به اتصالا مباشرا ، بل قد يكون موضوعه تاريخيا في عصور غابرة ، ولكن ذلك لا يمنع من وصفه بالتجربة . فالذي يعنونه من التجربة أن تكون صورة الموضوع وعناصره وجوانبه ، واسبابه وملابساته واضحة في نفس الشاعر ، مؤثرة في انفعاله كأنه عانها حقيقة واحتك بها احتكاك التجربة العملية (١) ويجعلون الصدق من مقتضيات التجربة الشعرية السليمة المقبولة في النقد ، بمعنى أن يكون الشاعر صادقا في نقل التجربة الذهنية الماثلة في نفسه للناس ، دون أن يكون في ذلك مداراة أو التواء أو مجاملة ، ويجعلون الصدق الفني في نقل التجربة من النفس إلى الناس يتسم بالإيمان والاخلاص كإيمان الصوفي وإخلاصه لعقيدته ، فالشاعر يحتم عليه صدقه الفني أن ينقل تجربته على الصورة التي يؤمن بها ويعتقد بها دون مراعاة أي اعتبار خارجي ولذلك يخرجون من التجربة الشعرية شعر المناسبات ، لأنهم يرون الصدق الفني فيها غير كامل نظرا لتأثر الشاعر بظروف المناسبة وملابساتها (٢) .

ونقاد العرب الأولون لا يجعلون لفظ التجربة اصطلاحا يتحدثون عنه وإن كان مضمونه يتكرر كثيرا في نقدهم ، وأما الصدق فانهم وإن كانوا قد اتخذوه اصطلاحا إلا أنهم لم يضعوا له تعريفا محددا ، كشأنهم في معظم اصطلاحات النقد الأدبي التي رددوها في نقدهم ، وقد اختلف فهمهم للصدق في الشعر ، فأحيانا يرونه الصدق الذي يقابل الكذب ، وأحيانا يتحدثون عنه على أنه الصدق الفني الذي يشمل في التصوير الشعري المفتع ، الذي لا يعارض التفكير والمنطق (٣) وحين نطبق التجربة والصدق على شعر الصعاليك ، نجد أن انطباقهما على شعر الصعاليك لا يكاد يماثل انطباق آخر

فأما عن التجربة ، فقد كررنا أن شعر الصعاليك في جملته لم يعد حياة الصعاليك ومشاعرهم نحو حياتهم ، في نطاق بيئتهم المحددة التي يعيشون فيها ، ولم يعنهم خارج هذا النطاق شيء ، وحين يتحدثون عن هذه النواحي التي عننتهم نجد أن حديثهم حديث المجرب تجربة حقيقية بما عاناه وأحسسه ، وبما يراه من حوله ، وقد قلنا في شعرهم عن الطبيعة أنه يمتاز بأنهم دائما في الصورة وليس خارجها ، وأنهم يضعون أنفسهم دائما موضع الجزء الأساسي من الصورة ، وليس موضع المشاهد المتفرج من خارج الصورة والمشاهد . وإن ذلك يسرى على شعرهم كله بوضوح في كل موضوعاته وأغراضه .

وإذا كان النقد يشترط في الشعر التجربة ، ويجعلها شرطا أساسيا في

(١) انظر النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال ٣٩٠ - ٤٠٠ .

(٢) المصدر السابق ٣٩٢ .

(٣) أنظر أسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بدوي ٤٢٦ .

تقبله ، فانه يكتفى بموقف المشاهد من خارج المشهد والصورة ، مادام المشهد أو الصورة واضحين في ذهنه ، فكيف بالشاعر اذا كان داخل المشهد ، وجزءا منه ، وعاملا من العوامل المحركة فيه ؟ وكيف يقول النقد عنه ؟ لاشك انه - من حيث التجربة - يكون هذا الشاعر قد بلغ قمة التجربة الحقيقية الواقعية وبالتالي يكون قد بلغ أقصى ما ينتظره النقد من شاعر ازاء التجربة ، بصرف النظر عن العوامل الأخرى التي تساهم في جودة الشعر ، وتدخل في عناصر الحكم عليه ، وكون شعر الصعاليك شعر تجربة حقيقية أمر لا يحتاج الى توضيح فحين نستعرض موضوعات شعرهم وأغراضه نفسها نجد لها موضوعات خاصة بهم من حيث أنهم عانوها وصارعوا ظروفها ، قالفقر والجوع والهزال وثوق الموت ، وقسوة البيئة ، بما فيها من عطش وجوع وخوف ، ومن حر وبرد وما الى ذلك . كل ذلك عاناه الصعاليك معاناة حقيقية ، ولذلك كان شعرهم عنه شعر التعبير عن ظروف وأحداث حقيقية في حياة أصحابها فحين يقول أبو خراش مثلا :

واني لاأوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي(١)

واصفا معالجته للجوع ، وموقفه منه ، فانما يعبر عن تجربة حقيقية عاناهما .

وحين يقول الشنفرى واصفا نعليه الباليين ، اللتين لم تخفف خروقهما :

قليل جهازى غير نعلين اسحقت صدورهما مغمورة لا تخفف(٢)

فانما يصف مشهدا حقيقيا يعاينه ويلابسه .

وحين يقول شبيب بن عمرو واصفا هروبه ونجاته من طاردة جنود على رضى الله عنه :

ولما ان رايت ابني شميظ بسكة طير والباب دوني
تجللت العصا وعلمت انى وهين مخيس ان ادركوني(٣)

فانما يصور مشهدا حقيقيا تعرض له .

وحين يقول جحدر بن معاوية واصفا نفسيته وهيمومه في سجن الحجاج :

تاوبنى فبت لها كنيعا هموم ما نبارقنى حوانى
هى العواد لا عواد قومي اظن عيادتي في ذا المكان(٤)

(١) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ واوى من الثواء وهو الإقامة والجرم الجسم يعنى لم يدنس

عرصى .

(٢) مذهب الأغاني ٩٥/١ .

(٣) حماسة أبي تمام ٢٥٢/١ والعصا لرسه ومخيس سجن .

(٤) أمال القائل ٢٧٧/١ .

فانما يصف نفسيته في تجربة حقيقية مر بها وعانها .
واما عن الصديق في شعرهم فنقول :

ينبغي أولا أن نلقى نظرة على ظروف الصعاليك في حياتهم ، وعلى بيئتهم
أعنى نلقى نظرة على واقع الموضوعات والأغراض التي تعرض لها شعرهم
لنرى هل وصفهم يطابق واقع هذه الأغراض أم يخالفها ، وحينئذ نستطيع أن
نحكم عليهم بالصديق أو عدم الصديق .

وحين نعود الى حديثنا عن ظروفهم وبيئتهم ، نجدها تتلخص في أنهم
كانوا فقراء فقرا اثر في أجسامهم ، وحدد سلوكهم ، ومن هذا التحديد الجاؤهم
الى سلوك الصعلكة في بيئة رهيبة بكل ما فيها ، وقد تميزوا بصفات من القوة
النفسية والجسدية أعانتهم عليها ، وانهم كانوا في شبه عزلة نفسية وواقعية
عن المجتمع ، وانهم حددوا صلاتهم الاجتماعية على أساس هذه العزلة ، ونظروا
الى الأمور ، والى الناس من زاويتهم هم ونفسياتهم ، هذه حقيقة الصعاليك
وهذا واقعهم . وفي مقام البحث عن مدى صدق شعرهم في التعبير عن هذه
الحقيقة ، وفي تصوير هذا الواقع نقول ان شعرهم عبر عن هذه الحقيقة ،
وصور هذا الواقع بكل صدق وأمانة ، فاما عن حقيقتهم ومعيشتهم فقد نقل
لنا شعرهم واقعهم فيها في صدق بالغ ، وأوضح دليل على ذلك أن واقع
الصعاليك في حياتهم لم يكن موضع فخر ولا مباهاة ، بل كان على العكس ،
صوروا مؤلة حزينة ، من الفقر والجوع والهزال ، وتمزق الثياب والتعال ،
والخرف والتوجس ، الى آخر ما مثلنا له كثيرا في موضعه مما سبق ، وليس
من شك في انه لولا قوة شخصيات الصعاليك لحجل كثير منهم من أن يتحدث
عما من شأنه أن يفض من قدره في مجتمع يشيع فيه التفاخر بكل شيء ،
وبأدنى شيء . ومما لا شك فيه ان صراحتهم هذه في وصف ما يمكن أن يفض
من قدرهم تعتبر ناحية من نواحي قوتهم وشجاعتهم النفسية . فحين يصف
الشنفرى مثلا حفاء قدميه ، وتمزق ثيابه ، وشعره الضافي الذي مر عليه نحو
حول لم يفصل ولم يفل ولم يقص لا يقول ذلك فخرا ، ولا يقول انه أصبح
بشعره ذا لبد كالأسد ، وانما يقوله واصفا حاله ومعيشته في عزلة الصحراء
دون مواربة أو تضليل ، وللناس بعد ذلك أن يروا في ذلك ما يروا ، ولهم
أن يرفعوه في أعينهم أو يخفضوه ، ولكنه لا يعنيه من ذلك شيء وانما يعنيه أن
يكون صادقا مع نفسه ومع غيره ، فيقول بعد قوله انه يحفى ولا يتنعل ، وبعد
وصفه لردائه الأتحمى الممزق :

وشاف اذا هبت له الريح طيرت كائد عن اعطافه ما ترجل
بعيد بمس الدهن والفلى عهد له عيس عاف من الغسل محول (١)

(١) من اللامية : وشاف يعنى شعره للتهدل وترجل. تمشط والمبس الوسخ ومحول من
الحول يعنى لم يفصل منذ حول .

وهكذا شعرهم عن أنفسهم ومعيتهم وحتى نفسياتهم ومشاعرهم التي كان يمكن أن يخفوها آثروا أن يحدثونا عنها في صدق بالغ ، كما يقول صخر الفز ، فضلا عن أن يعينه ، فيقول :

وفريت من فزع فلا أرمي ولا ودعت صاحب (١)

وكما قال عبيد بن أيوب مصورا خوفه الذي سيطر على نفسه :

لقد خلت حتى لو تطير حمامة لقلت علوا أو طليعة معشر (٢)

وهكذا نجد الصدق في شعرهم يبلغ أقصى ما يتصوره النقد .

وقد يقول قائل : فكيف بحديث الوهم عندهم ؟

ونجيب عن ذلك بأننا تحدثنا حقا عن الوهم في شعرهم ، من حيث أنه ورد في شعرهم وهم لا يعقل أن يكون واقعا ولا صدقا ، لأن موضوعه غير موجود أصلا ، كحديثهم عن الغول والسعال ، في معاشرتهم لها . ولكننا هنا نذكر هذا الوهم لم يشع في شعرهم إلى درجة أن يكون ظاهرة بل حددنا أننا لا نعلم أن أحدا منهم صدر عنه هذا الوهم إلا شخصين عبيد بن أيوب ، وتابط شرا ، فاما عبيد بن أيوب فقد أكثر حقا من ذكر الوهم في شعره ، ولما تابط شرا فلم يتحدث عن الوهم إلا في حادثة واحدة زعم فيها أنه لقي الغول ، وانتهى أمره معها إلى قتله إياها . ومن الواضح أن انحصار معنى من المعاني في شخصين اثنين من طائفة ، لا يمثل هذه الطائفة ، بل يعتبر شذوذا لا يؤثر على الحكم العام بالنسبة للطائفة ككل ، والشذوذ لا يخلو منه حكم ، كما لا تخلو منه جماعة ، ومعنى هذا أن صدور الوهم الذي لا يتفق مع الصدق والتجربة من هذين الشخصين لا يؤثر على صفة الصدق والتجربة في شعر الصعاليك ، لأن هذا الوهم الذي صدر من عبيد وتابط شرا كان نشذا شديدا في شعر الصعاليك ، فلم يكن في شعرهم ما يماثله ، أو حتى يقرب من اتجاهه .

على أننا حين نعلم الظروف المحيطة بعبيد بن أيوب وتابط شرا ، وتأثير هذه الظروف في نفسيتهما وأعصابهما ، فقد تغير حكمنا على موقفهم من هذا الوهم لنقول إنه حق وصدق ، وليس كذبا واختراعا .

وذلك أن عبيد بن أيوب كما نجد في ترجمته وأخباره (٣) ، كان حين قال شعر الوهم قد خلعه قومه لجنايات جناها ، وطارده السلطان طلبا لعقابه

(١) ديوان الهذليين ٧٨/٢ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ مع شعر آخر في المعنى نفسه .

(٣) أنظر ترجمته وأخباره ومراجعهما فيما سبق من فصل « الشعراء الصعاليك » .

على هذه الجنائيات ، فاضطر الى اللجوء الى الصحراوات وحيدا فريدا ، يعيناه
أشد الخوف من خلق قومه له ، ومن مطاردة السلطان ، ومن أعدائه أصحاح
الجنائيات التي جنتها ، ومن الوحوش المحيطة به من كل جانب ، فسيطر عليه
رعب شديد . وخوف مهلك ، وقد عبر هو نفسه في صدق عن مبلغ خوفه في
شعر كثير يقول منه البيت السابق :

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو او طليعة معشر

ويقول منه « وخفت خليل ذا الصفاء وربني » (١) ويقول منه :

اذقني طعم الأمن اوصل حقيقة على وان قامت لفصل بنائيا
خلعت فؤادي فاستنظر فاصبحت ترامي به اليد القفار تراميا (٢)

فهو يصرح اذن بأنه أصبح يرى في كل شيء عدوا ، وفي كل صوت
صبيحة عليه من أعدائه ، وأن الخوف الشديد ملك عليه نفسه وحواسه ومعنى
ذلك ان احساسه وإدراكه لما حوله أصبح غير سليم ، بالإضافة الى أساطير
وخرافات عالقة بذهنه من أساطير البيثة عن الفيلان والسعالى والجن ، فتحت
وطاة هذا الخوف الشديد ، من المحتمل أن يكون قد تصور هذه الأساطير
حقائق ماثلة فيما يراه من الظلال والكهوف وأصوات الطيور وأشباح الحيوانات
فى الليل ، وبهذا لا يكون كاذبا فى دعواه عن هذه المخلوقات لانه تحدث
عما خيل اليه انه رآه وأحس به ، ولذلك آثرنا هناك أن نسمى هذا النوع
بالوهم ، لأن صاحبه فى أغلب الظن لم يكن كاذبا ولا مختلعا ، وانما كان
معبورا عما خيل اليه كحقيقة واقعة فى اعتباره .

والجاحظ يؤيد ذلك ، حيث انه بعد أن ساق شعرا كثيرا من شعر الوهم
لعبيد بن أيوب ، لم يتهمه بالكذب والاختلاق ، وانما علل ذلك بقوله « اذا
استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير فى صورة الكبير ، وتفرق ذهنه ،
فراى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير أنه عظيم جليل » (٣)
وأضاف الى هذا التعليل قوله أيضا « ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به
انهم ليس يلقون بهذه الأشعار والأخبار الا اعرابيا مثلهم والا عاميا لم يأخذ
نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك » (٤) ولكن
الدليل الثانى لم يسقه الجاحظ عن عبيد بن أيوب خاصة ، وانما ذكره فى مقام
الوهم فى الشعر من حيث هو ولذلك ذكر شعرا آخر لغير عبيد فيه مثل هذا
الوهم ، كشعر القتال الكلابى ، ومهما يكن فالجاحظ فيما يسدو من حديثه

(١) حيوان لمجاحظ ٢٤١/٥ -

(٢) اشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م الخالجي .

(٣) الحيوان للمجاحظ ٢٥٠/٦ -

(٤) المصدر السابق ٢٥١/٦ -

لم يعتبره كذبا ، بل صرح بالنسبة لعبيد بن أيوب وكأنه يقدر ظروفه التي أشرنا إليها ، والتي صرح بها الجاسط في الدليل الأول ، إذا استوحش الإنسان ٠٠ الخ ، صرح بالنسبة لعبيد في أكثر من موضع بأنه تصور حقيقي كما في عنوان أحد الفصول ، شعر فيما يصوره الفرع ، (١) ثم ساق قول عبيد السابق ، لقد خفت حتى لو تطير حمامة ٠٠ ، وفي عنوان آخر يقول : « مذاهب الأعراب وشعرائهم في الجن » (٢) وفي عنوان آخر يقول « ما يتصوره الأعراب من عزيز الجنان تقول الفيلان » (٣) ومن هذه العناوين تأخذ أن الجاسط لا يتهم عبيدا بالكذب والاختراع ، وإنما يحمله على أنه تصور حقيقي ناتج من عامل الفرع وتأثير الأساطير في النفس .

وأما تأبط شرا ، فانه وإن لم يكن خليعا ، ولم يتعرض لكل ظروف عبيد ابن أيوب ، فقد عانى ظروف عبيد في وحشة الصحراء ومخاوفها العديدة وخوفه من أعدائه الكثيرين الذين يتوقع بل يوقن أنهم سيقتلونه كما يقول عن نفسه :

ومن يفسر بالأعداء لابد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا (٤)

ولكن هذه الظروف لم تبلغ من نفسه ما بلغت من نفس عبيد ، ولذلك كان حديثه عن الأوهام دون حديث عبيد ، فان تأبط شرا كما قلنا لم يتحدث من وهم الا في حادثة واحدة زعم انه قتل فيها الفول ، وقد قلنا انه كان يمكن أن يتصور انه فعلا قتل وحشا غريبا من وحوش الصحراء طنه غولا ، لولا انه تحدث عن تفاصيل لا تترك مجالا للدفاع عنه كقوله عن الفول « وطالبتني بضعا فالتوت » .

ونعود فنقول ، ان شدوذ شخصين من طائفة بأكملها لا يؤثر على الحكم العام بالنسبة للطائفة ، على انه يمكن حمل حديثهما في الوهم على انه صدق وليس كذبا ، وذلك باعتبار الزاوية التي علل بها الجاسط هذا الوهم ، من حيث ان الانسان اذا سيطرت عليه الوحشة وما يحيط بها من عوامل الخوف والرغبة تمثلت امامه اشباح وخيالات يفلتها مخلوقات حقيقية .

ولكن الشيء الذي ينبغي الا نفعله انه حتى مع فرض عدم الصدق الخلقى في هذا الوهم ، فلا شك ان فيها صورة من الصدق الفني والتجربة الشعرية كما يقرها النقاد . لأن هذا الوهم يدل اول ما يدل على جو الرهبة والوحشة الذي أحس به الشاعر وتأثرت به نفسه ومشاعره ، ومن هذه الناحية يعتبر حديث الوهم هذا

(١) الجنان ٢٤١/٥ .

(٢) الجنان ١٦٥/٦ .

(٣) الجنان ٢٥١/٦ .

(٤) حساسة أبي تمام ١٨٩/١ .

تجربة شعرية صادقة من الوجهة الفنية ، بصرف النظر عن الصدق الخلفى الذى يقابل الكذب ، لأن هذا الجو الرهيب المخيف الذى عاش فيه أشاعر هو حقيقته واقعه وكونه عاش فيها وتأثرت بها نفسه يجعلها تجربة حقيقية . ونقله لهذه التجربة يعتبر من الناحية الفنية صدقا فى نقل مشاعر وأحاسيس ، وإلى هذا الحد يسبر شعراء الوهم غير مخلين بالتجربة والصدق ، أما ما بعد ذلك من التفاصيل (١) فهو موضع النظر ، واختلاف النظرة . واذن فشعر الوهم من حيث تصويره لجو رهيب مخيف يملأ النفس بأحاسيس الخوف والتصورات ، يمثل تجربة حقيقية ، ونقل الشاعر لإحساسه بهذا الجو وانفعالاته وإحساسه به فى جملته يعتبر صدقا فنيا ، وهذا القدر يكشفنا دليلا على أن شعر الصعاليك كله بما فيه شعر الوهم يمثل تجارب حقيقية عاشها الصعاليك وتأثرت بها نفوسهم ومشاعرهم ، وكانوا صادقين صدقا فنيا بالغاً فى نقل صورة تجاربهم حتى كأننا نعيش فى هذه التجارب ونحسها .

ولا نحب أن يصرفنا حديث الوهم عن الطابع العام والغالب على شعر الصعاليك ، فالواقع الذى لا ينازع فيه بين الدارسين لشعر الصعاليك أن شعرهم يمثل تجارب حياتهم الواقعية ، وأنهم قد نقلوا هذه التجارب على حقيقتها ، وكما أحسوا بها . وأن شعرهم بلغ فى الناحيتين أقصى ما يتاح لشعر فى تمثيل الواقع ، وأقصى ما ينتظره النقد من صدق التجربة ، وصدق الشاعر فى نقلها . حيث جعلنا شعر الصعاليك كأننا نرى حياتهم وظروفهم بأعيننا ، ونلمسها بحواسنا كما رأينا فى الحديث عن شعرهم كله فى مختلف الموضوعات والأغراض ونقاد العرب يرون فى هذه الصفة ميزة ترتفع بالشعر إلى قمة الجودة ، كما يقول ابن رشيق « وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثل عيانا للسامع ، وأحسنهم وصفا من أتى فى شعره أكثر المعانى التى الموصوف بها مركب فيها ، ثم باظهرها فيه وأولاهها به ، حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته ، وقال بعض المتأخرين أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا » (٢) والعبارة الأخيرة أصدق ما ينطبق على شعر الصعاليك . وإذا أردنا أن نناقش انحصار شعر الصعاليك فى حدود بيئتهم وحياتهم ، نقول أنه لم يكن ينتظر من مثلهم غير ذلك ، لأنهم لم يلحوا ببيئة غير بيئتهم ، ولم توسع آفاقهم ثقافة يطلون منها على مجتمعات أو معلومات غير مجتمعاتهم ومعلومات بيئتهم ، ولا يقلل من قدر شاعر أن تنحصر موضوعاته فى نطاق بيئته ومعلوماته ، وإنما يقلل من قدره كشاعر أن يقصر فى الموضوع من حيث استيفاء معلوماته وتطبيقها وأن يقصر فى قدرته على التصوير نفسه ، بمعنى أن تكون قدرته الشعرية دون الوفاء بالتصوير الحيد لموضوع شعره ، وقد عرف نقاد العرب منذ القديم أن الشاعر لا ينتظر منه أكثر من صور بيئته ومعلوماتها ، كما يقارن ابن رشيق بين شعراء البادية ، وشعراء الحضارة المحدثين

(١) أعنى بالتفاصيل ، تفاصيل ما دار بين الشاعر والمخلوقات الوهمية فيما يصوره الشاعر فى وهم عبيد بن أيوب .

(٢) السدة لابن رشيق ٢٩٤/٢ - ٢٩٥ .

فيقول « وليس بالمحدث من الحاجة الى اوصاف الا بل ونعوتها والقفار ومياها وحجر الوحش والبقر والظلمان والوعول ، ما بالاعراب: وأهل البادية ، والاولى بنا في هذا الوقت صفات الحمر والقيان والكئوس والقناني والاباريق وباقات الزهر ٠٠٠ » (١) والنقاد والمحدثون يهتمون في حديثهم عن التجربة الفنية الحقة بمعنى يعنيها في الحديث عن شعر الصعاليك من حيث التجربة الشعرية ، فالنقاد يرون التجربة الفنية الحقة هي التي يتمثلها الفنان أو الشاعر لنفسه قبل أن يعنى بها إثارة غيره ، وكأنه حين ينسج مشاعره الفنية لا يعنيه أحد ، وإنما تعنيه نفسه ، ولا يقصد الى إثارة مشاعر أحد ، وإنما يقصد أولا الى اشباع شاعريته والى ارضاء مشاعره هو ، فإذا خاطب الناس بعد ذلك بفنه أو شعره ، فهو إنما يخاطبهم ليشاركوه في لذته الفنية ، ومتعته الشعرية ، فالتعة الفنية واللذة الشعرية يقصد بها نفسه قبل كل شيء ، ويصرف فيها النظر عن كل مخاطب ، فإذا خاطب الناس بفنه أو شعره • لم يكن يقصدهم هم في الحقيقة بهذه المخاطبة بمعنى أنه لم ينشئ فنه وشعره من أجلهم وإنما مجرد اشراكهم أو اطلاعهم على متعته الفنية وعلى مشاعره التي تبسجها وصورها لنفسه ، وهذا المعنى تترتب عليه آثار كثيرة في منهج كل فنان وشاعر ، والنقاد يعتبرونه من حيث التجربة هو المقياس الحقيقي الذي يتفاوت به الفنانون والشعراء ، فيقولون عن هذا المعنى مثلا « وقد يوجه التعبير عن الشعور الى مخاطب ، ولكن هذا التوجيه لا يقصد منه إثارة شعور مائل من الغير ، وإنما يقصد به أن يدرك فقط ما يحسه المتكلم » (٢) ويقولون أيضا « أما المرء الذي يعبر عن شعوره بحق فهو الذي يقف من نفسه ومن مستمعيه موقفا واحدا فيوضح شعوره لهؤلاء المستمعين توضيحه لنفسه سواء بسواء • والأصل اذن هو تعبير المرء لنفسه عن نفسه ثم لمن يفهمه ، وهذا تفريق واضح بين من يعبر عن شعوره ، ومن يثير شعور الآخرين » (٣) •

وحين نعود الى ما قررناه غير مرة ، من أننا نحس دائما كأن شعراء الصعاليك لا يقولون شعرهم للناس ، وإنما يقولونه أولا لأنفسهم ، وأن شعرهم في هذا أشبه بالذكريات الشخصية التي يسجل فيها امرؤ خواطره ومشاعره ومشاهداته لنفسه ، حين نعود الى ذلك نجد أن شعر الصعاليك يمثل التجربة الشعرية في اصدق صور فنية ترجى من شاعر ، وفي أمثل مستوى شعري ينتظره النقاد من الشاعر ازاء التجربة الشعرية •

(١) المدة لابن رشيق ٢/٢٩٥ •

(٢) الأسس الفنية للنقد الأدبي للدكتور عبد الحميد يونس ص ٩٨ •

(٣) المصدر السابق ص ٩٩ •

من الملامح الواضحة في شعر الصعاليك ، والتي تميزه عن الشعر المعاصر له ، الطابع الخاص بوحدة القصيدة ، فبيئتنا نجد الشعر العربي القديم يلتزم ما يسميه النقاد القدامى عمود الشعر ، وعمود الشعر يتفقون في فهمهم له - رغم اختلاف نظرتهم في تفاصيله - على انه التزام الطابع التقليدي المتوارث عن الشعراء القدامى ، سواء من حيث المطلع أو المعاني أو الألفاظ أو النواحي البيانية والبلاغية (١) بينما يلتزم الشعر القديم هذا الطابع ومن بينه اشتغال القصيدة على عدة عناصر في أغلب الأحيان ، وفي مقدمة هذه العناصر الغزل في مطلع القصيدة ، ثم وظيف حال الشاعر غالبا ثم الموضوع الأساسي ، وما تستتبعه من عناصر ، وهذا الطابع معروف في الشعر العربي القديم .

نقول بينما يلتزم الشعر القديم هذا الطابع نجد شعر الصعاليك يخالفه فيه مخالفة واضحة فشعر الصعاليك مثلا يندر ان نجد فيه بدء القصائد بالغزل كطابع تقليدي ، الا اذا كانت القصيدة نفسها غزلا ، فلا تكون حينئذ ذات مطلع ، لأن مطلعها وموضوعها واحد وهو الغزل ولو ذهبنا نستقضى شعر الصعاليك كنه لما وجدنا فيه قصيدتين أو ثلاثة يبدأن بهذا المطلع التقليدي في الشعر القديم ، وحتى بعض هذه القصائد القليلة التي بدأت بالغزل مع اشتغالها على أغراض أخرى ، يتحدثنا الرواة بأن الغزل فيها حقيقي وليس مطلعا تقليديا ، كقصيدة عبدة بن الطبيب التي أولها :

هل جبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (٢)

فالرواة يذكرون في منبب هذه القصيدة أن عبده كان قد هاجر لمهاجرة حليلة له - وهي التي يتحدث عنها في القصيدة - فلما آيسته رجع الى البادية فقال هذه القصيدة ، فأول طابع تقليدي كان الشعر القديم يلتزمه وهو استهلال القصيدة بالغزل ، لم يكن شعر الصعاليك اذن يلتزمه .

ثم نذهب الى بقية جوهر الطابع التقليدي ، فنجد شعر الصعاليك لا يلتزمه ايضا ، بل يكاد يعارضه معارضة واضحة ، وذلك أننا نجد شعرهم لا يتجه الى طابع القصائد التي تشتمل على عناصر أو أغراض متعددة ، وإنما تلتزم القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحدا لا تعدو تصويره ، أو تصوير جوانبه وملابساته المباشرة ، ولو أخذنا أطول قصيدتين وردا لنا من شعر الصعاليك ، وهما لامية عبدة بن الطبيب ولامية الشنفرى ، لرأينا أنهما مع طولهما ، ومع ما يبدو في

(١) انظر أسس النقد الأدبي عند العرب للدكتور أحمد بدرى ٥٣٥ - ٥٣٩ .

(٢) المضئليات ص ١٣٥ .

بعضهما من معان مختلفة ، يمثلان الوحدة في القصيدة بصورة تخالف الطابع التقليدي في الشعر المعاصر لها .

فأما قصيدة عبدة وهي ذات المطلع السابق ، وتبلغ واحدا وثمانين بيتا ، فالظروف التي أحاطت بإنشاء عبدة لها ، أن زوجه خولة رحلت الى المدائن ، وقد ذكر الرواة كما قلنا انه هاجر وراءها فلما أيسته رجع من المدائن التي شهد فيها وقعة القادسية ، الى باديته في الحجاز ، ثم قال القصيدة ، وحين نستعرض القصيدة نجد أنها على طولها لم نعد وصف الرحلة وسببها ، فتبدا بحثينه الى خولة ثم حلولها المدائن والكوفة ثم يعبر عن يأسه منها ، ونفض يده متخلصا الى حديث رحلته بقوله :

ان التي ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول
بعد عنها ولا تشغلك عن عهلي ان الصبابة بعد الشيب تضييل
بجسرة كعالة القين دوسرة فيها على الاين ارقال وتبغيل (١)

ويتخذ من هذه الأبيات تحللا من حديث خولة ، ومنطلقا لوصف الرحلة وبمقدار طول الرحلة كان وصفه لها أيضا ، فقد وصف من مطاياهم في الرحلة الناقة والفرس وصفا طويلا جميلا ، ووصف معيشتهم وحصولهم على الطعام أثناء الرحلة ، فوصف الصيد الذي يعتمد عليه مسافر الصحراء ، وكان الصيد الذي هز مشاعره صيده ثورا أبيض اللون يخالط قوائمه سواد ، ووصف الصراع مع هذا الثور ، ووصف الثور نفسه وصفا بديعا ، كوصفه اياه وهو يعدو من مطاردة الصائد عدوا يثير التراب في كل وجه بكل قوائمه ، وقد نال منه الجهد حتى خرج لسانه مائلا عن شذقه فيقول :

مستقبل الريح يهفو وهو مبترك لسانه عن شمال الشق معدول
يخفي التراب باطلافي ثمانية في أربع مسهن الأرض تحليل (٢)

ثم يصف عبدة ما لقيه من البذخ والترف في بلاد العجم ، مصورا اياه في مجلس شراب بما فيه من بسط وستائر وتمائيل وسقا .

وهكذا نجد القصيدة كلها موضوعا واحدا هو وصف رحلة مقرونة بسببها ، مستعرضة أبرز المشاهد التي أثارت مشاعره في هذه الرحلة .

وأما لامية الشنفرى فهي جاهلية ، وعدتها ثمانية وستون بيتا ، والظروف المحيطة بها ، ان الشنفرى حين قالها لم يكن له وطن ولا اهل كما كان للناس

(١) المفصليات ١٣٦ والجسرة الناقة الصلبة واللين الحداد والملاءه سندان الحواد والدوسرة الصلبة الضخمة والاين الأعياء والارقال والتبغيل نوعان من المشي السريع .
(٢) المبترك المجتهد في المدو ومدول مائل ويخفي بمعنى يظهر ويثير ، والثمانية لان في كل رجل ظلفين وتحليل من تحليل القسم .

فقد سبى من اهله فى أزد اليمن وهو صغير ، لينقل الى نجد أسيرا فيها ولم يلبث أن أحس الهوان والذل الذى يعيش فيه برارة لم تطقها نفسه ، وقلو ضاعف مسلك بنى سلامان فى اهانتته من احساسه بالذل والهوان ، فامتلات نفسه سخطا على الناس جميعا ، وآثر الصحراء بوحشتها ووحوشها وقسوة حياتها ومخاطرها على حياة الناس .

وحين ننظر الى اللامية نجدها لا تعدو تصوير هذه الظروف ، ولا تطرق أى غرض آخر خارج نطاقها ، فالقصيدة تبدأ باظهار سخطة على الناس ، وتصميمه الجامع على هجرة مجتمعهم كله الى الأبد حيث يقول فى مطلعها :

اقموا بنى أمى صدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقبر وشدت لطيات مطايا وأرحل

ثم يبين القوم الآخرين الذين آثرهم على الناس الذين هجرهم فاذا هم قائمة من الوحوش الضارية ، يرى فيها الأهل والأنس والفضيلة اللاتي افتقدن فى مجتمع الآدميين ، ثم يصف حياته فى الصحراء ، ومشاهده فيها من الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام مثله ، ومن النحل الحزين الصاحب لسطو آدمى على خلاياه مهدما إياها خلال جمعه العسل ، ويصف مناخ الصحراء ببردها الشديد فى الليل وحرها القانظ فى النهار ، وما يعانيه من عطش وجوع ، ويصف نفسه هو فى هذه الحياة ، فنراه ناحل الجسم بارز العظام ، مهلهل الثياب حافى القدمين ، ضافى الشعر الملبد الذى لم يرجل ولم يغسل منذ أمد بعيد .

وهكذا نجد اللامية لا تعدو قط حدود الظروف التي اقتضتها ، ولا تتعرض قط لغرض أو معنى خارج نطاق موضوعها ، كما لم تتعرض قصيدة عبدة ابن الطيب لغرض أو معنى يشذ عن نطاق موضوعها .

وإذا كانت هاتان القصيدتان وهما أطول ما وصلنا من شعر الصعاليك تمثلان هذه الوحدة الموضوعية التي لم يخل بها نشد فأولى بما دونهما طولا من شعر الصعاليك أن يكون ألزم للوحدة وأحرص عليها ، ولسنا نقول ذلك استنتاجا أو قياسا ، فالواقع أن طابع شعر الصعاليك كله يكاد يكون فريدا فى التزامه الوحدة فى أكمل صورها إذا قيس بالشعر المعاصر له ، وليس معنى ذلك اتهام الشعر المعاصر لشعر الصعاليك بمجافاة الوحدة كما يزعم كثير من النقاد المحدثين الذين أولعوا بترديدهم عبارة الوحدة العضوية ، متخذين منها سلاحا غير لين ولا مرن يحطمون به عن عمد أو عن غير عمد تراثنا العربى القديم .

ولم يصدر أولئك النقاد فى مهاجمتهم للقصيدة العربية فى وحدتها عن الدراسة وللتذوق والانصاف بقدر ما تأثروا ببريق النقد الغربى ومقاييسه

الحرفية الجافة للأدب ، وكان في مقدمه الذين نشروا هذا التشكيك في الشعر العربي حليل مطران (١) ، ثم تتابع من بعده عدد من هؤلاء ، في مقدمتهم أصحاب مدرسة الديوان التي حمل لواها المرحوم عباس العقاد ، ولست أريد أن أخوض في هذا الحديث إلا بالقدر الذي يعنينا منه الآن ، قاقول : ان هذه الدعوة كانت اترا مباشرا لتأثر هؤلاء الادباء بثقافة الغرب وأسلوب نقده ، كما يصرحون جميعا بذلك ، وخاصة في مقارنتهم بين الأدب العربي والغربي وحديثهم عن تاريخ الوحدة العضوية في النقد الغربي ، وفي نظرة مجمله الى هذه الدعوة نراها تتضمن أمرين دوى خطورة بالسبب لأدبنا العربي .

١ - لم يراع أصحاب هذه الدعوة طبيعة الادب العربي وتدوقه وطابعه الفكري والحيالي واللغوي الخاص به ، ومهما يكن الأدب انسانيا أو عالميا فلا شك أن لكل أمة طابعها وأسلوبها ومنهجها الادبي الخاص . ولكن أصحاب هذه الدعوة في نشوة تأثرهم بالثقافة الغربية ارادوا أن يطبقوا كل شيء فيها على كل شيء في الثقافة العربية الشرقية دون مراعاة الظروف التاريخية والطبيعية في كل من المجتمعين مع انهم يعترفون ان الوحدة العضوية حتى في النقد الغربي انما نشأت بالنسبة للمسرحيات والملاحم وظلت حتى اليوم ، وأهم مجال لتطبيقها هو المسرحية (٢) كما ان الشعر الغربي يختلف في طابعه عن الشعر العربي ، مما يجعل لتطبيق الوحدة العضوية فيه اثرا ، وكذلك شعر المسرحيات ، والشعر القصصي (٣) في الأدب الغربي ، يتيح للوحدة العضوية أن تراعى فيه كما يتحدثون عنها ، ولكن أدبنا العربي في طابعه وأسلوب اتجاهاته وتكوينه لا يحتمل مثل هذه الدعوة الحرفية الجافة ، وموضع الخطورة في انها صدرت وانتشرت على يد أفراد كانت ظروف المجتمع العربي الثقافية ، تجعل منهم قادة ليسوا لامعين فحسب ، بل وفي موضع القدوة التي تتحكم في توجيه الشباب وفي رسم الكثير من الخطوط الثقافية للمجتمع .

٢ - اذا كانت هناك أسباب كثيرة يعلل بها ركود الشعر العربي وضعف مستواه بصفة عامة في الفترة القريبة فلاشك ان من بين هذه الأسباب هذه القيود الجافة التي أشاعها بعض نقادنا المحدثين وفي مقدمتها الوحدة العضوية كأصحاب الديوان ومن سار في فلكهم ، فمن اليسير أن نتصور الناشئين من الشعراء أمام دعوة كهذه ممن يعتبرونهم قادة لا يرقى الخطأ أو سوء التوجيه اليهم بين أمرين ، فاما أن يحاولوا النسج على منوال هذه الوحدة العضوية وما صاحبها من قيود وحرفية ، فيأتى شعرهم بعيدا عن روح الشعر العربي وحرية وانطلاقه في أجوائه الفسيحة التي ألفها ، واما أن يؤثروا العافية

(١) النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي حلال ٤٠٦ نقلا عن مرجع آخر .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٠١

(٣) انظر المصدر السابق ٤٠٦

فيهجروا الشعر الى شيء آخر وقد كانت النتيجة أن أصيب الشعر العربي المعاصر تحت ضربات هذه الوحدة وقيود النقد الأخرى - بالإضافة الى عوامل أخرى - بضعف وثقل شديد في الحركة والانطلاق وفي مقبلة الذين تأثر شعرهم تأثرا ضاروا بهذه الدعوة ، أصحاب الدعوة نفسها ، فإن منهم من كان يمكن أن يكون شاعرا ذا قدم في الشعر ، وأن يكون شعره أرفع مما كان عليه بكثير ، لولا هذه القيود التي كبله بها باسم الوحدة العضوية وما أحاط بها ، حتى كان كثير منه أقرب الى البحث العلمي منه الى الشعر .

على أننا نلاحظ أن التأثير الشديد بنقد القرب وأدبه لم يجرف كل الأدباء والنقاد العرب ، فمنهم من استطاع أن يحافظ على تذوقه السليم للأدب العربي منكرا مهاجمة الشعر العربي واتهام قصائده بمخالفاتها للوحدة ، كما صرح الدكتور طه حسين بذلك ، حيث يقول بعد أن عرض اتهام بعد النقاد للقصيدة العربية بالتفكك والاخلال بالوحدة ، ميثلا بقصيدة لبند « وإنما أقف معك عند قصيدة لبند .. وأتحدثك وأسألك أن تبين لي من أين يأتيها الاضطراب والاختلاف ، وكيف لا تتم لها الوحدة إلا من الوزن والقافية .. أمامك قصيدة لبند ، فأرني كيف تقدم فيها وتؤخر ؟ وكيف تضع فيها بيتا مكان بيت دون أن تفسد معناها افسادا ، وتشويه جمالها تشويها .. أنها بناء متقن محكم ، لا تغير منه شيئا إلا أفسدت البناء كله ، ونقضته نقضا .. » (١) كما أنكر بعض النقاد أيضا التسمية بالوحدة العضوية ، والزام شعرا العربي مضمونها الذي يريدونه كالدكتور محمد مندور (٢) . ولكننا في الوقت الذي نكبر موقف هذا البعض من الأدباء والنقاد ، من حيث محافظتهم على الذوق العربي في أدبه ، وعدم تخليهم عن مراعاة طبيعة الفارق بين الأدب العربي والغربي في ذوقهما ومنهجهما ، في وقت كان يمكن أن يلتبس لبعض المتأثرين بشقافة الغرب ونقده بعض العذر ، من باب قول ابن خلدون « المغلوب مولع أبدا بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » (٣) في الوقت الذي نكبر فيه موقف أولئك في ذلك الوقت ، نجد من نقادنا المعاصرين من لا يزال يصر على متابعة هذه السبيل التي جنت على شعر أصحابها ، وعلى شعر مجتمعهم أيضا من حيث المساهمة في إضعافه بل وعلى تراث العرب الشعري كله ، من حيث محاولة هدمه والتشكيك في مستواه وسلامته الفنية ، فلازال في نقادنا المعاصرين من يقول « فليست للقصيدة الجاهلية وحدة عضوية في شكل ما من الأشكال ، لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها .. على ما بين أجزائها من تنافر

(١) حديث الأربعاء ص ٣٠

(٢) الشعر المصري بعد شوقي ص ١٠٥ ، ١٠٦ سنة ١٩٥٨ نقلا عن النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي حلال ٤١٠ وما بعدها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٠ (هذه العبارة عنوان للفصل) .

يتنافى والوحدة العضوية في معناها الصحيح ، (١) وقائل هذا الكلام لا يكتفى بهدم الشعر القديم وحده ، وإنما يهدم كل ما جاره من الشعر الحديث ، حتى شعر شوقي كنقده الهادم لسينية شوقي المشهورة ، حيث كان من نقده لها « فهي تسير على طريقة تقليدية محضة » وقوله « فنظام القصيدة تقليدي محض إذا تراءت فيه وحدة نفسية فلا وحدة عضوية له » (٢) ونقد كثير هادم لها من نواح أخرى ولكننا لا يعنينا النقد الموضوعي ، فليس لنا أن ننكر على ناقد اجتهد في النقد الموضوعي ، وليس لنا أن نسيء الظن به وإن أخطأ في هذا ، مادام ملتزماً بالمنهج الموضوعي الذاتي ، مترسماً طريق النقد الذي ينبع من تدوقه واحساسه ، ولكن الذي ننكره أن نجعل من مصطلحات النقد الغربي سيفا على تراثنا العربي وأن نلغى ذوقنا العربي لنضع مكانه ذوقاً واصطلاحاً أجنبياً نحكمه في تراثنا وأدبنا ، وإن نجعل من مجرد الطابع التقليدي في الأدب العربي سبباً في الأدب وحطاً من شأنه ، فلسنا نعيب على هذا الناقد أن ينظر إلى قصيدة شوقي هذه من أي زاوية يريد ، ولكننا ننكر عليه أن يركز حظه من شأنها ومحاولة هدمها على مجرد أنها سارت على الطابع التقليدي في الشعر العربي ، وكان هذا الطابع سبباً يجب أن ينأى عنها كل شعر ، وأن ينفر منها كل شاعر ، وقد يقال أن الطابع التقليدي قيد أثقل شاعرية بعض الشعراء في القديم والحديث ، وقد لا نتشدد في إنكار هذا القول ، ولكننا نتشدد كثر الشدة منكرين أن يجعل هذا الطابع علامة على رداءة الشعر وجموده وهوان أمره ، بل ننكر مجرد ادخال هذا الطابع في نقد أي قصيدة ، فلنا أن نجعل حديثنا عنه مستقلاً ، هل أجدي هذا الطابع على الشعر العربي أم لم يجد ؟ ولكن ليس لنا أن نجعله لذاته تقيصة في أي قصيدة فقد تلتزم قصيدة هذا الطابع ، ومع ذلك تبلغ قمة الجودة الشعرية ، وقد تجانب قصيدة أخرى هذا الطابع ، ومع ذلك تنزل إلى درك سافل في ميزان الأدب والشعر .

والعجيب أن يرى هذا البعض من النقاد أن هذه الدعوة إلى الوحدة العضوية قد أفادت الشعر المعاصر فائدة « بعيدة المدى » كما يقول « وكان لهذه الدعوة أثر ثوري بعيد المدى في ادراك الشعر ، وفي ادراك القصيدة بوصفها وحدة حية كاملة ، وفي السمو بموضوعها وغاياتها ، وفي صدق صورها وتأثرها جميعاً على الوصول إلى هدفها » (٣) ومعنى ذلك أن القصائد العربية لم تعرف السمو في الموضوع والغايات ، ولم تعرف الصدق والتأثر إلا بفضل هذه الدعوة ، وإنهم يمحاولتهم هدم مثل شعر شوقي ، قد رفعوا ما جاء بعده من الشعر رفعا « بعيد المدى » ولكننا نكتفي في الإجابة عن هذا كله ، بأن نسأل هذا البعض : هل حقاً تؤمنون بأن الشعر العربي كان وضعياً لم يسم

(١) هو الدكتور محمد غنيمي هلال في النقد الأدبي الحديث ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٣) النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ٤١٠

الا بالوحدة العضوية الغريبة ؟ وهل حقاً تؤمنون بأن هذه الوحدة قد سميت
بالشعر الحديث سموا بعيد المدى ؟ وهل حقاً تؤمنون بأن محاولتكم هدم مثل
شعر شوقي ، قد بنت بعد شوقي شعراً خيراً من شعره وأسمى منه ؟

على ان التأثير بالثقافة الغريبة وآراء المستشرقين كما لم يجرف كل أدباء
ونقاد الجيل الماضي كذلك لم يندفع كل نقاد الجيل المعاصر في هذا التيار ،
بل نرى أن نقدنا يتجه الى الطريق العربى الاصيل (١) وان التأثير بالروح
الغريبة ونزعة المستشرقين أخذت تتضاءل فى مجتمعنا العربى ، وهذا ولاشك
أثر مباشر من آثار استقلال الكيان العربى ، وشعوره بذاته وضعف نزعة
التقليد التى عللها ابن خلدون فى نظريته السابقة ، فنجد ناقداً كالـدكتور
أحمد بدوى يعود الى الروح العربية فى النقد بقوة وعمق ، مبيناً كيف ان
القصيدة العربية مهما بدت مشتملة على أغراض وعناصر مختلفة ، فان لها
أسلوبها فى ربط هذه العناصر واحكام وحدتها ، وان الذوق السليم لابد
أن يحس بأن هذه الأغراض عناصر متحدة الغاية والهدف ، محقة للوحدة ،
مستعرضاً مواقف نقاد العرب القدامى الذين لم يفتهم الحرس على الوحدة ،
ولكن من زاوية الأفق الواسع ، والذوق العميق للروح العربية ، مشيراً الى
أثر المستشرقين فى بث هذا التشكيك فى قيمة الأدب العربى حيث يقول
« وهنا يحسن بى أن أشير الى ما شاع على الألسنة ، وما رددته كثير من
المستشرقين من اتهام القصيدة العربية بخلوها من صفة الوحدة الفنية » (٢)
وفد بين رأيه فى موقف المستشرقين ومن شايهم من أصحاب الوحدة العضوية
فى قوله « هذا الاتهام للقصيدة العربية ولنقاد العرب فيه ظلم بالغ وحيف
كبير » (٣) .

والموضوع الذى أثار هذا الجدل حول وحدة القصيدة العربية ، هو
ما شاع فى القصائد العربية ، من اشتغالها على أكثر من عنصر ، ومن ذلك
استغلالها بالغزل ، ولو لم يكن موضوعها غزلاً ، فيصبح المطلع عنصراً مستقلاً
يضاف الى ما فيها من عناصر أخرى ، وأوضح ما يكون ذلك فى قصائد المدح
حيث يغلب اشتغالها على ثلاثة عناصر ، الغزل ، ثم وصف الرحلة الى المدح
ثم ما قد يصحب ذلك من حكم أو نحوها وقد بين النقاد القدامى وفى مقدمتهم
ابن قتيبة (٤) ثم المنصفون من الذين لم يجرفهم تيار المستشرقين فى الحديث
ان ذلك لم يخل بوحدة القصيدة العربية ، وأصبح موقف الذين جرفهم تيار
المستشرقين لا يمثل فى جملته نقداً موضوعياً للشعر العربى ، وانما عداً

(١) أنظر آراء واتجاهات للدكتور محمد نايلى ٥٢ - ٧٥ .

(٢) أسس النقد الأدبى عند العرب ٣٢٢ وما بعدها منها الى مراجع أخرى .

(٣) المرجع السابق ٣٢٣ وما بعدها .

(٤) الشعر والشعراء ٦ .

سافرا وتنكرا شديدا لكل ما يحمل الطابع العربى من الشعر ، ولو بلغ حد الإعجاز الفنى ، وكان الطابع العربى لذاته علامة فى نظرهم كما قلنا على الرءاءة والتفاهة ، ولا أظن أن هذا يصلح لسبيل النقد الموضوعى المنصف .

وكان لزاما أن أتعرض لهذا الحديث الموجز وحدة القصيدة ، لأبين أن الشعر العربى ، وما فيه الشعر المعاصر لشعر الصعاليك لم يخرج عن حدود الوحدة ، سواء فى نظر القدامى من نقاد العرب أم فى نظر الذين ظلوا عريبيى النقد والذوق والنظرة من المحدثين .

وعلى ضوء هذه النقطة ننظر الى شعر الصعاليك فنقول انه مع كون الشعر المعاصر لهم تمثل قصائده الوحدة التى يقتضيها الفن الشعرى ، الا أن شعر الصعاليك كان أبلغ فى تمثيله لهذه الوحدة ، حيا سلك منها منهجا أوضح وأعقب ، وكان له فيها طابع أكثر وضوحا وتميزا .

فقد قلنا انه حتى فى أطول قصيدتين بلغتنا من شعر الصعاليك كانت الوحدة بينة محكمة فيهما ، وقد كان انتقال عبدة بن الطبيب من حديثه عن امرأته التى كانت سبب رحلته الى وصف الرحلة نفسها ، وكان ربطه بين المعنيين يمثل أبلغ ما يصفه النقاد العرب بحسن التخلص ، وقد تمثل تخلصه هذا البليغ فى الأبيات الثلاثة التى ذكرناها آنفا وصلبها :

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ان الصبابة بعد الشيب تضليل

فقد جعل هذا البيت حدا فاصلا بين المعنيين ، ولكنه مهد له بالبيت السابق له ، كما تدرج منه الى المعنى التالى بالبيت اللاحق له ، فأصبح البيتان من حوله كالحبلين اللذين يربطانه بما قبله وما بعده .

ونقول انه اذا كانت القصائد الطويلة فى شعر الصعاليك تمثل الوحدة بهذه الصورة ، فان القصائد العادية والمقطوعات أظهر فى التزامها وحدة كاملة لا يثور حولها جدل ، ولا يستطيع حتى المستشرقون ومن اقتدى بهم من نقادنا الا أن يروا فيها أكمل ما يتحدثون عنه من أنواع الوحدة فى الشعر . لأن شعرهم كما قلنا خلا من التزام المطلق الغزلى ، وكذلك خلا من تعدد العناصر ، فنجد القصيدة أو المقطوعة منصبة على غرض واحد معين ، لا تمهد له فى الدخول اليه ، ولا تتعداه حين تدخل اليه ، ولذلك نجد المعانى التى بغلب أن تكون فى مقام الاستطراد كالحكمة غير شائعة فى شعر الصعاليك ، وقد نقرأ للشاعر القصيدة الكاملة ، بل وعددا من القصائد والمقطوعات فلا نجد فيها بيتا من الحكمة المقصودة ، أو الاستطراد ولو قريبا من المعنى ، ومن أبرز ذلك أن معظم شعر الصعاليك يمثل حوادث حقيقية فى حياتهم ، فنجد شعرهم فى هذه الحوادث مجرد وصف وتعبير عن الشعور ، بصورة مباشرة ليس فيها تمهيد أو استطراد ، وانما يكتفى الشاعر منهم بتصوير الحادث وأقصاه تعقيب

يمثل مشاعره نحو هذا الحادث ، وهذا النوع لا يحتاج الى تمثيل لأنه يمثل معظم شعر الصعاليك كما رأينا في شعر عروة عن قصة احتيال اليهود لسلبه زوجته ، وقصة أصحاب الكنيف ، وقصة غارة السليك على جوف مراد باليمن وقصائد الهذليين ومقطوعاتهم عن أحداث نجاتهم بالعدو ، وصور الصيد وراثهم لبعض رفاقهم وذوى الصلة بهم لكننا نجد حتى القصائد التي لا ترتبط بحادث معين ، لا تخرج قط عن موضوعها أيضا ، ولا تمهد له . فمثلا رائية عروة بن الورد وهي إحدى قصائده غير القصيرة ، اذ تبلغ سبعة وعشرين بيتا ، لا ترتبط بحادث مباشر ، وانما يتحدث فيها عن اضطرابه الى حياة الصعلكة على ما فيها من أخطار وكل ما يتصل بالقصيدة من سبب أن زوجه كانت تكثر من لومه على المعاطرة بنفسه ، متمنية أن يستكين الى جوارها تاركا حياة التصعلك فيرد عليها بسخرية تنم عن الاصرار على عزمه ، والاستخفاف بتثبيطها قائلا :

أقل على اللوم يا ابنة مندر ونامى فان لم تشتهى النوم فاسهرى (١)

ثم يتابع حديثه متصلا بصلب الموضوع ، وسبب اصراره على الصعلكة قائلا :

ذرينى اطوف فى البلاد لعلى اخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٢)

وأياتا أخرى عما يضطره الى الصعلكة ، مقارنا بين الصعلوك - بمعنى الفقير - الحامل الكسول الذي يرضى لنفسه حياة الكسل والهوان ، والصعلوك الأبى الذى يقتصب عيشه ومنزلته بين الناس اغتصابا ، لأنه لا يرضى لنفسه شيئا مما رضىه زميله الذى اختار طريق الكسل والحمول والهوان مختتما القصيدة بالمنزلة الرضية لديه ، والتي أبلغته اياها صعلكته . وهكذا نجد القصيد غرضا واحدا لا يتشعب ولا يتعدد الجوانب . ونجد الطابع الغالب ، ان لم تكن الصفة اللازمة ، لكل شعر الصعاليك أن تكون القصيدة أو المقطوعة غرضا واحدا لا يتعداه الشاعر .

وهذا هو موضع التميز فى شعر الصعاليك عن غيره من الشعر العربى فبينما نجد الطابع الغالب على الشعر العربى تعدد العناصر فى القصيدة ، نجد شعر الصعاليك يختلف عن ذلك بأن الطابع الغالب عليه ، عدم تعدد العناصر وبينما كان تعدد العناصر فى القصيدة العربية موضوع جدل بين النقاد ، لا يحتمل شعر الصعاليك هذا الجدل ، لالتزام القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحدا ، وعدم تعدد العناصر فيها ، وبهذا يكون شعر الصعاليك محققا لوحدة

(١) الاصمعات ص ٣٦ .

(٢) أخليك يعنى أقتل فيخل سبيك وسوء المحضر يريد ذل الفقر والمراد أغنيك أو تتراحى من فقرى .

القصيدة على اكمل وجه فنى ، سواء من وجهة نظر نقاد العرب القدامى ، ومن تابع نظرتهم من النقاد المحدثين ، أم من وجهة نظر النقاد الغربيين ، ممثلة فى آراء المستشرقين ، ومن تابع نظرتهم من نقادنا المحدثين . وسواء نظرنا الى الوحدة ، على أنها وحدة نفسية أو وحدة فنية ، أو وحدة عضوية ، فمن كل هذه الزوايا نجد شعر الصعاليك يحقق الوحدة فى قصائده ومقطوعاته فى اكمل صورها ، وفى طابع يتميز به عن غيره من الشعر العربى .

٨ - عدم التزام التصريح

ومن السمات الواضحة فى شعر الصعاليك عدم التزامه التصريح ، فبينما نجد القصائد العربية يغلب عليها الطابع المعروف بالتصريح ، بمعنى أن يكون مصراعا البيت الأول من القصيدة متفقين فى الكلمة الأخيرة ، التى هى قافية القصيدة ، فالقافية الملتزمة فى اواخر أبيات القصيدة ، نجدها أيضا ملتزمة فى آخر الشطر الأول من البيت الأول .

ولكن شعر الصعاليك يخالف هذا الطابع ، فنجده لا يلتزم التصريح ، بل يغلب عليه كله خلوه من التصريح ، حيث نجد نسبة قليلة منه مصرعة أما الكثرة الغالبة فلا تصريح فيها ، ويمكن أن نفرق فى هذا بين القصائد والمقطوعات .

فأما القصائد التى تعتبر طويلة بالنسبة للمقطوعات القصيرة الكثيرة التى وردت إلينا من شعرهم فنقول ان هذه القصائد هى المقياس الذى ينبغى أن يكون محور الحديث ، لأنها لا يثور حولها الخلاف ، أو لا يقوى الظن بأنها مبتورة المطلع ، بمعنى ان المقطوعات القصيرة يمكن أن يقال انها كانت فى الأصل قصائد مصرعة ، ولكنها بترت ، ولم يصل إلينا منها الا هذا الجزء . أما القصائد فلا يثور حولها فى جملتها هذا الاحتمال .

والقصائد التى وردت إلينا من شعرهم فيها أيضا هذا الطابع ، وهو غلبة عدم التصريح عليها ، فقليل منها مصرع ، والكثير لا يلتزم التصريح . ومن القليل الذى ورد إلينا مصراعا قصيدة عبدة بن الطبيب التى أولها :

هل جبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (١)

وقصيدة عروة بن الورد التى أولها :

أقل على اللوم يا ابنة منذر ونأى فان لم تشتهى النوم فاسهرى (٢)

(١) المفضليات ص ٣٦ وعدتها واحد وثلاثون بيتا .

(٢) الاصمعيات ص ٣٦ وعددها سبعة وعشرون بيتا .

- وقصيدة قيس بن الخدّاذية التي أولها :
- أجلك أن نعم نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع (١)
- وقصيدة الشنفرى التي أولها :
- ألا أم عمرو أجهت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت (٢)
- وقصيدة مالك بن حريم التي أولها :
- جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعا وقد فات ربيع الشباب فودعا (٣)
- وقصيدة ثابت شرا التي أولها :
- يا عبد مالك من شوق وإيراق ومر طيف على الأهوال طراق (٤)
- وأما الكثرة التي وردت إلينا غير مصرعة من شعرهم ، فمنها لامية الشنفرى وأولها :
- أقيموا بنى أمى صلور مطيكم فأنى إلى قوم سواكم لأميل (٥)
- ومن الكثرة غير المصرعة أيضا مرثية مالك بن الريب وأولها :
- ألا ليت شعرى هل ابتنى ليلة بجنب الغضا أزجى القلاص التواجيا (٦)
- وقصيدة جحدر بن معاوية التي أولها :
- تاوبنى فبت لها كنيعا هموم ما تفارقنى حوانى (٧)
- وقصيدة ثابت شرا التي أولها :
- وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول فصل أن يلاقى مجمعا (٨)
- وقصيدتان أيضا لتأبط شرا (٩) ، وقصيدة صخر الغي التي أولها :
- لعمري أبى لقد ساقه المنا إلى جدث يوزى له بالأهاضب (١٠)

-
- (١) الأغاني للأصفهاني ١٤٤/١٤ - ٦١ وعددها أربعة وأربعون بيتا .
- (٢) المفضليات ص ١٠٨ - ٣٦ بيتا .
- (٣) الاصمعيات ص ٥٧ وعددها أربعون بيتا .
- (٤) المفضليات ص ٢٧ وعددها ٢٦ بيتا .
- (٥) سبق نصها بعنوان مستقل - ٦٨ بيتا .
- (٦) سبق نصها (فصل الاختلاف في شعرهم) وهي ٥٨ بيتا .
- (٧) أمالي القالي ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ وهي ٢١ بيتا .
- (٨) حماسة أبى تمام ١٨٩/١ - ١٩١ وهي ١١ بيتا .
- (٩) انظر حماسة أبى تمام ١٧/١ ، ١٨ ، ٢٢/١ - ٢٤ وكل منهما ٩ أبيات .
- (١٠) ديوان الهذليين ٥١/٢ وهي ٢٤ بيتا .

وقصيدة حبيب الأعمى الهذلي التي أولها :

لما رأيت القوم بالعليا دون قصدي المناصب (١)

وقصيدتان له أيضا بعد هذه القصيدة ، وكذلك معظم قصائد الهذليين كقصيدة أبي خراش الهذلي التي أولها :

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترج فقلت وانكرت الوجوه هم هم (٢)

والقصائد التي جاءت مصرعة في شعر الهذليين قليلة معدودة ، أما سائر القصائد فقد جاءت بدون تصريح ، مع أن معظمها واضح أنه لا يتر فيه ، والمطلع ينبئ عن أنه المطلع الأصلي للقصيدة ، فقصائد الصعاليك معظمها آذن ورد إلينا بدون تصريح والقلة هي التي نجدها مصرعة .

وأما مقطوعاتهم القصيرة ، فهذه النسبة فيها أشد وأوضح ، فقليل جدا من مقطوعاتهم نجد فيه التصريح ، أما سائرها فبدون تصريح ، بل إن المقطوعات التي وصلتنا مصرعة تكاد تكون معدودة محصورة في بضع مقطوعات ، ومنها مقطوعة لأبي الطمحان القيني أولها :

ارقت وآبتني الهموم الطوارد ولم يلق ما لا قيت قبل عاشق (٣)

وهي أربعة أبيات بل نجد فيما وصل إلينا من شعر أبي الطمحان بيتين مشهورين ، أولهما مصرع ، وهما :

ألا علاني قبل نوح النوائح وقبل نشور النفس بين الجوانح
وقبل غد يا لهف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح (٤)

ولكن هاتين المقطوعتين يبدو منهما بوضوح أنهما بدء مبتور من قصيدتين ، لم يصل إلينا باقيهما ، وهذا الاحتمال يمكن أن يوجه إلى سائر المقطوعات التي بلغتنا من شعرهم ، إلا ما كان أولها بوحى بأنه مطلع ، فنستدل منه على أنه لم يتر من أولها أبيات ، إذا تجاوزنا عن احتمال أن يكون قد بترت من آخرها أبيات ، كمقطوعة عروة بن الورد التي أولها :

أرى أم حسان الفداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف (٥)

وهي أربعة أبيات ، أو كانت الرواية تصرح بأن ما أوردته من شعر ليس مبتور الأول كما فعل الملاحظ في روايته لبعض شعر الصعاليك ، حيث يقول

(١) المصدر السابق ٧٧/٢ وهي ٢٣ بيتا .

(٢) المصدر السابق ١٤٤/٢ وهي ١٥ بيتا .

(٣) مهذب الأغاني ٢٧/١ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) حماسة أبي تمام ٣٣٨/٢ .

سبب تسمية مهلهل أخى كليب ، أن اسمه امرؤ القيس بن ربيعة (١) وسمى مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر بمعنى رققه ، وأنه أول من قصد القصيد وأنه لم يقل أحد قبله عشرة أبيات (٢) ، ويروون أن عنترة « لم يكن يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة (٣) حتى سابه رجل من قومه فعابه بسواده وسواده أمه وأنه لا يقول الشعر » (٤) فقال القصائد بعد ذلك ، وأذن فليس من الصحيح تصور أن الشعر العربي كله قصائد كاملة ، وأن المنظومات لابد أن تكون مبتورة من قصائد ، وليس من الصحيح أيضا تصور أن القصائد العربية تلتزم التصريح ، وننتهي من هذا الحديث بأن شعر الصعاليك يتميز بأن أغلبه غير مصرع ، وهذه الأغلبية هي التي نعتيها بعدم التزام التصريح .

خصائص الشعر الجاهلي

ونجد في شعر الصعاليك الجاهليين بعض الخصائص التي يمتاز بها عن شعر صعاليك الاسلام .

وإذا كانت الخصائص العامة السابقة في مقام المقارنة بين شعر الصعاليك عامة وشعر غيرهم ، فإن هذه الخصائص التي نتحدث عنها الآن ، منصبة على المقارنة بين الجاهليين والاسلاميين من الصعاليك ، ولكن بعض هذه الخصائص لا يمتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وإنما يمتازون بها عن الشعر العربي كله وقد كان يمكن أن نذكرها مع الخصائص العامة ، ولكن تحاشيا لما قد يفهم من اشتراك شعر صعاليك الاسلام في هذه الخصائص وتوفية لحق شعر الصعاليك الجاهليين في أن ينوه بزياد الخاصة به آثرنا أن نضعه في هذا الموضع الذي يبرزه ويميزه .

وهذه الخصائص التي امتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام ، وعن غيرهم في بعض المواضع ، يرتبط معظم هذه الخصائص بأسباب الصعلكة نفسها ، وبظروف الصعاليك أنفسهم .

فقد أشرنا فيما سبق الى أن بعض أسباب الصعلكة كان خاصا بصعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام ، أو كانت ظروف كل منهما تختلف فيه عن ظروف الآخر ، كالجوع مثلا ، فقد عانى منه صعاليك الجاهلية ما لم يعانيه الاسلاميون منهم ، وقد كان لهذا الفارق أثر في حياتهم وسلوكهم ثم في شعرهم تبعا لذلك

(١) قيل اسمه على مرجح .

(٢) خزانة البغدادى ٢٣/٢ .

(٣) خزانة البغدادى ٨٨/١ .

فليس معنى تمييز شعر الصعاليك بهذا الطابع أن شعر غيرهم التزم التصريح وانما الواقع أن التصريح غالب مجرد غلبة على القصائد العربية في غير شعر الصعاليك حيث نجد كثيرا من القصائد غير مصرع ، ومنها ميمية حاتم الطائي (١) وعمرية عوف بن الأحوص (٢) ، بل كثير مما جاء أطول من ذلك نجده أيضا غير مصرع ، كتصيدة الحصين بن الحمام الميمية (٣) ، ومثل يائية مزرد بن ضرار الديباني (٤) ، وعينية متم بن نويرة (٥) ، ويائية المزار بن منقذ (٦) ، وكذلك الامية كعب بن سعد الغنوي (٧) ، وميمية عمرو بن الأسود (٨) ، ويائية أعشى باهلة (٩) ، وواوية الاسعر الجعفي (١٠) ، وغير ذلك كثير من القصائد جاء غير مصرع ، ولكن هذه القصائد على كثرتها تعتبر قلة اذا قيسست بمجموع الشعر كله ، وكذلك الوضع بالنسبة للمقطوعات التي وردت عن غير الصعاليك نجد الكثرة الغالبة فيها جاءت غير مصرعة (١١) .

ومن هذا كله نعلم أن عدم التصريح ليس خاصا بشعر الصعاليك ، فقد ورد عدد غير قليل من القصائد سواء للصعاليك أو غيرهم غير مصرع ، وورد عدد أكثر منه من المقطوعات للصعاليك ولغيرهم أيضا غير مصرع ، ولكن الفارق بين شعر الصعاليك وغيره في هذا فارق النسبة كما قلنا فبينما نجد الاكثرية من شعر الصعاليك جاءت غير مصرعة ، نجد الاكثرية من شعر غيرهم جاءت مصرعا .

على اننا نحب أن نقول ان احتمال كون المقطوعات بترت من قصائد ، ليس الا مجرد افتراض عقلي ، وليس هناك ما يوجب قيام هذا الاحتمال بالنسبة لشعر الصعاليك ، فالمقطوعات شائعة فيما ورد اليها من الشعر العربي كله ، سواء في الجاهلية والاسلام (١٢) ، وان كان ما ورد منها من شعر الجاهلية أكثر مما ورد منها في شعر الاسلام ، ويؤيد هذا ما تنقله الروايات من أن الشعراء لم يلتزموا أو لم تغلب على شعرهم القصائد الكاملة الا قبيل الاسلام أما قبل ذلك ، فكان الشائع لديهم انشاء الأبيات والمقطوعات ، كما يروى في

- (١) خزائن البغدادى ٢/٢٩١ وهي بيتا .
- (٢) المفضليات ١٧٣ وهي ٢٣ بيتا .
- (٣) المفضليات ٦٤ وهي ٤٢ بيتا .
- (٤) المصدر السابق ص ٧٥ وهي ٤٣ بيتا .
- (٥) المصدر السابق ص ٢٦٥ وهي ٥١ بيتا .
- (٦) المصدر السابق ص ٨٢ وهي ٩٥ بيتا .
- (٧) الاصمعيات ص ٧١ وهي ٢٧ بيتا .
- (٨) المصدر السابق ص ٧٧ وهي ١٧ بيتا .
- (٩) المصدر السابق ص ٨٩ وهي ٣٣ بيتا .
- (١٠) الاصمعيات أيضا ص ١٥٧ وهي ٣٠ بيتا .
- (١١) انظر للمثال المفضليات والاصمعيات .
- (١٢) انظر المصدرين السابقين .

سبب تسمية مهلهل أخى كليب ، أن اسمه امرؤ القيس بن ربيعة (١) وسمى مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر بمعنى رققه ، وأنه أول من قصد القصيد وأنه لم يقل أحد قبله عشرة أبيات (٢) ، ويرون أن عنتره « لم يكن يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة (٣) حتى سابه رجل من قومه فعابه بسواده وسواد أمه وأنه لا يقول الشعر » (٩) فقال القصائد بعد ذلك ، وأذن فليس من الصحيح تصور أن الشعر العربي كله قصائد كاملة ، وأن المنطوعات لابد أن تكون مبتورة من قصائد ، وليس من الصحيح أيضا تصور أن القصائد العربية تلتزم التصريح ، وننتهي من هذا الحديث بأن شعر الصعاليك يتميز بأن أغلبه غير مصرع ، وهذه الأغلبية هي التي تعنيها بعدم التزام التصريح .

خصائص شعر الجاهلي

ونجد في شعر الصعاليك الجاهليين بعض الخصائص التي يمتاز بها عن شعر صعاليك الاسلام .

وإذا كانت الخصائص العامة السابقة في مقام المقارنة بين شعر الصعاليك عامة وشعر غيرهم ، فإن هذه الخصائص التي نتحدث عنها الآن ، منصبة على المقارنة بين الجاهليين والاسلاميين من الصعاليك ، ولكن بعض هذه الخصائص لا يمتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وإنما يمتازون بها عن الشعر العربي كله وقد كان يمكن أن نذكرها مع الخصائص العامة ، ولكن تحاشيا لما قد يفهم من اشتراك شعر صعاليك الاسلام في هذه الخصائص وتوفية لحق شعر الصعاليك الجاهليين في أن ينوه بمزاياه الخاصة به آثرنا أن نضعه في هذا الموضع الذي يبرزه ويميزه .

وهذه الخصائص التي امتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام ، وعن غيرهم في بعض المواضع ، يرتبط معظم هذه الخصائص بأسباب الصعلكة نفسها ، وبظروف الصعاليك أنفسهم .

فقد أشرنا فيما سبق الى أن بعض أسباب الصعلكة كان خاصا بصعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام ، أو كانت ظروف كل منهما تختلف فيه عن ظروف الآخر ، كالجوع مثلا ، فقد عانى منه صعاليك الجاهلية ما لم يعانيه الاسلاميون منهم ، وقد كان لهذا الفارق أثر في حياتهم وسلوكهم ثم في شعرهم تبعاً لذلك

(١) قيل اسمه عدى مرجحا .

(٢) خزانة البغدادى ٢٣/٢ .

(٣) خزانة البغدادى ٨٨/١ .

فشدة الجوع التي عاناها صعايلك الجاهلية أكثر من الاسلاميين ، جعلتهم الزم للصحراء ، وأحرص على حياتها طلبا لضحاياهم في الصعلكة ، وطلبا للصيد ، وكل الوسائل التي تصد عنهم هذا الجوع المهلك . ولزومهم للصحراء والجبال نتج عنه مقدرتهم الفائقة على تصوير هذه البيئة بكل ما فيها من مشاهد ومن مخلوقات . فبالإضافة الى انفرادهم بتحديث الجوع ، نجد انهم انفردوا بالقدرة الفائقة على تصوير البيئة بكل ما فيها من مشاهد ومخلوقات ، ونتج عن ملازمتهم للصحراء أيضا دقة الحس ودقة الملاحظة وليس بالغريب أن تكون ملازمة الصحراء مرهفة للحس ، منيعة لدقة الملاحظة ، فلو قارنا بين شخص يعيش في بيئة كثيرة المخلوقات والحركة وشخص يعيش في بيئة ساكنة قليلة المخلوقات والحركة ، لتبيننا الفارق ، فالشخص الذي يعيش في البيئة المتحركة كثيرة المخلوقات ، كالمجتمعات مثلا ، لا تجد حواسه الوقت الكافي للتركيز والملاحظة الدقيقة أمام مناظر ومشاهد كثيرة دائمة الحركة . من أناس مختلفين وحيوانات مختلفة ، وطيور متنوعة ، وحركة دائبة ، وأصوات متعددة ، لا يكاد يصره أو حواسه تستقر على شيء حتى تنتقل الى شيء آخر ، فلا تجد فرصة للتركيز على شيء يعينه لفحصه وتمحيصه ، أما الشخص الذي يعيش في بيئة ساكنة قليلة الحركة كالصحراء ، فقلما تتغير أمامه المشاهد وقلما يسمع الصوت . فبين الفينة والفينة ، قد يرى حيوانا ، فتجد حواسه وقتا كافيا لفحصه بدقة ، ومتابعة حركاته ، وما يصدر عنه من صوت أو مسلك . لأنه ليس أمام الحواس مشهد آخذ يصرفها عنه ، وكذلك بالنسبة لرؤيتها سبحانه أو مطرا أو مشهدا معينا ، أو سماعها صوتا لحيوان أو زعد أو غير ذلك ، ففي كل ذلك تكون الحواس متفرغة كل التفرغ لتابعة هذا الشيء وملاحظة خصائصه وحركاته ، ولعل هذا أوضح تعليل للقدرة الفائقة الواضحة التي تميز بها شعر الجاهلية في وصف الطبيعة ومشاهدها . وفي دقة الملاحظة العجيبة في الأشياء والحركات والأصوات الدقيقة التي برع فيها شعرهم ، ومن هذا نجد أن هذه الأسباب قد أنتجت مزايا معينة في شعرهم كما سيأتي .

وكذلك نجد أن مما ساهم في هذه الخصائص ، بعض المزايا التي امتاز بها صعايلك الجاهلية عن صعايلك الاسلام في صفاتهم الشخصية ، وأبرز هذه المزايا العدو . حيث قلنا ان سرعة العدو كانت شائعة في صعايلك الجاهلية دون صعايلك الاسلام ، وسرعة العدو وان كانت مرتبطة أيضا بملازمتهم للصحراء الا أنها أنتجت في شعرهم موضوعات خاصة . بالإضافة الى مساهمتها في الموضوعات التي أثمرتها ملازمة الصحراء ، ومن الموضوعات الخاصة التي أنتجت سرعة العدو شعر العدو نفسه في تصويره للعداء ، ولطريقة عدوه ، والمواقف التي يتعرض لها ، وكذلك شعر الحيلة ، حيث نجد ما ورد في شعرهم من الحيل وصورها وأحداثها مرتبطا بالعدو .

وهناك بعض الخصائص التي اتسم بها شعر صعايلك الجاهلية ، قد

تشابه هذه الأسباب فيها أو لا تشابه ، كصنوعة الألقاظ وغرابتها في كثير من شعرهم ، وكالاستلواص القصص الذي يبدو في بعض شعرهم . ونعود فنكرر أن المقارنة الرئيسية في هذه المزايا ليست بين شعر الصعاليك وغيره من الشعر كما سبق في المزايا العامة ، وإنما بين شعر الصعاليك الجاهلية ، وصعاليك الإسلام بصفة خاصة ، إلا ما قد يكون متميزاً عن شعر صعاليك الإسلام وغيره من الشعر عامة ، فنشير إليه في موضعه .

وأوضح هذه الخصائص ما يأتي :-

١ - انفراده ببعض الموضوعات

يمتاز شعر صعاليك الجاهلية بأنه طرق موضوعات بدت فيه واضحة ، في حين لم تظهر هذه الموضوعات بهذه الصورة في شعر صعاليك الإسلام ، وأهم هذه الموضوعات ما يأتي :

١ - الجوع : (١)

قلنا ان الحديث عن الفقر كان شركة بين صعاليك الجاهلية والإسلام ، وان تفاوتت درجة الحديث عنه ، وكذلك تحول الأجسام وهزالها ، وان اختلفت درجته أيضاً ، ولكن حديث الجوع انفرد به صعاليك الجاهلية ، كما رأينا من صور الجوع العنيف المضمي الذي صورته الشنفرى وأبو خراش وتابط شرا ، والسليك بن السليكة (٢) وقد أشرنا الى انفرادهم بحديثه ، وأن سببه اختلاف المستوى الاقتصادي والمعيشي للمجتمع في كل من الجاهلية والإسلام ، واختلاف ما تدره - تبعاً لذلك - أعمال الصعلكة على أصحابها ، ونستطيع أن نقول ان الحديث عن الجوع بهذه الصورة ينفرد به صعاليك الجاهلية عن غيرهم من الشعراء على الإطلاق ، سواء كانوا من الصعاليك أو غيرهم .

٢ - العدو :

وقلنا أيضاً ان ظاهرة العدو لم توجد في صعاليك الإسلام ، ولكنها تبدو بوضوح في صعاليك الجاهلية ، وخاصة الهذليين ، حيث كان معظم هذيل من

(١) انظر فصل الجوع من هذا الكتاب .

(٢) مشهور بلقب عمرو ذي الكلب

العدائين . ومنهم من الشعراء الصعاليك أبو خراش وصخر الفى وحييب العلم ، ومن غير الهذليين جاز هذيل عمرو بن عجلان (١) ، والشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن برفة وحاجز الأزدي ، وقد رأينا شعرهم فى موضعه (٢) ، وأشرنا الى أن ميزة العدو انفرد بها صعاليك الجاهلية عن الاسلاميين ، وأن كانوا لم ينفردوا بها عن معاصريهم من الجاهليين .

٣ - الحيلة :

والحيلة مسلك من مسالك الحياة لا ينفرد بها الصعاليك عن غيرهم . ولكننا حين نقارن بين شعر صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام عنها ، نجد أن شعر الجاهليين هو الذى اتخذها حديثا ، وعز ذلك أن شعرهم لم يتحدث عن الحيلة من الوجهة النظرية أو الخلقية ، وإنما تحدث عنها فى أحداث حقيقية مرت بهم ، تتلخص فى وقوعهم فى مأزق ، لم يكن فيها مفر من الموت ، ولكن شيئا واحدا أنجاهم من الموت المحقق هو العدو ، فحدث شعرهم عن الحيلة اذ لم ليس حديثا نظريا أو خلقيا ، وإنما ارتبط بأحداث معينة مرتبطة أيضا بالعدو ، ولذلك نجد الذين تحدثوا عن الحيلة كانوا من العدائين ، كابى خراش ، والسليك ، وتأبط شرا ، وكان حديثهم عن أحداث معينة استعانوا فيها بالعدو ، ولم يكن العدو من صفات صعاليك الاسلام ، ولذلك لم تترتب عليه أحداث الحيل التى ذكرها صعاليك الجاهلية فى شعرهم .

٤ - الطبيعة :

ونعنى بشعر الطبيعة ، شعر البيئة الطبيعية بمشاهداتها ومخلوقاتها ، ولبننا نعنى مجرد ذكر المشاهد والمخلوقات ، فذلك القدر لا يكاد يخلو منه شعر شاعر فلا يكاد يخلو شاعر من أن يشبه شيئا بالبرق مثلا أو القمام ، أو الليل أو الشمس أو بحيوان من حيوانات البيئة الطبيعية فلسنا نعنى ذلك أو نحو ذلك ، وإنما نعنى اتخاذ المشهد أو المخلوق أو غيرهما من محتويات البيئة الطبيعية غرضا بحيث يبرز فى صورة واضحة محددة ، وهذا المعنى يمتاز به شعر صعاليك الجاهلية عن زملائهم الاسلاميين .

وأقوى شعر أبرز لنا صورا تكاد تكون مجسمة واضحة المعالم عن الطبيعة ومشاهدها شعر الهذليين وشعر الشنفرى ، حيث نجد فى شعرهم هذه الصور

(١) انظر فصل العدو من هذا الكتاب .

(٢) انظر فصل الحيلة .

عن كل شيء في بينتهم ومشاهدها ، كما رأينا من صور صخر لغى عن الوعول وحياتها وعن حمر الوحش وصراعه معها ، وعن الطيور الجوارح ، وعن الحمامة وحواره معها وعن السحاب والمطر (١) وكذلك شعر الاعلم عن السحاب وعن النعام وعن الضباع (٢) وكذلك قصائد أبي خراش وما فيها عن حمر الوحش والجراد والعقاب ، وعن غروب الشمس والظلمة والمطر (٣) وكذلك شعر الشنفرى حافل بصور الطبيعة ومشاهدها وبخاصة اللامية (٤) ، ولكن الذى يلفت النظر أننا نجد أقوى وصف للطبيعة ومشاهدها ومخلوقات ما نجده فى شعر العدائين ، ولعل مرد ذلك الى ملازمتهم للصحراء كما قلنا ، وسرعة تنقلهم مما يتيح لهم تعدد المشاهد .

ب - القصص والتصوير

وانما فرقنا بين القصة والصورة فى هذا العنوان ، لأننا لا نرى ما يراه بعض الباحثين من أن الصور الشعرية التى وردت فى شعرهم تعتبر قصصا ، وأن تمثيل شعرهم لأحداث حياتهم وصلكتهم يعتبر قصصا (٥) ، فقد يكون هذا نوعا من التصوير الفنى . وقد يكون مبادئ قصص ، ولكننا لا نرى فيه معالم القصة الفنية بمعناها الذى يعرفه الفن والأدب ، فالقصة لها اطار ، ولها خطوط أساسية ، ولا نستطيع أن نطلق اسمها على موضوع أدبى الا اذا استوفى المعالم والخطوط الرئيسية فى مفهومها على الأقل ولذلك آثرنا أن نفرق بين التصوير الأدبى ، والقصة الفنية ، على أن فى شعر الصعاليك ما هو أقرب الى القصة وأوضح فى مفهومها فأولى أن نستشهد به عند حديثنا عن القصة فى شعرهم وعلى أساس هذا التفريق نتحدث عن كل منهما فنقول .

١ - الاسلوب القصصى :

يشيع بين الباحثين أن أول من استعمل اسلوب القصة امرؤ القيس فى لامبته التى يصور فيها قصته مع عشيقته ، والتى يقول من قصته معها :
نقول وقد مال القبيط بنا معا عقرت بعيرى يا امرا القيس فانزل
ويرى بعض الباحثين الذين تحدثوا عن عمر بن أبى ربيعة أنه خير من

(١) انظر ديوان الهذليين ٥٢/٢ - ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٧٨/٢ - ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ١١٧/٢ - ٤٥ .

(٤) انظر فصل الطبيعة من هذا الكتاب

(٥) انظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٢٧٦ - ٢٨٠ .

استعمل القصص في شعره وذلك في رأيته التي تحدث فيها عن قصته مع العشيقة التي طلع عليه الصباح عندهما فدهشتك ، ثم استعانت باختيها ، ثم اخفيته بينهما حتى خرجن به من الحي ، فكن كالمجنون له ، كما قال :

فكان مجنى دون من كنت اتقى ثلاث شخص كاعيان ومعضر

والواقع أن الدارس لشعر الصغاليك لا يشك في أن الذين استعملوا القصص في الشعر العربي ، بل والذين وصلوا إلى مستوى القصة الشعرية الكاملة بمفهومها الفني في شعرهم ، هم الصغاليك ، وأن هذا النهج لم يوجد من الشعراء من تأسع له كان للقصص في الشعر العربي شأن غير ما كانت عليه .

ونضرب مثالا للمستوى الذي وصلت إليه القصة في شعر الصغاليك ، بقصة قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية مع ابنة عمه نعم بنت ذؤيب ، كما سجلها في شعره ، ولكننا لكن نعلم فضله على امرئ القيس في هذا المجال ، وكذلك سبقه وفصله على عمر بن أبي ربيعة ، نقول أن قصتي امرئ القيس وعمر ابن أبي ربيعة المشار إليهما ، لا يمثلان قصة فنية ، وإنما يمثلان موقفا أو مشهدا من قصة ، وإن كان ابن أبي ربيعة أقرب إلى القصة من مشهد امرئ القيس ، وسواء أكانا مشهدين أم قصتين ، فإن ما يتقصهما من القصة أكثر من هذا ، وهو النواحي الفنية المعروفة في القصة ، أما قصة قيس بن منقذ ، فقد راعى فيها كل الخطوط الأساسية للقصة الفنية من نواحيها النفسية ، ومن جوانب الوصف ومن الحوار ، ومن جو القصة وروحها ، وقد سجل قصته هذه في قصيدة طويلة نحتزى منها هذه الأبيات التي تلمس صلب القصة ، لتري منها إلى أي حد بلغ شعر الصغاليك الجاهليين بالقصة (١) :

قد اقتربت لو أن ذلك نافع
نوالا ولكن كل من ضن مانع
فما نولت والله راء وسامع
على عجل أيا من سار راجع
وشحط النوى إلا لذي العهد قاطع
ويسترجع الحي السحاب اللوامع
لتنجو إلا استسلمت وهي ظالع
لها نظر نحوى كنى البث حاشع
فريب فقالوا بل مكانك نافع
ورصفه واش من القوم راصع

اجدك أن نعم نأت أنت جازع
قد اقتربت لو أن في قرب دارها
وقد جاورتنا في شهود كثيرة
وقلت لها في السر بيني وبينها
فقال لقاء بعد حول وحجة
وقد يلتقي بعد الشتات أولو النوى
وما أن خدول نازعت جبل حابل
باحسن منها ذات يوم لقيتها
فقلت لأصحابي اصطلوا النار أنها
بكت من حديث بشه وأشاعه

(١) وظروف القصة أن قيسا يحكى ما دار بينه وبينها من حوار وأحداث ووداع في ليلة سفر ، واصفا استعداد الحداة ورفقاءه في القافلة واعدادهم للرجيل .

بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا
فلا يسمن سرى وسرك ثالث
وكيف يشيع السر منى ودونه
وحب لهذا الربع يمضى أمامه
وما راغنى إلا المتأذى إلا اظفنا
فجئت كائن مستضيف وسائل
فقلت تزحزح ما بنا كبر حاجة
فما زلت تحت الستر حتى كائن
فهزت إلى الراس منى تعجبا
فأيها منى اتبعت فائى
بكى من فراق الحى قيس بن منقذ
بأربعة تنهل لما تقدمت
وما خلت بين الحى حتى رأيتهم
كان فؤادى بين شقين من عصا
يحث بهم حاد سريع نجاؤه
فقلت لها يا نعم حلى مخلصنا
فقلت وعينها تفيضان عبوة
فقلت لها تالله يندى مسافر
فشدت على فيها اللثام وأعرضت

ولا تتخالجك الأمور النوازع
إلا كل سر جاوز اثنين شائع
حجاب ومن دون الحجاب الأضالع
قليل القلب منه قليل ورايع
والا الرواعى غنوة والقعاقع
لاخبرها كل الذى أنا صانع
إليك ولا منا للفكر رائع
من الحر ذو طمرين فى البحر كارع
وعضض مما قد فعلت الأصابع
حزين على أثر الذى أنا وادع
واذراء عيني مثله الدهر شائع
بهم طرق شتى ومن جوامع
بيثونة السفلى ومن سوافع
حذار وقوع البين والبين واقع
ومعرى عن الساقين والثوب واسع
فان الهوى يا نعم والعيش جامع
بأهل بين لى منى أنت راجع
إذا أضمرت الأرض ما الله صانع
وأمن بالكحل السحيق المدامع (١)

فقد مهد فى الأبيات الأولى بوصف بطله القصة ، وأخلاقها ، والجو الذى
جرت فيه القصة ثم هيا لجو الوداع ، وما صاحب ذلك من ضجة وصخب ،
ثم تسلله تحت الستر ، وفزعها من هذا المسلك الخطير على سمعتها ، ثم حوار
الوداع بينهما ، واصفا صدق مشاعره وأعماق نفسه ، ثم اللوعة التى اجتاحت
قلبه حين سمع مؤذن الرحيل ، ثم حوار الفراق ، وما تخلل ذلك من وصف لجو
القصة ، وما يحيط بالحدث الأصل من أحداث فرعية متصلة به ، واصفا فى دقة
كل أطراف القصة وأشخاصها ، حتى حادى القائلة لم ينس أن يصفه بهذا
الوصف الشامل .

يحث بهم حاد سريع نجاؤه ومعرى عن الساقين والثوب واسع

ومما لا شك فيه أن امرأ القيس لم يصل فى شعره إلى هذا المستوى الفنى
أو إلى هذا القدر من فنية القصة الشعرية ، وكذلك لا نعلم أن شاعرا فى الجاهلية
بلغ هذا المستوى ، لأنهم لا يذكرون شاعرا اتجه إلى أسلوب القصة فى الجاهلية

غير امرئ القيس (١) وإذا كنت لا أستطيع أن أقطع بالشبق الزمنى لآى من
 قيس بن منقذ أو امرئ القيس لأن الروايات التاريخية - في مبلغ على - غير
 واضحة كل الوضوح فى التحديد الزمنى للجاهلية ومراحلها وأجيالها وأشخاصها
 أقول إذا كنت لا أستطيع ذلك ، فانى أستطيع أن أقول أن امرأ القيس ليس
 هو رائد القصة فى الشعر العربى ، ولكن الصعاليك ولو مثلين فى قيس
 بن منقذ ، هم رواد القصة بمعناها الفنى كما رأينا فى قصيدة قيس السابقة
 التى تمثل قصة كاملة ، ومهما حاول ناقد قصصى أن يقلل من كماليها الفنى ،
 فلا بد أن ينقدها على أساس أنها قصة ، لا على أساس أنها صورة أو حدث مفرد أو
 مجموعة مشاعر ، أو أى شى يشكك فى مبدأ أنها قصة ، كما يمكن أن يوجه إلى
 غيرها مما يوصف بأنه بؤادر قصة أو نحو ذلك . والفارق كبير بين أن ينقد
 شىء على أساس أنه قصة ، وأن ينقد على أساس عدم الاعتراف بأنه قصة ، ولعل
 لا يتجاوز السبيل إذا قلت أن كل ما عدا قصة قيس بن منقذ هذه من شعر
 الجاهلية ، يمكن أن يوجه إليه عدم الاعتراف بأنه قصة ، بما فيه حادثة امرئ
 القيس التى أشرنا إليها

وإذا كان شعر صعاليك الجاهلية قد وصل إلى هذا المستوى الذى نراه
 متكاملًا بالنسبة للقصة الشعرية ، فإنه قد وضع أسسًا كثيرة عريضة لما يمكن
 أن نسميه مبادئ قصص شعري ، وقد وصل بعض هذه النزعة إلى درجة تقرب
 جدا من القصة القصيرة بكل مقوماتها الفنية التى يسمح بها الشعر . ونجد
 هذا كثيرا فى قصائد شعر الهذليين ، ومنه على سبيل المثال ، وصف صخر
 الفى لحمارى وحش ، وصف جسميهما وصفا دقيقا حتى ما تساقط عن جلدتهما
 من شعر ، ثم تابع مسيرهما إلى الماء ، وما صاحب ذلك من حذرهما وتوجسهما ،
 ثم رمى الصائد نبلة نحوهما ، وخطا الرمية الذى ترتب عليه تحطم النبل ،
 وفزع الحمارين من ذلك ، ثم علوهما مرتفعا بأقصى سرعة حتى أثارا أمامهما
 الصخور وحولهما الغبار ، وظلا كذلك حتى واجههما الصباح ، وواجههما مع
 الصباح الصائدون بخيلهم التى وصفها ، ووصف تمكن الصائدين من اصابتها ،
 وهذا الوصف رغم أنه لصورة من مشاهد الطبيعة فى الصحراء ، إلا أنه يصلح
 مبدأ للقصة . ويعتبر تقدما كبيرا للدخول فى نطاق القصة الفنية .

والذى يدل على أن اتجاه صعاليك الجاهلية للقصة كان اتجاها أصيلا بل
 ومقصودا أننا نجدهم لم يكتفوا بهذا الوصف الذى يمكن أن يقال عنه أنه تصوير
 لمشهد ، يمكن أن نجده فى شعر غيرهم كوصف المعارك والرحلات ومتابعة أحداثها
 ونحو ذلك ، بل اتجهوا إلى التخيل فى القصة ، بذكر أحداث أو قصص متخيلة
 وذكر الأحداث القصصية بطريق التخيل مهما يكن له من مدلولات ، فإن من بين
 هذه المدلولات نزعة القصة ، أعنى الميل إلى القصص ، كالصورة الخيالية التى

(١) أنار للمثال الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليل ٢٧٩

توهمها تأبط شرا في محادثته مع الغول ، ووصفه إياها ، ومطالبته إياها بضعتها (١) . ثم قتله إياها . وقد كان تصويره لهذا في شعره مؤيدا لنزعة القصص حيث كان التصوير والوصف والمحاورة في مستوى يقربها من نطاق القصة .

وكذلك خيال صخر الغي في رثاء ابنه تليد ، حيث تخيل أنه لقي بموضع يسمى سبيل حمامة تشبهه في حاله ، يفقدها ولدها الوحيد الذي يدعى «ساق حر» وتشبهه في حزنها ، لأنها لا تنام كما لا ينام هو عندما ينام الناس ، وقد صور حوارا طريقا بينهما ، فيقول في هذا الخيال :

وما أن صوت نائحة بليـل	بسبيل لا تنام مع الهجود (٢)
تجهنا غادين فساءلتني	بواحدها وأسأل عن تليدي (٣)
فقلت لها فاما ساق حر	فبان مع الأوائل من ثمود (٤)
وقالت لن ترى أبدا تليدا	بعينك آخر العمر الجديد (٥)
كلانا رد صاحبه ييأس	وتأنيب ووجدان بعيد (٦)

ومثل هذا النوع الخيالي لا أرى له مجالا نسلكه فيه الا القصة ، فهو ليس تصويرا للطبيعة ، ولا وصفا لمشهد من المشاهد ، فليس لنا الا أن نعدده نوعا من القصة القصيرة ، على أننا نجد فيه كل معالم القصة ، من الوصف ، والحوار والتحليل النفسى ، وهو أدل على تأصل الاتجاه القصصى في شعرهم لأن الشاعر فيه متعمد خلق الموضوع ، ومتعمد الباسه الثوب القصصى ، بخلاف ما اذا قص الشاعر حادثة رأها أو عاشها ، لأنه حينئذ يحكى شيئا واقعا ، وهو في هذا وإن كان أيضا قاصا ، الا أنه قصص عفوى أو غير مقصود ، بخلاف الخيالى المقصود موضوعا وصياغة وقالباً .

وهذه الميزة القصصية لا يمتاز بها شعاليك الجاهلية عن شعاليك الاسلام فحسب ، وإنما يمتازون بها في جملتها عن الشعراء عامة ، لأنهم فضلا عن تفوقهم الفنى الذى وصلوا اليه فى مستوى القصة ، فإنهم يمتازون بروح القصة ، والاتجاه إليها اتجاها واضحا ومقصودا فى كثير من شعرهم ، وليس امتيازهم فى حوادث فردية أو فترات شاذة .

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والبطح اللرج .

(٢) ديوان الهذليين ٦٧/٢ والنائحة الحمامة والهجود النيام .

(٣) تجهنا تواجهننا وتقابلنا .

(٤) بأن هلك .

(٥) الجديد يعنى أن كل يوم يجيء فهو جديد .

(٦) يروى بوجدان شديد .

٢ - التصوير :

قلنا اننا آثرنا فصل التصوير عن القصة ، لأن القصة لها مفهوم فني لا يستطيع أن تطلقه على موضوع الا اذا استوفى الخطوط الرئيسية والأساسية فيه على الأقل ، والتصوير وان كان يسلك مراحل من القصة ، ويقرب من نطاقها الا أننا نقتل من شأن القصة ، ونضعف مفهومها اذا أطلقنا على كل محاولة ، أو سمينا كل مرحلة من مراحلها قصة .

وقد يقال ان الترتيب الفني كان يقضى بالبداية بالتصوير أولا ، ثم بحديث القصة بعد ذلك ، كان يقال انهم سلكوا طريق المدمات ، ثم وصلوا الى مستوى كامل أو قريب من الكمال في القصة ، ولكني آثرت البدء بالقصة رغبة في الإيجاز في توضيح الفارق بين أسلوبهم القصصي والتصويري ، فحينما نبين مستواهم في القصة ، يبدو تبعا لذلك أن كل ما دونه أو سواه من هذا الموضوع هو التصوير ، ونعنى بالتصوير الصور الفنية التي رسمها شعرهم ، والتي أشرنا اليها فيما سبق ، وبخاصة في الحديث عن الطبيعة في شعرهم ، حيث صوروا لوحات فنية رائعة من مشاهد الطبيعة ومخلوقاتنا ، ولكون شعر الصعاليك في منهجه كله سلك طريقا منفردا متميزا عن الشعر العربي كله بما سميناه فيما سبق شعر الصراع أو روح الصراع ، وبما بدا فيه من حركة وحيوية يجعلون أشخاصهم محورا لها دائما حتى في شعرهم الاجتماعي كان مجال الحكم والاستنتاج فيه واسعا ، ويمكن أن يكون مجال اختلاف النظرة اليه واسعا أيضا ، لأن شعرهم بهذه المزايا أصبح له أكثر من زاوية ينظر اليه منها ، فمثلا لامية الشنفرى اذا نظرنا اليها باعتبار اجرائها ، نجد أنها تحوى صورا كثيرة لكل حياة الصعلوك وسلاحه ومعيشته وبيئته بمشاهدتها ومخلوقاتنا ، واذا نظرنا اليها باعتبار روحها نجد أنها تمثل نفسية الصعلوك في عزلته ونفوره من الناس ، وشعوره بالمطاردة وصراعه الدائم مع كل شيء ، وفي كل وجهة يتجه نحوها ، واذا نظرنا اليها في جملة ما تمثل ما يمكن أن نسميه حقيقة مذكرات شخصية كاملة عن شخصية صاحبها ونفسيته ومشاعره وحياته وبيئته بمشاهدتها ومخلوقاتنا ، وصلته بكل شيء ، من الناس والبيئة بما فيها ، وحياته وما يعانيه وفرع هذه الصلة التي تربطه بكل هذه الاشياء ، واذا كان يمكن أن نسمى اللامية في جملة مذكرات شخصية على وجه الحقيقة ، لأنها حقيقة تؤدى ما تؤديه المذكرات الشخصية ، فيمكن أن نسميها مجازا قصة ، باعتبار أنها قصة حياة انسان معين ، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين أن يعتبروها هي وطرأها من شعر الصعاليك أسلوبا قصصيا (١) ولكننا اذا أطلقنا عليها وعلى طرازها أنه قصص مجازا فلا أظن أن بوسعنا من الناحية الفنية أن نسلك هذا النوع في أسلوب القصة كما فعلوا .

(١) انظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٢٧٦ - ٢٨٠ .

ولكن الذى يعنينا ابرازه فى هذا المقام الذى نتحدث فيه عن اتجاههم نحو القصة ، ان شعر صعلاليك الجاهلية يمتاز بميزة بارزة فيه ، هى تصوير المشاهد المتحركة ، والواقع ان شيوع التصوير سمة عامة فى شعرهم ، سواء كان للمشاهد الثابتة كتصوير لامية الشنفرى لحياة الذئاب ، وصورة من حياة النحل ، وحياة القطا ، وكتصويرها لليلة الباردة بما فيها ، وليوم الحر بما فيه ، وكتصوير شعر الهذليين للسحاب الذى يتسبه لسفن المحملة ، وتصويرهم جميعا للمراقب ، ونحو ذلك مما يكتفى فى التمثيل له بالاحالة الى ما سبق من الحديث عن شعرهم فى الطبيعة ، ونعنى بالمشاهد الثابتة فيها المشاهد التى تخلو من أحداث متتابعة كاحداث القصة ، او تكون ذات أحداث ضئيلة لا تكفى لأن نسلکہا بها فى مرحلة من مراحل القصة ونعنى بالمشاهد المتحركة ، يمكن ذلك ، وهى المشاهد التى تشتمل على أحداث متحركة متتابعة تمثل صورة من صور القصة ، أو مرحلة من مراحلها ، وهذا النوع غير قليل فى شعر الصعلاليك الجاهليين ، بل نجد معظم شعرائهم طرقوه ، وخاصة شعراء هذيل ، كثير مما جاء فى شعر صخر الغنى ، وحبيب الأعمى ، وأبى خراش ففى هذه الصور نجد حدثاً أو مشهداً متحركاً ، يتابعه الصعلوك بشعره ، كأنه يقص قصة ، وهى فعلاً صورة من صور القصة ، أو مرحلة من مراحلها تقرب جداً فى بعض الأحيان من نطاق القصة بمعناها الفنى الكامل كما قلنا ، وذلك للصورة الكاملة التى صررها أبو خراش عن قطع حمار الوحش الذى يطلب ذكوره من أثنى السفاد فى غير موضعه لكونهن حوامل ، ثم سعى القطيع الى المرتفع من الأرض ، ثم اشتداد الحر وطلبه الماء ، ثم احساسه بغيث الشمس وجده فى العدو باحثاً عن الماء قبل حلول الظلام ، ثم ترصد أبى خراش لهذا القطيع ، ثم تسمع القطيع وارهافه آذانه حذر الصائدين ، الى آخر هذا المشهد المتحرك الذى يشبه القصة الفنية (١) وكذلك مشهد الوعل فى شعر صخر الغنى (٢) وهكذا ، وفى هذا النحو الذى نجاه صعلاليك الجاهلية بكثرة ووضوح نجد فيه معالم من الأسلوب القصصى ، وانجاها قويا نحو القصة ، كان يمكن أن يشر فى الأدب العربى نوعاً مزدهراً ، لو انه وجد من الشعراء من يتابعه ويتقدم به نحو الكمال ، وقد بلغ من قوة صعلاليك الجاهلية فيه ، ووضوح روحهم القصصى فى هذا الشعر ، أن عده بعض الباحثين قصصاً أو أسلوباً قصصياً كما قلنا ، وبلغ من قوة هذا المعنى فى شعرهم أن عد بعض الباحثين شعر الشنفرى « فى المرتبة الأولى من ناحية التمثيل والتصوير » (٣) .

(١) انظر ديوان الهذليين ١١٧/٢ - ١٢٢ وأول الأبيات (ارى الدهر لا يبقى ٠٠ الخ)

(٢) المصدر السابق ٥٢/٢ - ٥٥ وأول الأبيات (فعينى لا يبقى على الدهر نادر ٠٠ الخ)

(٣) انظر الشوامخ للدكتور محمد صبرى ص ١٢٥ .

ج - اختلاف مستوى الألفاظ وغرابتها

يمتاز شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام بأنه فى جملته غريب الألفاظ بعيد عن الوضوح فيها ، والواقع أن ألف الألفاظ وغرابتها أمر نسبي فنحن نرى ألفاظ قبيلة غاية فى الغرابة والصعوبة ، وفى الوقت نفسه قد ترى هذه القبيلة ألفاظنا التى نراها نحن سهلة غاية أيضا فى الصعوبة والغرابة لأن الغرابة والصعوبة ليسا فى ذات الألفاظ ، وإنما فى استعمالها وتداولها ، فاللفظ سهل مفهوم المدلول طالما استعملناه وتداولناه ، وهو صعب غريب طالما لم نستعمله ولم نتداوله .

ولكنهم ألفوا أن يجعلوا من لهجة قريش والفاظها مقياسا للآلف والغرابة فى الألفاظ ، ولم يكن علماء اللغة ونقادها ليستطيعوا غير ذلك ، فقريش فى الجاهلية والاسلام مركز الجزيرة ومحورها ، ومصدر الإشعاع الفكرى والدينى فيها ، ولهجتها أوسط اللهجات .

والواقع أن مسألة الألفاظ واللهجات متشعبة واسعة ، تدخل فيها عوامل عديدة ، من حيث التغيرات التى حدثت فيها ، وأبرزها أثر القرآن الكريم ، ثم ما أحدثته الاسلام من كثرة الاحتكاك والاختلاط بين قبائل العرب وأحيائها ثم أثر الفتوحات وما بثته فى العرب من تداخل واختلاط ، ومن رغد وخصب حياة ، وغير ذلك .

ولكن الذى يعيننا من ذلك كله الآن أمران ، أحدهما أن شعر صعاليك الجاهلية لم يكن فى مستوى واحد ، من حيث الغرابة والآلف ، والأمر الثانى هو أن شعر الصعاليك الجاهليين فى جملته كان أبعد عن الآلف ، وأقرب الى الغرابة من شعر الاسلاميين منهم .

فأما عن اختلاف مستوى شعر الجاهليين منهم فنقول أننا نلاحظ اختلافا شديدا فى مستوى الفاظهم من حيث الغرابة والآلف ، وأوضح ما تكون المقارنة إذا كانت بين من يعيشون متعاصرين ، وإذا أخذنا شعر شاعرين منهم يعيشون فى جيل واحد كابى خراش وعبيدة بن الطبيب اللذين كان كلاهما من المخضرمين لوحدنا فارقا كبيرا واضحا كل الوضوح ، حيث نجد شعر أبى خراش يمتاز بصعوبة الألفاظ وغرابتها ، بينما شعر عبيدة يمتاز بوضوح الألفاظ واللفها ، وليس ذلك فى مواضع أو قصائد معينة حتى يحتاج للتمثيل وإنما طابع شعر كل منهما كله ، كذلك هناك شخص معاصر لهما ، وإن كان أسبق منهما قليلا ولكن هذا السبق لا ينفى أنه عاصرهما وعاش فى جيلهما شطرا غير قليل من عمره ، وهو عروة بن الورد العبسى الذى تعلم من تاريخه الزمنى أن أحدى نسائه كانت فىمن أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم من يهود خيبر عن

المدينة (١) ، وأبو خراش وعبد مخرمان أدركا الإسلام بعد الجاهلية ، ومعنى ذلك أن عروة عاصرها ، ولكننا نجد شعره في ألفاظه يختلف عن شعر كل منهما ، فمع أن شعر عبد الطيب أوضح ألفاظا من شعر أبي خراش إلا أن شعر عروة أوضح ألفاظا من كليهما ، واننا لنلاحظ في عجب أن شعر عروة لا يشوبه شيء من الغرابة أو صعوبة الألفاظ ، بل أنه أوضح ألفاظا من معظم شعر قريش نفسها في الجاهلية .

ولو ذهبنا نعلل ذلك ، لا نستطيع أن نقول أن للصعلة دخلا في هذه الناحية من الألفاظ ، لأنهم جميعا صعاليك ، وفي عصر واحد ، وبيئة الصعلة متقاربة ، ومع ذلك فالفاظهم من حيث الغرابة والألف مختلفة أشد الاختلاف ولا نستطيع أن نقول أن التأثير بلغة قريش له دخل في هذا الاختلاف ، أعني تأثير لهجة قريش في قبائل أولئك الصعاليك لا نستطيع أن نقول ذلك ، لأن الهذليين ومنهم أبو خراش شعرهم أصعب شعر الصعاليك ألفاظا وأكثرها غرابة مع أن موطنهم في أقرب مكان من مكة ، وهو بوادي الطائف وما حولها ونجد شاعرا من صعاليك الجاهلية موطنه في أقرب مكان من موطن هذيل ، ومع ذلك فالفاظه في غاية السهولة والألف إذا قيست بالفاظ هذيل ، وهو قيس بن منذر السلولى الخزاعي (٢) المعروف بادن الحدادية ، كذلك إذا نظرنا إلى أثر الحصب والغفر والبادية في الألفاظ لا نستطيع أن نقطع به ، لأن الشنفرى مثلا عاش معظم حياته في نجد ، وهى أكثر خصبا من بادية اليمامة التى عاش فيها عبد الطيب التميمي (٣) ، ومع ذلك فالفاظ الشنفرى أكثر صعوبة ، وأشد غرابة من ألفاظ عبد .

ولعل أقرب ما نستطيع أن نعلل به هذه الظاهرة أن الألفاظ فى أصلها تتأثر بالبيئة ، بمعنى أن البيئة فى الأصل لها دخل كبير فى تحديد الألفاظ من حيث الصعوبة والألف ، ومن حيث الجرس ، ومن حيث نواحي أخرى لا يقتضى المقام. الأفاضة فيها ، فالبيئة هى العامل الأول ، ثم يأتى النظام القبلى بما يتضمنه من انطواء القبيلة على تراثها وتقاليدها اللغوية ، فيحافظ على الطابع اللغوى لها ، ويظل هذا الطابع اللغوى للقبيلة محفوظا طالما ظلت محافظة على طابعها القبلى الذى يتميز بالاعتزاز بالتراث والتقاليد ، والتشبث بكيان القبيلة ، وحمايته من التفكك وحماية أسرارها التى تفصله أو تميزه عن غيره من كيان قبيلة أو مجتمع آخر .

فهذه القبيلة يمكن أن نتصور أنها حتى لو انتقلت إلى بيئة مختلفة ،

(١) انظر أغاني الأصمعي ٧٥/٣ وهى سلمى التى احتال اليهود بستيهم عروة الخمر حتى رهنها وأخذوها .

(٢) انظر خريطة بلاد العرب قبل الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ٩/١ .

(٣) المصدر السابق .

أو مجتمع مغاير ، تظل محافظة على طابعها ، طالما ظلت محافظة على كيانها كقبيلة أو على الأقل يكون تأثير البيئة الجديدة في لغتها بطيئا شديد البطء ، لا يقاس بالسنين ، وإنما يقاس بالقرون .

وتطبيق ذلك أننا يمكن أن نتصور أن قبيلة كهذيل كونت لهجتها في بيئة تقتضي أن تكون لهجتها كذلك ثم ظلت بطابعها القبل تحافظ على هذه اللهجة ، مهما جاورت من لهجات مختلفة ، ومهما تنقلت في بيئات تختلف عن بيئتها التي كونت لهجتها الأولى ، وإذا صح هذا يمكن أن نعلل به اختلاف اللهجة عما تقتضيه البيئة ، بأن هذه اللهجة تكونت في بيئة أخرى ثم انتقلت الى هذا المكان ، أعنى انتقلت القبيلة صاحبة هذه اللهجة الى هذا المكان ، ويؤيد هذا ما هو معروف عن طبيعة التنقل في القبائل العربية وما يتحدث المؤرخون به كثيرا من تنقل قبائلهم بين أماكن كثيرة (١) ، ومن أمثلة هذا ما نراه حتى اليوم في النصف الجنوبي من صعيد مصر ، حيث كثيرا ما نجد منطقتين ، أو قريتين متقاربتين في المكان ، بل أحيانا متلاصقتين ، ومع ذلك فلكل منهما لهجة خاصة متميزة عن الأخرى ، وحين نبحث لا نجد في ظروفهما كلياً أى اختلاف جغرافى أو ثقافى أو اجتماعى ، إلا شيئا واحداً هو احتفاظ كل منهما بجوانب من الطابع القبل ، يتمثل أبرزها فى الاعتزاز بالنسب التاريخى الذى تنتمى إليه هذه المنطقة أو القرية ، والعصبية الجماعية ، التى تجعل من المنطقة أو القرية قوة مترابطة ضد المناطق أو القرى الأخرى . واعتقد ان هذا أيضا شائع فى أرياف الأقطار العربية وبواديها .

وأما عن الأمر الثانى ، وهو اختلاف طابع الألفاظ فى شعر صعاليك الجاهلية ، عنه فى شعر صعاليك الاسلام ، فنقول ان مما يميز شعر صعاليك الجاهلية فى جملته شيوع الألفاظ الصعبة الغريبة فيه ، مما يجعل له مستوى مختلفا عن شعر صعاليك الاسلام فى هذه الناحية ، حيث نجد شعر الأخيرين تغلب عليه السهولة والالف فى الفاظه ، وهذا أمر واضح لدارس شعر المجموعتين . بل الغريب اننا نجد فارقا بينا فى شعر المخضرمين أنفسهم ، بين ما قالوه فى الجاهلية وما قالوه فى الاسلام ، وأوضح ما يكون ذلك فى شعر أبى خراش الهذلى ، حيث نجد شعره الجاهلى يتسم بغرابة الألفاظ وصعوبتها بينما نرى شعره الاسلامى يجتج بقوة نحو السهولة والالف ، متخليا عن كثير من طابعه الجاهلى فى الغرابة ، ولننظر مثلا الى قوله فى الاسلام :

فليس كعهده الداريا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقاتل سوى الحق شينا فاستراح العواذل (٢)

(١) انظر تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ٨/١ نقلا عن مراجع أخرى .

(٢) الكامل للمبرد ٢٦٧/١ ويعنى بالسلاسل تقييد الاسلام لسلوكه واعماله .

وقوله فى الاسلام أيضا حين هاجر ابنه خراش غازيا فى خلافة عمر
ابن الخطاب ، يعبر فى شعره عن وحدته بعد خراش وشوقه اليه :

الا من مبلغ عنى خراشا وقد يأتيك بالنبا البعيد
وقد يأتيك بالأخبار من لا تجهز بالحذاء ولا تزيد (١)
يناديه ليغيقه كليب ولا يأتى لقد سقه الوليد (٢)
فرد اناء لا شئ فيه كأن دموع عينيه الفريد
وابناتا أخرى من طرازها •

ثم ننظر الى ألفاظه فى الجاهلية فنجد فيها طابعا من الغرابة والصعوبة
يختلف عن طابع ألفاظه الإسلامية اختلافا واضحا فمن ذلك قوله يصف صورة
من عدوه وفراره من مطارديه :

فعديت شيئا والدريس كأنما يزعزعه ورد من الموم مردم
تذكر ما أين المفر واننى بغرز الذى ينجم من الموت معصم (٣)
وقوله من وصفه لليلة باردة ممطرة اضطر فيها الى قطع أشواط واسعة فى
وديان فسيحة جاد النشاط والعزيمة ليدرك ثارا ويشرف على غنيمة :

وليلة دجن من جمادى سريتها اذا ما استهلته وهى ساجية تهمل
وشوط فضاح قد شهدت مشايحا لأدرك ذحلا أو أشيف على غنم (٤)

ومن الواضح فى شعر أبى خراش ان ما قاله فى وصف حياة الصعلكة
أصغره ألفاظا ، وأبعده عن السهولة واليسر فى فهمنا له ، ولكن ما قاله فى
الجاهلية كله ، حتى شعره فى الأغراض الاجتماعية كالرثاء ، يختلف أيضا
اختلافا بينا من حيث صعوبة الألفاظ عن شعره فى الاسلام •

وإذا كان شعر الشخص الواحد قد تأثر بالاسلام فى ألفاظه وتعبيره اللغوى
فاولى أن يكون هذا الفرق أوضح بالنسبة للذين عاشوا حياتهم كلها فى الجاهلية
والذين عاشوا حياتهم كلها فى الاسلام ، أعنى فى المقارنة بين ألفاظ شعر
كل منهما •

(١) إشارة الى قول طرفة بن العبد : ستيدي لك الأيام ما كنت جاهلا • • ويأتيك بالأخبار
من لم تزود •

(٢) كليب عبد أبى خراش ويغيقه يسقيه اللبن أول الليل • ديوان الهذليين ١٧٠/٢ •
١٧١ والفريد يعنى اللؤلؤ وفى الأغاني ٦٨/٢١ أن عمر حينئذ أمر برد ابنه والا يغزو وحيد
الأبوين الشبخين الا بعد اذتهما •

(٣) ديوان الهذليين ١٤٤/٢ والدريس الثوب البالى والموم الحمى والمردم الملازم والبيت
الثانى يعنى عدوت مفكرا فى طريقة للهروب متشبها بوسيلة الهرب والفرار •

(٤) المصدر السابق ١٣٠/٢ •

والواقع ان هذا الفارق اللغوى بارز فى المقارنه بين أدب الجاهلية وأدب الاسلام عامة ، ولا نستطيع أن نحصر تعليله فى سبب واحد فرعى ، وإن كانت كل العلل متصله بالاسلام نفسه واهمها القرآن الكريم ، وبالأثار التى ترتبت على الاسلام من كثرة الاختلاط والتداخل بين أصحاب اللهجات المختلفه ، ومن ظهور لهجة قريش بظهور قريش نفسها فى مقام التوجيه والقودة ولكن مهما تعددت الأسباب فأننا نعتقد ان السبب الرئيس هو ما أشرنا اليه أنفا ، وهو الكيان القبلى الذى نعتقد أن تفككه أو ضعفه أو تأثره بأى عامل هو فى مقدمة أسباب تأثر لهجة القبيلة أو تحولها ، كما انه يمكن أن نقول ان التأثير الكبير الذى أحدثه الاسلام فى اللهجات العربية ، من حيث تقارب لهجات كثير من أبنائها ، وانطوائها فى لهجة متقاربة تدور حول لهجة قريش ، كان من أهم أسبابه قدرة الاسلام على التأثير الكبير فى الكيان القبلى للقبائل ، حيث صرف معظم أبناء القبائل عن الانزواء فى الكيان القبلى والاعتزاز به وحده ، الى مجتمع أرحب ، هو مجتمع المسلمين عامة ، والى اعتزاز أسمى هو الاعتزاز بالامام من حيث هو دين ، وبالأمة العربية الاسلامية من حيث هى أمة ، وكان لهذا التغيير آثاره البعيدة المدى ، ومن بين هذا التغيير ، ضعف اعتزاز الفرد بلهجة قبيلته ، وإيثاره لهجة الدين الذى يعتنقه والتبى تتمثل فى لهجة القرآن الكريم ، وإيثاره لهجة الأمة التى استبدلها بكثير من اعتزازه القبلى والتبى تتمثل فى لهجة قريش مركز قيادة الأمة الدينى والسياسى .

على اننا فى مقام الحديث عن الألفاظ ، نود أن نشير الى ملاحظة لا تخفى على الدارس لشعر الصعاليك ، وبخاصة الجاهلى ، وهى اننا حين نتتبع شعر كل شاعر منهم ، نشعر ان هناك فارقا وإن كان يتفاوت قوة وضعفا بين شعرهم فى حياة الصعلكة ، أعنى الشعر الذى قالوه فى مجال الصعلكة ، وهو ما سميناه شعر الصراع ، وشعرهم الاجتماعى ، حيث نجد ألفاظ الشعاع فى مجال الصعلكة ، أقرب الى الصعوبة والغرابية ، بينما نجد ألفاظه فى الشعر الاجتماعى لها طابع آخر أقرب الى السهولة والالف ، وكأنه يصور بذلك نفسيته وحياته فى جملتهما فى المجالين ، وأوضح ما يكون ذلك فى شعر الهذليين ، والشنفرى كما نرى فى شعر كل من صخر الفى وأبى خراش فى ديوان الهذليين .

خصائص شعر الإسلاميين

١ - العكوس

ونعنى أيضا فى هذه الخصائص مقابلة شعر الصعاليك الاسلاميين بشعر صعاليك الجاهلية . ومن الواضح ان من هذه الخصائص عكوس الخصائص السابقة

فى شعر صعلاليك الجاهلية ، والتى قلنا انه يتميز فيها عن شعر الاسلاميين منهم ، وأبرز هذه العكوس ما يتعلق بالألفاظ ، وما يتعلق بالتصوير ، فنجد فى الألفاظ فارقا كبيرا ، حيث يغلب على شعر الاسلاميين سهولة الألفاظ والفها ، بينما يغلب على شعر الجاهليين صعوبة الألفاظ وغرابتها ، ولكننا لانفعل هنا فارقا ملحوظا فى شعرهم ، وهو عدم التفاوت البين فى شعر الاسلاميين . فقد قلنا ان شعر صعلاليك الجاهلية متفاوت المستوى من حيث الألفاظ ، فنجد فيه شعرا سهل الألفاظ ميسور الدلالة ، كشعر عروة بن الورد ، بينما نجد آخر صعبا غريب الألفاظ كشعر الهذليين ، ولكن شعر صعلاليك الاسلام لا نجد فيه هذا التفاوت البين ، بمعنى انه وان كان فيه شيء من تفاوت كشأن التفاوت بين شاعر وشاعر دائما ، الا انه تفاوت غير كبير ، ولا يمثل طابعا معيناً ، بل يمكن أن يقال عن شعرهم كله انه يتسم بالسهولة والوضوح ، بالنسبة لشعر صعلاليك الجاهلية .

ومن هذه العكوس أيضا ما يتعلق بالتصوير ، فقد قلنا ان شعر صعلاليك اجاهلية يتميز بشيوع الصور الفنية فيه . بمعنى اننا نجد فيه طابعا يمثل صورا كاملة عن صاحبه ونفسيته ، أو عن مشاهد الطبيعة ومخلوقاتا ، أو غير ذلك ولكن شعر الاسلاميين من الصعلاليك عكس ذلك ، لا يشيع فيه التصوير وانما يعتمد على المعانى المفردة المتلاحقة ، التى لا ترسم صورا ولوحات فنية وانما يكتفى فيها غالبا بالمعانى المجردة المرسله ، ولذلك قلنا ان شعر الصعلاليك فى الجاهلية انفرد فيما انفرد به عن شعر الاسلاميين بشعر الطبيعة ، وقلنا اننا لا نعنى بشعر الطبيعة مجرد ذكر الجبال أو الصحراء أو الأمطار أو غير ذلك ، فذلك لا يخلو منه عادة شعر عربى قديم ، وانما نعنى بشعر الطبيعة الشعر الذى يرسم صورا متكاملة لمشاهد الطبيعة ومخلوقاتا ، ويجعلنا نشعر كأننا نعيش مع هذه اللوحات فننظر اليها ، أو كما يروى ابن رشيق يقلب السمع بصرا (١) . فهذه الميزة بادية فى شعر الصعلاليك الجاهليين ، وخاصة شعر الهذليين والسنفرى ولكن شعر الاسلاميين لا يحمل هذه الميزة بل يندر أن نجد لها فى شعرهم أثرا ، وانما يعتمد دائما على المعانى المجردة ونعنى بالاسلاميين فى هذا الحديب الذين نشأوا فى الاسلام أما المخضرمون ، فاننا نجد فى بعض شعرهم الاسلامى بقية من روح التصوير ، كالصور التى جاءت فى لامية عبدة بن الطبيب التى قالها بعد القادسية مصورا فيها رحلة بدوية بمطاباها ، وصائديها وبخاصة صورة الثور الذى صادوه ثم طبعوه ثم قاموا بعد الأكل الى خيل جعلوا من أعرافها مناديل لأيديهم وما علق بها من آثار الأكل (٢) ، ولكننا باستثناء الآثار التى أدخلها الاسلام فى شعر الصعلاليك

(١) انظر الصلة لابن رشيق ٢/٢٩٤ .

(٢) انظر المفضليات ص ١٣٤ - ١٤٥ .

من حيث الروح والألفاظ والموضوعات نرى أن شعر المخضرمين من الصعاليك امتداد لشعرهم في الجاهلية أو بمعنى أوضح نرى شعر المخضرمين من الصعاليك في الإسلام من حيث الصلصلة امتدادا لشعرهم الجاهلي ومنطويا في الحكم العام عليه ، لأن شعرهم الاسلامي يحمل كثيرا من روحهم وذكريات حياتهم في الصلصلة ، لا على انها ذكريات يتمسكون أو يعتزون بها ، وانما لأن نفوسهم انطبعت بصورها واتجاهها الشعري في أغلب انتاجها الاسلامي ، وان كنا نكرر ما قلناه في يد الحديث عن شعر الصعاليك من ان الروايات لم تكن واضحة في تحديد الشعر الذي قاله المخضرمون في الجاهلية ، والذي قالوه في الاسلام .

ومن هذه العكوس أيضا الجوع ، فبينما نجد شعر الجوع واضحا في أشعار صعاليك الجاهلية كما قال الشنفرى « أديم مطال الجوع حتى أميته » (١) وكما قال أبو خراش « وأنى لأتوى الجوع حتى يملنى » (٢) وكما قال السليك « اذا قمت تغشاني ظلال فأسدف » (٣) بينما نجد مثل ذلك في شعر الجاهليين من الصعاليك ، لا نجد مثله في شعر الاسلاميين منهم بل لا نجد الجوع نفسه موضوعا لحديثهم وان كانوا قد شاركوا الجاهليين في الحديث عن الفقر .

ومن الفوارق أيضا الروح التي يكتسبها شعر كل منهما ، حيث نجد الظروف المحيطة - بالجاهليين منعكسة في شعرهم كما نجد ظروف الاسلاميين وخاصة شدة مطاردة التشريع والولاية لهم ، وشعورهم بالانكار على سلوكهم ونحو ذلك من آثار الاسلام منعكسا في روح شعرهم ، وان لم نستطع تحديد موضعه دائما ، ومثاله أشعار عبيد بن أيوب في الحوف الشديد .

٢ - انفراده ببعض الموضوعات

وكما انفرد شعر صعاليك الجاهلية عن شعر صعاليك الاسلام ببعض الموضوعات ، كذلك انفرد شعر صعاليك الاسلام ببعض الموضوعات عن شعر زملائهم الذين سبقوا الاسلام .

واذا كنا في معظم ما سبق اعتبرنا الشعر الاسلامي للمخضرمين امتدادا لجاهليتهم ، ففي هذا الموضع بالذات ، نعتبر شعر المخضرمين - بالنسبة للموضوعات الآتية - من الشعر الاسلامي وليس امتدادا لشعرهم الجاهلي - لأن الموضوعات الآتية - كما سنرى - من الآثار المباشرة للإسلام بصفته ديناً وتشريعاً ، ونحن قلنا ان شعر المخضرمين انما يعتبر امتدادا لشعرهم الجاهلي

(١) من اللامية .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ .

(٣) مجمع الأمثال ١١/٢ وأسدف أدخل في السدلة وهي الظلام .

إذا كان متعلقا بالصعلكة ، واستثنينا صراحة ما كان أثرا من آثار الاسلام
المباشرة .

وأهم هذه الموضوعات التي انفرد بها شعر صعاليك الاسلام عن صعاليك
الجاهلية ما يأتي :

١ - الشعور بالذنب :

ومن الواضح أن الشعور بالذنب غير الشعور بالمطاردة الذي تحدثنا عنه
فيما سبق من الموضوعات ، لأن شعور المطاردة معنى عام عانى منه الصعاليك
نتيجة لأن سلوكهم بطبعه عدواني ، ومن شأنه أن يخلق لهم أعداء كثيرين
من الذين يتوقعون أو يخشون هذا السلوك ، ومن الذين أصابهم فعلا هذا
السلوك ، ولكن الشعور بالذنب احساس روحي ديني ، كان نتيجة لمخالطة
الدين الاسلامي نفوس بعض الصعاليك ، وتذوقهم لذة الايمان بالله ، وتأثرهم
بالتشريع وحكمته .

ولكننا قلنا عند الحديث عن صراعهم مع السلطة ، انه نتيجة لكون
الصعلكة متعلقة بأرزاقهم ، وكونها المصدر الأساسي لمعيشتهم ، فلم يكن تقبل
نفوسهم للتوبة عميقا ، وهذا لا ينفي أو لا يتعارض مع اسلامهم ، فمن اليسير
أن نتصور انهم أسلموا ، كما ورد في أخبار الذين تحدثنا عنهم من المخضرمين
ولكنهم مع اسلامهم صارعوا في نفوسهم حنيننا ولو خفيا الى الصعلكة التي
أفتنوا حياتهم في مزاولتها والتعود على حياتها ، بالإضافة الى سبب مهم ، هو
كونها مصدر معيشتهم ، ولكن هذا الصراع نفسه دليل على احساسهم بالذنب
وقد صوروا هذا الاحساس في شعرهم عن التوبة ، كما سبق في موضوع
صراعهم مع السلطة مما نكتفي بالعودة اليه ، دون حاجة الى التمثيل (١) .

فصعاليك الاسلام اذن شاركوا صعاليك الجاهلية في الشعور بالمطاردة ،
ولكنهم تميزوا عنهم بالشعور بالذنب .

ومن حق السائل أن يسأل : فلماذا لم يبد شعراء صعاليك الجاهلية
احساسا بالذنب ، والصعلكة سلوك اجرامي بطبعه سواء في الجاهلية أو الاسلام؟
ويمكن أن نجيب عن ذلك بأن أساليب الصعلكة أصبحت في الجاهلية جزءا من
الحياة الاجتماعية للقبائل التي كانت حياتها صراعا متبادلا طاحنا ، لا تنقطع
فيه الغزوات والغارات وأساليب التربص ، حتى أصبحت أساليب الصعلكة
شائعة يزاولها كثير من الأفراد والعصابات من غير الصعاليك كما قلنا في مطلع

(١) انظر فصل صراع السلطة من هذا البحث .

البحث ، وحتى أصبح الفارق بين الصعاليك وغيرهم فى هذا ، ان الصعاليك يحترفون هذا السلوك ويتفرغون له ، بينما غيرهم يزاوله فى بعض الظروف أو تختلط فيه هدف الصعلكة بأهداف عصبية وقبلية كالتأثر والانتقام و اظهار الباس ، وان كانت أهداف الصعلكة وهى المغنم دائما فى صلب الأهداف ، فالصعلكة فى الجاهلية اذن كانت جزءا من حياة اجتماعية غير قديمة ، وكونها جزءا من حياة اجتماعية ، ينزع منها الصفة الخلقية التى تشعر صاحبها وتشعر غيره بأن الخروج على المقتضى الخلقى فيها أمر معيب يشعر صاحبها بالذنب ، ويحمل غيره على توجيه تهمة الذنب والسوء اليه ، ولذلك نرى الجاهليين يعيبون أمورا كثيرة ، ويحملون على أصحابها فى نقد من وهجاء موجه ، كالبلخل ونكت الجوار ، وخلف الوعد وغير ذلك مما نرى نقده فى أشعارهم وأخبارهم ، وكما نرى فى انكار الصعاليك أنفسهم لهذه المعايير ، مثل هجاء أبى خراش لغاسل ابن قمينة حين غدر بجاره الحنظلى (١) ، ومثل ما نجده كثيرا فى شعر الصعاليك من تمسكهم بالفضائل ، ونعيهم على الخارجين عليها (٢) ، وفى حين نجد الجاهليين بما فيهم الصعاليك ينعون على أمور كثيرة ويعيبونها ، لا نجد هذا النعى موجها الى الصعلكة فلسنا نجد فى شعر صعاليك الجاهلية احساسا قط بالذنب نحو الصعلكة ، ولسنا نعلم أن نديا من نوادى الجاهلية التى أقاموها فى مكة ، وفى أسواقهم العامة ، قد أنكر الصعلكة أو دعا الى محاربتها ، كما اننا لا نعلم أنه ورد فى شعر الجاهليين قط شيء من ذلك ، فليس بغريب اذن ألا يشعر صعاليك الجاهلية بالذنب نحو الصعلكة ، لأنها لم تكن حينذاك ذنبا بالمعنى الذى نفهمه من الذنب .

أما صعاليك الاسلام فقد ووجهوا بعكس ذلك ، ووجهوا بالدين يوضح لهم أن الصعلكة جريمة نكراء ذات عقوبات صارمة (٣) ، ووجهوا بالمجتمع يعلن لهم استنكاره أيضا ، فكان حينئذ احساسهم بالذنب ، وتمثل هذا الاحساس فى شعرهم عن التوبة ، وتمثل أيضا فى خوف شديد تجاوزوا فيه الخوف المألوف فى حياة الصعاليك ، ويتضح هذا الخوف الشديد فى شعر عبيد بن أيوب (٤) الذى بلغ به حد الوهم .

ب - صراع الولاة والسجن :

تحدثنا فيما سبق عن صراع الصعاليك الاسلاميين مع الولاة والسجن (٥)

(١) انظر ديوان الهذليين ١٦٤/٢ .

(٢) انظر فصل الخلق الاجتماعى فى شعر الصعاليك من هذا البحث (بالهرس) .

(٣) انظر الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المائدة .

(٤) انظر الحيوان ١٦٥/٦ ، ٢٣٥ .

(٥) انظر فصل صراع السلطة من هذا البحث (بالهرس) .

ونود أن نقول أيضا أن هذا الصراع بدأ منذ استقرار سلطة الاسلام ، ولذلك نجد بعض المخضرمين كجعفر بن عليه يتعرض لهذا الصراع (١) وبعض الصعاليك تعرض لمطاردة الخلفاء كما سبق في مطاردة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لتشبيب بن عمرو (٢) وكما في أخبار عبيد الله بن الحر مع عمال علي ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان (٣) ثم تتابع أخبارهم مع الولاة والسجون كما تحدثنا في صراعهم مع السلطة ، مصورين هذا الصراع في شعرهم . على أن أهم ما نتج عن احساسهم الذنب ، ومطاردة الولاة ، فقدان صعاليك الاسلام لجانب غير يسير من العزة الذاتية ، فحين نقارن بين شعرهم وشعر صعاليك الجاهلية نحس أن هناك فارقا مهما في روح كل منهما ، فبينما نحس في شعر الجاهليين روح الاعتزاز بالنفس مثلا في الاعتزاز بالصعلكة نفسها ، نجد شعر الاسلاميين منهم ، وإن كان لا يفقد روح العزة الفردية ، إلا أن هذه الروح تختلف اختلافا واضحا في درجة الاعتزاز بالنفس ، حيث تضعف درجة الاعتزاز في شعر الاسلاميين ، وتختلف هذه الروح اختلافا أوضح في الاعتزاز بالصعلكة ، حيث نرى الجاهليين على كثرة ما يتحدثون عما يعانونه فيها ، يرتفعون في الاعتزاز بها إلى أقصى ما يستطيعون ، بل يتخذون مما يعانونه فيها عنوانا للعزة والاباء ، كما يقول الشنفرى تعقيبا على معاناته الجوع الشديد .

واستف ترب الأرض كي لا يرى له على من الطول امرؤ متطول (٤)

وكما يقول أبو خراش بعد قوله « واني لأثوى الجوع حتى يملنى فيذهب ،

مغافة أن احيا يرغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٥)

فبينما نجد الشنفرى وأبا خراش يريان في جوعهما عزة يحرصان عليها،

نجد مالك بن الربيع الاسلامي يقول للأمير الذي قال له : فان أنا أغنيتك ، فهل تكف عما أنت فيه ، يقول له مالك « نعم ، أكف كأحسن ما كف أحد » (٦) غير معتر بالصعلكة ولا متمسك بها ، وكما فعل بكر بن النطاح وأبو الطمحان القينى في ركونهما إلى السادة والأمراء معرضين عن الصعلكة ، في غير توبة عنها ، ولكن التماسا لحياة أيسر وعيش أرغد (٧) .

(١) انظر خزائن البغدادي ٤٦/٢ الشاهد ١١٥ .

(٢) انظر حماسة أبي تمام ٢٥٢/١ .

(٣) انظر خزائن البغدادي ١٩/٢ - ٢٢ .

(٤) من اللامية : سبق نصها (بالفهرس)

(٥) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ .

(٦) أمال القالي ١٣٦/٣ .

(٧) انظر مراجع ترجمتهما وأخبارهما فيما سبق (باب الشعراء الصعاليك) .

● أهم المراجع ●

وهناك عدد غير قليل مع المراجع أشرت الى بعضه في المقدمة رأيت
ألا أذكره في هذه القائمة مع اننى استشهدت منه خلال البحث لأن اعتماد
البحث عليه لم يكن قويا ، وقد اكتفيت بالإشارة اليه في موضع الاستشهاد
بالحامش .

وأشير الى أن بعض المراجع قد نقلت عنه من نسختين في طبعتين مختلفتين
أثبت احدهما في القائمة ، والأخرى في موضع الاستشهاد بها في الحامش ،
على أن بعض المراجع ليست لها الا طبعة واحدة لم أر ما يدعو الى تحديد طابعها
أو نشرها

١ - الأمل لآبى على القالى (مطبعة السعادة)

٢ - الأغاني للأصفهاني (مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٨)

٣ - أعجب العجب في شرح لامية
العرب للزمخشري (مطبعة دار المعارف)

٤ - الأصمعيات للأصمعي

٥ - أسس النقد الأدبي عند العرب
للدكتور أحمد بنوى

٦ - الأسس الفنية للنقد الأدبي
للدكتور عبد الحميد يونس

٧ - آراء واتجاهات للدكتور محمد
نايل

٨ - البيان والتبيين للجاحظ

٩ - تاريخ الأدب العربي لكارل
بروكلمان (ترجمة الأستاذ
الدكتور النجار)

١٠ - تاريخ الاسلام للدكتور حسن
ابراهيم (الطبعة السابعة)

١١ - تاريخ الامم والملوك للطبرى (مطبعة الاستقامة)

- ١٢ - تاج اللغة وصحاح العربية
للجوهرى
- ١٣ - التنبيه على أوهام القائل للبكرى
- ١٤ - تفسير الكشاف للزمخشري
- ١٥ - جوهرة أشعار العرب للقرشى
- ١٦ - الحيوان للجاحظ
- ١٧ - حديث الأربعة للدكتور طه حسين
- ١٨ - الحياة العربية من الشعر الجاهلى
للدكتور الحوفى
- ١٩ - ديوان الهذليين للسكرى
- ٢٠ - خزنة الأدب للبغدادى
- ٢١ - ديوان الحماسة لأبى تمام
- ٢٢ - ديوان عروة بن الورد
- ٢٣ - ديوان الشنفرى
- ٢٤ - دائرة معارف البستانى
- ٢٥ - دائرة معارف القرن العشرين
- ٢٦ - رسائل الجاحظ للجاحظ
- ٢٧ - السلطة فى المجتمع للدكتور
عبد العزيز عزت
- ٢٨ - شرح التبريزى لحماسة أبى تمام
- ٢٩ - شرح ابن الأنبارى للمفضليات
- ٣٠ - شرح ابن السكيت لديوان عروه
ابن الورد
- ٣١ - الشعر والشعراء لابن قتيبة
- ٣٢ - شرح ديوان الهذليين للسكرى
- ٣٣ - شرح القصائد السبع الطوال
الجاهليات لابن الأنبارى
- ٣٤ - الشعراء الصعاليك للدكتور
يوسف خليف
- ٣٥ - الشوامخ للدكتور محمد
صبرى
- (مطبعة السعادة)
- (مطبعة الاستقامة)
- (مطبعة بولاق الأميرية)
- (مطبعة الحلبي)
- (مطبعة نهضة مصر)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)
- (مطبعة دار العصور)
- (مطبعة الوهيبية سنة ١٢٩٣ هـ)
- (مطبعة السعادة)
- (مخطوط بدار الكتب المصرية)
- (مطبعة الخانكي)
- (تحقيق محمد سعيد الراجعى)
- (مطبعة دار المعارف)
- (المطبعة الوهيبية سنة ١٢٤٣ هـ)
- (مطبعة الحلبي)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)
- (مطبعة دار المعارف)

- ٣٦ - الصراع الأدبي بين العرب والعجم
للدكتور محمد نبيه حجاب
- ٣٧ - العقد الفريد لابن عبد ربه
- ٣٨ - العمدة لابن رشيق
- ٣٩ - العالم غير المنظور للدكتور على
عبد الجليل راضى
- ٤٠ - الغيث المسجم فى شرح لامية
العجم لابن أبيك
- ٤١ - فى الأدب والنقد للدكتور
محمد مندور
- ٤٢ - القاموس المحيط للفيروز ابادى
- ٤٣ - الكامل للمبرد
- ٤٤ - لسان العرب لابن منظور
- ٤٥ - مجالس ثعلب لأبى العباس ثعلب
- ٤٦ - مصادر الشعر الجاهلى للدكتور
ناصر الدين الأسد
- ٤٧ - الفضليات للضبى
- ٤٨ - مقدمة ابن خلدون
- ٤٩ - معاهد التنصيص للعباسى
- ٥٠ - معجم ما استعجم للبكرى
- ٥١ - مجمع الأمثال للميدانى
- ٥٢ - مهذب الأغاني للخضرى
- ٥٣ - نهاية الأرب فى فنون الأدب
للنويزى
- (المكتبة) (الثقافية ٩٢)
- (المطبعة الأزهرية)
- (مطبعة السعادة)
- (مطبعة دار الفكر العربى)
- (مطبعة لجنة التأليف والنشر)
- (مطبعة الاستقامة)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة لجنة التأليف والنشر)
- (مطبعة السنة المحمدية)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)

فهرس

٥	تقديم
١٥	الباب الأول
١٥	(الصعلكة)
١٧	الصعلكة في اللغة
٢٠	الصعلكة والفاظ أخرى
٢٦	الصعلكة في العرف العربي
٣٣	مفهوم الصعلكة
٣٦	من الصعلوك ؟
٣٩	نشأة الصعلكة
٣٩	أسبابها
٤٢	عدم وجود دولة
٥٣	زعامات غير متزنة
٥٥	عدم التوازن بين الفقر والغنى
٦٣	طبيعة الأرض والحياة
٦٣	الأرض
٦٧	الحياة
٧٢	عوامل أخرى
٧٢	عوامل فردية
٧٧	الوراثة
٨١	الاستعداد والشذوذ
٨٥	(الصعلكة في الجاهلية)

٨٥	(الصعلكة والمجتمع)
٩٠	أساليب الصعلكة
٩٤	(الصعلكة في الاسلام)
١٠٧	(الباب الثاني)
١٠٧	الشعراء الصعاليك
	الجاهليون
١١٢	الشنفرى
١١٣	تأبط شرا
١١٤	السليك بن السلكه
١١٥	عروة بن الورد
١١٦	قيس بن منفذ السلولى
١١٦	مالك بن حريم الهمدانى
١١٧	صخر الفى الهذلى
١١٨	عمرو بن براقه الهمدانى
١١٩	الأعلم الهذلى
١١٩	عمرو بن عجلان
١٢٠	حاجز بن عوف الأزدي
	(المخضرمون)
١٢١	عبدة بن الطيب
١٢٣	أبو خراش الهذلى
١٢٤	فضالة بن شريك الأسدى
١٢٥	ابو الطمحان القينى
	(الاسلاميون)
١٢٦	مالك بن الربيع
١٢٧	بكر بن النطاح
١٢٨	عبيد بن ايوب العنبرى
١٣٠	عبيد الله بن الحر الجعفى
١٣١	الأحمر السعدى
١٣٢	يزيد بن الصقيل العقيل
١٣٢	أبو النشاش النهشل

١٣٣	سعد بن ناشب المازني
١٣٤	توبة بن الحمير
١٣٥	عبد الله بن سيرة الحرشي
١٣٥	شبيب بن عمرو بن كريب
١٣٦	فرغان بن الأعراف المري
١٣٧	جحدر بن معاوية العكلي
١٣٨	الجرفنس اللص
	(الباب الثالث)
١٤١	شعر الصعاليك
١٤٣	مصادره
١٤٧	روايته
١٤٨	الاختلاف في الألفاظ
١٥٥	الاختلاف في نسبة الشعر
١٦١	لامية العرب
١٧٨	(منهج شعرهم وموضوعاته)
١٨٤	صراع الضياع
١٨٥	الفقر وآثاره
١٨٥	الفقر
١٩٠	آثار الفقر
١٩٠	الجوع
١٩٣	رنحول الجسم
١٩٦	صراع الهوان في المجتمع
٢٠٣	(صراع المهنة)
٢١٣	أسلحة الصعلكة
	الأسلحة المنظورة
٢١٥	أسلحة القتال
٢١٦	السيف
٢٢٢	السهم
٢٢٦	القوس
٢٢٨	الرمح

٢٣٠	الدرع والترس
٢٣٢	العدو
٢٤١	الأماكن
٢٤٨	المطايا
٢٥٠	الخيل
٢٥٤	الإبل
٢٥٧	الأسلحة غير المنظورة
٢٥٩	قوة الإرادة
٢٦٢	الصبر
٢٦٤	الجرأة
٢٦٧	الاستهانة بالموت
٢٧٣	الحذر واليقظة
٢٧٧	الحيلة
٢٨٢	(صراع النتائج)
٢٨٣	للشعور بالمطاردة
٢٩١	صراع المصير
٢٩٧	الوحوش
٣٠٤	الوهم
٣١٠	صراع السلطة
٣١١	السلطة التشريعية
٣١٣	السلطة التنفيذية
٣١٥	السجن
٣١٧	الشعر الاجتماعي
٣١٨	الأغراض التقليدية
٣١٩	الفخر
٣٢٠	الاعتزاز بالقبيلة
٣٢١	المدح
٣٢٥	الهجاء
٣٢٧	الثناء
٣٢٩	الغزل

.....	(الخلق الاجتماعي للصعاليك)
٣٣٤	الصلة الشخصية
٣٣٧	العفة
٣٤١	الاشتراكية
٣٥٠	الطبيعة
٣٥٩	الخصائص العامة
٣٦٠	تميز روح الشعر
٣٦٢	الخصائص السلبية
٣٦٣	شعر الترف
٣٦٨	الفحش
٣٦٩	الزهو والخيلاء
٣٧١	تمثيل الحياة الشخصية
٣٧٦	الذاتية
٣٧٨	الواقعية
٣٨٣	التجربة والصدق
٣٩٢	الوحدة
٣٠٤	عدم التزام التصريح
٤٠٦	(خصائص الشعر الجاهلي)
٤٠٨	انفراده ببعض الموضوعات
٤٠٨	الجوع - العدو
٤٠٩	الحيلة - الطبيعة
٤٠١	القصص والتصوير
٤١٠	الأسلوب القصصي
٤١٥	التصوير
٤١٧	اختلاف مستوى الألفاظ
٤٢١	(خصائص شعر الاسلاميين)
٤٢١	العكوس
٤٢٣	انفراده ببعض الموضوعات
٤٢٤	الشعور بالذنب
٤٢٥	صراع الولاة والسجن
٤٢٧	أهم المراجع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٤٦٠٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٤٢٦